الترجمة الكاملة

أورهان باموق

جودت بيك وأبناؤه

رواية

ترجمة
عبد القادر عبد اللي

التكوين

علي مولا

مئة كتاب وكتاب هدية ثورة الشباب.. مشروع "ثورة المعرفة للجميع"

منتدى مكتبة الاسكندرية www.alexandra.ahlamontada.com

جودت بيك وأبناؤه

رواية

روايات

أورهان باموق

جودت بيك وأبناؤه

ترجمة عن التركية:
عبد القادر عبد اللي

© جميع الحقوق محفوظة
2007

للتأليف والترجمة والنشر

دمشق - حلبوني
تلفاكس 0112236468 جوال 0944330989
ص.ب: 11418
taakwen@yahoo. com

أورهان باموق
ORHAN PAMUK

جودت بيك وأبناؤه

CEVDEY BEY VE OGULLARI

ترجمة:
عبد القادر عبداللي
Translator:
Abd Ulkadir Abdelli

القسم الأول
الكلمة الأولى

1
صباح

تمتم جواد بيك قائلاً: "كمُّ ثوب النوم، وظهري... والصف كله... والأغطية أيضاً... أف، أف، أف، والفراش كله أيضاً رطب تماماً! نعم كل شيء رطب تماماً، وأنا استيقظت." كان كل شيء رطباً كما رآه قبل قليل في الحلم. انقلب ناخراً في الفراش، وتذكر الحلم، وتوجس خيفة. كان جالساً في الحلم أمام المعلم في مدرسة البنين التي في قولا. رفع رأسه عن المخدة الرطبة، ونهض. قال لنفسه: "نعم، كنا جالسين أمام المعلم. غُمرت المدرسة كلها بالماء حتى الركب. لماذا غُمرت؟" لأن سقف المدرسة كان يدلف. المياه المالحة الدالفة من السقف تسقط على جبهتي وصدري، وتنتشر في الغرفة كلها. والمعلم يشير بعكازه نحوي مخاطباً الصف كله. كان يقول: "كل شيء بسبب جودت هذا." ارتعش عندما تصور كيف يشير المعلم بالعكاز نحوه، وكيف التفت زملاؤه كلهم إليه ناظرين نظرة اتهام واستخفاف، وكيف ينظر أخوه الأكبر إليه باستخفاف أكثر من الجميع. ولكن المعلم الذي يرفع الصف كله فلقة على نفس واحد دون أن يرف له جفن، ويُفقد صبياً وعيه بصفعة واحدة على وجهه لا يستطيع أبداً معاقبته على الدلف من السقف. فكر جودت بيك: "كنت مختلفاً عن الآخرين، ووحيداً، ومهاناً. ولكن أحداً منهم لم يجرؤ على الاقتراب مني ولمسي. والماء

علي مولا

أيضاً يغمر المدرسة كلها!" فوراً تحول الحلم المخيف إلى لحظة فرح وسرور: "كنت مختلفاً، ووحيداً، ولكنهم لا يستطيعون معاقبتي." نهض واقفاً عندما تذكر أنه صعد ذات مرة إلى سقف المدرسة وكسَّر قرميده. "كسرت القرميد. كم كان عمري؟ كنت في السابعة. والآن أنا في السابعة والثلاثين، وخطبت، وسأتزوج قريباً." انفعل عندما تذكر خطيبته. "نعم، سأتزوج قريباً، بعد ذلك... الرحمة، مازلت أضيّع الوقت! تأخرت!" من أجل معرفة الوقت هرع بداية إلى النافذة، ونظر عبر فرجة الستائر إلى الخارج. كان ثمة ضوء وضباب غريبان في الخارج. فهم أن الشمس قد أشرقت. بعد ذلك نظر إلى ساعته غاضباً من عادته القديمة هذه: إنها الثانية عشرة والنصف على التوقيت التركي. هرع إلى المرحاض قائلاً لنفسه: "الرحمة، الرحمة عليّ ألا أتأخر!".

ازداد سروره عندما اغتسل، ونظف نفسه. فكر بالحلم من جديد أثناء الحلاقة. بعد ذلك تذكر أنه سيذهب إلى دار شكرو باشا، فارتدى البنطال والسترة الجديدين والنظيفين، والقميص ذا الياقة المنشاة والمحشوة بالمقوى، وربط ربطة العنق التي وجدها ظريفة. وركز على رأسه الطربوش الذي قولبه قبل حفل الخطوبة. نظر إلى نفسه في مرآة الطاولة الصغيرة، وقرر أن هيئته الآن كما أراد. ولكن حزناً في داخله استيقظ رغم هذا. من المضحك أن ينهمك كل هذا الانهماك بسبب ذهابه إلى دار خطيبته بهذه الأناقة كلها. رفع الستائر شاعراً بذلك الحزن الصغير وغير المضر. غطى الضباب مئذنة جامع شيخ زادة باشي، ولكنه لم يستطع إخفاء قبته. الخيمة التي في الحديقة المجاورة خضراء أكثر من أي وقت آخر. قال في سره: "سيكون يوماً حاراً" ثمة قط تحت الخيمة يلعق نفسه ببطء. مط جودت بيك جذعه من النافذة متذكراً شيئاً ما، ورآه: جاءت أيضاً عربة الخيل المغلقة ذات الأربع عجلات، ووقفت أمام البيت. تلوح الخيول بذيولها، ويدخن الحوذي المنتظر جودت بيك سيجارة عند الباب. وضع جودت بيك علبة التبغ

والقداحة التي تذكرها، ومحفظته، وساعته التي نظر إليها مرة أخرى في جيوبه، وخرج من الغرفة.

قال جودت بيك محاولاً الابتسام: "ليس لدي وقت يا عزيزتي زليخة خانم، سأخرج فوراً!".

قالت العجوز حزينة: "أممكن هذا، أنت لم تتناول أي شيء؟" وهرعت إلى المطبخ عندما لمحت تعبير الحزم على وجه جودت بيك.

نظر جودت بيك من خلف المرأة متضايقاً، ولكنه لم يستطع الخروج. فكر بالتخلص منها بعد الزواج. كان كالابن أمام أمه مع هذه المرأة التي تربطه بها علاقة قرابة بعيدة. أدخل هذه المرأة إلى بيته متوقعاً أن لا تتدخل كثيراً بحياته رغم وجود أقرباء له أكثر قرباً في حي حسكة عندما اشترى هذا البيت قبل تسع سنوات. ومقابل قيام المرأة الفقيرة والمقطوعة بأعمال البيت، وتحضير الطعام، وترتيب البيت، كانت تقيم في الطابق الأول من البيت الصغير الخشبي المؤلف من أربع غرف. وفيما كان جودت بيك ينظر من حيث يقف في هذا الطابق الذي استخدمته كما تريد، ورتبت نفسها فيه، فكر قائلاً لنفسه: "كيف سأقنعها بتركي؟". لا يمكن له أن يأخذها معه بعد الزواج، لأنه ليس لامرأة مثلها مكان في حياته الزوجية التي تصورها. حياة الزوجية التي تصورها تحتم أن تكون العلاقة مع القائمين على أعمال الخدمة علاقة سيد بخادم، وهو يشعر بأن علاقة الأم والابن القائمة هنا لن تنسجم مع تلك الحياة. زليخة خانم على الأغلب تعرف هذا أيضاً، وتتصرف بحرص أكثر، وغيرة لإدراكها بأن جودت بيك سيتزوج قريباً، وينتقل إلى ضفة الخليج الأخرى، ويبيع هذا البيت. خرجت من المطبخ حاملة صحناً، وهرعت إليه راكضة.

"لو أعد لك فنجان قهوة يا بني. الآن فوراً..."

قال جودت بيك: "ليس لدي وقت أبداً. ليس لدي وقت أبداً!". وتناول من الصحن الخبز المدهون بمعقود الكرز الحامض والفرح مثل هذا اليوم الذي

بدأ تواً. ابتسم للمرأة مرة أخرى وهو يشكرها. أثناء خروجه من الباب شعر بأنه ابتسم للمرأة ليس حباً، بل إشفاقاً لأنه مضطر لتركها، وهذا ما أقلقه. ولكي يقول لها شيئاً، عاد، وقال: "ربما أتأخر مساءً." ولكن هذا لم يستطع تخفيف وطأة الحمل الذي على كاهله.

أثناء سيره باتجاه العربة تذكر الحلم: "أنا مختلف، على ما أنا عليه، ولكن أحداً لا يستطيع معاقبتي!" ارتاح قليلاً. ولكن متعته بدت أنها هربت عندما رأى الحوذي. لأن الحوذي مثله مثل كل الحوذيين الآخرين الذين يعرفون حياة الآخرين الخاصة نظر بعينين تقولان: "آه منك، آه. أنا أعرف أين تذهب طوال النهار، وماذا تفعل، وبماذا تفكر!" وابتسم له جودت بيك أيضاً ابتسامة سعيدة، وسأل عن خاطره. قال له إنه سيذهب إلى الدكان في سيركجي، وجلس في العربة، وقضم قطعة الخبز المدهونة بالمعقود.

تحركت العربة بين بيوت حي وفا الخشبية مهتزة. استأجر جودت بيك هذه العربة المغلقة التي تظهره بمظهر أرفع مما هو عليه في هذا الحي مدة ثلاثة أشهر لاعتقاده بأنه سيحتاجها في حفلتي الخطوبة والزواج. وحينما علم أن شكرو باشا قد قبل تزويجه من ابنته قبل شهرين، ذهب إلى إسطبل فريكوي حيث تؤجر عربات مباهية المظهر كهذه، وساوم، واتفق مع حوذيها على ثلاثة أشهر. لم يكن يرغب بالذهاب إلى بيت الفتاة التي خطبها بعربة عادية مستأجرة، ولكن شراء تلك العربة مع نفقات حوذيها وإسطبلها البالغة مبلغاً باهظاً لن يكون مناسباً لحساباته التجارية. أثناء قضمه الخبز بمعقود الكرز الحامض الذي يحبه كثيراً، فكر: "ولكن من الحمق استئجار هذه العربة ثلاثة أشهر أخرى. لأن إيجارها باهظ! ومن الأفضل أن أشتريها بدل دفع إيجارها... ولكنني لن أستطيع تسديد ثمن بعض الأشياء التي سأشتريها من أجل الدكان إن اشتريتها. ماذا يجب أن أفعل؟ يكلفني هذا الزواج كثيراً، ولكن لابد منه..." انتشى فرحاً عندما تذكر الزواج، وحياته الجديدة التي خطط

لتأسيسها منذ سنوات، والبيت الذي سيشتريه، والعائلة التي سيبنيها، وخطيبته التي رأى وجهها مرتين. تذكر بعض الناس الذين يستخفون بمن يستأجرون عربات استعراضية كهذه، ولكنه لم يبال للأمر لأنه سعيد. تناول قضمة ثانية من الخبز بمعقود الكرز الحامض. فكر بينه وبين نفسه: "لو كنت أبالي بأمور كهذه لما صرت تاجراً! ولأن المسلمين يخافون من مثل هذا العمل، ويتهيبون منه فلا أحد منهم يقدم على التجارة... فأنا لا أهتم لأمور كهذه! حسنٌ، إذا طلبت السيدة عربة فماذا سيحدث؟" عندما فكر بخطيبته، وحياته المستقبلية ابتهج من جديد. سُر لأنه قال: "سيدة" عن تلك الفتاة التي رآها مرتين، أي عن نيغان. كان يهتز بشكل خفيف مع العربة التي تهبط المنحدر. تمتم لنفسه قائلاً: "إذا سمحت حسابات الدكان والشركة، فسأشتري عربة يا روحي!" ودس آخر لقمة من الخبز الذي بيده في فمه. بعد ذلك، نظر إلى أصابع يده التي فرغت من الطعام كطفل ينظر حزيناً، فتكدر، وفكر قائلاً لنفسه: "سيجرف هذا الزواج كل ما في اليد على الأغلب".

نزلت العربة منحدر الباب العالي، وانحرفت عبر الأزقة الفرعية. انقشع الضباب، وحل ضوء براق مألوف مكان ذلك الضوء العجيب. كان جودت بيك يتلظى داخل العربة التي سخنتها شمس الصيف منذ الآن. "سيكون يوماً حاراً جداً! ماذا سأفعل اليوم؟ يجب أن أنهي أعمالي في الدكان بسرعة قصوى! علي أن أذهب لرؤية أخي الكبير!" شعر بالضيق عندما تذكر أخاه الأكبر طريح الفراش في بنسيون في منطقة بيه أوغلو. "بعد ذلك، سأتناول الطعام مع فؤاد بيك. جاء من سالونيك... سأذهب إلى دار شكرو باشا في نيشان طاش بعد الظهر!" انفعل لدى شعوره بالأمل برؤية خطيبته للمرة الثالثة. "بعد ذلك سألقي نظرة أخرى على ذلك البيت الذي وجده الدلال." كان قد قرر أن يشتري بيتاً في نيشان طاشٍ أو شيشلي ليسكنه بعد الزواج. "بعد ذلك أعود إلى الدكان. مع الأسف لن أمكث

كثيراً اليوم في الدكان... ما اليوم؟ اثنين!" حسب بأصابعه. قبل ثلاثة أيام ألقوا قنبلة على عبد الحميد عند تسليم الجمعة. وقد تمت خطبته قبل جمعتين من هذا الحادث. فكر قائلاً لنفسه: "خطبت قبل سبعة عشر يوماً!" وقفت العربة أمام الدكان.

عندما رأى الدكان بدأت تتأجج فجأة الحسابات الغافية تماماً في عقله بتأثير اهتزاز العربة وسكرة النوم: "لم تُكتب رسالةُ طلبية الدهان. لمن يمكنني بيع المصابيح التي ظهر أنها خربة؟ إذا لم يدفع إسكينازي دينه اليوم أيضاً سأقول له..." كان يخطو في تلك اللحظة عتبة دكانه: "بسم الله الرحمن الرحيم! أطلب من إسكينازي مائتي ليرة زيادة، وإذا وافق، أؤجل له دينه شهراً آخر..." حيا أحد أجرائه بحركة رأسٍ حادة، وابتسم للآخر النشيط والقنوع الذي يحبه. ثم التفت إلى غير المبالي الذي حياه بحدة، وقال: "اطلب لي قهوتي يا ابني! وهات لي معها فطيرة لأرى!"

خطا خطوات متوترة وسريعة كما يفعل كل صباح ذاهباً نحو الطاولة التي في الخلف، وجلس. نظر إلى يمينه ويساره كأنه يبحث عمن يتهمه. بعد ذلك ارتاح لرؤيته جريدة "*Moniteur D'Orient*" على طاولته. نظر إلى تاريخها باعتياد كل صباح: الاثنين **24 Juillet 1905**، **11** تموز **1321**. بعد ذلك، مر بعينيه على العناوين. عرف آخر التطورات حول القنبلة. قرأ ما كتب حول الحرب الروسية اليابانية، ولكنه لم يهتم بهذا. قلب الصفحة فوراً، وبدأ يلقي نظرة إلى أخبار البورصة. صادف هنا خبراً أو خبرين يثيران اهتمامه. ثم قرأ عدة إعلانات تثير الاهتمام: تاجر الحديد ديمتري يبيع مستودعه؛ يجب أن يكون في وضع صعب. بانايوت الذي يعمل بالكهرباء والخردوات مثله يعرِّف ببضاعته الجديدة. قرر جودت بيك أيضاً أن ينشر إعلاناً، ثم تراجع عن الأمر. عندما قرأ إعلاناً عن بدء فرقة مسرحية عروضها الجديدة في أوديون، تذكر أخاه الأكبر فارتعد. عشيقة أخيه الأكبر المريض جداً فنانة مسرحية أرمنية. أكل جودت بيك الفطيرة

المجلوبة من أجل نسيان أخيه الأكبر، وشرب قهوته، وبدأ بقراءة مقالة ببطء. تأسف لعدم معرفته بعض الكلمات الفرنسية أثناء القراءة مثلما يفعل كلما قرأ هذه الجريدة. تذكر كيف بذل جهده من أجل تعلم اللغة الفرنسية، والنقود التي دفعها للمدرس الخاص، والعائلة التي قرأ عنها مع المدرس الخاص في كتاب تعليم اللغة الفرنسية، وتوقه للعائلة والبيت الشبيه بتلك العائلة الفرنسية الجميلة التي حكى الكتاب عن حياتها اليومية بجمل بسيطة كما يحدث كلما قرأ بالفرنسية. كان من الممتع جداً أن يحيي في عقله هذه الذكريات، ويتخيل تأسيس حياة تشبه حياة تلك العائلة الفرنسية فيما كان يدخن أولى سجائر اليوم. عندما وصل إلى منتصف المقال، استنتج أنه ضيّع وقتاً طويلاً. ترك جانباً جريدة "***Moniteur D'Orient***" التي يقرؤها من أجل تقوية لغته الفرنسية، ويشتريها التجار الآخرون كلهم، وهي تصور الحياة التجارية بشكل جيد، ثم نهض. انتهت الفطيرة، وشُربت القهوة، ودُخنت السيجارة، ومُنحت الجريدة وقتاً. إنه الآن يشعر بالتوتر والقوة والتوازن اللازم من أجل أن يكرس نفسه لأعماله. لم تكن الحسابات التجارية ضعيفة وخامدة كما في دقائق الصباح الأولى، ولا متوهجة كما كانت قبل قليل. كانت الحسابات والهموم مثلما يجب أن تكون في عقل تاجر، تشتعل بهدوء، ولكن كحريق قوي تمت السيطرة عليه. فكر جودت بيك: "نعم، يجب أن يكون أول عمل هو مراجعة هذه الحسابات مع صادق!".

صادق محاسب الشركة شاباً. كان الشاب يصغر جودت بيك بعشر سنوات، ولكنه يبدو الآن بعمره. صعد جودت بيك إلى سقيفة الدكان، وتحدث معه فترة. عرف أن هناك فرقاً صغيراً بين الدخل الذي سيحصل عليه حتى يوم الخميس والديون التي ستدفع حتى ذلك اليوم، فقرر الذهاب لطلب الدين من إسكينازي.

بعد ذلك، نزل إلى وسط طاولات البيع في الأسفل. وتحدث هناك مدة مع الأرناؤوطي المتوسط العمر الذي يعد كبير البائعين. وأشار له إلى طاولة سطحها مغطى بعلب الدهان، والمصابيح، والخرداوات، وقال له إن الزبون يريد دائماً رؤية منصة عرض منظمة وفارغة. ولكن البائع الأرناؤوطي لا يفهمه، ويحاول إثبات أن هذا النظام أكثر تأثيراً. إثر ذلك، انتقل جودت بيك إلى خلف طاولة العرض، ورتب المكان فيما ينظر نظرات مؤنبة للجميع، ولبى طلب زبون ليكون قدوة. ثم عاد إلى طاولته عندما وجد أن حركته المتواضعة قد أثارت الاحترام والخجل لدى العاملين.

عندما جلس إلى طاولته التي تطل على فضاء الدكان، قرر أن يكتب الرسالة المتعلقة بطلب الدهان. كتب الرسالة حتى نصفها باعتياد، وسرعة، وفكر بأن من الصواب ترك هذه الأعمال لكاتب يستأجره بعد الآن. ولكن كاتباً جديداً يعني بابَ نفقات جديدة. فكر: "فوق هذا، أثناء صب كل هذه النفقات على الزواج!" في تلك اللحظة جاء حارس المستودع الذي يبعد مائتي خطوة عن الدكان، وقال إن الحمالين لا يستطيعون بأي شكل إدخال صناديق المصابيح الكبيرة إلى المستودع، ويخشى من كسرهم البضاعة وبعثرتها. نهض جودت بيك متضايقاً. راح وجاء، ونصح بفتح الصناديق واحداً واحداً، وتفريغها. وبما أن المصابيح سترسل بالقطار إلى الأناضول، فإن هذا يُعد أمراً عبثياً جداً. ولكن ليس ثمة طريقة أخرى. بعد أن صرف جودت بيك حارس المستودع أنهى الرسالة، وشعر بوطأة الضيق بالنقود والوقت. فكر بمن سيبيعه المصابيح الخربة. خطر له أن يسأل صديقه التاجر فؤاد الذي يثق بذكائه وصداقته عن هذا الموضوع. بعد ذلك نظر متوتراً إلى ساعته، ورأى أنها تقترب من الثانية والنصف. خرج من الدكان للذهاب إلى إسكينازي.

2

تاجر ومسلم

فور خروجه من الدكان شعر بأنه تجاوز هموم اليوم الأولى، دون أن يبذل مزيداً من الجهد في هذا السبيل، وكل شيء كان في نصابه كما الأمور دائماً، فشعر بالفرح. سار نحو منطقة السلطان أحمد دون أن يظهر نفسه للحوذي المثرثر مع حوذي آخر تحت شجرة. كان دكان إسكينازي على مبعدة ستمائة خطوة. بدأ يفكر فيما سيقوله له، والزيادة التي سيطلبها منه مقابل تأجيل الدين، وبالطريقة التي سيشرح له بها ذلك. كان يخطط لهذا، ويحيي تجار السيركجي الآخرين، والوجوه المألوفة له. التجار الذين يرون هذا المسلم الداخل بينهم، يبتسمون له بنظرات تتابعه بدهشة وإعجاب وحيرة. كانت النظرات تقول لجودت بيك: "لنر ما إن كان هذا التاجر ذي الطربوش سيدخل بيننا؟ نحن معجبون بجرأتك، وحزمك!" وكان جودت بيك أيضاً يحييهم بنظرات تقول لهم: "أنا أعرف جيداً ما تفكرون فيه حولي، وكيف أنا!". وقبل الوصول إلى دكان إسيكينازي بعدة خطوات، رآه أحد هؤلاء التجار اليهود والروم بغالبيتهم، وناداه إلى داخل دكانه:

"أوووه، يا جودت بيك الضوئي، أنتم أنيقون جداً اليوم!"

ولكي يريه جودت بيك أيضاً أنه يتقبل المزاح، ويسر به، قال له: "أنا أنيق دائماً!"، ولكنه تذكر بأن هنالك سبباً خاصاً لهذه الأناقة اليوم، فامتقع وجهه بالحمرة.

علي مولا

فور دخوله إلى دكان إسكينازي الذي يبيع مواد بناء وأدوات منزلية، فهم من الفوضى التي تعم الدكان، والجو العبثي، ونشوة الأجراء بأن المعلم غير موجود، فتوتر. قال أحد الأجراء بأن سفينة الجزيرة قد تأخرت بسبب الضباب. تذكر جودت بيك أن إسكينازي يقضي الأصياف في الجزيرة الكبيرة. فشعر بالحزن فجأة. كان يحس بأنه وحيد جداً بين هؤلاء التجار اليهود والروم والأرمن.

قرر ألا يعود إلى دكانه من الطريق الذي أتى منه، بل من الشارع الرئيس. كان مؤمناً بأن زحام الشارع والحركة ستبددان حزنه. مشى مفكراً: "تضايقت، لأنني وحيد بينهم! كم شخصاً مسلماً وتاجراً غنياً في آن واحد في هذا السوق؟ في منطقتي سيركجي ومحمود باشا كلها لا يوجد غير دكان القماش الذي فتحه السيلانيكيون في الزقاق الفرعي، والدكان الجديد الذي فتحه فؤاد بيك، وهنالك صيدلية أدهم بيرتف. وأنا الأغنى بينهم. وأنا وحيد بينهم." كان يتصبب عرقاً بسبب الحر والألبسة الثقيلة التي يرتديها. تذكر الحلم: "هكذا كنت في الحلم أيضاً. الجميع معاً، وأنا وحدي. كان العرق يتصبب من جبيني." بحث في جيوبه. أدرك أنه نسي أن يحمل منديلاً صباحاً. فكر: "ستضع الخانم هذه الأمور في نصابها بعد الزواج!" ولكن الزواج وحياة العائلة التي تصورها أيضاً لم تسليه لحظة. فكر: "ماذا فعلت لكي أكون هكذا مختلفاً عن الجميع؟ عملت كثيراً. عملت كثيراً دون أن أفكر بشيء غير عملي مستهدفاً توسيع أعمالي ودكاني!" فرح عندما رأى بائع المرطبات عند الزاوية. "كسبت في النهاية..." طلب كأساً من شراب الكرز الحامض، وشربه. بدا أنه ارتاح قليلاً، واستنتج أن ضيقه كله بسبب هذا الحر المخيف. بعد ذلك سمع أحدهم يناديه.

"واخ يا جودت، كيف حالك لنر؟"

كان الطبيب طارق زميل أخيه الأكبر من كلية الطب العسكرية. وكزملاء أخيه الكبير كلهم فرح عندما رأى جودت الذي يذكره بأخيه نصرت، ثم أدرك الطبيب بأن شخصاً مختلفاً تماماً أمامه فقطب حاجبيه. وسأل الطبيب جودت بيك عن أخيه الكبير، وعما إذا كان شفي من

مرضه أم لا. وسأل عن أمور أخرى تتعلق بأخيه الكبير. وبعد أن علم ما يجب أن يعلمه حوله، قال من دون أن يحاول إخفاء ابتسامته الهازئة به:

"حسن، ماذا تعمل أنت؟ بالتجارة أيضاً هاه، التجارة..." وحياه تحية غير جدية، واختلط بزحام السيركجي.

فكر جودت بيك: "التجارة! أعمل بالتجارة!". وسار نحو دكانه. "ماذا كنت سأفعل يعني؟ لا يمكنني أن أكون طبيباً عسكرياً مثله..." تذكر طفولته، وبداية شبابه. كان أبوه موظفاً صغيراً في قولا. ودرس جودت بيك في مدرسة البنين لتلك المنطقة التي رآها في حلمه. بعد ذلك ترفعت رتبة أبيه، فرحل إلى آقحصار. كانت تلك القصبة غنية لأنها تقع على سكة الحديد. وهناك درس جودت في المدرسة الثانوية. كان يتجول خلال الأصياف حول آقحصار في حقول العنب الخالي البذر، والتين وحيداً. كان المعلمون يقولون إن جودت وأخاه الأكبر نصرت ذكيان جداً. أما أبوه عثمان بيك فقد كان يقول إن ذكاءهما موروث من أمهما. ثم مرضت تلك الأم الذكية جداً، والتي كان يحبها الأب كثيراً. وطلب الأب وظيفة في اسطنبول ليستطيع إدخال زوجته إلى المستشفى، ولكنهم لم يلبوا طلبه. إثر ذلك استقال الأب، وجاء إلى اسطنبول، وأدخل الأم إلى المستشفى، وفتح في حي حسكة دكاناً لبيع الحطب. وبعد سنة دخل نصرت كلية الطب العسكرية، وبعد ستة أشهر لم تمت الأم، بل الأب بنحو مفاجئ. ووقع عبء الدكان، ورعاية الأم المريضة دائماً على عاتق جودت. عمل جودت حتى العشرين من عمره في حي الحسكة ببيع الحطب، والأخشاب، بعد ذلك نقل مجلسه إلى حي آقسراي. في الخامسة والعشرين من عمره فتح دكان خرداوات صغير في أقسراي، وبعد عدة سنوات انتقل إلى الدكان السيركجي. في العام نفسه ماتت الأم، وترك نصرت كل نصيبه لجودت، وهرب إلى باريس. وفي السنة التالية قطع جودت علاقاته كلها بأقربائه الذين يقيمون في حي الحسكة، واشترى بيت حي وفا. فكر من جديد: "لهذا السبب لا يمكنني أن أكون طبيباً عسكرياً! فتح أمامي طريق التجارة. وأنا كافحت على هذا الطريق، وعملت ما لم يجرؤ على عمله أحد. لو كنت خائفاً قليلاً، لبقيت حتى الآن بائع حطب صغير في الحسكة!" وشعر بالضيق عندما تذكر الحسكة،

ومحيط الأقرباء والأصدقاء والأصحاب، وحياة الحي. "هربت من هناك. لم تكن حياة التجارة تسير هناك معهم." رأى الدكان من بعيد. سُحبت العربة المغلقة إلى تحت الشجرة. تمتم قائلاً: "دكاني!" وفكر بأن النجاح الأكبر ليس الانتقال من دكان بائع حطب صغير إلى هنا، بل العمل بالمصابيح الذي حصل عليه قبل خمس سنوات. بعد أن حصل على امتياز بيع المصابيح كلها للبلدية والشركة الخيرية، بدأ يُنادى باسم "جودت بيك الضوئي" انتشى عندما تذكر نجاحه هذا. بعد عمل المصابيح هذا كبّر دكانه وشركته أربعة أمثال. وزع الرشاوى على الجميع في أمانة المدينة. كانت تلك لحظة مضايقة قليلاً، ولكنها لا تشوه نجاحه. تذكر جودت بيك حلمه، فانتشى: "إيه، ماذا أفعل؟ لا أحد يعاقبني..." تذكر زليخة خانم حينما كانت تنظر إليه وهو عند رأس الدرج صباحاً. قال لنفسه: "ماذا أفعل، ماذا أفعل؟ هذه هي الحياة!" كان يشعر بنفسه مرتاحاً وغير قابل للانهيار، وكأن درعاً خفياً يحميه في كل زمان. رأى الكتابة فوق دكانه:

جودت بيك وأبناؤه
استيراد – تصدير – خرداوات

لم يبدأ التصدير بعد، وليس له أبناء بعد، ولكنه ينوي الإقدام عليهما معاً. أثناء خطوه خطوة في عتبة الباب، فكر قائلاً لنفسه: "لم نستطع أخذ النقود من إسكينازي أيضاً. لأكلم صادق بالحسابات مرة أخرى. بعد ذلك، لأفكر بما سأفعله بهذه المصابيح الخربة... كم الساعة؟ ليس ثمة وقت أبداً!.. علي أن أذهب إلى المستودع لأرى ما يجري هناك. سيكسرون ويبعثرون كل شيء الآن... من هذا الولد، وماذا يريد؟"

طفل صغير مد نحوه ظرفاً، وقال: "أرسلت هذا المتمزيل تشوهاجيان يا سيدي!"

فكر جودت بيك: "المتمزيل تشوهاجيان؟" لم يتذكر بداية من تكون. احمر وجهه خجلاً من شيء مجهول وغريب. أعطى الولد بقشيشاً. ارتبك بعد ذلك متذكراً أن المرأة هي حبيبة أخيه الأكبر الأرمنية. فتح الظرف، وقرأ:

"جودت بيك، أخوكم الكبير نصرت مريض جداً. فقد وعيه مساء أمس. يبدو كأنه صحا هذا الصباح، ولكنه رغم هذا متعب جداً. إذا أتيتم بسرعة لرؤيته سيفرح كثيراً. أرجوا ألا تقولوا له إنني كتبت لكم هذه الرسالة..."

تمتم جودت بيك: "مريض جداً، مريض جداً هاه!.. أمي أيضاً كانت هكذا، ولكنها لا تموت بعد ذلك. "يريدون أن يسحبوا مني نقوداً من جديد... رغم أنه لا يوجد لدي وقت لأي شيء!" ووضع الظرف في جيبه. خجل عندما رأى الطفل المنتظر منه جواباً ينظر إلى وجهه: لعل وضعه سيئ جداً؟ الرحمة، بماذا أفكر! أي إنسان صرت؟" سار داخل الدكان متوتراً: "أخي يموت."

أعطى الولد بقشيشاً من جديد، وصرفه. تحدث بارتباك مع البائع الأرناؤوطي، ومع المحاسب صادق. أدرك أنه يتكلم كلاماً فارغاً، وأنهما مرتبكان. فكر: "أخي الكبير يموت!" وانتبه إلى أن اضطراباً لم يتوقعه قد سيطر عليه. قال لنفسه: "يجب أن أكون هادئاً!" وركب العربة. قال للحوذي إنه سيذهب إلى بيه أوغلو.

بعد ركوب جودت بيك العربة استطاع أن يلجم اضطرابه قليلاً. "لعله لا يموت أيضاً. لعل ما أصابه انهيار صغير... ألم يكن يحدث للمرحومة أمي هكذا؟ ارتبكت لأنه ليس لي أحد غير أخي الكبير! ليس لي أحد!" نظر عبر النافذة مقرراً ألا تسيطر عليه المشاعر التي سيطرت عليه أثناء عودته من دكان إسكينازي.

وقفت العربة عند أول جسر غلاطة، كان الحوذي يدفع أجرة العبور من الجسر. بائع الليمونادة عند زاوية جسر الخليج ينادي من مكانه الذي يقف فيه دائماً. الذباب يحط على الدراق عند الفاكهاني المجاور له. ومن بعيد أمام حوض قاسم باشا لبناء السفن لاحت جثث السفن، والمراكب المضطجعة على جنبها، وعبّارات الشحن الصدئة. تحركت العربة من جديد. تبدد ضباب الصباح. ثمة سماء براقة فوق الجسر، تعلقت فيها عدة غيمات قلقة. كان هنالك مركب يعرفه جودت بيك له مسنن جانبي يدعى "سهولة" يبحر من الخليج إلى مرمرة. وفي وسط الجسر يقف رجل ضخم البنية، على رأسه قبعة كبيرة مع امرأة سافرة الوجه ينظران إلى البحر،

ويمسكان بأيدي أولادهما المرتدين ألبسة بحارة واقفين إلى جنبيهما. فكر جودت بيك: "عائلة كهذه!" وعند أسفل عامود إلى الأمام قليلاً، كان هنالك شابان ينظران إلى العائلة. "عائلة كهذه!" عبر حمالون بعصي حملهم راكضين من جانب الرجلين المعتمرين طربوشين، وحول عنقهما ربطتا عنق. كانت سفينة *ساحل بَنت* التي يعرفها جودت بيك أيضاً تقترب من الرصيف. واستند الأطفال إلى القضبان يتفرجون على السفينة. جاء جودت بيك إلى هنا أيضاً في الأشهر الأولى لمجيئه إلى اسطنبول. تفرج على البحر والجسور، وعلى هذه الفوضى العجيبة، وعلى العربات الفخمة العابرة. لم يكن قد أُنشئ رصيف سيركجي للسفن بعد. فكر جودت بيك: "تلك السنوات... تعني قبل عشرين سنة!" وارتعد خائفاً متذكراً أنه كان مع أخيه الأكبر أول مرة جاء فيها إلى هنا.

أخرج رسالة المرأة الأرمنية من جيبه، وقرأها مرة أخرى بانتباه. لا تريد المرأة أن أقول لنصرت إنها كتبت هذه الرسالة. إذا كانت هذه المرأة التي تحب أخاه الكبير كثيراً تفكر بأمور صغيرة مثل هذه حتى الآن، فهذا يعني أن الوضع ليس على تلك الدرجة من السوء. خجل عندما تذكر قبل قليل بأن هذه الرسالة ملعوب من أجل سحب نقود منه. "حسنٌ، لماذا لا تريدني أن أخبره بهذا؟ لأن أخي الكبير لابد أنه قد عارض إبلاغي بالأمر!" لم يكن أخوه الكبير راضياً عن حياة جودت، وعن أفكاره، وهو يستهين به. ولكنه يأخذ منه نقوداً رغم استهانته، لهذا فهو لا يريد رؤية أخيه، وكلما رآه يغور في قاع الأرض، ويعمل على جعل جودت يغور في قاع الأرض عبر كلماته الجارحة وإهاناته المتزايدة في كل مرة. ولشعور جودت بيك بهذا، ومعرفته جيداً أن مقابلتهما ثقيلة عليهما معاً، فهو نادراً ما كان يذهب إلى أخيه. وكلما ذهب إليه تحدث معه قليلاً، وأخبره بضرورة ذهابه إلى المستشفى ليتخلص من هذا المرض؛ ويعيد عليه الأخ الكبير بأن المستشفيات لم تنشأ إلا من أجل إرسال الناس إلى المقابر، وباعتباره طبيباً فهو يعرف هذا جيداً، بعد ذلك يصمتان فترة، ثم يترك جودت الظرف الذي يضع فيه النقود جانباً، ويخرج. بعد أن قرأ رسالة المرأة الأرمنية مرة أخرى، بدأ يقارن مرض أخيه الكبير بمرض المرحومة أمه.

كانت المرحومة أم جودت بيك مصابة بالسل مثل أخيه الكبير. واستمر مرض أمه الذي كان يخف تارة، ويسوء تارة أخرى طوال سنوات. وقد بدأت أعراض المرض الأولى عند أخيه قبل ثلاث سنوات في باريس. كانت أمه تثرثر طوال فترة مرضها، وتشتكي من كل شيء، وتُتعس كل من حولها. وأخوه الكبير كذلك. كانت أمه ظريفة، وذات قوام رشيق. أما أخوه الأكبر فقد كان ضعيفاً جداً. وعندما عاد من باريس، ورآه جودت بيك خاف. كانت أمه تطبق نصائح الأطباء بعناية، وتنفذ كل ما يطلب منها. ولكن أخاه الكبير يسخر من الأطباء. لأنه طبيب. وفوق هذا كان مدمناً على الكحول، وله طبع سيئ بمعارضته كل شيء. تمتم جودت بيك: "نعم، لم ينتبه لنفسه!". فكر بعد ذلك بأنه يحب أخاه الأكبر، وأنه لن يغضب مهما أنبه، ومهما استهان به. تذكر طفولته: كان يلعب مع أخيه الكبير، ومع أصدقائه ألعاب الجوز، والقلعة، والسحيلة. وكانوا يخرجون إلى الحقول في عيد الخضر والياس، ويأكلون لحم الخرفان والحلاوة. وتتقسم الفتيات إلى فريقين، ويلعبن لعبة العروس والعريس، ويغنين الأغاني. كان هنالك كروم، وبساتين في محيط آقحصار. تمتم جودت بيك قائلاً: "زمن ماض!" صعدت العربة منطقة النفق، وكانت تتقدم نحو غلاطة سراي. بعد ذلك وقفت فجأة أمام دكان فيردو بائع النظارات. مد جودت بيك رأسه، ونظر. إلى الأمام كانت هنالك عربة بمقعدين متقابلين انقلبت على جنبها، وسدت الطريق. تفحص ما حوله متضايقاً، وقرأ اللوحات، وتفرج على الناس.

يخرج رجل على رأسه قبعة من دكان الحلاق الشهير بيترو. ثمة امرأتان مسيحيتان تنظران إلى واجهة دكان بوتر الذي يقال إنه خياط ولي العهد رشاد أفندي. كانت واجهة دكان ديكوغس بائع الفضيات والكريستال لامعة. إلى الأمام قليلاً يقع محل ليبون للمعجنات. عندما رأى جودت بيك لوحة البقال ديمتروكوبولو، سيطر عليه من جديد الإحساس بالوحدة الذي داهمه صباحاً. أراد أن يتذكر طفولته في آقحصار كي يسلي نفسه. فكر قائلاً لنفسه: "لا أستطيع أن أكون من هؤلاء، ولا من أولئك!". تحركت العربة من جديد. "لو أن أخي الكبير في وضع أحسن، ولا يستخف بي... لماذا أنا هكذا اليوم؟" تذكر هذه المرة الحلم كعلامة على أن هذا اليوم سيئ ومخيف. كان

أخوه الأكبر أكثر من ينظر إليه بسوء واستخفاف بين زملاء صفه جميعاً. فكر: "لماذا يستخف بي؟ يقول لأنه عضو في تركيا الفتاة!"

تعرف شقيق جودت بيك الكبير نصرت على فكر تركيا الفتاة خلال سفره الأول إلى باريس. نفذ نصرت خريج كلية الطب العسكرية برتبة نقيب تدريبه المتصل في مستشفى حيدر باشا في عامين، ثم عمل بعد ذلك في مختلف المستشفيات العسكرية في الأناضول وفلسطين، وقد نقل من مكان إلى آخر كثيراً لأنه مشاكس وكثير الشجار على الدوام، وفي سنة فتح جودت بيك دكان الخردوات في آقسراي صدر قرار نقله إلى اسطنبول، وتزوج من فتاة طلب أن يختاروها له من أوساط العائلة في حي الحسكة. وبعد سنتين، ترك هذه المرأة والطفل الذي في بطنها، وذهب إلى باريس. وبحسب رأي أوساط العائلة والناس الذين قطع جودت بيك علاقته بهم فإن سبب سفر الأخ الأكبر هو قراءته الجرائد والمجلات الغربية في البيت. ويقال بأن تلك المجلة التي كان نصرت يقضي ساعات بقراءتها هي مجلة *الميزان* التي يتحدث فيها المؤرخ مراد بيك عن الثورة الفرنسية مجمّلاً لها. أما بالنسبة إلى نصرت فإن سبب تلك الرحلة معروف: يريد متابعة دراسة الطب، والتخصص في الجراحة. ولكن جودت بيك الذي يعرف أن أخاه الأكبر ينفعل حتى عند ذبح فروج، يرى أن سبب رحلة نصرت هو شعوره بالضيق من محيطه. كما يعتقد جودت بيك أن شعور أخيه الكبير بالضيق أيضاً جعله يبقى في باريس أربع سنوات قبل أن يعود، ويطلق زوجته، ويبدأ بتناول المشروبات الكحولية، ويعارض السلطان، ثم يذهب إلى باريس مرة أخرى، ويبرز بين أنصار تركيا الفتاة بقدر ما يمكن لمدمن كحول أن يبرز، ويعود إلى اسطنبول عندما أصبح مفلساً، وعاطلاً عن العمل، وجائعاً. ولكن رغم قناعته هذه، فهو يشعر بأن أخاه الأكبر يتفوق عليه ببعض الجوانب، ويعرف أن الناس يجدونه محبباً أكثر، وقريباً من القلب، وموثوقاً. ويرى أن سبب نظرة الناس لأخيه الأكبر على هذا النحو هو عدم تحمله أي مسؤوليات أو أعباء. أما هو فكان إنسان غير متردد أبداً إزاء تحمل المسؤوليات حتى ولو كان ذلك تجاه نفسه، وحياته فقط. وخلال تفكيره بهذا بدا كأنه خجل من نفسه قليلاً، ولكنه ما لبث أن فكر على النحو التالي: "لدي في الحياة مسؤوليات، وطموحات، وهدف! أما هو فعنيد يسره إصدار الضجيج والصخب فقط!".

3
عضو تركيا الفتاة

انعطفت العربة نحو زقاق فندق سافوي الضيق. وبعد مسيرها عدة دقائق، وقفت أمام بناء قديم حجري مؤلف من طابقين. فتحت الباب لجودت بيك المدام صاحبة البنسيون، وانزوت جانباً باحترام، ونظرت بطرف عينها إلى العربة الواقفة أمام الباب. ثم اغتنمت الفرصة، وركضت وراءه، وبدأت تطال بلسانها أخاه الأكبر: أخوه الأكبر يصدر ضجيجاً قوياً، ويقلق زبائن البنسيون الآخرين، ويقوم بحركات غير أخلاقية رغم مرضه. هز جودت بيك رأسه للمرأة التي تخيفه بطرد زبونها من البنسيون، وسار نحو الدرج. ثم فكر قائلاً: "هذا يعني ليس ثمة أمر خطير!" صعد الدرج الحجري بسرعة، وقرع الباب. تذكر أنه جاء آخر مرة إلى هنا قبل أسبوعين بعد الخطوبة مباشرة.

فتحت المرأة الأرمنية الباب كما توقع. احمر وجه جودت بيك كما يحدث دائماً عندما يراها، وتظاهر بأنه يتذكر شيئاً نسيه للحيلولة دون احمرار وجهه، واتخذ موقف المحتار والمفكر، ثم دخل.

سأل: "كيف حال أخي الكبير؟" وفي هذه الأثناء رأى نصرت في الفراش مسنداً ظهره إلى مخدة. وفكر: "لا يوجد شيء!"

قال الأخ الأكبر: "أوه، هذا أنت؟ لنر من أين خرجت؟"

ابتسم جودت بيك محاولاً معرفة وضع أخيه الصحي من نبرة صوته. ثم ذهب إلى جواره، وعانقه مقرباً وجهه من خديه.

قال الأخ الأكبر: "لا يُقبل المسلولون!" ولكنه تركه يقبله. وفعل هذا كأنه يمنحه عفواً.

سأل جودت بيك: "كيف حالك؟"، وجلس على كرسي موضوع جانباً.

قال أخوه الأكبر مجيباً: "إيه، من أين خطر ببالك المجيء إلى هنا؟" ثم نظر إلى حبيبته بارتياب. "ماري، هل أنت من دعاه؟"

"لماذا أدعوه؟ لابد أنه جاء من نفسه!" كان ذلك الصوتُ صوتاً حلواً موسيقياً.

قال جودت بيك: "هل يجب أن أدعى من أجل أن أزورك؟" وسيطر عليه الشعور بالذنب الذي يشعر به دائماً أمام أخيه الكبير، واحمر وجهه. وسأله بعد ذلك: "كيف حالك؟ كيف حال مرضك؟"

التفت نصرت إلى المرأة الأرمنية غاضباً: "أنت دعوته. إنه يسأل عن صحتي من دون توقف؟ لماذا يسأل؟"

قالت ماري وهي تئن: "نصرت!" ونهضت، وجلست إلى جانبه لكي تهدئه. وفيما هي تغطيه بالأغطية التفتت إلى جودت بيك، وقالت: "شقيقكم الأكبر ليس جيداً. كان وضعه سيئاً جداً مساء أمس. لأنه فقد وعيه... الآن هو جيد قليلاً، ولكن لا تنخدعوا!"

صرخ نصرت: "لا، لا، لا أعاني من شيء!" وأراد أن يقول شيئاً ما، ولكن نَفَسَه لم يساعده، فصمت. وكل ما استطاع عمله هو النظر فيما حوله بنظرات مستخفة، واتهامية.

التفت جودت بيك إلى ماري، وسألها: "أما طلبتم طبيباً؟"

حينئذ تمتم أخوه الأكبر قائلاً: "لا يتطلب الأمر طبيباً! وهل هنالك طبيب أفضل مني؟ الطب عدو الإنسانية!"

نظرت ماري إلى جودت بيك، وكأنها تقول: "ما الذي يمكنني فعله بهذا الوضع؟"

فكر جودت بيك قائلاً لنفسه: "نعم، يقع على عاتقي طلب الطبيب!" وخجل لتلاقي عينيه بعيني ماري. خطر بباله أن المرأة لطيفة حتى ولو لم تكن جميلة. كان لديه فضول لمعرفة كيف يمكن لأخيه الأكبر السكران، والمريض، والمفلس أن يقيم علاقة مع امرأة كهذه. تفحص بنظره الغرفة: ثمة مواعين، وأطباق، وكؤوس على طاولة. من الواضح أنها تستخدم كثيراً، وتغسل كثيراً. هنالك في إحدى الزوايا أغطية وقمصان مغسولة ومكوية تواً. الأشياء، والجدران، والنوافذ في غاية النظافة، ولامعة. والغرفة تشبه غرفة في بيت غني نظفت تواً لاستقبال ضيف أكثر مما تشبه غرفة مريض. انتبه جودت بيك لتأجج رغبته بالعيش في غرف بيت نظيفة، ومرتبة، ووسط أثاثه مع امرأة وأطفال، ونظر إلى المرأة الأرمنية فاحمر وجهه من جديد. والتفت إلى أخيه الأكبر. كان نصرت يتنفس ببطء ومشقة. فكر جودت بيك بأن أخاه وهذه المرأة يملأان الغرفة، وأنه فائض عن اللازم. نظر بعد ذلك إلى المرأة الأرمنية، وخطر بباله أنه لم يكسب في حياته حب امرأة كهذه، ولا حتى أي امرأة.

في هذه الأثناء، سأل أخوه الأكبر: "هل رأيت ضياء في هذه الفترة؟" كان ضياء ابنه البالغ التاسعة من عمره. وكان نصرت قد تركه عند أقربائه المقيمين في حي حسكة.

قال جودت بيك مرتبكاً: "لا" كان أخوه الأكبر يعرف بأنه لا يذهب إلى الحسكة أبداً. علاقات الأخوين مع الحسكة تؤمنها زليخا خانم التي تقوم بأعمال البيت لدى جودت بيك في حي وفا. ولم يتلق في الفترة الأخيرة خبراً من تلك المرأة حول ضياء.

قال نصرت: "أفكر في إرسال الولد إلى أمه في القرية. ولكن لا! ليبق هنا. بقاؤه في المدينة أفضل من بقائه عند أولئك المخبولين. أليس كذلك؟" أخذ نفساً برهة، ثم أضاف: "تركنا كلانا أقرباءنا في الحسكة، ولكن

لأسباب مختلفة: أنا لكي لا أكون عبئاً عليهم، وأنت لكي لا يكونوا عبئاً عليك!" وسكت فترة أخرى ليتنفس، ويرتاح. ثم ظهر على وجهه ذلك التعبير الاتهامي الذي يعرفه جودت بيك جيداً: "عندما جئت في المرة الماضية، جئت بعربة مغلقة، هل تلك العربة لك؟"

"ليست لي، استأجرتها!"

"هل أصبحت عربات كهذه توقف في الطرق، وتستأجر؟"

قال جودت بيك خجلاً: "لا، استأجرتها لثلاثة أشهر!"

قال نصرت: "هه، إنها من تلك العربات التي يفاخر الناس بها! استأجرت عربة كما تُستأجر معاطف الريدنغ كوت، وربطات العنق ها؟" ونظر إلى ماري، وابتسم.

فكر جودت بيك بأن هذا تافه، وسافل.

قال نصرت وعلى شفتيه ضحكة الاستخفاف نفسها: "أنت أنيق جداً اليوم!" ومن دون انتظار جواب جودت بيك، التفت إلى ماري: "هل قلت لك بأن هذا خطب ابنة باشا؟" والتفت إلى أخيه: "كيف، هل هي إنسانة جيدة؟"

"إنسانة جيدة!"

"من أين تعرف هذا؟ كم مرة رأيتها؟"

وقف جودت بيك على قدميه شاعراً بتدفق العرق خلف رقبته، ومن جبينه. بحث في جيوبه. تذكر أنه نسي منديله. تمتم أثناء جلوسه من جديد قائلاً: "مرتين"

"مرتين هاه؟ رأيتها مرتين، وأدركت أنها إنسانة جيدة! حسنٌ، هل تكلمتما قط؟"

كان جودت بيك يترنح على الكرسي.

"أقول هل تكلمتما قط؟ كيف عرفت أنها إنسانة جيدة؟ بماذا تحدثتما؟"

قال جودت بيك: "تحدثنا أي حديث!"

قال نصرت فجأة: "لا تخجل إلى هذا الحد! عدم تحدثك إليها ليس ذنبك.

إنه نتيجة التقاليد البالية، والحياة القذرة البائسة السيئة السائدة هنا. هل فهمت ما قصدت قوله؟ ما الحياة هنا، هل فهمت؟ لم تفهم، لم تفهم، ولكنك تهز رأسك! يمكن أن يقع لك الأمر نفسه أيضاً! ولكن لا... أنت لست هكذا! ستكون لك عائلة... ولكن امرأة كهذه لا يمكنها أن تحبك!"

التفت الاثنان، ونظرا إلى ماري. أدرك جودت بيك أنه لن يتخلص من هذا الخجل والعرق مادام جالساً مقابل أخيه الأكبر.

قال نصرت: "لا تحمر، وتخجل هكذا!" وأشار مرة أخرى نحو ماري، ثم أضاف: "إنها تعجبك. أنت معجب جداً بها، أليس كذلك؟"

قالت ماري: "أرجوك يا نصرت!"، دون أن يبدو عليها بأنها خجلت. كانت تبدو مرتاحة ومباهية.

ابتسم نصرت، وقال: "أنت تعجبينه. غدا معجباً بك منذ الآن! لأنه يجدك كالأوربيات. أخي معجب بكل ما يأتي من أوربا! عدا شيء واحد..." فكر قليلاً، ثم وجد الكلمة التي يبحث عنها. "ريفولوسيون!" التفت إلى أخيه: "هل تعرف ما تعنيه كلمة ريفولوسيون؟ أو ثورة؟ ريفولوسيون بمقصلة يتدفق فيها الدم غزيراً. ولكن من أين لك أنت معرفة هذه الأمور! هنالك شيء واحد تعرفه، وتحبه أنت..." لم يكمل كلامه، أو أنه لم يرد أن يقوله صراحة. ولكنه فرك رؤوس أصابع يده كما يفعل الناس عندما يريدون قول "نقود".

لم يستطع جودت بيك الاحتمال. كان هذا أسوأ من الحلم. نهض عن الكرسي. خطا خطوتين مترنحتين نحو أخيه الأكبر، وقال كالأنين: "أخي، أنا أحبك. لماذا نحن هكذا؟" إنها المرة الأولى التي يحدث فيها شيء كهذا. شعر بالخجل. والتفت باسماً، ونظر إلى ماري. وفكر قائلاً لنفسه: "لماذا فعلت هذا؟ يا إلهي كم أتعرق بغزارة!" هذا أسوأ من الحلم.

فجأة انحنى جسم نصرت إلى الأمام، ثم تقوس إلى الخلف، وارتطم رأسه بالمخدة. وأثناء انحنائه إلى الأمام بدأ يسعل بقوة. كان الشخير الصادر عن بلعومه ورئتيه مخيفاً. يراقب جودت بيك تلوي أخيه الأكبر خائفاً

وخجلاً من دون أن يتمكن من عمل أي شيء. بعد ذلك خطر له أن يفعل شيئاً، فرمت ماري وجلست بجانب نصرت، وأسندته من كتفيه. قرر جودت بيك أن يفتح النافذة. وفي هذه الأثناء ارتاح أخوه الأكبر. وحين كان جودت بيك يضغط على النافذة، ناداه نصرت:

"لا، لا تفتحها. لا أريد أن يدخل قذر الخارج إلى هنا. لئلا يتسلل جو القذارة والبؤس والسفالة وظلام القرف والدكتاتورية المنتشر في الخارج إلى هنا. نحن هنا بخير..." كان يتكلم وكأنه قد فقد وعيه. "لا يفتح أحد النافذة! هنا مملكتي، لا يفتح أحد النافذة حتى التخلص من الظلام كما حدث هناك في فرنسا، وحتى سقوط عبد الحميد، وحتى يغدو كل شيء مضيئاً ونظيفاً وشريفاً وجيداً..." وفجأة سقط في نوبة سعال أخرى، وبدأ يرتجف.

ولكي يبدو جودت بيك أنه فعل شيئاً، ضرب على المخدة التي خلف أخيه الأكبر، وسواها. ورفع طرف الغطاء النازل إلى الأرض. وفي تلك اللحظة، رأى ماري تشد رأسه نحوها مرتبكة.

قالت المرأة الأرمنية: "طبيب... أرجوكم أحضروا لنا طبيباً! أنا لا أستطيع عمل هذا. هو لا يريد!"

تمتم جودت بيك قائلاً: "نعم!" وخرج مستعجلاً خشية أن تقابل عيناه عيني أخيه الأكبر. وفور إغلاقه الباب خلفه: سمع أخاه الأكبر يصرخ من خلفه:

"إلى أين ذهب؟ إلى الطبيب؟ ماذا يمكن للطبيب أن يفعل في هذه الحال؟.. لا ضرورة للطبيب!".

4
صيدلية

فور خروج جودت بيك إلى الزقاق، فكر قائلاً لنفسه: "سيموت!إن لم يكن اليوم فغداً، ولكنه سيموت بالتأكيد خلال بضعة أيام!" أراد طرد هذه الأفكار: "لعل شيئاً لا يحدث. ألم يكن يحدث لأمي هكذا؟" دخن الحوذي سيجارة من جديد، وهو يرمقه بنظرة حوذي. "ولكن أخي الكبير يعرف أنه سيموت. ويقول أموراً مخيفة كهذه نتيجة معرفته أنه سيموت!" ولأنه لا يريد تذكر المشهد المخجل، فكر قائلاً لنفسه: "نعم، علي أن أجد طبيباً الآن!" خرج من الزقاق الفرعي إلى الشارع الرئيس. "أين أقرب صيدلية؟ هنالك صيدلية قنظوق. وهناك صيدلية كلونانريدس!"

الشارع الشهير الممتد من النفق إلى تقسيم كان مزدحماً رغم الحر. كان جودت بيك يسير بسرعة كأنه إذا تأخر فسيموت أخوه الأكبر، وإذا مات فسيكون مسؤولاً عن موته. وجد في داخله دافعاً للركض، وفكر بأن السرعة بهذا النحو أمر عبثي، تقدم مصطدماً بالناس. أما الذين يعيشون حياة هادئة دائماً فانسحبوا جانباً لكي لا يحتكوا بالرجل الفظ الراكض في هذا الحر صادماً الآخرين بكتفيه يميناً ويساراً وكانوا ينظرون إلى وجه جودت بيك بفضول خدر.

في الصيدلية كان الصيدلي ماتكوفيتش نفسه وأجيره السمين.

قال جودت بيك: "هل الطبيب هنا؟"

أشار الصيدلي بيده إلى القسم الخلفي، وقال: "مشغول!"

قال جودت بيك لنفسه: "ولكنني لا أستطيع الانتظار الآن!" ودون أن يبالي ببضعة المرضى الجالسين منتظرين على الكراسي، فتح الباب بسرعة، ودخل إلى غرفة المعاينة.

في الداخل كان الطبيب وامرأة معها ولد. أدخل الطبيب ملعقة في فم الولد. قطب وجهه عندما فتح الباب فجأة، وسحب الملعقة التي بيده من فم الولد. قال: "لطفاً، انتظروا في الخارج!".

قال جودت بيك: "الأمر هام جداً يا دكتور!"

أدخل الطبيب الملعقة في فم الطفل، وقال: "قلت لطفاً، انتظروا!" وحكى مع المرأة بالفرنسية.

تمتم جودت بيك: "حاله سيئة جداً!" ولكنه عندما نظر إلى الطبيب والطفل المريض بانتباه، آمن بأن أخاه الأكبر لن يموت. ولأنه لا يريد الانتظار هنا هذه المرة، قال: "حاله سيئة جداً!"

قال الطبيب: "حسنٌ، سآتي حالاً، ولكن انتظروا!"

خرج جودت بيك إلى الخارج. وكان يريد أن يجلس على أحد الكراسي أمام الباب جانب المرضى الآخرين المنتظرين الطبيب، ولكنه تراجع عن هذا. وراح يذرع المكان داخل الصيدلية. ثم انزوى في إحدى الزوايا، وبدأ يدخن سيجارة متوتراً. كان الصيدلي الجالس خلف طاولة البيع ينظر إلى ورقة بيده، ويخلط بعض أنواع الطحين، وأجيره يزن بعض الأشياء في ميزان صغير. وضع الصيدلي الطحين الذي خلطه في زجاجة، وقدمها لرجل يرتدي قبعة. وفي هذه الأثناء دخل رجل ضخم، كبير البطن، وعليه علائم السعادة، وسأل عن شمبانيا. عرفه الصيدلي، وابتسم. وأشار إلى الزاوية حيث الزجاجات. كان هناك برج من زجاجات الشمبانيا. وإلى جانب ذلك البرج ثمة برج آخر بني من زجاجات المياه المعدنية. قرأ الرجل البدين لصاقات الزجاجات براحة من لديهم الزمن والنقود، واختار منها: إفيان، فيتل،

فيتشي، أبوليناريس. وفكر جودت بيك فجأة بتلك المياه المجلوبة من فرنسا، ثم بالمشروبات، وبأن إسكينازي المتأخر اليوم بسبب الضباب يأكل شوكولا توبلر المكومة على البسطة. "ثم إن الباشاوات المقيمين في تلك الدور الكبيرة أيضاً يتناولون منها! ماذا أفعل أنا؟ أنا أعمل، وسأتزوج. أخي الكبير مريض، ولا يبدو أنه سيموت، إنه سليم كالفجل. والمرأة الأرمنية؟ لم يبق لدي وقت فائض من التجارة لأحب فيه. كم يضايق الانتظار! ماذا كتب خلف ذلك الزجاج؟ يمكنني أن أقرأه بالعكس أيضاً: مستحضرات طبية أجنبية... والأخرى طبية عثمانية." اختار الرجل المكور والمضحك الزجاجات، وفصلها، وقال إنه سيرسل أجيره ليأخذها. "سيذهب إلى بيته، ويشربها. إنهم يأكلون ويشربون، ويتضاحكون معاً... وأنا بعد الزواج... شراب اتهمبيرتيف للقوة، كريم بيرتف... ألم ينته عمل الدكتور حتى الآن؟ سأدخل فوراً عندما يفتح الباب... كلونيا أتنفسون... شراب سعال/كرم حقي *قطران*. مسهلات هونيادي يونوش... أصبت ذات مرة بالإسهال عندما كنت صغيراً، اعتقدت أنني سأموت. ولكن أحداً لم يفكر بأنني سأموت. ماذا لو مت! لا! ها هو الباب قد فتح!"

وبحركة واحدة دخل جودت بيك صادماً المرأة والطفل. وهتف من دون أن يكون مؤمناً بما يقول: "المريض سيئ جداً. لطفاً أسرعوا، يمكن أن يموت!"

كان الطبيب يغسل يديه على المغسلة التي في الزاوية: "من يموت؟ أين؟"

قال جودت بيك: "هنا، قريب جداً، في البنسيون! نذهب الآن، ونراه. هنا إنه قريب!"

قال الطبيب: "ألا يستطيع المريض أن يأتي إلى هنا؟" كان يجفف يديه بمنشفة بيضاء نظيفة جداً ببطء شديد إلى حد يمكن القول إنه يعبث.

"لا يستطيع المجيء. إنه يموت. لعله لا يموت. خطوتان! لنذهب فوراً. علينا ألا ننتظر..."

قال الطبيب ناخراً: "حسنٌ، حسنٌ! اسمحوا لي أن آخذ حقيبتي!"

قال الطبيب للمنتظرين أمام الباب إنه سيعود حالاً، وخرج إلى الشارع خلف جودت بيك. بعد ذلك سأل عن معاناة المريض. حكى جودت بيك عن نوبات السعال، ولعدم وجود ما يقوله له، قال إن أخاه الأكبر مصاب بالسل. وحينئذ اتخذ الطبيب مظهر من يبدو أنه قد خدع، ولكنه نسي غضبه فوراً: يبدو أنه فرح على الأغلب لتخلصه من العيادة ولو قليلاً، وعثوره على ما يلهي نفسه به. وكان أثناء سيره ينظر إلى واجهات المحلات، وإلى الناس. بعد ذلك اشترى علبة سجائر من أحد الدكاكين، وشرح له كيف أن السل لا يقتل الإنسان فوراً، وأن أحد مرضاه القديمين مات، وعاش عدة مرات. في هذه الأثناء دقق النظرة بامرأة عابرة من الطريق، وسأل جودت بيك عن مهنته. لم يخف دهشته عندما علم أنه تاجر. ولكنهما لحظة انعطافهما نحو الزقاق الفرعي، قابل صديقاً له في الزاوية. عانقه، وبدأ يتكلم بشكل ناري بلغة اعتقد جودت بيك أنها إيطالية. نظر جودت بيك إلى ساعته: الثالثة والربع.

بعد قليل دخلا إلى البنسيون. وحين اشتكى الطبيب من الحر فتحت ماري الباب.

قال نصرت: "لا أريد طبيباً، أغلقوا الباب... لا تدعوا الظلام يدخل إلى الداخل!"

دخل الطبيب خلف ماري. نظر إلى المريض المتكلم وحده بطرف عينه. التفت نحو ماري وهو يضع حقيبته على الأرض، ودقق النظر بها بانتباه، وقال لها بصوت مفعم المشاعر:

"Je vous reconnais Mademoiselle Çuhacıyan!"

وقبل يد المرأة بحركة مفاجئة، ورفع رأسه إلى الأعلى ببطء، ولسبب ما تكلم هذه المرة باللغة التركية: "أنا معجب بدوركم في الأسرة السعيدة!"

قال نصرت: "من هذا؟ ماذا يحدث؟" وعندما رأى الطبيب يقترب منه باسماً، قال: "لم تجلبوا لي طبيباً، بل مهرجاً!"

ولكن الطبيب لم يبال، وكان يبتسم: "ما بكم يا سيدي؟"

"أنا أموت. مسلول!"

قال الطبيب: "من أين نعرف هذا؟" وجلس بجانب نصرت.

قال نصرت: "أعرف لأنني طبيب أيضاً. وفوق هذا لا ضرورة للمعاينة. السل في هذه المرحلة يفهمه كل طبيب من مجرد النظر إلى المريض. انظر إلى هذا الوجه. خديٌ غارا. هل أنت من الطبية العمومية؟"

قال الطبيب بوجه متسامح باسم: "هذا يعني أننا زميلا مهنة!"

صرخ نصرت قائلاً: "هنالك الأطباء الأذكياء الثوريون وهنالك المخبولون بين خريجي الطب المدني والعسكري أيضاً."

قال الطبيب بالتسامح نفسه: "أنا لم أدع في أي وقت أنني ذكي!" بعد ذلك ابتسم لماري التي كانت الشخص الوحيد الذي يقدر تسامحه.

قال نصرت: "من أنت؟ هل أنت يهودي؟"

قال الطبيب: "إيطالي!" بعد ذلك انحنى على جذع نصرت، وأمسك زر قميصه: "هل تسمحون؟"

قال نصرت: "قف، قف! ماذا يحدث؟ لا تلمسني!" وعندما رأى ماري غاضبة: "حسنٌ، لا تغضبي، ولكنني أعرف أن لا فائدة من هذا!" وفجأة التفت إلى جودت بيك: "أريد منك شيئاً... تعال إلى هنا... هل تعدني؟ أريد رؤية ابني. أحضره لي!"

قال جودت بيك: "من الحسكة؟"

"نعم، من الحسكة. اذهب إلى الحسكة، واجلب ضياء. إنه يسكن عند خالته، ولا أدري ما تكون بالنسبة لنا، ابحث تلك المدعوة زينب خانم، وخذ الولد!"

تمتم جودت بيك: "الآن؟"

"نعم، الآن. فوراً! أعرف أنك لا تريد أن تذهب إلى هناك، أنت خجل. ولكن اذهب. أريد منك هذا. طالما جلبت هذا الطبيب، افعل هذا من أجلي. ابني آخر مرة..."

قال الطبيب وهو يخرج سماعته من حقيبته: "ما شاء الله لا يبدو عليكم أنكم ستموتون. رئتاكم جيدتان جداً!"

قال نصرت: "هيا، هيا، لا تخبرني بثرثرة الأطباء هذه. قم بعملك، وخذ نقودك! ادفع لهذا نقوده لنرى، يا جودت. ولا أريد منك شيئاً آخر!"

سار جودت بيك نحو الباب، ثم توقف، ووضع على طاولة صغيرة قديمة بجانب منفضة سجائر مكسورة ذهبيتين، وفرح حين رأى أن ماري رأته وهو يضعهما.

ناداه أخوه الأكبر: "أسرع، أسرع. لتنفع عرية التباهي هذه بشيء على الأقل..."

5
الحي القديم

نزل جودت بيك الدرج شاعراً بالذنب. وأخبر الحوذي بأنه سيذهب إلى الحسكة. ركب العربة. وأشعل سيجارة أخرى وهو يتصبب عرقاً. عندما تحركت العربة، وبدأت تهتز بشكل ناعم على نوابضها، وتتدفق المشاهد أمام النافذة، بدا كأنه صحا لنفسه بمساعدة السيجارة أيضاً. تمتم لنفسه: "لماذا كل شيء هكذا؟ لماذا أنا هكذا؟". واستحضر ما جرى معه منذ الصباح أمام عينيه. وفكر فيما إذا كان أخوه الأكبر سيموت أم لا. أمه أيضاً بقيت تقول إنها تموت حتى أيامها الأخيرة. ولكنها في الأسبوع الأخير تبدلت فجأة، وقالت إنها تشعر بتحسن، وفجأة ماتت. ولكن أخاه الأكبر مازال مستمراً بمشاكسته السابقة. تذكر ذلك الحوار المخجل بينهما، واحمر. عندما سأله أخوه الأكبر عن عدد المرات التي رأى فيها خطيبته، نظر إلى ماري، وابتسم. وفعل الأمر نفسه عندما تحدث عن موضوع العربة المستأجرة. لعله الآن يضحك من خلفه. وفكر فيما إذا كانت المرأة الأرمنية أيضاً تضحك مع أخيه الأكبر أم لا. تمتم: "نعم، لعلها امرأة لطيفة، وغريبة، ولكنني لست معجباً بها طبعاً! كيف قال ذلك؟ هذه صارت وقاحة! ولكنني لا يمكن أن أعجب بتلك المرأة. لأن تلك المرأة في النهاية ليست امرأة عائلة، إنها ممثلة مسرحية... كل مساء تتفرج عليها مئات العيون. كيف قبل يدها الطبيب؟ كيف يفعلون شيئاً كهذا؟ ينحنون،

ويمدون رؤوسهم، ويقبلون يد المرأة، بعد ذلك ينجحون بالعودة إلى وضعهم السابق الدائم التهلل. لأنهم ليسوا مثلنا. هم مسيحيون!" فكر بسبب عدم إظهار حبه لأخيه الكبير، وفهمه له. "لأنه ليس لدي وقت! لا أستطيع تخصيص وقت لأي شيء خارج التجارة." تذكر كلمات أخيه الأكبر: "ذهب إلى باريس، ولم يعد يعجبه شيء هنا." العربة تعبر الجسر، وعجلاتها تجعل خشب أرضيته يصر. نظر جودت بيك من الجسر إلى اسطنبول القديمة، وإلى القباب، والخليج الراكد والميت. "لا يعجبه هذا المكان! يرى كل شيء هنا سيئاً، ويستهين به! يستهين بي أيضاً، ولكنني أتفهمه!" قرأ لوحة على الطرف الآخر من الجسر: "أفضل السجائر والسيجار، منتجات التبغ والريجي: بائع التبغ أنغليدس." أشعل سيجارة أخرى، وضاع في غيوم الأفكار نفسها.

عندما رأى جامع البيازيد، وكلية وزارة الحربية تذكر طفولته، وشعر بالفرح. كان فيما مضى يأتي مع أخيه الأكبر إلى هنا للنزهة. وكان المعرض المقام في رمضان داخل الجامع يغدو مزدحماً، حيث يمكن رؤية أناس هامين. هنا رأى جودت بيك أول وزير في حياته. "كان وزير التجارة أحمد فهمي باشا على الأغلب؟ كم سنة مضت على ذلك؟ تسع عشرة أو ثماني عشرة سنة. كان نصرت قد دخل كلية الطب، ولكن أبي لم يكن قد مات بعد." شعر بالحزن عندما تذكر تلك الأيام. كان يعمل آنذاك مع أبيه، يقطع الحطب، ويرتب الخشب، ويتعب، وينام فور تناوله العشاء مساء. "مع أنني لم أرد أن أكون أحمق يعمل بيديه وذراعيه! كنت أريد أن أدرس، وأن أكون غنياً." فرح لأنه لم يتذكر تلك الأيام بتوق. "ولكن الجميع في تلك الأيام كانوا يحبون بعضهم بعضاً. ويحبونني أيضاً. ولكنني هربت منهم!" والآن يشعر بالخوف لاضطراره للذهاب إلى أولئك الناس الذين هرب منهم. "لعلهم لا يتعرفون علي. كيف سيستخفون بي عندما يعرفونني. ولكن لا! سيعجبون بهندامي، وعربتي هذه! كم ستحدث أمور منغصة الآن هناك، من يعلم..." تخيل أمام عينيه ما يمكن أن يحدث بعد قليل وهو يشعر بالخجل. "سيقولون من ورائي، خرج الصوص من بيضته، فلم تعجبه قشرتها. وسيقولون عني عديم الخير. لماذا حدث الأمر هكذا؟ ما سبب كل

هذا؟" كانت العربة تمر في تلك اللحظة من أمام وزارة المالية. وثمة صرافون ومكاتب مرابين مقابلها. كما يأتي إلى هنا أصحاب دفاتر المعاشات الواقعون في أزمة صعبة، ويضيعون رواتبهم مقابل مبلغ زهيد. كان جودت بيك يفكر بأن كسب هؤلاء الصرافين والمرابين بغير حق. فجأة فكر: "كل هذا بسبب النقود! وأنا لهذا السبب بقيت وحيداً! كل شيء بسبب النقود! إنهم يستخفون بمسلم يعمل بالتجارة!" تعرق من جديد متخيلاً المشاهد المخجلة التي يمكن أن يتعرض لها بعد قليل.

بعد أن عبرت العربة آقسراي، انعطفت يساراً. وبعد قليل دخلوا الأزقة الفرعية، ولكن مايزال الكثير للحسكة. وفيما كان جودت بيك ينظر إلى تلك الأزقة قال لنفسه: "الأشياء نفسها دائماً، كل شيء كما هو. لا يتغير أي شيء. هذا الجدار، وهذه النوافذ التي تساقط طلاؤها، والقرميد الذي نبت عليه الطحلب. لا يتغير أي شيء. هؤلاء يقيمون الآن هنا كما كانوا قبل مائتي سنة... ليس ثمة كسب للنقود! ليس ثمة جديد! لا يوجد في حياتهم ذلك الشيء، نعم الطموح، لا يوجد لديهم طموح! انظر إلى هذه القذارة. لا يخطر ببال أحد إزالة هذه المزبلة من هنا. هاهم يذهبون إلى المقهى، ويجلسون، ويراقبون الذاهبين والآيبين!" نظر إلى الرجال الجالسين أمام مقهى تحت شجرة بلوط مرتدين سترات طويلة. نظر الجالسون أيضاً إلى الراكب داخل العربة المغلقة بإمعان. تقابلت عينا جودت بيك بأعينهم حينما مر من أمامهم ببطء. بعد ذلك، قال لنفسه غاضباً: "لماذا تنظرون؟ ما الذي يدعو إلى الفرجة في هذا؟ عربة تمر، وفي داخلها رجل، وهم يتفرجون! آه، كل شيء ميت! أخي الكبير على حق. وأنا أيضاً على حق لا لأنني مسكين بسترة طويلة، بل لأنني تاجر!" كانت العربة تقترب من الحي. فتح جودت بيك نافذة العربة، وطلب من الحوذي بأن ينعطف يساراً بعد زقاقين. بعد ذلك استمع لأولاد يتحدثون في حديقة.

أحد الأولاد يقول: "إذا..... ستُبتلع!"

قال الولد الآخر: "أحرقت جوز المخبول كله!"

فكر جودت بيك قائلاً لنفسه: "نحن كنا قديماً نلعب لعبة الجوز للمتعة فقط. ولكن هؤلاء يلعبون من أجل المقامرة، ويأخذون جوز بعضهم بعضاً

غالباً... حسنٌ، حسن! هذا شيء على الأقل. إنه تجديد! هاهي متعة الكسب تتشكل عند الجيل الجديد." خجل من أفكاره. عندما انعطفت العربة إلى الزقاق، بدأ ينظر إلى البيوت بخوف. عرف البيوت كلها. ومرة أخرى فكر بأن شيئاً لم يتغير. وأوقف الحوذي أمام بيت زينب خانم.

نزل جودت بيك من العربة. تلفت حوله. جاؤوا إلى البيت الملاصق يوم انتقلوا إلى اسطنبول. لم يرغب بالنظر إلى ذلك البيت الذي أقام فيه عشر سنوات. فتح باب حديقة بيت الخالة زينب خانم. قرع الجرس القديم المعلق بالباب. فكر: "لو أعلق جرساً كهذا على باب حديقة ذلك البيت في نيشان طاشِ إذا اشتريته!" كانت الحديقة قديمة. وشجرة الخوخ هي ذات الشجرة الهزيلة التي لا قوة فيها. قرع الباب، وانتظر.

فتحت الباب زينب خانم. من دون انتظار جودت بيك ليعرف بنفسه، قالت: "آه، ابني جودت، من أين خرج هكذا؟" وعانقته.

قبل جودت بيك يدها خجلاً وهو يتصبب عرقاً. وفيما هو يقبل يدها بدا كأنه تذكر بعض الروائح التي نسيها، وبعض الأشياء، وصرصاراً، وغطاء طاولة مطرز من عهد طفولته.

قالت المرأة: "ادخل إلى الداخل! اخلع حذاءك لأرى. ما شاء الله، أنت أنيق جداً. أي ريح قذفت بك هكذا؟..."

قال جودت بيك: "خالتي العزيزة، أخي الكبير مريض..."

قالت الخالة زينب: "واخ، واخ!"

ارتاب جودت بيك بأنها بدأت بسخرية ماكرة. خلع حذاءه، وجلس في المكان الذي قدم له، وكان يتململ بقوة. قال: "عليَّ الا أبقى طويلاً..."

قالت المرأة: "هل يريد رجلك رؤية ضياء؟"

"نعم!"

"هل حالته سيئة جداً؟"

قال جودت بيك: "سيئة ياه!"

"ستأخذ ضياء هاه؟ أصلاً أي عمل يأتي بك إلى هنا؟.."

قال جودت بيك: "آه يا خالتي العزيزة، ليس عندي وقت أبداً! أنتم ببالي دائماً. ولكن لا وقت لدي!"

قالت المرأة: "قف إذاً لأنادي لك الولد!" وخرجت.

فكر جودت بيك قائلاً لنفسه: "لم يحدث ما كنت أخشاه أبداً. قابلتني المرأة بحب. نعم إنهم يعرفون كيف يحبون الإنسان. إيه ماذا أفعل؟ أنا أيضاً أعمل في التجارة. وهذا يقابل بتفهم... كم بالغت بكل شيء! كم الساعة! سأتأخر عن الغداء مع فؤاد بيك!"

بعد قليل دخلت المرأة حاملة بيدها صينية وكأساً، وقالت: "شراب الكرز الحامض! أنت تحب الكرز الحامض..."

تورد جودت بيك بالحمرة خجلاً، وبحث عما يقوله، فلم يجد، فشكرها فقط.

قالت المرأة: "أرسلت خبراً للولد، سيأتي الآن! هل حال أبيه سيئة حقيقة؟"

هز جودت بيك رأسه.

خيم صمت.

قالت المرأة: "كيف حال عملك أنت يا ابني؟"

قال جودت بيك بلهجة الشاكي: "سيئ، سيئ!" بعد ذلك دس يده ذات الخاتم في جيبه.

قالت الخالة: "ماذا نفعل؟ أصلح الله الحال. كل شيء يسوء. الله يحسن خاتمتنا!"

سكتا من جديد.

بعد قليل، قال جودت بيك إن والد ضياء ينتظره، ووقف على قدميه. وانشغل بال المرأة على الولد، فذهبت إلى النافذة، ونظرت.

قالت: "آه، هاهو هناك، إنه قادم! ولكن عليك أن تعيده! متى ستعيده؟"

وعد جودت بيك بأن يعيد الولد بعد أن يراه والده. لعل الولد يبقى عدة أيام عند أبيه. تقبلت الخالة هذا بتفهم، ولكن جودت بيك أبدى شعوراً حاداً بعدم الثقة. خرجا معاً. رأى جودت بيك شيئاً جديداً في الحديقة القديمة: أنشئ خم. ثمة دجاجة تمشي فوق سقف الخم.

قـرع الجـرس مـرة أخـرى وقـد تـذكـر جـودت بيـك طفولتـه. التفـت الأطفال المتحلقون حول العربة المغلقة، ونظروا إليهمـا. بـدا جـودت بيـك كأنه عرف أحدهم.

قالت الخالة زينب: "يا ابني ضياء، انظر من أتى! جاء عمك جـودت، هل عرفته؟"

خطـا الولـد خطـوة إلى الأمـام. لابـد أنـه قـد خـاف مـن هـذا العـم الأنيـق الهندام. خطا عدة خطوات متوجسة أخرى وهو ينظر تـارة إلى جـودت بيـك، وتارة إلى زينب خانم.

آخر مرة رآه فيها جودت كانت قبل ست سنوات في عيد أضحى. كـان يبدو عليه حينئذ أنه في الثالثة أو الرابعة من عمره. داعـب خـد الولـد. وقـال محاولاً أن يبدي له محبة: "كيف حالك لنرى، هل عرفتني؟"

هـز الولد رأسه بخوف.

قالت الخالة زينب: "سيأخذك عمك في نزهة يا ضياء. بعد ذلك سيعيدك! هل تريد أن تتنـزه؟"

قال الولد: "بالعربة؟" والتفت ناظراً إلى العربة المغلقة وسأل أحد أصدقائه الحوذي عن أمر ما.

قالت الخالة: "نعم، بالعربة! سينـزهك عمك بعربته! هـل تريـد أن تتنـزه بعربة عمك؟"

نظر جودت بيك بطرف عينه إلى الحوذي. لم يسمع على ما يبدو.

تمتم الولد قائلاً: "أريد!"

قالت الخالة: "إذاً اذهـب، وغير هنـدامك. الركـوب في تلك العربـة غير ممكن بهذا الهندام."

ذهـب الولـد إلى البيـت راكضـاً. صـرخ ولـد آخـر: "سـيركب ضـياء بالعربة ولاه!"

التفتت الخالة إلى جودت بيك، وقالت: "أعده، ممكن، لا تتركه هناك!"

اندس أحد الأولاد المتحلقين حول العربة بين العجلات، وتفحصها بدقة. التفت إلى ولد آخر اقترب منه، وقال: "انظر إلى تلك النوابض. إنها نوابض فولاذية. هذه نوابض جيدة!"

كانت الشمس تحرق بلهيبها الزقاق الضيق. لم يكن ذيلا الحصانين قادرين على طرد الذباب. كان هناك رجل مسن ينظر إلى العربة من نافذة دون شبك. هبت نسمة أثارت غبار الزقاق إلى الأعلى، فأغلق الجميع أفواههم، وغموا أعينهم باعتياد. بعد ذلك هدأت النسمة، وفُتحت الأفواه.

سألت الخالة: "أمازال ضد سلطاننا؟"

قطب جودت بيك حاجبيه، وقال: "إنه الآن مريض جداً!"

جاء الولد من البيت راكضاً. قبل جودت بيك يد الخالة.

أمسكت الخالة ضياء من يده، وقالت: "لا تشاغب، ممكن؟ عمك سيعيدك." ونظرت إلى جودت بيك بطرف عينها.

أمسك جودت بيك بيد الولد. وركبا العربة معاً. وطوق الأولاد العربة.

قال أحد الأولاد: "ضياء ذاهب، ضياء ذاهب."

تحركت العربة، ونظر الولد إلى الخالة حتى غابت العربة. بعد ذلك التفت، ودقق نظره بجودت بيك خائفاً. عندما شعر بالأمان جلس بتهيب في زاوية المقعد، ولكي لا يمضي دقيقة واحدة من نزهة العربة هذه من دون الاستمتاع بها، انكب على التفرج عبر النافذة.

أراد جودت بيك أن يحدث الولد بشيء ما، ولكنه أجل هذا الأمر حين استنتج أن كلماته ستربكه. عندما كانا في آقسراي أشار إلى الجوامع وإلى هذا وذاك. أثناء مرورهما من بيازيد سأله عما إذا كان قد أتى إلى هنا في رمضان. وحاول أن يشرح له ما هي وزارة الحربية، وماذا يعملون فيها، ولكن ضياء كان يعطي المشاهد قيمة أكثر من الكلمات.

خلال مرورهما من فوق الجسر نظر جودت بيك إلى ساعته، ودهش عندما رأى أنها تشير إلى السادسة. تواعد مع فؤاد بيك على اللقاء في سركلوريان في الساعة السادسة والنصف. أراد أن يفاتح ضياء بموضوع مرض أبيه، ولكنه لم يستطع القيام بذلك أيضاً. ثمة ما يقلق جودت بيك في

نظرة الولد. لم يفهم ما هو. في إحدى اللحظات فكر: "لو ينتهي عمل سيركجي هذا، وأسلم هذا الولد لأبيه!" وغرق في حساباته التجارية، وهمومه، ومخططاته.

حين وقفت العربة أمام البنسيون، أدرك جودت بيك أنه لابد أن يشرح لضياء بأن أباه مريض، وحاله سيئة. وفي أثناء صعودهما الدرج حكى له بسرعة:

"قبل أيام جاء أبوك من السفر. وهو الآن مريض. تنزهنا بالعربة. وجئناه ضيوفاً. يريد أبوك أن يراك. توجد خالة عنده! أبوك يضطجع في الفراش لأنه مريض. وتلك الخالة ترعاه. ستراهما الآن. ليس ثمة ما يخيف! نعم، سنعود إلى الخالة زينب إن لم يكن هذا المساء فغداً."

فتحت الباب ماري. وسلمت على ضياء مبتسمة. ثم انحنت، وقبلته، ووضعت إصبعها على شفتيها بإشارة "اصمت":

"إنه ينام!"

اندس ضياء خلف جودت بيك خائفاً. كان نصرت نائماً وظهره باتجاه الباب. نظر ضياء إلى الجسد تحت البطانية متوجساً. ثم جلس حيث أشير له بانتباه كأنه خائف أن يكسر شيئاً.

اقتربت ماري من جودت بيك، وهمست له: "يقول الطبيب إن وضعه سيئ جداً. أعطانا أدوية. وأعطاه حقنة لتهدئة آلامه وأوجاعه. في البداية لم يرد أخذ الحقنة، ثم قبل، ونام."

قال جودت بيك: "لأذهب إذاً. وأشكرك كثيراً! وأريد أن أقول هذا، وقد نسيت. أرجوك لا تبلغيه بإلقاء القنبلة على السلطان. إذا عرف هذا سينفعل كثيراً، وترتفع حرارته، وتسوء حاله." ومن دون انتظار خروج جودت بيك، وذهبت إلى جوار ضياء، وجلست، وبدأت تتكلم معه.

انتبه جودت بيك إلى أن ماري لا تتكلم مع ضياء كما لو أنه طفل، بل بجد كانت تكلمه كأنها تتكلم مع إنسان في مستواها. وخشية أن يعجب بها، فكر: "نعم، ولكنها ممثلة مسرحية! إلى أي حد هي بعيدة عن العائلة!" وخرج.

6
طعام الغداء

ذهب جودت بيك إلى جوار الحوذي فور خروجه إلى الزقاق. طلب من الرجل المدخن تلك السجائر القذرة الرائحة أن يأتي في السابعة والنصف، ويأخذه من أمام باب نادي سركلدوريان. كانت الساعة تشير إلى السادسة والربع بالتوقيت التركي.

سيلتقي فؤاد بيك في السادسة والنصف. قرر جودت بيك أن يلهي نفسه قليلاً لخجله من الدخول إلى النادي ملوحاً بيديه وهو ليس عضواً فيه. تمشى في الشارع الرئيس. ذهب إلى سوق حلب. نظر إلى إعلانات مسرح فاريته. كان قد تفرج مرة على تمثيل أوبريت لفرقة رديفة قادمة من أوربا، وقد مات من الملل. نظر إلى واجهات المحلات والماشين والعربات مندهشاً من طرق تمضية الوقت التي يطرقها الناس. دخن سيجارة. فكر بأنه بعد طعام الغداء، وفي الساعة الثامنة سيذهب إلى دار شكرو باشا في التشويكية. ثم التقى بعد وقت قليل فؤاد بيك.

كان جودت بيك وفؤاد بيك بعمر واحد. كلاهما أيضاً تاجر، وما يقرب بينهما هو هذه الخصوصيات: اهتم أحدهما بالآخر فور تعارفهما انطلاقاً من شعورهما المشترك بأنهما مسلمان وتاجران كبيران. غير هذا، كلاهما عازبان، ويعملان بالخردوات، وكلاهما أيضاً طويلان ونحيفان. بالنسبة إلى جودت بيك فالتشابه ينتهي هنا. لأن فؤاد بيك ينحدر من أسرة

لها تقاليد بالتجارة: كان من أسرة سالونيكية يهودية تحولت إلى الإسلام. إضافة إلى أنه ماسوني، ولديه محيط أسري كبير في سالونيك. تعرف إلى جودت بيك عندما جاء إلى اسطنبول لفتح دكان. وكلما أتى إلى اسطنبول من سالونيك حيث متجره وعائلته في السنة الأولى لتعارفهما، كان يبحث عن جودت بيك، ويذهبان إلى هذا النادي، ويتناولان الغداء فيه. وأثناء الطعام يتحدثان عن الأعمال التي قاما بها، وعن حياتهما خلال فترة غيابهما. ويستعرضان إمكانية قيامهما بعمل مشترك، أو تأسيس شراكة، ويتبادلان الحديث عن تصوراتهما عن الزواج، ثم يتحدثان عن أشياء أخرى، ويخوضان في النميمة منشرحين. الصداقة مع فؤاد بيك بالنسبة إلى جودت بيك مفيدة، ويتعلم منها لأنها فرصة لمعرفة حياة الأغنياء والنخبة الاجتماعية الاسطنبولية، وأوساطها، والدخول في أعماقها حيث كان هو مايزال يدور حولها، وعلى أطرافها ولم يستطع الولوج إليها بأي شكل. ويعتقد جودت بيك أن المجيء مع صديقه مرة واحدة إلى هذا النادي يعلمه أضعاف ما تعلمه خلال أشهر من قراءة الجرائد، والإصغاء للقيل والقال. ويشعر جودت بيك وسط المخمل، والأرائك المذهبة، والسجاد، وثريات الكريستال كأنه سيلتقط أسرار المحيط الذي يقضي فيه حياته اليومية، وعالم الأسعار الغامض والمتغير باستمرار خلال لحظة.

دخلا النادي، وصعدا الدرج، ومرة أخرى كان يحيط بهما أرائك، وسجاد، وباشاوات مرمين جانباً منسيين، وسفراء، ومرايا مذهبة، وكريستال. جلسا حيث يجلسان دائماً على الطاولة التي وضعت في الزاوية بعد أن عبرا بين تجار يهود، وأقرباء نبلاء أوربيين، وثريات، وستائر حريرية، ونادلين مهذبين وجاهزين دائماً. وانفعل جودت بيك خلال تلك السفرة بين الباب والطاولة التي في الزاوية كما يحدث له كل مرة، وافعم بالأمل، ورفع رأسه لكي لا يشعر بالانسحاق، وفكر بأشياء غاية في التعقيد، وتلون بالحمرة.وقابل فؤاد بيك أيضاً حمرة الخجل في وجه صديقه بالابتسام كما يحدث كل مرة. ثم طلب منه أن يحكي له عن حفل الخطوبة.

قال جودت بيك: "كما قلت لك، ساعدني نديم باشا، الله يسلمه، ومد لي يد العون. وحدث كل شيء بفضله. لولاه لما تم هذا الأمر! وسيكون العرس في داره أيضاً!"

"من أين تعرف نديم باشا أنت؟"

قال جودت بيك: "ليس من مكان! أتى في أحد الأيام إلى دكاني. وهو الباشا الوحيد الذي أعرفه. ليس ثمة أناس كهؤلاء في عائلتي كما تعرف. نديم باشا، الله يسلمه، أحبني. ولولاه لما وجدت تلك الفتاة أيضاً! أنت تعرفني. كيف لي معرفة وجود فتاة مناسبة لي عند شكرو باشا؟.. ليس لي أقرباء يعرفون هذه الأمور أيضاً!" لوى جودت بيك رقبته بطريقة الأخ الصغير المسحوق، والطالب عطفاً.

في هذه الأثناء اقترب النادل، وقدم لهما قائمتي الطعام اللتين بيده. واتخذ فؤاد أيضاً أمام النادل موقف الأخ الكبير الحامي جودت، والفاتح له جناحه، وسأله: "ماذا ستأكل؟"

في كل مرة يأتي جودت بيك إلى هنا يتذوق سعادة اكتشافه لذوقه، ولمتعه الصغيرة. جرب غالبية الأطعمة المدونة في القائمة ذات مرة، ومثله مثل الآخرين كلهم هنا عرف بوجود أطعمة تعجبه أو تعجبه كثيراً، وأخرى لا يحبها أو يتخذ موقفاً محايداً منها. وبانفعال تكوين عادة، طلب بداية الطعام الذي يحبه كثيراً وهو اللحم بالبندورة، ومسقعة الباذنجان بزيت الزيتون، وأخذ بعين الاعتبار جانب الحذر فقرر طلب الحلويات المدعوة "سوبانغليز".

بعد أن ذهب النادل، أشار فؤاد بيك إلى الجالسين على مبعدة منهما عند النافذة. الرجل السمين هو غالب باشا، والهزيل ذو النظارة في الوسط هو المترجم، وذو الوجه الأبيض هو هيفونين مدير سكك الحديد في الأناضول. نظر جودت بيك محاولاً حفظ ما يراه في عقله جيداً. بعد ذلك تحدثا عن أشياء متفرقة. حكى فؤاد بيك عن أعماله. واستعرضا تصوراتهما المشتركة كلحظة ممتعة. جلب النادل الطعام. فانتشى فؤاد بيك. وحكى عن خصوصية ما يتناوله من طعام. كان يحب نوعاً من فطائر اللحمة التي كانت أمه تحضره كثيراً. وهو يتذكر كيف تحضر تلك الفطائر. حكى عن هذا كله لجودت بيك متقمصاً دور المعلم، ولكن بتواضع ومحبة. وبعد ذلك، رفع حاجبيه: "لست مرحاً اليوم!"

"أخي الأكبر مريض جداً!"

"ياه، مم يعاني؟"

"السل. حاله سيئة جداً. يمكن أن يموت اليوم أو غداً."

"حزنت كثيراً. أخوك الكبير من أولئك، أليس كذلك؟ لم تخبرني أنه عاد من باريس. المهم... إذا كان مريضاً، فهذا خبر سيئ، ولكن عليك أن تباهي بأخيك الكبير لأنه منهم!"

لم يكن جودت بيك قد أخبر فؤاد بيك بأن أخاه منهم. فكان ينظر إلى صديقه بريبة.

"لا تخف يا روحي. هل تخاف مني؟ كل من يُشغل عقله يعرف هذا. أما ذهب أخوك الكبير إلى باريس، وبقي هناك عشر سنوات، وتخرج في كلية الطب العسكرية؟ فوق هذا فهو مشاكس، ومشاغب... إذا لم يكن من تركيا الفتاة، فماذا سيكون؟ أنت من يجب أن يتعلم كيف يباهي به!"

قال جودت بيك من جديد: "إنه مريض جداً. أخاف عليه." ودهش لكلام صديقه.

قال فؤاد بيك: "افهمه بدل أن تحزن عليه!"

قال جواد بيك شاكاً: "أنا أفهمه. فكرت اليوم: أنا أفهمه، ولكنني لا أستطيع أن أظهر هذا!"

"نعم، لأن الحياة التي تعيشها، وطريقته في المشاكسة تمنعانك من إظهار تفهمك له. ولكنكما لو كنتما أكثر شباباً قليلاً، وأكثر تسامحاً لتفاهمتما بشكل جميل جداً. لأن أحدكما يكمل الآخر. أرى أنك لم تفهم هذا! لأوضح لك: ماذا يريد أخوك الكبير وأمثاله؟ تنفيذ القانون الأساسي، وفتح المجلس؛ وانتهاء الاستبداد، ومجيء الحرية، وسقوط عبد الحميد إذا اضطر الأمر من أجل تحقيق ذلك. انت تخاف من هذه الأفكار! لماذا؟ لأن هذه الأمور غامضة، ومخيفة! لأنك لا تستطيع رؤية فائدتها! لأنك تخشى أنصار تركيا الفتاة، ووقوعك في المشاكل!"

قال جودت بيك: "أنا لا أهتم بالسياسة أبداً. أنا كتاجر لا أستطيع فهم ما يمكن أن تفيدني فيه السياسة!"

"حسنٌ، حسنٌ أنا أعرف هذه الأمور! اسمعني: ما الضرر الذي يمكن أن يصيبك إذا أتت الحرية التي يطالبون بها؟" ثم أضاف بانفعال، ولكن بقليل من القلق: "لا شيء، لا يمكن أن يصيبك أي ضرر!"

كرر جودت بيك: "أنا لا أرى فائدة في السياسة!"

"يمكنك أن تحل كل شيء إذا فكرت على هذا النحو بالطبع. ولكن الأمر ليس هكذا. هل الحياة هكذا؟ ليست هكذا. تقول إنك تفهم أخاك الكبير، ولكنك في الحقيقة لا تستطيع فهمه. ماذا يريد هو؟ الحرية، وما شابه ذلك... فكر أنت بهذا: لا أقول لك افعل شيئاً! فكر! ستفهم إذا فكرت! وهذا ليس مخيفاً. ثم إننا لماذا نعيش؟ أمن أجل التجارة وكسب النقود فقط؟ لا! من أجل عائلة وبيت وأولاد... هل من أجل هذه! ولكن هذه أيضاً محدودة حيث لا توجد حرية. هل سيكون سيئاً إذا غدا كل شيء حراً كما هناك، في أوربا؟ نساؤنا كالجاريات، ويقدم للمحكمة من يفطر في رمضان... لا، والأسوأ، الأسوأ هو: رغم كل هذه القواعد والتقاليد البالية فإن العاملين بالتجارة ليسوا أمثالك وأمثالي من المسلمين، بل كلهم من الأرمن واليهود والروم. انظر، حتى أنا لا أعد مسلماً بكل معنى الكلمة! أنت وحيد!"

قال جودت بيك: "نعم، هذا صحيح، ولكن هذا لا يفرض علي الاهتمام بأمور من هذا النوع! أنا لا أستطيع معارضة السلطان!"

"من يقول لك عارضه يا روحي! ألا تريد أنت أن يكون وضع البلد أفضل؟ حسنٌ، قليل من الإصلاح، ألست راضياً بهذا؟"

"لا أستطيع رؤية فائدة لهذا... حسنٌ! إذا رأيت، فماذا سيحدث؟"

"كيف لا تستطيع رؤية فائدته؟ هذا يعني أنك ترى كل شيء هنا جيداً ولا نقص في هذه الدولة، وعلى هذه الأرض؟ أيجب أن يبقى كل شيء على ما هو؟ أهذا ما تقوله يا جودت؟"

"لا أقول هذا!"

"حسنٌ، ماذا تقول؟ انظر، الأعمال في البلد متعثرة. ليس ثمة حرية هنا، حال الدولة سيئ، كل شيء تعفن، أنت تعرف هذه الأمور كلها، أليس كذلك؟ طالما أنك تعرف كل هذا... هيه، يا ابني، خذ هذه الصحون. طالما

أنك تعرف هذه الأمور، ينبغي أن تكون مع التقدم أيضاً، ومع أن نشبههم قليلاً، أولئك الذين في أوربا! ولكن هذا لن يكون بالجلوس هنا، وتناول الطعام مع هؤلاء المسوخ. وليس بالرقص، والحديث بالفرنسية، ووضع القبعة أبداً... بل تأييد الحرية.. إيه، ماذا تقول في هذا؟"

ابتسم جودت بيك: "أقول إنني كتاجر يجب ألا أتدخل بهذه الأمور!"

"آه، آه منك يا تاجر تحسب كل شيء! كم أنت حاد! أنت تفهم، ولكنك تتظاهر بعدم الفهم. حسنٌ يا جودت، هل الحياة كلها بالنسبة لك كسب نقود، وتأسيس عائلة؟"

تذكر جودت بيك العائلة التي سيؤسسها، فابتسم مرة أخرى، وقال: "وهذا ليس قليلاً!"

لم يستطع فؤاد بيك ضبط نفسه، فابتسم: "كم أنت مصمم على هذه الفكرة! أنا مندهش منك! ولكنك ترتكب خطأ، أنا أقول لك لكي لا تقول فيما بعد بأنه لم يحذرني!"

قطب جودت بيك حاجبيه: "ما هو هذا؟"

وبمتعة جعل جودت بيك ينتظر منفعلاً أشعل فؤاد بيك سيجارة ببطء شديد، وقال: "أنت تتزوج باكراً!"

"ها! أ هذا هو الخطأ! لا يا صاحبي، حتى إنني تأخرت!"

"تعتقد أنك تأخرت، ولكنك مخطئ... كان عليك أن تنتظر قليلاً أيضاً. إذا انتظرت قليلاً ستتزوج زيجة أفضل. انتظر قليلاً، وافهم أنصار تركيا الفتاة هؤلاء، وبعد ذلك سيكون كل شيء أفضل بالنسبة إليك!"

قال جودت بيك ضاحكاً: "خفت منك الآن، أنت أيضاً صرت من تنظيم تركيا الفتاة. يظهرون تحت كل كلمة تقولها!"

"اضحك أنت أيضاً. ولكنك تتسرع. انظر، واسمعني جيداً. بعد فترة قصيرة إما أن يذهب عبد الحميد، أو يموت. وبعد ذلك..." سكت منتظراً النادل الذي جلب أطباق الحلويات "وبعد ذلك، ستزداد أهمية أنصار تركيا الفتاة هؤلاء. وسينتقلون إلى رأس الدولة. لا تنظر إلي بشبهة هكذا. أقول الحقيقة. الجميع يعرف هذا..."

"هذه أول مرة أعرف فيها أن لديك حسابات كهذه!"

"أرجوك يا عزيزي جودت، أنت دائماً تتقدم علي في هذا الموضوع، ولكنك لا تعلم! لو عرفت! لو عرفت، لأدركت أنك رحت رخيصاً! كيف هو وضع شكرو باشا؟ أنا أعرف، بحثت في هذا الأمر من أجلك. الوضع المالي لشكرو باشا سيئ جداً. باع أراضيه، ويبحث عن زبون يشتري داره التي في تشاملجا. وباع إحدى العربات... إيه، وموقعه ليس لامعاً. أنت فرح لأنك وجدت عائلة جيدة، ولكن الحقيقة هم رتبوا هذه العملية."

قال جودت بيك: "أنا لم أفكر بهذا الأمر باعتباره عملية في أي وقت!"

"حسنٌ، حسنٌ، لا تغضب... ولكن عليك أن تفهم ما يجري على الأقل. تقول إنك تفهم أخاك الأكبر، ولكنك لا تستطيع فهمه!"

قال جودت بيك: "أنت تحاول جذبي إلى السياسة. أنا لا أعرف ما تفكر فيه أنت، ولكنني لا أهتم بالسياسة! السياسة أمر، والتجارة أمر آخر. لم يكن لي في هذه الحياة مطالب سياسية. أنا لا أجد هذه الأعمال صحيحة!"

"إنه مفهومك: إما الكل، أو لا شيء. لن أستطيع تعليمك كيف تكون رحباً ومرناً. أنت ترى أن هناك مفهومين في الحياة. إما أن تعارض شيئاً، أو تؤيده. لا يوجد حل وسط بينهما! أخوك الكبير هكذا أيضاً. هو يعارض. بحسب ما فهمته فقد تمادى بمعارضته إلى حد أنه صار معارضاً حتى للحياة. أنت تعتقد أن هذا مزاحاً، ولكن الأمر هكذا. هذا طبعكما. أنت أيضاً تعرف التجارة، وتفكر بعائلة، ولا تهتم بشيء آخر، وتعارضه. ولكن الأمور ليست على هذا النحو. ثمة طريق ثالث دائماً." وترك شوكته وسكينه على طرف الصحن. "هذا هو التصالح. عليك أنت، وعلى أخيك الكبير أن تتعلما هذا... إلى أي حد كان أحدكما قريباً من الآخر، ولكنكما غير منتبهين!"

شعر جودت بيك بضرورة تصحيح ما قاله قبل قليل: "لا أستطيع فهم ما تقوله. ولكنني سأعيد عليك هذا. أنا لا آخذ ابنة شكرو باشا هذه لأنها تملك أو لا تملك نقوداً!"

"ولكنك تفضل ابنة باشا! لا تنظر هكذا. هذا ليس عيباً. هذا هو الصواب أصلاً. أنت تريد فتاة من عائلة جيدة، وذات تربية جيدة. وهذه

موجودة الآن عند الباشاوات، وفي أوساط القصر. وهم أيضاً يريدون واحداً لديه بعض النقود، فيرونك مناسباً."

قال جودت بيك وقد أعاد النظر فيما قاله صديقه مئات المرات مدركاً أنه لم يقل هذا بشكل صريح في أي زمن: "أنا لا أفكر على هذا النحو! أنا لا أفكر... أنا أعتقد... بأن يكون لي عائلة جيدة. ولتكن أعمالي جيدة. امرأة جيدة، وأولاد... هذا هو هدفي!"

"إنك تقول الأمر نفسه مرة أخرى. هذا ليس معوقاً للسياسة. ثم ما الذي تسميه سياسة؟ فكر قليلاً..."

أبدى جودت بيك قليلاً من الملل، وقال: "أنا أخاف منك، هل تريد أن تزجني في مؤامرة؟ افعل هذه الأمور مع شقيقك! أنا لا أعرف أموراً كهذه!"

قال فؤاد بيك: "كم إنك ماكر يا جودت بيك!" وضحك متوتراً. "أنا أتحدث إليك عن هذا الأمر: كن مرناً قليلاً! غير رؤيتك حول إما الكل أو لا شيء. افهم أن الحياة دائماً عبارة عن مصالحات صغيرة. العائلة والدكان؟ ألا يوجد شيء آخر؟ الحياة ضيقة جداً إذا لم يكن هنالك شيء آخر، وهذا يعني أنها عسيرة ولا لذة لها. غير رؤيتك تلك. انفتح أكثر! هذا ما أقوله لك. كنت أريد أن أقول الأمور نفسها لأخيك الكبير أيضاً. لا اعرفه، ولكنه يجب أن يكون آخذاً كل شيء نحو التطرف."

"آه، هذا ما فهمته في أخي الكبير. ما أسميته أنت التطرف، أي اتخاذ قرار في الحياة، والسير في ذلك الطريق. هو اتخذ قراره. يحاول أن يعمل أشياء ما. أنا أفهم هذا! وأحترمه. ولكنني مع الأسف، لا أستطيع شرح هذا له." وأضاف غاضباً: "لا أستطيع شرحه لأنه لا وقت لدي!"

قال فؤاد بيك: "أترى! أنتما لا تعيشان. أنتما متشابهان. ولكن لا تغضب مني، أنت وأخوك الأكبر هكذا!" ووضع يديه إلى جانب عينيه مثل طماشة حصان. "لا ترون شيئاً آخر عبر هذه الزاوية. هل الحياة هكذا؟ ما هي الحياة؟ العيش، والروية، والمرونة... الحياة أمر ملون! نعم، كيف تراها أنت؟"

قال جودت بيك بموقف حازم: "هذا السؤال ضرب من العبث! أنا مسرور من حياتي!"

"آه، إنك تخاف حتى من التفكير!"

قال جواد بيك: "لا. لأقل لك..." وفكر، ثم قال: "الحياة هي العيش بشكل جيد!" وحينما قال هذا أدرك أنه كمن يعطي الحق لفؤاد بيك، فقال: "لا، لا، ليست كذلك!" بعد ذلك اضاف غاضباً: "لا أعرف. لم افكر بهذا ابداً. انا اجد هذا السؤال هراء. من ناحية أخرى أرجو الا تتحدث عن أمور كهذه بعد الآن. ولا أريد أن أسمع شيئاً عن العسكريين الذين في سالونيك أيضاً. أرجوك جداً. لا تزجني بأمور كهذه. ومنذ الآن سأنسى ما قلته!"

قال فؤاد بيك: "أنت حاد وتركي الطراز جداً يا عزيزي جودت!" ثم ضحك. والتفت إلى النادل، وقال: "يا ابني، هات الحساب لنرى!" والتفت إلى جودت بيك بالابتسامة ذاتها: "أنت حاد وتركي الطراز جداً، ولكنني مسرور جداً من الحديث معك يا عزيزي جودت!"

ابتسم جودت بيك أيضاً. وارتاح قليلاً لأنه لن يعاد طرح الأسئلة والأفكار المخيفة والمزعجة. كانا يدفعان ثمن الطعام الذي يتناولانه معاً بالتناوب. كان الدور في هذه المرة على فؤاد بيك. وبعد أن دفع الحساب، نهضا. عندما وصلا أول الدرج، نادى أحدهم:

"واخ، مرحبا يا جودت بيك الضوئي! ماذا تعملون في أمكنة كهذه؟"

كان هذا موشيه تاجر التبغ الذي يعرفه جودت بيك من سيركجي. حاول جودت بيك أن يبتسم.

كان موشيه يحب المزاح: "أم انكم أنتم من القى القنبلة يا جودت بيك؟ ام انكم انتم؟" واطلق قهقهة: "ما عملكم هنا بجد؟"

أطلق جودت بيك أيضاً قهقهة كأن هذا مزاح مرح ورفيع. ثم فكر: "ما عملي هنا؟" نزل الدرج. ووجد نفسه ضعيفاً ومنهكاً ومضحكاً. ودع فؤاد بيك. كان الحوذي ينتظر أمام الباب. ثمة شمس كبيرة كصحن فارغ في الأعلى، وفي الذروة تماماً. تمتم كأنه يئن: "اين انا. اوف، كم الجو حار!" وقال للحوذي إنه سيذهب إلى تشويكية. اشتدت فوقه وطأة الحر مرة أخرى. وبدأ يهتز مع العربة.

7
في دار باشا

كان يهتز مع العربة متكدراً لعدم استطاعته أخذ قيلولة، ويفكر بنفسه: "أفكر بحياتي. ما الحياة بالنسبة إلي؟ هذا ما سأله فؤاد. وأنا قلت له إن هذا السؤال عبث. نعم إن هذا السؤال عبثي، لا أريد أن أفكر فيه! ما هي الحياة؟ من أين يتعلم أشياء كهذه؟ من الكتب، من أوربا، من أناس الله أعلم من يكونون، وراء مؤامرة الله أعلم! ما هي الحياة؟ هذا السؤال عبث! أنا سأفكر على هذا النحو، وسأضحك. قه، قه، قه. كيف ضحك موشيه؟ مزاحه أيضاً سافل جداً! أم أنك أنت من ألقى القنبلة يا جودت؟ لا، أنا كسرت القرميد. عندما كُسر القرميد دلف السقف، والجميع نظروا إليَّ بعداء، وغمر السيل الصف حتى الركب. عرقت! كان حلماً مخيفاً أيضاً. كان علي أن أفهم من ذلك الحلم المخيف أن اليوم سيكون هكذا. اليوم! كم صارت الساعة؟ إنها تقترب من الثامنة. لابد أن شكرو باشا قد بدأ بانتظاري.

دعا شكرو باشا اليوم جودت بيك إلى داره للتحدث حول تصوراته للمستقبل. عرف جودت بيك هذا من الخادم القادم إلى الدكان لدعوته، ولكنه يشعر أن الباشا دعاه للثرثرة معه، بسبب ضيقه الواصل إلى حافة الانفجار. وعندما كان يتذكر شكرو باشا، تخطر بباله كلمات فؤاد بيك شاء أم أبى. فكر: "أعرف أنه باع أراضيه، ويبيع الآن داره، ولكنني

لم أعرف عن العربة! إذا باع العربة، فهذا يعني أن وضعه سيئ حقيقة. ترى هل فؤاد على حق؟ هل أرتكب خطأ؟ لا! هذه الأفكار قبيحة. أنا أريد نيغان فقط، ولا أفكر بشيء آخر."

انشرح عندما تذكر نيغان. وفكر: "نعم، رأيتها مرتين!" تذكر مرة أخرى ذلك المشهد المخيف. "رأيتها مرتين، وفهمت أنها إنسانة جيدة. ماذا يوجد في هذا؟ ألا يستطيع الإنسان أن يفهم؟ وتحدثنا..." رأى نيغان أول مرة وهي تطل من غرفة ضيوف دار شكرو باشا إلى الخارج. ثم تحدثا حول تلك المهزلة المدعوة خطوبة، والتي جرت في الدار ذاتها. قال جودت بيك: "كيف حالك يا آنستي؟" قالت نيغان أيضاً: "جيدة يا سيدي، وكيف حالكم انتم؟" وحاولت التظاهر ببرودة الأعصاب والتعقل كعجوز ناضجة، وهربت فوراً لأن كرامتها لم تقبل أن يحمر وجهها. هناك تعال في مظهرها، ولكنها تبدو جيدة. وفيما بعد، وضع جودت بيك تلك الفتاة التي رآها في البيت وسط حياة العائلة التي تصورها. لم تكن نيغان جميلة جداً، ولكنها ملأت مكانها في تلك التصورات، وبرأي جودت بيك فأن هذا أهم من كل شيء.

عندما بدأ يكبو نائماً تحت تأثير حرارة الظهر والغداء، أسف لعدم احتسائه فنجان قهوة في النادي. أشعل سيجارة، وأعاد النظر فيما يمكن أن يكلم فيه الباشا. انعطفت العربة من أمام ثكنة حربية نحو نيشان طاش. فكر: "نعم، سأقول للباشا بأنني سأشتري بيتاً في هذه الأنحاء!"، وفجأة خطرت بباله زليخا خانم التي سيدعها لمصيرها. ثم تذكر الحسكة، والخالة زينب، وضياء. واضطرب عندما تذكر نظرة الولد إليه، وكيف مشطه ببصره من الأسفل إلى الأعلى. فكر: "ثمة أمر غريب في ذلك الولد. يبدو منذ الآن ماكراً، وحساباً لكل شيء. هكذا، ينظر بغرابة كأنه يقيم الإنسان الذي أمامه!" كانت العربة تنعطف من ساحة نيشان طاش. فنظر جودت بيك عبر النافذة بانتباه إلى البيت الحجري المقابل. فقد تجول في ذلك البيت مرة، وأعجب به، وقرر أنه مناسب لتصوراته. وفكر بالتجول به مرة أخرى عند العودة من زيارته لشكرو باشا. فكر وهو ينظر إلى أشجار الزيزفون والكستناء في حديقة البيت وأمامه: "مكان لطيف!" وانشرح بتذكر حياة الأسرة السعيدة المستقبلية مرة أخرى. وانفعل لحظة

مروره من أمام جامع تشويكية. فكر بأن هندامه جيد. وانتبه لتسارع خفقان قلبه قبل نزوله من العربة.

عندما نزل من العربة سيطر عليه الشعور بالذنب الذي يسيطر عليه كلما أتى إلى هنا. كانت حديقة الدار الأمامية خاوية. وحتى وصول جودت بيك إلى باب قسم الضيوف لم ير أي شيء يتحرك في الحديقة الواسعة غير عصفور يشرب من بركة مرمرية صغيرة. وحين مد يده إلى حلقة الباب الرملية، فتح من تلقاء نفسه، وقال الأبله المنتصب أمامه إن الباشا ينتظر ضيفه في الأعلى. صعد جودت بيك الدرج خائفاً من أن يتسبب بصريره. في الفسحة التي يؤدي إليها الدرج قال له خادم آخر الأمر نفسه بأن الباشا ينتظر. تمتم جودت بيك: "عائلة!" كان هنالك ساعة جدارية ضخمة ذات بندول في زاوية الفسحة تتكتك، ولا يُسمع صوت آخر. "عائلة كالساعة!" دخل إلى الغرفة الواسعة، ولكنه لم ير غير قطع الأثاث.

تلفت يميناً ويساراً: رأى كراسي وديوانات وأرائكَ وثريات. كانت الغرفة باردة قليلاً. مشى بين الأثاث. ونظر إلى لوحة معلقة على الجدار، وفكر بأن انفعالاً يُثار لدى الآخرين عندما ينظرون إلى أشياء كهذه. استعرض الأرائك المذهبة التي تشبه قوائمها قوائم القط. ثمة صندوق صغير مطعم بالصدف في إحدى الزوايا. وفيما يفكر بفائدته، رأى الصدف ذاته على كرسي، فالتفت: ثمة صدف على أريكة وديوانة أيضاً. وكادت أن تنفجر مرارته من الخوف: هناك شخص ينام على الديوانة. عرفه: إنه شكرو باشا. بقي متسمراً دون أن يفكر بشيء. ثم فكر بالخروج. انتظر أمام الباب قليلاً. كانت الساعة تُتكتك. استجمع جرأته، ودخل إلى الغرفة من جديد، واستدار موارباً للباشا، وسعل بما أوتي من قوة.

تمتم الباشا قائلاً: "ها. نعم، صهرنا!" ونهض. عندما رأى جودت بيك، قال: "تعال يا ابني، تعال. لم أكن نائماً، قلت لنفسي لأغفُ قليلاً."

قال جودت بيك: "هل كنتم نائمين يا باشاي؟" واقترب من الرجل المسن.

قال الباشا: "الحقيقة لا يقال عن هذا نوم، بل غفوة! لعلني أفرطت قليلاً بطعام الغداء." وعندما رأى أن جودت بيك ينحني على يده، قال: "لا،

مستحيل، مستحيل" ولكنه لم يقاوم كثيراً. "أكثر الله من مقبلي يدك أيضاً يا ابني. قل لنرى، لماذا لم تأت إلى الغداء؟"

"لم أكن أعرف أنني مدعو يا باشاي."

قال شكرو باشا: "كيف؟ ألم يخبرك بكر؟" وفهم من غضبه المفتعل أنه تذكر عدم دعوة جودت بيك إلى الغداء. "أنا أعرف كيف أحاسبه على هذا. فوّتَ عليك طعام الغداء! ولكن ماذا يهم! القلب يريد صحبة والقهوة ذريعة، أليس كذلك؟" قال هذا محركاً يده يمعنى كل شيء تافه. "قهوة أم كونياك؟ لنشرب قهوة بالعنبرية، أليس كذلك؟ لماذا لا تجلس؟" تثاءب متمطياً. "هيه يا الله، يبدو أنني أفرطت بالطعام على الأغلب!" نادى الخادم. طلب قهوة وعنبرية. ثم التفت إلى جودت بيك، وقال: "يا لحرارة الجو، أليس كذلك؟"

قال جودت بيك: "نعم، الجو حار!"

قال الباشا: "لا يمكن الخروج في هذا الحر!" ثم صحح قائلاً: "أنا لا أستطيع الخروج! حسنٌ، لنر ماذا فعلت أنت اليوم؟"

حكى له جودت بيك ما حدث معه بالتفصيل منذ الصباح من دون اهتمام زائد بمرض أخيه، ومبالغاً بالطعام الذي تناوله في النادي، من دون أي ذكر لرحلته إلى حي حسكة.

قال الباشا: "أحسنت. أنا معجب بك!" ثم قال: "ولكنك شاب. وستكون حيوياً بالتأكيد!" متراجعاً عن المديح. وأضاف متخذاً موقفاً طفولياً: "كم عمرك؟"

"سبع وثلاثون!"

"عندما كنت بعمرك، وأكبر منك بأربع أو خمس سنوات وصلت إلى مرتبة وزير والحمد لله. ولكن ذلك الزمن كان زمناً مختلفاً. يجب على الناس الآن أن يصارعوا الحياة أكثر، وأن يعملوا أكثر... من جهة أخرى كنت أنا محظوظاً أيضاً... لماذا أحكي لك عن هذه الأمور؟" وابتسم بالطفولية ذاتها. حك أطراف لحيته. "تعال إلى جانبي لأرى. تعال إلى هنا. أنت جلست هناك، ولا أستطيع رؤية وجهك."

انتقل جودت بيك إلى جانب الباشا، إلى زاوية الديوانة التي كان ينام عليها الباشا قبل قليل وكان يتصبب عرقاً. جاءت القهوة، والعنبرية في كؤوس كريستالية صغيرة.

قال الباشا: "هل تحب عنبرية توت الأرض؟" ونادى على الخادم الخارج من الغرفة: "اجلب لنا مزيداً من العنبرية. أو اجلب لنا الزجاجة!" وأنهى عنبريته بجرعة واحدة. ونظر إلى جودت بيك متوسلاً أن يتحدث عن أمور ما، وأن يسليه: "احك لنرى ماذا فعلت غير هذا أيضاً؟"

قال جودت بيك شاعراً بالذنب: "الدكان يأخذ كثيراً من وقتي يا باشاي!"

قال الباشا: "ها، الدكان... الدكان ياه! بمن تلتقي أنت؟ من هم أصدقاؤك؟"

"التجار... فؤاد بيك الذي ذكرته لك!"

"هل فؤاد بيك هذا من سالونيك؟"

"نعم يا باشاي..."

"هم. ماذا يقول؟ ماذا يقول عن قضية القنبلة تلك؟"

"لا يعرف شيئاً أبداً يا باشاي. لم نتكلم بالموضوع!"

"لم تتكلما أم لا يعرف؟"

"لم نتكلم يا باشاي!"

"إذا كنتما لم تتكلما، فكيف فهمت أنه لا يعرف؟" وأطلق الباشا قهقهة عندما رأى اضطراب جودت بيك. من الواضح أنه فجر تلك القهقهة مباهياً بذكائه. أفرغ كأس العنبرية بجرعة واحدة، وبارك لنفسه أيضاً. ولكنه وجد دهشة صهر المستقبل مضحكة ففجر قهقهة ثانية، وضرب على ظهر جودت بيك، وقال: "أحسنت، أحسنت، أنا أعجبت بك. تحسب كل شيء وتحتاط. هكذا يجب أن يكون الإنسان!"

تلون جودت بيك بالحمرة.

"هكذا يجب أن يكون الإنسان. أنا معجب جداً بحالك المحتاطة. هكذا يجب أن يكون التاجر! أنت تاجر مسلم. عملك أصعب من عمل أي شخص! أحسنت، لقد نجحت أيضاً! قديماً كان الكفار أو الموظفون عديموا الشرف

واللصوص الذين يكسبون النقود الآن زمن أمثالك. أنت أيضاً يجب أن تعمل، كما أنك منتبه، ولا تقترب من التطرف." ثم نظر إلى كأس العنبرية الذي أفرغه مبتسماً: "كم هذه الكأس صغيرة. لا ينتبه الإنسان إلى أنه يشرب! نعم، أنت لست ميالاً للتطرف. هذا هام جداً! لأن الجميع عندنا يميلون فوراً للتطرف. ثم إن على الإنسان أن يعرف كيف يمسك بلسانه. وهذا الأمر بقدر ما هو مهم بالتجارة، مهم في السياسة أيضاً." ملأ كأسه مرة أخرى، وأفرغه بجرعة واحدة. "نعم، الإمساك باللسان. مادمت قد شربت إلى هذا الحد، فسأحكي لك. مضت حياتي كلها من دون جدوى لأنني لم أمسك بلساني. لأقل لك." انفعل الباشا فجأة. غير جلسته. وملأ كأسه من جديد، وبدأ يشرح: "صرت وزيراً برعاية المرحوم رشدو باشا... وزارة ذلك الشيء، الأوقاف. بعد ذلك بستة أشهر وقعت حادثة علي سؤاوي. علمنا بالحادثة، لا أدري كيف هرعنا بسرعة مع الصدر الأعظم من الباب العالي إلى القصر. أدخلوني أيضاً إلى الحضرة. الصدر الأعظم والسلطان يتكلمان، وأنا لا أقدم وجهة نظري، وأستمع. وخلال الحديث قال سيدنا: هدف هؤلاء على الأغلب هو إسقاطنا عن العرش، يجب أن يكون للنواب إصبع في هذا أيضاً. فكرة خاطئة! إذا كانت خاطئة، فلتكن، ما لك أنت يا شكرو! لا! أنا لم أستطع الإمساك بلساني، اندفعت بانفعال الشباب: رحماكم يا سيدنا، إذا كان النواب في قلب هذا العمل، فهل سيكون الأمر على هذا النحو؟ أقصد هل يتم الدخول في قضية كبيرة إلى هذا الحد بثلاثة أشخاص ونصف؟ كان سيدنا يتوجس منا: هذا الولد يفكر كيف يُسقط السلطان، وكيف ينفذ هذا، لاشك أنه بحث في هذا الأمر، ويعرفه، ففكر بأنه سيكون خطيراً. وهكذا عزل الصدر الأعظم فوراً. وأسست حكومة جديدة. ولم يكن لنا فيها وظيفة! فوق هذا فقد مضى على هذه القضية سبعة وعشرين عاماً. وليس لنا وظيفة حتى الآن! عملت واليا في إرظروم، وقونية لسبعة وعشرين عاماً. عملت سفيراً في باريس، انتظرت دائماً، ولكنهم لم يكلفوني بمهمة. لماذا؟ لأنني لم أستطع الإمساك بلساني." فجأة أفرغ كأساً آخر، ثم بدا عليه الحزن. "فوق هذا، ما أكثر ما قدمته من خدمات لأتقرب من سيدنا!" وسكت فترة، ثم سأل: "هذا يعني إنك لا تعرف ما يقولون حول حادثة تلك القنبلة؟"

قال جودت بيك: "لا أعرف!"

"الرحمة، جيد! إذا عرفت فلا تخبر أحداً. ستكون صهري، أنا أحبك، ملأت عيني. سأنصحك نصيحة: لا تثق بأحد! خاصة أولئك الذين يتكلمون على الطالع والنازل، لا تثق بهم أبداً. لأن الأوساط غريبة. حتى الأولاد والأطفال صاروا ثوريين. أعرف أنك إنسان محتاط، لا تسلم نفسك، ولكن رغم هذا كن منتبهاً! إذا رأيت في مكان ما شيئاً ما، أو سمعت، اعرف بأنهم يريدون أن يزجوك في الأمر عاجلاً أو آجلاً. لا تسمح لهم بأن يزجوك فيه! إذا نظرت فوجدت أن نيتهم سيئة، ويريدون إغراقك بالخطأ، اهرع، واحك عن ذلك لأحد الكبار الذين تعرفهم. هذا ما فعلوه لابني الآن! ابني الصغير تعلق بهذه الأمور على الأغلب! إنه يدرس في كلية الطب العسكرية. في أيام الخميس والجمعة يملأ زملاؤه في الكلية الدار. يغلقون على أنفسهم الباب، ويدخنون السجائر، ويتكلمون متهامسين ساعات. وحين أدخل فجأة إلى الغرفة، يصمتون صمتاً مطبقاً. وخاصة واحد أو اثنان منهم ينظران إلي نظرة عداء. إنهم شبان، متوقدون، منفعلون يجب أن يقابلوا بتفهم. ولكن هل يقابلهم الجميع هكذا؟ ولدنا ساذج. لا يعرف مساوئ وفساداً كهذا. ولكن من سيقدر هذا؟ وأنا أيضاً أكتب مبلغاً القصر بالوضع خشية أن يقع على رأسه شيء، أو أن يفهم بشكل خاطئ. لأن الولد ساذج، لا يستطيع أن يفكر، يمكن أن تفاجأ بوقوع مشكلة له! أليس كذلك؟"

"نعم يا باشاي!"

"ولكنك لم تنه حتى ذلك الكأس! اشربه لأملأ لك. نعم، ولدنا الصغير هكذا، ساذج قليلاً. لماذا أخفي هذا، أم الصبيان جميلة من ناحية الجمال، ولكنها عنيدة قليلاً. أم البنات ذكية. وهي التي تدير هذه الدار. ابني الصغير ساذج هكذا. قلبي مع الكبير، وأخبرك أنت فقط بهذا. سيكون رجل حياة. طلع لأبيه! إنه موظف صغير في غرفة الترجمة، ولكنه يعرف كيف يعيش! إنني أحبه! إنه مهووس بالنساء! يذهب إلى تشاملجا، وينزل إلى مراتع اللهو في كاغتهانة... ويذهب إلى بيه أوغلو... معارفه كثيرون. يعرف الجميع، ويعرفه الجميع، ويحبونه، ولكن انظر، فهو لا يرفع الكلفة مع أحد، ويحافظ على مسافة مع الجميع. اعرف أنه بقدر ما

يكون الاجتهاد والذكاء مهمين للارتقاء في الدولة، فالمعارف والمحيط مهمان أيضاً، بل إن هذا أكثر أهمية. كلما رأيته أتذكر شبابي! ترى تحت رعاية أي باشا سيدخل ابننا؟ لأن هذا شرط لابد منه. يمكن أن يكون لشخصية الإنسان قليل من الاستقلالية في التجارة، ولكن لا إمكانية لهذا في السياسة، وفي هذه الدولة! أنا انتهى شأني. لم يتذكرونا خلال ثلاثين عاماً، ولن يتذكرونا بعد الآن أبداً. أقول لو أن الباشا الذي سيدخل تحت رعايته يكون جيداً!" ملأ كأسه مرة أخرى مطلقاً قهقهة. "لأن الإنسان يضيع من دون مقابل تحت حماية باشا سيئ، ما يدعو إلى الشفقة! مع أن ابننا كم يحب الحياة!" ثم تحول إلى الجد متذكراً شيئاً. "كان ثمة عربة فرشها بحسب ذوقه. لم يربطها إلى حصانين توءمين، بل إلى حصان رمادي، وحصان أبيض. مع الأسف بعتها. لأن نفقاتها شكلت عبئاً. ثم إنني لأخبرك بهذا: نفقات هذا البيت كبيرة. ونيغان ترعرعت بهذا الجو. يجب أن تكون منتبهاً. بعنا تلك العربة. وسنبيع القصر الذي في تشاملجا... لا أدري إن كنت قد وضحت لك؟"

"فهمت يا باشاي!"

قال شكرو باشا: "أحسنت! وأنا أيضاً أفهمك!" وضحك: "زمننا يمضي. ألقوا قنبلة على عبد الحميد العظيم. صار الأطفال والأولاد ثوريين. لا أحد مسرور من وضعه. بعقل من كان يخطر بأن قنبلة ستلقى على عبد الحميد؟ وهذا أيضاً سيتشقلب، ويسقط، ويذهب. لم يتذكرني طوال سبعة عشر عاماً. ولكنني لأقل إنني لست عديم الوفاء. كل ما رأيته، رأيته في عهده. الوزارة، والباشاوية، ولعلها ليست هامة، ولكن الولاية أيضاً، والسفارة. لا أقلق كثيراً على أبنائي وبناتي. وجدت أرضاً رخيصة في أرظروم أثناء ولايتي هناك. قلت لنفسي أشتريها. يوجد وكيل قائم عليها. يأكل منها، ويرسل لنا بعض انتاجها! يمكن أن تنظر فترى أنها قد ذهبت أيضاً. ما الذي يتحمل نفقات هذه الدار؟ ها، أقول لك هذا، أنا مسرور منك. ليس لدي أي قلق حول مستقبل نيغان."

قال جودت بيك وقد تلون وجهه بالحمرة: "سلمتم يا باشاي!"

"ليس ثمة ما يقال على رقيك! ولكنك لم تته هذا الكأس! أنت محتاط كثيراً، كثيراً جداً، كثيراً!" وكان الباشا يحرك رأسه يميناً ويساراً.

تجرع جودت بيك قدحه خجلاً. كانت العنبرية مادة سكرية لزجة.

"أحسنت، وهل ستموت إذا شربت هذا القديح؟ هات لأملأه لك من جديد! دع نفسك على سجيتها قليلاً يا روحي! فهمت إنك تحترمني، ولا تشرب أمامي. رأيتك، وأعجبت بك! ولكننا أنهينا هذا الفصل، والآن بدأنا الصحبة! اخبرني لأرى، كيف تلهو أنت؟ هل تلحق النساء، ما هي متعك؟"

قال جودت بيك: "وهل يبقى لنا وقت يا باشاي!"

قال الباشا: "هيا، لا تخجل، هيا!"

"أقول الحقيقة يا باشاي. كنت قديماً أذهب إلى شيخ زادة باشي، والآن لا أعمل حتى هذا."

قال الباشا وهو يلوح برأسه يميناً ويساراً: "ولكن انظر، إنك تضحك! هذه ضحكة رجل يلحق النساء، أعرف هذا أنا."

إنها المرة الأولى التي شعر أنه يستهين بالباشا، ويمكن أن يقل احترامه له، فخاف.

قال الباشا: "إنك صامت! لماذا؟ انظر، وهذا أيضاً تطرف! هذا مستحيل يا روحي! أنا عشت ما عشت والحمد لله. وتذوقت من نعم الدنيا الكثير. ولكن ماذا عنك؟ لا، لابد أنك تفعل أشياء ما، ولكن..." عندما رأى الجمود في وجه جودت بيك، قال: "حسنٌ، حسن، لأغلق هذا الموضوع!" قطب حاجبيه: "ولكن لا يمكن الحديث معك كلمتين! أنا تكلمت دائماً، واستمعت أنت دائماً. طالما أنك لن تتكلم، تعال لنلعب الطاولة! هل عزمك قوي؟"

قطب جودت بيك وجهه ذي النظرة الجامدة نفسها، وقال: "لا أعرف!"

جلسان إلى لعب الطاولة.

8
حول الزمن، والعائلة، والحياة

لم يكن جودت بيك يحب لعبة الطاولة. خسر الجولتين الأوليتين خسارة مضاعفة. فكر: "بينما يلفظ أخي الروح، أجلس هنا، وألعب الطاولة. بعد ذلك، عندما حالفه نرد جيد، وربح، انفعل الباشا. ولكن ما لبث أن بدأ جودت بيك يخسر. عندما خرج الباشا مرة من الغرفة، نظر إلى ساعته، ورأى مندهشاً أنها تشير إلى الحادية عشرة. غضب عندما أدرك أنه لن يستطيع الذهاب إلى الدكان. ورأى أن ذوق الباشا بلعب الطاولة، والثرثرة كان مقرفاً. وفي تلك الأثناء تحدث الباشا عن مسرح ذهب إليه في باريس عندما كان سفيراً، وعدم وفاء أحد الكتاب، وسبيل ماء أنشأه في قونية، وعن عدة مغامرات نسائية، ورشوة رفضها عندما كان وزيراً للأوقاف. وفي نهاية أحد أشواط اللعب التي خسرها جودت بيك، دخل الخادم، واندس بالباشا:

"السيدة الخانم تريد الذهاب إلى نعيمة خانم في شيشلي، يريدون عربة!"

قال الباشا: "لتأخذها، لتأخذها، ماذا سأفعل بالعربة في هذا الحر؟" ثم وقف فجأة، وقال: "توقف! متى ستعود؟ وهل يمكن الخروج في هذه الساعة؟ تأخرت. اذهب، واسألها متى ستعود. لعلني أذهب إلى النادي." ثم جلس على الكرسي، وابتسم لجودت بيك ليبدي نفسه لطيفاً. ورمى نرده دوشيش مرتين متعاقبتين، ولكنه لم يطلق خلفهما قهقهة. أغلق

الطاولة، ونهض من جديد. قال لنفسه: "هل أذهب إلى النادي؟ هل أذهب، وأثرثر قليلاً هناك؟"

التفت إلى جودت بيك: "ماذا تقول أنت؟ لنذهب معاً إلى النادي مساء؟"

قال جودت بيك: "أرجوكم يا باشاي، سأكون عبئاً عليكم هناك!" فجأة اعتقد أن الباشا مدعو إلى النادي حقيقة. ثم أدرك أن الباشا لم يله كما أراد.

قال الباشا: "لا يا ابني، أي عبء!" ولكنه قال هذا ضاغطاً على نفسه. وبدا كأنه مهموم: "عندما يصل أمثالي إلى هذا العمر، يعيشون من أجل الا يعملوا شيئاً. لا أفكر كيف سأملأ يومي. الذكريات تكفي! ولكن يجب على الإنسان أن يحكي هذه الأمور لأحدهم، اليس كذلك؟ رأيت الذين في أوربا، يجلس أولئك، ويدونونها، فتغدو كتاباً، وينشرونه مسلسلاً في الصحف. ولكن هنا؟ إذا كتبت كلمة واحدة، فتتكأ الجروح. ويدخل رأسي تحت البلاء. ويغدو كآخذ الأرز إلى دمياط. أحياناً، أحياناً. لا توجد حرية هنا يا ابني، لا توجد حرية! عاشت تركيا الفتاة." قال هذه الجملة الأخيرة خافضاً صوته. "عاش ابني الصغير الساذج! هم م م! حسنٌ، ما الذي يجب فعله في الحياة برأيك؟ لا، لا، أنت لا يمكنك أن تفهم هذا الآن؟ ثم إنك لا تبدو قد قرأت كثيراً من الكتب! لن تغضب ياه؟"

قال جودت بيك: "أرجوكم يا باشاي!" وتصبب عرقاً.

قال الباشا: "حسنٌ، فهمت؛ أنت راق، أعرف هذا!" وبدا كأنه غضب قليلاً. مشى رواحاً ومجيئاً في الغرفة وهو يترنح. "من يعلم، لعلك تعتقد أنني سكرت. لم تر باشا على هذا النحو أبداً، أليس كذلك؟ أصلاً كم باشا رأيت هكذا عن قرب، ومع كم باشا خضت بالحديث؟ من أين تعرف نديم باشا لنرى؟"

تمتم جودت باشا: "جاء إلى دكاني!"

توقف الباشا وسط الغرفة. ونظر إلى جودت بيك كأنه ينظر إلى صرصار. وهمس قائلاً: "تاجر! لم يكن يخطر ببالي أن أعطي ابنتي لتاجر. وفوق هذا أعطيها بوعي ومحبة؟ يا ابني أنا أقدرك، لا تفهمني خطأ، إذا

صدرت عن لساني كلمات فظة، فهذا نتيجة إحساسي بالقرب منك!" وقف، وضغط على نفسه كأنه يحاول تذكر دعاء نسيه. "لماذا صرنا هكذا؟ ما سبب كل هذه الأمور؟ لماذا يلقون قنبلة؟.. كلهم أعداء لسلطاننا!.." ثم ألقى بنفسه على الديوانة بسبب عدم قدرته على الوقوف أكثر، أو بسبب اليأس. ونظر إلى جودت بيك. وقال: "أعجبت بك! أعجبت بك، لأنني شبهتك بنفسي!"

نظر جودت بيك إلى الباشا محاولاً الابتسام، وتقبل ما يحدث بشكل طبيعي، مدركاً أنه يجب أن يقول شيئاً ما، ولكنه كان يتصبب عرقاً فقط لأنه لا يستطيع العثور على ما يقوله.

دخل الخادم إلى الداخل، وقال: "ستبقى السيدة الخانم مدة قصيرة عند نعيمة خانم، وستأخذ البنات. قالوا إنهم سيعودون بسرعة!"

صرخ الباشا قائلاً: "حسنٌ، حسنٌ، ليذهبوا فوراً! ولكن عليهم ألا يتأخروا، قل لهم هذا، وإلا سأجعلهم نادمين على ما فعلوه!"

قال الخادم الذي بدا من حركاته، ولامبالاته معتاداً على نوبات مشروب الباشا: "هل أجلب لكم شايكم يا سيدي؟" وابتسم بتفهم كصديق، وليس كخادم.

قال الباشا: "أحضرها، ماذا تنتظر! قبلها اجلب قهوة. هل تريد قهوة أنت أيضاً يا ابني؟"

قال جودت بيك: "لأذهب أنا يا باشاي، دعوني لا أزعجكم أكثر!"

"كيف؟ هل انت ذاهب؟ لا، أنا لا أترك الرجل هكذا ببساطة! قف لنرى! أم أنك غضبت من كلماتي؟"

لم يجب جودت بيك، وأطرق ناظراً أمامه.

قال شكرو باشا: "اجلس حيث أنت! أنا أقدرك حقاً. ضع هذا في عقلك. لست أول من طلب نيغان!" نهض، ونهر الخادم الذي مازال واقفاً: "لماذا تقف؟ اثنان قهوة وسط!" التفت إلى جودت بيك: "قهوتك وسط، أليس كذلك؟" ومشى من جديد وسط الغرفة رواحاً ومجيئاً: "لعلني شربت كثيراً. مرة أخرى قلت لأمنح نفسي شيئاً من المرح... سننتظر العربة، ونذهب معاً

إلى النادي! إلى أين سيذهبن؟ إلى نعيمة خانم. ماذا سيفعلن هناك؟ ها ها ها، هي، هه، سيتضاحكن، ويشربن الشاي، ويتكلمن من هنا وهناك، ويخضن في النميمة... يقرأن الكتب، ويتحدثن عما قرأنه، كما يتحدثن عن الألبسة... جاءت إلينا امرأة خياطة فرنسية. تتجول على الدور داراً داراً، وتخيط ألبسة. في الصباح حاولت امرأتنا أن تستدرجني بالكلام. تريد أن تستدعيها إلى البيت. ستتكلم معها بالفرنسية، وتتذكر أيام السفارة، ويمكن أن تلقي البنات شعراً... لم أعتد على ظرافة إفرنجيتهم هذه ودقتها. أفكر أحياناً: لو كانت هذه الخانم الثانية أجمل قليلاً، ومخبولة. ستفقد هذه الدار مرحها. وسيبدأ الشقاق، والنفاق. هكذا أفضل. إنها امرأة ذكية. البنات أيضاً هكذا. أحياناً يجدونني فظاً غليظاً. لا يفكرن بمن علمهن هذا، ومن أخذهن إلى باريس. طلبن بيانو، فجلبناه لهن. إنهن يعزفن، ويلهون، ويقرأن، ويتمازحن فيما بينهن، ويمثلن بحركات كالقرود، لا افهم هذا، ولكنني أسمح لهن. حتى إنني أستمتع بهذا، وأحبه، لا تبالِ بغضبي. أنا هكذا. أحبه، نعم، لأن البيت يجب أن يكون مرحاً، وحيوياً. ماذا أفعل أنا بدار كالقبر؟ ثم إن هذه الأمور، أي هذه العادات الأوربية ضرورية. ذهبنا، ورأينا: ما أكثرما فعله أولئك الرجال؟ أما نحن فنرعى في المكان ذاته. هناك مصانع ضخمة، ومحطات قطارات، وفنادق... يعرفون كيف يعملون، وكيف يلهون أيضاً. حتى أنا أذهب بعد هذا العمر إلى النادي. أي كلمة هذه: نادي! نحن أيضاً تلزمنا المعامل. من سيبنيها؟ التجار أمثالكم... ها، ولكن أين؟ ما تفعلونه أنتم هو الشراء والبيع، الشراء والبيع... بنوا سكك حديد أيضاً. حملوا القطن، والتبغ في مقطورات، وأنزلوا المصابيح والأقمشة من مقطورات، وفي هذه الأثناء عبؤوا جيوبكم... ولكن لا، رغم هذا أنا معجب بك، قلبي مرتاح لأنني أعطيك نيفان." كان الباشا يذرع الغرفة. وفجأة وقف أمام النافذة: "انظر، انظر هاهي العربة أتت. سيركبن العربة الآن." وابتسم مثل زير نساء لصديقه: "تعال إذا كنت تريد رؤية خطيبتك!"

أراد جودت بيك النهوض، والنظر، ولكنه خجل.

قال الباشا: "ألا تريد رؤيتها؟ تريد، ولكنك تخجل. الذنب ذنبي. لماذا لم أدعها إلى هنا؟ ماذا يحدث إذا أتت فتاتك إلى هنا؟ هل أنا بعقلية متخلفة إلى هذا الحد؟ فوق هذا فهي تجلس مع الجميع، وتتناول الطعام. لو أنني دعوتك إلى الطعام! لابد أنني قلت هذا لبكر، وقد نسي! تعال يا ابني، تعال انظر، الآن يركبن العربة..."

نهض جودت بيك خجلاً ومبتسماً كأنه سمع نكتة لطيفة. ومشى نحو النافذة متمايلاً كأنه سكران.

قال الباشا: "ها، هكذا! ألا يريد الإنسان أن يرى خطيبته يا هذا؟ قل لنرى، هل تعرف كيف هي كإنسانة؟ أقول لك: نيغاننا فتاة ذكية. تضع عقلها في رأسها. ولكنك رأيتها، وتعرف هذا، فهي ليست أجمل فتاة في العالم. راقية، ظريفة، رهيفة، ولكن الكلام بيننا، لا يمكنني القول إنها الأحب إلى قلبي بين بناتي. تركان محبوبة أكثر. وشكران تشبهني. أما نيغان فهي مغلقة على نفسها. تعرف ما تريد. يمكنك إلهاءها بالهدايا، وأطقم الفناجين —هي تدوخ إعجاباً بالفناجين والخزف - واللهو البسيط. تستمتع كثيراً بركوب العربة والنزهة. لم تر العالم كثيراً. معلوماتها ليست كثيرة، ولا قليلة. قلت إنها تقرأ الكتب والشعر، وتقرأ الروايات الفرنسية أيضاً، ولتمضية الوقت تقرأ مثلما يستمع أفندينا للروايات البوليسية! تحب الحياة الإفرنجية، ولكنها تتصرف بحساب. لابد أنها ستماشيك في هذا الموضوع. لا أستطيع القول إنها قنوعة، ولكنها ليست جائعة العين. أساساً نحن لم ننتبه إليها. تعلمت كل ما هو جيد في هذه الدار، ورأت كل ما هو سيئ. لا أدري إن كانت قد اعتادت على السوء؟ ها، لها عادة سيئة: ترف بعينيها على الدوام. هاهن يخرجن.

كان ثمة فسحة حجرية بين باب الحرم وباب الدار تظللها شجرة دلب. بداية رأى جودت بيك في الفسحة الحجرية امرأة طويلة ذات ألبسة بيضاء. ومن قهقهة الباشا فهم أن هذه هي أم نيغان. بعد ذلك ظهرت على نحو متتال فتيات يتكلمن فيما بينهن، ويتلفتن يميناً ويساراً. فكر جودت بيك قائلاً لنفسه: "لا يعرفن أنني هنا في الدار!" مرة أخرى سيطر عليه ما يشبه الشعور بالذنب. بدت الفتيات مسرورات وحيويات. لم يستطع جودت بيك تمييز نيغان من

بينهن. تمتم: "عائلة." حاول أن يضع إحدى تلك الفتيات الدقيقات، والخفيفات كظل ضمن العائلة التي كان يتصورها. انتبه إلى أن قلبه يضرب بقوة، فخجل. قال لنفسه: "ما أنا؟" مازال الباشا يثرثر، ولكنه لم يعد يسمعه. كان ينظر وهو يتصبب عرقاً وقرفاً من يده المتعرقة، ومن نفسه. هناك في الأسفل، وتحت الشجرة برودة، والشيء الذي حلم به طوال سنوات، وانتظره كان يتحرك، ويبتسم. يا لبعدها، وعدم وضوحها! لا يستطيع إدراك صورتها إلا في عقله، في عقله فقط، يضعها حيث يجب أن تكون. ليس بالمشاعر: المشاعر ثقيلة كالضمير، وهي شيء من الصعب أن يتحرك. لم يرد أن ينظر أكثر. أراد أن يهدأ صوت الباشا الصاخب، وأن تتوقف الحركة. تمتم: "أخي الكبير يموت!" عاد إليه الحلم، ورسخ في عقله. توضح الشيء البعيد، والغائم، وصار جلياً. تمتم: "فكرت بكل شيء!" مرر بعقله الدكان، وإسكينازي. شعر بالخوف. ثم فتح الحوذي باب العربة.

فجأة حدثت حركة في الحديقة. وسمع جودت صرير عجلات قادماً من ذاك المكان البعيد. ثم صهل حصان.

صرخ الباشا قائلاً: "آ، جاء سيفي باشا! هيه، الله يرضى عليك يا سيفي باشا!"

خرج من العربة رجل محدودب قليلاً، طويل القامة، وأسود اللحية بحركات سريعة. رأى النساء يركبن في العربة الأخرى. أمال رأسه إلى الخلف بكبرياء. وفجأة حدث ما هو غير متوقع. اقتربت الفتيات واحدة واحدة من الباشا، واصطففن، وبدأن بتقبيل يده.

قال شكرو باشا: "أحسنتم! أترى جماعتنا... وهذه هي فتاتك!"

تعرق جودت بيك. الشيء الذي كان واضحاً قبل قليل غدا الآن أبعد، وأكثر ضبابية. كانت تقبل يد سيفي باشا. أدرك جودت بيك أن عليه استخدام عقله كثيراً، وأن يبذل جهداً لفهم هذا. تمتم متوجساً: "ما هذا؟ ماذا يريد؟ كيف؟" فكر بأن ذلك الشيء المتحرك، والمنحني لتقبيل يد الباشا سيعيش معه حياة تبلغ عمراً كاملاً. تمتم قلقاً، قائلاً لنفسه: "لعل... لعل..." ثم استنفر قواه كلها محاولاً وضع ذلك الشيء المتحرك هناك ضمن تصوراته.

قال شكرو باشا: "انظر، سيفي باشا صديق وفيّ!"

ركبت الفتيات العربة في لحظة. نظر جودت بيك خلف العربة المبتعدة.

دخل الخادم، وقال: "جاء سيفي باشا!"

قال شكرو باشا: "أعرف، أعرف، ليتفضلوا!" والتفت إلى جودت بيك: "سيفي أيضاً هو الإنسان الذي وضعته تحت رعايتي. ظهر أنه أذكى مني. عرف كيف يجعل سيدنا يعجب به. وهو مثلي... عمل سفيراً في لندن. ولكنك شارد جداً. ها، ها! حقاً، إنك رأيتها، أليس كذلك؟ يا، يا، ها أنت رأيتها! أحسنت يا سيفي. كيف فهم أنني مهموم اليوم، وأريد أن أتحدث مع أحدهم؟"

تعانق الباشايان عند الباب. ثمة ملامح رقي تبدو على سيفي باشا. وفكر جودت بيك: "أنا تاجر!"

قال شكرو باشا: "هل تعرفت على صهري المستقبلي؟" وعرفه على جودت بيك.

جلسوا. جلب الخادم قهوة. كان سيفي باشا يرمق جودت بيك بطرف عينه. بينما جودت بيك لا يتحرك على الأريكة. كان شكرو باشا يحكي عن أمور ما.

فجأة قال سيفي باشا: "ماذا تعملون أنتم يا ابني؟"

"تاجر يا باشاي!"

تمتم الباشا: "تاجر... هكذا إذاً. تاجر..." ثم التفت إلى صاحب البيت، واتخذ مظهر المستمع.

كان شكري باشا يجامل ضيفه، ويقول بأن عدد الأصدقاء الحقيقيين يتناقص باستمرار، وأنه لا يجد الحديث الذي يبحث عنه إلا مع قليل جداً من الأشخاص. وربط كلامه بقوله إنه بات يعتبر أن صهره صديقٌ أيضاً، ولكن في حاله ثمة ما يوحي باعتذار أكثر من الحميمية.

قال سيفي باشا فجأة: "*Quels livres lisez-vous mon enfant?*"

فكر جودت بيك بارتباك، وانفعل، ولكنه قال فوراً، ومهجئاً: "*Monsieur, je lis Balzac, Musset, Paul Bourget et...*"

قطع سيفي باشا جولة جودت بيك قائلاً: "معرفتكم الفرنسية إلى هذا الحد أمر جيد يا ولدي! مع الكلام ستتقدمون!" وبعد ذلك، التفت إلى صاحب البيت، وبدأ يحكي له عن آخر شائعات السياسة في الأيام الأخيرة.

يراقب جودت بيك سيفي باشا الذي ظهرت حدبته أكثر، وكانت لحيته تحتك بقميصه أثناء حديثه، وشكرو باشا يستمع إليه بمتعة، وكلما تذكر بأن نيغان ابنة أحد هذين الباشايين، وقبلت يد الآخر قبل قليل، يشعر بالقلق. فكر في إحدى اللحظات: "يجب ألا يكون الأمر هكذا. ثمة قبح فيه. أنا أفضل منهم!" ثم تذكر ركوب نيغان العربة. وشعر بإحساس النصر الحقيقي بأنها مناسبة له، فانفعل. "هكذا، نعم، أنا أفضل منهم. أنا متقدم عليهم. أنا أنظف منهم." وفجأة آمن بأن كل ما في هذه الغرفة، وكل الأشياء المخيفة والغامضة والبعيدة المنال التي يجلس في وسطها تبدو مضحكة، وعفنة، وشعر بالنشوة. كان منتشياً، ومنفعلاً إلى حد أنه بدأ يخشى على مشاعره من أن تتسخ. وتمتم قائلاً: "لأنهض الآن، فوراً، وأخرج!" وفي هذه الأثناء دخل الخادم حاملاً بيده صينية الشاي.

قال شكرو باشا: "لو أنك جلبت معك معمولاً!" ثم ضرب بيده ضربة خفيفة على ركبة ضيفه، وقال: "يا لحلاوة كلامك أنت!"

قطب سيفي باشا وجهه. بعد ذلك، والتفت إلى جودت بيك، وسأله: "أين تسكنون؟"

قال جودت بيك: "سنسكن في نيشان طاش!"

قال الباشا شاخراً: "لا، الآن أين تسكنون؟"

قال جودت بيك: "في وفا" وفرح لأنه لم يغضب كما توقع. وفكر: "سنسكن نغيان وأنا في بيت نيشان طاشِ ذلك!" وأحس بالرغبة بأن يشرب شايه بأسرع وقت ممكن، ويخرج فوراً من هذه الدار.

وخلال شرب الشاي بدأ سيفي باشا يروي الشائعات المتعلقة بحادثة القنبلة. فقد نبه السلطان وزير الضابطة ولجنة التحقيق لعدم عمل (التخفيين) جيداً، وقد قال الصدر الأعظم فريد باشا لأحد المقربين من سيفي باشا بأنه وجد اليوم دليلاً: عرف رقم سجل العربة التي وضعت القنبلة فيها. ثم بدأ يحكي عمن أبدى بطولة أثناء الحادث، وعمن خاف. وحكى

عن باشايين ممن خافوا، وانشرح. وفجأة عرج الحديث على فهيم باشا الذي يمر بوضع صعب، وخليلته مارغريت. أراد شكرو باشا أن يتوج متعته هذه بالكونياك، فنادى لخادمه. وجلب الخادم الكونياك في كؤوس ضيقة الفتحات، وعريضة البطون. بدأ الباشايان يتحدثان عن جرأة عبد الحميد، وعن حسن حظ شيخ الإسلام جمال الدين أفندي، وسوء حظ الستة وعشرين شخصاً الذين ماتوا بالقنبلة. وتحدثا باستمتاع عن الذين خافوا، وكيف خافوا أثناء الحادث. ثم بدأ سيفي باشا يروي قصة وقعت له أثناء عمله سفيراً في لندن:

"في أحد الأيام، جاءت إلى السفارة بتوقيع كبير الكتاب تحسين الرسالة المشفرة التالية: مطلوب شراء ببغاء رأسه، وريشه كله أبيض، ولديه موهبة الكلام، وإرساله فوراً.... عندما استلمت الأمر المشفر شعرت بالهلع. واتصلت بمدير حديقة الحيوان في لندن. فهمت أن اسم الطائر مختلف... قلت للكاتب الثاني: اكتبوا هذا الجواب: ليس ثمة ببغاء لرأسه بروز أبيض، وريشه أبيض. الطائر الموصوف ليس ببغاء، بل كاكاتوا. قال الكاتب الثاني: لعلهم لا يعرفون الفرق بينهما، اشتروا كاكاتوا، ولنرسله. لم أضبط غضبي. وقلت للكاتب: فليتعلموا إذا كانوا لا يعرفون! وأنت أيضاً أرسل البرقية المذكورة مشفرة"

نهض جودت بيك فجأة، وقال: "أنا ذاهب يا باشاي!"

قال شكرو باشا: "انتظر، استمع إلى هذه القصة!" ولكنه لمح وجه جودت بيك المقطب، وقد غابت ملامح سروره. فنهض، وقال: "تعال مرة أخرى، تعال مرة أخرى! أريد أن أراك مرة أخرى قبل العرس!".

قال جودت بيك لنفسه: "نيفان". وصافح سيفي باشا على عجل، وتركه. خرج من الغرفة. كان سيقبل يد شكرو باشا الخارج خلفه. سمع تكتكة الساعة. فترنح. لم يقبل يده، بل ابتسم فقط. نزل الدرج و فتح له خادم المطبخ الباب. عندما انتبه جودت بيك إلى السماء الممتدة والنظيفة والشمس البارقة شعر براحة. كان يهب نسيم خفيف البرودة.

9
بيت حجري في نيشان طاشِ

لم تكن الشمس تلهب الحديقة، فقد انخفضت كثيراً. نظر جودت بيك إلى ساعته: الثانية عشرة. فكر: "انقضى اليوم كله للاشيء!" ولكنه لم يتضايق. كان يشعر براحة داخلية افتقدها منذ أيام. انتبه لقوة طازجة وسليمة يحملها طوال سنوات، لم ينتبه إليها من قبل. لم يرغب بالتفكير بمنبع تلك القوة، وكيف ظهرت. مشى في الفسحة الحجرية شاعراً بأن قوة سلامة الصحة تلك، و ضعف الشمس هي قوة النظافة المنتشرة في فمه وجسمه كله لعدم تدخينه سيجارة منذ زمن طويل. كانت تلك هي الفسحة الحجرية التي مشت عليها نيغان قبل قليل. وبينما كان جودت بيك يفكر: "إنها مناسبة لي. أنا أستحقها!" ركب العربة المنتظرة. قال للحوذي إنه سينزل في زاوية نيشان طاشِ.

كان يشعر بأنه سيُحب نيغان. كان قد فكر كثيراً بأنه سيحبها. والآن هو يعرف أن نيغان لا تحبه. يا لغرابة عائلة ذلك الشيء الحيوي الذي رآه قبل قليل، ولكن رغم أنها عقلية قديمة، وبعيدة عنه، فهو يعرف أنها ربيت لتحب زوجها. فكر مرة أخرى بأنه على حق، وانفعل، وخشي أن تغرورق عيناه. وتمتم قائلاً: "أنا أعيش!"

مرت العربة أمام جامع تشويكية. كانت هناك أشجار دلب ضخمة في باحة الجامع. وخرج رجل مسن بخطوات بطيئة وحذرة من الباحة إلى الزقاق. واصطفت أشجار الزيزفون والكستناء على طريق الشارع. ونُشر غسيل في الحديقة الخلفية لإحدى الدور. ثمة طفلان يتحادثان في حديقة. وأرجوحة منصوبة على غصن شجرة زيزفون في الحديقة ذاتها تتأرجح وحدها.

نزل جودت بيك من العربة عند زاوية نيشان طاشِ. هبت نسمة خفيفة ومنعشة البرودة حركت أطراف سترته. ثمة أشجار زيزفون وكستناء أمام الدار الحجرية وفي حديقتها. كانت أشجاراً فتية وخفيضة يسقط ظل البيت عليها، تصدر أوراقها حفيفاً مع الريح. حين ولج جودت بيك باب الحديقة فكر مرة أخرى بأن هذا البيت هو أفضل البيوت التي رآها. مشى على طريق مرصوف بالحصى يوصل بين بابي الحديقة والبيت وسط شجيرات الورد والأزهار المعتنى بها. قرع الباب وانتظر، لم يفتح أحد. فعاد، وبدأ يتجول في الحديقة، فصادف ولداً. ركض الولد قائلاً إنه سينادي أحدهم. بعد قليل، عاد مع رجل مسن قصير القامة، ضخم اليدين. كان جودت بيك قد رأى المسن خلال جولته السابقة على البيت. إنه البستاني.

قال المسن: "هل تريد أن تتجول داخل البيت؟"

"ألم يخبروك؟"

"أخبروني. المدام في الجزيرة!"

"أعرف! تأخرت، أليس كذلك؟"

قال البستاني: "كانت المدام هنا صباحاً." وأخرج مفتاحاً من جيبه. فتح الباب. ودخل جودت بيك، والولد من خلفه.

قال البستاني للولد: "انتظرنا أنت هنا لنرى!" وأغلق الباب.

كان البيت مظلماً قليلاً من الداخل بسبب إغلاق النوافذ، ومع ذلك فقد رأى جودت بيك نفسه في المرآة الموضوعة أمام الباب. وجد جسمه النحيل الطويل حيوياً، ووجهه المدور مرحاً. مشى نحو الدرج. يؤدي الدرج الحجري إلى فسحة واسعة قليلاً. دخل من أحد الأبواب المفتوحة إلى الفسحة. ومرة أخرى تفرج جودت بيك على مفروشات الصالة التي رآها من قبل

بإعجاب. كانت هناك طاولات صغيرة مخلعة ومهلهلة بين الأرائك المحفورة الأطراف والزوايا، والكراسي المذهبة. وفي إحدى الغرف المؤدية إلى الصالون لم يكن هناك غير بيانو وكرسي صغير من دون مساند، وكرسي عادي قديم. الأرض مبلطة ووسخة. وعلى الجدران عُلقت صور مسنين قبيحين ملتحين ولهم قبعات. لم تكن السقوف عالية. ثمة ملائكة ممتلئة الأجسام تطير وسط بروزات الزوايا الجصية المذكرة بأغصان الغار والورد، وطرف منفضة سجائر خشبية محترق، ومصباح له قوائم مائل الرأس بشكل خفيف. ووسط كل تلك القذارة والفوضى ثمة أريكة جانباً مغطاة بحرص. المفروشات لا يمكن أن تفهم، ولكن الإنسان يمكنه أن يضع حياته وتصوراته وسط كل هذه الأشياء.

قال جودت بيك: "يا للفوضى!"

قال البستاني الذي شعر أنه يستدرج بالكلام: "عندما مات زوج المدام قررت أن تبيع هذا المكان، لديها صديقة في الجزيرة!"

قال جودت بيك: "وهل يبقي الإنسان بيته على هذا النحو؟" ولم يستطع أن يفهم لماذا قال هذا.

مشيا في ممر قصير وعريض عابرين إلى الخلف. هناك غرفتان. فارغتان من الأثاث. على الأرض تراكمت مزق ورق، وصناديق مكسرة، وعلب فارغة. وعلى الجدران أيضاً ثمة مسنون مقطبو الوجوه ملتحون ولهم قبعات أيضاً. فكر جودت بيك بأن هاتين الغرفتين سيستخدمهما الأولاد أو الضيوف.

أما الطابق العلوي الذي يُصعد إليه من درج ضيق ومظلم فمطابق للسفلي. عندما تجول جودت بيك هنا في المرةَ الماضية لم تكن الأمكنة مهملة وفوضوية إلى هذا الحد قبل أسبوعين. كان صعباً أن يبرز بيت مناسب لتصوراته من خلال الأثاث والنظام الذي رآه. أما الآن فيمكن أن يفرش الغرف التي يجدها فارغة كما يريد.

في الغرفة الكبيرة الخلفية كان هناك سرير كبير في ذروة الفوضى: وقد ظهرت الأغطية والبطانيات ومخدة طويلة لشخصين. خشي جودت بيك تذكر ما رآه من نافذة دار شكرو باشا. وارتعد من اعتقاده بإمكانية أن

ينقلب كل شيء رأساً على عقب خلال لحظة، وأن يتلوث بالدم والقذر كل ما يحرص أن يظل نظيفاً وخالياً من أي بقعة. لم يرد أن يفكر بأي شيء يتعلق بتصوراته وحياته أثناء نظره إلى السرير الكبير، والمخدة المزدوجة. رفع رأسه إلى الأعلى لكي لا يرى الأغطية المبقعة وثنياتها، وثوب صباح تفوح منه رائحة العطر. ثمة لوحة لامرأة ورجل شابين معلقة على الجدار.

نظر البستاني إلى اللوحة نظرة استهانة، وقال: "مات المسيو. لم يكن إنساناً جيداً، ولكنه كان يحب الحديقة. الله يمنح روحه السكينة! المرأة تنفق المال الآن. ويبدو أنها ستذهب إلى أمريكا!"

كان جودت بيك يعرف هذا تقريباً. فقد سأل عن صاحب البيت اليهودي في سيركجي.

نفخ البستاني دخان سيجارته نحو اللوحة، وقال: "كان المسيو تاجراً!"

كانت الغرفة المجاورة مقفلة. وقال البستاني إن المدام تضع هناك الأشياء القيمة. وهناك غرفة أخرى في الخلف. بقيت أباجوراتها مفتوحة. يصلها ضوء الحديقة الهادئ والمطمئن. قرر جودت بيك أن يجهزها بمكتبة، ويضع فيها مكتباً.

نزلا إلى الأسفل، إلى الطابق الأرضي. وفكر جودت بيك بأنه يمكن أن يجعل الطباخين والخدم ينامون في تلك الغرف الصغيرة ذات النوافذ الضيقة. مرحاض الطابق السفلي إفرنجي مثل الذي في الطابق العلوي. قرر جودت بيك أن يحول الذي في الأسفل إلى تركي. دخل إلى الغرفة التي تصلح للاستخدام غرفةَ غسيل. بجوارها مطبخ واسع. يمكن الخروج منه إلى الحديقة الخلفية، ولكن الباب مغلق بإحكام، ومقفول. نظر جودت بيك من خلال فتحات الأباجور إلى الحديقة الخلفية. فرأى الضوء الهادئ نفسه. قال البستاني إنه يمكن الخروج من الباب الأمامي، ويراها. في أثناء خروجه من الباب نظر جودت بيك بطرف عينه إلى المرآة: كل شيء كما تصوره.

كان الولد مايزال ينتظر في الخارج. رافقهما إلى الحديقة الخلفية. ثمة أشجار زيزفون وكستناء في الحديقة الخلفية أيضاً. وضع كرسيان تحت شجرة كستناء وسط الحديقة. بدا ذانك الكرسيان صغيرين جداً،

وهزيلين بجانب أذرع الشجرة الضخمة التي تكاد تحتضن البيت والسماء بأغصانها الفرحة المرحة التي تصدر حفيفاً، وبجذعها الغليظ الذي يذكر بجذع مئذنة. في الحديقة كل شيء يتحرك كما تتحرك الأشجار وسط نسائم المساء الخفيفة البرودة. الأزهار تتململ، والأوراق تدور، والأعشاب والغراس الصغيرة تتمايل إلى الأمام وإلى الخلف. وبعد جولة صغيرة، عاد جودت بيك، ونظر إلى الواجهة الخلفية للبيت: كانت الشمس تسقط على العرائش التي تلف واجهته. جلس تحت الشجرة. وجلس البستاني على الكرسي المقابل. أخرج جودت بيك علبة سجائر من جيبه، ومدها نحو البستاني. ولمجرد الكلام، قال: "الحديقة ممتنى بها كثيراً."

قال البستاني: "أنا أحب هذه الحديقة كثيراً!" وكأنما قد بدا عليه الخجل.

أشعل جودت بيك سيجارته. كانا ينظران إلى الشمس الغاربة من طرف الحربية. وكان الولد يتجول في الحديقة.

قال البستاني: "أنت تنوي الشراء، أليس كذلك؟"

"إذا اتفقنا على السعر!"

"تتفقون، تتفقون. تريد المدام أن تبيع بسرعة!"

قال جودت بيك: "حسن! لأشتر هذا المنزل، أليس كذلك؟"

قال البستاني: "اشتروا يا سيدي، اشتروا. المكان جميل جداً!"

ضحكا معاً. شعر جودت بيك فجأة بميل نحو البستاني، وفكر: "سأشتريه!" ومرة أخرى شعر نفسه قوياً كأنه يرتدي درعاً خفياً. تمتم: "يا لرقة هذا النسيم المنعش!" ومغيب الشمس يثير في نفس الإنسان مشاعر الصداقة والأخوة، وليس الحزن.

قال جودت بيك: "نعم، نيشان طاشِ هذه مكان ممتع!"

قال البستاني: "يا!" وانفعل: "أنا ولدت هنا، وسأموت هنا. كانت المنازل هنا قديماً بساتين. وكان أبي ناطور بستان. يقال إنه كان هنا قديماً، أي قبل مائة سنة، بساتين، وحقول أزهار، وكروم تين. كان السلاطين يطلقون البنادق على السفح المقابل، وينصبون أحجار الأهداف(*) للذكرى.

(*) نيشان طاشِ تعني حجر الهدف ـ م

وبعد ذلك أقام السلطان مجيد حفل ختان. كنت قد ولدت حينئذ. كان أبي بستانياً. ثم بنيت قصور المزارع تلك التي في الزاوية السفلية. بعد مدة بنوا جامعاً، ولم أكن أعيه، ثم خربوا البساتين، وبنوا دوراً. لم يبق الآن إلا قليل من البساتين. وأنا عملت بستانياً أيضاً في أحدها. عندما بنيت الدور شاع حب الحدائق. فأنا أرعى حديقة أحدهم، وهو يعجب بها، وحين يأتيه ضيف، تعجبه أيضاً، ويسألون عن بستانيها، فيخبرهم عني، ينادونني، ويقولون لي: هل تشرف على حديقتي؟ هذا ما حصل، إلى حد أنني نشأت في الحدائق. وجاء بستانيون آخرون أيضاً... نحن، كل هذه الدور..."

لم يكن جودت بيك ينظر إلى البستاني، بل إلى النمل الماشي بين قدميه. كان ثمة طريق نمل طويلاً ورفيعاً بين قدميه. يتعرج مؤدياً إلى ثقب عند أسفل جذع شجرة الكستناء. ومن ذلك الثقب تخرج طرق أخرى تنتشر إلى أطراف الحديقة الأخرى. في أحد الأمكنة كانت نملتان تحملان قشرة بذرة قرع. رفع جودت بيك رأسه، ونظر إلى ابن البستاني الذي يأكل بذر القرع. كان يتجول بين الأشجار...

قال المسن: "سأعمل من الولد بستانياً أيضاً! إنه يحب الحديقة، والأشجار، والأرض... لم يستطع أن يدرس. فليعمل إذاً بهذا العمل."

"ما اسمه؟"

"عزيز!"

نظر جودت بيك إلى النملات من جديد، ثم قرر أن يلاحق إحداها إلى ثقبها وهي عادة اكتسبها منذ صغره.

"عندما بنيت هذه الدور نما الفضول لإنشاء الحدائق، وانطلق بقوة. بدأ الأغنياء بالسكن هنا. وكبرت المنازل الخشبية بقدر ما يمكن أن تكبر. وبني للمنازل إسطبلات كبيرة. وأدخلوا إلى كل من تلك الإسطبلات عربتين أو ثلاثاً. وهكذا تكاثر الحوذيون، والطباخون، والخدم، وأجراء الفلاحين. ثم جاء اليهود والأرمن والتجار بعد الباشاوات والبيكوات. وهؤلاء بنوا أبنية حجرية وإسمنتية مسلحة. قطعت الأشجار، واقتلعت الغراس، وشقت الطرق، ولم تبق بساتين. وفيما بعد، لأقل لك يا سيدي، أعاد

سلطاننا بناء الجامع الخشبي من الحجر. كان هذا قبل ست سنوات. وهاهم يلقون عليه قنبلة. سُمع صوتها حتى من هنا."

كانت نملتان قد وقفتا على مسافة قريبة من قدمي جودت بيك، تتكلمان بأمور ما فيما بينهما. ثالثة توقفت عندهما أثناء مرورها بقربهما. قالت أموراً على عجل، ثم لمست صديقتيها بقوائمها، وهرعت إلى مأواها. فكر جودت بيك بأن الحديقة كلها تتبع بالنمال المتراكضة، والمتحادثة، والحاملة لأشياء قبيل غروب الشمس. وتذكر شارع بيه أوغلو، ودكانه، وأخاه الأكبر. كانت هناك غيمة تركض نحو القبلة.

قال البستاني: "هذا البيت الحجري جديد أيضاً، وسليم جداً! أنا رأيته حينما بني. عمل به معلمو بناء أرمن. حتى إن مساعدي المعلمين أرمن. مع الأسف، مات المسيو. لم يكن إنساناً جيداً، ولكنه أحب الحديقة. المدام تبيع كل شيء. كل شيء يتبعثر، لأنه لا يوجد لهما أولاد. هذا ما يحدث عندما لا يكون عندك ولد. بقيا من دون جذر. مع أنه يجب أن يضرب الإنسان جذراً عميقاً في الأرض، ويعيش. مثل هذه الشجرة..." قال هذا وكأنه يسخر منه، وليس كمن رأى الكثير، ومر عليه الكثير.

غربت الشمس خلف الأشجار والدور. نهض جودت بيك. وقال لنفسه مفكراً بمتعة النسيم المنعش البرودة والخفيف: "سأعيش هنا!"

قال البستاني أمام الباب: "خذ هذا المنزل، ولئلا تخرب الحديقة. الحديقة جميلة جداً..."

قال جودت بيك: "هل يهب النسيم هكذا دائماً؟"

"الأنسام هكذا دائماً عند المساء!"

مشى جودت بيك نحو العربة. أيقظ الحوذي الغافي.

10
رغبة مريض

غربت الشمس، وبدأ الجو يغرق بالظلمة، ولكن الحزن والضيق الذي يستيقظ كل يوم دخل جودت بيك في هذا الوقت لم يستيقظ. في هذا الوقت من كل يوم، وبعد أن يغلق دكانه، يمشي من سيركجي إلى أمينونو، ويضرب رأسه بجدران الحياة اليومية الضيقة دون أن يعرف كيف يطفئ الضيق الذي يحرق قلبه. ولكنه الآن يشعر بنفسه سليماً وقوياً، وكأن اليوم في بدايته الآن. كانت أعصابه مسترخية إلى حد أن بإمكانها مواجهة هموم اليوم كله، وليس المساء فقط. حتى إنه لم يكن يشتهي تدخين سيجارة.

قال للحوذي بأنه سيذهب إلى أخيه في بيه أوغلو. ولأن الشمس قد غربت ولم تعد حرارة العربة تحرق راكبها فقد استرخى براحة. فكر: "لماذا أنا مرتاح إلى هذا الحد؟ لإدراكي أنني على حق!" وغير هذا فإن النسيم المنعش ممتع جداً. سأجلس فترة أطول في حديقة نيشان طاشِ تلك. سأعيش... ولكن أخي الكبير يموت! إنها المرة الأولى التي يسيطر عليه فيها الخوف والارتباك لدى تذكر أخيه الكبير. أدرك وبشكل قاطع بأنه سيموت بعد فترة قصيرة. الموت الذي كان يبدو قبيحاً وظالماً وموحشاً، يبدو الآن عادياً

كالحياة تماماً. "السيئ في الأمر هو اقترابه من الموت إلى هذا الحد في اليوم الذي شعرت بأنني مرتاح إلى هذا الحد، وقريب من الحياة التي أتصورها. ولكن لا ذنب لي في هذا! إنه نتيجة خياري وخياره." تدخل العربة إلى بيه أوغلو. فنظر إلى الناس الماشين في الشارع الخفيف الظلمة. سيحزن لموت أخيه على الرغم من أنه يواجه كل شيء بنحو طبيعي.

بعد وقوف العربة، وشكوى صاحبة البنسيون من زبونها وتكشيرها، فكر جودت بيك: "كيف أستطيع إسعاد أخي الكبير في أيامه الأخيرة هذه؟" صعد درج البنسيون الحجري براحة لم يشعر بها من قبل. قرع الباب. "لأخبره بأنني وجدت أفكاره صحيحة. هل يصدق هذا؟ لأقل بأنني أعتبره محقاً." ولكن جودت بيك أدرك أنه لن يستطيع قول أي شيء مما فكر فيه عندما فتحت الباب ماري، وبدا وجهها مرتبكاً. سمع أخاه الكبير يتكلم بنبرة مؤنبة كسيد غاضب، وليس كمريض طريح الفراش، وشعر بسبب كونه على هذه الحال: استهان هو وأخوه الكبير أحدهما بالآخر طوال حياتهما.

"لماذا تنظر هكذا؟ إنك تنظر إلي كما لو أنك تنظر إلى ميت. لم أمت بعد! وفوق هذا، فأنا جيد جداً."

قال جودت بيك بعد أن جعل عينيه تعتادان على ضوء الغرفة: " أنا لا أنظر هكذا!" وشعر بالخوف عندما رأى ضياء جالساً في زاوية مظلمة صامتاً وجامداً كدمية. فكر: "وعدت بأن أعيده إلى بيته!"

قال نصرت: "اجلس هنا!"

جلس جودت بيك على الكرسي المجاور لطرف السرير: "كيف حالك؟"

"كيف يمكن أن أكون؟ سأموت!"

قال جودت بيك: "لا، لا، ستتحسن!"

تدخلت ماري بالحديث قائلة: "أنا أيضاً أقول هذا. يتكلم بشكل سيئ هكذا دائماً!" وكانت تشعل مصباح كاز.

وضع نصرت ذقنه بين راحتيه. وعصر بسبابتي يديه وإبهاميهما خديه الغائرين، ففارا أكثر. قال: "كل مسلول يموت خلال أسبوع إذا كان وجهه هكذا!"

قال جودت بيك: "لا تفعل هكذا!"

قال نصرت: "إنك تخاف، أنت خائف، أليس كذلك؟" وضغط خديه إلى أسفل أكثر: "أنت تخاف من الموت، أليس كذلك؟ لأنك تعيش، وستتزوج من ابنة باشا. ومعافى!"

"لا تفعل هكذا!"

التفت نصرت إلى ابنه: "كيف تراني على هذا النحو؟ قل لنرى، هل تخاف من أبيك؟ موووو... أنا غول! جاءت الجنية. قه قه قه!"

لم يعرف الولد ما إن كان عليه أن يضحك أو يبكي. فالإنسان الذي يجب أن يكون الأكثر حزناً هنا يمرح، ويمزح. وهو أيضاً ابتسم.

صرخت ماري فجأة: "آه، أرجوك كثيراً، لا تتظاهر بهذا الوجه المخيف!"

أدرك ضياء بعد ذلك أن مرح أبيه غير حقيقي، فقطب وجهه. كأنه سيبكي.

سحب نصرت يده عن وجهه مدركاً ذلك. وضعهما خلف اذنيه. قال: "انظر، انظر إلى الأذنين الشراعيتين" وعندما لم يضحك ابنه، أسند إبهاميه على شحمتي أذنيه، وفتحهما على خديه: " خيالة، خيالة، لتمتلئ الأقداح بالمشروب..." وعندما أدرك أنه لن يستطيع بعث المرح في نفس ابنه، قال لماري: "خذي ابني إلى بائع المهلبية الذي في الزاوية! ابني يحب صدر الدجاج. ليأكل صدر دجاج... أنتما تتحادثان. ونحن -جودت وأنا- نتحدث!"

قالت ماري: "لا تتكلم كثيراً، وتتعب نفسك!"

"حسنٌ، حسنٌ!"

أمسكت ماري ضياء من يده، وداعبت رأسه. كان هناك شيء في هذه المرأة يريد جودت بيك أن يكون في نيغان، ولكنه لا يستطيع تحديد ما هو.

عند خروجهما من الغرفة، بدأ نصرت بالسعال. وعندما انتهى السعال أغلق الباب الذي لم يكن قد أغلق بهدوء.

قال نصرت: "هات المصباح إلى هنا لأرى وجهك عن قرب. سأطلب منك شيئاً. من أجل الولد..."

نهض جودت بيك، وجلب المصباح من فوق الطاولة، ووضعه على الكوميدينة بين السرير والكرسي الذي يجلس عليه. الضوء الساقط من الأعلى أظهر وجه نصرت أضعف، ومخيفاً أكثر.

سأل جودت بيك: "أين سينام الولد؟"

"ينام في الفندق الذي في الزاوية مع ماري... أنت لم تفكر بأنني سأنيمه هنا بجانب أبيه الميت بأي حال..."

قال جودت بيك ضاغطاً على نفسه: "لماذا تذكر الموت دائماً؟"

"ها! دع عنك هذا! خاصة كيف يمكنك أن تخدعني في موضوع الطب؟... لا يمكنك أن تخدعني... علمت أن قنبلة ألقيت على عبد الحميد!... تشاجرنا ماري وأنا. لماذا أخفيت عني هذا؟"

"أردت ألا تنفعل للاشيء..."

"هذا يعني أنك لا تريدني أن أنفعل! هل تريد أن تجعلني مثلك من دون انفعال، و ومن دون روح؟"

قال جودت بيك: "لم يخطر ببالي أن أقول لك. ثم أنني اعتقدت بأنك تعرف. ومن ناحية أخرى كيف يمكنني أن اتذكر وسط ذلك الهلع..."

وفجأة شعر أمام أخيه الكبير بالذنب كما يشعر دائماً. إنه يكرر مرة أخرى النواقص التي يكررها له طوال عمره! وفكر: "هل أستهين به؟ هو يموت، وأنا أعيش. وهذا يعني أنني على حق. أنا كسبت!"

"صَمَتَ... بماذا تفكر؟"

"لاشيء!"

"هل فهمت كلامي؟ لابد أنك تدرك بأنني لا أقول لك هذا بدافع الكره، بل بدافع التفكير بك. حياة كحياتك... أتفهم هذا أحياناً... ولكن أمثالك لا يتفهمون أمثالي... لا أحد يفهم الذين عاشوا في الخارج. نحن يائسون. لم تفهم، لا، لم تستمع. بماذا تفكر إذاً؟ التجارة مرة أخرى؟ ماذا فعلت اليوم غير هذا؟"

قال جودت بيك: "تناولت الطعام مع التاجر فؤاد بيك" وشرح له مسروراً لاستطاعته شرح ما تصور أن يشرحه له، وأنه يجد افكار أخيه الكبير صحيحة، وأن هذه الأفكار ستنتصر في النهاية: "فؤاد بيك أيضاً تحدث عن حركة في سالونيك. ضد عبد الحميد... فهمته... يقول إنه يجب عمل شيء ما، وهو على حق..."

"ها! أولئك! أولئك لا يستطيعون عمل شيء... ليس لأولئك أي علاقة بباريس... إنهم مجموعة جهلاء ليس لديهم أي فكر، ولا يستطيعون اتخاذ أي قرار. لا يمكن عمل شيء معهم. أولئك ليسوا ضد السلطان، بل ضد عبد الحميد. جنود يجدون رواتبهم قليلة.. الجميع ضد عبد الحميد عدا حفنة من الناس أمثالي، ولكن أحداً لا يفكر بالسلطنة. وفوق هذا، إذا أراهم عبد الحميد طرف الكيس، وقدمهم إلى كراسي المسؤولية، وبدا كأنه يفتح المجلس، فسيأتون جميعهم مهرولين إليه... حتى مراد الميزانجي العظيم عاد منكمشاً على نفسه. هل سينجح بهذا العمل الجنود المترددون الذين لا يعرفون ما يريدون؟ لا يمكن حدوث أي شيء على يد أولئك!"

قال جودت بيك حزيناً لجر ما قاله إلى أمكنة لا يريدها: "أنا لا أعرف أولئك طبعاً!"

"لا تعرف! ماذا ستعرف؟ وهل اهتممت بغير النقود لتعرف..."

سكت الاثنان. وفرح جودت بيك لأن فرصة للإشفاق على أخيه الكبير، والتسامح معه قد سنحت. ولكنه أدرك عدم استطاعته القيام بهذا بسبب شعوره بالذنب. بدا الآن ما أراد أن يقوله بعيداً جداً، وعبثياً. مثلما كان الانشراح الذي شعر به في حديقة بيت نيشان طاشِ بعيداً أيضاً. فكر: "سأسكن هناك!"

قال نصرت: "قلت لك إنني سأطلب منك شيئاً!" والتفت ناظراً إلى وجه جودت بيك: "سأطلب منك شيئاً من أجل ضياء. بعد موتي..."

قال جودت بيك: "مرة أخرى تذكر الموت!"

"دع هذا الكلام... ما أريده منك من أجل ضياء هو أن تأخذه لعندك بعد موتي!"

"آخذه لعندي؟"

"أقصد ليعيش عندك! ليكون بيتك بيته!"

"حسنٌ، وماذا عن حي الحسكة؟ وماذا عن أمه، والآخرين؟"

"لا أريد أن يبقى عندهم! إذا عاش عندهم، فسيكون مجرد مخبول. سيصبح إنساناً جرياناً مثلهم، وجامداً، ومكتفياً بالقليل، ومخدراً. هل استطعت أن أوضح لك؟"

"سيكون بيتي مفتوحاً دائماً لضياء!"

"لا أقول هذا. ما أردته ليس أن يأتي إليك ضيفاً، ويذهب متى شاء، بل أن يعيش عندك. هذا ما أردته! لئلا يعود إلى الحسكة أبداً. لئلا يرى أمه أبداً. أولئك..."

"ولكنني وعدت الخالة زينب بأن أعيد الولد!"

"لماذا؟ لماذا تعطي وعداً كهذا؟"

"لأنها ألحت كثيراً على إعادتي له. كأنها كانت تعرف أنك ستطلب مني هذا..."

"كأنها تعرف ها! تريد أن تأخذه لعندها من جديد؟ وإنها تجده محبباً. ليس لديها ولد! ستقبله، وتداعبه، وفي النهاية تنشئه مخبولاً مثلها! ستحقنه بعالمها المسكين ذاك، وبخدر معتقداتها العبثية! لا! أنا لا أريد أن ينشأ ابني هكذا. ابني..." وفجأة وقع بنوبة سعال. مد له جودت بيك وعاء اللعاب الموضوع على الكوميدينة. فأشار أخوه الكبير بيده بمعنى إنه لا يريد، ثم التقطها فجأة، وبصق فيها.

"كما ترى، أنا في وضع سيئ جداً! بقي لي في هذا العمر عدة أيام، أعرف ذلك. الأمر الوحيد الذي أريده هو تأمين مستقبل ابني. سيحدث هذا إذا عاش عندك! ولكنه إذا بقي عند الأقرباء في الحسكة، أو عند أمه في القرية، فسيؤمن بالله مثلهم، ويعتقد أن الكذب غير المعقول حقيقة، ويغدو مخدراً كالجميع، ولا يفهم الحياة. أساساً فقد جعلوه مثلهم منذ الآن! حكى لي صباحاً عن الجنة والملائكة، والشياطين. إنه يؤمن بها. لم يفهم تقليد الشيطان الذي قلدته قبل قليل. أنا لا أريد أن يكون ابني هكذا. هل تفهم هذا يا جودت؟ لئلا يؤمن ابني بالكذب. ليؤمن ابني بنفسه على ضوء العقل..بنور العقل...أنا لم أسمه ضياء هكذا للاشيء!" صمت فترة، ثم تمتم: "جودت إذا لم تأخذ ضياء لعندك، فسأموت غير مرتاح!"

قال جودت بيك: "ليس صحيحاً أن تستمر على ذكر الموت!" ثم أدرك أن الأمر الذي يعتبره صحيحاً هو ليس هذا، فاحمرّ.

وصرخ نصرت قائلاً: "عدني بهذا. عدني بهذا!"

قال جودت بيك: "أعدك!" وأخذ طربوشه عن الكوميدينة، وكأن هذا هو العمل الأكثر ضرورة، وينبغي عمله، وبدأ يرتب شرابته.

"نعم، إنك تعدني، أليس كذلك؟"

قال جودت بيك: "ها قلت لك ياه!" وكان يمشط شرابة طربوشه التي قربها من وجهه بأظافره.

"أرجوك يا جودت افهمني! لم اقم بواجبي إزاء ابني في أي وقت. تركته في الحسكة، وحاولت نسيانه. والآن أدرك ضرورة قيامي بشيء ما، ولكنني تأخرت. إنك تعدني، أليس كذلك؟ أرجوك أن تنزل هذا الطربوش لأرى وجهك!"

وضع جودت بيك طربوشه على الكوميدينة. كان الضوء المجرد الساقط على وجهه يلهب عينيه.

سأل نصرت: "هل سمعت باسم الأمير صباح الدين من قبل؟ المهم. إنه الآن في باريس. وهو يعد من أنصار تركيا الفتاة أيضاً. إنه مخبول كالأمراء

كلهم، ولكنه يؤمن بفكر.." وأشار بيده إلى الكتب التي في زاوية الغرفة. "أو أن فكرته سرقها من مكان ما مثلما يفعل الآخرون، ولكنني أجدها صحيحة. بحسب رأي ديمولينز فإنه يجب البحث عن تفوق الإنكليز في كون الأفراد، والناس عندهم أكثر حرية. وهذا ليس موجوداً لدينا. لا يوجد لدينا إنسان حر هكذا، يستخدم عقله، ومبادر! فقد ترى كل شخص لدينا ليكون عبداً، يطأطئ رأسه، ويذوب داخل المجتمع، ويخاف. ما يسمونه تعليماً هو عصا المعلم، وتهديدات الأم والخالة الخرقاء. دين، خوف، أفكار ظلامية، أمور محفوظة... وفي النهاية لا يتعلمون شيئاً غير طأطأة الرؤوس. لا أحد يستطيع بجهوده الخاصة أن يترقى وهو يعارض المجتمع. على كل شخص أن يطأطئ رأسه، ويدخل تحت رعاية شخص آخر، ويترقى بعمله حاجباً عنده. لا أحد يستطيع أن يفكر وفق حساباته. ويخاف إذا فكر... ومهما بلغ الشخص، مهما بلغ يمكنه أن يعمل حاجباً عند نفسه. وبحسب رأي ديمولينز فإن هؤلاء الناس في الدول المركزية... هل تسمعني؟ وابني مثلهم..." وفجأة أخذته نوبة سعال، فبدأ يترنح. وارتاح بعد أن بصق في الوعاء.

"هل تفهم ما أرمي إليه؟ انظر، أنت فعلت بعض الأمور بنفسك. يمكنك أن تفهم هذا جيداً."

قال جودت بيك: "إنك تتعب نفسك كثيراً!"

"ماذا أقول أنا، وماذا تقول أنت؟ يمكنك أن تفهمني، حتى ولو في هذا الموضوع فقط..."

لم يفوت جودت بيك الفرصة فقال: "أفكارك صحيحة. أنا أفهمك. أنا أعطيك الحق دائماً، ولكنني مع الأسف لم أستطع أن أبدي لك هذا!"

قال نصرت: "هيا من هنا!" وبدأ يفرك برؤوس أصابع يده. "لم تفهم شيئاً غير صوت هذا! وعندما أقول نور، وضياء، وضوء، فلا يتجلى في عقلك شيء غير بريق النقود. ولكن الأمر هكذا، وعدم إعطائك قيمة لشيء غير النقود جيد. هذا يجعلك عقلانياً. لا تفهمني، ولكنك وعدتني! لهذا السبب

أريد أن يترعرع ابني في بيت تاجر. كل شيء في بيت تاجر، وخاصة بيت تاجر مثلك بدأ من الصفر خاضعاً للحساب والكتاب. وهناك عقل حيث الحساب والكتاب، وليس خوفاً.

قال جودت بيك محاولاً إبداء الغضب: "لن تخضع عائلتي لحسابات من هذا النوع!" ثم ندم لأنه قال هذا.

"أعرف، أعرف. أعرف ما يخطر ببالك. أعرف ما تريد أن تظهره لي، وأنك لا تفهم كلماتي. ولكن مهما يكن، فإن تربيتك له أفضل! سيتعلم أن يكون فردياً من الاقتداء بك! لن تضربه طبعاً. دعه حراً. ليعمل ما يريد. ليفهم أنه يمكن أن يعمل شيئاً ما اعتماداً على نفسه، وعقله. ليثق بعقله. تعطيه غرفة صغيرة، يسكن فيها. ويتعلم كيف يمكن العيش من دون أن يكون حاجباً، وأن ما تعلمه في الحسكة كذب، ويدرك أن كلمات الدين والله القبيحة تفيد بإخفاء القبح، وتغذيته. هل يتعلم؟ آه، لا أعرف، أريد أن أراه، لا أريد أن أموت، لا أريد أن أموت، أريد أن أعيش، وأن أرى إلى أي نتيجة سيصل إليها كل شيء. أريد أن آكل مزيداً من الطعام، وأدخن السجائر!"

"هل أنت جائع؟"

"نعم، احضر لي موزات لحم! طلب مني الطبيب صباحاً أن آكل موزات لحم. هاه! لحم، وحليب، وبيض، وموزات لحم..." وأطلق قهقهة. "أنا أموت. أمي أيضاً ماتت بالسل! انتظر، لماذا تقف، اجلس!"

"طلبت لحماً؟"

"لحم؟ ولكن شهيتي مفقودة! لا، يجب أن آكل. ما قولك، إذا أكلت لحماً الآن، فهل أعيش؟ ولكن لا! علمونا في كلية الطب. عندما يتم الوصول إلى هذه المرحلة" وفتح يديه إلى الجانبين. "عندما يتم الوصول إلى هذا المرحلة، ينتهي... ينتهي ياه." أمسك ذراع جودت بيك. "لا أحد يستطيع فهم هذا. ولكنك تجلس هنا، وتفكر بالذهاب إلى بيتك، وبابنة الباشا، وحساباتك الأخرى، والألاعيب التي تديرها. لا تنس أنك أيضاً ستموت! ولكنك الآن ستعيش. وفوق هذا، أنت مازلت تستخف بي." ترك ذراع أخيه:

"أنا أيضاً أستخف بك. هل فهمت هذا، وأنا أراك تافهاً. لا روح لك أنت. تعيش من أجل خبل! نقود، حياة عائلية، وخبل داخل حياة يومية صغيرة، وهموم التجارة... أنت من دون روح! الباب يقرع".

نهض جودت بيك، وفتح الباب. كانت ماري، وضياء.

قالت ماري: "أكلنا صدر دجاج، ومهلبية!"

قال نصرت: "هل كانت جيدة؟"

أدرك ضياء بأن السؤال موجه إليه، فابتسم.

"هل كانت جيدة يا ابني؟ يعني كانت جيدة! ستأخذك الآن الخالة ماري إلى الفندق هناك في الزاوية. هل تعرف ماذا يعني فندق؟ ستأخذك إلى هناك. وتمددك على السرير. تنام! ستنام وحدك بعد الآن، أليس كذلك؟ أنت رجل كبير لا تخاف! أم أنك تخاف؟ لن تخاف من الظلام، أليس كذلك؟ أجبني... أجب أباك يا هذا؟" وغضب فجأة، وقال: "خذيه يا ماري، ونوميه! هيا اذهب، ونم، وتعلم بعد الآن أن تجيب إذا سألك أحد سؤالاً!"

أمسكت ماري ضياء من يده، وقالت: "نحن ذاهبان إلى النوم! وبعد ذلك سآتي!"

وبأمل أخير سأل نصرت: "ماذا ستفعل أنت الآن يا ضياء؟ وعندما لم يتلق أي جواب، انفجر بالضحك متوتراً: "يا ضياء، يا ابني، ماذا ستفعل أنت الآن؟ ماذا يعني ضياء؟ الضوء! ماذا يفعل الضوء؟ هيا، هيا خذيه، لينم! اجلسي بجانبه قليلاً، ولا تطفئي المصباح، لأنهم جعلوه مثلهم: يخاف من الظلام. هل تخاف يا ابني؟ أسألك، هل ابتلعت لسانك؟" أخرج لسانه الأبيض. "لسان؟ هل ابتلعت لسانك يا ابني؟ إذا خاف فلن يتكلم! هيا، الله يريحك."

11
أذكياء ومخبولون

فور خروج ماري وضياء بدأ نصرت يسعل سعالاً مخنوقاً ومخيفاً مصحوباً بالشخير. وصرخ قائلاً: "مخبول! آه، ابني مخبول!" ثم سعل مرة أخرى. التفت إلى جودت بيك: "حولوه إلى مخبول. مخبول وخواف! كيف فعلوا به هذا بسرعة؟ بالعقائد المقرفة والسافلة، وبالخوف، ولعل الأمر حصل بواسطة العصا!"

قال جودت بيك: "لا يا روحي، إنه ليس ولداً من هذا النوع!"

"ليس كذلك؟ ألا ترى كيف ينظر إلى الإنسان؟ لديه نظرة متوجسة ومن الأسفل... ستأخذه لعندك، أليس كذلك؟ وعدتني!"

"نعم!"

"كرر وعدك. أعده مرة أخرى، لأذهب مرتاحاً..."

قال جودت بيك: "أعدك!" ودس بجيبه يده الممتدة إلى شرابة طربوشه بحنق، وفكر: "نسيت منديلي!"

"حسنٌ. وعدتني. أنا أثق بك..."

خيم صمت. وسُمع وقع أقدام على الدرج. مر أحدهم من أمام الباب وهو يصفر.

"آه، يصفر! يعيش! وانا أيضاً أريد أن أعيش. هذا ظلم! أريد أن أرى الناس الآخرين ماذا يفعلون! لم أخرج من هذه الغرفة منذ شهر! لماذا يصفر؟ لأنه مخبول! لا يمكن إلا للمخبولين أن يكونوا سعداء في عالم قبيح، ومقرف... مخبولون... أنا ذكي، وأعرف كل شيء، وأموت. لا تنظر إلي هكذا. إنك تنظر بخوف. إنك تخاف مني، وتقرف، أليس كذلك؟"

قال جودت بيك: "يا أخي الكبير، أنا أحترمك!"

"لا، لا أريدك أن تحترمني. لأنك سعيد! لعلك لست مخبولاً، ولكنك ممنون من حياتك! لأنك من دون روح. طبعاً لا يمكن إلا لعديم الروح أن يكون بهذه الألبسة المضحكة، والعربة الواقفة عند الباب، ويطلب ابنة باشا!"

قال جودت بيك: "أنا لم أغضب مثلك في أي وقت!"

"ماذا تقول؟ هيا، تعال لنخرج. لننظر إلى الناس! ماذا يفعلون؟ أريد أن أراهم وسط حياتهم اليومية الصغيرة والمخبولة. من يعلم ماذا يفعلون الآن؟ يعيشون من دون أن ينتبهوا لأي شيء، ودون أن يفهموا أي شيء، ولكنهم رغم هذا يعيشون سعداء، ويطلقون الصفير. سيصومون في رمضان، وفي المساء يشربون القهوة، ويثرثرون، ويصفرون. هل تتذكر، كان عندنا جارة في قولا. تقول لا تصفر، لا تصفر، فهذا سيئ."

تذكر جودت بيك المرأة منتشياً، وقال: "كانت تخاف من الأفعى غالباً!" وضحك.

قال نصرت: "تخاف من كل شيء. ولكنها كانت تعيش سعيدة أكثر مني. من يعلم، لعلها مازالت تعيش! لو رأتني فستخاف، وتشمئز، وتحزن لأجلي، ولعلها تدعو لي... مخدرة! آه من أولئك المخدرين كلهم... الثورة! هل تعرف ما تعني هذه؟... ثمة حاجة للثورة، ولكن أحداً لا يعرف... لأنهم لم يعلموا هذا لهؤلاء..."

صمت فترة. سعل، ثم صرخ: "آه، أريد فائدتهم، أن يعيشوا في عالم منير، ولهذا السبب لا أستطيع أن أكون مثلهم! وأنتظر الموت بعيداً عنهم،

هنا، وحدي، مع امرأة مسيحية. لا! أريد أن أعيش، وأرى! برأيك ماذا سيحدث بعد ذلك؟ من ألقى القنبلة؟ ولكن من أين لك معرفة هذه الأمور؟"

قال جودت بيك: "نعم لا أعرف هؤلاء!"

"طبعاً لا تعرف..." وحاول نصرت أن ينظر إليه نظرة حادة، ولكنه بدا محبباً لأخيه.

صمتا من جديد. وفكر جودت بيك بالمرأة التي ورد ذكرها قبل قليل. كانت تخاف من الأفاعي، وتغضب من الذين يصفرون، وتغلي المعقود. كانت تسكن في بيت تنتصب في حديقته أشجار التين والخوخ. وكانت تغلي المعقود دائماً، أو أن جودت الصغير كلما دخل إلى ذلك البيت يراها تغلي معقوداً، أو أن بخاراً عجيباً ورائحة حلوى قد تغلغلت في ذلك البيت. عندما تخطر تلك المرأة ببال جودت بيك فتكون مصحوبة بخبز مدهون بالمعقود. فكر بذلك الخبز بالمعقود الذي أعطته إياه زليخا خانم صباحاً، وبمطربانات المعقود، وما يتناوله شكرو باشا على الإفطار، وبأشياء أخرى. ارتاح لأنه فكر بكل هذا، وتخلص من خوف الموت واليأس الذي يعشعش في هذه الغرفة، وعدم اضطراره للنظر إلى وجه أخيه الكبير أثناء بث المصباح اللهب في عينيه. ثم انتبه لحركة مفاجئة. نهض أخوه الكبير، ودلى قدميه عن السرير.

"أين نعلي؟"

"إلى أين أنت ذاهب؟"

"إلى دورة المياه... لدي عمل... سأحلق ذقني... لماذا تسأل عن كل شيء؟ سآتي فوراً. لم أعد بحاجة لمساعدتك. لا أريد مساعدة أحد!" فتح الباب. "لألقِ نظرة إلى الناس، والعالم! لا، لا، أنت اجلس، سآتي حالاً."

جلس جودت بيك معتقداً أن أخاه قد ذهب إلى دورة المياه. مشى رواحاً ومجيئاً في الغرفة. نظر إلى ساعته، كانت تشير إلى الثالثة... "لأرسل الحوذي بعد هذا الوقت، ليذهب، ولئلا ينتظر!" ولكنه تراخى. وقال لنفسه: "لماذا لا أعود إلى البيت؟ لن يحدث شيء بعد الآن!" ولكنه عاد

للجلوس على الكرسي، كأنه ينتظر شيئاً، وبدأ يهز رجله متوتراً.

بعد قليل، فتح الباب بقوة، وصرخ نصرت وهو يدخل: "آه يا أخي، الموت سيئ جداً. الموت سيئ جداً، أنا لا أريد أن أموت! جلسوا في الأسفل، يثرثرون، ويدخنون ويشربون الشاي." وكان يمشي نحو أخيه مترنحاً.

قال جودت بيك: "تمدد على السرير. لا تقف على قدميك... لا تصرخ إلى هذا الحد!" وعانق أخاه الكبير.

قال نصرت وهو يئن: "أنا أبكي!"

"تعال هكذا، قف، لأمددك..."

ألقى نصرت بنفسه على السرير بحركة قوية وسليمة تظهر أنه ليس بحاجة لأي مساعدة. "هم يعيشون... هم سيعيشون. وفوق ذلك كالمخبولين... وهم يثرثرون. استمعت إليهم. هل تعلم بماذا يتكلمون؟ أحدهم يحكي عن المكان الذي أكل فيه أفضل مهلبية، ويقول الآخر إن الأسعار في أسكودار رخيصة جداً. كنت سأستمع إليهم أكثر، ولكنني اشمأززت من خبلهم، ومسكنتهم... يتثاءبون، ويدخنون، ويثرثرون بكلام فارغ، ويعيشون. أما أنا فأبكي كما ترى. آه، أهكذا سأغدو؟" وسحب الغطاء إلى جبهته خجلاً، ثم أنزله، وقال: "لعلني أتحسن! فأذهب إلى باريس، وأتابع كل شيء من حيث تركته!" وفجأة بدأ السعال من جديد.

بدت نوبة السعال هذه لجودت بيك أطول من كل مرة، وأسوأ. وفكر: "نعم، إنه يموت، وهذا أمر مخيف جداً!" واعتقد للمرة الأولى أنه أدرك ما يعاني منه. تصور نفسه مكانه، وحاول أن يفكر بكل شيء مثله في لحظة، وبدت له همومه الصغيرة، وما فعله صباحاً في الدكان، وتلك البضائع التي يشتريها ويبيعها، والرسائل التي يكتبها من أجل الحصول عليها، وبيعها بأسعار جيدة، والكلام الذي قاله، والحسابات الصغيرة التي قام بها طوال حياته، وتصوراته، وكل شيء قبيح. ومن أجل نسيان هذا، فكر: "سأعيش مع نيفان في نيشان طاشِ. في تلك الحديقة ذات النسيم المنعش، وغرف البيت..."

صرخ نصرت: "لماذا شربت إلى هذا الحد؟ كل هذا بسبب المشروب! لولا أنني أدمنت على المشروب إلى هذا الحد لما فطست هنا على هذا النحو!"

قال جودت بيك: "نعم، أنت شربت المشروب للاشيء." وفور قوله ذلك، أدرك أن ماضيه الذي رآه في لحظة قبيحاً، مليء بما يتوجب عمله، وأنه قام بعمل حق، وارتاح. خشي من تلك المشاعر التي تبدي كل ما قام به قبيحاً، فحنق أخيه الكبير الذي أخرج تلك المشاعر إلى العلن.

"هذا يعني أنني شربت للاشيء! طبعاً شربت. لأن شيئاً لم يكن يلجمني غير المشروب. عقلي ليس مليئاً بالحسابات الصغيرة مثل عقلك، بل بالكره والغضب. أنت لا يمكنك أن تفهم هذا! هل تعرف أنت ما يعنيه الغضب؟ أنا شعرت بالغضب. هذا أهم شيء بالنسبة إلي. كرهت، واشمأززت، وأردت أن يتهدم كل شيء. والأهم من هذا كله أنني أردت أن يبرد ذلك الغضب. لم أنجح في هذا! أما أنت فقد كنت تشعر بالإعجاب، والتوق. وحاولت أن تفهم من أجل الوصول إلى ما أعجبت به. أنا لا أريد أن أفهم! من يفهم لا يتأجج غضباً! أما أنا..." فجأة صمت... رفع رأسه عن المخدة. "أما أنا فواحد مخبول. وحتى في حالي هذه أجد شيئاً أباهي به! أنا مجرد مخبول معجب بنفسه! وأموت كمخبول!... الأذكياء يجدون طريقة ليعيشوا... المخبولون أيضاً يعيشون... لا، سأعيش! ما قولك، هل سأعيش؟"

قال جودت بيك: "طبعاً ستشفى! ولكنك يجب ألا تتعب نفسك بعد هذا. نم!"

"نعم، نعم سأشفى. علاج مدة شهر. غذاء كثير... سأطلب منك نقوداً أيضاً. ولكنني سأدفع لك ديوني كلها، ثق بهذا. لأقل لك بأنني حساس تجاه هذا الموضوع. سأرسل لك نقوداً من باريس. أعتقد أنني سأجد عملاً جيداً هناك. هل تعرف ما قاله لي ذات مرة الجراح الشهير بلانشوت؟ قال لديك برودة أعصاب أكثر مما هو ضروري لجراح. سيجد لي عملاً بالتأكيد. بعد ذلك أنضمُ من جديد إلى الحركة. خلال الأشهر الستة الأخيرة هذه أدركت خطأ كل منهم. سيكون أول عمل لي هو القول لأحمد رضا: صباح الدين حصان طروادة. هل تعرف أنت قصة حصان طروادة؟ لا تعرفها! ها أنت! لا

يعرف بعد ما يعنيه حصان طروادة! يعتبرونني غريباً. وأنا أعتبرهم مخدرين. لا يوجد أحد هنا. أما باريس فهي مليئة بمن يعرفون حصان طروادة. الحديث مع أوربي يمنح الإنسان متعة لا أستطيع شرحها لك! ولكنني لا أقصد المبشرين القذرين والصيارفة الذين هنا. الأوربيون الحقيقيون: "فولتير، روسو، دانتي... الثورة..." وفجأة بدأ بترديد نشيد.

قال جودت بيك يائساً: "لا تتعب نفسك يا أخي الكبير!"

قال نصرت متلاحق الأنفاس: "اسكت، واستمع باحترام!" وملأ الغرفة نشيد انطلق كصخرة تتدحرج، بعد ذلك انحنى منكسراً، ثم تراجع متقهقراً.

في البداية أحب جودت بيك اللحن، ولكنه بعد ذلك حاول فك الفرنسية التي يرددها أخوه الأكبر بصوته المصحوب بالشخير.

قال نصرت: "هذا هو المارسيليز. نشيد الثورة الفرنسية الأكبر. المارسيليز العظيم! لنر متى ستسمعه هنا؟.. هل تعرف أنت ما تعنيه ربابلك؟ طبعاً لا تعرف. لم يكتب شمس الدين سامي مقابل هذه الكلمة في القاموس الفرنسي لخوفه. ربابلك هي شكل الإدارة الضرورية لنا. هذا موجود في فرنسا. أسسها الذين يرددون هذا النشيد.. اسمع هذا النشيد: *"Allons enfants de la ...*

فجأة فتح الباب. قالت ماري: "ماذا يحدث؟ أرجوك يا نصرت اصمت! أتوسل إليك!"

"أنت لا تتدخلي. كيفما كان فسأموت. فلأمت وأنا أردده!"

"صوتك يسمع من هناك، من الأسفل. أ ليرمونا من البنسيون؟" والتفتت إلى جودت بيك: "أرجوكم، أنتم أيضاً قولوا شيئاً!"

قال جودت بيك: "أقول بأنني لا أعتبر أشياء كهذه صحيحة!"

قال نصرت: "لا يوجد أحد يفهمني هنا!" وكان ينظر إلى ماري غاضباً.

حكت ماري كيف نيمت ضياء، وكيف خاف الولد بداية، ولكنه بعد ذلك غط في النوم. وجدته محبباً على الأغلب، وأحبته.

قال نصرت: "جعلوه مخبولاً" وفكر فترة: "أساساً أمه كانت هكذا. كنت أقول لها: النساء في أوربا يطالبن بحق الانتخاب والمساواة، ما قولك؟ وكانت تقول: أنتم أعرف يا سيدي. وأنا أرسلتها إلى بيتها! أي امرأة يريدها الإنسان هنا، لا أعرف." ونظر إلى ماري، وابتسم: "يجب أن تكون مسيحية." ثم التفت إلى جودت بيك: "هل يمكن الزواج من مسلمة برأيك؟ ولكنني أعتقد أن خيار ابنة باشا خيار خاطئ! لأن هناك ضرورة لثورة يراق فيها دم الباشاوات، وسلالاتهم. هل ستحدث؟ كفى هذا!"

قالت ماري: "نعم، سيكون من الأفضل إذا نمت!"

"لا أريد أن أنام. إنها المرة الأولى التي لا أشعر فيها أنني منهك منذ أيام. اعتقدت مساء الأمس أنني سأموت، أليس كذلك؟ هذا وضع مألوف كثيراً: تخلص المريض من أولى نوباته، فبدا كأنه انفرج. النوبة الثانية تتهيه في عدة أيام. وبعد ذلك، سأنام مخدراً، وأغفو فجأة، وأتلوى مرتفع الحرارة..." بدأ يسعل من جديد، ولكن السعال هذه المرة لم يستمر طويلاً. "وبعد ذلك، الموت. الآن أريد أن أتكلم. نعم، لنتكلم، لنتكلم! عن ماذا نتكلم؟ قولي يا ماري عما تفكرين فيه تجاهي، ثم تجاه جودت...لا، لا...إيه، لماذا تصمتان؟ أريد أن أشرب مشروباً! أشعر أنني سليم جداً! ترى مازالوا يثرثرون في الأسفل؟ لأذهب، وأرى. يثرثرون، ولأجد موضوعاً مثلهم، ولكن... الرومانطيقية مثلاً موضوع جيد. أو أن كل شيء كان أرخص في الماضي... انتظروا! أريد أن أشرح لك الثورة. تلك الضرورية لهذا المكان! ثورة دامية! أين ستنصب المقاصل؟ في ساحة السلطان أحمد! ستعمل المقاصل على مدى أيام من دون توقف. وسيتدفق دم سلاطنة السلاطين، والسلاطين، والأمراء، والباشاوات، وسلالات الباشاوات كلهم، والعاملين على التقرب منهم. وسيصب سيل الدم من سيركجي إلى البحر."

نهض جودت بيك، وقال: "أخي الكبير، كفى!"

"لماذا؟ هل غضبت؟ أنت تاجر. لن يكون هناك من يلمسك. لا يأتي الضوء إلى هنا إلا إذا حدث شيء كهذا. لا يمكن التخلص من هذا الظلام

بطريقة أخرى. اجلس، واسمعني. ماذا أقول؟ نعم. المفاصل. لا صلح أبداً! يجب اقتلاع كل شيء من أعماقه، أي من جذوره، ورميه. لا صلح!" سقط جذعه المحني إلى الأمام فجأة إلى الخلف، وضرب رأسه بالمخدة: "ولكنني أعرف، لن يحدث هذا. مع الأسف! لا يمكنهم عمل هذا! لا يمكنهم عمل هذا! اسمع ما سأحكيه لك. قبل ثلاثة أشهر، وقبل أن أغدو طريح الفراش، ذهبت إلى آشيان عند توفيق فكرت. كان في الدرس في مدرسة روبرت كوليج. انتظرته، وجاء. قلت له إنني معجب بأشعاره، وأنه نامق كمال جديد. نظر إلي بشك. وقلت له كوماً من كلمات المديح التي أخجل منها الآن. شرحت له الوضع في أوربا. وحكيت له عما يجب أن يفعل هنا من أجل تصعيد النضال، وما أفكر فيه. سألني عن سبب عودتي من أوربا. اعتقد أنني من الشرطة في البداية على الأغلب. لم أبال. ألقيت عليه شعره بانفعال كبير. وألقيت شعراً لنامق كمال. كنت قد شربت قليلاً من المشروب... وقد تعبت من صعود الطريق، وشعرت بدوار، وانفعلت في النهاية! لم يفهم. جولني في بيته، وقال مباهياً بأنه رسم مخططه بنفسه. أراني الرسوم التي رسمها. نعم، شاعر ثوري يترك كل شيء، ويرسم. لوحات. أوراق تتساقط، ومناظر خريف. وثمة فواكه في صحن. وضع تفاحتين وبرتقاله في صحن، ورسمها. هل يفعل هذا ثوري؟ هل يمكن لشاعر ثوري أن يقضي يومه كله بالنظر إلى برتقاله وتفاحتين وضعهما في صحن من أجل أن يرسمهما؟ هل يعرض ثوري مثل هذا لثوري آخر؟ قلت له: لماذا ترسم هذه؟ اكتب شعراً أكثر. ارفع صوتك، واصرخ، ليسمعك الجميع! اصرخ! إيه أيها الأهالي، انهضوا، استيقظوا، استيقظوا. ليسقط الاستبداد!"

قالت ماري: "أرجوك اصمت!"

"استهان بي، ولكنه تلقى اللازم غالباً... قال إن لديه درساً. ولكنه قال هذا بظرافة. أعطاني مجموعة شعرية صغيرة. لم تكن مجموعته. أهداني مجموعة شاعر فرنسي. وفي النهاية، عندما أدرك أنني لست شرطياً على الأغلب، أراد أن يراضيني. امتدح غلاف كتاب الشعر، وقال إنه معجب

بكاتبه. وبعد ذلك بحثت حول الكاتب. وكان اسم ذلك الشاعر فرانتشس كوبيه، وقد اتخذ مكانه إلى جانب معادي التنوير كلهم في دعوى دريفوس، وهو مخدر سافل من أعداء الثورة... أين ذلك الكتاب يا ماري؟ كان هنا في تلك الطاقة، هاتيه لأمزقه!"

فجأة شعر جودت بيك بالقوة التي شعر بها في نيشان طاشِ بعد الظهر ولكنه لم يعرف مصدرها كانت تتململ في داخله، فنهض على قدميه. وصرخ قائلاً: "كفى!" وأضاف مندهشاً من غضبه الحاد الحازم غير المتعرج: "نم أنت بعد كل هذا! وإلا سأطلب الطبيب."

"ناد ذلك الطبيب الإيطالي لأتحدث معه. فقد لمع نور العقل أول مرة في إيطاليا. هناك الوطن الأم للتنوير. حسنٌ، حسنٌ! سأنام. وأنت أيضاً اذهب إن أردت! متى ستعود؟"

قال جودت بيك: "غداً آتي!" ثم فكر فجأة: "لدي عمل كثير! لو أنني قلت بعد غد؟" وتوتر غاضباً من أخيه الكبير لأن أعماله ونظامه كله انقلبت رأساً على عقب نتيجة أمر ما مزعج هنا، أو لسبب لا يدري ما هو. تمتم قائلاً: "ضاع اليوم كله من دون جدوى!" هذه المرة ضايقته تلك الفكرة. فمشى رواحاً ومجيئاً في الغرفة.

سأله نصرت: "لماذا تمشي هكذا، وبماذا تفكر؟" ثم بدأ بالحديث عن أمور ما.

لم يستمع إليه جودت بيك. ذهبت وراءه ماري إلى الباب. وقال جودت بيك للمرأة مرة أخرى إنه سيأتي غداً.

قالت ماري: "أرجوكم تعالوا! عندما يراكم ينفعل، ويلمع ذكاؤه، ويتحسن..." وأضافت هاربة بعينيها: "لعله يضايقكم قليلاً، ولكن... الولد أيضاً يريد أن يراكم. سأل قبل أن ينام قائلاً: هل سنتنزه بالعربة؟"

قال جودت بيك ضاحكاً: "نعم، سأنزهه!"

12
الليل والحياة

خلال نزول جودت بيك الدرج رأى الأشخاص الذين يثرثرون في الأسفل في ضوء مصباح موضوع على طاولة صغيرة. ولأنهم صمتوا عند رؤيته، فلم يعرف ما إن كانوا يتحدثون عن أفضل مهلبية، أو عن رخص الأسعار في أسكودار، أو عن الرومانطيقية. عندما خرج إلى وسط الليل انتبه إلى أي حد كانت غرفة المريض، والبنسيون حارة، وخانقة، فانشرح. كان نسيم عليل يهب كما في نيشان طاش. ثمة غيوم في السماء. سار نحو العربة ببطء. وأيقظ الحوذي الذي ينام على مقعد العربة الوثير. وأشعل سيجارة ريثما يصحو الحوذي إلى نفسه. عندما انطلقت العربة منفلتة وواثقة من ذاتها وحازمة كما هي دائماً، فتح النوافذ. فكر: "هو يموت، وأنا أعيش!" وارتاح عندما أدرك أنه قال هذا من دون شعور بالذنب، ومن دون امتعاض. تذكر اليوم كله، فابتسم. وتمطى راغباً بإخراج ذراعيه الطويلتين من النافذة، وتثاءب. وحين فتح حنكه إلى النهاية، انزلقت أنّة طمأنينة متراخية من بلعومه. "آوه، ها أنا أعود إلى البيت! إلى بيتي، وفراشي النظيف، وأغطيتي النظيفة!" وأسند رأسه بشكل خفيف إلى الخلف، ثم أماله كثيراً، وأسبل جفنيه، ولكنهما لم يغمضا تماماً. كانت مصابيح الشارع بخطوطها الغائمة تظهر وتختفي أحياناً

والحشرات تدور حولها، والناس الذين يحثون الخطا، والأضواء الشاحبة المتسللة من هنا وهناك تتدفق مارة من نافذة الحياة. أسند رأسه إلى الخلف، من دون أن يؤثر ما يخطر بباله على روحه، ودون أن يبال بثرثرة الوعي المتوجسة القلقة الماكرة غير الصامتة في أي وقت وهو يشعر بالنسمة الداخلة من نافذة، والخارجة من أخرى دون أن تؤثر على جسده وهو جامد من دون حركة مدة طويلة. كان يتذكر أحياناً تلك الكلمة التي خطرت بباله بعد الظهر، ويتمتم بها: "أنا أعيش!" نزلت العربة من الطرق المنحدرة، وعبرت بجوار عربات أخرى، وقرعت نعالها البلاط. عندما جعلت العجلات الخشب يصر أدرك أنه يمر فوق الجسر.

في أثناء مروره من فوق الجسر موج النسيم القادم من بحر مرمرة ستائر النوافذ الصغيرة. فأسند جودت بيك نفسه إلى النافذة اليسرى، وعب النسيم إلى داخله. كان البحر يفوح برائحة الطحالب. في مكان ما بعيد بعيد، لمع بريق زهري اللون خفيف وسط الليل. الريح الجنوب غربية قادمة. سفينة مربوطة إلى الجسر ترتفع، وتنخفض ببطء، وسيجارة قاطع تذاكر أجرة عبور الجسر تتوهج لدى توجيهها نحو الريح. فكر جودت بيك: "ها هو يوم آخر قد انتهى!" لم يكن ثمة ضوء يشع في طرف اسطنبول القديمة، ولا في طرف بيرا.

عندما راجع أحداث اليوم الذي بدأ ضبابياً، واحترق بالشمس الملتهبة، بدا كأنه افتقد طمأنينته. فأشعل ثقاباً لسيجارة جديدة، ولكنه لم يستطع إشعالها. جرب مرتين أخريين قبل أن يُغلق النافذة، وفي المحاولة الثالثة أشعل السيجارة. فكر: "رأيت حلماً مزعجاً! كان واضحاً أن يومي سيبدأ سيئاً. ولم أجد إسكينازي. أحضر الولد تلك الرسالة. شككت بأنها حيلة من أجل سحب نقود. ولكنني أخجل من هذا!" ثم استنتج أن الباشا ليس منزعجاً أبداً، على العكس فهو إنسان حنون، ومسلٍ يستمتع بالصداقة والصحبة. ضحك لقصص ملاحقة النساء التي حكاها الباشا في

أثناء لعب الطاولة. وتأججت في نفسه مشاعر الحب، بدل مشاعر الكره والغيرة التي تثار في داخله عادة عندما يستمع لقصص كهذه. تذكر الطبيب الإيطالي الذي كان يراقب كل ما حوله، وينظر بشهية إلى الحياة في أثناء سيره في بيه أوغلو. وقد أجج ذلك الرجل أيضاً مشاعر الحب في نفسه. "كان ثمة جانب مسيحي في حركات الطبيب، وانحنائه لتقبيل يد ماري، وجانب ممتع رغم أنها كذلك. الرجل السمين الذي رأيته في الصيدلية يشتري شمبانيا وماء معدنياً كان ممتعاً أيضاً. يجب أن يفعل المرء مثلهم... يجب أن يكون الإنسان مرحاً، وأن يضحك، وأن يأكل، ويشرب.. هكذا سأعمل من الآن فصاعداً. ولكن رغم هذا يجب عدم إهمال التجارة والشركة. كيف سأوفق بين هذين الأمرين؟ كنت أرغب بأن يكون لي حياتان. أقضي إحداهما في الدكان، والثانية في البيت." وسمع رعداً قادماً من بعيد، تمتم: "كلمات، كلمات..." أدخلت الريح إحدى الستارتين الصغيرتين إلى العربة، ودفعت الثانية خارجها ولوحت بها. "الكلمات تتطاير، والستائر تتطاير. أنا أعيش. تهب ريح الجنوب غربية. سيرتفع البحر غداً، وتتوقف السفن. آه، غداً أيضاً لن يستطيع إسكينازي المجيء من الجزيرة. وهاهو هم تجاري صغير يفقد الإنسان مرحه. سيقول المحاسب صادق ينبغي أن تحصلوا دينكم اليوم يا سيدي. صادق المسكين! مجرد محاسب. أنا تاجر... وفؤاد أيضاً سأل، وشكرو باشا: ما هي الحياة؟ قلت لفؤاد إن هذا السؤال عبث. عبث، عبث... لماذا يجب على الإنسان أن يسأل عن هذا؟ قارئو الكتب، وملخبطو العقول يطرحون هذا السؤال! هل تسأل الخالة زينب هذا؟ هي تعيش، وأنا أعيش... والآن سأنام، وأنهض صباحاً، وسأنهمك بالعمل، وسأتزوج، وسآكل، وسأدخن سجائر، وسأضحك، وسأعمل هذه الأمور أكثر. وسأنتقل بعد ذلك إلى الطرف الآخر. وقد أنهيت يوماً آخر من أيام ما قبل الانتقال إلى الطرف الآخر. لقد رأيت حلماً. وكنت متضايقاً صباحاً: فكرت بأنني وحيد بجوار أولئك التجار المسيحيين

واليهود. لا أريد أن أفكر بهذا الآن... ماذا أريد الآن؟ النوم! لابد أن زليخا خانم قد رتبت السرير. آه، يا للمرأة المسكينة!" كانت الكلاب تنبح. "كنت أخاف الكلاب عندما كنت صغيراً. كنا نخرج إلى البساتين عندما كنا صغاراً. والعب مع أخي الكبير. في يوم الخضر والياس... أنا أفكر كل قليل بيوم الخضر والياس." مازال ضوء مصباح ضعيف ينتشر من نافذة أحد البيوت. "لعله مصباح بعته أنا. هناك أشخاص يجلسون تحت ضوء مصباح بعته أنا. ماذا يفعلون؟ يثرثرون. أحدهم يقول إن ريح الجنوب شرقية تهب، ويقول الآخر انزل أصيص الزرع من الشرفة البحرية لكي لا تسقط. ثم يشربون مغلي الزيزفون، والشراب، ويتثاءبون." هو أيضاً تمطى، وتثاءب. "ستهين أخي الكبير بهذه الأمور. لماذا؟ لأنه يؤمن بوجود أفكار قيمة جداً لديه. لعله على حق، وأفكاره قيمة. يستهين بالجميع لأنه يجد نفسه على حق، وهو يفكر بأمور لا أحد يفكر فيها، وسمع بما لم يسمعه أحد، لذا فهو يعطي أهمية لنفسه. ولكنه هل يستحق هذا؟ أوه." مرة أخرى تمطى، وتثاءب. كانت العربة قد دخلت الحي. "يجب أن يكون لدى الإنسان حياتان، وروحان. الأولى للتجارة، والأخرى للمتعة! يجب أن يعيش دون دمج هاتين الحياتين إحداهما مع الأخرى، وإعاقة إحداهما للأخرى. نعم، هكذا سيكون. وهكذا ستكون حياتي أيضاً! سأعيش!" ومرة أخرى تثاءب وهو يتمطى، ونزل من العربة بقوة طازجة دهش من أين استمدها.

قال للحوذي: "أتعبتك كثيراً اليوم!"

ابتسم الحوذي كأنه توقع هذه العبارة طوال اليوم.

"تعال في الساعة نفسها غداً صباحاً يا عم!"

"سآتي!"

تحركت العربة. ونظر جودت بيك خلفها حتى غابت أضواء مصابيحها المرتجفة عند زاوية الزقاق. ثم دخل إلى البيت، فرأى في الطابق الأول ضوءاً شاحباً. فكر: "لم تنم!"

"من هناك؟ هل هذا أنت يا ابني جودت؟"

قال جودت بيك: "أنا، أنا!" وسار نحو الدرج. "انتظر! هل أنت جائع؟ هل أكلت؟"

قال جودت بيك: "لم آكل!" ثم ندم لأنه قال هذا.

قالت زليخا خانم: "تعال، تعال فقد حضرت لك متبل الباذنجان باللحم! غفوت هنا أثناء انتظاري لك." وخرجت من المطبخ متمايلة، وهي تحمل بيدها مصباحاً.

قال جودت بيك: "لو أنك نمت! لماذا انتظرتني؟"

قالت المرأة: "انتظرت هكذا!" وابتسمت. "المائدة جاهزة. هيا، تعال!"

مشى جودت بيك نحو المطبخ مفكراً بأن من الصعب عليه التملص من هذه المرأة، ومن متبل الباذنجان باللحم. تمتم: "إنهما تتداخلان! كيف يجب أن يفصل بين الحياتين؟"

قالت المرأة بمتعة خدمة جودت بيك: "اجلس، اجلس! كيف حالك لنرى؟ إنك متعب! من يعلم ماذا فعلت اليوم؟ آه، اسمع عما حدث في الحي اليوم... كان مصطفى افندي عائداً من صلاة الظهر. مصطفى أفندي الساكن بجوار السبيل كان عائداً من الجامع. فقابل ذلك الشخص مصادفة عند الزاوية... هل تأكل محشياً أيضاً؟ واحدة فقط؟ صادف صالحاً. نظر وإذا صالح يحمل بيده... سيهطل المطر، أليس كذلك؟ نظر، فرأى بيده مفتاحاً ضخماً... قال صالح أفندي إن هذا المفتاح لك..."

القسم الثاني

1
فاتح شاب في اسطنبول

"لن تكون أوربا بالنسبة إلينا بعد الآن سوى شيء. أقول شيئاً: ... هدفاً! أو على الأصح مثالاً." كان سعيد بيك يهتز مع مقطورة مطعم القطار، ويتكلم بسرعة: "علينا ترك الكبرياء جانباً. أقول هذا دائماً: مضت سنوات طويلة على إخماد صليل سيوفنا، وصخب بنادقنا وأقلامنا... لم تعد الدولة تلك الدولة القديمة، ولا العالم ذلك العالم القديم! ها نحن داخلون إلى النصف الثاني من القرن العشرين... نحن في شباط عام ألف وتسعمائة وثلاث وثلاثون... ماذا بقي للألف وتسعمائة وخمسين؟ لنشرب، لنشرب، ولنترك الكبرياء جانباً، ولنهضم الجمهورية والأوربية في داخلنا... ولكنكم لا تشربون أبداً!"

حاول عمر أن يقول شيئاً ما. كان يفكر: "شباط عام ألف وتسعمائة وثلاث وثلاثون! وها أنا أعود إلى اسطنبول..."

قال سعيد بيك: "لا، لا تقولوا شيئاً، أفهمكم. لابد من وجود من ينتظركم. إنكم شاردون. أفهمكم، أفهمكم!" تقمص شخصية العم الحنون، وابتسم.

قال عمر: "لا، لا أحد ينتظرني! وليس هنالك أحد ينتظر مني شيئاً!" قرب كأس النبيذ من الزجاجة التي بيد سعيد بيك: "أنتم على حق، أنا لا اشرب، ولكنني سأشرب!"

قال سعيد بيك: "لتشرب السيدات أيضاً، لم نصل إلى تركيا بعد..."

كان هذا مزاحاً مع الثقافة، والزمن، والحياة المتغيرة، وتركيا بلدنا الحبيب الحزين الذي نقترب منه بالقطار في منتصف الليل. منذ زمن طويل يجري الحديث عن أمور كهذه على المائدة مختلطاً بالمزاح والضحك. بعد أن ضحك سعيد بيك مع الجميع، علق على زوجته: لا تستطيع عطية خانم أن تشرب المشروب بارتياح إلا خارج الوطن. فعلقت غولار شقيقة سعيد بيك على أخيها الكبير: "سعيد أيضاً يغير رأيه بالنبيذ، والعرق كلما ذهب إلى فرنسا."

تظاهر بالغضب من مزاح شقيقته، فقال: "أنا لا أناقش العرق!" وأضاف وهو ينظر إلى عمر: "العرق مشروب الرجال!"

لم يبتسم أحد لهذا. ابتسم سعيد بيك وعمر مسرورين من مشاركتهما بشيء ما، واستمتاعهما بطعم الرجولة.

تعرف عمر عليهم البارحة هنا، في مقطورة المطعم. اعتذر له سعيد بيك قائلاً بأنه لم يجد طاولة فارغة، وإنه يريد الجلوس معه. وبعد كلمات المجاملة الأولى، حكى له عن سبب ذهابهم إلى باريس، وقد اعتاد سعيد بيك أن يخرج مع زوجته كل عام إلى أوربا. وفي هذا العام اصطحب معه شقيقته المنفصلة عن زوجها. وعمر أيضاً عرج على باريس في أثناء عودته من لندن. إنه يدرس الهندسة المدنية في لندن منذ أربع سنوات.

قالت عطية خانم: "ولكننا متقدمون في قضية حقوق المرأة على كثير من الدول الأوربية."

قال سعيد بيك: "صحيح، هذا هام! إنها الجمهورية..." وأضاف متخذاً تعابير ولد مشاكس لا يليق به: "ولكن مهام النساء في النهاية هي نفسها في كل مكان من العالم."

حلت لحظة جمود.

وبدت عطية خانم أنها خجلة من رجولة زوجها الفظة: "هذا ما يفكر فيه سعيد بيك." ولكن هذا النوع من الحنق لا يناسب عطية خانم. فقد لمعت عيناها فجأة، وأخرجت عدة صور من حقيبتها، وقدمتها إلى عمر مبتسمة قائلة: "انظروا، هذه أيضاً هي وظيفتي الحلوة!"

أخذها عمر، ونظر إليها: ثمة ولد يرتدي ألبسة بحارة في الصورة. كان يضع إحدى يديه على حافة كرسي، ويحيي بالثانية.

ولمجرد الكلام سأل: "كم عمره؟"

قالت عطية خانم: "بعد أسبوع سيكمل عامه الرابع. ولد في آذار من عام 1932".

فكر عمر: "وأنا منذ أربع سنوات في الخارج!" كان يصغي لصخب القطار، ويهتز. "لم أخطُ إلى تركيا منذ أربع سنوات. هربت إلى أوربا. كنت سأحضّر الدكتوراه. اكتفيت بالماجستير، وتنزهت، وتجولت، وفكرت بنفسي قليلاً، وأنفقت ما بقي مع أبي وأمي، وعشت... والآن أعود... نحن نعود في شباط من عام 1936، وندخل إلى الحياة كما تنتظر خالتي."

"التُقطت تلك الصورة التي رأيتموها للولد في سنته الأولى. استدعينا مصوراً إلى بيتنا في تشويكية!"

كان الولد في تلك الصورة في حضن أمه. انحنى جذع سعيد بيك الممسك بكتف عطية خانم إلى الأمام قليلاً، ولكنه كان يبدو كأخ كبير يحمي شقيقته أكثر مما يبدو عليه زوجاً. يجب أن تكون الصورة الثالثة قد التقطت في أستوديو تصوير. كان ثمة ابتسامة جامدة على وجهي الزوجين. ترى هل كانا سعيدين، أم فكرا بأنهما يجب أن يظهرا هكذا، هذا غير واضح. أما الولد الذي في حضن أمه فيكاد يبكي.

قال عمر مدركاً أنه يجب أن يقول شيئاً: "الولد محبب."

قالت عطية خانم منفعلة: "هذا ما يقوله الجميع." وبدأت تعيد إلقاء نظرة على الصور التي أخذتها من عمر. وقرب سعيد بيك أيضاً رأسه من زوجته، ونظر. وبحث الزوج والزوجة في الصور عما جعل عمر يقول إنه محبب على الأغلب.

فكر عمر: "لماذا تعود إلى اسطنبول؟ من أجل امرأة، ولد، عائلة سعيدة، ونقود أكثر تكسبها... أمن أجل هذا؟ لم يكونوا قد دخلوا تركيا بعد، ولكن عمر يكاد يلتقط رائحة الحزن وسعادة العائلة الصغيرة منذ الآن. وقلب كأسه فجأة، وقال: "سأشرب المزيد."

قال سعيد بيك ضاحكاً: "ستشربون، ستشربون! إنكم في سن الشباب، إذا لم تشربوا الآن، فمتى ستشربون؟"

كان زوجاً عائداً من رحلته السنوية إلى أوربا. يباهي بزوجته الشابة، وينظر إلى صورة ابنه بسعادة، يعمل بالاستيراد، ويتذكر أحياناً بأنه ابن باشا، فيحزن. فكر عمر: "سأعمل أشياء أخرى! سأتجاوز كل هذه الأمور!... سأحصل على كل شيء بالضرب، والكسر!"

خيم الصمت من جديد. قالت غولار: "كنت تحكي عن أوربا يا أخي الكبير."

قال سعيد بيك: "كنت أحكي، أليس كذلك؟ أوربا، ونحن... حكيت لكم عن المرحوم والدي الباشا، أليس كذلك؟ كان والدي الباشا وأمي وسيطان بزواج جودت بيك والد صديقكم عندما طلب نيغان خانم. وأقيم العرس في دارنا. وغيرنا تلك الدار من أولها إلى آخرها، وكيفناها مع الزمن."

تنهدتُ عطية خانم وهي تنظر إلى عمر قائلة: "ترى كيف سنغدو بعد عشرين أو ثلاثين سنة؟"

فكر عمر: "إنهم يتوقعون مني أن أسليهم، وأقول لهم أشياء غريبة!" قرر أن يترك نفسه لهز المقطورة، والمشروب. ثم سأل: "هل نطلب زجاجة أخرى؟"

قال سعيد بيك: "طبعاً لنطلب!" ونظر إلى هذا الشاب المندفع نحو الحياة بحب، وجرفته همومه متذكراً نفسه وماضيه وسنواته المتدفقة بكل حال.

جلب النادل زجاجة جديدة.

تذكر عمر أنه كان يشرب كثيراً في زمن ما. بدأه بعد وفاة أبيه، واعتاد عليه بعد موت أمه. وحدث كثيراً أن شرب حتى الصباح عندما كان يدرس في كلية الهندسة في اسطنبول، وغاص في أماكن اللهو في بيه أوغلو، وذهب إلى الكلية ثملاً. وشرب كثيراً في إنكلترا. بعد تخرجه في كلية الهندسة في اسطنبول، فكر: "لنر الخارج قليلاً أيضاً!" وكان زملاؤه يحفزونه. كانوا يقولون له: "لديك نقود، ولديك وقت، وليس لك أحد تعود لرعايته، هل ستبقى تنبش في تلك المزبلة! اذهب، وشاهد، وتجول، والهُ، وادرس بعض الأمور في هذه الفترة!" وفعل في إنكلترا ما قاله له زملاؤه.

١

وتعلق بفتاة فترة، وخطط للزواج، والإقامة هناك. وأثناء جلب النادل زجاجة النبيذ فكر: "وعندنا أيضاً يفعلون أشياء جيدة!" عاد إلى تركيا مرة، وندم لأنه عاد لينبش في المزبلة القديمة ذاتها، ولكنه الآن فرح. فتركيا مزبلته الخاصة، ومناسبة لميوله. أما أوربا فقد تمت السيطر عليها منذ زمن. حين نظر عمر إلى لصاقة الزجاجة فكر: "لعل هذه أفكار طفولية، ولكنني كنت أخاف من العيش هناك! كانت السماء تبدو لي هناك كالرصاص... كل شيء في تركيا مختلف. إنه جديد، وجاهز، ومناسب لي..."

"أوه، إنكم تشربون كثيراً يا سيدي، والله لا أستطيع اللحاق بكم!"

قال عمر خجلاً: "آ، نعم. هكذا إذاً؟ أحببته فجأة!"

قالت عطية خانم: "ولكنكم عندما تشربون، تفقدون مرحكم، وتصمتون. هيا لنرى، بماذا كنتم تفكرون قبل قليل، اخبرونا... ولكن بسرعة!"

نظر سعيد بيك إلى زوجته نظرة تقول: "دعي الولد براحته يا روحي!" وابتسم لعمر محاولاً اتخاذ موقف مفاده: "تحدثوا إن أردتم، وليبق في داخلكم ما تفكرون به إن لم تريدوا!" ولكن وجهه كان يقول أموراً أخرى. كان يقول: "حقاً، من يعلم بماذا تفكرون أنتم الآن؟"

قال عمر: "أفكر بنفسي!"

قالت عطية خانم: "يا!" ورفعت رأسها إلى الخلف بكبرياء. "ماذا تفكرون بنفسكم؟"

"أريد أن أفعل الكثير! وأفكر بأنني سأفعل الكثير!"

قال سعيد بيك: "إيه، طبعاً. أنتم شباب!"

قال عمر: "لا، لا أقصد هذا! أريد أن أحكي عن شيء آخر. أفكر بأنني سأعمل أشياء كثيرة، ولكن هذه... هذه، ستكون أشياء مختلفة جداً!" وشعر بأن وجهه يحترق.

قال سعيد بيك: "يبدو أنني سأفهم!"

"لا أستطيع أن أشرح!"

أعادت عطية خانم تقمص دور الغاوية التي لا يعبر سؤالها عما تفكر به، وقالت: "اشرحوا إذاً!"

رفعت غولار خانم رأسها عن قائمة الطعام التي تقرؤها بتمعن منذ جلوسها إلى المائدة كما كانت قد قرأتها من قبل كأنها تقرأ كتاباً، ونظرت إلى عمر.

قال عمر: "هل يوجد لديكم يا سعيد بيك، لديكم... تعلق بشيء؟"

قال سعيد بيك باسماً: "كيف يا سيدي؟" ثم قطب حاجبيه.

"هل يوجد لديكم تعلق بشيء يا سيدي، نعم تعلق!"

التفت سعيد بيك إلى زوجته كأنه يتذكر شيئاً ما: "هل يوجد لدي؟"

قالت عطية خانم مرتبكة: "لا. لاشيء. لا يتعلق سعيد بشيء! إنه كالخروف." كادت أن تضحك غالباً، ولكنها خافت حين رأت وجه عمر. كان مثقفاً، ولكنه يخشى الحرام.

قال سعيد بيك: "لله الشكر أنني لست متعلقاً بشيء! هذه الحياة تكفيني بمتعي الصغيرة وهمومي الضئيلة."

ضحك الجميع هذه المرة.

قال عمر: "لله الشكر أنني متعلق بأشياء!" وانتبه إلى أن غولار تنظر إليه من جديد: "المتع الصغيرة، والهموم الضئيلة لا تكفيني!" فجأة أراد أن يعتذر، وأن يعبر عن نفسه: "أريد أن أفعل الكثير. لا أريد الاكتفاء بالقليل. لا أدري إن كنتم تستطيعون فهمي؟ تعلقي ليس تعلقاً بشيء محدد! أنا متعلق بكل شيء. أريد أن أحصل على كل ذلك الشيء... والحياة، وما يأتي أمامي!"

تمتمت عطية خانم قائلة: "الشباب، الشباب..."

سأل سعيد بيك: "ما الذي تريد أن تسيطر عليه؟"

قال عمر: "كل شيء." وأمسك صحن الجبن لا لأنه طلب طعاماً، بل لأن سعيد بيك قدمه فقط.

"انظروا، يأكل الفرنسيون هذا الجبن قبل الفاكهة. تفوح منه رائحة قذرة، أليس كذلك؟ ولكنكم إذا اعتدتم على رائحة مرة..."

قالت عطية خانم: "يا عزيزي سعيد، كان السيد عمر يحكي..."

"نعم، نعم. ها نحن نستمع إليه ياه!"

رأى عمر أن الثلاثة ينظرون إليه، فقال: "شربت كثيراً على الأغلب!"

قالت عطية خانم: "آ، أرجوكم! كم كان حديثكم ممتعاً!"

قال سعيد بيك: "سيدتنا تدوخ إعجاباً بالاستماع للأحاديث الممتعة!" حين رأى أن سهمه لم يصب الهدف، أضاف على عجل: "إنها فضولية للقصص المسلية والممتعة، والمظاهر! احكوا لطفاً!"

انفعل عمر، فقال: "وأنا أيضاً فضولي! فضولي تجاه كل شيء، أريد كل شيء. سألتم قبل قليل. أريد الحصول على كل شيء. نساء جميلات، ونقود، ومكانة، وشرف، وشهرة. كما ترون. ولكنني أريد هذه الأمور دون تردد، وحتى إزهاق الروح في سبيلها."

التفت سعيد بيك إلى زوجته وشقيقته بموقف الحامي، وقال: "انتبها، صلصة اللحم حارة جداً. أنا أعرف هذا البهار..."

صار وجه عمر أحمر. فقد كان يفكر: "فضولي للمظاهر، والانفعال، ورغبة التأثير على النساء... لن أنضج في أي وقت. مع أنني في السادسة والثلاثين من عمري!"

وفجأة تدخلت عطية خانم قائلة: "آه، فهمتكم على الأغلب!"

"إنكم راستيناك معاصر. هل تعرفون هذا؟ إنه ذاك شخصية في رواية الأب غوريو لبلزاك... شخص كهذا. فاتح... نعم، لابد أن يكون بالتركية هكذا، أليس كذلك؟"

قال سعيد بيك: "احمر لونكم يا سيدي! إنهم يرفعون درجة حرارة وشائع التدفئة هذه. هل نطلب زجاجة أخرى؟" وكان يبتسم كصديق بوضع الحنان السابق.

"لنطلب!"

تمتمت عطية خانم بانفعال اكتشافها: "نعم، نعم فاتح، راستيناك!"

قال عمر فجأة: "أريد أن استخدم مقابلها بالتركية! اخترت الفتح!"

قالت عطية خانم منفعلة: "يا لجمال هذا! هيا لنلتقط صورة. أتظهر الصورة هنا يا سعيد؟"

"لن تظهر بهذا الضوء! هل آلة التصوير معك؟"

فجأة قالت غولار ملتفتة إلى عمر: "ولكن ليس فيكم ما يشبه التركي كثيراً!"

قال سعيد بيك: "هيا، هيا اتركوا هذه الأمور. اسمعوا أساساً ما سأحكيه لكم أنا. تقابلت سلحفاة بثعلب ذات يوم في الغابة. قال الثعلب..."

كان لسعيد بيك شارب رفيع مشذب. وكان ذلك الخط الرفيع الأسود يرتفع مع الشفة العلوية تارة، وينخفض تارة أخرى. فكر عمر: "الآن نهيء أنفسنا للضحك!"

بعد أن أنهى سعيد بيك القصة تضاحك الجميع معاً.

قالت عطية خانم: "احك عن ذلك الخادم المتخبط الذي خلط بين الكؤوس..."

ضحك سعيد بيك قبل أن يحكي، ثم بدأ القصة. كانت زوجته تتململ مثله في أثناء روايته القصة. مازالت مقطورة المطعم مليئة حتى نهايتها. وحول طاولة إلى الأمام قليلاً كان أربعة مسنين يضحكون مقهقهين، ويرفعون الأنخاب. أحدهم ذو لحية بيضاء طويلة، ومع استمراره بالضحك يمسح نفسه بربطة عنقه، ويلمع سلسال الساعة البارز من صدارته. وعلى طاولة أخرى امرأة ذات قبعة تقبل ولداً نائماً في حضنها، وتضحك. فكر عمر: "مررت بزمن ضحكت فيه كثيراً!" كان يقضي يومه كله بالسخرية في كلية الهندسة. يلعب البوكر مع محي الدين ورفيق، ويسخرون من كل شيء. تضايق عندما تذكر الماضي. فوق ذلك فقد كان المشروب يفقد تأثيره أيضاً، مما يعكر مزاجه. قرر الاستماع إلى القصص المروية.

فرغت المقطورة المطعم نحو الساعة الواحدة. واقترب منهم نادل يمشي متمايلاً، قال بصوت حلو: "سيدي، سنغلق بعد قليل! إننا نقترب من أدرنة. من المفروض الذهاب إلى المقصورات من أجل تفتيش جوازات السفر..."

قال سعيد بيك: "طبعاً، طبعاً. الآن ننهض!"

بعد ذلك خيم صمت طويل. وتناولت النساء حقائبهن. دفع سعيد بيك الحساب. نظرت عطية خانم نحو الخارج عبر النافذة. وفكر عمر: "هذا هو الحزن! ها نحن نفقد سعادتنا لأننا جئنا إلى تركيا."

بعد نهوضه عن الطاولة شعر بنفسه وحيداً. وفكر: "لعلهم يدعونني إلى مقصورتهم! لنكمل الحديث هناك!" وفيما هو يمشي خلفهم قال لنفسه: "ماذا في ذلك يعني؟ أنا فاتح! راستيناك.. لعلني شربت أكثر من المألوف قليلاً، ولكن المشروب يمنحني..."

"غداً صباحاً نلتقي!" عطية خانم قالت هذا. هي أكثرهم تفهماً على الأغلب. وخطر ببال عمر أنه طموح وعصامي إلى حد أنه لا يمكن أن يلقي بالاً للأحزان الصغيرة، وإلى الوحدة.

لم يتمكن من رؤيتهم في اليوم الثاني إلا عندما كان القطار داخلاً إلى سيركجي. كانوا يمدون أنفسهم من النافذة، ويتلفتون منفعلين يميناً ويساراً. دخل عمر إلى مقصورتهم، وصافحهم واحداً واحداً. وكل منهم قال كلمات لطيفة. واتخذ سعيد بيك أيضاً موقفاً أبوياً حنوناً، وقال: "فكرت بكم مساء البارحة! أنتم على حق. كونوا طموحين. نحن نفتقد هذا كثيراً في بلدنا!"

أشار عمر بيده بمعنى: "وأنت أيضاً يا رجل! وهل تستأهل ثرثرتي هذا الكلام؟" ابتسمت المرأتان الناظرتان بطرف أعينهما إلى مستقبليهن على الرصيف لحركات الأيدي تلك أيضاً. كل منهما تضع على رأسها قبعة: القبعات ذات الطرف العريض تلفت النظر. التقطت عطية خانم صورة لعمر بلمح البصر. بيّن عمر أنه انفعل، وخرج من المقصورة.

بعد أن أخذ حقائبه، وسار نحو الجمارك رآهم مرة أخرى. كانت قبعات النساء تقدم لمن على الرصيف كالفاكهة. لوحت عطية خانم بيدها لهذا الشاب المحبب الذي وجدت أنه غريب. وذكّره سعيد بيك برغبة اللقاء به في اسطنبول. عندما تبدد صوته وسط صخب الرصيف اعتقد عمر أن مشاعره قد تأججت. في أثناء دخوله إلى الجمارك، انتبه إلى الولد الذي رأى صورته البارحة بين المستقبلين بلباس البحارة. كان في حضن جد مسن يبدو متذمراً، ويلوح نحو القطار من دون هدف. فكر عمر: "سأتجاوز كل شيء."

عندما دخل إلى بناء الجمارك انتبه أول مرة أنه في تركيا. تأججت في نفسه عاطفة لم يشعر بها منذ زمن طويل، حتى إنه يتذكرها بصعوبة. بحث فترة عن موظف يمكنه أن يريه الحقائب التي بيده. ثم دخل في صف أمام

موظف مسن، وبدأ الانتظار. في أثناء انتظاره هنا جاء رجل أنيق طويل يرتدي معطفاً طويلاً دفعه بكتفه، واندس أمامه. قال الموظف المسن إنهم ينتظرون للاشيء، فالتفتيش سيقوم به زميله هناك. عند وقوفهم بالصف أمام الموظف الآخر حدث تدافع. وبدأ أحدهم الصراخ من الغرفة الداخلية بقدر ما استطاع الصراخ. كان رجل يعتمر قبعة يقف بالصف قال إنهم يعذبون المواطن من دون سبب. عندما جاء دور عمر، اقترب موظف مسن من موظف الجمارك المجاور له، وقال له: "دع الشاب يمر يا روحي! ليس معه شيء!"

قال الموظف بنبرة مؤنبة: "حسن، تمام، تمام!" وأشّر الحقائب من دون أن يفتحها. ثم ظهر حمال يركض من مكان ما، وعلق بحقائب عمر. بعد ثوان كان في سيركجي.

وقفت ترامواي عند الزاوية تفرغ ركابها. وكانت عربة خيل تقف خلفها، وحوذيها يشعل سيجارة. وكان هناك أربعة حمالين بالعصا يحملون برميلاً ضخماً باتجاه حي الباب العالي. وهنالك زبال يثرثر مع شاب يجلس على حافة الرصيف. وسيد أنيق يحمل شمسية يمشي باتجاه قرة كوي. وتُنقل صفائح كبيرة من عربة خيل إلى مطعم. سائق سيارة أجرة يقرأ جريدة في سيارته. امرأة تمسك ابنها من يده، وتنظر إلى واجهة دكان لبيع أحذية. ثمة سماء حادة، خفيفة كالريش في الأعلى. كان الجو رطباً.

التفت الحمال إلى عمر الشارد: "إلى أي طرف؟"

"إلى قرة كوي."

قرر أن يعبر الجسر سيراً على الأقدام. بدأ السير خلف الرجل الأنيق ذي الشمسية. فكر عمر لنفسه قائلاً: "أنا فاتح!" كان يشعر بنفسه خفيفاً: إنها المرة الأولى منذ سنوات تطبق فيها السماء عليه.

2
طعام العيد

أسندت نيغان مرفقيها على غطاء الطاولة المطرز، وشبكت يديها تحت ذقنها ناظرة إلى طبق الخزف الذي أمامها مفكرة: "حسنٌ أنني أخرجت الطقم المذهب! منذ سنوات وهو في البوفيه لا يستعمل. وسنشرب الشاي أيضاً بعد الظهر بالفناجين ذات الأزهار الزرقاء التي وضعتها جدتي في جهاز عرسي. ولكن فنجانين من ذلك الطقم كُسرا مع الأسف. لماذا لا أخرج أطقم الفضة، والمعها؟ متى ستستخدم أطقم الفضة إن لم تستخدم في أيام كهذه؟ يجب أن يستخدم كل شيء بسرعة!" كانت قد أخرجت غطاء الطاولة المطرز في عيد الأضحى الماضي. وبما أنه قطعة من جهاز عرسها أيضاً فهذا يعني أنها تخبئه منذ ثلاثين سنة. انتبهت نيغان خانم لرغبة غريبة ولدت بداخلها تدفعها لاستخدام كل شيء واستهلاكه، كل ما هو مخبأ في الصناديق والخزائن والبوفيات والعلب. فكرت: "كأنني أريد استخدام كل شيء، وتبقيع الأغطية وتمزيقها، وتكسير الصحون والفناجين، وضياع الشوكات والملاعق! مضت ثلاثون سنة على زواجي. قضيت أكثر من ستين عيداً مع جودت بيك. وهذا هو عيد أضحى عام 1936. ونحن - زوجي، وابنيّ شبيهي السباع، وابنتي، وكنتاي السكريتان، وحفيداي الصغيرين - كلنا معاً."

كانوا يجلسون حول الطاولة في بيت نيشان طاشٍ أمام النافذة المطلة على حجر التصويب الشهير وأشجار الزيزفون منتظرين طعام الغداء الذي سيجلبه الطباخ. كانت نيغان خانم تشعر بالحرارة التي تنشرها الثريا الكبيرة المنارة لأن الجو معتم وماطر. بعد قليل سيدخل الطباخ نوري إلى غرفة السفرة ماشياً على رؤوس أصابعه حاملاً "طبق الطعام الرئيس" الكبير كما يفعل في كل عيد. الجميع ينتظر هذا، وكأن الجميع أيضاً يدفعهم الفضول لمعرفة كيف سيدخل الطباخ على رؤوس أصابعه مرة أخرى.

"أرأيتم؟ خرج حجر كبير من معدة أحد الحيوانات، بهذا الحجم!"

وأشار رفيق ابن نيغان خانم الصغير بإصبعيه الإبهام والسبابة راسماً على المائدة دائرة صغيرة.

فكرت نيغان خانم قائلة لنفسها: "صار ابني الصغير مندفعاً لمعارضة كل شيء، وفي كل زمان. أخذ هذا الطبع مني!" ونظرت إلى ابنها الكبير عثمان الذي يرد عليه:

"نعم، ظهر داخل بطن الكبش، أليس كذلك؟"

كان يحكي عن الحيوانات التي ذبحت هذا الصباح في الحديقة الخلفية. كانت نيغان خانم تعتقد أن ذبح خروفين وكبش كل عيد أضحى يمنحها شعوراً بالقوة، وبدأ ترف بجفنيها بسرعة.

قال جودت بيك نافد الصبر كما هو دائماً: "إيه، لماذا تأخر هذا الطعام؟"

عندما رأت يد زوجها الجالس بجانبها المغطاة بالبقع ممسكة بالشوكة فكرت: "سيبدأ طعامه من طبق السلطة مرة أخرى!" وشعرت بالضيق. ونظرت إلى حفيدها جميل الذي يتحدث مع أخته الكبيرة. كان جميل البالغ السادسة من عمره، يحكي لأخته لالة البالغة الثامنة من عمرها كيف ارتجف إثر ذبح الكبش، وكانت أخته الكبيرة تقول إنها لم تستطع النظر بسبب الخوف. فكرت نيغان خانم بأن حفيديها معافيان ومحببان. أما ابنتها عائشة فهي صامتة وحزينة كما هي دائماً.

خرج نوري الطباخ من المطبخ حاملاً الصحن الكبير. أدركت نيفان خانم أنها رأته خارجاً من المطبخ قبل الجميع فأخبرتهم بنبرة امرأة سعيدة تحكي حكاية أن الأمور على ما يرام. أحست أن الطباخ نوري يمشي على رؤوس أصابعه من حركات جذعه دون أن تنظر إلى قدميه. راقبت وضع الصحن على الطاولة وهي ترف بجفونها. وخيم صمت قصير. وبدأ مرح على الفور. كان الجميع ينظرون إلى الصحن الذي في الوسط.

كانت ثمة قطع لحم بحجم رأس العصفور فوق أبراج الأرز المزين بالبازلاء في الطبق المذهب. لم يكن اللحم لحم أضحية. قبل تسع سنوات، وبعد طعام عيد أضحى كهذا أيضاً، تقيأ جودت بيك في مرحاض الطابق السفلي التركي تحت تأثير العنبرية التي أفرط قليلاً بشربها في ذلك الصباح، فتخلوا عن تقديم لحم الأضحية الطازج إلى المائدة فوراً. قال جودت بيك إن السبب ليس في العنبرية بل اللحم الطازج. ثم قال عبارات سيئة، فذهبت نيفان إلى بيت والدها الباشا، وعانقت أختيها تركان وشكران باكية. لأن جودت بيك يقول: "للحم الطازج رائحة وثقل يقلب المعدة" فرحت نيفان خانم لهذا القرار. نظرت إلى كنتيها وهي تحمل الملاعق. كانت كنتاها تجلسان متجاورتين مقابلها تماماً. وبعد أن فكرت نيفان خانم مستمتعة لعدة ثوان، مدت الملاعق إلى كنتها الصغيرة بريهان: "أنت وزعيها هذه المرة لنرى."

كانت تلك لحظة غير عادية: احمر وجه بريهان وهي تنظر إلى الملاعق التي تحملها بيدها. ودفع جودت بيك صحنه إلى الأمام قبل الجميع كعادته. وكان الجميع يضحكون سعداء لأنهم سيبدؤون تناول الطعام. انفعلت نيفان خانم. وفيما هي تنظر إلى كنتها الصغرى، فكرت: "يا لجمالها! كان شعرها الملفوف عالياً يجعلها تبدو ذات ذائقة رفيعة. وكان صوتها رفيعاً كصوت فأرة، ولكن ليكن. وكان رفيق أيضاً مسروراً من حياته. أنا أيضاً كنت هكذا أول مجيئنا -جودت وأنا - إلى هذا البيت. والآن

أيضاً أنا هكذا والحمد لله. بحثنا عن أثاث للبيت في تلك الأيام. كان العيش في بيت جديد بين أثاث جديد ممتعاً."

تذمر جودت بيك: "ألا يوجد صحن سلطة؟"

قالت نيغان خانم لنفسها: "آ، لم يضعوا صحن السلطة! ولم أنتبه أنا أيضاً!" نادت الخادمة فوراً. نظرت بطرف عينها إلى صحن زوجها، ورأته مليئاً جداً، فغضبت. وفكرت: "سيدهمه النوم بعد ذلك، وننزعج!" كان جودت بيك ينظر إلى أنفه الدقيق الطويل كلما قرب رأسه الأبيض الشعر من صحنه مع كل لقمة يتناولها. شعرت بعد برهة أن قلبها طفح بالعاطفة، فعادت إلى طعامها. بعد تناولها عدة لقمات، انتبهت أن ابنها الكبير عثمان يتكلم عن أمر ما.

"لكي تنشب الحرب في أوربا..."

تابعت نيغان ابنها الكبير والصغير الذي رد عليه فترة. وشعرت بأن إحساساً بالوحدة الكئيبة قد سيطر عليها لفتح موضوع الحرب كما يحدث دائماً. لابد أن تنشب حرب كل بضع سنوات، وتنفصل حياتها عن حياة الرجال بخط حاد لا يمكن تجاوزه. وفوق هذا فإن الحروب كلها متشابهة إلى حد التطابق مثل مناقشات الرجال كلهم. وفكرت: "لم أعد أفهم المناقشات. ليتهم يتحدثون عن أمور أخرى ياه!"

كان الابنان يتناقشان لا مباليين لرغبة أمهما. وقد اتخذ عثمان موقفاً يعبر عن عدم وجود علاقة لكلامه بأحد بمن فيه هو نفسه. وكانت نبرة صوته كنظرته. كأنه يقول: "إيه، ماذا سنفعل؟ هناك ضرورة لأمور كهذه أحياناً!" وحين رد رفيق المرتدي سترة وربطة عنق كأخيه الكبير عليه بعدة كلمات ملتفتاً يميناً ويساراً، ومازحاً أحياناً، بدا أنه يعتذر من الجميع لهذا النقاش المزعج. ولكن مهما يكن فإن ذلك النقاش بالنهاية هو نقاش رجال جدي. فكرت نيغان خانم بأنها لا تحب تلك المناقشات أبداً، وليس في تلك المناقشات كلمات تحبها أو يحبها آخرون. خلال مناقشات كهذه يغدو

الرجال أكثر رجولة، والنساء مجرد مزهريات. تمتمت نيفان خانم: "ولكنني أرى، وأفكرا" ثم انتبهت أن زوجها يشارك في الحديث.

"حسنٌ، ما رأيك في هذا الموضوع يا نرمين؟"

لابد أن جودت بيك قد تخطى الانفعال الأولي للطعام. وهو يستمتع بوخز كنتيه، والتعليق عليهما. اندهشت نرمين محمرة، ونظرت إلى زوجها، ثم بدأت تتمتم بكلمات، ولكن جودت بيك، قال من دون أن يستمع إليها: "احسنتم، حُضر اللحم بشكل جيد!"

صمتت نرمين، وحدث جمود.

قالت نيفان خانم: "نعم، كان جيداً".

خيم جمود آخر. ثم انطلقت أصوات الشوكات والسكاكين، وضحكات صغيرة، وجمل، وقرقعة. عندما بدأ الجميع حديثاً من هنا وهناك كما يحدث دائماً في مناسبات خاصة كهذه، تسحب نيفان خانم جو العيد إلى داخلها مستمتعة وهي ترف بجفنيها. ثم فكرت: "بدأ جفناي يرفان من جديد!"

وريثما جاء فصل الطعام الثاني وهو الفاصولياء بزيت الزيتون دار الحديث عن الحروب قليلاً، وعن ألمانيا، وعن آخر الأوضاع فيها، وعن صديق رفيق عمر القادم حديثاً من أوربا، وعن محل المعجنات المفتوح حديثاً في عثمان بيه، وترامواي خط ماتشكا - النفق الذي وضعته البلدية في الخدمة حديثاً. وحين وضعت أمينة خانم الفاصولياء بزيت الزيتون في الوسط، نظرت نيفان خانم إلى صحن ابنتها عائشة، وتوترت: لم تأكل شيئاً أبداً مرة أخرى هذه البنت.

قالت على عجل: "سينتهي كل شيء في ذلك الصحن!"

قالت عائشة: "ولكن يا أمي! هذه... ما يوجد هنا مدهن!"

"لا، لا يوجد شيء في هذا اللحم! كيف يأكل الجميع؟"

سحبت نيفان خانم صحن ابنتها الجالسة بجانبها، وبدأت تقطع الدهن العالق بقطع اللحم، وجمع حبات الأرز الموزعة هنا وهناك في طرف الصحن. وفكرت: "هذه دائماً هكذا! ستسمم هذه البنت يومي دائماً!" وحين دفعت الصحن إلى أمام ابنتها، شعرت بالسأم. "ضعي طفلتك، واعتني بها ست عشرة سنة، واعملي كل شيء، ولتكن بعدئذ هزيلة، كئيبة، عابسة!" قالت: "هل تعتقدين أن الجميع يمكنهم إيجاد لحم كهذا؟"

"دعيها يا روحي، لا تتدخلي بها، لتفعل ما تشاء. أليس هذا عيد؟" كان هذا جودت بيك. كان أباً يقبل ابنته عندما يعود من عمله مساء: رجل لا مبال يعرف كيف يحبب ابنته به، ولكنه لا يفكر بما سيكلفه هذا! اكتفت نيفان بالعبوس بوجه زوجها فقط. وكان الجميع يعرفون بأن حركات الوجه هذه تعني: "أنا أربيها، وأنت تدللها!" فكرت نيفان خانم: "لولاي لما استطاعت هذه البنت حتى تعلم العزف على البيانو!" ثم قالت: "لتوزع بريهان الفاصولياء لنرى!".

أثناء تناول الفاصولياء دار الحديث عنها، وعن الثلج الذي هطل مساء أمس، والمكوم في زاوية الحديقة منذ يومين، إذ لم يكن الجو على هذا النحو في مثل هذا الوقت من السنة الماضية، اي في الأيام الأولى من آذار، وعن برد جودت بيك أثناء صلاة الصبح في جامع تشويكية. وحين نظرت نيفان خانم إلى صحن عائشة التي لم تفرغه تماماً فكرت: "لم أستطع قول ما أردت قوله مرة أخرى! حسنٌ، ماذا أردت أن أقول؟" لم تكن تعرف بالضبط. كانت تريد أن تقول "انشراحاً"، ولكنها كانت منشرحة. لأنه العيد. والانشراح يأتي من تلقاء نفسه. فكرت نيفان خانم: "مثلما كانت تقول المرحومة أمي!". كانت المرحومة أمها تجلس على أريكة في حرم دار التشويكية، وتقول وهي ترف بعينيها: "نيفان، أشعر بأنني أريد تناول طعام ما، ولكنني لا أعرف ما هو يا ابنتي!"

كانت أمينة خانم تجلب إلى المائدة قطائف بالبرتقال ابتكرها الطباخ نوري. فكرت نيفان خانم: "هذا الطعام أيضاً ينتهي!" هذا الطعام المنتظر

منذ فترة طويلة ينتهي أيضاً. وسينتهي هذا اليوم، والعيد أيضاً، وتُنتظر أيام أخرى. وستشهد على نهايتها حزينة. ثمة زمن يتدفق كالماء ببريق صغير، وحياة لا تقاوم كالماء. كانت الحلوى بالبرتقال لذيذة جداً، والقشدة طازجة، ولكنها تبقى هكذا إلى وجبة العشاء على الأكثر. فكرت نيغان خانم مرة أخرى بإخراج الأطقم المخبأة في البوفيات والصناديق، واستخدامها، ولكنها بعد ذلك استمتعت بلذة القطائف بالبرتقال.

نهض جودت بيك قبل الجميع عن المائدة كما يحدث دائماً. عندما نهض رفيق خلفه مباشرة، نظرت نيغان خانم إلى آخر لقمة قطائف في صحنها، وقالت لنفسها: "هذا يكفي! ولكنهم لم يتعلموا النهوض عن المائدة مع الجميع!" كانت تعرف أنها لن تستطيع بعد هذا الزمن تعليم جودت بيك أي شيء، ولكن رفيقاً يمكن أن يتعلم: مازال في السادسة والعشرين من عمره. عندما رأت نيغان خانم أن بريهان أيضاً قد نهضت عن المائدة، فكرت: "لماذا أنهض أخيراً؟" ونهضت عن كرسيها بحركات ناعمة وخفيفة، ومشت نحو جودت بيك. كان قد جلس على أريكته الموضوعة أمام النافذة، وأسند رأسه إلى الخلف، وغمّ عينيه. هل سينام؟ فكرت نيغان خانم: "أكل كثيراً، ثقل الطعام على معدته، يريد أن ينام!" وخلال نظرها إلى عيني جودت بيك المقاومتين للنوم، وشعره الأبيض أدركت بأنها تحبه، ولكنها تريد أن تغضب. "سينام، ولكن يجب عليه ألا ينام. فستأتي أسرة فؤاد بيك بعد الظهر..." كان الوقت بعد المائدة وطعام العيد. سمعت صوت الصحون المجموعة، فمشت نحو جودت بيك، وفكرت: "سنشرب الشاي بعد الظهر بالفناجين المزهرة بالأزرق!".

3
بعد الظهر

رأى جودت بيك وجه نيغان خانم المتذمر وهي تقترب منه. افترض أنه يكلمها: "سأغفو قليلاً هنا يا روحي! لن أنام... سأغفو. أغمض عيني قليلاً، وأجلس من دون حركة. لعلني أغط قليلاً..." كان يجلس على الأريكة التي يجلس عليها دائماً، ويعيش الزمن الأمتع من اليوم بعد طعام العيد، ولكنه كان يشعر بنقص لعدم تمكنه من نوم القيلولة بشكل تام وأكيد. ولكي يسلي نفسه فكر: "سأدخن سيجارة بعد قليل!" وفكر برائحة السيجارة التي يستطيع تدخين ثلاثة منها في اليوم، وصوت الثقاب الذي سيشعله. بعد ذلك انتبه إلى أن عينيه قد أغمضتا، لأنه لم يكن هناك غير الأصوات، والروائح، والحر.

كان يسمع تلك الأصوات المعهودة القادمة من طاولة الطعام، ومن الباب المؤدي إلى الدرج الصغير والضيق الواصل بين غرفة السفرة والمطبخ، ومن الغرف الداخلية، والدرج، والحديقة، والأشجار، والشارع مالئة الغرفة فترج النوافذ، وتجعل الكريستال يصدر طنيناً. وكان يسمع نرمين تتكلم مع أولادها، وأمينة خانم تتجول على البلاط بنعليها البيتيين، والطباخ نوري يفتح الصنبور ويغلقه في المطبخ، وعائشة المحبة لشرب الماء بعد الطعام تصب الماء من الإبريق في الكأس، ورفيق يقلب صفحات جريدته، وترامواي

تقترب من الزاوية ببطء. كانت كل تلك الاهتزازات المألوفة المانحة طمأنينة تنادي الإنسان إلى النوم. ولكن جودت بيك فكر: "ولكنني لن أستطيع أن أنام! سيأتي فؤاد! سنجلس مع فؤاد، ونتكلم، ونتذكر الماضي... الماضي... هذا البيت... تاريخ تغريد هذه العائلة التي ملأتْ بها هذا البيت... أعرف تاريخ كل شيء. اشتريت البيت عام 1905. تزوجت، كانوا قد ألقوا قنبلة على عبد الحميد. ثم أتت المشروطية جيدة. واشتريت الحديقة الجانبية. ورتبت كل شيء بالنقود التي كسبتها من تجارة السكر أثناء الحرب. كبرت الشركة. وعندما أراد عثمان أن يتزوج صعدنا إلى الطابق الأعلى. وبعد الجمهورية بأربع سنوات... وجاء الأحفاد. واشترينا المدفأة التي يُشعل فيها فحم الآن قبل ست سنوات. أعرف تاريخ كل شيء، لأنني أنا الذي صنعته. في أي عام دخلت تلك الترامواي حيز العمل على خط ماتشكا؟ وتلك السكرية الكريستالية التي يفتح غطاؤها جلبتها نيغان ضمن جهاز عرسها! بماذا يتحدثون؟

كانت نرمين تقول: "هيا لنرى، اصعدوا إلى الأعلى، وناموا!"

قال أحد الأحفاد: "كنا سنأكل سكرة!"

"الآن قهوة السيد الصغير. أنتم أيها السيد الصغير؟" كانت هذه الخادمة أمينة.

كانت نيغان خانم تهمس قائلة: "هس، لا تصدروا ضجيجاً!"

مشى أحدهم على رؤوس أصابعه.

"هل ستصعد إلى غرفتك فوراً؟" كانت هذه بريهان.

قال عثمان: "لا تلعبوا في الأعلى! وناموا فوراً!"

كان الطباخ نوري يقول: "جاء الحراس، وهم ينتظرون."

"عندما يأتي العم فؤاد ستنزل إلى الأسفل! نم الآن جيداً لنرى!"

"سنذهب إلى بيت الخالة مبرورة بعد غد. وغداً سنذهب إلى الخالة شكران!"

فكر جودت بيك: "هذا، هذا هو! كل شيء في سبيل هذا: دفء يمنح الطمأنينة، ومدفأة تهدر، وأصوات تداعب الآذان، وبيت يعمل كالساعة"

كان واسعاً وجذاباً دائماً كالنوم. استمع جودت بيك لصمت دام فترة قصيرة، وفكر: "الآن انتبهوا إلي أكثر!" أدرك أنه لن ينام رغم رغبته بالنوم. فقد أفرط بالطعام قليلاً، وهو يشتهي سيجارة، وستأتي القهوة بعد قليل. كأنما أغمض عينيه ليتفرجوا عليه، ويحترموه، وها هم يدورون حوله ليعيشوا، وأرخى جسمه نحوهم. "إنهم يتنزهون، ويتثاءبون، ويتكلمون، ويتناولون السكاكر، وينظرون بأطراف أعينهم إلي أنا الجالس على الأريكة... بعد ذلك سينامون، ثم يذهبون لزيارات العيد... آ!... أنا لا أريد أن أذهب غداً مع نيغان إلى دار الباشا القديمة تلك... ولكنني لا أريد أن أفكر بهذا الآن. لأستمع الآن إلى هذه الحركة والرائحة والأصوات..."

"قهوة!"

"القهوة يا جودت بيك!"

لم ينتبه إلى هذا! فتح عينيه، فأثر الضوء عليهما، ولكنه اعتاد عليه سريعاً. كانت أمينة خانم أمامه تضع فنجان القهوة على الطاولة الصغيرة المجاورة له. وفكر جودت بيك: "سأدخن سيجارة!" تناول علبة سجائر "يافا" والكبريت من حيث وضعها صباحاً: هذه السيجارة هي أكبر متع اليوم.

منعه طبيب العائلة إسحاق من تدخين أكثر من ثلاث سيجارات في اليوم. كان قد أصيب بنوبة قلبية قبل ستة أشهر وهي برأي الطبيب خطيرة جداً، وبرأيه مجرد نوبة لا ينبغي أن تعطى أهمية أكثر من اللازم. كان سيمنعه عن التدخين تماماً، ولكن الطبيب لم يحتمل إلحاح جودت بيك، فأعطاه إذناً بثلاث سيجارات. يدخن جودت بيك سيجارة بعد الإفطار، وواحدة بعد كل من الغداء والعشاء. وكانت نيغان خانم تعد السجائر التي في العلبة. فقد حاول جودت بيك أول الأمر التحايل بمختلف الطرق، وألقي القبض عليه. وأقامت نيغان خانم القيامة، وبكت. وها هو الآن يدخن سيجارته الثانية في اليوم. فكر: "خففت التدخين، ولكن شيئاً لم يتغير! مرة أخرى تسوء حالي بعد صعود الدرج، وأشعر أحياناً بأنني أكاد أختنق، وأعيش مع الخوف." شعر مرة أخرى بالضيق لأنه لن يستطيع النوم.

في أثناء إنهائه سيجارته سمع الساعة ذات البندول في الطابق الأوسط تعلن الثانية. قالت نيغان خانم إن إسرة فؤاد بيك قد تأخرت.

قال جودت بيك: "الآن يأتون... الآن يأتون...".

خيم صمت طويل. ثم مرت تراموا‌ي من عند الزاوية. طوى رفيق جريدته، وصعد إلى الأعلى مع زوجته. وجاءت أمينة خانم، وأخذت فناجين القهوة الفارغة. وشعر جودت بيك بأن عينيه تكادان أن تغمضا. قرع جرس باب الحديقة ذي الخرز.

قالت نيغان خانم: "جاؤوا!" ونهضت.

نزل جودت بيك إلى الصالة ذات المرآة وراء زوجته مفكراً بكل خطوة من خطواته أكثر من مرة. وفي أثناء فتح نيغان خانم باب البيت، نظر جودت بيك إلى نفسه في المرآة الطولية ذات الإطار العريض.

كان جسمه قريباً كأغنية حلوة قديمة. التوت ربطة عنقه، وتهدل بنطاله، شعره أشعث، وجهه وسترته مدعوكان. مر بيديه الكبيرتين وسط شعره كأنه يداعبه. كان في الثامنة والستين من عمره، ولكن عينيه تبرقان حتى الآن. وفكر: "ظهرت حدبتي قليلاً، وتبدو رقبتي قد قصرت، ولكن هذا كل شيء!" الجميع يبتسم له في الشارع، وينظر إليه بحب. والأهم من هذا: ليس رجلاً مسناً قبيحاً ومكروهاً. توجه إلى الباب شاعراً بأنه مستمتع. وانفعل عندما رأى زوجة فؤاد بيك وابنه مقتربين من الدرج بخطوات سريعة.

خطا خطوتين نحوهما قائلاً: "ما شاء الله يا سيدي، ما شاء الله، ما شاء الله!" عانق فؤاد بيك. وصافح ليلى خانم، وداعب رأس رمزي الذي قبل يده. حزن أثناء مداعبة شعر الشاب القوي: صار متقدماً بالسن.

لم تستمر طويلاً مراسم الاستقبال. فلدى عناق المرأتين أحنت كل منهما الجزء العلوي من جسدها نحو الأخرى، وتبادلتا القبل. وفكر جودت بيك بعادة تبادل القبل هذه لأنه لم يعتد عليها. والنساء أيضاً لم يعتدن عليها غالباً. نظرت كل منهما إلى الأخرى بعد تبادل القبل كأنهما تفكران: "يجب أن نعمل هذا، فعملناه. ترى كيف نبدو أثناء تبادل القبل؟"

بعد انتقالهما إلى غرفة الجلوس ساد جو من المرح. كان جودت بيك ينظر إلى فؤاد بيك بمحبة، ويتمتم: "ها هو العيد... ها هو عيد آخر!" وكانت نيغان خانم وليلى خانم تتحدثان حول البرد. قالت ليلى خانم إنهم جاؤوا من بيت أبيها في شيشلي سيراً على الأقدام، وعندما دفعت كتفيها إلى الخلف بحركة تدل على الصحة، فكر جودت بيك بأنه لم يستطع أخذ قيلولته. وقالت نيغان خانم إنها شعرت بالبرد عندما ذبحوا الحيوانات صباحاً. وحكى جودت بيك عن شدة البرد في الجامع. مازال يذهب إلى صلاة العيد. قالت ليلى خانم إن صحة أبيها غير جيدة. وعندما سأل جودت بيك عما يعاني منه مصطفى بيك، وضح فؤاد بيك بأن حماه يعاني من كليتيه. وقالت نيغان خانم إن زوج الخالة مبرورة أيضاً مصاب بكليتيه، وقد ذهب إلى "النبع". وأضافت بأن رمزي قد كبر كثيراً، وشب طولاً فجأة. فقالت ليلى خانم إن ابنها طال كثيراً، وفوق هذا فقد تسوست أسنانه. وفي هذه الأثناء طلبت نيغان خانم من أمينة خانم أن تصعد إلى الأعلى وتنادي ابنيها، وكنتيها، وابنتها، وحفيديها.

فكر جودت بيك: "نام الجميع! وليس بينهم من يهتم للضيف! نحن شخنا." وبعد أن نزل ابناه وكنتاه وحفيداه من الطابق العلوي منشرحين، وانخرطوا في الغرفة كحبات الحمص المحمص المنثورة، فكر جودت بيك بالأمور نفسها مرة أخرى حزيناً: "أنا نعسان... والجميع بصحة جيدة، وحيويون..." وخطر بباله بأن القهوة لم تبدد نعسه، وقرر الاستماع لما يحكى.

كانت ليلى خانم تتحدث عن ابنها رمزي، وبأنه لم يعد يصغي لكلمة ناظرة إليه تارة، وإلى أصحاب البيت تارة أخرى مبتسمة في أثناء الحديث، ولأن ابنها السمين يهز برجليه بشكل خفيف كالأولاد المعتادين على كلام من هذا النوع يُقابل حديثها بتسامح، ويبتسم الجميع. وكانت نيغان خانم أيضاً تقابل كلام ليلى خانم بتسامح، وتحكي ضاربة أمثلة من أبنائها لإثبات أن كل ولد في هذا العمر يكون مشاكساً قليلاً، ويكان الجميع يستمع لتلك الأمثلة باهتمام. ونادت نيغان خانم الخادمة، وطلبت منها مناداة عائشة. بينت ليلى أنها لم ترها منذ زمن طويل. ولأن دور

الشكوى كان لنيفان خانم، فقد استمع الجميع لشكواها من ابنتها بتسامح وصبر كما كان متوقعاً، وبدأت تمتدح عائشة التي تقول بأنها تحبها كثيراً. ثم، تحدثوا عن حادث الترامواي الذي وقع في طلعة شيشخانة، وأدى إلى مقتل أربعة أشخاص، وتحدثت عنه الجرائد بشكل متسفيض. وطلبت نيفان خانم أن يسأل أحد عما إذا كانت الشاي قد خمرت أم لا. نظر الجميع إلى ساعاتهم مندهشين. وبدأ الحديث عن مرور الزمن بسرعة كبيرة. وفي هذه الأثناء اعتقد جودت بيك بأنه التقط فرصة إمكانية تجديد ذكرياته مع فؤاد بيك، فنظر إلى صديقه القديم، ولكنه رأى أنه مشغول بأمور أخرى: كان عثمان وفؤاد بيك يتحدثان بأمور جدية إلى حد أنها تبدو غير مناسبة لزيارة عيد.

فكر جودت بيك: "يريدون إبعادي عن الوسط!" كان يعرف أن ما يتحدثان به يتعلق بمستقبل شركة استيراد وتصدير أسسها في زمن ما شراكة مع فؤاد بيك. وهي الشركة التي أسساها بعد المشروطية، وبعد انتقال فؤاد بيك من سالونيك، وضعفت بعد الجمهورية، ويبدو أنها في السنوات الأخيرة بدأت تستجمع قوتها. وكان يديرها مهرج درس الاقتصاد في أوربا. يريد عثمان طرده من هناك، ويدافع عن ضرورة ربطها مباشرة بشركته. أما جودت بيك فلا يجد أفكار عثمان صحيحة، ويقول إن تلك الشركة ليست هامة. أما فؤاد بيك فهو كما كان دائماً، يبدي موقف المؤيد لكل جديد يفيده. فكر جودت بيك: "إنهم يريدون إخراجي من الوسط، لأنني شخت. وفؤاد بعمري. ولكنه تزوج متأخراً. فقد تزوج بعد المشروطية، وقام بعمل جيد أيضاً." ونظر جودت بيك بطرف عينه إلى ليلى خانم. "فوق هذا لم يتعب نفسه بقدر ما أتعبت نفسي... فهو معافى كتيس!" وقرر أن يلهي نفسه بأمور أخرى. وضغط على نفسه كأنه شرب ملعقة دواء مر، ويتوجب عليه التفكير بأمور أخرى لكي ينسى طعمه.

رفع رأسه إلى الأعلى. وركز نظره على بروزات الجص التي في الزاوية، وقد لفتت نظره عندما تجول في البيت أول مرة. ثمة ملائكة ممتلئة الأجسام تتطاير بين أغصان غار، وورود صغيرة وكبيرة. فكر: "قلت لأؤسس عائلة

إفرنجية الطراز، ولكنهم في النهاية صاروا أتراك الطراز." وتذكر ممازحة المرحوم أخوه الكبير، فضحك: "الجميع أرادوا أن يكونوا غربيي الطراز، فصاروا في النهاية أتراك الطراز، وهذا نوع خاص بالطراز التركي!" أنزل عينيه عن الملائكة إلى الناس: كانوا مايزالون يتكلمون. وكان فؤاد بيك يشرح، وعثمان يهز رأسه. أراد أن ينظر إليهما بحدة، لكي يريهما امتعاضه من هذا القرب. "ليتعلموا الفصل بين العائلة والتجارة." رفع رأسه إلى الأعلى من جديد. كأن أحد الملائكة ابتسم له. أدار عينيه إلى العالم الحقيقي. وتمتم: "مازالوا يتكلمون! طوال الصباح قبلوا يدي، ولكن أحداً لا يهتم." انبعثت موسيقى من غرفة مفروشات الصدف، والبيانو. وانتبه أن عائشة قد ذهبت إلى هناك قبل قليل. كانت الموسيقى هزيلة وناشزة وباردة: لا تستطيع أن تغطي شيئاً. "نيغان أيضاً كانت تعزف في زمن ما. وقد انفعلت كثيراً عندما سمعتها أول مرة، وتحدثت عن هذا للآخرين مباهياً، ولكنني لم أشعر بدفء نحو طنطنة هذا البيانو في أي وقت!" جلبت أمينة خانم الشاي.

في أثناء شرب الشاي قالت نيغان خانم إن فناجين الخزف المزهرة بالأزرق هدية من المرحومة أمها. وكانت قد حكت في أعياد أخرى عن ذكرياتها حول هذا الموضوع، ولكنهم رغم هذا كانوا يجدون قصتها أخاذة، ويستمع الجميع بانتباه. ثم حكت ليلى خانم عن ذكرى لها حول سكرية آلت إليها من أمها. تدخلت بريهان في الموضوع قائلة إن هذه السكرية يوجد مثلها عند أمها. التفتت نيغان خانم إلى ابنتها، وطلبت منها أن تأكل المزيد من المعمول الصغير. وخلال الحديث عن طريقة عمل الطباخ نوري لذلك المعمول دخل الطباخ نفسه، ومد ظرفين نحو جودت بيك قائلاً إنه أعطى بقشيشاً لساعي البريد.

عرف جودت بيك خط اليد الذي على الظرف الأول فوراً. كان محاسب الشركة صادق الذي اعتاد على إرسال إحدى بطاقات مؤسسة الجو التركية للمعايدة في كل عيد. فتح جودت بيك الظرف، ونظر إلى صورة الطائرة التي تشق طريقها بين الغيوم. وقال: "الأمور نفسها دائماً!" وتنهد، ولكنه لم يحزن. تمتم: "لست نادماً! ولكنني شخت!" فتح الظرف الثاني

ببطء ومن دون قلق. خاف من تذكره لذلك التوقيع المرفق بتقديم الاحترام له وللعائلة كلها. وقال لنفسه: "ما هذا؟ من هذا؟ ضياء الضوئي. طبعاً ضياء الضوئي!" عندما صدر قانون الألقاب قبل سنتين اختار هو أيضاً لقب الضوئي. حرك رأسه إلى الأمام والخلف كأنه لا يستطيع قراءة الورقة التي يراها، وحاول تمييز الحروف. "أرسلتُه، وذهب، وصار عسكرياً! نعم عسكري!" كان ضياء الضوئي عسكرياً، ولكنه لم يكن ذكرى ممتعة. وضع جودت بيك الورقة في ظرفها. وفكر: "لماذا يتذكرنا بعد كل هذه السنوات؟" لم يعد رأسه هذه المرة يميل إلى الأمام والخلف، بل إلى اليمين وإلى اليسار كأنه يفكر بشيء معين مرات عديدة. وقرر أن يفكر بأشياء أخرى، وإبعاد هذه الأمور عن عينيه.

سأل فؤاد بيك: "من أين تأتي المباركات؟"

قال جودت بيك: "من أصدقاء أوفياء!" وعبس.

"أوه، من معارفكم في وفا؟"

قال جودت بيك: "لا، لا! أنت تعرف أنه لم يبق لي أي علاقة مع وفا!" وقطب حاجبيه غاضباً من تلاعبه الساذج هذا بالألفاظ.و بحث عن كلمة يقولها، ولان وجهه، وقال: "بيتنا في جزيرة هيبلي يكاد ينتهي!" ولم يكن هذا موضوعاً جديداً، ولكنه رغم هذا موضوع. "في نهاية الشهر سيغطى السقف إن شاء الله... كنا نقول لنذهب في الربيع. طبعاً أنتم أيضاً ستأتون! وضعوا سفينة جديدة بالخدمة. يذهب إلى هناك من منطقة الجسر خلال ساعتين!"

قال فؤاد بيك: "سررت لهذا كثيراً!"

قال جودت بيك: "نعم، وهكذا نكون قد أنهينا موضوع البيت الصيفي!" ونظر إلى نيفان خانم. خجل بعد ذلك، فنظر إلى الخارج، إلى ساحة نيشان طاشِ.

خلال إظلام الجو رن جرس الباب الخارجي مرة أخرى. ثم سمع صراخ وصياح من الصالة ذات المرآة والدرج. وأطلق أحد الأحفاد قهقهة.

بعد قليل دخل شاب وسيم ضخم البنية، عريض الكتفين.

قال الطباخ الناظر من فرجة الباب: "أنا أول من رأى السيد عمر، وعرفته!"

حين نظر جودت بيك إلى الولد المتوقد بالحيوية، المتململ كالزئبق فكر: "إنه عمر. كيف لم أعرفه؟" وحين مد يده له ليقبلها، أدهشه بريق عينيه. تركه فترة من الزمن لكي يصافح الآخرين، ويبارك لهم عيدهم. وبعد ذلك، طلب من الشاب المتدفق حيوية وصحة أن يجلس قريباً منه، وأشار إلى الكرسي المجاور له مباشرة.

"تعال إلى هنا، تعال، واحك لي! ماذا فعلت هناك؟ ماذا تفعل الآن، كيف هم؟ احك لنرى!"

قال الشاب: "أفكر الآن بالعمل على خط سيواس – إرظروم!"

قال جودت بيك: "إلى سيوااااس؟" وهز رأسه. "أحسنت، أحسنت! حسنٌ، ماذا فعلت في أوربا؟ كيف حالهم، احك لنا، لنستمع لك."

بدأ عمر يتحدث عما درسه هناك، وفي أي مدينة سكن، وكيف كانت الحياة اليومية، ولكن جودت بيك انتبه بعد قليل إلى أنه لا يستمع إليه، وأن ما يلفت نظره هو شبابه وحركاته. كان الجميع يستمعون للشاب المعافى والذكي القادم من أوربا، ويتحدث عنها، وكأن الجميع أيضاً غير متعلق بكلامه، بل بشبابه الذي يملأ الغرفة. وخلال النظر إلى عمر كانوا يحاولون استخراج القيمة السرية المحرومين منها، وكان هنالك كثير منها لديه، ولكنها غامضة. سيجدون تلك القيمة السرية، ويستخرجونها، وفيما بعد سيستفيدون منها أيضاً. تمتم جودت بيك بعد فترة: "الشباب... الشباب مختلف... قبل قليل قبل يدي. ولكنه لم ينظر إلي كما ينظر الآخرون كأنني تمثال رمزي قديم، أو شيء سيكسر إذا لم يحترم... من أين تعلم هذا؟ من هناك؟" وتنهد ساحباً نفسه من أعمق الأعماق.

سافر إلى هناك مرة مع نيغان خانم. تجولا في أوربا في السنة الثانية لزواجهما. بقيا فترة في برلين، ولكنهما لم يذهبا مرة أخرى. رغم أن حياة جودت بيك التجارية كلها مضت بالبيع والشراء مع الخارج، ولكنه اعتبر

أن الذهاب إليهم نفقات من دون جدوى. كان يعتقد بأنه إذا كان هناك نقود ستنفق فيجب أن تنفق على الشركة، أو على أمور باقية كالبيت في جزيرة هيبلي. شك الآن باعتقاده هذا للمرة الأولى، ولكنه لم يتوقف كثيراً عند هذه الفكرة. لأن الأحلام الآنية كهذه، والجديدة لا تثير سوى تعب فارغ لا ضرورة له. قال لنفسه: "أريد أن أنام!" ثم قرر أن يستمع لعمر من جديد، ولكنه لم يعد يحكي أموراً مسلية: التفت إلى نيغان خانم، وحكى عن خالته وزوجها، ويقول إنه رأى سعيد بيك في القطار، وتقول نيغان خانم إنهما أقاما عرسهما هناك أيضاً. كأن النساء أدركن بأنهن لن يستطعن العثور على تلك القيمة السرية التي كن يبحثن عنها قبل قليل، فقررن أن يسألن عمر أسئلة عادية، وليشبهنه بهن من أجل القضاء على سحر تلك القيمة.

أثناء تجديد الشاي قال عمر ورفيق إنهما سيصعدان إلى غرفة المكتب في الأعلى. فغضب جودت بيك منهما لأنهما سيتركانه وحده، ويأخذان معهما الشباب المعافى والحيوي المنتشر في الغرفة. وخلال النظر من خلف عمر، فكر: "ترى كيف وجدني؟" وعندما دقت الساعة في الطابق الأوسط على السادسة شعر بالتعب. كان قد نهض في الصباح الباكر، وذهب إلى جامع تشويكية لأداء صلاة العيد باعتياد رافقه منذ كان في آقحصار، وأصيب بالبرد، وشرب عنبرية قريب الظهر، وأفرط بطعام الغداء، ولم ينم، ولم يشارك كثيراً بحديث العيد، واستمع إلى الناس وإلى نفسه. والآن الوقت هو عصر يوم العيد، وليس ثمة نقص. زيادة على هذا ثمة شعور ثقيل بالكآبة يلصق بالإنسان كالرطوبة. فكر جودت بيك: "لا أريد الآن شيئاً غير النوم!" أرخى حنكه إلى الأسفل وتثاءب دون أن يفرج بين شفتيه، وتدفق الدمع من عينيه.

4
أصدقاء قدامى

صعدا إلى غرفة المكتب في الأعلى. دقق عمر فيما حوله كأن ثمة شيء فقده هنا قبل أربع سنوات، وجاء يبحث عنه.

سأل رفيق: "إيه، كيف وجدت كل شيء؟"

قال عمر: "عندما جئت إلى المكتب لم أر أباك، لقد شاخ كثيراً!"

"نعم، تغير بسرعة في السنوات الأخيرة!"

قال عمر: "قبل أربع سنوات كان سليماً وحيوياً!" لقد انحنى جذعه إلى الأمام. وأبرز حدبة: "صار هكذا. ثم إنه يتكلم ببطء."

"سيئ، سيئ!"

قال عمر: "نعم، حزنت!" بعد ذلك اقترب من المكتبة ذات الفتحات الجرارة، وتمتم: "كتب، كتب..." وأحنى رأسه، وبدأ يقرأ كعبيات الكتب. "هل تقرأ كل هذه الكتب؟"

"أشتريها، ولكنني لا أقرؤها!" ضحك رفيق. "أخطط دائماً لأن أقرأ، ولكن لا يحدث هذا أبداً... هل تريد سيجارة؟"

قال عمر: "تزوجت، وهذا هو السبب."

قال رفيق محاولاً تغيير الموضوع: "إذا أردت أن تفتح المكتبة، عليك أن تدفعها من الطرف الآخر!" وجاء إلى جانب صديقه. دفع أحد ألواح زجاج المكتبة الجرارة.

تناول عمر كتاباً من أحد الرفوف. وجلس وراء الطاولة، وقال: "محي الدين يقرأ! إلى أين وصل مع الشعر؟"

"سيأتي بعد قليل! انت ستبقى للعشاء، أليس كذلك؟"

"لا، سأذهب إلى أياظ باشا. وعدت أحد الأقرباء. لعلك تعرفه... النائب عن مانيسا مختار لاتشين!..."

"ماذا يكون لك؟"

"أمر معقد. أمي هي أخت غير شقيقة للمرحومة زوجته، أو شيء من هذا القبيل. ويمكن أن تكون أمي قريبة زوجته عن طريق آخر. لا أتذكر الآن."

قال رفيق: "أنت نسيت كل شيء!" قال هذا كأنه غاضب، وحزين.

"لا يا روحي! أنا لا أتذكر هذه القرابات فقط. أما الأشياء الأخرى فلم أنسها."

"حسنٌ، كيف وجدت كل شيء؟"

جال عمر بعينيه في أرجاء الغرفة، وقال: "ما في هذه الغرفة مثلاً هو نفسه! لم يتغير شيء كثير، كل شيء هو نفسه! وهذا البيت مفرد كما في الأعياد كلها" وأضاف مبتسماً: "أكثر تفريداً. فقد ازداد عددكم!"

ابتسم رفيق كأنه تذكر شيئاً ما، ثم قال وهو مصطبغ بالحمرة: "نعم، أنا تزوجت!"

"فعلت حسناً!"

قال رفيق لا مبالياً، وكأنه متذمر: "ها أنا قد تزوجت. وزوجتي جميلة جداً كما ترى، ويحب أحدنا الآخر كثيراً. أذهب إلى المكتب، وأعمل بالتجارة مع أبي بدل العمل في الهندسة، ولا أستطيع قراءة الكتب التي اشتريها. تزوجت، وهذا هو الأمر الوحيد الذي فعلته في هذه السنوات الأربع! ولكنني غير متذمر!"

قال عمر: "لماذا ستكون متذمراً؟" ونظر بطرف عينه إلى الكتاب الذي أمامه. ثم نهض، ووضعه في المكتبة. "أنا أيضاً لا أستطيع تخصيص وقت لها. كنت قديماً قادراً على القراءة قليلاً. لا أدري كيف يفعلون الآن. قلبي يغلي. سأعيش طويلاً جداً. وسأعمل أشياء كثيرة." وذرع الغرفة. "ها أنا ذا مقبل على عمل أشياء كثيرة!"

"هل قررت؟ ستذهب إلى السكك الحديدية؟"

"نعم! أو أنني... قلت هذا في الأسفل، أليس كذلك؟ لم أقرر بعد. ولكن لا أهمية للقرار الذي سأتخذه. المهم هو الرغبة المتأججة الآن في داخلي لإنجاز شيء... هل تستطيع أن تفهم هذا؟ أريد أن أفعل الكثير. الدخول من تحت كل شيء، والخروج من فوقه؛ السيطرة على كل شيء... هات سيجارة... هل استطعت أن أوضح لك؟"

وافق رفيق صديقة قائلاً: "أفهمك جيداً!"

وقف عمر أمام النافذة: "انظر إلى هذه الحديقة. لم تتغير. شجرة الكستناء تلك، وأشجار الزيزفون كما كانت قبل أربع سنوات. أما أنا فأريد أن يتغير كل شيء هادراً، ويتبدل كل شيء. لا، ما أردته ليس هذا بالضبط. ما أردته أن تكون هذه الأشياء لي. لأحفر آثاري عليها، ولأقلبها رأساً على عقب..."

استمع إليه رفيق منفعلاً، وشعر أحياناً بتململ مقلق يستيقظ في داخله، وردد: "نعم، نعم!" بين حين وآخر.

فتح الباب فجأة. ودخلت الخادمة حاملة بيدها صينية الشاي. قالت: "أحضرت لكم شاياً يا شباب. عرفتكم يا سيد عمر فور رؤيتي لكم. لم تتغيروا أبداً. وضعت ليموناً في شايكم. ياه، كيف أتذكر؟"

"حقيقة حباً لله!"

قالت المرأة: "انظر، إنك تضحك علي من جديد. لم تتغيروا أبداً! ونحن أيضاً هكذا..." وبينما كانت خارجة من الغرفة تحمل صينية

الشاي الفارغة نظرت إلى رفيق: "السيد الصغير تزوج فقط... هل أجلب لك قليلاً من المعمول الصغير؟"

قال رفيق: "لا نريد!" ثم نظر إلى عمر خجلاً. وبعد إغلاق الباب، قال: "لأقل لك هذا في موضوع الزواج. أنا معجب كثيراً... كثيراً بيريهان. كنت سأقول لك: تزوج أنت أيضاً، ولكنني تراجعت. لا أقول لك تزوج، أو لا تتزوج!"

"لماذا هذا؟"

قال رفيق على عجل: "لا أعرف، لا أعرف!" وأضاف خائفاً أن يبدو متشكياً: "ها أنا قلت لك، ولكنني لا أعرف. كيف يجب أن يكون الأمر؟ نعم... كان يمكن أن نتحدث عن هذا بشكل أفضل... ولكن اليوم غير ممكن، أليس كذلك؟ لا يمكن الحديث بشيء وسط هذا الصخب... العيد هكذا! لو أنك تبقى عندنا للطعام، لتحدثنا ليلاً. أعرف أنك لا تستطيع البقاء!" وبحركات متوترة بدأ يطقطق أصابعه.

قال عمر ضاحكاً: "أفهمك! هل تفهمني أنت؟"

"طبعاً، طبعاً... سنتكلم بهذه الأمور فيما بعد. سنضع في الأسفل السماور كما كنا نفعل قديماً. ويأتي محي الدين أيضاً. ونتكلم حتى الصباح!"

"حقاً، أين هو الآن؟"

فتح الباب فجأة. ودخل عثمان باسماً. قال: "مرحبا يا شباب، مرحبا!" كان يكبرهما بعدة سنوات، ولكنه يستمتع بتقمص شخصية الأب الحنون كثيراً. "مرة أخرى وجد أحدكما الآخر، وانزويتما في زاوية. بوكر، هل هناك بوكر؟" وحرك يديه كأنه يوزع ورق لعب.

قال رفيق لأخيه الكبير: "هذا كان قبل أربع سنوات!"

قال عمر: "طبعاً ياه! لعلنا نلعب من جديد!" ومن أجل تذكيره بأغنية قديمة، قال: "لعبنا هنا بوكر مدة أربع سنوات، كانت أمي تجلس في الأسفل. نحن صرنا مهندسين، وهي لا شيء!"

أطلق عثمان قهقهة. كان هذا مزاح موجه لنيفان خانم قبل أربع سنوات، ولكن عثمان أطلق قهقهة كأنه يسمعها أول مرة. بعد ذلك خبط بيده على ظهر عمر. ورغم أنها حركة غير متوقعة، فقد كانت متوازنة.

"نعم، أربع سنوات بوكر... تخرجون ورقات السبعة، وتلعبون ثلاثة أشخاص! ها، حسنٌ أين الثالث؟"

قال عمر: "قال محي الدين بأنه سيأتي. وأنا أيضاً لم أره إلا مرة واحدة فقط!"

قال عثمان: "إنكم ستبقون للطعام طبعاً. كيف؟ هل هذا ممكن؟ حسنٌ، حسنٌ! ولكن احكوا لنا قليلاً أيضاً لنرى. ماذا فعلت في لندن؟ إنهم متقدمون علينا بكثير، أليس كذلك؟"

"إنهم متقدمون كثيراً!"

"نعم، ولكن هناك أشياء تنجز عندنا أيضاً. كيف وجدتم كل شيء؟ تقدم، هل رأيت تقدماً؟"

ثم فتح الباب، ودخل محي الدين بحركاته الحادة المتوترة المعهودة. نظر بطرف عينه إلى عثمان كأنه لم يعرفه.

قال عثمان: "آه، ها هو الثالث قد أتى! كنا في هذه اللحظة بالضبط نذكرك."

دهش محي الدين غالباً من انفعال عثمان لعدم وجود علاقة تقارب بينهما. وقال بابتسامة ساخرة: "ماذا تقولون؟"

قال رفيق: "كنا نتحدث عنك، ونحكي كيف كنا نلعب البوكر قديماً!"

تصافح محي الدين وعثمان. بعد ذلك، نظر إلى رفيق وعمر، وقال: "كيف حالكم؟" وجلس على الأريكة التي في الزاوية، وتناول جريدة موضوعة بجانبه. بدأ بتقليب صفحاتها.

قال عثمان: "نعم لأترك الشباب وحدهم." وعندما كان خارجاً من الباب توقف لحظة، والتفت إلى محي الدين، وقال: "ما هو وضع مجموعتك الشعرية؟"

قال محي الدين كأنه ينخر: "جيد، جيد!"

قال عثمان: "نعم، يجب ترك الشباب وحدهم. هم صاروا مهندسين، أما أمي فلا شيء." وأطلق ضحكة. وسحب الباب خلفه بهدوء.

قال عمر لمحي الدين: "ما هذا العبوس؟"

قال محي الدين مشيراً نحو الباب برأسه: "أنت تعرف أنني لا أحبه. أم أنك نسيت؟" والتفت إلى رفيق: "إنك لا تغضب لأنني لا أحب أخاك الكبير ياه؟"

"لا يا روحي!"

"إيه، ماذا كنتم تتكلمون بحقي؟"

"لاشيء يا هذا! الممازحات القديمة ذاتها."

خيم صمت، ولم يجد أحد دافعاً ليتكلم بشيء. كان يتناهى إليهم الصخب القادم من الطابق السفلي، ودقات الساعة التي أمام الباب.

قال محي الدين: "ومرح هذه العائلة أيضاً..." ونهض واقفاً، وخلع نظارته، وبدأ بمسح زجاجها بمنديله.

قال عمر: "أنت لا تحبه أيضاً؟"

"والله لا أستطيع أن أجزم. هل يجب أن يُحب أمر كهذا، أم يكره؟.."

اقترب عمر من محي الدين مبتسماً، وقال: "أنا أتفهمك!" ووضع يده على كتفه. ولأنه أطول من محي الدين بكثير ذكرت حركته بحركة أخ كبير حنون.

قال رفيق: "احك لي عن نفسك قليلاً يا عمر!"

قال محي الدين وهو يجلس على الأريكة، ويضع نظارته: "ماذا قلت؟"

قال عمر: "لنتحدث عن هذه الأمور في زمن آخر!"

"حسن ياه! أنا أصلاً لن أجلس طويلاً أيضاً. كنت سأخرج إلى بيه أوغلو... ولكنني وعدتك، فأتيت!"

قال عمر: "بيه أوغلو حتى الآن ها؟"

لم يبتسم محي الدين كما كان متوقعاً. ولم يتخذ موقف الخجل أو مغوي النساء. قطب حاجبيه، ونظر محتداً.

فجأة فتح الباب. ودخلت أمينة خانم من جديد حاملة صينية. عليها ثلاث فناجين شاي. والتفتت إلى محي الدين، وقالت بنبرة مؤنبة: "رأيتك، رأيتك آه منك! هربت إلى هنا فوراً!" وعندما رأت وجه رفيق عابساً، أخذت الفناجين الفارغة دون أن تقول شيئاً.

قال محي الدين كأنه يعتذر: "جئت إلى هنا دون التعريج على الطابق الأسفل، نظرتُ هناك، كان ثمة ضيوف..."

قال عمر: "نعرج معاً أثناء خروجنا!"

خيم صمت مرة أخرى. استمعوا خلاله إلى الصخب المنبعث من الأسفل.

سأل محي الدين: "حسنٌ، ماذا كنتم تتكلمون قبل قليل؟"

"يا روحي، كنت أتكلم قليلاً عن مخططاتي المستقبلية، وأفكاري. أما هو فقد حدثني عن الزواج. أو عن..."

قال رفيق: "نعم، نعم. تحدثنا عن أمور كهذه!" ولكنه عندما تذكر كلمة الزواج هذه المرة، ابتسم مرتاحاً بفرح خال من عبوس أو هم.

التفت محي الدين إلى عمر مشيراً إلى رفيق: "الزواج جعله عاقلاً جداً!"

قال عمر: "كان عاقلاً دائماً!" وبدأ يبتسم.

قال محي الدين: "صحيح، صحيح أنه كان عاقلاً، وأكثر من اللازم!" وضحك مقهقهاً.

انضم إليهم رفيق أيضاً، وضحك، ولكنه انتبه إلى أنه كان يشعر بنحو غير واضح بالذنب. وتحدث محي الدين عن زميل في الكلية صادفه في الطريق. كأن ذلك الصديق من أولئك الذين يعيشون من أجل أن يسخر منهم الآخرون دائماً. وعندما استعاد ذكرياته في كلية الهندسة شعر بالمرح أكثر.

فتح عمر الجريدة التي كان محي الدين يقلب صفحاتها قبل قليل. وقال: "انظروا إلى هذا!" وبدأ يقرأ: "اصطدمت سيارة المحامي جناب صورار

بترامووي في ساحة تقسيم البارحة. لم تكن الأضرار بليغة. وليس ثمة خسارة بالأرواح!" ورفع رأسه عن الجريدة، وقال: "هذه هي تركيا! خبر كهذا في جريدة إنكليزية..."

قال محي الدين فجأة: "هل صرت من أولئك الذين يرون تركيا ريفاً؟ نشر هذا الخبر للقول إن حوادث الترامواي قد ازدادت في الأيام الأخيرة!"

قال رفيق: "إنه لا يرى تركيا ريفاً، بل أرضاً بكراً لم تفتح بعد!"

تمتم عمر: "لا يا روحي! ماذا تقولون أنتم أيضاً! هيا لنذهب. أنت أيضاً كنت ستخرج، أليس كذلك؟"

التقوا بريهان أثناء نزولهم الدرج. ورأى رفيق أن وجه بريهان قد احمر، وأن صديقيه قد خجلا أيضاً.

كانت أسرة فؤاد بيك قد غادرت. وانفعل جودت بيك الجالس في مقعده المعهود عندما رأى الشبان. فبدا عليه المرح عندما قبل محي الدين يده. ألح كثيراً عليهم ليجلسوا، فجلسوا.

قال جودت بيك: "إيه، إلى أين تذهبون الآن؟ إلى اللهو؟"

قال رفيق: "هم يذهبون، وأنا باق في البيت."

"طبعاً ستبقى أنت. أنت صرت متزوجاً. إلى أين تذهبون لنرى؟ هل بينكم من سيخرج إلى بيه أوغلو؟"

قال محي الدين: "أنا أخرج أحياناً!"

"ها! آه منك، آه... ولكن لا تتماد... أنا لم أفعل هذا في شبابي أبداً. الآن أقول لو أنني عشت، ولهوت قليلاً، ولكن العائلة والعمل أهم، أليس كذلك؟ أين تعمل أنت؟"

- "في شركة إنشاء."

"جيد، أحسنت." والتفت إلى عمر: "وأنت أيضاً جد عملاً بسرعة من دون أن تمضي وقتاً كثيراً. انظر، المكان هنا لا يشبه أوربا. الوضع هنا مختلف."

قال عمر: "أعرف يا سيدي!". ونهض واقفاً. واقترب من يد جودت بيك.

قال جودت بيك وهو يدعه يقبل يده: "انظر إلى هؤلاء! يهربون فوراً. هنالك الكثير مما ستتعلمونه مني، الكثير!"

قالت نيغان خانم متنهدة: "إنهم وسيمون جداً أيضاً." أضافت بعد ذلك راغبة بتصحيح كلامها غير المنطبق على محي الدين: "وشباب جداً أيضاً. سأنتظركم على الطعام ذات يوم. عدوني، حسن؟"

كان عثمان يضحك متذكراً تلك الممازحة.

أثناء الخروج من الغرفة اندس أحد الأحفاد بعمر، وقال: "فجأة هو هنا، وفجأة هو خلف الباب ما هو؟"

قال عمر باسماً: "الليمون؟ أم برميل المخلل؟"

عندما كانوا عند أول الدرج رأى رفيق بريهان نازلة من الطابق العلوي. اتخذ موقفاً بجسمه جعل أصدقاءه يدركون أنه لا يريد أن يضطر لتبادل التحية معها. وفكر: "لماذا فعلت هكذا؟" مشى معهم حتى باب الحديقة. وحصل على وعد منهما باللقاء هنا ذات مساء، والحديث من جديد. ونظر من خلفهما حتى توغلا في زحام العيد في ساحة نيشان طاشِ. وتمتم قائلاً: "أمضيت شبابي، وسنوات الجامعة معهما!" التفت، وعاد نحو البيت. لم يذب بعد الثلج الذي هطل قبل يومين، ومازال متراكماً في بعض أمكنة الحديقة، وعلى أغصان بعض الأشجار. هبت نسمة باردة حادة كسكين. سقطت ندف ثلج عن الأغصان. دخل رفيق مستعجلاً إلى البيت الدافئ. ووقف بجوار المدفأة، وأدفأ نفسه، وانضم إلى الحديث.

5
بيت آخر

قالت الخادمة التي فتحت باب طابق بناء في أياظ باشا لعمر إنهم ينتظرونه على الطعام. وبعد أن أخذت معطفه، أدخلته إلى بهو منار جيداً. وتبادل عمر مباركة العيد مع النائب مختار بيك الذي رآه مرة من قبل، وابنته ناظلي التي تذكّره بطفولته، وشقيقة النائب جميلة خانم. كما تبادل التحية مع ضيف هو نائب آخر قدمه إليه مختار بيك، وجلس إلى المائدة المعدة سابقاً. وفور جلوسهم إلى الطاولة، بدأت الخادمة العابسة بتقديم الطعام، وبدؤوا هم أحاديث متفرقة.

كان عمر قد جاء إلى جميلة خانم لقبض مبلغ متراكم عن أجرة بيت في أسكودار يتشاركان في ملكيته في قضية ميراث معقدة. كان قد اتصل هاتفياً لهذا الغرض صباحاً، وقال له النائب الذي رد على الهاتف إنه ينتظره على العشاء. ولكن النائب لم يهتم به كثيراً رغم أنه هو الذي دعاه إلى العشاء، وكان يستعرض مع صديقه آخر شائعات السياسة. وكان عمر مسروراً من الحديث مع جميلة خانم السعيدة ببقاء الشاب لها. كانت جميلة خانم امرأة مرحة تجاوزت الخمسين، ولم تتزوج أبداً. يُسعدها تذكر المعارف والأقرباء المشتركين.

"انتقلت أسرة خالتك أليبرو إلى تشاملجا. وتقاعد صهركم صبري. أتعرف ماذا يفعل؟ جمع نقود قديمة! بدأها لتكون مسليةً، ثم انجرف معها. وهو الآن ينزل إلى السوق المسقوف يومياً. باع مقسم البناء الذي يملكه في إرانكوي نتيجة شرائه دائماً نقوداً فضية. خالتك إليبرو تحزن لذلك كثيراً، ولكن ماذا تستطيع أن تفعل؟ أنت تتذكر خالتك إليبرو أليس كذلك؟"

كان عمر يستمع إلى الخالة جميلة، ويعطي أذنه لحديث النائبين في آن واحد، وفي هذه الأثناء كان ينظر بطرف عينه إلى ناظلي: "أتذكرها طبعاً!"

"طبعاً ستتذكرها." والتفتت جميلة خانم إلى ناظلي: "أنت لا تتذكرينها، ولكنك كنت معنا عندما ذهبنا ذات ربيع إلى إهلامور. الحقل ومرتع اللهو الذي يسمى الآن نزهة... كانت خالتك إليبرو تحب عمر كثيراً... والآن تحبه أيضاً ياه... طبعاً أنت لا تسأل عنها. لماذا لا تسأل عنها، قل لنرى؟ إنكم تهملون الكبار. لو تعرفون كم يفرحون عندما يرونكم."

"لا يتوفر لدينا الوقت يا خالتي العزيزة!"

"لا يتوفر الوقت! ماذا كنت أقول؟"

بقيت جميلة خانم تتحدث عن الأقرباء، والنائبان بالسياسة حتى جاءت المأكولات بزيت الزيتون. عندما وضعت المأكولات بزيت الزيتون التفت مختار بيك إلى عمر، وقال: "أنتم كنتم في إنكلترا، أليس كذلك؟" والتفت إلى صديقه النائب. كانت نظراتهما تقول: "تعال لنختبر معاً هذا الشاب الغريب!"

"كنتم في إنكلترا! كيف وضعهم؟"

"جيد يا سيدي!"

"جميل جداً! اقصد وضعهم السياسي؟ ماذا يقولون حول الحرب الإيطالية - الأثيوبية؟"

"لم أكن أهتم بالسياسة عن قرب يا سيدي!"

"آه، الجيل الشاب هكذا! ابنتي أيضاً هكذا!"

قالت ناظلي: "أنا أهتم بالسياسة بقدر ما أستطيع يا أبي!"

قال النائب: "نعم، أنت تعجبينني!" ثم هز برأسه كأنه يريد نسيان كلماتها. التفت إلى عمر: "حسنٌ، كيف يروننا من هناك؟"

"من؟"

"آ، مازلتم أنتم غير معجبين بتركيا! أقول: نحن، تركيا، نحن."

"مازالوا يروننا دولة بطرابيش، وحرم، وملاءات..."

قال النائب: "يا! يا للأسف، يا للأسف! رغم أنه يا لكثرة ما أنجز!" وكأنه تعرض للظلم.

"ولكننا لا نهتم، وهذا جانب مهم جداً. نحن تحسنا. والآن يجب علينا أن نعلن للعالم أجمع أننا تحسنا!"

قال مختار بيك: "ولكن العالم كله مريض يا عزيزي! هل ستنشب الحرب؟" سأل هذا وهو ينظر إلى عمر، ولكنه لم يكن ينتظر منه جواباً على الأغلب، أو أنه لن يهتم لجوابه.

بدأ النائبان يتحدثان عن احتمالات الحرب، والوضع في أسبانيا، والحرب في أثيوبيا. واتخذت جميلة خانم موقفاً يقول: "آه من سياسة هؤلاء التي لا تنتهي!" وبدأ عمر وناظلي يتحدثان فيما بينهما أول مرة.

سأل عمر عن دراسة ناظلي في الجامعة. وبعد أن علم أنها تدرس في قسم الآداب، ذكّر بقريب يدرس هناك. ولكن ناظلي لا تعرف ذلك القريب لأنه من طرف أبي عمر. بعد هذا الحديث القصير، احمر الاثنان كأنهما فعلا أمراً مخجلاً. واحمرت ناظلي مرة أخرى لأن عمر قد احمر.

قبيل الانتهاء من الطعام دخل قط رمادي إلى الغرفة. نادت ناظلي الحيوان. ووضعته في حضنها، وداعبته، وغضبت الخالة جميلة. وقالت بأنها لم تستطع تعليم ابنة أخيها التي تناديها "ابنتي" أي شيء، وحكت عن مدى ضرر وبر القطط. وحكت عن حياة أحد الأغنياء التي انقلبت رأساً على عقب بسبب دخول وبر قط إلى رئتيه وهي حزينة على ذلك الغني التعيس. واستطاع عمر في هذه الأثناء تدقيق النظر بناظلي.

لم يكن وجهها جميلاً، ولكنه لم يكن قبيحاً أيضاً. جبهتها عريضة، وعيناها واسعتان، وأنفها صغير مثل أنف أبيها، وفمها ضاحك. يُقرأ في وجهها أنها تريد أن تعبر عن أمور ما دائماً. وعندما عقدت يديها على صدرها بعد الطعام، انتبهت إلى أن عمر يراقبها، وأنه قلق من وجود هذه الفتاة الجالسة في زاوية الديوانة. في أثناء جلوس ناظلي عاقدة ذراعيها ذكرت عمر بمعلمة ابتدائية أعجب بها كثيراً، وامرأة ألمانية جميلة جداً جاءت لزيارة أمه. كانت تلك المعلمة، وتلك المرأة الألمانية النبيلة التي كان زوجها جنرالاً ذكيتين جداً، وكانتا كثيراً ما تعقدان ذراعيهما على صدريهما كما تفعل ناظلي الآن.

قبل مجيء القهوة عادت جميلة خانم حاملة من الداخل ظرفاً ونموذج عقد، وقدمت لعمر معلومات حول البيت المؤجر، والمستأجر وهي تلوح بيدها. شرحت كل ما يجب شرحه في هذا الموضوع حتى ارتاح قلبها دون أن تبالي بتظاهر عمر عدم الاستماع لحديثها، وانشغاله بأمور أخرى، وقدمت له الظرف. ولكي لا ينظر عمر إلى ناظلي التي كانت جالسة على الأريكة تداعب قطها، ولا يبدو عليه أنه يستمع إلى كل ما يقال، حاول أن يستمع للنائبين. وكان مختار بيك يحكي لصديقه ذكرى له مع عصمت باشا كأنها شيء تافه.

بدأ مختار بيك بامتداح حكومة عصمت باشا الحاكمة. وخلال مديحه الشديد كان يلتفت إلى عمر، وكأن عينيه تقولان: "اشرحوا لأصدقائكم في انكلترا عن هذه الحكومة، ليعرفوا أي حكومة هذه الحكومة!" وبدا وجهه كأنه لم يتعرض لظلم. وفي أحد الأثناء سأل منفعلاً: "حسنٌ، ما رأيكم؟"

"بماذا يا سيدي؟

"بالثورات، بتركيا، بنا؟..."

قال عمر: "نعم، أنا أيضاً أؤيدها يا سيدي!" ونظر إلى ناظلي مبتسماً. ولكنه وجد حركته تلك غبية. ورأى مختار بيك وهو يسد تحت أبطي سترته بحركة متوترة.

قال مختار بيك: "من تؤيدون؟ ثم قلب شفتيه: "مهما يكن! ستعملون على خط سيواس - إرظروم؟"

"سأحقق دخلاً! سأعمل على خط سيواس - إرظروم."

"هذا يعني أنكم ستخدمون تلك الثورات كلها. سكة الحديد تلك هامة جداً. سكة الحديد تلك التي ستشق تلك ستوحد تركيا، وتأخذ الثورة إلى جادة الصواب. هذا يعني أنكم تخدمون الثورة. هكذا قولوا... النقود تأتي تالياً!" ونظر إلى ناظلي طالباً بعينيه أن تؤيده بهذا الكلام، قائلاً: "أليس كذلك؟"

قال النائب الآخر: "اليوم يومك يا عزيزي مختار!"

التفت مختار بيك إليه قائلاً: "ولكن ألست على حق؟" ونهض في إحدى اللحظات، وعاد للجلوس مرة أخرى، والتقط الحديث الذي كان قد بدأ قبل قليل.

اندهش عمر قليلاً. كان ينظر إلى ناظلي، والقط الذي في حضنها، ويفكر بما قاله، وينتظر تفهماً. بعد قليل انتبه إلى أنه ينظر نظرة فارغة إلى الفتاة، فخجل. وعادت جميلة خانم إلى ذكرى لطّفت كل شيء:

"سنة إعلان الحرب في أوربا. ذهبنا المرحومة أمك، وأبوك، وعمك المرحوم توفيق، وأنا، لا أدري ما المناسبة، إلى مطعم فتح حديثاً في بيه أوغلو، لا، لا، في منطقة النفق. كان المطعم مكاناً محبباً. أصلاً كانت المحلات التي يمكن للنساء مثلنا أن تذهب إليها قليلة في ذلك الزمن. شاغبت قليلاً أنت، وضايقت المرحومة أمك. فقلت لنفسي لأضعك في حضني قليلاً. وضعتك في حضني، وبدأت أهزك. كنت أرتدي ثياباً حريرية جديدة. أنت يا خبيث - لأقل لكم يا سيدي - ألا تعملها على ثيابي الجديدة تلك؟ ولكي لا ترى المرحومة أمك هذا فتتضايق، كنت أتمسك بك فوق البقع، و..." وبدأت تضحك مصدرة صوتاً خفيضاً.

بدأ عمر يضحك أيضاً. نظر بطرف عينه إلى ناظلي. وعندما رأى من عبوسها أنها غاضبة لرواية هذه الذكرى البشعة، غضب من جميلة خانم، ثم قطب وجهه كأنه تذكر شيئاً فجأة، وهب واقفاً، وقال: "لأذهب أنا!"

حاولوا بداية منعه كما توقع ثم نهضوا من خلفه. نادى النائب العائد من باب البهو: "لا تنسوا الثورات. لا تنسوا الثورات في أي وقت. الدولة أولاً، وبعد ذلك رغباتكم الشخصية! أليس كذلك؟ سلموا لي على خالتكم، وزوجها!"

أرسلت جميلة خانم أيضاً تحياتها إلى الخالة وزوجها الساكنين في بكر كوي. "تعال مرة أخرى. اسمع، سأغضب منك إذا لم تأت مرة أخرى. أتيت اليوم من أجل هذا أساساً!" وكانت تشير إلى الظرف الذي بيد عمر، ثم ندمت: "لا، لا! مزحت معك!"

كان عمر يريد أن يقول شيئاً ما للخالة، ولكنه يعلم أن انتباهه كله موجه لناظلي المتململة أمام الباب، تداعب قطها في حضنها. وفجأة تمتم: "كنت سأغدو فاتحاً!" صافح ناظلي أيضاً، وداعب جبهة القط. تمتم من جديد في أثناء نزوله الدرج: "نعم، سأغدو فاتحاً!" كانت جميلة خانم تنادي من خلفه طالبة منه أن يرتدي معطفه، وألا يبرد. فقد هبت ريح باردة في الخارج. وقفت أمام مشفى غموشخانة سيارة عسكرية. كان هناك جندي يسنده جنديان من تحت أبطيه، وهو يصعد الدرج، ويعرج. ركب عمر سيارة أجرة، وقال إنه ذاهب إلى بكر كوي.

في الطريق، فكر بهذا اليوم الطويل. في الصباح جلس مع خالته وزوجها، وتابع ذبح الأضحية، وتناول طعام الغداء عند أحد الأقرباء، وقابل رفيقاً بعد الظهر. ثمة ما يجب الحذر منه، والابتعاد عنه في اسطنبول، ولدى العائلات الكبيرة الحيوية، وفي الصالونات الدافئة الواسعة. تذكره لليوم يؤجج في نفسه الرغبة بكسر شيء ما في داخله، أو قلبه رأساً على عقب. "لن أدع نفسي لهذه النعومة الخدرة المريحة المتراخية، وإلى حياة العائلة التي لا تعلق فيها بشيء. ماذا أفعل بدل هذا؟" وتثاءب متمطياً.

6
ما الذي يجب عمله في الحياة؟

تناول الأصدقاء الثلاثة كباب إزمير في الطبق الذي أعده الطباخ نوري، وشاركوا بحديث العائلة، وسلوا الجميع، ثم صعدوا من جديد إلى غرفة المكتب، وثرثروا، ولكنهم لم يتحدثوا عما أرادوا الحديث عنه أساساً. كان رفيق يعتقد بأن الحديث الحقيقي لا يبدأ إلا بعد نوم الجميع، والنزول إلى غرفة الجلوس بعد أن تفرغ. وبعد أن نام الجميع، ولعبوا بوكر طويلاً، نزلوا إلى الأسفل، ووضعوا السماور، وتحدثوا. في إحدى اللحظات قارن محي الدين هذا بما قرأه في كتاب عن المثقفين الروس، وعن حياة بوشكين في القرن التاسع عشر.

بدأت الساعة المتكتكة أمام الباب تدق. فتمطى عمر، ومد رأسه إلى الأمام والخلف للنظر إلى ساعة يده المرفوعة إلى الأعلى، وتثاءب، ثم عاد من جديد إلى الكتاب الذي تصفحه. أما محي الدين فكان يعزف الترومبت على حافة الأريكة بأصابعه، وسمع وقع أقدام على الدرج. وبعد فترة، لم يعد يُسمع غير تكتكة الساعة.

قال رفيق: "هيا لننزل إلى الأسفل!"

نزلوا إلى الأسفل محاولين عدم إصدار أي ضجيج. نزل رفيق إلى المطبخ عابراً من الباب الفاصل، ومن الدرج الضيق. فرأى أن نوري قد وضع

السماور على النار فانتشى. حمل تلك الأداة المبقبقة في صينية كبيرة، وصعد إلى غرفة الجلوس. جلس محي الدين على الأريكة التي اعتاد جودت بيك الجلوس عليها دائماً.

كان عمر يتجول في الغرفة متفحصاً الأشياء. في أثناء خروجه من الغرفة ذات المفروشات الصدفية والبيانو حاملاً سيجارته، قال: "لا يتغير شيء أبداً في هذا البيت!" وانفعل عندما رأى سماور الشاي: "ولكن احذر أن تعتقد بأنني أوحي لك بشيء!"

ابتسم رفيق مدركاً أن الحديث الذي لم يسخن بعد، بدأ يغليه السماور. قال: "هذا ما تفكر فيه إذن؟" ثم سأل محي الدين لإدخاله في هذا الجو: "ما قولك أنت؟"

قال محي الدين: "تعرف أنني لا أحب هذا البيت كثيراً!"

فهم رفيق بشكل قاطع أن كل شيء قد بدأ كما أراد تماماً. فقال باسماً: "نعم، أعرف أنك لا تحب هذا البيت!" ولمجرد أن يقول شيئاً أضاف: "ماذا تحب أنت أساساً غير الشعر؟"

قال محي الدين: "النساء، واللهو، والذكاء..."

جلس عمر مقابله: "وإظهار ذكائك. متى سينشر كتابك؟"

"أنت تسأل عن هذا دائماً. قريباً... أنتظر!"

"حسنٌ، ماذا تفعل غير هذا؟"

"مهندساً. المكتب يأخذ كثيراً من وقتي! أعود إلى البيت متعباً. وأخرج إلى بيه أوغلو أحياناً. لدي معارف في خمارات بشك طاش! وأكتب شعراً في البيت. يكفي كل هذا!"

قال عمر فجأة: "لأر، هل سأجد ما يكفيني؟"

قال رفيق: "ها هو محي الدين شاعر ومهندس! أتذكر، كنت في زمن ما تشبه نفسك بديستوفسكي. لأنه كان مهندساً أيضاً..."

قال عمر: "لا، كان يشبه نفسه به لأنه شيطاني قليلاً أيضاً على الأغلب!"

ضحك محي الدين. كان يستمتع بالحديث عنه، ومناقشة سجاياه الشخصية.

قال رفيق راغباً بإمتاعه: "وغير هذا يا محي الدين، كنت تقول إنك ستعمى! والأهم قولك إنك ستقتل نفسك إذا لم تغد شاعراً جيداً في الثلاثين من عمرك!"

"كنت في ذلك الوقت أقول كل ما يأتي على لساني، ولكن ثق أن ما قلته في قضية الشعر، وقتل نفسي صحيح!"

قال عمر: "واخ، واخ، واخ!" وضحك.

نظر محي الدين إليه نظرة تقول: "لست مضطراً للتصديق؟ وبموقف الواثق من النفس كأنه غير متعلق بتنفيذ ادعائه قال: "اضحك أنت لنرى!"

كان رفيق مستمتعاً لسير كل شيء في مجراه. فيخرج كؤوساً من الخزائن، ويضع السكرية في صينية، وينظر إلى خمير الشاي، ولا يريد أن يكون ثمة نقص.

قال عمر: "هات مشروباً أيضاً، مشروباً."

ليس لدينا شيء! لدى أبي عنبرية توت الأرض، وهو يشرب قليلاً في الأعياد..."

قال عمر: "المهم، لا تبال!" والتفت إلى محي الدين: "هل تشرب أنت؟"

"أحياناً."

قال رفيق: "جاء إلي في أحد الأيام. كان ذلك في شهر أيلول غالباً، أليس كذلك؟ كان ثملاً تماماً!"

قال عمر: "يجب أن يشرب المرء يا روحي، يجب أن يشرب." ثم التفت إلى رفيق: "ما أجمل رائحة الشاي!" ثم التفت إلى محي الدين من جديد: "لأن هذا أمر جيد!"

قال رفيق: "بعد هذا كل يأخذ شايه!"

"لماذا هو أمر جيد؟"

قال عمر: "حسنٌ، سأقول لك!" وارتسم على وجهه تعبير: لم يعد الذنب ذنبي! "لأن المشروب يجعل الإنسان يتجاوز الحياة اليومية. يساعده على تجاوز الأمور السطحية!" ونهض واقفاً بانفعال: "يمكن للإنسان أن يفهم مقدار رعب الحياة العادية البائسة!"

قال محي الدين: "ماذا عندك يا هذا! اجلس!"

قال رفيق: "قلت لك في العيد إنه هكذا دائماً!"

"لدي شيء كثير يا هذا! تعلمت الكثير من أوربا. لا يمكنني بعد ذلك أن أكون إنساناً كسولاً. لا أكتفي بالقليل. تعلمت في أوربا... تعلمت أن لي حياة، وبعدها سأموت!"

ضحك محي الدين قائلاً: "ألم تكن تعرف هذا؟"

وقف عمر فجأة وهو متجه نحو طاولة الطعام: "تعلمت هذا. تعلمت ما تعنيه هذه الأمور التي تسخر منها من دون أن تفهمها. يجب عمل شيء ما في هذه الحياة. يجب ملؤها. يجب تجاوز كل شيء. على الإنسان أن يُسمع الآخرين بما يقوم به... أنا لا أريد حياة عادية!"

"ولكنك قبل قليل كنت تقول لي: واخ، واخ، واخ!"

"صحيح! ولكن لا تفهمني خطأ. هل يستحق الشعر كل هذا؟ ولأنني فكرت هكذا..."

قال محي الدين: "هذا يعني أنه لا يستحق، ها!"

فتح عمر صنبور السماور الصغير الموضوع على طاولة السفرة. قال: "لا يستحق! أو برأيي..."

قال محي الدين: "حسنٌ، أريد أن أعرف ما تريد عمله!" وكانت يداه تعزفان ترومبت على مسند الأريكة من جديد.

كاد عمر يصرخ: "سأذهب إلى سيواس لأكسب نقوداً! سأكسب نقوداً! وسأحصل على كل شيء بتلك النقود! كل شيء..." وقف فجأة كأنه خاف من نفسه: "أنت تنظر إلي ساخراً. تجدني متهوراً جداً، أليس

كذلك؟ أو... نعم، نعم! أنا متهور جداً." ترك فنجان الشاي الذي بيده على طاولة صغيرة في منتصف الطريق. حرك يديه وذراعيه حركات غريبة كأنه لا يستطيع أن يفضي بما في داخله من دون تحريكهما. انتبه لهذا، وابتسم، وقال: "أنا متوتر في هذه الأيام، لأنني أخاف أن تسيطر علي حياة خدر العائلة وجمودها مثلما رأيت في اسطنبول!" والتفت إلى رفيق: "احذر أن تغضب! إذا انجرفت إلى حياة كهذه، فسألبس بقدمي نعلي البيتيين، وأبدأ حياة عادية قبل أن أنجز ما أردت إنجازه!" ونظر بطرف عينه إلى قدمي رفيق أثناء قوله هذا، وارتاح على الأغلب عندما وجد أنه يلبس حذاء. "مع أنني أريد أن أعمل الكثير! أريد أن أعيش غنياً، ومالئاً للحياة. من قال هذا؟ العيش غنياً، وبعد ذلك أكون غنياً حقيقة، الحصول على كل شيء!" وتمتم كأنه يردد باستمرار أمراً محفوظاً: "أريد أن أكسب النساء، والنقود، وإعجاب الجميع..." وتذكر فنجان الشاي، فأخذه. وعاد ليجلس في المكان الذي جلس فيه قبل قليل.

"حسنٌ، لماذا تستهين بالشعر؟"

"لأن الشعر عمل صامت. ماذا يمكنك أن تكسر، وتقلب، وماذا يمكنك أن تحصل؟ ستنتظر صابراً... هه! كانوا يقولون هذا قديماً! من صبر ظفر. ها أنا تعلمت الا أصدق هذا. لا تصدق الذين يعلمونك الصبر. أنا لا أصدق غير نفسي!"

قال محي الدين: "ولكن هذه ليست أفكاراً جيدة..."

"نعم، يمكن أن تكون قد قرأتَ هذه الأمور في الكتب! لعلني لم أقرأ بقدر ما قرأت، ولكنني أعرف هذا. لو أنني قرأت هذه الأمور في مكان ما مثلك، لمررت عليها قائلاً: أفكار! ولكنها ليس هكذا بالنسبة لي. أنا أرى أن هذه أمور حية! إنها كل شيء بالنسبة لي."

قال محي الدين فجأة: "نعم، أعتقد أنني فهمتك. ولكنني لا أجد هذه الأمور صحيحة! إلى أين سيقودك الحرص إلى هذا الحد؟"

"لم أفكر. ولكنني أريد أن أتوجه إلى الأمور التي ذكرتها." التفت عمر إلى رفيق فجأة: " لا أستطيع أن أفهم لماذا نشرب هذه الشاي بدل المشروب؟"

قال محي الدين: "نعم، إنك متوتر، صرت أكثر توتراً مني، ولكن هذا الحرص سيجعلك تنهار في النهاية، يهدمك، ويشلك!"

قال رفيق: "أأجلب لك عنبرية؟"

"لا، لا تجلب. هل سأنهار؟ أتقول هذا؟" نهض عمر، وكان يمشي بهدوء في الغرفة.

قال محي الدين: "نعم!" ولكنه عندما رأى جسد عمر الذي يتجول وسط الأغراض، قال: "لا أعرف."

كأن الجسد يقول: "انظروا كم أنا وسيم، وذكي! وهل ينهار شخص كهذا؟"

خيم صمت. نهض محي الدين، وصب شاياً جديداً. سأل عمر رفيقاً عن المكتبات التي افتتحت في الفترة الأخيرة. انخرط رفيق بشرح بعض الأمور. وتدخل محي الدين أيضاً بالكلام. وتحدث عن شاعر يدعى جاهد صدقي، يعرفه من غلاطة سراي، ومن خمارات بشك طاش. قال إنه قبيح الوجه، وخجول، ولمع من خلال مديح "صفا بيامي" له. وقال إنه لا يعرف الشعراء الشباب الآخرين لأنه لا يحب خمارات بيه أوغلو. وعرج الحديث على بيه أوغلو، كم تغير هذا الشارع خلال السنوات الأربع الأخيرة، ولكن يُفهم من حركاتهم، وكلماتهم السافرة أنهم غير مهتمين بهذه المواضيع، بل بالحديث الذي كان دائراً قبل قليل. لم يستمر الحديث طويلاً حول بيه أوغلو والدكاكين، واسطنبول المتغيرة، ولكنه لم يترك أي أثر.

عندما بدأ الصمت من جديد، نظر محي الدين إلى دخان السيجارة الذي ينفثه، وقال: "هذا يعني إنك تفكر على هذا النحو، ها..."

قال عمر: "برأيي إن هذا ما يجب عمله. يجب معارضة الأشياء العادية، والحياة العادية دائماً. ولكن هذا لا يكفي. يجب إصدار الضجيج والصخب. يجب الحصول على كل شيء. أنا أكرر الأمور نفسها!" كأنه يعتذر من طرحه أفكاراً غير قابلة للنقض. "يجب على الإنسان أن يهرب من

جاذبية الحياة اليومية، ومن الأفراح الصغيرة!" ونهض واقفاً كأنه يريد أن يتحدى أحداً بما قاله، ويدعم هذا القول، وملأ شاياً من السماور.

قال محي الدين: "نعم، نعم. هذه مقولات كبيرة!..."

وضع عمر الفنجان الذي بيده على الصينية: "أأقول لك شيئاً؟ ولكنك لن تخاف. أنا... أنا لا أريد أن أكون تركياً جرياناً!"

قال محي الدين: "ماذا إذاً!"

كأن مسدساً قد انطلق.

قال محي الدين يُقلب نظره بين رفيق وعمر: "هل أنت مدرك لما تقول يا هذا؟"

يبدو أن عمر أيضاً خاف من كلماته. كان يلعب بفنجان الشاي الذي لم يستطع أن يملأه بأي شكل من صنبور السماور. التفت ناظراً إلى محي الدين. كانت نظراته تقول: "ما قلته هذا كان مزاحاً يا روحي!" وعاد من جديد إلى فنجانه. قال: "حكت لي عطية خانم زوجة سعيد بيك نديم ما يشبه هذا! كنا معاً في طريق العودة. هل حكيت لك هذا يا رفيق؟"

صرخ محي الدين قائلاً: "وضح كلامك، قل ما تريد قوله..."

قال عمر: "محي الدين، عزيزي محي الدين، ألسنا صديقين؟ منذ كم سنة وأنت صديقي!"

"نعم، ولكنني لم أكن أتوقع كل هذا!"

وضع عمر فنجان الشاي على الطاولة الصغيرة. وجلس بجانب محي الدين. وضع يده على كتف محي الدين كأخ كبير مشفق متسامح: "أنا لا أقول شيئاً يا محي الدين! كيف أملأ هذه الحياة بشكل جيد، هذا ما أبحث فيه." بعد ذلك، سحب يده عن كتف محي الدين، والتفت إلى رفيق، وقال: "لا يوجد في تركيا تسامح! التسامح هام جداً! ماذا تقول أنت؟"

قال رفيق شاعراً بضرورة قول شيء ما: "لماذا تكون ما تسميه الحياة اليومية بسيطة وسطحية؟ لماذا يحذر الإنسان من المتع الصغيرة التي تستهين بها؟ للحياة اليومية أشياؤها... وشعرها الخاص بها." كان خجلاً مما قاله.

انفعل عمر قائلاً: "أنت تفكر ببريهان، ببريهان، أليس كذلك؟ معك حق، بريهان..."

احمر رفيق: "لا، لم أقل هذا وأنا أفكر بها."

قاطع كلامه عمر: "أفهمك. ليس بالإمكان إيجاد امرأة كبريهان بسهولة!"

"لا، لا أقصدها بكلامي. أنا أقول إن التواضع ممكن!"

فجأة أطلق محي الدين قهقهة: "التواضع؟ حسنٌ، وماذا عن هذا البهو؟ وهذا الأثاث؟" وكان يشير بيده إلى البهو كله، وغرفة البيانو، ومفروشات الصدف، والأشياء. ثم قال مطلقاً قهقهة أخرى: "كيف يمكن للإنسان أن يكون هكذا وسط هذه؟ كيف يمكن للإنسان أن يكون متواضعاً وسط هذه الأغراض، لا تغضب مني، ومع زوجتك الجميلة؟... قه، قه. إنك تغضب، أليس كذلك؟ إذا كان ما قصدته هو التواضع، فيمكنك أن تحققه في المحيط الذي أعيش فيه أنا. يمكنني أن أعمل هذا أنا." ونهض واقفاً كأنه يفكر بأن دور استعراض الجسم قد جاءه: "ولكنني لا أحب التواضع. أريد إظهار كم أنا ذكي. نحن – عمر وأنا – متفقان على هذا! ولكن في هذا الموضوع!"

"حسنٌ، لماذا لا تريد أن تكون راستيناك مثلي؟"

"ماذا، ماذا، ماذا قلت؟ راستيناك؟ ها، هل تقرأ بلزاك؟ هل تحب ذلك الشخص؟"

قال عمر: "لا، هذا ليس اكتشافي!" وأضاف بما يشبه الاعتذار: "وهذا أيضاً كلام عطية خانم زوجة سعيد بيك..."

قال محي الدين متوتراً: "أي عائلة هذه! علمتك أشياء كثيرة!"

نهض عمر منفعلاً: "هل تفهماني يا صديقي؟ أنا أقول يجب أن أعيش هذه الحياة بملئها، وأن أعيش غنياً، وأحصل على كل شيء. هل تفهماني؟ أنا صديقكما منذ عشر سنوات! لا تنظروا إلي هكذا. أعرف، لعل في حالي هذه شيئاً من الانحراف. نعم، ولكنني أعرف ما أريد. لدينا حياتنا. ولنفكر كيف سنعيشها. لا أحد يفكر بهذا!" نظر إلى محي الدين: "أنت

تريد أن تفسر كل شيء بشاعريتك. هل يكفي هذا؟ الصبر والشعر... هل كل شيء يكون بهذا القدر فقط؟ عليك أن تُظهر ذكاءك. حسنٌ، لماذا؟" والتفت إلى رفيق: "أنت أيضاً على وشك الانجراف بحياة هذا البيت المريح، والحياة اليومية. ولكن هل تفهمني؟ لأنني أخاف نظراتكما أحياناً."

قال محي الدين: "لا تخف، لا تخف منا يا روحي!"

قال عمر: "منذ كم سنة ونحن أصدقاء!" ومشى نحو محي الدين، ووقف أمامه،.وقال: "تعال، لأقبلك!"

قال محي الدين: "كأنك ثمل يا هذا!" ولكنه نهض واقفاً. كان مشاعره قد تأججت. تعانقا، وتبادلا القبل متضاحكين.

اعتقد رفيق أن مشاعره قد تأججت أيضاً. وخطر بباله الانضمام إليهما، وإلى المزاح، ولكنه لم ينهض من مكانه. فكر بكلماته التي قالها قبل قليل، وببريهان، وبكيفية رؤية صديقيه لبريهان، وشعر بالخجل.

صرخ عمر: "كما كنا نفعل أيام الكلية!"

كان رفيق قد نهض أيضاً: "أتذكران يا هذان؟ كنا في درس المقاومات..."و رأى صديقيه يمشيان نحو الباب، فعاد. وتمتم قائلاً: "آ، أبي!"

اندهش جودت بيك عندما رآهم أيضاً. كان مرتدياً منامة زرقاء مخططة بالأبيض، وسترة طويلة. كان يقف أمام الباب. أراد أن يختبئ بداية على الأغلب. بعد ذلك، أدرك أنه لن يستطيع أن يفعل هذا. كان فرحاً لأنه وجد أداة لهو في هذه الساعة من الليل. وسار إلى أريكته بخطوات بطيئة ومحفوظة.

"مساء الخير يا شباب، لم أستطع النوم، مساء الخير."

قال عمر: "سيدي، هل أصدرنا صخباً قوياً؟"

"لا، لا. هذا نتيجة الشيخوخة! معدتي غريبة أيضاً. أفرطت بالطعام مساء على الأغلب." وأضاف خجلاً: "جميلة منامتي، أليس كذلك؟"

قال محي الدين: "نعم، جميلة جداً!" وكان في وجهه تعبير ساخر.

قال جودت بيك: "عم كنتم تتحدثون؟" وكان يضع جسمه على أريكته المحببة بانتباه. "ماذا كنتم تتحدثون، قولوا لنرى!"

قال عمر: "كنا نقول ما الذي يجب عمله في الحياة!"

"انظر! ما الذي يجب؟"

قال عمر: "لم نتوصل إلى قرار كامل."

"ماذا هناك أسهل من هذا؟ يجب أن يعمل الإنسان في الحياة، ويحب، ويأكل، ويشرب، ويضحك!..."

"ولكن ماذا يجب أن يكون الهدف؟ هذا ما كنا نناقشه؟"

وضع جودت بيك يده على أذنه: "هل تقولون الهدف؟"

قال رفيق: "يعني ماذا سيكون الهدف الأساسي، هذا ما يقولانه يا أبي!"

قال جودت بيك بموقف خبيث: "هما يقولان، ولكن ماذا عنك أنت؟ أنت لا تتدخل كثيراً بهذه الأمور. أنت تزوجت. صار هدفك الأساسي واضحاً. بيتك، وعملك... حسنٌ، ماذا تقولون غير هذا لنرى؟"

تذكر عمر فجأة: "كنت أتحدث عن سعيد نديم بيك. أنتم تعرفون والده نديم باشا. حتى إن عرسكم أقيم في دار نديم باشا..."

قال جودت بيك: "نعم، نعم! أقيم في داره." وشعر بالضيق على الأغلب. وقال: "رفيق، سأتعبك بأن تُحضر لي من الأسفل بعض الفواكه! قشر لي برتقالة، واجلبها!"

"قابلت سعيد بيك نديم في القطار."

قال جودت بيك: "دع عنك هذا. هل وجدت عملاً؟ أخبرني عن هذا لنرى! جد عملاً بسرعة. وفتاة أيضاً. هذا هو جوابي على سؤالكم. هذه هي الأمور الهامة في الحياة."

ونزل رفيق إلى المطبخ عبر الدرج.

7
قبل الانطلاق في الطريق

نهض عمر من القيلولة، ونظر إلى ساعته. وفكر: "كم نمت! تأخرت على ناظلي!" نزل الدرج. فرأى عبر النافذة الحديقة الخلفية للدار وضوء الربيع الذي يملأ الخضرة بالمرح. كان البحر يبدو من بعيد. ومرت سفينة من أمام بكر كوي. "سأذهب إلى كماه!" قرر العمل في خط سيواس - إرظروم، كان قد اتفق مع شركة، ووقع عقداً للعمل في نفق بين كماه وإرظروم. وبموجب هذه الاتفاقية سيساهم برأسمال هذا العمل. كان معه نقود تكفي رأسمال هذا العمل حالياً، ولكنه يعتقد بأنه سيتضايق فيما بعد، فيريد أن يبيع البيت الذي يأخذ إيجاره مع الخالة جميلة، ومقسماً في المنطقة ذاتها، ودكاناً في السوق المسقوف. لهذا السبب كان عليه أن يذهب إلى الخالة جميلة.

كان زوج خالته يلعب الورق مع جاره. عندما رأى عمر، فقال له: "هل استيقظت؟" ثم التفت إلى الجار، وقال: "أنا أقبل رهانكم يا سيدي!"

- كانت الخالة تحبك الصوف، وتنظر أحياناً من النافذة إلى الخارج. هي أيضاً قالت: "هل استيقظت؟"

قال عمر: "أنا ذاهب، تأخرت!" وفكر: "يجب ألا يصيبني الخدر" وتثاءب. "يجب ألا أنجرف في جو معين، وأن أنتبه جيداً!"

قالت الخالة: "أذاهب إلى بيت جميلة خانم؟"

"نعم، أريد أن أتكلم معها حول ذلك البيت، والمقاسم!"

قالت الخالة: "زوج خالتك أيضاً كان يلاحق هذه الأعمال! المهم، سلم عليها. كيف حال ابنة أخ جميلة؟ ماذا كان اسمها؟"

"ناظلي! هيا يا خالتي العزيزة، أنا تأخرت. سآتي مساء!"

فرحت خالته لأن الفرصة سنحت لها لتقبيله من خده حيث كانت المرحومة أمه تقبله. انتبه عمر إلى الزمن المتدفق. مشى مسرعاً، وعبر الحديقة. ركب حنتوراً. ثم أوقف سيارة أجرة أمام المحطة. حزن في الطريق لاضطراره إلى الابتعاد عن اسطنبول، ولكنه ارتاح عندما أعاد النظر بتصوراته. فكر بزوج خالته الذي لا يلعب الورق مع جاره في العطل فقط بل كل يوم، وبخالته التي تحيك الصوف باستمرار، وتمتم: "يجب ألا يكون الإنسان مثلهما! ولا مثل رفيق. وكما أنني لن أكون صبوراً مثل محي الدين..." وفي أثناء عبور السيارة الجسر فكر بناظلي. تذكر حديثه معها عندما قابلها قبل شهر. فكر: "لماذا كانت تحمر بين حين وآخر؟ إنها ابنة نائب. ما الذي يمكن أن يحققه نائب لمن هو على طريق أن يكون فاتحاً؟" فكر بنفسه زوجاً لناظلي، وصهراً للنائب. إنه يحصل على مناقصات في أنقرة حديثاً، ويكسب نقوداً كثيرة، ويعجبون جداً به وبزوجته، وينظرون خلفه قائلين: عمر بيك هذا لا يكتفي بأي شيء. وفجأة خجل من أفكاره، وتمتم: "كم هذا شيء معيب! وكم هو هراء!" وضحك. وبدأ يفكر بما سيقوله للخالة جميلة حول الدكاكين، والمقاسم.

فتحت الباب الخالة جميلة. وقبلت عمر مسرورة، وأبدت اعتراضاً لعدم مجيئه من قبل، وسألته عما إذا كانت خالته وزوجها يشعران بالبرد في الطريق رغم أن الجو صحو ومشمس، وكيف يشرب قهوته. استمعت لأجوبة عمر بانتباه، وقالت إن الخادمة في إجازة، وقبل أن تذهب إلى المطبخ اشتكت من الخادمة قليلاً. ونظر عمر خلف المرآة، وقال لنفسه: "إيه، أليست ناظلي هنا؟"

تحدثا بكلام عام أثناء شرب القهوة. وإثر سؤال جميلة خانم حكى عمر عن صحة خالته وزوجها، وحياتهما اليومية. واشتكت جميلة خانم من

وضعها الصحي أيضاً. عرضت عليه ذراعيها السمينين، وشرحت كيف تعاني من الروماتيزم. ثم حل صمت كما توقع عمر. وتنهدت خالته طويلاً.

إثر هذا حكى عمر بسرعة: كان ذاهباً إلى كماه، وسيكون بحاجة إلى مبلغ كبير قبل مرور سنة. ويرجو خالته جميلة أن تساعده على إيجاد زبون لشراء الدكاكين، والبيت الذي يشاركها بملكيته، وكذلك المقاسم.

قالت المرأة: "رحماك، وهل يباع كل شيء هكذا؟"

"لن تباع الآن يا خالتي العزيزة. سنضطر لبيعها فيما بعد!"

"البيع ليس أمراً جيداً. كان المرحوم أبي يقول إذا بُدئ ببيع الملك، فلا نهاية لهذا."

قال عمر: "أنا لن أبيعها لآكل بها. سأبيعها لتكوين رأس مال."

تمتمت المرأة: "ليس جيداً، ليس جيداً!" ولكنها قالت في النهاية إنها ستعمل ما بوسعها لمساعدته.

وفكر عمر: "لماذا جئت إلى هنا؟ لا يمكن لهذه المرأة أن تساعد في أي وقت. أنا جئت إلى هنا... لا، لماذا لا تكون؟ إنها تعرف إران كوي جيداً..."

"يا ابني، أين كماه؟"

"في إرزنجان."

"الجو بارد في تلك المناطق."

"أمامنا صيف!"

قالت جميلة خانم: "رغم هذا لا تهمل أخذ أشياء سميكة معك!" ثم بدأت تحكي عن أحد أقربائها الأرظروميين. قالت إنهم يشربون الشاي بقدح واحد يمررونه من يد إلى يد، ويلعقون مع كل رشفة قطعة سكر ضخمة. ثم هرعت إلى المطبخ لتخمير الشاي.

رأى عمر القط الرمادي الداخل إلى الغرفة، فنهض واقفاً. وفكر: "أنا أغادر اسطنبول!" ولكن الحزن الذي استيقظ في داخله عندما كان في السيارة لم يستيقظ الآن. تخلص من سكرة النوم، واستعاد طموحه، وشعر أنه يجب أن يكون فاتحاً بالتأكيد. تمتم: "يمكن عمل الكثير في هذه الدنيا!" اقترب القط ناظراً إليه بطرف عينه، وقفز من فوق أريكة بمحاولة

واحدة، شمشم المخدة، وتكور عليها مضطجعاً. "ولكنني أغادر اسطنبول قبل أن أستمتع بطعمها!" كان يمشي رواحاً ومجيئاً في الغرفة. وقال لنفسه متململاً يريد قلب بعض الأشياء وتكسيرها: "أي طعم؟ لم أفكر باسطنبول جيداً عندما كنت في لندن!" كان ينظر إلى الخارج عبر النافذة نحو البوسفور. "نعم، لم أكن أفكر باسطنبول بحب، ولكنني الآن أرى أنه توجد هنا صداقات، وأناس، وأقرباء، ورائحة مألوفة، وجو دافئ يلف جسدي!" هذا صحيح. كان يمشي من النافذة إلى الجدار المقابل. رأى مكتبة، وكتباً مكدسة أحدها فوق الآخر. "على سبيل المثال هنالك هذه الفتاة! ماذا تدرس يا ترى؟" رأى القط. "ولكنني إذا بقيت هنا يمكنني أن أتخدر. تلزمني النقود!" وهذا أيضاً صحيح. التفت إلى الخلف، ومشى نحو النافذة. "أنا أهرب من اسطنبول لكسب النقود، ولكنني سأفتح اسطنبول." كان ثمة كومتا غيوم فوق الأسكودار. "لعلني أبالغ بهذا المدعو فتحاً، وأتوق إليه. احذر أن تكون الأمور التي تعلمتها في أوربا هراء؟" والتفت من جديد، وكان يمشي نحو الجدار. "ولكن لا! لدي ما أتعلق به. أنا لا أشبه الآخرين. لدي جرأتي! أين تأخرت هذه المرأة؟" وعاد عندما سمع وقع أقدام. "إنها تجلب الشاي!" التفت إلى الباب، ونظر شارداً: "آ، هذه ناظلي!"

قالت ناظلي: "لا تؤاخذني، لم أستطع الصعود، كنت أعلم ابن الجيران اللغة الإنكليزية."

انتبه عمر أن وجهها احمر، فابتسم: "طبعاً، طبعاً. هذا يعني أنك تعلّمين الإنكليزية؟"

قالت ناظلي: "كنت تمشي رواحاً ومجيئاً داخل الغرفة على الأغلب!"

قال عمر مندهشاً من طول عنق الفتاة: "سأغادر اسطنبول بعد ثلاثة أيام!"

"ياه! إلى أين تذهب؟"

"إلى كماه!"

جلست ناظلي على الأريكة التي يضطجع عليها القط، ووضعته في حضنها. "هذا يعني أنك ستذهب إلى الشرق؟"

قال عمر فجأة: "هل أرسل لك رسائل من الشرق مثل مونتسكيو؟ وارتبك. "لا، لا. كانت تلك رسائل من إيران، أليس كذلك؟ لا، لم يكن هو. رسائل إيراني... هل قرأتها؟"

قالت ناظلي: "قرأتها!" ولم يكن يفهم شيئاً من وجهها.

قال عمر: "إنك تقرئين كثيراً على الأغلب." وبدا كأنه يتذكر شيئاً، فقال: "أنا مؤمن بضرورة العيش!" ونهض واقفاً. كان يجد نفسه ساذجاً جداً.

قالت ناظلي: "نعم، ولكنك رجل!"

في هذه الأثناء دخلت الخالة. يبدو أنها وجدت في حديث الشابين ما يجعلها معجبة بهذا الوضع فوراً. فجلست في زاوية كظل حيث لا تشعرهما بوجودها، ولكن عمر انتبه إليها. وكان مدركاً أنها تسمع كلماتهما بانتباه.

"صحيح! أعرف مدى صعوبة عملك. العالم هنا بالنسبة للنساء جهنم حقيقة. يحكمون عليكم بالسجن داخل البيت!" قال هذا من دون أن ينظر إلى جميلة خانم.

قالت ناظلي: "ليس إلى هذا الحد. ثم إن الإنسان يمكنه أن يتجاوز الحدود قليلاً!"

فكر عمر: "يا إلهي كم هي ذكية! لديها شخصيتها... هذه العبارة: يمكن أن يتجاوز الحدود... هذا شيء لا يستطيع قوله أي كان. وفوق هذا، فهي محببة." وجد نفسه تافهاً.

قالت ناظلي: "غير هذا ثمة ثورات عندنا!.. ونحن متقدمون جداً في بعض الجوانب!"

قال عمر: "نعم!"

"ولكنك غالباً تستهين بالثورات!"

"لا، لا. احذري من هذا الاعتقاد. طموحي وعصاميتي..."

أنبت جميلة خانم ناظلي قائلة: "آ، ما هذه الأمور التي تقولينها للضيف!"

قال عمر فجأة: "أنا أرى نفسي فاتحاً!"

ومرة أخرى أجابت جميلة خانم: "ولكن ذاك عندما أخذ اسطنبول كان أفتى منك. ولكم كان وسيماً، أليس كذلك؟ وأنت أيضاً وسيم ما شاء الله!" ونقرت على الخشب بيدها.

خشي عمر أن يصبح مستوى الحوار أدنى، ففكر: "نعم، ذكية ومحببة!" كان لا يرغب بمزيد من الحديث، وأن يشرب الشاي، ويذهب.

قالت جميلة خانم: "صرتم الآن شباباً كباراً، تتكلمون بجد، ولكنني أعرف مستواكم هذا!" وضحكت. وحكت عن ذكرى حول طفولة ناظلي. بعد ذلك، ما إن بدأت بالثانية، حتى غضبت ناظلي:

"رحماك يا عمتي العزيزة، ترويها لأي أحد."

"عمر ليس أي أحد. حسنٌ، حسنٌ. لأجلب لكم شاياً!"

قال عمر بعد خروج المرأة: "لعلها تضغط عليك!"

قالت ناظلي: "نعم!" وحركت يدها حركة عصبية. "غير ممكن إلى هذا الحد!" رفع القط النائم في الحضن رأسه متأثراً بالحركة.

قال عمر: "ها أنت ترين، الثورة لم تدخل حتى إلى بيت نائب للشعب!"

قالت ناظلي: "لا! أبي يسكن في أنقرة!"

بعد ذلك بدأ صمت.

بعد قليل دخلت جميلة خانم منتشية وبيدها صينية الشاي. قالت إنها أعدت قطع خبز بالمعقود، وتحدثت عن شبابها بنشوة. ثم أنبت ناظلي لأنها لم تتناول من قطع الخبز، والتفتت إلى عمر: "هذه لا تأكل شيئاً أبداً. لا أعرف ما سيحدث. إنها نحيفة جداً، أليس كذلك؟"

قال عمر: "لا يا روحي! إنها كما يجب أن تكون!" واعتقد مرة أخرى أنه أخطأ القول.

قالت الخالة جميلة: "كل أنت منها أيضاً! أحضرت لك أيضاً!"

تناول عمر إحدى قطع الخبز ليبدو أنه فعل شيئاً، وقضمها من زاويتها. كان يشعر بأنه غريب يلقي كلامه جزافاً، أو مخبول تقريباً. وفكر: "ثمة ما يربط يدي ورجلي في هذا البيت على الأغلب! أساساً هناك جو كهذا في

اسطنبول كلها! لماذا أجلس هنا أساساً؟ لأنهض!" ولكنه لم ينهض. جلس وكأنه يريد أن يسكب جهله هذا الذي لم يتعود عليه. كأنه ينتظر شيئاً، ولكنه لا يعرف ما هو، وهو يجلس لمعرفته و فكر ذات لحظة: "بقي لي في اسطنبول ثلاثة أيام. ومازلت أتسكع في هذا البيت! رغم أنني يمكن أن أخرج إلى بيه أوغلو، وألهو، وأمرح قليلاً." ولكنه جلس شاعراً بوجود شيء هنا لن يجده في بيه أوغلو. استمع إلى جميلة خانم التي تقفز من موضوع إلى آخر. ثم تمتم فجأة: "عزمت على أن أكون فاتحاً!" ووقف.

"يتوجب علي أن أذهب!"

قالت جميلة خانم: "أنت ذاهب. أنت ذاهب ها! إلى كماه... متى ستعود؟"

قال عمر: "من يعلم متى؟" وانتبه إلى أنه دخل جو الوحيد العازب الذي ينتظر من يفهمه، فخجل. كان يخجل بشكل دائم في هذا البيت.

"سلم على خالتك، وزوجها."

كانوا قد وصلوا إلى الباب. وكان عمر ينظر إلى ناظلي، ويحاول قراءة وجهها، ولكنه لا يجد ما يريد، أو يعتقد أنه لا يجده. وفي النهاية خطر له أن يمازحها، فقال: "هل أكتب لك رسائل من إيران؟"

قالت ناظلي: "اكتب، اكتب!" كأن الشيء الذي بحث عنه في وجهها قد ظهر فجأة.

قالت جميلة خانم: "هل ستذهب إلى إيران أيضاً؟"

قال عمر: "لا، إنني أمزح! أصلاً لم يكن ذاك عنوان الكتاب." وارتاح كأنه خرج إلى جو صاحٍ.

قالت الخالة بصوت تحاول أن تبعث فيه السلوان: "إلى أين تذهب في تلك الأماكن البعيدة؟ ليفتح الله لك طريقك! الله يعينك!"

قال عمر: "سأكتب لكم، وأخبركم!" ونزل الدرج، وكان يجد نفسه معافى وذكياً.

8

نساء في بيه أوغلو

تعرقت نيغان خانم وهي تصعد الدرج. قالت منتبهة إلى خفقان قلبها، والنبض خلف أذنيها: "كأن هذا الشهر ليس شهر تشرين الأول، بل الصيف!" مع أن الصيف قد انتهى، ومضى شهر على انتقالهم من بيت جزيرة هيبلي إلى نيشان طاش. والآن في مطلع تشرين الأول، ثمة شمس حارّة في الخارج، وفي بيه أوغلو.

قالت نيغان خانم وهي تنظر إلى بريهان: "كان هنا، أليس كذلك؟"

هزت بريهان رأسها، وضغطت على الجرس. كان هذا بيت معلم عائشة الجديد للبيانو. لم يكن المجيء طوال الشتاء مرتين في الأسبوع إلى البناء التجاري قبيل منطقة النفق بقليل، والصعود أربعة طوابق، والوقوف في فسحة الدرج التي تفوح منها رائحة العفن والغبار مضايقة أبداً لنيغان، ولكنها تريد أن تقدر ابنتها قيمة ما تفعله أمها من أجلها.

فتحت الباب الخادمة المياومة التي فتحت الباب في المرة السابقة. انتقلوا إلى غرفة علقت على جدرانها صور سادة راقين ذوي لحى نظيفة، وانتظروا. كان ينبعث صوت بيانو من الداخل. نظرت نيغان خانم إلى ساعتها. كانت الرابعة إلا خمس دقائق. وكانت بريهان تجلس مقابلها، وتتصفح مجلة. شعرت بعد ذلك بالضيق، فنهضت، ونظرت من النافذة. سيطر على نيغان

شعور الانتظار في عيادة طبيب. لا يبدو أن صوت الموسيقى القادم من الداخل سينتهي بعد قليل. وفكرت: "يا للمصاعب التي نتحملها من أجل أن نعلم هذه البنت البيانو!" خطر ببالها أنه ليس هناك أحد في هذا الوقت، وخاصة الشباب، يقدر قيمة شيء.

بلغت الثامنة والأربعين من عمرها في تشرين الأول من عام **1936**. كانت تجلس على كرسي يصر، وترمق كنتها بطرف عينها. "مازالت هذه الفتاة طفلة!" كانت بريهان تستند جبينها على زجاج النافذة، وتنظر إلى الخارج. فكرت نيفان خانم: "عندما كنت بعمرها..." وحسبت: "بريهان في الثانية والعشرين من عمرها. عندما كنت بعمرها، أي في عام **1910** بحسب التقويم الجديد، وضعت ولدي الثاني!" شعرت بالتباهي، فرفت بجفنيها. أحياناً تجد نفسها معذبة كثيراً، وأحياناً تشعر بأن حقها قد سلب. وهي الآن تتحمل العذاب من أجل الثالثة هذه، البنت الطائشة، وتنتظر متضايقة. ولكي تسلي نفسها، فكرت: "بعد أن نأخذ عائشة، سنذهب إلى ليبون!"وعدت ليلى خانم باللقاء هناك في الرابعة والربع.

صمت البيانو. كأن كماناً بدأ يصك غالباً، وخيم صمت قصير. ثم سُمعت تركية المعلم المجري الركيكة، ووقع أقدامه. خرج أولاً من الباب المفتوح شاب وسيم شاحب الوجه يحمل بيده حقيبة كمان. وفي أثناء تفكير نيفان خانم بمن يكون هذا، رأت عائشة. كان خلفها المسيو بلاتزا، ويبتسم مفكراً. لديه لحية مثل تلك المشذبة في الصورة المعلقة على الجدار. دبت الحيوية فيه عندما رأى نيفان خانم وبريهان. صافحهما وهو يتمتم بكلمات. كان رجلاً قصير القامة ممتلئ الجسم. لا يوحي بأنه معلم بيانو، ولكنه يجيد قول الكلمات الظريفة. عند خروج نيفان خانم من الباب كانت تفكر: "إنه رجل راق! مهما يكن فهو أوربي!" وحين كانت تنزل الدرج. خطرت ببالها أفكار غريبة: "ولكن مع الأسف!" إنه معلم بيانو.

خرجن إلى بيه أوغلو من جديد. ولكن السماء لم تكن حارة في الأعلى، بل كان هناك غيوم متململة مستعجلة. وكأن الهواء الساخن والضعيف يلفح وجوههن وكأنه يخرج من فوهة فرن. فكرت نيفان خانم:

"ثمة عاصفة قادمة!" وعندما انعطفت عائشة نحو التقسيم، نادتها: "ليس إلى هناك. سنشتري سكاكر."

"ألسنا ذاهبين إلى البيت؟"

بدت نيغان خانم كأنها ستغضب. إنها متسامحة إزاء الطفولة، ولكن ليس إزاء الدلال!

قالت بنبرة حازمة: "سنذهب إلى ليبون أولاً. وعدنا خالتك ليلى. وبعد ذلك نذهب إلى البيت.."

عبست عائشة. فحاولت بريهان أن تشرح لها أمراً. كأن الشعور نفسه قد سيطر على نيغان خانم: لا يعرف الأولاد قيمة أي شيء. وبدأت تنظر إلى الواجهات.

لم يكن هناك الكثير أيضاً في الواجهات. بعد عودتهم من الجزيرة بحثت عن قماش ستائر لغرفة النوم، ولكنها لم تجد شيئاً جيداً. واليوم أيضاً بعد دخولها وخروجها مع بريهان إلى كل تلك الدكاكين، لم تجد غير ذلك القماش القطني المزهر بالأزرق. لم يكن هناك شيء في الدكاكين. لم يكن ثمة شيء في تركيا في أي وقت أصلاً. هذا مخزن خريستودياديس الشهير مثلاً. ما الذي يجذب النظر في واجهته من نظرة واحدة؟ ثمة أقمشة قطنية مزهرة سيئة شدت من هنا وهناك بخيوط، وبضاعة محلية تفقد ألوانها بعد فترة قصيرة، وثوب جاهز ألبس لدمية جامدة الوجه. ليس ثمة شيء. شعرت نيغان خانم بالغضب. وابتعدت عن الواجهة.

تلفتت حولها. فلم تر عائشة وبريهان. فكرت: "غابتا!" وقفت حيث هي. لم تجد ما تبحث عنه على الرصيف المتجه نحو النفق. كانت البقع الذاهبة والآيبة لأناس آخرين. نظرت إلى الرصيف المقابل أيضاً: الأمر نفسه هناك أيضاً. ثم رأت شعر عائشة المجدول من بعيد على الرصيف الواقفة عليه. كانت بريهان تستند إليها. يتكلمان فيما بينهما، وقد نسيا نيغان خانم. شعرت نيغان خانم كأنها تعرضت للظلم. وفكرت بأنها يجب ألا يسيطر عليها شعور كهذا، ولكنها عندما سارت ناظرة إليهما استيقظ بداخلها شعور آخر. بعد ذلك، انتبهتا لغيابها: وقفتا، والتفتتا إلى الخلف، تلفتتا لعدة ثوان، ثم رأيا نيغان خانم، وبدأتا الانتظار.

عندما وصلت نيفان خانم إليهما، سألتهما: "بماذا كنتما تتحدثان لنرى؟" أضافت إلى نبرة صوتها شيئاً من الاتهام، والحدة.

قالت بريهان: "لاشيء!"

نظرت إليها نيفان خانم مقطبة حاجبيها. كان موقف عائشة يوحي بشعور بالذنب، والتوتر. ألحت نيفان خانم: "شردتما هكذا، وذهبتما! ماذا كنتما تتكلمان؟"

اتخذت عائشة موقف الحزم: "لماذا تأتون لاصطحابي؟ يمكنني العودة إلى البيت وحدي. كيفما كان فأنا آتي من المدرسة إلى هنا وحدي!"

هذا هو الأمر إذاً! إنها ممتعضة من مجيء أمها لاصطحابها! وشعرت نيفان خانم بأن الغضب يسري في كل مكان من جسمها. هذا هو إذاً! كان ثمة أناس يمرون على الرصيف. وخطر ببالها أن تصرخ وتعربد في وجه هذه البنت الوقحة، والقيمام بما لا يمكن لها أن تتساه. كانت السماء ملبدة صفراء في الأعلى، ويتطاير حمام أمام نافذة. كن يقفن أمام محل المعجنات. وهبت ريح. ودخلت نيفان خانم بحركات حادة؟ ثم دخلت ابنتها وكنتها من خلفها.

جلسن على طاولة صغيرة. لم تأت ليلى بعد. طلبن من النادلة شاياً وكاتو. وخيم بعد ذلك صمت طويل. أدركت نيفان خانم أنها لن تستمتع بجلسة محل المعجنات. فكرت: "هذا يعني أنها ممتعضة من مجيئنا لاصطحابها!"

"لماذا لا تريدين أن نأتي لاصطحابك؟"

كانت عائشة صامتة، تنظر أمامها كأنها مذنبة. هذا يعني أنها شاعرة بذنبها.

"لماذا لا تريدين، لماذا؟" من أجل أن تجيب هذه البنت يجب أن يعاد عليها السؤال خمس أو ست مرات، وأن توخز في رأسها.

"لماذا لا تريدين، قولي لماذا؟ هل تخجلين من المسير مع أمك في الطريق؟ قولي لماذا؟"

تمتمت عائشة بصوت دلال: "لا أخجل!"

"لماذا إذاً؟ لماذا لن آتي لاصطحابك؟ هل هو قليل الجهد الذي بذلته لإيجاد معلم البيانو هذا؟ كل شيء من أجلك. قولي لنرى، لماذا لا تريدين؟ قولي، لماذا؟"

بدأت عائشة بالبكاء.

وفكرت نيفان خانم: "آه، هذا ما كان ينقصنا! فوق هذا وسط الجميع!" نظرت فيما حولها. كان هناك رجل أنيق على طاولة أمام الواجهة يقرأ جريدة. ثمة امرأتان تجلسان على الطاولة في الجهة اليسرى تشربان الشاي، وتتضاحكان. دققت بهم نيفان خانم قلقة: لم ينتبه أحد. وفكرت: "هل أنبتها كثيراً؟" وشعرت بالسأم. قالت لنفسها: "يجب تزويج هذه البنت. لابد من تزويجها في أسرع وقت ممكن. إذا لم تتزوج فستكون عصبية، ومدللة، وبكاءة. انظر إلى حالها هذه! على أساس أنها بلغت السادسة عشرة... يجب أن تُزوج!"

اقترب رأس عائشة من صدرها، ودخل ما بين كتفيها.

"هيا امسحي دموعك، وعينيك. انظري، الشاي قادم!"

جاء الكاتو مع الشاي. ولكن الكدر كان قد خيم على الطاولة. لا يمكن للإنسان أن يسلو نفسه بالنظر إلى الفناجين الجميلة. بدأن بتناول الكاتو دون أن يتحدثن بأي شيء. فكرت نيفان: "بدأنا بالأكل من دون انتظار ليلى!" ولكنها لم تبال لهذا كثيراً. كانت تفكر بعائشة. "حسنٌ، لمن نزوج هذه البنت؟" قررت أن تفتح هذا الموضوع مع جودت بيك. ثم تراجعت بعد ذلك. كانت نقطة ضعف جودت بيك الوحيدة هي هذه البنت المدللة: إذا فتح موضوع الزواج، فهو بالتأكيد سيعبس، ويحزن، ويقول إن وقته لم يحن بعد. كانت عائشة تفرك عينيها بيدها من دون إخراج منديلها. وبدت بريهان حزينة. "لمن يمكن أن نعطي هذه البنت؟ لمن يمكننا أن نعطيها؟" خطر ببالها أولاد صديقاتها، ومعارفها الراشدين، والشباب الدارسين جيداً... "كيف عمر صديق رفيق؟ أو ابن رزان الكبير..." كانت تقطّع الكاتو الذي أمامها إلى قطع صغيرة، وترشف الشاي، وتتمتم لنفسها كأنها تردد أغنية: "لمن يمكننا أن نعطيها؟ لمن؟ لابن نصرت بيك الصغير... ماذا يدرس ابن صبيحة في باريس؟ إنها تنسى غضبها على الأغلب، وتستمتع

بالكاتو، وبما يخطر ببالها. كانت تستعرض مرشحي الصهر واحداً واحداً فيما هي تنظر إلى عائشة المتوقعة أمامها، كأنها تلعب لعبة خفيفة ممتعة.

فتح باب محل المعجنات. ودخلت ليلى خانم بحركات سريعة وسليمة. فكرت نيفان خانم: "آ، لابن ليلى طبعاً! لرمزي..." حاولت تذكر الولد الذي لم تره منذ عيد الأضحى. واقتربت ليلى مبتسمة. فكرت نيفان خانم: "سنتبادل القبل!" ومدت رأسها إلى الأمام. كان خدا ليلى دافئين، تفوح منهما رائحة ناعمة. راقبتها نيفان في أثناء تقبيلها بريهان وعائشة. حسنٌ، رمزي هو الأنسب، جلست ليلى إلى الطاولة. كانت منتشية ومنفعلة كما هي دائماً. طلبت الشاي والكاتو، وبدأت تتكلم فوراً.

كان لدى ليلى خانم الكثير مما تحكيه. لقد انتقلوا تواً من المصيف في سعادية إلى شيشلي. ولعدم لقائهما صيفاً كان هناك الكثير مما تراكم من الأحداث. بداية حكت عن عرسين أقيما قرب نهاية الصيف. كانت نيفان خانم تتأسف لعدم ذهابها إلى ذنيك العرسين. وعندما استمعت لقصتهما، أدركت أنها لم تفوت الكثير، ففرحت. ثم استذكرت زيارة ملك إنكلترا في نهاية أيلول: قالت ليلى إن الملك كان مرتدياً ألبسة رياضية فاتحة اللون أثناء الفرجة على سباق المراكب الشراعية في منطقة موضة برفقة الغازي (أتاتورك). كانت برفقته امرأة أخرى يتجول معها، ليست زوجته، وهناك شائعات حول هذا الموضوع. وحكت عن تلك الشائعات. ونيفان خانم أيضاً رأت الملك، ولديها ما تحكيه: عندما خرج مع الغازي من قصر ضولمة بهتشة إلى بيه أوغلو في اليوم الأول، مرا من أمام بيتهم في نيشان طاش. كان الملك يرتدي طقماً رمادياً داكناً مخططاً بالأبيض، وقميصاً رمادياً فاتحاً، وربطة عنق سوداء. خرجوا إلى الحديقة، وانتظروهما، وصفقوا عندما مرا. قالت ليلى خانم إن الملك أكثر وسامة مما يبدو في صوره المنشورة بالجرائد، ولكن الغازي أوسم منه. ثم قررن أن يطلبن الشاي مرة أخرى. حكت ليلى عن التسوق الذي قامت به في بيه أوغلو: وهي أيضاً لم تجد شيئاً جيداً. تنهدت نيفان خانم بشكل استعراضي: وحكت عن عدم وجود أي شيء في تركيا منذ فترة. ثم قالت ليلى إنهم يريدون الذهاب إلى أوروبا في نهاية الشتاء. حزنت نيفان خانم: لأن

جودت بيك رغم بيعه بضائع لأوربا، وشرائه منها فهو لا يحب السياحة إليها. لم يذهبا إلى أي مكان بعد زيارتهما لبرلين تلك. جلبت النادلة الشاي الجديدة. فنظرت نيغان خانم إلى عائشة بطرف عينها: إنها لم تأكل الكاتو، والفنجان الذي أمامها مليء. لم تستطع ضبط نفسها، فقالت:

"سيبرد شايك! هيا، اشربيه!"

وفكرت: "قطعت كلام ليلى!" ليلى أيضاً التفتت إلى عائشة، وابتسمت لها. فكرت نيغان: "يجب أن تزوج هذه البنت!" ثم انتبهت إلى أنها تريد أن تعاقب عائشة. اتخذت موقف الحزين، وأشارت نحو عائشة بعينيها.

"أتعرفين ما قالته لي قبل قليل؟ لا تريدنا أن نأتي لاصطحابها بعد درس البيانو!"

قالت ليلى: "لم تقل هذا، لم تقله!" وضحكت.

بدت نيغان خانم متضايقة. لم يكن أحد يأخذ أحداً على محمل الجد. لا توجد أي قيمة للكلمات.

شعرت أنها تريد أن تفعل شيئاً ما، فقالت: "قالت، نعم قالت. وبريهان أيضاً شاهدة."

وجدت نفسها ساذجة عند خروج هذه الكلمات من فمها. وفكرت: "لا أستطيع حتى تأنيب ابنتي كما أريد!" ولكنها شعرت أيضاً بأنها أخطأت بالتفكير. "يجب إعطاء عائشة إلى رمزي!" لا، وهذا أيضاً غير مناسب الآن. انتشر ضوء خافت مزعج في محل المعجنات. فحاولت سلوان نفسها فترة بالتفكير بهذا. ثم قررت أن تشتري من محل المعجنات سكاكر بالفواكه. من أي سكاكر يجب أن تشتري؟ كانت تأكل مع المرحومة أمها طوال الشتاء سكاكر الأجاص. استمتعت بتذكر ذلك، وبدت كأنها وجدت سلواناً. لمع برق، وغمر ضوء أزرق كل شيء. بدأ المطر ينقر على زجاج محل المعجنات. فكرت نيغان خانم: "سنعود إذاً بسيارة أجرة!" وانتبهت إلى أنها ترف بجفنيها.

9
نهاية يوم

فكر رفيق عندما وصلت الترامواي إلى الحربية: "علي ألا أنزل الآن! لأمشِ إلى نيشان طاش من عثمان بيه!" كان المطر يزخ خفيفاً حين ركب الترامواي من أمينونو. ثم تسارع الهطول في قرة كوي، وكان قد بدأ هطول غزير مازال مستمراً في شيشهانة. يلمع البرق أحياناً. فيما كان الركاب ينظرون من النوافذ صاخبين. والترامواي تهتز اهتزازاً خفيفاً على السكة، وتتقدم منزلقة إلى الأمام مثل سفينة في جو عاصف. أدرك رفيق أن المطر لن يهدأ حين وصل إلى عثمان بيه. وفكر: "هل سأركض؟"

نزل من الترامواي، وسار بسرعة، ثم بدأ يركض. وفكر: "لولا العيب لعدت إلى المكتب. في أثناء عودتي إلى المكتب الذي خرجت منه باكراً، يقبض علي المطر الغزير، وأركض!" كان يركض، ويشعر بالحنق في آن واحد. كل شيء بسبب هذا: كان مكتفياً بالحياة اليومية. لا يريد أن يخرب سير حياته شيء مفاجئ، أو إزعاج غير متوقع، فيحمي نفسه من المطر. يحذر أن يطأ في نقع الماء المتشكلة على الرصيف هنا وهناك، وينتبه للطين كي لا يلوث بنطاله، ويركض تحت أنظار الناس المتجمعين على النوافذ، وتحت السقيفات.

توقف كأنه تذكر شيئاً فجأة. وبدأ يمشي ببطء. ازداد هطول المطر. قال لنفسه بعد فترة: "يا لهذا العبث!" وقرر أن يدخل تحت سقيفة. لم تكن ثمة سقيفة قريبة يمكن اللجوء إليها. فجدران الحدائق الواطئة تمتد بعيداً. نظر إلى الشارع القفر مستمعاً لهدير المطر.

اقتربت سيارة أجرة من الرصيف. فكر رفيق: "لو أنني وجدت سيارة أجرة فارغة على الأقل!" ثم بدا له أنه يسمع صوتاً مألوفاً. التفت، وشعر بالدهشة: مدت بريهان نفسها من نافذة سيارة الأجرة، ونادته. ركض، ودخل إلى السيارة.

قالت بريهان: "كم أنت مبلل."

أمه أيضاً تدخلت بالحديث، وبدأت تتحدث: ذهبن إلى بيه أوغلو لاصطحاب عائشة، والتقين ليلى في ليوبان، وعندما هطل المطر غزيراً ركبن سيارة أجرة أقلت ليلى إلى شيشلي أولاً، دهشن عندما رأين رفيقاً... يتحدثون، ويتمازحون، ويقولون أحياناً كم ابتل رفيق، ويبتسمون. كانت هذه عائلة سعيدة: انتبه رفيق إلى أن السعادة تلفه من كل جانب كلحاف جاف ناعم، وشعر بالدهشة. فبدأ يمازحهن أيضاً.

عندما وصلوا إلى البيت، صعد رفيق مع بريهان إلى غرفتهما في الأعلى، وانتبه إلى أنه أراد أن يتصرف كطفل. فخلال تجفيف بريهان رأسه بالمنشفة بدأ يصدر أصواتاً كالأطفال، ويشتكي قليلاً، ويتأوه، ويتأفف. وحينما بدل ألبسته الداخلية قام ببعض الممازحات. وانفعل عندما رأى بريهان تضحك مستمتعة: سحب الغطاء من فوق السرير، والتف به ممثلاً دور السنتور الروماني الذي حاصره أنيبال. أثناء قيامه بهذا نظر إلى بريهان الجالسة أمام الكوميدينة، وفكر بأنها تضحك. قال لنفسه: "نتمازح، ونضحك. وقبل قليل كنت أتكلم بتعقل تحت المطر!" كان واعياً لنشوته من جديد. عندما قرع الباب، وجلبت أمينة خانم الشاي، تمتم قائلاً: "انتهى! سينتهي الانفعال الآن. سأشرب الشاي. وسيبدأ التعقل الهادئ، وتفوق العقل!"

جلس رفيق مقابل بريهان على الأريكة المجاورة للنافذة.. أسندت بريهان مرفقيها إلى الكوميدينة، تنظر إلى المرآة أحياناً. كان رفيق يشعر بأنه قط أليف. فكر: "تذكرت أنني مواطن! مواطن يعمل في المؤسسة التي أسسها أبوه، ولا يستمتع كثيراً بالجلوس في المكتب، وخرج من هناك قبل الجميع هارباً إلى بيته. وهو الآن يجلس مع زوجته وسط أثاث غرفة نوم من فن الحداثة!" نظر إلى الخزانة التي تذكر تعرجاتها الناعمة، وخطوطها المدورة بنوافذ قمرات السفن، وإلى السرير الكبير. "أنا مواطن... صحيح الجسم، وضعه على ما يرام. لن أتذمر: سأعيش حياة جادة جداً!" سقطت صاعقة في مكان قريب. نظرا معاً من النافذة. أشجار الكستناء المرتفعة تهتز مع الريح.

سألته بريهان: "ماذا فعلت اليوم؟"

فكر رفيق: "كل يوم تسألني هذا السؤال كأنها تسخر مني!" ولكن بريهان تعرف أنني لن أغضب منها بسهولة.

"لاشيء، كالعادة!"

بدأ صمت. وفكر رفيق: "كالعادة! خرجت صباحاً مع أبي وأخي الكبير من البيت. قرأت الصحف في المكتب. ألقيت نظرة على عدة أوراق حتى الظهر. كتبت رسالة طلبية إلى ألمانيا. بعد ذلك، ذهبنا معاً إلى مطعم في سيركجي. بعد الطعام تحدثت مع أخي الكبير حول العمل. وشربنا قهوة مع المحاسب صادق، ودققنا بعض الدفاتر. ثم خرجت، وعبرت الجسر سيراً على الأقدام. ركبت الترامواي. فداهمني المطر."

نظر إلى بريهان، وحاول استنتاج شيء ما من وجهها. كأنه سيقرأ في وجه زوجته من يكون! ثم صحا حين رفعت بريهان خصلة شعر سقطت على جبينها إلى الخلف بحركة حادة.

"حسنٌ، ماذا فعلت أنت؟"

قالت بريهان: "أنا؟" وبدت مندهشة. لم يكن رفيق يسألها عن هذا كثيراً.

"هيا، احكي لي!"

"خرجنا للمشي صباحاً. كم كان الجو جميلاً في الصباح! شممنا الهواء! ومشينا حتى ذلك المقهى الذي في طوب أغاج!"

صمتت وهي تنظر إلى وجه زوجها. انتبه رفيق إلى أن بريهان تريد أن تحكي. وأنه سيستمتع بسماعها.

"احك بشكل مسهب حتى التفاصيل!"

قالت بريهان: "جلسنا في الحديقة الخلفية بعد ذهابك! تابعت تناول الإفطار مع أمك ونرمين. وتحدثنا عن أشياء متفرقة."

"بماذا تحدثتم؟"

"آ، ما يحدث دائماً. بداية تحدثنا عن الحديقة. لقد نمت أشجار الكستناء كثيراً. وحكت أمك كيف كانت تلك الأشجار عندما أتت إلى هنا أول مرة قبل ثلاثين سنة. حقاً، كم سنة تعيش شجرة الكستناء؟ تحدثنا عن أمور كهذه، وعن عدم العناية بالحديقة، وما شابه... وعن عدم مرور البستاني عزيز أبداً. ذمت أمك عزيزاً قائلة إنه لن يستطيع تهذيب الحديقة، وهو مشغول بدكان الخضار الذي فتحه أكثر من انشغاله بالحديقة، وعن ضرورة إيجادنا بستانياً آخر، ولكننا في النهاية قررنا أنه الأفضل. وفيما شربنا الشاي، كانت أمك تحيك. وقرأت نرمين الجرائد. وساعدتُ أمك بالحياكة، عددت القطب، وجربتها، وما شابه ذلك... في الساعة الحادية عشرة قررنا المسير إلى طوب أغاتشِ. دخلنا. جئتُ إلى الغرفة، ولملمتُ السرير، ورتبته. شعرت بالضيق. نظرت من النافذة إلى الخارج نحو الحديقة، واتصلت نرمين بصديقتها. وفكرت بأن أتصل أيضاً، ولكنني لم أشعر بضرورة الاتصال بأحد. هل أحكي أكثر؟"

"احكي، احكي!"

" نزلت إلى الأسفل أثناء مكالمة نرمين الهاتفية. دخلتُ إلى غرفة المفروشات الصدفية، وجلست. نقرت على بيانو عائشة قليلاً. أتعرف، أنا

نادمة على تركي البيانو. المهم، فيما بعد ألهيت نفسي قليلاً. خرجت إلى الحديقة الأمامية، ومشيت قليلاً. في الحادية عشرة التقينا أمام الباب. خروج أمك من الباب أيضاً يغدو فرجة. فهي تعلقُ في البهو أمام المرآة الكبيرة، ولا تتحرك. قالت نرمين إنها ارتدت ألبسة حارة جداً. لم تبال أمك. فهي تلبس ألبسة حارة دائماً أساساً. انطلقنا في الطريق. حكت أمك عن نيشان طاشِ القديمة مرة أخرى. من كان يسكن هنا، ومن هو صاحب تلك الحديقة القديمة... وأمور كهذه. ولكنه مسلٍ. نرمين أيضاً حكت عن بعض الأمور. قالت إنهم كانوا يلعبون في باحة الجامع، وفي الحديقة التي في الأسفل عندما كانوا أطفالاً. نزلنا إلى الأسفل من أمام المخفر. مشينا ونحن نتكلم بأمور كهذه. جلسنا في المقهى حيث نجلس دائماً على الطاولة الصغيرة المجاورة للبكرة. هما شربتا شاي. أما أنا فطلبت ماء غازياً. اشترينا حمصاً محمصاً. لم نتحدث بأمور كثيرة في المقهى. صمتٌ على الأغلب. نظرنا إلى الأسفل حيث الوادي. في طريق العودة حكت أمك كيف جن إبراهيم باشا. كنا مارين من أمام داره. لم أكن أعرف... حدثت أمور مضحكة جداً. احد أحفاد الباشا ذهب إلى أمريكا، وصار مسيحياً. بعد ذلك، رأينا رجلاً مسناً يسير مع خادمه. قالت إنه سيفي باشا. قبلت أمك يده. وتحدثا قليلاً. بدؤوا بورشة بناء إلى الأسفل من الجامع في تشويكية. أثار هذا فضول أمك، فذهبت، ونظرت. تناولنا كفتة ومتبل الباذنجان على الغداء. وهناك باذنجان على العشاء أيضاً. بعد الطعام، اتصلت ليلى... كلمت أمك. ولكنك لا تستمع..."

"لا! أستمع!"

"أساساً لم يبق ما أتحدث عنه. نمت قليلاً بعد الطعام. خرجنا إلى بيه اوغلو في الساعة الثالثة. نظرنا إلى الدكاكين مع أمك. لم نجد شيئاً أبداً. ثم اصطحبنا عائشة. وجلسنا في ليبون مع ليلى. وبدأ هذا المطر..."

أحنت رأسها، وركزت نظرها على درج فتحته أثناء الكلام. خجل رفيق من النظر إليها. استند إلى أريكته، وتفرج على الأشجار المرتجفة في المطر. لم يكن في وضع يمكنه من التفكير بشيء. وشعر بقلق خفيف، وخشي من التفكير بنفسه.

بدأ صمت. وعاد المطر للانهمار بعد أن بدا كأنه سيهدأ. نظرا معاً من النافذة إلى الخارج.

سأل رفيق: "أنذهب مساء إلى السينما؟"

اتخذت بريهان حال الخجل: "لنذهب!"

ساد صمت من جديد.

سأل رفيق: "إلى أين نذهب؟"

لم تجب بريهان، وهزت بكتفيها.

فكر رفيق: "لعلها لا ترغب كثيراً بالذهاب!" ثم سأل: "هل الجرائد في الأسفل؟ هناك شيء في جريدة إبيك..." كانت بريهان تهز برأسها و قال رفيق: "لأذهب، وأنظر إلى الجرائد!" ولكنه لم يتزحزح من مكانه. كان يشعر بنفسه خدراً، ولا يجد في نفسه دافعاً للحركة. إنه لا مبال وكأنه يقول: "ذهبنا إلى السينما، أم لم نذهب فالأمر سيان!" كما أنه لم يتأثر بما حكته بريهان أيضاً. ظل يتردد بالتفكير بنفسه، ولا يجد هذا مقلقاً أيضاً. يمكن إيجاد قضايا تخلص الإنسان من ضيقه في هذا البيت بسهولة. خاصة إذا شعر أنه حزين إلى حد التفكير بنفسه، وبريهان، وزواجه، وحتى حياته، يمكنه أن يمازح أمه، ويلاعب أولاد أخيه، أو ينزل إلى الطابق السفلي، وينضم إلى الثرثرة. نزل إلى الأسفل ليلقي نظرة إلى الجرائد. رأى أباه. يحكي لعثمان عن أمر ما و أدرك أنه سيتخلص بعد قليل من الضيق إذا أصغى إليهما.

10
رسالة من الشرق

عندما فتحت العمة جميلة الباب، ورأت أمامها ناظلي العائدة من الكلية، أصدرت صوتاً فرحاً لا يمكن التعبير عنه بالكلمات. كانت تثير هذا الصخب كل مساء عند عودة ابنة أخيها من الجامعة. ثم أطلقت أصواتاً وكلمات أخرى يمكن لناظلي المعتادة على هذا أن تميزها.

"هل جئت؟ هل جئت يا ابنتي؟ خفت أن تبردي إلى حد..."

قالت ناظلي: "لم أبرد!" وخلعت معطفها وحذاءها. وفتحت الخزانة لأخذ نعليها البيتيين.

"قلت لنفسي صباحاً لأخرج إلى تقسيم، وأشتري ملفوفاً، فبردت كثيراً."

قالت ناظلي: "الجو ليس بارداً إلى هذا الحد يا روحي!" ثم فكرت: "أنا كالرجل! أسليها، وأهدئها!"

لم تجب ناظلي بعد ذلك. بدأت تغير ثيابها، وتعيد النظر في نصف اليوم الذي قضته في الجامعة. كانت كلية الآداب في دار زينب خانم في وزنجيلر. مر درسان فارغان، في أحدهما دار حديث، وفي الآخر ترجمة. ثم خرجت من الدار، وسارت مع شباب يحبون تقمص شخصية الأخ الكبير حتى البركة في بيازيد، وركبت الترامواي، وفكرت وهي تهتز داخلها.

اغتسلت، ولبست، ثم انتقلت إلى البهو. وجاءت جميلة أيضاً إلى البهو من خلفها. قدمت العمة موجزاً لأحداث اليوم أثناء شربهما الشاي التي أحضرتها. دخل القط إلى خزانة الأحذية، ولم ينتبه إليه أحد، وحبس الحيوان المسكين هناك ساعات في إحدى الجرائد ورد ذكر أبيها. وهناك رسالة أخرى من عمر. وفيما كانت جميلة خانم تنطق الجملة الأخيرة تلون صوتها ووجهها.

فتحت ناظلي الجريدة، وقرأتها: "نشاطات ثقافية في مانيسا... تحول محيط البيت الشعبي في مانيسا إلى منطقة ثقافية. فتحت مكتبة بجوار السينما التي قدمت فيها مسرحيات العام الماضي، وحفلات سمر في الربيع، كما تعقد فيها الاجتماعات. وقد افتتح المكتبة نائب مانيسا مختار لاتشين."

قالت العمة: "هل قرأتها؟"

"قرأتها!"

"ياه! أترين؟" وهزت جميلة خانم رأسها إلى اليمين واليسار كأنها متعجبة. أرادت فتح حديث صغير حول خبر الجريدة على الأغلب. ولعلها تأمل أن تتحدثا في موضوع رسالة عمر وحول موضوع الخبر.

قالت ناظلي: "عندما تصل جريدة بوسطة مانيسا نرى الصور أيضاً!"

"لقد ابتهجت تلك الساحة كثيراً. مع الأسف، مرت سنوات ولم أستطع الذهاب!"

قالت ناظلي: "يمكنك الذهاب إن أردت يا عمتي العزيزة." ثم سألت منتبهة لنبرة صوتها: "أين الرسالة؟"

"وضعتها في غرفتك. انتظري، انتظري لأحضرها..."

قالت ناظلي: "أنا أذهب، وأنظر إليها!" ولكنها لم تنهض. لم تكن تريد أن تراها عمتها وهي تقرأ الرسالة. شربت الشاي وهي تقلب الجرائد.

حاولت جميلة خانم الحديث عن مشاغبات القط، ولكن هذا لم يثر أحداً. غاب المرح. وكأن الانزعاج قد حل، وكانتا تنتظران من يعتذر لفقدان ذلك المرح. خطر ببال ناظلي بأن عمتها تفكر بالرسالة مثلها.

كان عمر يرسل لناظلي باستمرار رسائل منذ بداية نيسان، أي منذ سبعة أشهر. قال ذات مرة في الخريف إنه سيأتي إلى اسطنبول في نهاية الفصل، ولكنه في رسالة أخرى أبلغهم أنه قضى الشتاء كله بالعمل في النفق، ولن يستطيع المجيء لعدم امتلاكه الوقت. في رسائله الأولى كان يتحدث على الأغلب عن المكان الذي يعيش فيه ويعمل، وعن أناسه، وما رآه بلغة ساخرة. وفي إحدى الرسائل التي أرسلها إلى أنقرة وسط الصيف صرح عن أفكاره حول موضوع أن يغدو فاتحاً كما ذكر من قبل. كان أحياناً يذكر مهندساً ألمانياً يزوره، ويعمل في ورشة قريبة. كما كتب رسالة أخرى لجميلة خانم حول مساعدتها ببيع الدكاكين ومقاسم الأراضي. فقد باع أملاكه كلها بمساعدة زوج خالته المقيم في بكر كوي، ولم تخف جميلة خانم حيرتها وخوفها، فقد تحول كل شيء إلى نقود سائلة.

انتقلت ناظلي إلى غرفتها بعد أن شربت الشاي. وتناولت الرسالة عن طاولتها. ثم جلست على حافة السرير. كانت الرسالة خفيفة قياساً إلى التي تلقتها في الفترة الأخيرة. يجب أن يكون فيها ورقة صغيرة وحيدة. ارتعشت قلقة مما خطر ببالها.

كان عمر في رسائله الأخيرة يتكلم عن نفسه على الأغلب. لعله يفعل هذا لأنه لا يعمل إلا في النفق فقط خلال أشهر الشتاء، وافتقد إلى الزحام من حوله، ولم يصادف شيئاً جديداً، ولكن ثمة ما يقلق ناظلي من أسلوب حديثه عن نفسه. كان يكتب أنه يجد نفسه وحيداً، وأن صداقته مع المهندس الألماني ليست مرضية كلياً. كان يريد أن يعبر عما في داخله، ولكنه يرتب أموره خشية من ظهور ما هو قبيح أو مخيف إذا فعل هذا. ولخشية ناظلي من هذا التحضير فقد كتبت له الرسائل الأخيرة بانتباه. ونصحته بعدم البدء من جديد بالمشروب. وقد باهت بنفسها لأنها استطاعت كتابة هذا، وخجلت قليلاً في آن واحد. كانت تستطيع التوقع أن مهندساً وحيداً عائداً من أوربا، على اطلاع ولو قليل إلى حد ما على الثقافة والأدب وهو سيسلي نفسه بالمشروب في ليل الريف.

فتحت الرسالة بطرف قلم، وقرأتها:

30 تشرين الأول 1936

ناظلي الحبيبة!

أكتب هذه الرسالة سريعاً قبل تلقي جوابك على رسالتي السابقة. لابد أنك ستدهشين كثيراً لما ستقرئينه الآن. سئمت من الكتابة، وتمزيق الأوراق. سأرسل هذه مهما حدث بعد هذا. شربت قليلاً من النبيذ الآن، وانتشيت. مصباح كاز مشتعل في الغرفة الآن. والمدفأة تهدر. أحدهم يشخر في الغرفة المجاورة! المهم، ما سأكتبه لك هو: فكرت، وقلبت الموضوع، وفي النهاية قررت أن أتزوج منك. كيف؟ أنا أرى أن هذا سيكون جيداً! يبدو لي هذا غير متناقض مع مخططاتي الكبرى! اكتبي لي ردك. ولا تتسرعي، ولكن لا تتمهلي أيضاً. لن أكتب لك قبل أن أتلقى ردك، وسأنتظر. يمكنك أن تفكري بأن هذا مزعج، وسيئ! ولكنني أحاول استثارة شفقتك علي. صارت رسالتي سيئة جداً. ولكنني ماذا أفعل، سأرسلها، لأنني أقسمت أمام نفسي ألف مرة على إرسالها. ومن يعلم كم مرة كررت على نفسي أن الكتابة، ثم الكتابة، ثم التمزيق أمر عبثي. مهما يكن! افعلي ما يدفعك إليه قلبك، ولكن لطفاً اكتبي بسرعة. ولا تنسي أن تنقلي احترامي لعمتك كما في كل مرة، أرجوك.

عمر

قرأت الرسالة مرة أخرى. حاولت في قراءتها الثانية أن تصور أمام عينيها حال عمر أثناء كتابته الرسالة. وفكرت: "ماذا سأفعل الآن؟" لم يسيطر عليها الخوف كما توقعت. أرخت جسمها إلى الخلف، واستندت إلى المخدة. وتمتمت: "سأتزوج منه على كل حال!" وقلقت عندما لم تخف من هذه الفكرة أيضاً. ثم بدأت تبحث في الأمر كأنه سيحدث فوراً.

فكرت: "أدركت بأن هذا سيحدث فوراً، لأنني معجبة به. عرفت أنني معجبة به منذ أتى إلى بيتنا في عيد الأضحى." ولكن تلك الأفكار عادية، ومبتذلة كثيراً، لم تجدها لائقة بها. بدأت تعدد: "ذكي، طموح، مبادر، وسيم..." انفعلت عندما فكرت بصفاته واحدة، واحدة. وشعرت بالتباهي

لأن شخصاً بهذه المواصفات أعجب بها. ثم فكرت: "ماذا يقول والدي؟" لم يقل أبوها أي كلمة بحق عمر. أخرج إحدى الرسائل التي أرسلها عمر إلى أنقرة من تحت الباب في الطابق السفلي، وعندما أعطى الظرف لابنته كان ثمة كدر على وجهه. ماذا كانت ستقول أمي لو كانت حية؟ خطر ببالها أن أمها ستبتسم لها، وتمتدح تفكيرها. وكانت ستقول لها بأنها محظوظة لعدم زواجها عن طريق خاطبة. أبوها أيضاً لا يفوت الفرصة في أوضاع كهذه، فيمتدح الثورات، ويتحدث عما فعله عندما كان والياً لمانيسا. قالت لنفسها: "بماذا أفكر؟" ضمت رجليها إلى بطنها، وانكمشت في السرير كحشرة الدعبولة. وتمتمت: "عشق" كانت تلك كلمة مخجلة، لا يمكن قولها داخل العائلة. وإذا قالها أحد غريب، يُتظاهر وكأنها لم تسمع. كل شخص في العائلة يحب الآخر، ولكن الجميع يخشون من صوت تلك الكلمة القبيح، والناشز. يجلب هذا الصوت إلى عقل ناظلي الروايات التي تقرؤها وحدها في الغرفة، ومشاهد القبل التي تريد أن تنتهي بسرعة في الأفلام، وصور بعض النساء اللواتي يستهين بهن الجميع. أعادت تلك الكلمة فجأة ناسية كل تلك الأمور المخجلة، ودهشت. تجلى بعد ذلك أمام عينيها العرس. فكرت بأن جريدة بوسطة مانيسا ستفسح المجال واسعاً لهذا العرس. تمتمت: "كيف سيذكرون عمر يا ترى؟ المهندس الشاب الذي درس في أوربا..." خجلت مما فكرت فيه. فكرت بما سيقوله زملاء الجامعة... سيقولون: "شاب لطيف، مهندس وسيم." قررت مرة أخرى بأنهم فارغو العقول جميعاً. فكرت: "لن أذهب بعد ذلك إلى الكلية أيضاً. أنا غير مسرورة من تلك الدروس الفارغة، ومن الجو السيئ هناك." تمتمت: "حسنٌ، ماذا أريد أنا؟ أن يسعد الجميع، ليكون الجميع بخير، وليضحكوا، وليكونوا أذكياء. لأكتب له بسرعة كي لا يعتاد على المشروب!" ونهضت من السرير. خطر ببالها أن تفتح الخزانة، وتنظر إلى المرآة. فتحت الخزانة من دون أن تفهم سبب هذا، وجدت نفسها مرحة، وبصحة جيدة. وفكرت: "كم هذا سهل!"

11
عطلة في بشيك طاش

قال محي الدين: "زواج عمر سيكون مدعاة للسخرية ها!"

نظر رفيق نظرة خاوية: "لماذا؟"

فكر محي الدين: "صحيح، أنا لا أستطيع أن أقول له هذا! فهو تزوج عن وعي ورغبة. كيف يمكنني أن أشرح هذا لزوج سعيد يتراخى مع مرور الأيام؟ ونظر إلى بريهان الجالسة بجانبه بطرف عينه.

"حقاً، لماذا سيكون مدعاة للسخرية؟"

كانوا يشربون الشاي في مقهى بجانب مرسى بشك طاش. كان يوم الأحد الأول من عام 1937. ثمة رجل أقرع يقرأ جريدة بجانبهم مباشرة. وهناك عدة عائلات متوسطة الحال تجلس في المقهى.

قال محي الدين: "لا أدري، هذا ما خطر ببالي!"

"لا، لا. إنك تريد أن تقول شيئاً ما."

كانوا ينظرون إلى البحر ويتكلمون بآن واحد. إنه يوم أحد، يوم الفرجة على البحر والثرثرة، ومراقبة المارة، وقضم البذر. كان ثمة سماء صافية، وشمس في الأعلى.

"لا أدري، يبدو لي غريباً هذا الأمر المدعو زواجاً!"

قطب رفيق وجهه. يبدو أنه كان يخاف أن يقود الحديث موضوعات مزعجة. ولم يكن يحب أبداً أن تفتح مواضيع كهذه أمام بريهان. كانت بريهان تنظر إلى الزوارق القادمة من أسكودار، والركاب النازلين من تلك الزوارق.

قال رفيق: "أفهمك، ولكنك الا ترى أنك تبالغ في كل شيء؟"

"ممكن... ولكنني عندما أفكر بتلك السنوات التي قضيناها في كلية الهندسة..."

"نعم؟"

"كان يبدو لي أننا لن نتزوج أبداً."

"حقاً؟"

فكر محي الدين وهو ينظر إلى زورق يفرغ ركابه: "لا، لا. لا أستطيع شرح له هذا! فوق ذلك، هو شخص مناسب تماماً للزواج ضائع وسط عائلة. لماذا لم أفكر بهذا أبداً؟" وفجأة أراد أن يضايق رفيقاً قليلاً. شعر بأن هذا أمر سيئ لا ضرورة له، ولكنه لم يستطع ضبط نفسه.

"أنت مثل عمر لم تكن مثلي قط. كانت العائلة والحياة اليومية تجذبك على الأكثر. الآن أفكر بأن صداقتك معنا مجرد..." وفجأة صمت خجلاً، ثم قال على عجل: "لا تهتم، لا تهتم!"

قال رفيق: "تزوج أنت أيضاً، وانخرط بالحياة، ولينته هذا الأمر."

"لن أستطيع إنهاء هذا الأمر بسهولة!"

"ما وضع كتابك الشعري؟"

"جاهز، إنه يُطبع."

"لئلا يلهيك ذلك الرجل مرة أخرى؟"

"لا، لا!"

صمتوا مرة أخرى. والتفتوا، ونظروا إلى البحر، وإلى المرسى. لا يستعجل النازلون من الزوارق، فهم يفتحون سيقانهم إلى الطرفين، ويخطون خطوات قصيرة شاعرين بالتراب تحت أقدامهم. وشمس الشتاء اللامعة تحرقهم

ببطء. لا أحد منهم مستعجل. تعيش الطبيعة كلها، والناس كلهم مستمتعين بطعم العيش منتظرين الموت وهم يقطرون الزمن بشكل خفيف، ومن دون انفعال، وإمعان التفكير كثيراً بما منح لهم. فكر محي الدين: "عمر على حق، يجب عمل شيء ما!" ولكن فيما بعد، قرر أن حال عمر الطموحة تلك شيء قبيح. وعندما فكر بريبة مرة أخرى، تمتم لنفسه: "لا أدري، لا أدري! أريد أن أكون شاعراً جيداً فقط. ذنبي هو جلوسي هنا متكاسلاً بدل جلوسي في البيت للعمل." كان قد كتب قصيدة صباح الأحد. مرة أخرى توتر من البعد بين الكلمات وبين غضبه. كتب، وشطب، وعندما بدأ يمزق دون أن يشطب، خرج من البيت تحت أنظار أمه القلقة، واتصل برفيق. قال رفيق: "نحن أيضاً -بريهان وأنا - قلنا لنخرج ونمشي قليلاً!" لم يكن محي الدين يحب كلمات "لنخرج ونمشي" التي تفوح منها رائحة العائلة والنظام اليومي. جاءا إلى بشك طاش مشياً. وانتظرهم محي الدين في المرسى. غضب من نفسه مرة أخرى قائلاً لنفسه: "كان علي أن أجلس بصبر لأكتب الشعر!"

تثاءبت بريهان. زغطت فمهما في اللحظة الأخيرة. التفت إليها رفيق، وابتسم. ثم التفتا إلى البحر، ونظرا.

"إيه، ماذا فعلتم في رأس السنة؟" سأل محي الدين هذا لمجرد الكلام.

قال رفيق: "لهونا في البيت وسط العائلة!"

"ماذا فعلتم لنرى؟"

"أكلنا، ولعبنا السحب!" ونظر رفيق إلى بريهان: "كسبت بريهان مرآة صغيرة!" كانت تبتسم. "اشترتْ أمي هدايا من أجل لعبة السحب. فهي تحب لهو رأس السنة. ومازحنا أبي. هل المرآة معك؟"

"حقاً، إنها في حقيبتي!" وفتحت بريهان حقيبتها مرحة.

فكر محي الدين: "ترى ماذا يوجد في حقيبتها؟ مشط، محفظة، وربما مفتاح، منديل..." يتأجج في داخله الفضول، والسخرية من أمور كهذه في آن واحد.

مدت بريهان المرآة مبتسمة: "إنها شيء لطيف جداً، أليس كذلك؟"

فكر محي الدين: "لا أستطيع أن أكون ساذجاً مثلهم! أنا أريد أن أغوص في الحرام. لماذا أتيت إلى هنا؟" تناول المرآة. كان إطارها فضياً. ثمة صورة غزال وسطها. قلب طرفها الآخر، فرأى نفسه. فكر: "أنا قبيح! ولكنني حسن أنني هكذا! وإلا فإنني كنت سأكتفي بسهولة. حتى إنني لن أستطيع أن أكون شاعراً!"

قال رفيق: "بماذا تفكر؟"

"ها؟"

"شردت! بماذا تفكر؟

"أفكر بنفسي!"

هز رفيق برأسه وهو يبتسم. كانت نظرته تقول: "آه، أنت شاعر! أنت تفكر بأمور غريبة، ولا تشبهنا!"

قالت بريهان: "انظروا إلى قبعة هذا الرجل!"

التفت الثلاثة معاً، ونظروا. لم ير محي الدين شيئاً غريباً، فالتفت، ورأى وجه بريهان بنحو جانبي فجأة فكر: "امرأة جميلة!" كان يرى أنف بريهان الصغير، وبشرتها الناعمة. نظر إليها هكذا مدة ثماني أو عشر ثوان. وفكر من جديد: "امرأة جميلة!" وخاف. "ماذا أفعل؟ إنني أتوه قليلاً على الأغلب! لم أكن أريد أن أضبط نفسي النظر إليها. المرأة الجميلة تقتل الإنسان." وجد فكرة جديدة مسلية. قبل قليل أيضاً فرح لأنه وجد نفسه قبيحاً. "لو كنت وسيماً، أو زوجتي جميلة لما استطعت أن أكتب شعراً. فأخرج في مسير الأحد، والعب السحب في البهو مثل رفيق!" وجسد أمام عينيه صورة بيت عائلة الضوئي السعيدة، وطاولة سفرتهم الصاخبة الصادحة. فكر: "أنا لا أحب تلك الأجواء البراقة، والنفسيات المطمئنة عديمة الأرق! ورفيق واحد منهم. مع أن رفيقاً كان..."

"أنشتري بذراً؟"

لوحوا لبائع البذر. فجاء المسن المحدب وقد علق على كتفه خرجاً. كان يقدم البذر، وينظر إلى الشباب، فيفرح.

"هل كان رفيق هكذا فيما مضى؟ هكذا كان طبعاً... وإلا فهل تغير؟ هل يمكنني أن أتغير مثله؟" حاول أن يتذكر رفيقاً قبل خمس أو ست سنوات. "كان يبتسم دائماً في دهاليز كلية الهندسة، ويسر لكل أنواع المزاح. ويلعب معنا البوكر حتى الصباح، ثم يخجل قليلاً. ذهب ذات مرة إلى بيت الدعارة، ثم عاش نوبات الندم. أساساً هو يشبه المسيحيين على الأغلب. ولكنه طيب القلب أيضاً... منذ كم سنة وهو صديقي..."

"كيف تنظر إلي يا هذا؟"

"كيف أنظر؟"

"هكذا!" غم رفيق عينيه، ومط رقبته إلى الأمام مقلداً محي الدين.

أطلقت بريهان قهقهة أول مرة. لم يغضب محي الدين، وفرح. كان يتعرف على نظرة الآخرين له.

"هل تسوء عيناك؟"

"لا!"

التفت رفيق إلى بريهان. "أتعرفين أن محي الدين كان في الكلية يلح على قول إنه سيعمى بعد خمس سنوات. وكان يوفر له هذا بعض الحقوق. كان يقول إنه لي هذا الرسم، لأرى الدنيا قليلاً."

قال محي الدين: "كان حسر النظر يتطور لدي..." وفكر: "ولكن تهريجي القديم صار يقابل الآن بمرح!" وغضب من نفسه. عندما رأى بريهان تنظر إلى نظارته ذات العدستين السميكتين، وقال: "ولكن وضعي الآن جيد!" ولكي يثبت أن وضع عينيه جيد، تلفت حوله.

كان الأقرع مايزال يقرأ الجريدة. فبدأ محي الدين بقراءة العناوين من بعيد: "لا يمكن ترك هطاي تحت أسر سوريا... رئيس الجمهورية أتاتورك مساء البارحة في بيرابالاس... قصف مدريد... الشاعر ناظم حكمت، وأحد عشر رفيقاً له... الثلج في أرتفين متر ونصف... فريق فناربهتشة (ب): 5 - فريق غونش (ب): 2."

قال رفيق: "أحسنت يا هذا، أنا لا أستطيع قراءتها!"

أدرك الرجل الأقرع في النهاية أن جريدته تقرأ، فالتفت إليهم، وابتسم، وعاد لقراءته.

قال رفيق: "ترى ما هي نتيجة المباراة؟" وتمطى.

أنزل الرجل الأقرع جريدته، وقال: "الفنار يكسب، الفنار يكسب!"

تضاحكوا براحة الصداقة والقرب والعطلة. قدم رفيق بذراً لمحي الدين.

وضع محي الدين البذور على الطاولة. وفكر: "أولئك مرتاحون، وهادئون، ومطمئنون هكذا لأنهم لا يعرفون أنهم سيموتون! إنهم يعلمون بالطبع، ولكنهم لا يفكرون به. لا أحد يفكر بالموت. عندما لا يفكر الإنسان بالموت، يعيش مثل هؤلاء مرتاحاً، ولا يخاف، ولا يقلق، ويقابل كل شيء كأنه طبيعي، ولا يفكر بأن عليه أن يفعل شيئاً! كانت حبات البذر متشابهة فيما بينها أول وهلة، ولكن الإنسان بعد ذلك يرى فروقاً صغيرة. حسنٌ، كيف صرت أنا هكذا؟ كان الموت والخوف منه يحتلان حيزاً كبيراً من قصائده. أنا تعلمت من بودلير أنني سأموت. وحصلت على العلم من الفرنسيين الآخرين، وهكذا صرت بعد أن تعلمت! ولكن علي أن اذهب إلى البيت بدل أن ألهي نفسي بأفكار فارغة!"

سأل رفيق: "ماذا يكتب لك عمر؟"

"لاشيء! قلّت رسائله أصلاً بعد قراره بالزواج. لعله يخجل مني. لا يا روحي، أنا أمزح معك... ولكنه لا يكتب شيئاً مهماً. عرفت حديثاً أنه عرض الزواج على الفتاة بالمراسلة! من هي تلك الفتاة؟"

"قريبة له. قريبة من نوع مرق المرق... هل كنت تعرف أن أباها نائب عن مانيسا؟"

صرخ محي الدين" واخ منه! سدد راستياكنا هذا على الهدف في المركز. لم أكن أعرف هذا!"

"ولكنك انت أيضاً لست قليلاً ها! وماذا يعني نائب؟"

"النصر أو لاشيء!"

"في هذه الأيام سيذهب مع خالته وزوجها إلى أنقرة. قرر الشابان الزواج، ولكن للأمر جانب رسمي طبعاً. سيربطون الكلام..."

"يا هذا، ألا يبدو لك الأمر مضحكاً؟"

"لماذا؟ جماعتنا أيضاً ذهبوا لطلب بريهان. انظر كم كانت النتيجة جميلة." والتفت إلى بريهان، وابتسم. "ولماذا سيكون أمر كهذا مضحكاً؟ يريد الآباء والأمهات أن يتعارفوا. ويلهون عندما يتقابلون..."

فكر محي الدين: "لا، لا. لا يمكنني أن أشرح له هذا بعد الآن! ولكن مع الأسف... فالصداقة أيضاً تموت..." وفكر بعمر أيضاً. "كنت أسر من حاله الساخرة، ولكنني أعرف أنه سيكون مختلفاً أيضاً. حتى إنه دخل في دور المهندس الوسيم الفني. لا أحب الناس أصحاب المظاهر المحبوبين كثيراً. أحب المنزوين في الزوايا والأطراف، والحاقدين. مثلاً هذان الجنديان!" كان ثمة طالبان في المدرسة العسكرية يشربان مشروباً في سوق بشيك طاش أحياناً قبل عودتهما إلى مدرستهما في يلضظ. كانا محبين للأدب. وكان محي الدين يعتقد أنه أثر بهما. "لماذا أجلس هنا حتى الآن؟ لأنهض، وأذهب... نثرثر، الجنديان وأنا، على الأقل. ثمة جوانب مشتركة بيننا. نعرف ما نكرهه..."

جاءت سفينة من جهة قرة كوي، كانت تقترب من المرسى. الجميع كانوا ينظرون إلى السفينة المتحركة إلى الأمام والخلف، وإلى البحر. التقط محي الدين اسمها ورقمها من النظرة الأولى: 47، خلاص!

قال رفيق: "كيف حال أمك يا هذا، أنت لا تذكرها أبداً!"

"جيدة. تجلس في البيت. تذهب في زيارة، ويأتيها زوار، وتأكل، وتضحك، وتنام، وتتنفس. وترعى أزهاراً في الأصيص..."

"هل صحتها جيدة؟"

"جيدة"

"كانت تشتكي من كليتيها على الأغلب!"

"يا لما تتذكره أنت أيضاً!"

قال رفيق: "وضع أبي أيضاً سيئ." واتخذ تعبير المفكر الحزين، وصمت.

"ما به؟"

"أصيب بنوبة قلبية كما تعرف. ورئتاه ليستا على ما يرام غالباً. يسعل بشكل سيئ. ثم إن سمعه يخف تدريجياً. صار لا يتمكن من عمل شيء في المكتب. وساءت حالته في هذه الأيام. فهو يغضب، ويتوتر من قلبه، فجأة تبدأ الرئتان... رأسه سيئ مثل جذعه. لم يعد يستطيع إدارة أعماله. واضطر عثمان لتقييد حقه بالقرار. الأسوأ أن عثمان صار يراقب مصروفه الشخصي. أبوح لك بهذا، لأنني أحزن له كثيراً! أنت أيضاً انتبه لأمك."

قالت بريهان: "إنها الشيخوخة!"

تمتم محي الدين لنفسه: "سيئ جداً، سيئ جداً!" ثم فكر: "وأنا أيضاً سأغدو هكذا في النهاية! وهكذا صار أبي في النهاية، ثم ذهب فجأة. سنموت كلنا. إذا لم أغد شاعراً جيداً في الثلاثين من عمري فسأقتل نفسي. هذا قرار جيد. أنا أتمسك بالموت بحب بدل أن أعيش متخبطاً بالخوف من الموت، وخائفاً من سقوط طقم أسناني من فمي. انفعلت! حان وقت الشعر، ولكنني مازلت أجلس هنا!"

قالت بريهان: "آ، انظروا إلى الولد!"

التفتوا، ونظروا.

12
العم وابن الأخ العسكري

قال جودت بيك: "أنا لا أفهمك أبداً يا ابني! وهل يُترك الجيش هكذا فجأة، وعلى وشك الوصول إلى ألمع الأمكنة؟ ماذا ستفعل في مكان آخر غير الجيش؟"

قال ضياء: "التجارة! أقول التجارة يا عمي العزيز!" وهو يكرر الأمر نفسه منذ ساعتين.

جودت بيك أيضاً كان يكرر الأمر نفسه منذ ساعتين: "ولكن لابد من تجربة من أجل التجارة. وعليك أن تعرف بأن السوق قد خرج من الجمود حديثاً. فوق هذا فالحرب قادمة."

ابن الأخ ضياء الذي ذكّر بنفسه ببطاقة معايدة في عيد الأضحى الماضي جاء إلى المكتب في سيركجي بنحو مفاجئ قبل ساعتين، وقال إنه سيترك الجيش، وسينخرط في التجارة، وطلب نقوداً من جودت بيك. وحاول جودت بيك فهم الحركة المفاجئة لابن أخيه الذي لم ير وجهه منذ سنوات طويلة.

"ولكن لماذا؟ وبعد هذا العمر..."

"أنا أرى نفسي أكثر شباباً يا عمي العزيز!"

رغم أنه لم يكن يبدو شاباً. مهما بلغ ما يبدو عليه، مهما بلغ، فهو الطفولة. مازال يظهر على وجهه تعبير التوجس الطفولي الذي بدا على وجهه

في الأيام التي تلت موت أبيه قبل اثنتين وثلاثين سنة. وفوق هذا، فقد أضيف إليه تكبر وتهور لم يفهمهما جودت بيك.

"ولكن ثمة جمود في السوق. أنت تعرف هذا جيداً، لعل الحرب تنشب، أليس كذلك؟ هذا هو الوقت الأنسب للعسكري كي يبرز نفسه. سنوات الحرب هي سنوات العسكريين."

"وماذا عن التجار؟.."

"حينئذ لن يبقى لنا شيء. ستتريط أطرافنا مثل النساء والأطفال، وننتظر."

"ولكنكم لم تنتظروا في الحرب الأخيرة. جلبتم سكراً على الأغلب!"

"إنك تتواقح! أنا لا أسمح لك بأن تتواقح. من أخبرك بهذه الشائعات؟"

"ليست شائعات... الجميع يعرفون!"

"أرجوك، احك بصراحة! ماذا يعرف الجميع؟ هل الجميع يعرف أنني تاجرت بالسكر، وصادف ذلك سنوات الحرب؟ أنا لا أخفي هذا عن أحد!"

قال ضياء: "الجميع يعرفون بيعكم للسكر بسعر مرتفع..." وحرك يده.

"هذا لا يهمني!"

قال جودت بيك: "انتظر لنرى، انتظر! أنا حزنت لمشاركة ابن أخي بتصديق الشائعات التي يروجها أعدائي ضدي. طبعاً أنت لا تعرف أن هذه الشائعة قد اخترعها أولئك الذين يعملون بتجارة المقطورات. ولكن، انتظر، واعرف الحقيقة. أنا لم أبع أي شيء بسعر مرتفع، ولا أبيع. أنا بعت بضاعتي بالسعر الرائج في السوق. ماذا يمكن للتاجر أن يفعل غير هذا؟ ولكن عقلك لا يستوعب هذه الأمور. أنت تعرف كيف تتواقح فقط!"

لم يرد ضياء. ونظر إلى جسر غلاطة الذي يبدو من وراء الأسقف الواطئة، وإلى سفينة تقترب من الجسر. ورغم تدخين جودت بيك سيجارة الظهيرة، فقد مد يده نحو العلبة مرة أخرى.

التفت ضياء فجأة: "لا تدخنوا يا عمي العزيز. أخبرني عثمان، وأنتم تعرفون أيضاً أنها لا تواتي صحتكم!"

سحب جودت بيك يده عن العلبة شاعراً بالذنب. "حسنٌ، لنر في أي تجارة ستعمل؟"

"لم أفكر بهذا بعد. بعد وجود النقود، يوجد دائماً ما يمكن شراؤه وبيعه!"

"هذه إذاً فكرتك عن التجارة!"

"طبعاً... اجلب حديداً من ألمانيا، إن لم يكن هذا فأجلب سكراً!" كان يضحك. بدا كريهاً ووقحاً. لم يبد كابن أخ ينتظر مساعدة من عمه. "إذا لم يكن سكراً، فليكن قماشاً، وإلا فسيارات... كيفما يكن فإن تركيا تعاني من أزمة ما على الدوام. لا تقلقوا أنتم!"

قال جودت بيك محتداً: "من حقي أن أقلق!"

قال ضياء ضاحكاً: "آ، حقاً، نسيت هذا!"

"كيف تنسى؟ أمنني أبوك عليك!" وأدرك جودت بيك فجأة أنه قال شيئاً خاطئاً، وأنه يسخر منه. وفكر: "انتهى أمري! إنه أمامي يقوم بأسوأ الوقاحات، ويردد أسفل الشائعات، وأنا أحاول الرد عليه." تمتم مستمعاً لنبضات قلبه: "ماذا أفعل، ماذا أفعل؟"

"نعم، تركني أبي أمانة عندكم. أتذكر تلك الأيام المخيفة، ويوم أحضرتني من عند زينب خانم بالعربة إلى البنسيون. أساساً أنا أتيت إلى هنا اعتماداً على وصية أبي، وحسن نيتكم!"

"أرأيت؟ هل كان لك دعم في الحياة غيري؟" غضب جودت بيك قليلاً، وانفعل قليلاً.

"لم يكن لي أحد أبداً!"

"إذاً اعرف قيمة عمك! انظر إلى عمك في أي حال!" وضغط يده على قلبه. "لو تعرف كيف يؤلمني هنا! وعدم احترام عمك لن يكسبك شيئاً!"

"نعم لم أفكر بهذا! وأنا مثلكم. أعرف أنكم دعمي الوحيد، وأستمد الجرأة من هذا لطلب النقود. أعني ديناً. دين أدفعه لكم بعد أن أحقق ربحاً!"

انفعل جودت بيك بفكرة جديدة خطرت بباله: "لماذا لا تنتظر تقاعدك؟"

"سئمت من حمل هذه البزة!"

"آ، ما هذا الكلام؟ فوق هذا لديك ميداليتك! قاتلت سنوات في سبيل حصولك على حق هذه البزة. ثم إنك أصبت في تلك ياه، في صقاريا! أنت غازي. هل يليق بغازي قول هذه الكلمات التي قلتها قبل قليل؟ انتظر تقاعدك!"

قال ضياء بموقف يائس: "لا أستطيع الانتظار إلى هذا الحد! أحتاج نقوداً!"

"يا ابني، يا لبساطة قولك هذا! وهل تعتقد أن النقود تكسب ببساطة؟"

وقف ضياء فجأة، وصرخ قائلاً: "أنا لا أعرف كيف تكسب النقود، لا أعرف من أين، لم أعمل شيئاً غير العسكرية! ولكنني أريد حقي! أعرف كيف أحصل على حقي!"

"أي حق؟ أي حق هذا؟"

"لا أعرف حق ماذا أيضاً. لا، لا أعرف. ما كسبتموه من وفاة المرحوم أبي..."

"لو رأى المرحوم أبوك هذه الوقاحة لغضب كثيراً. أهكذا سيكون ابنه؟ كان هو مثالياً. لم يكن يفكر بالنقود. يا للأسف، يا للأسف!.. عظامه تتألم الآن!"

"وأنا جئت لأحصل على حقه!"

"لماذا؟ ما سبب كل هذا؟ لماذا الآن؟"

"الآن. الآن لأنني فكرت كثيراً. أنا في الثانية والأربعين من عمري. وسأتقاعد بعد اثنتي عشرة سنة. وبراتبي التقاعدي سأرعى الأزهار على شرفة بيتي المستأجر. فهمت أنني يجب أن أعيش. قررت أن أسكن في اسطنبول..."

"ولكنك تسكن في بيت تلك...، زوجتك في أنقرة!" فكر جودت بيك: "أنسى الأسماء والكلمات!"

قال ضياء: "سأنفصل عنها أيضاً..." وجلس من جديد على الأريكة.

"لماذا؟ لماذا يا ابني؟ فوق هذا فإن المرأة مريضة غالباً."

"مريضة!"

قال جودت بيك: "هل تترك زوجتك المريضة؟" ومرة أخرى فكر بأنه قال شيئاً خاطئاً. لم يعد يثق بذكائه كما كان في السابق.

قال ضياء: "لا أعتقد أنكم اهتممتم بعائلتي أو زوجتي! لو أنكم قد اهتممتم لساعدتموها قليلاً عندما كنت أنا في قعر جهنم."

"لم أساعدها؟ الله موجود، ألم أساعدها؟"

"لم تساعدوها! عدا بضعة القروش التي دفعتموها لها لكي تصرفوها عنكم طبعاً."

كان جودت بيك سيجري حساب بضعة القروش تلك، فخجل، لم تساعده قوته. تمتم: "مع الأسف... مع الأسف..." ثم بدأ السعال. كان يسعل، ويفكر قائلاً: "أي حق؟ من أين يخرج كل هذا؟" في آن واحد. "أنا رعيته في صغره. أعطيته مصروفه عندما كان في المدرسة العسكرية. كان يأتي أحياناً في العطل، ويبقى عندنا. أنا أسعل بشكل سيئ جداً!" كان يحاول كبح سعاله، ويفكر بأن ابن أخيه سيعتقد أنه يسعل قصداً، فيشعر بالخجل. بعد أن تلوى قليلاً، تخلص من نوبة السعال الصغيرة تلك، ولكنه أدرك أن وجهه صار أحمر قانياً. كان يشعر بنفسه منهاراً، ومذنباً في آن واحد! لم يكن في وضع يمكنه التفكير بشيء! كان قلقاً من المآل الذي سيؤدي إليه هذا الأمر.

خيم صمت طويل. وتردد جودت بيك من البدء بالحديث. وفكر بأن ابن أخيه قد سيطر عليه الشعور نفسه.

بعد فترة نهض ضياء. أسند يديه على حافة طاولة المكتب التي كان جودت بيك يجلس وراءها، ومد رأسه، ثم سحبه. فقلق جودت بيك.

"قولوا الآن يا عم: هل ستعطونني نقوداً أم ستلهونني؟ لم تساعدوني بالقدر الكافي في طفولتي. أنتم مدانون الآن."

قال جودت بيك ببطء ضاغطاً على مخارج الحروف: "أنا أعتقد بأنني قمت بواجبي نحوك دائماً. لا أشعر بأي دين. فعلت أكثر مما يتوجب علي!"

"فعلتم، أليس كذلك؟ لولا أبي كيف كنتم ستؤسسون هذا العمل؟ يدفعني الفضول لمعرفة هذا حقيقة."

"بماذا يمكن أن يكون أبوك قد ساهم؟"

"لولا أبي، وأمثال أبي لما كانت المشروطية، ولا الجمهورية!"

"ماذا تقول أنت؟ من أدخل في عقلك هذه الترهات؟ هل نسيت أن أباك قد مات قبل المشروطية بثلاث سنوات؟ ضع عقلك في رأسك! وأرجو ألا تنبش الأمور القديمة. أنا ساعدت أباك دائماً. ولا تنس أيضاً أن أباك كان متعلقاً باللهو قليلاً. وكان المشروب سبب موته المبكر. وهل تعرف ما بذلته لأنتقل من دكان الخشب إلى هنا؟ ها أنت تسكت، أليس كذلك؟ لأنك وضعت شيئاً في عقلك، وأنت جاهز للقيام بأي شيء من أجل هذا." الكلام السريع متعب. سأل جودت بيك متلاحق الأنفاس: "لماذا كل هذا؟ هل تعلقت بامرأة أخرى؟"

قال ضياء مندهشاً: "نعم. وخجل غالباً." وكان هذا غير متوقع. ثم جلس ضياء. وحدث جمود.

اندهش جودت بيك أيضاً. فكر: "في النهاية سأقول لهم أعطوه ما يريد من نقود على الأغلب!" ونظر إلى هذا الشاب الذي سئم من زوجته، وسئم العسكرية، وسئم الحياة محاولاً سحب نقود من عمه، وفكر بأنه لم يعد يلتزم بقواعد الأخلاق، والعادات القديمة. ولكنه يرى بوضوح أنه يفكر بحزن وحقد خاص بالمسنين.

قال ضياء: "لا أعرف كم أريد. ولم أعد في وضع يمكنني من إعطاء شيء فيما بعد!"

نهض ضياء، وصرخ: "لا تلهونني مرة أخرى. لا تعتقدوا أنكم ستصرفونني بسهولة!"

قال جودت بيك: "لا تصرخ! لا تصرخ أرجوك!"

"بحثتم عن طرق للتخلص مني دائماً! لهذا السبب أرسلتموني إلى المدرسة العسكرية!"

"ولكنك أنت الذي أردت أن تكون عسكرياً!"

"وهـذا طبعاً وافقكـم. كنتم تريـدون الـتخلص مـني. وجـدتموني غـير مناسـب أبـداً بجانـب ابنـة الباشـا تلـك الـتي وجـدتموها، ألـيس كـذلك؟ طردتموني إلى المدرسة العسكرية! انتظروا، انتظروا لأكمل كلامي ولو مرة. إذا أتيت من (قولة لي) إلى نيشان طاشِ مرة في الشهر، كنتم تعبسون، وتدسون في جيبي بضعة قروش. كنت أفكر بأنني أجير فلاح اندس بجانب الصحن المدفوع على طرف المائدة. فيما بعد اقسمت الا أدوس عتبة بيتكم."

تمتم جودت بيك كميت: "لم أفكر فيك يوماً بشكل يختلف عن أولادي!"

"كـذب! لمـاذا لم ترسلني حينئذ إلى غلاطـة سـراي مثلهم؟ أنـا أيضـاً يمكـنني الـذهاب إلى مدرسـة أبنـاء السـادة تلـك أيضـاً! طردتمـوني إلى مدرسة عسكرية!"

قال جودت بيك: "لم أكن أعرف أنك تفكر على هذا النحو بالعسكرية!"

"كيف أفكر إذاً؟ عندما كانت تتجمد أصابع قدمي في صاري قمـش كنتم هنـا تتـاجرون بالسـكر. كـدت أمـوت في صـقاريا. وأنـتم تكـبرون شركتكم. وقرب وجهه الموشك على البكاء من جودت بيك. "الآن ظهرت هذه المرأة أمامي. هذه فرصتي الأخيرة يا عمي، هل تفهمونني؟ لن يحصل لي شيء كهذا مرة أخرى."

انتبه جودت بيك إلى أنه مرتبك. وكانت رائحة المشروب تفوح من فم ابن أخيه. فكر: "شرب مشروباً من أجل أن يستمد جراة. إذا كل شيء من أجل أن يطعم نقوداً لامرأة! وضعني بباله!" يفكر بضرورة الشفقة عليه، ولكنه لا يستطيع فعل هذا، بل إنه يشعر باشمئزاز منه. كان أمامه رجلاً يقول من دون خجل إنه سيخون عائلته، وابنه. تمتم: "لو أنه المرحوم أبوه لقال ادع إلى ربك! ولكنني لست في وضع يمكنني من قول شيء!"

صرخ ضياء من جديد: "لن أترككم إذا لم تعطوني شيئاً!"

قال جودت بيك: "اجلس مكـانك يا ابني، أجلس مكـانك!" عنـدما رأى أن ضياء مازال يتأرجح أمامه بوجه ممتقع، قال فجأة: "سأعطيك

ما تريد! ولكن اصح لنفسك قليلاً. أهذا ما تفكر فيه بحق عمك بعد كل هذه السنوات؟"

وبدا كأن ضياء قد ارتبك. قال: "أتسمح لي بإشعال سيجارة؟" وتناول العلبة التي على الطاولة من دون انتظار جواب عمه. كانت يداه ترتجفان، وحاله منهكة.

وجد جودت بيك حاله منهكة أيضاً. لم تكن لديه القوة ليفكر بشيء، أو يقول شيئاً حين كان إلى ابن أخيه وهو يدخن السيجارة. كانت نفسه تنجذب لنوم طويل وعميق. بعد قليل سأل: "كم تريد؟"

"أريد كثيراً. أريد ما يكفي لفتح دكان في قرة كوي، وتأسيس عمل... أو ما يكفي لشراء شقة في تقسيم..." حاول أن يبدو حازماً، ودخن سيجارته بحركات متوترة.

قال جودت بيك فجأة: "أوه، كيف يمكنني أن أجد كل هذا المبلغ؟ أنا أيضاً أعتقد..."

بدأ ضياء يقول كلمات غاضبة. ولكن جودت بيك سد أذنيه ليبدو أنه لا يسمع.

"لن أترككم. سألاحقكم كشبح!" نهض ضياء مرة أخرى، وقرب وجهه غير الجميل أبداً، وفمه الذي يفوح برائحة المشروب من جودت بيك.

وسقط جودت بيك بنوبة سعال أخرى. سعل بقوة لعدة دقائق وهو ينحني إلى الأمام، ويهتز. ثم توقف صامتاً عدة ثوان. بعد هذا عاد للسعال الحاد مرة أخرى. خلال ذلك كان يقرب ذقنه من الطاولة كأنه سيضربها بها، وكان الدم يهاجم وجهه، وتؤلمه عيناه كأنهما ستقفزان من محجريهما. واستمع لقلبه لحظة، وفكر: "سأموت غالباً!" ثم أدرك أنه لن يحصل شيء، ولكن فكرة الموت متلوياً أمام ابن أخيه المحاول سحب نقود منه تثقل عليه إلى حد لم يعد معه مسيطراً على نفسه. أشار لضياء الذي كان ينظر بخوف نحو الباب. وبين نوبتي سعال، قال وهو يئن: "اخرج! اخرج!" ونظر إليه بطرف عينه: "نتكلم في وقت آخر!"

كان ابن أخيه واقفاً عند طرف الطاولة، يحاول أن يقول شيئاً على الأغلب، ولكن جودت بيك لم يكن منتبهاً لشيء غير حركة شفتيه. حاول ضياء إخفاء السيجارة التي يدخنها وكأنه يُؤنب لأنه يدخن أمام عمه، وليس لأنه تواقح أمامه.

قال جودت بيك هذه المرة محتداً أكثر: "أقول لك هيا اخرج، يا وقح!" ثم أدرك أنه يحاول السيطرة على سعاله من دون جدوى، فترك نفسه. رأى ضياء خارجاً من الغرفة. وخطر بباله أن يقول له شيئاً، ولكنه لم يجد القوة في نفسه لقوله. كأن النار تشتعل في داخله، وفي مجاري تنفسه، وكان عليه أن يسعل ويئن لينفث ذلك اللهيب. وعندما صحا لنفسه قليلاً، أخرج منديله، ومسح قطرات العرق عن جبينه. كان وحيداً في الغرفة، ووجد نفسه متقدماً في السن، وضعيفاً. تمتم: "شبح، ويعرف جيداً ما تعنيه... شبح." ثم استجمع قوته. "يقول شبحاً!" وبادر عقله لتنظيم كل شيء من جديد، وإعادة ما انقلب رأساً على عقب في نصف الساعة الأخيرة هذه.

13
ربط كلام

انعطفت سيارة الأجرة العابقة برائحة غليون زوج الخالة وعطور الخالة إلى أحد الأزقة الفرعية في يني شهير، وتقدمت بين البيوت الموحدة، وتوقفت أمام البناء الذي أشار إليه عمر. انفعل عمر حين رأى من بين الأشجار مصباح غرفة الجلوس مضاء. جاء إلى هنا بالأمس أيضاً، ورأى ناظلي. واليوم كان عليه أن يعمل هذا الذي يسمونه "ربط كلام" كما تقرر من قبل.

فتح الباب فور قرعه.

قال زوج الخالة دفعة واحدة: "أنا جنيد، وزوجتي مجيدة!" ولكن فاتح الباب لم يكن مختار بيك، بل رجلاً نحيفاً طويلاً.

"أنا رفعت بيك يا سيدي! نعم، إنهم يعرفون أنكم ستأتون. إنهم في الأعلى. الأمر صار مصادفة. أنا نزلت إلى الأسفل. وأنتم عمر بيك غالباً. سررت بلقائكم. أنا أعدُّ عم ناظلي، تفضلوا، تفضلوا..."

قطبت الخالة وجهها، وفكرت: "رجل غير لبق وثرثار!" وساروا باتجاه الدرج.

فجأة ظهر مختار بيك عند آخر الدرج. نزل عدة درجات. ثم تراجع إلى الخلف معتقداً بأنه سيغلق الطريق على ما يبدو. تلفت فيما حوله باحثاً. وارتاح عندما رأى ناظلي. وخلال قيامه بذلك كان يقول: "تفضلوا، تفضلوا أرجوكم!"

قال عمر: "يا زوج خالتي، هذه هي ناظلي!" كانا يتصافحان. "هذه هي الخالة مجيدة!"

قالت الخالة مجيدة: "هل تذكرتني؟"

قالت ناظلي: "كأنني أتذكركم يا سيدتي!"

تصافح مختار بيك وزوج الخالة. هما أيضاً طفحا خارج وجودهما الطبيعي. كأن أحداً لا يظل كما هو.

قال مختار بيك: "تفضلوا يا سيدي، تفضلوا، أنتم أولاً أرجوكم..." وأمطر الأوامر للخادمة التي أخذت المعاطف.

مدت ناظلي يدها لمعطف مجيدة خانم. ولكنها مانعت، وتدافعتا أمام المشجب.

قالت مجيدة خانم أثناء دخولهم إلى غرفة الجلوس: "لم نتأخر، أليس كذلك؟"

قال مختار بيك: "لا، لا! جلستم في زاوية نائية، تفضلوا إلى هنا لو عذبناكم."

تمتمت الخالة: "لا، أرجوكم!" الأريكة التي جلست عليها ليست في الزاوية، ولكن ذلك المكان هو الأنسب لتفحص ناظلي. بعد أن شعر عمر بهذا، انتبه قلقاً إلى أنه يجلس بجوار مختار بيك.

خيم صمت.

بعد ذلك، أكمل رفعت بيك جملته المنقطعة: "حدثت اليوم مصادفة أخرى. قلت لنفسي لأعرج على مختار بيك. لم أكن أعلم بمجيئكم." كان ثمة ما يشبه الاعتذار في حاله.

قال زوج الخالة: "أرجوكم. لم نتأخر عليكم، أليس كذلك."

قال مختار بيك: "لا، لا! السيدة الخانم قالت هذا أيضاً. وحتى إنني كنت أقول لناظلي..."

حين عرفت الخالة أن الحديث يدور حولها، هربت بعينيها عن ناظلي التي كانت تدقق فيها بهلع، وقالت: "نحن كنا خائفين من تأخرنا!" ثم عادت للتدقيق بناظلي.

احمرت ناظلي بشكل خفيف. وخجل عمر من النظر إليها. بدا كأنه غاضب من نظر خالته إلى ناظلي بشكل سافر. وخطر بباله: "ترى بماذا تفكر الآن؟" وانتبه إلى أن الفضول يدفعه لمعرفة رأي خالته بالعروس.

سأل مختار بيك حين دخلت الخادمة: "كيف ترغبون قهوتكم؟" وطلبوا قهوتهم. وخيم صمت جديد.

كانوا يجلسون في غرفة واطئة السقف لها بروز يشبه المشربية. وقد علق على الجدار المقابل لوحة زيتية للبندقية عريضة الإطار. كانت لوحة التذهيب المعلقة خلف طاولة السفرة في زاوية رؤية عمر. وفي زاوية الجدار الفاصل بين الغرفتين كان هناك رف لقبعات طويلة مطعم بالصدف. الأثاث، وكل شيء، والأشخاص كل في مكانه، كأنهم ينتظرون شيئاً ما. كانت تُسمع تكتكة ساعة جدارية قوية وحادة. الخالة تدقق بناظلي بانتباه. وفكر عمر بأنه يجلس بطريقة "ضعوه هنا!"، ولكنه انتبه إلى أنه جالس بشكل معوج.

سأل مختار بيك: "كيف وجدتم أنقرة يا سيدي؟"

قالت الخالة لكي تدفئ الغرفة: "لم ننتبه كثيراً لأنقرة!" كانت مبتسمة وكأن قولها شيئاً مدهشاً جداً، وممتعاً. "جئنا البارحة بعد الظهر. ولكنها باردة حقيقة."

قال مختار بيك: "نعم، مدينتنا أنقرة باردة! وخاصة في هذه الأيام... صدقوا أننا بردنا اليوم مع زملائنا في المجلس!"

سألت الخالة: "عفوكم يا سيدي، مجلس من؟" وفور طرحها هذا السؤال انتبهت إلى الخطأ الذي ارتكبته، فصرخت قائلة: "آ، طبعاً، طبعاً!"

قال مختار بيك: "في مجلس الأمة، في الهيئة العامة لمجلس الأمة الكبير!" وقد أدرك أن الخالة قد عرفت خطأها، ولكنه رغم هذا أوضح الأمر. يبدو أنه لم يُدهش للنسيان الطارئ للقرابة البعيدة هذه.

احمرت الخالة ، وقالت: "نعرف، طبعاً يا روحي نعرف!" وعندما أدركت هذه المرة أنها بالغت بالأمر الذي يجب أن يكون معروفاً، احمرت أكثر، وحاولت أن تضحك.

رأى عمر أن حماه المستقبلي قد ضحك أيضاً. وعندما رأت الخالة أن النائب قد ضحك، ارتاحت، فضحكت أكثر. وبعد ذلك ضحك زوج الخالة أيضاً. وبدؤوا الضحك جماعياً. شعر عمر أن ذلك الانهماك الخفي الذي يجعل الناس على غير ما هم عليه قد خف متبدداً. قدم النائب مع القهوة سجائر، ولكنه لم ينظر باتجاه عمر. سر عمر لأن زوج خالته لم يرفض السيجارة المقدمة إليه. فقد خشي أن يُشعل غليونه، ومن إضفائه البرودة على الغرفة؟

بدا كل شيء يتراخى هكذا. بعد قليل سيحكى بما يجب أن يحكى به، ولكن ثمة ضرورة لقليل من الحرارة، ومن الحديث ومن القرب. استذكار القرابة البعيدة مناسب لهذه الحرارة.

كانت الخالة هي التي فتحت هذا الموضوع. فذكرت بأنها أخت أم ناظلي. ولكنها لم تقل إنهما ليستا أختين حقيقيتين، وإنهما متقاطعتان منذ سنين طويلة بسبب إرث قديم وبعيد. ولهذا السبب تأخرت معرفة مختار بيك. وعددت الخالة بحديثها المتوازن الأقرباء المشتركين واحداً واحداً. وفكر عمر أن حديث القرابات البعيدة موضوع أغنى من حديث القرابات القريبة. تذكرت الخالة الأسماء، والأمراض، وتواريخ الموت والولادات، والكوارث، والأحداث السعيدة فيما هي تشرب القهوة. تمتم عمر: "وأنا أيضاً سأكون مثل هؤلاء في يوم ما! وسأذكر القرابات أثناء شربي القهوة ذات يوم. بعد تلك المجاملات كلها... سيلجمني الزواج. لقد سحق أنفي قليلاً في سكة الحديد تلك أصلاً. وهذا يعني أنني جاهز لأمور من هذا النوع." كان شاحناً نفسه، ولكنه لا يجد قوة إضافية للإقلاع في الحركة. "ذات يوم، وهو ليس بعيداً جداً أساساً، سأكون أنا أيضاً في الغرفة لابساً نعلين بيتيين في قدمي بجانب زوجتي التي تحيك الصوف... زوجتي؟" ونظر إلى ناظلي مندهشاً. هذه الفتاة التي هناك، أمامه، التي تحاول أن تبدو مرتاحة تحت أنظار زوج المستقبل، و أنظار خالته، والمحمرة الوجه، والمحاولة الضغط على نفسها لكي لا تبدو هكذا! وفجأة استجمع قوته، وتمتم: "إيه، ماذا هنالك؟ هاهي زوجتي!"

تحدث السيد زوج الخالة عن حياته الخاصة، وعن ماضيه التجاري. وقال بشيء من الفظاظة والاتهام إن الحياة التجارية قد تعرضت للتضييق، ولم يعد أي شيء حر كما كان في السابق. إثر هذا شعر مختار بيك بضرورة تلخيص حياته أيضاً: عمل في عدة وظائف، وقائم مقام، ووالياً. وهو منخرط في السياسة منذ ثماني سنوات. ويعتبر ضيق الوضع التجاري، أو على الأصح التصدير والاستيراد طبيعياً، ويبدو أن البلد سيتحمل ضيقاً أكثر في سبيل النهوض. وإن الوضع الآن أفضل بكثير مقارنة بما كان عليه قبل ست أو سبع سنوات. وقال النائب هذه الأمور بنبرة ترضية وطلاوة، جعلت زوج الخالة صاحب الشكوى المقحمة قليلاً أصلاً يوافق على هذا. وهكذا تكثف عبق السعادة في الغرفة التي تدفئها مدفأة خزفية. وبدأت الخالة أيضاً بالحديث مع ناظلي. إنها تدقق بها بانتباه، وتطرح عليها أسئلة، وتبتسم: أين درست الثانوية، وأي لغات أجنبية تعلمت، وأن الثوب الذي ترتديه لائق بها؟

ولكن صمتاً متوتراً بدأ بعد فترة. كان هذا صمت كامن تحت الحركات والكلمات التي يتوقعها الجميع، وظهر الآن إلى العلن فقط. لم يكن يُسمع غير تكتكة الساعة، كأن الجميع كان يفكر: "الآن سيقال ما يجب أن يقال أساساً، وسيبدأ زوج الخالة الحديث!"

قال زوج الخالة: "يا سيدي، تعرفون على كل حال سبب مجيئنا إلى هنا." لم يكن ثمة موقف فظ، وكان يبدو متواضعاً. "التقت ابنتكم وابن أختنا، وتفاهما."

فكر عمر: "سيبدأ زوج خالتي بالواقعية من جديد!" في أوضاع كهذه تكون فيها الكلمات اللطيفة والموزونة مناسبة أكثر، كان زوج الخالة يستمتع باتخاذ موقف معاكس لما هو متوقع، وقول ما يُفكر به، ولا يُقال. وقد فسر لعمر ذات مرة موقفه هذا بالواقعية وعدم حب الازدواجية، ولكن عمراً كان يعتقد بوجود ازدواجية تكمن خلف كل نوبة واقعية لزوج خالته.

"التقيا بنفسيهما، وتفاهما. وكلاهما عاقل. وأنا أرى بأنه ليس لنا كلام. وهذا هو الصحيح على الأغلب. يجب ألا يقع على عاتقنا الكلام،

أليس كذلك؟ طالما أنهما عاقلان، و... إنسانان تعلما بشكل جيد، يقع على عاتقنا تصويب قرارهما." وبعد أن قال هذا بموقف المفكر والمناقش مع نفسه، وقرر على ما يبدو أنه تمادى بالواقعية، فأضاف: "هكذا يجب أن يكون، هكذا يجب أن يكون، أليس كذلك يا سيدي؟"

قال مختار بيك: "كيف؟ طبعاً، طبعاً، طبعاً!"

"لهذا السبب أسألكم: يريد ابن اختنا الزواج من ابنتكم. هل أنتم موافقون؟"

دهش مختار بيك. كأنه سمع ما لم يتوقعه. فتململ في أريكته، وتلوى ناظراً إلى ناظلي كأنه يتوقع مساعدة. وشعر عمر أيضاً بالذنب. كأنه يفكر بضرورة الاعتذار من هذا الرجل المتلوي بحركات مرتبكة لأنه تسبب بموقف مزعج كهذا.

في النهاية تمتم مختار بيك: "آه، هل ستنفصل هي أيضاً عني بعد أمها؟" وبدا حزيناً ووحيداً.

قال زوج الخالة: "ولكن ليس الآن. هنالك زمن طويل للزواج!" بعد ذلك، أضاف على عجل، وكأن الوقت ليس وقت سلوان مختار بيك، بل وضع ما جرى التخطيط له موضع التنفيذ: "ليسعدا إذاً يا سيدي، ليسعدا!"

وحدث جمود لفترة قصيرة. وتنهدت الخالة.

طرح زوج الخالة بالأمور الأخرى التي يجب طرح: "ابننا عمر يعمل في السكك الحديدية كما تعلمون. قررا عمل الخطوبة في مطلع الربيع، قبل دخول موسم البناء. وقد بلغنا أنكم تريدون عمل الخطوبة في اسطنبول."

تمتم النائب بموقف المنهار: "لست أنا، لست أنا يا سيدي! لم تكن المرحومة أمها تحب أنقرة نهائياً، وأوصتنا..."

زمجر زوج الخالة كأنه يحتمل متاعب: "كما تريدون يا سيدي!" ثم صمت بعد أن قال بعض الكلمات حول تاريخ الخطوبة وتفاصيلها.

انتشر جمود في الغرفة. انزوى كل شخص غارقاً بأفكاره. خطر ببال عمر: "إنهم يفكرون بحيواتهم، وتصوراتهم. يستمتعون بهذا الزمن النادر الوجود، ويستغلوننا للتفكير بأنفسهم!" كل منهم يعيد النظر بذكرى أو

تصور صغير في حياته، وفي أثناء قيامه بهذا، يعتقد أنه يضعه مع ناظلي نصب عينيه، ووجد أن هذا غير محتمل. فكر: "شردوا مع أنفسهم إلى حد أن أحداً منهم لا يخطر بباله أن يقطع هذا الصمت!"

"انفعلتم كثيراً يا سيدي، كدت أقول حزنتم." كانت الخالة قائلة هذه العبارة. وتنظر بفضول إلى النائب، وتقف كأنها حزينة قليلاً.

يبدو أن مختار بيك قد سُر بهذا الاهتمام. قال بما يشبه الأنين: "ماذا أقول، ماذا أقول؟ كنت متوقعاً، ولكن رغم هذا أحسست بشيء غريب. ماذا أقول؟ لعلني لم أتوقع الأمر على هذا النحو." ونظر إلى عمر. "أحسست بحرارة نحو الشاب. ولكنني رغم هذا محتار!"

قال زوج الخالة كأنه يباهي بمعلوماته: "هكذا يغدو الأمر في هذا الزمان! البلد أيضاً يتغير، هكذا يغدو الأمر. يلتقون بأنفسهم، ويتفاهمون. هذا مناسب أكثر، أليس كذلك؟"

كان مختار بيك ينظر إلى عمر. وفكر عمر: "حسنٌ، الآن بدؤوا بقياسي، وتفصيلي!" كان رفعت بيك صاحب الجسم النحيف الموجود هناك مصادفة ينظر إليه. "بماذا يفكرون يا ترى؟ كيف يجدونني؟.." ووجد في نفسه دافعاً للنهوض، والخروج من الغرفة.

هرب النائب بعينيه عن عمر، وتمتم: "نعم، نعم يجب أن نوائم الزمن!" ثم انتشى كأنه تذكر شيئاً ممتعاً: " المرحومة وأنا، تزوجنا بطريقة الخاطبة." ولكن ظلاً ما سقط على وجهه فوراً. "ولكن هذا ليس سبب حيرتي... لأنني كنت دائماً من أنصار التقدم." والتفت إلى رفعت بيك منفعلاً، وأضاف: "لهذا السبب قدحنا كثيراً من البرق رفعت بيك وأنا في المجلس. نحن في قلب هذا النضال!" ثم بدأ يحكي كيف حارب الرجعيين أثناء ولايته لمانيسا من أجل تطبيق قانون الهندام الجديد ناسياً حزنه.

يبدو أن هذا الحزن والفرح غير المتوقعين من مختار بيك قد أدهشا الخالة وزوجها على الأكثر. استمعوا لما حكاه النائب منتشياً فترة. كانوا منتبهين لمواقفه، وحركات يديه وذراعيه وكلماته أكثر مما كانوا منتبهين لما يقوله.

فكر عمر: "إنهما يعتبرانه طائشاً على الأغلب." ولكنه شعر بأنه يرى حماه المستقبلي على هذا النحو فاندهش. تمتم: "إنه رجل حنون!" ونظر إلى ناظلي. كانت تستمع لأبيها باهتمام. وفتح رفعت بيك فمه أيضاً. فكر عمر: "يجب ألا أفكر بنفسي قليلاً، يجب أن أكون مثلهم ولو قليلاً، وأنضمُّ إلى هذه النشوة!" خطر بباله نسيان طموحه وأهوائه، والاندماج في هذا الجو الذي تدفئه المدفأة الخزفية ماحياً وعيه وكبرياءه. وجال بعينيه في أرجاء الغرفة إحدى اللحظات معتقداً بأنه سيتمكن من فعل هذا. ولكنه رأى أن الخادمة تنظر إليه من فرجة الباب، فتذكر أنه مرشح صهر. استمع لمختار بيك عن ولايته لمانيسا عاصراً نفسه. فكر: "هذا ما سيكون!" ولكنه فهم أنه لن ينقب به كثيراً.

سأل زوج الخالة بموقف صادق: "هل سافرتم إلى أوربا؟"

قال مختار بيك متحسراً: "آه، لا، لم تسنح لي الفرصة، ولكن لابد من الذهاب، ورؤيتها... أريد لناظلي العزيزة أن تذهب، أريد هذا بشدة." وخشي من فهم كلماته بشكل خاطئ، فأشار إلى الخادمة الداخلة حاملة صينية: "يبدو أننا يجب أن ننتقل ببطء إلى الطاولة."

وانتقلوا ببطء إلى الطاولة...

14

مشوار في الهواء الطلق

مضى شهر على رؤية ضياء "الشبح!"، ولكن جودت بيك مازال يفكر: "شبح يفوح فمه برائحة المشروب، وعلى صدره ميدالية، ويحاول سحب نقود من عمه!" كان أمام الباب المؤدي إلى الحديقة، في البهو، مقابل المرآة. ينظر أحياناً إلى المرآة الكبيرة، وينظر إلى نفسه. "متى سيأتي مرة أخرى؟" وجاء مرة أخرى في اليوم التالي لتركه عمه وسط نوبة السعال، وقال له جودت بيك إنه ليس في وضع يمكنه من إعطائه أي شيء، ونادى عثمان. فشرح له عثمان أنه لا يوجد نقود في الشركة، وثمة حاجة للمال حالياً لنقل المكتب من سيركجي إلى قرة كوي. استمع ضياء لهذا مبتسماً بمكر، وقبل أن يخرج، اغتنم فرصة، وهمس بأذن عمه أنه لن يتركه.

"ولكن من أجل أي حق؟" ونظر جودت بيك إلى الجسم المسن في المرآة، وفكر: "من أين يجد هذه الجرأة؟"

"قادمون، قادمون!" نيغان خانم قالت هذا. سيخرجون مع الأحفاد في مشوار، ولكنها تأخرت كما في كل مرة. وسُمع صوت الحفيدين النازلين من الدرج.

نظر جودت بيك إلى المرآة. وشعر بأن حدبته قد برزت أكثر، وأن رقبته قد قصرت. صار ينتبه إلى هذه الأمور دائماً أمام المرآة. وفكر معانداً: "لا

أريدهم أن يروني مسناً بغيضاً!" وضع قبعته على رأسه، ونظر للمرة الأخيرة إلى المرآة: مضت سنوات وأنا معتاد على هذا الوجه المسن ذي القبعة، ونسي الوجه الشاب ذي الطربوش منذ زمن طويل. ولكنه لم يستطيع المرور قبل أن يشعر بالانسحاق كما هو دائماً.

كان هناك ثلج متراخ في الخارج. كانت نهاية شباط. لم يذب الثلج النادف في عيد الأضحى بعد رغم مضي ثلاثة أيام عليه. بدأ يمشي رواحاً ومجيئاً في الفسحة بين الدرج الصاعد إلى البيت، وباب الحديقة ذي الأجراس.

كان يفكر: "كيف يجد الإنسان بعد كل هذه السنوات في نفسه الجرأة أن يأتي لإخافة عمه محاولاً سحب مال منه؟ لنقل إن تلك المرأة الشابة التي تعلق بها قد سلبته عقله. ولهذا السبب طاش إلى حد إقدامه على القيام بأي شيء. حسنٌ، لماذا اختار هذا الطريق لإيجاد النقود؟ ما الذي جعله يؤمن بأنه يمكن أن يسحب مني نقوداً؟ وقف وسط الحديقة. وكما اعتاد أن يفعل في الفترة الأخيرة حاول التفكير ضاغطاً على نفسه لتذكر اسم أو كلمة نسيها. قال لنفسه: "أضغط على نفسي، فلا أجد شيئاً! ولكنه لماذا اختار هذا الطريق؟.. آ، هاهم أتوا!"

كانت نيغان خانم تنزل إلى الحديقة عبر الدرج مرتدية معطفاً بلون وبر الجمل، وعلى رأسها قبعة صغيرة سوداء. وقد أمسكت بيدي حفيديها. فبسبب جائحة مرضية سارية لم ترسلهما أمهما إلى المدرسة منذ يومين. وبعد أن نزل جميل الذي بدأ المدرسة الابتدائية حديثاً الدرج، تملص من يد جدته، وبدأ يركض في الحديقة.

صرخت نيغان خانم: "قف، أقول لك لا تركض! ستسقط!"

وجد جودت بيك صوت زوجته فاقداً اللون وميتاً. وقرع الجرس المربوط على الباب. كانوا سيمشون نحو ماتشكا.

"يعتقد أنني سأشعر بأنني مدين له. لماذا يؤمن بهذا؟ لأنني صرفته عني، ولم أساعده كفاية!" تأبطت نيغان خانم ذراعه. وتذكر جودت بيك وفاة أخيه الكبير، وزواجه وانتقاله إلى نيشان طاشِ، وضياء الصغير المتجول في البيت في تلك السنوات. "كان حينئذ أكبر بقليل من هذين الحفيدين.

ولكن حاله كانت غريبة. لم يكن يبدو طفلاً. كأنه كبر، وصغر. كان ينظر بمكر. ويوجه نظره من الأسفل كأنه يحاسب الآخر، ويحاكمه. فوق هذا فإن وجهه مايزال طفلياً عندما ينظر هكذا: مثلما نظر عندما دخل إلى المكتب قبل شهر قائلاً إنه بحاجة النقود!" كانوا يتجهون من طريق الترامواي نحو المخفر. بدا جودت بيك كأنه غضب. "لم أكن أحبه!"

وصلوا عند زاوية المخفر. خرج أحدهم من دكان. اقترب منهم. لم يستطع جودت بيك معرفته، ولكن الرجل ذكر اسمه باحترام، وامتدت يده. حين قبل الرجل يد جودت بيك، كان يفكر: "من هذا؟" انحنى الرجل على يد نيفان خانم أيضاً. كان شاباً ذا وجهه نظيف، يلبس صدارة. وينظر إلى جودت بيك بحب. واقترب من الحفيدين. ونظر إليهما أيضاً بحب. "لابد أنه من المعارف القريبين، ولكن من؟"

بعد أن قطعوا المخفر، سأل جودت بيك زوجته عن هذا متضايقاً.

قالت نيفان خانم: "أما عرفته؟ إنه البستاني عزيز! لم يعد يهتم بالحديقة بعد أن فتح دكان خضري."

"هذا يعني أنه عزيز! كان يعمل في البستة قديماً. لقد هذّب الحديقة الخلفية." وساعده جودت بيك عندما فتح دكان الخضرة قبل سنتين. كان قد رآه أول مرة مع أبيه عندما تجول في البيت. قال أبوه إنه بستاني. كان يأكل بذراً في تلك الحديقة... فكر: "كيف تذكرت؟" هذه المرة الأولى التي يراه فيها أمام دكانه.

بعد ذلك تذكر كلمة نيفان خانم المزعجة تلك: "أما عرفته؟" و فكر جودت بيك: "لم أعد أستطيع معرفة الآخرين أيضاً." كان يخلط بين الأشياء كلها. إنها الشيخوخة. صار يذهب إلى المكتب مرتين في الأسبوع. لم يعد يرغب بعمل شيء. وإذا أراد فإن أحداً لا يدعه يعمل. وخطر بباله شيء آخر: "ولكنني لم أحرم أحداً من المساعدة!.." انفعل قليلاً. الجميع في نيشان طاش يعرفونه: الجميع يقفون باحترام عندما يرون جودت بيك، ويحيونه بمحبة. قدم شيئاً ما للجميع. وفكر: "أنا هنا منذ اثنتين وثلاثين سنة!"

كانوا يقتربون من تشويكية. ورأى جودت بيك بناء حديثاً يبنى مقابل الجامع. لمن كان هذا المكان؟ أخبرته بهذا نيفان خانم في المشوار السابق

قبل ثلاثة أيام، ولكنه الآن لا يستطيع التذكر. ثم تذكر: كان لتاجر تبغ إزميري، رجل طويل القامة، ولكن اسمه لا يخطر بباله بأي شكل. كان الاسم على رأس لسانه حتى تشويكية وهو يبحث عنه. ثم ترك البحث عنه حزيناً. وفكر بأن الجو بارد.

إنه هنا منذ اثنتان وثلاثين سنة. قبل اثنتين وثلاثين سنة جاء إلى هذه الدار التي في تشويكية، ورأى نيفان أول مرة. وعلى مدى اثنتين وثلاثين سنة وهو يقيم في البيت المقابل لحجر التهديف. في أحد أيام الصيف قبل اثنتين وثلاثين سنة دخل مع نيفان خانم إلى ذلك البيت الضخم. واستأجر خادمة وطباخاً. ثم جاء ذلك الولد الصامت، الشاحب الوجه، الذي ينظر من أسفل بعد موت أبيه. عاش معهما. كان يريد أن يكون عسكرياً. فقال له جودت بيك ذات يوم: "طالما أنك تريد أن تكون عسكرياً يا ضياء، ونجحت بالامتحانات، اذهب إلى قولة لي!" كان عثمان قد ولد حديثاً، وثمة سعادة في البيت. كانت نظرات ضياء الماكرة المتوجسة، وتجواله في البيت صامتاً دون أن يمس شيئاً كغريب تذكر جودت بيك بماض مزعج، وسنوات قديمة باردة مضت. بعد ذهاب ضياء إلى المدرسة العسكرية تعمقت الطمأنينة في بيت نيشان طاشِ أكثر، وصارت تلمس باليد. تمتم جودت بيك من جديد: "لم أكن أحبه!" كان في وضع يجعله يحب خطاياه. وأخذ نفساً عميقاً، ونظف رئتيه.

كان عليه أن يقف أحياناً، ويأخذ نفساً عميقاً. عند زيارة الطبيب إسحاق الأخيرة اضطر للاعتراف بأنه يشك بمرض رئتيه. كان جودت بيك بحاجة لهواء نظيف. وهذه كانت ذريعة جيدة لكي لا يذهب إلى المكتب. وذات يوم شرح له عثمان ورفيق طويلاً عدم ضرورة ذهابه إلى المكتب. وخطر ببال جودت بيك أن ذريعة الصحة هي الطريق الأكثر كرامة للانسحاب. وهو الآن في أثناء تنفسه بعمق مرتاح إلى حد أمكنه التفكير بكل هذا.

كان ثمة رجل ضخم البنية يمر على الرصيف المقابل. وعندما رآهم، أبطأ خطاه، ورفع قبعته المدورة العريضة الأطراف بحركة استعراضية. انحنى بشكل خفيف محيياً. وعرفه جودت بيك عندما كان يتلقى التحية

بالقبعة: كان المحامي جناب بيك. نظر إلى ساعته مفكراً بأن ساعات عمل المحامين ليست محددة.

كانت الساعة تقترب من الحادية عشرة. وفكر بأن المشي في ماتشكا في هذا الساعة بالنسبة إلى رجل مزعجة جداً. كان هذا وقت ربات البيوت، والمتقاعدين، والمتسكعين. والعاطلين عن العمل العاملين بأشياء أخرى. كان يستمع إلى الإذاعة، ويمازح أحفاده، ويزرع نباتات عجيبة في الحديقة الخلفية، ثم يحفظ أسماءها اللاتينية، ويكررها على المائدة! ولكن كان لديه عمل هام أيضاً: يحضر مذكراته. لم يكتب كلمة واحدة بعد. ولكنه بدأ بجمع المواد، ووجد عنوان الكتاب الذي سينشره: حياتي التجارية لنصف قرن! سيحكي عن كل ما فعله منذ تجارة الخشب إلى اليوم مغنياً له بالصور والوثائق والمقالات.

قابلوا امرأتين تتنزهان أولادهما بالعربات أمام الثكنة. كانت المرأتان ترتديان ألبسة جيدة، كانتا شابتين معافيتين، تضحكان. عندما التقوا أوقفتا عربتيهما. حييا جودت بيك، ثم تكلمتا معه بضع كلمات. انحنت إحداهما، وقبلت الحفيدين. واندست نيغان خانم في العربتين، وناغت الطفلين.

عندما بدؤوا يمشون تحت الأشجار تحدثت نيغان خانم عن المرأتين: "الطويلة النحيلة كنة صفت بيك. والأخرى أختها. تزوجت الاثنتان خلال الصيف قبل الماضي!" وقالت بعد ذلك بأن الطويلة النحيلة كانت مخطوبة لآخر من قبل.

تمتم جودت بيك فجأة: "شبح!". كانوا ضمن تلك الحديقة الخاوية المسماة المحجرة، يتجولون بين الأحجار غير المستعملة للجامع الذي وضع حجر أساسه عبد العزيز، ولم يكتمل. مازالت نيغان خانم تحكي عن المرأتين الشابتين، وبدا مضيق البوسفور والجزر من بعيد. "الشبح! لن أستطيع التخلص منه! هو أيضاً يعرف أنني لن أستطيع التخلص منه أعطيته النقود أم لم أعطه. لهذا السبب سيأتي لطلب النقود." وهبت ريح باردة وجافة. فاستند جودت بيك إلى نيغان خانم. واندست به زوجته مثل القطة. مازال الحفيدان ينبشان بكوم ثلج لم يغدو طينياً بعد. شردا باللعب، ونسيا

جدهما وجدتهما. رفكر فجأة: "لن أستطيع التملص من دكان الحطب، والحسكة، والبيت الذي في وفا، وأخي الكبير، والشبح!" كان ينظر إلى الولدين، ولكنه لا يراهما. كانت المشاهد في خياله تطارد الخيول: أبوه الذي عمل بالحطب يموت، جودت بيك يكبّر دكان الخرداوات، ويبدأ البيع للأناضول، أخوه الكبير يحتضر طريح الفراش، ويوصي بأن يعيش ضياء عند أخيه الأصغر، ويتزوج من نيغان خانم، ويزور إسماعيل حقي باشا من أجل أن يستورد سكراً. كان يريد أن يحظى بالطمأنينة في بيت نيشان طاش، وأن تكون عنده عائلة مثل تلك التي في كتب تعلم الفرنسية.

صرخت نيغان خانم: "اتركه، اتركه ستوسخ نفسك!" ترك جميل غصناً ملوثاً بالطين على الأرض.

وتمتم جودت بيك لزوجته: "أشعر بالبرد، لنعد!"

اندست نيغان خانم بزوجها.

كانت المشاهد تطارد خيولاً في خياله وهم في طريق العودة أيضاً. لم يحاول جودت بيك ضبطها. فكر بالشبح أحياناً. قرر مرة أخرى أن يطلب من ابنه إعطاء ضياء قليلاً من النقود، ولكن خطر بباله أن عثمان لن يرضى بهذا. حاول أن يتحرك، وأن يفرك بيديه لكي لا يبرد، ولكنه تعب فوراً. عندما كان واقفاً أمام موقف التشويكية قرر أن يركب بترامواي عابرة، ولكنه تراجع عن قراره. بعد ذلك، خطر بباله أن ينام بعد الطعام. لم يكن يقول شيئاً لأحد. كان الحفيدان قد تعبا أيضاً على الأرجح: لم ينفصلا عن الجد والجدة. وحاول جودت بيك أن يسلي نفسه بالتفكير بالغداء.

في أثناء مرورهم من أمام جامع تشويكية لمعت بقعة صغيرة بين الأفكار المتراخية: "ترى هل أستطيع إقامة صلاة عيد أخرى؟" فقد ارتجف فوق سجاد الجامع البارد في هذا العيد أيضاً، ولكنه شعر بسعادة لأنه تألم، واحتمل هذا بطمأنينة. كان مدركاً أن البقعة تنتشر ملامسة أفكاراً أخرى: "ترى هل سأرى ابن رفيق؟" أخبروه قبل شهرين أن بريهان حامل. "أو سأشهد على انتقال المكتب إلى قرة قوي؟" لم تثمر معارضته نقل المكتب إلى قرة كوي، فتظاهر بأنه موافق. وعند مرورهم من أمام المخفر فكر: "لأنهي

مذكراتي تلك بسرعة! ترى إذا زرعت نبات الخطمي في الحديقة الخلفية فهل ستعيش؟ خطمي، خطمي... ماذا كان اسمها؟ لونيسيرا كابري... ولكن تلك ألم تكن صريمة الجدي؟ آلثا أوفيسيناليس!"

فجأة صدر صوت أجش مخنوق: "جودت بيك!"

التفت جودت بيك. فكر: "واخ، واخ! بأي حال أصبح سيفي باشا!" كان سفير عبد الحميد في لندن. وصديق والد نيغان شكرو باشا. كان سيتألق أكثر، ولكن المشروطية وضعته في الظل.

قال جودت بيك: "كيف حالكم يا سيدي؟"

قال سيفي باشا مجيباً: "كيف حالك يا ابنتي نيغان؟"

أفلتت نيغان خانم من ذراع زوجها، وانحنت، وقبلت يد سيفي باشا باحترام.

قال سيفي باشا بصوت أكثر خشونة: "لم يبق أناس مثل أبيك! أي إنسان كان شكرو باشا! لم يعد هناك إنسان مثله!" وقال أمور أخرى. كان يثير الاحترام من حوله رغم استناده إلى الخادم المرافق له، وصعوبة وقوفه على قدميه، وشبه وجهه بكلب كريه مسن.

لم يستطع جودت بيك منع نفسه من الإعجاب به. وفكر: "يجب أن يكون قد تجاوز التسعين! هؤلاء يعيشون طويلاً. لأنهم لم ينهكوا أنفسهم بهموم التجارة. أنا سأذهب قبله. ما الداعي لتقبيل نيغان يده؟"

قال الباشا مجدداً: "أي إنسان كان أبوك! لم يبق إنسان حقيقي مثله!" والتفت إلى جودت بيك: "هل تركت لسادة أبناء التجارة؟" وهز رأسه إلى اليمين وإلى اليسار. "من الهواء الطلق، ومن حديقة المحجر ها؟ آه، هاه، هه!" وتحولت ضحكة الباشا المجلجلة إلى سعال أجش.

تمتم جودت بيه قائلاً: "نعم يا سيدي!" وشعر أنه يحاكم، ولكنه يعرف أنه لن يستطيع عمل شيء.

التفت سيفي باشا مرة أخرى إلى نيغان خانم. وسألها عن أخواتها، وعن أقرباء ومعارف آخرين لها. كان يرى جميع الذين سأل عنهم من المعارف

على أنهم "أناس حقيقيون". تضايق بعد قليل. وأنب خادمه مدعياً أنه يهتز. انحنت نيفان خانم، وقبلت يد الباشا مدركة أن الوقت قد حان. حاول الباشا قول كلمات حلوة لحفيدي جودت بيك المتأرجحين عند نهاية طرف ثوبه، ولكن الشخير الأجش المخنوق الذي خرج من فمه لم ينفع إلا بإخافتهما. ابتعد بعد ذلك ناهزاً خادمه، ودافعاً ومؤنباً له.

قالت نيفان خانم: "كم شاخ!" وتنهدت.

فكر جودت بيك: "إنه مسنّ، ولكنه صحيح الجسم!" ومشى فترة طويلة دون أن يقول شيئاً، ومن دون أن تتأبط زوجته بذراعه. ثم توقف عند زاوية نيشان طاشِ. وفكر: "ما الداعي لتقبيل نيفان يده؟" عبرت ترامواي وهي تسحق سكتها مصدرة صوتاً، وأنيناً. "لماذا قبلت يده؟" ثم أطلقت سيارة صوت بوقها فخاف الولدان، واندسا بجدهما وجدتهما. لعلهما نسيا سيفي باشا، ولكنهما مازالا خائفين من شيء ما. حدث توتر غريب مخرب للأعصاب عند تقبيل نيفان خانم يد الباشا، كأن شيئاً قد كسر، أو ذنباً قد ارتكب، أو ريحاً ماكرة قد هبت. وتزايد غضب جودت بيك من تقبيل اليد مع مرور الزمن، وأراد أن يدين نيفان خانم بنظراته، ولكن زوجته لم تكن منتبه نهائياً. ثم عبروا إلى الطرف الآخر ببطء، وظهر البيت.

كان ثمة أشجار كستناء وزيزفون في الحديقة الأمامية. وكانت نوافذ الطابق العلوي مفتوحة رغم البرد. وقد ربط قماش أبيض على حامية الشرفة الجانبية: هذه إشارة للسقا. وكان يصعد من المدخنة دخان أزرق رفيع، ويتبدد في الريح فوراً. تهتز أشجار الحديقة الخلفية العارية في الريح. ثمة قط يمشي عند أسفل الجدار الجانبي. وفكر جودت بيك: "أنا جائع! سأدخل إلى بيتي الآن. وسأملأ بطني. بعد ذلك سأدخن سيجارة بشكل ممتع. بعد ذلك، قيلولة حلوة وطويلة..."

15

شاعر مهندس في الخطوبة

فتح الباب فجأة. قالت فريدة خانم: "ليستنشق ابني العزيز قليلاً من الهواء! الشاي أيضاً جاهز! لو أنك تخرج من هذه الغرفة، وتجلس معي. لديك يوم أحد واحد في الأسبوع. وهل يمكنك قضاء هذا اليوم كله جالساً في الغرفة وسط دخان السجائر وهذه الكتب؟ انظر إلى وجهك. ولله إنك تبدو كإبليس."

قال محي الدين: "سآخذ الشاي فيما بعد يا أمي. وسأخرج بعد قليل. عمر يخطب."

"آ، عمر يخطب؟ لماذا لا تحكي؟ من؟"

رد محي الدين بصوت بارد: "فتاة!" ولكنه ندم حتى من قول هذا. وفكر: "الآن ستسألني من هي العروس، وماذا يعمل أبوها، وتريد أن تعرف التفاصيل!" وعبس ليفهمها بأنه لن يكون مسروراً من أسئلتها.

قالت أمه: "الشاي حاضر. هذا ما أردت قوله!"

وفكر محي الدين بغياب أمه: "ضايقتها. شاكستها! كان يمكنني إشباع فضولها، أو قول بضع جمل على الأقل لإعطائها معلومات تلهيها يومين أو ثلاثة، وتعلق في عقلها. ولكنه فكر بأن أمه لن تكتفي بأقواله في أي وقت، وبعد أن تعرفُ بأ عمر سعيد للغاية، ستذكر المتزوجين السعداء من المعارف الآخرين، لتري ابنها كم هي حزينة لتعاسته، وما يجب

على محي الدين أن يفعله من أجل التخلص من تلك التعاسة. وفكر محي الدين مرة أخرى: "غير هذا؟ أنا لا أفعل شيئاً آخر. أعلق تعليقات فارغة من جديد!" وكان مايزال ينظر إلى الباب المغلق، ويجلس شارداً.

كانت الساعة تقترب من الخامسة. وكان يجلس في تلك الغرفة الواقعة على مرتفعات بشك طاش وراء الطاولة منذ الصباح. لقد خصص أيام الأحد لكتابة الشعر. يكتب الشعر أحياناً في أمسيات بعض أيام الأسبوع، ولكنه لم يكن ينتج شيئاً كثيراً لأنه متعب. والآن أيضاً لم ينتج شيئاً عظيماً. كان يكتب الشيء ذاته، ويشطبه، ولا يستطيع منح الشكل الذي يريده لقصيدة قديمة لم تكتمل منذ ساعات. نهض من خلف طاولته، واقترب من النافذة. كان ثمة ربيع جديد يافع فوق بشك طاش. ومر عائلة في الزقاق المؤدي إلى طريق سرانجا بيك الصاعدة عائدة من نزهة يوم الأحد. بعد قليل، ستتهيج السنونو التي معكرة السماء عصر اليوم. ثمة مركبا شحن صغيران على سطح البحر الذي يبدو من بعيد هادئاً دون حركة، وحدأة ترسم دوائر فوق إحدى المداخن. فكر محي الدين: "لم أعمل جيداً مرة أخرى!" في أوقات كهذه كان غالباً ما ينزل إلى بشك طاش، ويحتسي مشروباً، ولكنه الآن سيذهب إلى الخطبة. كان يشعر في داخله بثقل الحفل البارد. "وهكذا يمر يوم أخر. كنت قد قررت قتل نفسي إذا لم أغد شاعراً جيداً في الثلاثين من عمري!" تبدو له تلك الفكرة الآن فورة شباب خليق أن تقابل بتسامح، أو كمزاح قيل بانفعال، ولكنه لم يستطع منع نفسه من الحساب الذي يجريه دائماً: "في الثلاثين من عمره... هذا يعني عام **1940**... والآن نحن في ربيع عام **1937**. أمامي ثلاث سنوات. لم يكن كتاب الشعر ذاك الذي لم ينشر حتى الآن هاماً. يجب عمل الكثير خلال ثلاث السنوات."

بقيت ثلاث سنوات. أكل بنهم سبع سنوات من العشر، ولم يستمتع بطعمها. لم يفكر بأنه سيصل إلى هذه اللحظة بهذه السرعة في تلك السنوات. كان طالباً في كلية الهندسة. لم يكن يبدو له بأن السنوات السبع، أو حتى السنتين المتبقيتين للتخرج في الكلية بأنها ستنتهي. كان ينظر باستعلاء إلى زملائه الذين يلعبون بالكرة في دهاليز الكلية بين الدروس، ويتبارون بقطعة نقود بدل الكرة على طاولات الرسم، ويذهبون إلى السينما في بيه أغلو، ويعلن لهم إنه ديستوفسكي مستمتعاً بذلك. كان

عمر ورفيق يبدوان متبنين المبادئ نفسها: كان لديهما موقف ساخر مغذى بالاستخفاف والكره. كانا يؤمنان بالذكاء والتسامح، أو هذا ما بدا لمحي الدين. وذات مرة أفرطوا بالشرب في خمارة في بيه أوغلو، وصرح محي الدين بقراره ذاك. لم يُقابل القرار كما توقع. خيم على الطاولة احترام مبهم تماماً، ولكن مظاهر الدهشة أو الإعجاب لم تظهر. بدا أن محو ما بعد سن الثلاثين، وإلقائه أمراً سهلاً. لم يكن ثمة من يعتقد بأنه ستكون له حياة بعد الثلاثين من العمر.

فكر محي الدين: "عمر الثلاثين! إنه بعد ثلاث سنوات!" ومر مسنٌ يعتمر قبعة من الزقاق. كان يبدو في الستينيات من عمره، وقد دس جرائده تحت إبطه. لابد أنه ذهب إلى مقهى وسط السوق، وقرأ جريدته وسط صخب لعب الطاولات، ثم بادل جريدته بجرائد المتقاعدين الآخرين، واستعرض أخبار اليوم كلها بانتباه. هكذا كان يفعل والد محي الدين العسكري بعد تقاعده. وكان يذهب إلى الجامع طبعاً. فكر محي الدين فيما إذا كان ذلك المسن العابر من الزقاق يذهب إلى الجامع أم لا، وحاول أن يتذكر ما إن كان قد رآه في السوق أم لا. بعد ذلك، انسحب من أمام النافذة، وجلس خلف طاولته. كان يعرف أنه لن يستطيع بعد الآن كتابة شيء، ولكن الجلوس خلف الطاولة أفضل من النظر عبر النافذة.

كانت الأوراق التي شطبت فوقها القصائد غير المكتملة، والجرائد، والمجلات، والسجائر، والأقلام على الطاولة. وانبعث من منفضة السجائر المليئة حتى حافتها رائحة قذرة. فكر محي الدين: " هو ذا كل شيء! رائحة رماد قذرة، قطع ورق دونما قوام لكثرة جعلكتها، ومجلات... لماذا أخدع نفسي؟ هذا ما تبقى لي من العالم الذي كنت أستخف به... طبعاً هنالك بين يديّ الهندسة التي أعمل بها من أجل كسب النقود..." فتح إحدى الجرائد التي كانت على الطاولة، ونظر إليها. لابد أن المسن العائد من السوق قرأ هذه الجريدة من أولها إلى آخرها. "التقى رئيس حكومتنا مع كبار المسؤولين الفرنسيين... وتم التوصل إلى نتيجة مقبولة في قضيتنا حول هطاي... حصلت حكومة بلوم في فرنسا على ثقة 380 عضواً... فيلمان بالتركية معاً في سينما سراي... ارتفاع أسعار الصابون ناجم عن ندرة الزيتون... نصائح لقمان الحكيم... جانب من مدينة غورنيكا التي دمرتها

طائرات أنصار فرانكو... جهاز تبريد الأخوين بورلا: فريجيدير... البورصة: الاسترليني: 620، الدولار: 123، الذهب: 1059، نصائح لقمان الحكيم... نرفين:لآلام الأعصاب، وسعال التوتر، والضعف، والأرق..." فكر محي الدين: "وها أنا أفعل الشيء نفسه، فأقرأ!" والد محي الدين كان يعمل الأمر نفسه، يقرأ الجرائد من أولها إلى آخرها لأنه يجد فيها مادة للثرثرة تضيف إلى يومه متعة. تمتم محي الدين بمشاعر خاوية تماماً: "حسنٌ، ماذا يجب أن يُفعل؟ كيف يجب أن يعاش؟" ولكن هذه كانت مجرد كلمات. لم يكن يشعر باليأس أو الضياع الذي لابد لتلك الكلمات أن تفرضه. فوق هذا فهو شاعر. يعرف أن الكلمات بحد ذاتها تحمل قيمة، ولكنه لا يستطيع إيجاد الكثير مما يكمن داخلها.

قرر النهوض من خلف الطاولة، ولكنه تراجع عندما رأى صورة أبيه الموضوعة في المكتبة. كانت أمه قد وضعت تلك الصورة ذات الإطار الفضي هناك قبل خمس أو ست سنوات، ولم يمسسها محي الدين. وظهر في الصورة الملازم حيدر بيك ببزته وسيفه. التقطت تلك الصورة قبيل تقاعده في بيه أوغلو، وبعد فترة قصيرة قال للجميع بأنه متعب، وسينسحب إلى ركنه الخاص، وترك الجيش، ولم يذهب إلى أنقرة للحرب. قاتل حيدر بيك في فلسطين في صفوف الجيش السابع، وهناك اشتهر بدقة تصويبه. وعندما صدر قانون الألقاب قبل ثلاثة سنوات، تذكر محي الدين مهارة أبيه، فاختار لقب نيشانجي، ورأى أن هذا اللقب مناسب لشاعر. يعتبر محي الدين أن موقف المفكر الذي اتخذه أبوه في أثناء التقاط الصورة كان مضحكاً. مظهر الرجل القوي الواثق من نفسه الذي يبدو على حيدر بيك، وابتسامته الغامضة، وشارباه المفتولان المعقوفان إلى الأعلى، وسيفه المدفوع كثيراً إلى الخلف لقصر قامته، ويده الغليظة القصيرة الشبيهة بتمثال على قاعدة، كل ما فيه كان يظهر بأنه مسكين. كلما رأى محي الدين هذه الصورة كان يفكر بما يجب عليه أن يفعله لكي لا يغدو مثل أبيه، وأحياناً يسيطر عيه الفزع. فهذا الشيء الموضوع في إحدى فتحات المكتبة ضمن إطار فضي هو إنسان عادي، حياة ذهبت هدراً، وإنسان عاش قلقاً دائماً منتظراً أموراً ما، لم يغص تحت السطوح، كان يثير الشفقة. ولكي يتخلص محي الدين من الإعجاب الذي يكنه لأبيه، وكان يدرك هذا،

كان لابد له من بلوغ الثامنة عشرة من عمره، وانقضاء أربع سنوات على وفاته. فكر محي الدين من جديد: "ماذا يجب أن يُفعل؟" ولكنه لم ينفعل أيضاً، وسيطر عليه شبه قلق ناجم عن الاعتياد. جلس فترة أخرى وهو ينظر إلى الصورة أمامه، ملهياً نفسه، شاعراً بثقل الحياة والسنوات التي أمامه بشك خفيف. ثم نظر إلى ساعته، فقرر البدء بالاستعداد لحفل الخطوبة، وحلاقة ذقنه في سوق بشك طاش.

بعد أن ارتدى ثيابه، وجهز نفسه، ودخل إلى المطبخ، وخرج منه. كانت أمه قد مدت جسدها من النافذة، وتتكلم مع الجارة التي انتقلت حديثاً.

قالت الجارة المنتقلة حديثاً: "أزهاركم عاشت يا سيدة خانم!"

وقالت فريدة خانم: "عاشت، ولكن تلك لم تتفتح أزهارها!" وأشارت إلى أصيص على قاعدة الشرفة. وانتبهت إلى أن محي الدين قد دخل إلى المطبخ، فانسحبت إلى الداخل. تفرست بمحي الدين بانتباه، وأبدت إعجابها بهندام ابنها. قالت بنبرة سعيدة: "هذا يعني أنك ذاهب. إلهُ جيداً على الأقل!"

شعر محي الدين أن أمه تستمتع بفكرة أن مشاركة ابنها بحفل بهيج سيسعده، وأن ثمة أناساً سيكونون سعداء في صالة يكون فيها ابنها أيضاً، وهي تتخيل تلك السعادة.

شعر بنفسه مرتاحاً وغير متضايق أثناء مسيره في السوق. كان يحيي من يعرفهم، ويفكر: "ترى هل يقدمون مشروباً هناك؟ ترى كيف سيكون وجه عمر عند تلبيس خواتم الخطبة؟ سأنتبه لهذا، وأجلس في مكان أرى فيه وجه عمر فاتحنا هذا جيداً!" وحيا من جديد، وكان يمشي، ويفكر بأنه أنيق، ويشعر بأن الناس يقدرونه لأنه مهندس شاب، وذكي، وأنيق. غير أولئك ثمة مسنون يحبونه لأنهم يعرفون أباه، وطفولته، وذانك العسكريان الشابان المعجبان بذكائه، وهناك أيضاً الحلاق المسن الذي يعرفه منذ سنوات طويلة.

كان الحلاق يعرف حياة الشاب المهندس كاملة لأنه يستمع لكل ما يتعلق بحياته من أول الشهر إلى آخره. ضحك بحب حين رأى محي الدين. قال: "ذقن، أليس كذلك؟" وأثناء إخراجه مريلة نظيفة من الدرج سأله عن حال أمه.

تذكر محي الدين أولى السنوات التي جاء فيها إلى هنا في طفولته. كان الحلاق يضع بين مسندي الكرسي الجانبيين قطعة خشب لكي يرفعه إلى مستوى المرآة، ويفتح جريدة تحت قدميه لكي لا يوسخ مكان الجلوس. بكى محي الدين في المرات الأولى لمجيئه، وقال له الحلاق: "ابن العسكري لا يبكي!" لكي يسليه. وفي المرات اللاحقة كانت أمه تسلمه للحلاق، وتخرج إلى السوق للتسوق محركة جسمها الضئيل بحركات سريعة وسط ملاءتها الفضفاضة. وقد جاء مع أبوه ذات مرة، وهو يتذكر أن الحلاق قد احترم أباه كثيراً. كان الحلاق يقدر الملازم حيدر. وها هو الآن يقدر المهندس محي الدين. أثناء فرك الصابون على وجهه باحترام حاول الحصول على بعض المعلومات حول عمله، ونسي كما يبدو أن هذا المهندس كان طفلاً يبكي في دكانه يوماً ما.

دس محي الدين يديه تحت المريلة، وفكر: "أشعر بنفسي هنا كالطفل!" كان يترك جسمه فترة للحلاق، ويعرض الحلاق على السوق زبوناً أجلسه على كرسي خلف زجاج عريض يذكر بواجهة عرض بضاعة، ويبادله المعلومات كما يفعل مع الآخرين، وينظر إلى المارين في السوق بطرف عينه. كان محي الدين أيضاً ينظر إلى واجهة دكان الحلاق كلما مر من السوق، ويفكر: "آه، الكاتب حسام الدين بيك يحلق ذقنه!" والآن لاشك أن المارين في السوق بعد ظهر يوم الأحد يقولون: "آه، المهندس محي الدين يحلق ذقنه."

فكر: "نعم مهندس. المهندس محي الدين! ها أنا ذا!" مهندس ولكنه ليس وسيماً جداً، كان قصير القامة، ويضع نظارة، وحاد الملامح، يثير فيمن يقابله خوفاً أو إعجاباً، ولكنه لا يثير محبة. كان ينظر إلى المرآة، ويرمق نظارته التي يستمتع بتشبيه كل من عدستيها بأرض زجاجة مكسورة راغباً بأن يكون له وجوده الخاص، ويرد أحياناً على أسئلة الحلاق. "ها أنا. مهندس. في عام 1937، وفي مدينة من مدن العالم، هنا في اسطنبول، في بشك طاش، وعلى كرسي حلاق، هادئ وصامت تحت مريلة بيضاء مثل جميع زبائن الحلاقين الآخرين، مهذب، وجامد... أنا محي الدين، مهندس... أنا محي الدين نيشانجي الذي يحاول أن يكون شاعراً جيداً، ولكنه يعاني من نقص الإرادة وعزيمة العمل، أعزب وذكي،

وسيذهب إلى حفل خطبة صديقه في يوم ربيعي، ويتململ لهفة لصدور مجموعته الشعرية، قلق على مستقبله..." فجأة هرب بعينيه من المرآة. وقال لنفسه: "لا، لا! لا أريد أن أفكر الآن. أريد أن أتفرج على حفل الخطوبة، وألهو. لا أريد أن أفكر بما هو، ومن هو، وما سيكون عليه!" وارتعد فجأة لصمت حفيف الموسى تحت أذنه.

نظر الحلاق إلى المرآة نظرة تفهّم واستفهام. ومحي الدين أيضاً نظر إلى هناك، ولكنه لم يرغب برؤية نفسه. لم ير وجهه أثناء فركه بالصابون أيضاً. تململ في مقعده محاولاً عدم التفكير بشيء حتى الخروج من دكان الحلاق. استمع إلى حفيف الموسى على وجهه.

بعد خروجه من دكان الحلاق ركب سيارة أجرة. كان يعرف السائق من سوق بشك طاش. والسائق أيضاً كان يعرف وجه هذا المهندس. ولكي لا يفكر محي الدين ثرثر مع السائق طوال الطريق، وتطرقا لغلاء الأسعار، ومباريات كرة القدم، والسائقين الآخرين غير المنتبهين.

دله رفيق على البناء الذي في أياظ باشا. أثناء صعوده الدرج كان يفكر: "تأخرت!" كان يشعر بكارثة تفويته كل شيء مما يجب أن يراه، ويعيشه. ولكنه بعد قرع الجرس دهش فجأة. وفكر: "ثمة زحام هناك!" سينظر إليه الزحام الذي في الداخل، ويدقق النظر فيه، ويبتسم له، وسيبادله الأمور نفسها. أدخلته امرأة لم يعرفها إلى البهو، ودخل بين الناس، وبحث عن مكان يجلس فيه.

كانت النساء والفتيات يجلسن في طرف من البهو، وكان الشباب والرجال الكبار يجلسون في الطرف الآخر. لابد أن أحداً لم يفكر بضرورة جلوسهم هكذا منفصلين، وخطر ببال الأكثرية أن الجلوس معاً أصوب، وأرقى حضارياً، ولكن أحداً لم يجرؤ على تخريب القاعدة. ثمة حاكي يصدر موسيقى، والجميع يتهامسون بانتظار شيء ما. رأى محي الدين رفيقاً وبريهان المنفوخة البطن. وبعد ذلك، خرج عمر من أحد الأبواب، فأشار له بيده، ولكنه لم يأت إلى جانبه. ورأى ناظلي للحظة، وقرر أنها جميلة. فكر: "نعم، تأخرت!" بعد قليل أُسكت الحاكي، وحدث شيء ينبئ باقتراب حدوث ما هو متوقع. فكر محي الدين: "بما أنهم سيدخلون من هذا

الباب، يمكنني رؤية وجه عمر جيداً!" استنتج أنه جلس في مكان جيد.

دخل عمر وناظلي من المكان الذي توقعه محي الدين، أي من الباب المؤدي إلى الدهليز. وجاء من خلفهما مباشرة النائب مختار بيك. قرر محي الدين أن ناظلي ليست جميلة بالقدر الذي رآها فيه أول مرة، حتى إنه كاد يرى في وجهها قبحاً. ثم دخل بينهما النائب الذي كان قادماً من خلفهما، وأمسكهما من معصميهما. وتلفت يميناً ويساراً كأنه يبحث عن شيء ما. دس يده في جيبه على عجل، وأخرج خاتمين مربوطين بشريط. ثم لبّس الخاتمين اللامعين تحت أنظار الجمع في الإصبعين بحركات غير ماهرة. لم يكن محي الدين يعرف أن الخاتمين يجب أن يكونا مربوطين أحدهما بالآخر. قص النائب ذلك الشريط بمقص مده له أحدهم. وبعد ذلك، انفعل، وقال: "ها نحن أعلنا خطوبة ابنتي الحبيبة وابني هذا الشاب الذي أحببته كثيراً. ليكن أولادنا محبين ومحترمين أحدهما للآخر..."

وفكر محي الدين: "ها هو قد امتقع بالحمرة!" كان يدقق النظر بوجه عمر المتجمد تماماً. "أهكذا يجب أن يكون وجه الفاتح؟ مثل الحمَل! لابد أنه خجل ومتضايق، ولكنه اختار هذا بنفسه. أي تسهيلات يمكن أن يقدمها له هذا النائب على طريق الفتح؟"

بدأ تصفيق. وفكر محي الدين: "ما أسرع انتهاؤه!" بعد ذلك ضرب يديه إحداهما بالأخرى عدة مرات مشاركاً المجاورين له، وابتسم. وفكر: "أنا أفعل هذا لأنه يجب فعله هذا!" ولكنه لم يجد موقفه ازدواجياً.

قبل النائب الشابين، وقبل المخطوبان يد النائب. حين انزوى النائب جانباً بقيا في الوسط. ساد الجو دهشة وجمود. نظرت ناظلي طويلاً إلى عمر مرتبكة. وأظهرت بنظرتها البلهاء هذه للجميع أنها ستضبط تصرفاتها، وقراراتها بعد الآن وفق رغبة هذا الرجل الذي بجانبها. ثم انحنت بحركة مفاجئة، وحملت بحضنها قطاً رمادياً كان يتجول بين قدميها. وبدأ ضحك مرح. نهض الجميع، وهرعوا لتقبيل المخطوبين، والمباركة لهما.

انفعل محي الدين في أثناء تقبيل عمر. لم يكن يتوقع شيئاً كهذا، شعر بالدهشة، ولكنه قال العبارة التي حضرها: "هيا يا راستنياك لنرى، بدأت جيداً، وانهِ ما بدأت!"

صرخ عمر قائلاً: "بدأت جيداً ها؟.. آه يا عزيزي محي الدين!" كان شرب قليلاً من المشروب على الأغلب. "آه يا عزيزي محي الدين أنت كما انت دائماً، أما أنا!.."

قال محي الدين: "لا، لا! انت أيضاً حيوي وداهية!" وعندما رأى عمر يعانق قريباً آخر له، ولم يعد يصغي له، التفت إلى رفيق، وقال: "الحمل ظاهر جيداً على بريهان!" وخطر بباله أن العبارة التي قالها من دون تفكير عبارة غبية.

قال رفيق: "لنذهب إلى عندنا مساء، ممكن؟ بعد ذهاب الجميع!" وأشار إلى الزحام.

كان ثمة تماوج وحركة لذيذة وناعمة في البهو. ينهض الناس من أمكنتهم، ويتبادلون القبل والنظرات، ويتضاحكون، ويقولون كلمات حلوة. كان ذاك هديراً سعيداً. شعر بارتياح كأن هذا الهدير والحركة الحيوية متوقعان أكثر من الخطوبة. كان مختار بيك يتكلم في الزاوية مع خالة عمر وزوجها. أما ناظلي وعمر فكانا يضحكان مع مجموعة من صبايا عند النافذة. كان ذلك القط المسن بين الصبايا، ويتنقل مكشر من حضن إلى حضن، وتُسمع قهقهات متوازنة. وكانت عمة ناظلي باعتبارها المضيفة تهرع من زاوية إلى أخرى لتأسيس الروابط بين المجموعات في البهو، وإنشاء جسور المرح، وكانت تضحك، وتطلق طرفة أحياناً من أجل تأجيج مشاعر السعادة، أو تحزن من دون إرادتها.

فكر محي الدين: "يجب أن أكون واحداً مثلهم، وأنضم إليهم!" ولكنه لم يعرف ما يجب أن يفعله أولاً ليكون مثلهم، وينضم إلى ذلك الهدير. والتفت إلى رفيق مقرراً أن يمازحه.

قال: "مسرحية جيدة، أليس كذلك؟" وحاول أن يضحك، فلم يستطع.

قال رفيق: "نعم، إننا نلهو جيداً!"

ولمجرد أن يقول محي الدين شيئاً: "سنلهو فعلاً على الطعام. ترى هل يوجد مشروب؟"

وفي تلك الأثناء سمعت قهقهة. كانت عمة ناظلي جميلة خانم تروي قصة.

وفكر محي الدين: "لا، أنا لا أستطيع أن أكون مثلهم!"

16
طموح وخاطب

كانت جميلة خانم تروي قصة توسيخ حضنها التي روتها لعمر سابقاً لأقربائها الجالسين في الزاوية. وعندما وصلت إلى نهاية القصة، عقدت يديها على صدرها مرة أخرى لكي تشرح كيف ضغطت بعمر على حضنها لكي تخفي البقعة، وبدأت تضحك بصوت مكبوت. المستمعون إلى لقصة، فنظروا إلى عمر، وابتسموا هازين برؤوسهم إلى اليمين واليسار.

قالت جميلة خانم: "كم كانت فرحتنا كبيرة لافتتاح ذلك المحل المناسب لنا في منطقة النفق!"

قالت مجيدة خانم: "كان هناك ذلك النادي الشهير، ولكن دخول النساء إليه يتطلب جرأة!"

قالت جميلة خانم: "أنا وجدت تلك الجرأة في نفسي ذات مرة! ولكنني خجلت بعد ذلك، فبكيت في البيت. ورآني مختار!"

كان مختار بيك يتثاءب. بعد أن تثاءب وتمطى، التفت إلى عمر، وقال: "لماذا لا تجلس أيها الشاب؟" ثم تذكر شيئاً: "أمازال تفكيرك هو نفسه حول الثورات؟"

قالت جميلة خانم: "لنتركه اليوم براحته يا مختار!"

"لم أفعل شيئاً للولد يا روحي!"

ابتسم عمر، وأراد أن يقول بابتسامته: "لا أحد يستطيع اليوم أن يقلقني!" وعاد إلى الصبايا صديقات ناظلي.

في هذه الأثناء وضع أحدهم على الحاكي أغنية ألمانية. فصمت الجميع. ثم بدأ المرح يتدفق. شرعت صبية، وهي صديقة طفولة لناظلي، تروي إحدى الذكريات. في الأمكنة التي يجب أن يُبتسم فيها تثير صديقاتها ليضحكن جميعاً، وتنظر إلى عمر بين حين وآخر. وكانت الفتيات الأخريات أيضاً ينظرن إلى عمر. كانت نظراتهن تقول: "هذه الفتاة التي أعجبت بها، وخطبتها الآن، وقررت الزواج منها كم هي صديقة حميمة وقديمة لنا، هل تفهم هذا؟ وبقدر ما هي قريبة من القلب، وجذابة، كنا هكذا، وسنبقى!" وخلال استماع عمر إليهن، يداعب القط الذي احتضنه شاعراً بنفسه كأنه ملك. عندما دُورت الأغنية نفسها على الحاكي، قدم القط لناظلي باسماً. ونهض على قدميه غير شاعر بضرورة إخفاء ضيقه. إنه يشعر اليوم بنفسه واسع الصدر إلى حد أنه لن يبالي بأمور صغيرة كهذه. مشط البهو الهادر بعينيه. وفكر: "ترى إلى جانب من أذهب؟" يعرف أنه فكر بهذا مثل طفل مدلل يقول لنفسه: "ترى من أي حلوى آكل؟" وخطر بباله أن هذا مناسب له الآن. "لأذهب إلى جماعتنا. ترى بماذا يتحدث رفيق ومحي الدين؟ كان وجه محي الدين مخيفاً كما هو دائماً!"

"أيها الشاب، أنت أيضاً وسيم جداً!"

لم يكن عمر يعرف هذا المسن الذي لابد أن يكون قريب ناظلي. ابتسم له كأنه سمع كلاماً فارغاً. بعد ذلك، ذهب مع رفيق إلى جانب محي الدين.

قال محي الدين: "ماذا قال لك ذلك الرجل؟"

"قال إنه يجدني وسيماً جداً اليوم؟"

قال رفيق: "هكذا أنت، هكذا أنت!" وابتسم.

قال محي الدين: "الجميع يحبونك!"

"هكذا؟"

"إيه، حسنٌ، كيف تشعر بنفسك؟ هل تذكر أنك راستياك؟"

قال عمر: "حقاً، أنا نسيت هذا!" وضحك.

"لا تنس... كنت تستهين بالحياة اليومية!"

قال رفيق: "محي الدين اليوم مشاكس جداً. لماذا أنت هكذا؟ دع نفسك قليلاً يا روحي. وشارك بهذا المرح. ماذا يحدث إذا فعلت هذا؟ لنذهب مساء إلى بيتنا، ممكن؟"

"ماذا سنفعل؟"

قال محي الدين ضاحكاً: "يريد أن ينصب السماور! سيقلب الدفاتر القديمة، ويفضي بهمومه، ويلهو..."

قال عمر: "إيه، سيكون هذا جيداً حقاً. ننصب السماور، ونجلس، ونتحدث!" رأى بعد ذلك ناظلي، فانفعل. وفكر: "أنا خطبت!" ونظر إلى محبس الخطبة كأنه ينتبه إليه تواً.

"أنت تدخل أهم مرحلة تتطلب انتباهاً!" كان قائل هذا أحد أقرباء ناظلي المتزوجين حديثاً. "المرحلة بين الخطوبة والزواج هي المرحلة الأهم."

قال عمر: "نعم، نعم!..." ثم التفت إلى جميلة خانم التي كانت تتحدث كيف يجب أن يجلس الجميع: "خصصتم لي الركن الرئيس يا سيدتي!"

قالت المرأة: "عيون الجميع عليك اليوم يا ابني!"

دخلت الخادمة مكشرة من جديد، ووضعت في الوسط طبقاً كبيراً يشبه الصينية. أطلقت إحداهن صرخة كاذبة، وارتفع الضحك لأنها لم تخف كذب تلك الصرخة. بدأت عمة ناظلي صاحبة البيت تعدد ما تعتبره تقصيراً في الطعام أثناء ملء الصحون، وتوزيعها. فعارضها الجميع: "الطعام جيد جداً، هذه المائدة جيدة جداً، كل شيء جيد جداً."

اضطر عمر إلى الحديث عن حياته اليومية التي يعيشها في براكات ورشة كماه في السكك الحديدية عندما ألح الجميع في مرحلة ما من الطعام. ودهش البعض لصعوبة العيش هناك في ليالي الشتاء الباردة، وقالت الصبايا

إنهن أحببن الشاب الآن أكثر. قال أحد المسنين بأنه يجب الا يبالغ بهذه الأمور، وبدأ يحكي عن صاري قمش. وهو يحتسي مشروباً، ويروي تفاصيل لا يهتم بها أحد. وبعد فترة لم يبق من يستمع لهُ غير شاب جالس بجانبه ينظر إلى خاتمه باستمرار. وضع شاب مرح نشيد إزمير لمداعبته. بدأ مختار بيك يتمتم بكلمات النشيد. شاركه بهذا عدة أشخاص. كانوا يقرعون كؤوس العرق، ويضحكون. انفرجت الصبايا أيضاً، وارتحن، وبدأن الكلام مع الشباب. لم يشربن، ولكنهن لم يحمررن خلال الحديث معهم. وهن أيضاً ينظرن أحياناً مثل الجميع إلى المخطوبين في مركز المائدة. ورؤية عمر النظرات تجول من فوقه تشعره أنه ملك، وتذكر أن ما يبحث عنه هو هذا إلى حد ما، وخطر بباله أن ما سمعه لائق، ودفعه الفضول لمعرفة ما يفكر فيه محي الدين، وهو ينكب على المشروب متأجج الأفكار.

حين انتهى النشيد الصادر عن الحاكي، قلبت الأسطوانة على وجهها الآخر. وعندما انتهى ذلك الوجه أيضاً، قالت ناظلي إنها تريد أن تسمع شيئاً ممتعاً، ونهضت. وقال عمر إنه يريد أن يساعدها، وتبعتها. كان الحاكي في زاوية البهو. وبدأت ناظلي تبحث بين الأسطوانات في الخزانة. وفكر عمر: "هذه خطيبتي!" رغم معرفته أنه غير مرئي حيث يقف من المائدة، التفت ونظر. ثم وجد أن حيطته إلى هذا الحد قبيحة، وقبل ناظلي من خدها، وفكر فوراً: "قبلتها!" وشعر بالذنب كمصاب بمرض قذر مخجل، وأنه نقل ذلك المرض إلى الفتاة بتلك القبلة، وارتبك معتقداً بأنه اعتباراً من هذا اليوم، وهذه الليلة لن يشعر في أي وقت بأنه ملك. وضعت ناظلي الأسطوانة على الحاكي. فأصدر أزيزاً، ثم انطلق عزف بيانو مهلهل. لم يكن ذلك الصوت يغير شيئاً. كان الناس أيضاً غير منتبهين لشيء، وليس ثمة ما تغير بالنسبة إليهم، ولم يكن هناك غير الصخب المستمر وقرقعة الشوكات والسكاكين.

خلال عمر نحو الطاولة شعر بأن ناظلي تتبعه. فجأة بدأ أحد الجالسين على المائدة بالتصفيق، وانضم إليه عدة أشخاص، ثم بدأ الجميع بالتصفيق. وفكر عمر: "ماذا أفعل؟ هذا أنا! وهذا ما حدث!"

بعد الطعام دور على الحاكي آخر الأسطوانات التي جلبها أحد الشبان. فانفعل الشبان، وصرخوا، ورقص بعضهم، ونظر الجميع إليهم، وانزوت الفتيات اللواتي لا يستطعن الاشتراك بالرقص، مع الشبان الخجولين في الزوايا، ورووا قصصاً وطرائف، وضحكوا. بقي المسنون المقتنعون بضرورة ترك الشباب وحدهم على المائدة يشربون قهوتهم هناك، وقابلوا الأصوات القادمة من إحدى زوايا البهو بتسامح، وتبادلوا المعلومات حول حياتهم. ذهب عمر وجاء برفقة ناظلي ماراً بين طاولة الطعام، وزاوية الشباب. وابتسم للجميع محاولاً ألا يفكر بشيء، ومقرراً أنه سعيد، وأنه اليوم قد خطب.

ساد جمود قصير عند نهوض المسنين عن الطاولة. لم تعد الأسطوانات التي تثير المرح توضع على الحاكي. بعد فترة هنأ بعض الضيوف المخطوبين من جديد، وغادروا. ثم بدأ الجميع بالنهوض تدريجياً. ودع مختار بيك الضيوف عند الباب وهو يتثاءب. واعتذرت جميلة خانم عن التقصير. وبدا الجميع منفلين عند الباب، ويوجهون كلمات جميلة للخاطبين.

بعد ذهاب الجميع، قال مختار بيك متثائباً: "أوه، لله الشكر!"

قالت جميلة خانم: "الرحمة، صار جيداً، أليس كذلك؟ صار جيداً!"

قالت ناظلي: "نعم، صار جيداً يا عمتي العزيزة!" ثم التفتت إلى بريهان، وبدأت تشرح لها أموراً ما.

ونهض رفيق وبريهان. بدا مختار بيك قلقاً حين رأى بطن بريهان منفوخاً. ولكنه حين رأى محي الدين تضايق على الأغلب. وكان ينظر إلى عمر أيضاً النظرة القلقة ذاتها.

حاول عمر أن يبدو محبباً، فقال: "نحن ذاهبون يا سيدي، سنذهب إلى بيت صديقنا، ونجلس قليلاً!"

قال النائب: "لماذا؟ يمكنكم الجلوس هنا أيضاً!" ولكن عينيه المتدفقتين نعاساً كانتا تقولان شيئاً آخر.

قبل عمر يد النائب بداية، ثم يد جميلة خانم مفكراً فجأة بأن هذا ما يجب أن يكون، وعانق النائب عمر المنفعل كثيراً. ثم قبل ابنته براحة أب

معتاد على تقبيل ابنته ومداعبتها. والتفت إلى عمر: "ستأتي غداً، أليس كذلك؟ أنا عائد إلى أنقرة بسرعة. أريد أن أراك قبل أن تذهب إلى السكك الحديدية!"

قال عمر: "سآتي طبعاً يا سيدي!" ونظر إلى ناظلي. أراد أن يحييها دون أن ينبه أحداً لوجود قرب وحب طوراه بينهما، ولكن لم يحدث شيء كهذا. تبادلا النظر فقط. وخشي عمر أن يرى ثوب ناظلي الأخضر الطويل مضحكاً. وخشي أموراً أخرى كفقدانه طموحه، وضياعه وسط الحياة العائلية، واكتفائه بالحياة اليومية.

مشوا من أياظ باشا إلى تقسيم. كان محي الدين يمشي وحده في المقدمة، ويدقق النظر في محيطه بانتباه. وكان رفيق وبريهان يتأبط أحدهما ذراع الآخر. كان يسير خلفهما بخطوة، وينظر إلى الزوجين الذين يتأبط أحدهما ذراع الآخر تارة، وإلى السماء الكحلية تارة. تقسمت السماء بأغصان شجرة برعمت تواً وسط الطريق الصاعد. وفكر عمر: "هل أنا طموح؟ هل فقدت مبادئي السابقة شيئاً؟"

سأل محي الدين عن هذا بعد أن جلسوا في بهو بيت نيشان طاشِ الفارغ، وصعدت بريهان إلى الأعلى.

قال محي الدين: "نعم، أنا أيضاً فكرت هكذا اليوم! لم أعد أجدك طموحاً كما كنت في السابق. كنت إنساناً آخر قبل ذهابك إلى كماه قبل سنة!"

"يا! كيف فهمت هذا؟.."

"والله لا أعرف كيف يدرك الإنسان أموراً كهذه. لعلها حفلة الخطوبة هذه، ولعلها حالك، ومواقفك..."

قال عمر: "لا، إنك مخطئ! أنا أكثر طموحاً مما كنت عليه في السابق. أنا طموح إلى حد أنني لم أعد أباهي بطموحي كما كنت أفعل في السابق... يبدو لي هذا زائداً عن الحد... لهذا السبب أحاول إخفاءه. أنت مخطئ!"

قال محي الدين ببرود، وعدم اهتمام: "لا أعتقد أنني مخطئ!"

"ها أنت مخطئ! هل تعرف كم كسبت من النقود خلال هذا العام؟ أربعون ألفاً. نعم! أكثر من أربعين ألفاً. وسأكسب في السنة المقبلة ضعفيه. اتفقت مع شابين متخرجين من كلية الهندسة. ثم..."

"بماذا تتكلمان؟" قال رفيق بعد أن أخرج السماور من الطابق السفلي، وأشعله.

قال محي الدين: "يقول إنه طموح جداً!"

"نعم أنا أشرح هذا. ولكنني سأسأل محي الدين! سأسأله إن كان سيقتل نفسه في الثلاثين من عمره أم لا..."

قال رفيق: "انتظرا دقيقة ريثما أعود أنا أيضاً! لأجلب فناجين الشاي!" وكان فرحاً لأن كل شيء كان في نصابه، وفتح الحديث كما أراد.

قال محي الدين: "سنرى! سترى إن كنت سأفعل هذا أم لا إذا لم أغد شاعراً جيداً!"

قال عمر: "لن تستطيع فعل هذا! أنا أعرفك جيداً. ستمنح نفسك مزيداً من الوقت. وستجد ذريعة أيضاً. ستقول لنفسك مثلاً: لا تفهم قيمة الإنسان بسهولة في تركيا، أو يجب ألا يقدم الإنسان على تصرف أهوج من أجل تأخر سنة أو سنتين!"

قال رفيق: "انتظرا، انتظرا! سأعود حالاً، ستتابعان فيما بعد!" ونزل إلى المطبخ راكضاً لكي لا يفوت أي كلمة من النقاش. وبعد أن عاد بالسرعة نفسها حاملاً بيده الفناجين، سأل: "ماذا كنتما تقولان؟"

17
حياتي التجارية لنصف قرن

جلس جودت بيك في الحديقة الخلفية تحت شجرة كستناء على كرسي خيزران، وراح ينظر إلى نملة تتجول عند أسفل قدمه دون أن يحني رأسه أو جذعه. لم يحل الصيف بعد، ولكن الطقس حار. كان التاسع عشر من أيار، عيد الشباب. شمس حادة وهادئة تدفئ الحديقة الخلفية. أُكل طعام الغداء قبل قليل. كانت العائلة كلها مجتمعة حول جودت بيك في الحديقة الخلفية.

جاءت نيغان خانم بداية كما يحدث عادة، وجلست على المقعد المجاور لجودت بيك. نظرت إلى أسفل قدميه لمعرفة ما كان ينظر إليه زوجها، ولكنها لم تر النملة غالباً، لأنها اعتقدت أن الخادمة لم تمسح غبار حذائه. ولأن عثمان سمع كلمات أمه نظر إلى حذائه بحركاته المزهوة والمتعقلة المعهودة أثناء سيره باتجاه الشجرة. كان ثمة سيجارة في فمه إذ يمكنه أن يدخن متى شاء، وبقدر ما يشاء. ثم جاءت نرمين من خلف عثمان وهي تحكي مع طفليها، وجلست. بدأ الحفيدان يقضمان الخوخ ويتجولان في الحديقة. ثم خرج رفيق وبريهان من باب المطبخ. كانت بريهان تقلق الناظر إليها ببطنها المنفوخ والكبير. فعندما يراها جودت بيك يغدو حذراً كأن شيئاً سيكسر في يده، وينتبه لنبرة صوته وحركاته. بعد أن جلست بريهان

على كرسي خيزران، ارتاحت نيغان خانم، والتفتت إلى جودت بيك: "لقد تفتحت واحدة من أزهاركم الغريبة تلك، هل رأيتموها؟"

هز جودت بيك رأسه. وفكر: "كانت أوسيموم ماذا؟" لم يستطع التذكر. لفق اسم "أوسيموم غرانيموس!" وارتاح عندما لم ينتبه أحد إلى أنه لفق الاسم. صباحاً أيضاً حدث الأمر نفسه. سألته نيغان خانم، ولفق جودت بيك اسماً. كان يحفظ الأسماء اللاتينية للنباتات ليثبت أن ذاكرته لم تضعف. وكان على الجميع إما أن يعجبوا بجودت بيك، أو يتظاهروا بالإعجاب. ولكنهم صاروا يضحكون منه عندما لا يتذكر للحظة اسم زوجته أو أحد أبنائه.

تنهدت نرمين، وقالت: "تعبتُ كثيراً!" كانت تنظر إلى عثمان. "انشغلتُ بالصناديق طوال الصباح!"

مضى زمن طويل على حلول دفء الربيع، ولكن ألبسة الشتاء ماتزال ترفع إلى الصناديق، وتخرج الصيفية من أخرى. غير هذا بدأ الإعداد للانتقال إلى المصيف في جزيرة هيبلي. إنها المرة الأولى التي يشهد فيها جودت بيك حلول الربيع داخل بيته: أخرجت الأصص التي لا تحتمل برد الشتاء، وأصلحت كراسي الخيزران، وصبغت بعض غرف الطابق السفلي، وقلم قسم من العريشة التي تلف واجهة البيت الخلفية لأنها تجلب الحشرات إلى البيت، وأعيد النظر بالحديقة من أولها إلى آخرها، وفاح البيت برائحة غريبة لم يعتد عليها جودت بيك حتى الآن مع رائحة النفتلين.

وانبعث من البيت صوت بيانو جامد خال من المرح.

قالت نيغان خانم: "وهل يُعزف بعد الطعام مباشرة يا روحي؟" لم ترغب عائشة بالمشاركة بالاحتفال الذي يقام في تقسيم مثل زميلاتها، وأرادت نيغان خانم أن تشارك ابنتها، ولكنها لم تستطع إقناعها، وقد حدث هذا تم لأن جودت بيك أيد موقف ابنته.

كان جودت بيك سيقول: "دعيها تعزف يا روحي!" ولكنه تراجع. وبحث عن النملة التي كانت تدب على الأرض قبل قليل، فلم يستطع

إيجادها. أسند رأسه إلى مسند الكرسي الخلفي، واستمع إلى ما يحكى، ولكنه لم يفهم شيئاً. كان رفيق وبريهان يتهامسان، وكان عثمان يهمر قائلاً عبارات ما.

أشعل سيجارته بعد مجيء القهوة. وحينئذ نظرت إليه نيغان خانم نظرة حادة بوجه شاكٍ ومدين. إنهم يريدون أن ينتزعوا منه هذه السيجارة التي يشرب ثلاثاً منها في اليوم. فكر جودت بيك: "لماذا سينزعونها؟" وضحك لنفسه. "من أجل صحتي! حسنٌ، لماذا الصحة؟ من أجل العيش أطول... لماذا سأعيش إذا كنت لن أدخن؟"

"ماذا تفكر؟" كانت هذه نرمين. "إنكم تنظرون!"

حاول جودت بيك بداية اتخاذ موقف الحزين الذي يثير المشاعر، وإشعارهم أنه يفكر بأمور عميقة. وقال: "لا شيء، لا شيء!" وهز برأسه. ثم قال غاضباً من هذا التظاهر: "ليس ثمة ما أفكر فيه!"

بعد قليل، نادت نيغان خانم لحفيديها المتجولين في الحديقة. وأرسلتهما أمهما إلى النوم في الأعلى. قبلت نيغان خانم حفيديها منتشية. كان الحفيدان سيندسان بالجد أيضاً على الأرجح، ولكنهما ترددا عندما وجداه غارقاً بتفكيره.

قال نيغان خانم: "آه، أرجوكم، لا تدخنوا عقبها على الأقل!" كانت تشير إلى السيجارة التي بيد جودت بيك. بعد ذلك أرادت أن تظهر بمظهر لطيف عندما رأت وجه زوجها الغاضب: "ستتمدد لتنام، أليس كذلك؟"

"لا، لن أنام، سأعمل!"

"كما تريدون!"

فكر جودت بيك: "طبعاً كما أريد!" كان راغباً بالنوم حقيقة، ولكنه شعر بضرورة المعارضة لتوتره من شفقة زوجته هذه. وفكر: "أصبح النوم غير ممكن أيضاً! قلنا هذا! لأمش قليلاً في الحديقة من أجل تطيير النعاس. ثم أصعد إلى الأعلى وأعمل.

منذ شهرين يعمل جودت بيك بمذكراته. أدرك أن ذهابه إلى المكتب، والشركة صار عبثاً. تتخذ القرارات في غيابه، ولا يسألونه أي سؤال حتى

لمجرد المحافظة على كبريائه، ويرون أفكاره التي يطرحها من دون أن يُسأل معوقات. وبعد مدة من دخول نفقاته الشخصية أيضاً تحت رقابة عثمان، صرح أنه يريد أن يعمل في البيت بعد الآن، وأفرح هذا الجميع. كان الجميع يقولون إن هذا سيكون جيداً من أجل صحة جودت بيك. فرحت نيغان خانم لأن زوجها لن يفني نفسه بهموم التجارة، ولن يصعد ستة طوابق البناء التجاري من دون مصعد يومياً، وسيكون بجانبها طوال اليوم. ولكن جودت بيك فكر: "ولكنني لن أكون بجانبها طوال اليوم، فأنا أعمل! أعمل، وأكتب مذكراتي، أنقل تجاربي التجارية لمن بعدي!" نهض منفعلاً من أجل المسير. مشى نحو وسط الحديقة ليتخلص من أنظار الجالسين على كراسي الخيزران.

كانت بعض الأزهار التي اشترى بذورها من سوق مصر، وقلب صفحات المعاجم ليحفظ أسماءها اللاتينية قد تفتحت بسرعة. وقف تحت شجرة الزيزفون التي حفر على جذعها بعض الكلمات. والتفت إلى شجرة الكستناء. كانت الحديقة تنتهي هنا عندما اشترى البيت. وبعد المشروطية مباشرة اشترى هذه الحديقة الجانبية. "آه يا لتلك الأيام، آه! كيف كنت في ذلك الوقت؟ نيغان أيضاً كانت فتية. كان بيتنا جديداً، ومفروشاتنا جديدة، وروحانا..." وتذكر شيئاً مزعجاً، فتضايق: "كان ذلك الولد في البيت أيضاً: ضياء! نعم، هو أراد، وذهب إلى المدرسة العسكرية!" ولكي يريح نفسه، قال لنفسه: "المهم أنه لا يظهر في هذه الأيام!" ومشى حتى جدار الحديقة. في زاوية من زوايا هذا المكان ثمة نباتات مهملة، وقطع حطب مكومة جانباً، وأصص فارغة، وصفائح. وفكر: "لم يستطع ذلك الولد أيضاً أن يهذب الحديقة كما يجب!" رآه أول مرة مع والده عندما تجول في هذا البيت. وفيما بعد، ساعده ليفتح دكان الخضري. هو أيضاً قبل يده قبل فترة، ولكنه ها هو يهمل رعاية الحديقة. قال لنفسه: "اسمه، اسمه أيضاً كان هذا يا روحي!" سار على طول الجدار الجانبي راغباً بالتفكير بأمور أخرى متمتماً بكلمات لاتينية تافهة عبثية، ومفردات ملفقة تشبه اللاتينية، ثم بدأ بأغنية أطفال لم يدرك من أين تذكرها. فجأة شم رائحة زهرة صريمة الجدي. الخالة زينب!

من كانت هذه؟ امرأة! معقود الكرز الحامض... زليخا خانم... خانم، خانم! أبي كان يقول هذا يا نيغان خانم!" نظر إلى ساعته: الثانية والربع. لم يفكر بعادته القديمة مضيفاً ستة إلى الثمانية قائلاً: "الثامنة والربع!" وفكر: "لن أنام مع الأسف. لقد خرجت العبارة من فمي." مازال جودت بيك العظيم منتصباً. هل يتراجع بكلامه؟ ولكنني لو نمت، فأي أحلام جميلة سأرى!" خرج من تحت الأشجار. ومشى إلى الحديقة الأمامية دون أن يظهر للجالسين تحت شجرة الكستناء. كانت أشعة الشمس تسقط على جدار الحديقة الجانبي. كان ذلك المكان هو المكان الأهدأ، والأقل تعرضاً للريح. كان ثمة صفيحة قمامة بجانب زاوية المطبخ يقف فوق غطائها قط. ولكنه هرب عندما رأى جودت بيك. وتمتم: "لا تهرب يا قط، بماذا يمكن أن أضرك أنا؟ لا يستطيع هذا الجسم أن يركض، أو يتحرك حركات قوية..." سعل سعلة مفتعلة ليتفقد رئتيه. استمع لقلبه. ألقى نظرة إلى ساحة نيشان طاش. وفكر: "مضت اثنتان وثلاثون سنة!" كان ثمة أعلام على شرفات الأبنية والبيوت. "إنه عيد الشباب! أما ما أفعله أنا فهو مسير الشيوخ!" عبر قرب الجدار الآخر تحت غرفة المكتب التي سيصعد إليها بعد قليل. وقال لنفسه عندما شعر بنسمة خفيفة البرودة تلفح ظهره: "انتهى التفتيش! انتهى التفتيش، وسيعود كبير المفتشين إلى المركز. هه، هه، هه!" فجأة شعر بألم في ذراعه، فارتبك. أمسك بيده الأخرى الجزء العلوي من ذراعه كأنه يتفقد عضلته. فكر: "ترى هل اصطدمت بشيء؟" ثم اقترب ببطء شديد وهو ينظر إلى رقبة نيغان خانم التي تنظر إلى الطرف الآخر. وفجأة وضع يده على كتفها كالمخلب متذكراً ممازحة كان يمازحها بها في بداية زواجهما، وكانت تغضبها كثيراً.

قالت نيغان خانم: "آي! قطعت مرارتي يا جودت بيك! والله مازلتم كالطفل!"

لم ينتش جودت بيك، وقال: "أنا صاعد إلى الأعلى!"

"لو أنكم ذهبتم إلى النوم!"

"قلت إنني سأصعد للعمل."

التفتت نيفان خانم إلى عثمان الذي مازال يقهقه، وقالت: "ما المضحك إلى هذا الحد!" ثم صرخت دون أن تلتفت إلى الخلف: "لماذا لا تنامون يا جودت بيك؟ أرجوكم، اسمعوا مني، ولو قليلاً..."

كان جودت بيك قد دخل من باب المطبخ. ونظر كالأبطال إلى الطباخ المنكب على القدر يجليه، وفكر: "لا أحد يستطيع فهم ما أفعله بتلك المذكرات!" ثم التفت إلى نوري أثناء خروجه من المطبخ: "أريد الشاي في الثالثة. أنت تعرف ماذا سأفعل إذا تأخرت عن الثالثة!" كان يشك بأن نيفان خانم تخرب نظام الشاي هذا لكي لا تؤثر على أعصابه.

صعد الدرج ببطء. في الطابق الأول وفكر: "ليس ثمة ما أعاني منه، والحمد لله!" تسلق الدرج المؤدي إلى الطابق الثاني عابراً الباب الفاصل، بعد أن مر من البهو. وقف أمام الساعة الضخمة المتكتكة، وأخذ نفساً. دخل غرفة المكتب قائلاً لنفسه: "ترى أين صدمت يدي؟" جلس خلف الطاولة. ونظر إلى غلاف المخطوط بين الصور، والوثائق، والأوراق، والدفاتر: "حياتي التجارية لنصف قرن" لم يستطع أن يكتب غير هذا على مدى شهرين. أما المتبقي لديه من الزمن فكان يقضيه إما بجمع المواد الأولية، أو بتمزيق ما يكتبه، ورميه.

فجأة فتح الباب، ودخل رفيق. قال: "آ، بابا، هذا أنتم، أما نمتم؟"

"قلت إنني لن أنام... ماذا تريد؟"

"علبة سجائري... قبل الطعام، كنت هنا..."

"هل أنت ذاهب إلى مكان؟ هاهي سجائرك هناك، انظر!"

"سأخرج. لعلني أذهب إلى النادي..."

"إلى أين؟ مهما يكن. لأقل لك: أنا لا أجدك جيداً في الفترة الأخيرة. صرت فوضوياً. لا تهتم بالشركة أيضاً. لا تنس أن عثمان لن يدير الشركة وحده إذا وقع لي أمر..."

"الله يحميك!"

"حسنٌ، حسنٌ!... أعرف أنك متوتر لأن زوجتك ستلد! هيا، حسنٌ، مع السلامة، مع السلامة! لا تدخن كثيراً!... وأغلق الباب بهدوء."

بعد إغلاق الباب، قلب جودت بيك دفتراً كان يعتبره ضرورياً للجزء الأول من الكتاب. وأمضى بعد ذلك وقتاً بقصاصات الجرائد. كان يقص من الجرائد مقالات تعجبه كثيراً راغباً بالاستفادة من تلك المقالات في مذكراته. رفع رأسه فجأة في أثناء قراءته إحدى المقالات: "إلى أين ذهب رفيق؟ في مشوار إلى النادي، سيدخن هناك!" تمتم متذكراً ما خطر بباله بعد الطعام: "لماذا أعيش طويلاً إذا كنت لن أستطيع التدخين؟ إذا كنت لن أستطيع التدخين... لو أنني أخذت واحدة من علبته. كنت سأدخنها الآن على نحو جميل. "فتح بحركة اعتيادية علبة فيها صور قديمة. أخرج الصور واحدة واحدة، وبدأ ينشرها على الطاولة. سيكتب ذكرياته حول تلك الصور، ثم يخجل من قراءة أحد لها، فمزقها. حاول لملمة ذكرياته خلال النظر إلى إحدى الصور الملتقطة في رحلة برلين. "هنا أنا مع رفيقتي، لا. سيدتي نيغان. علمتني رحلتي إلى برلين الكثير. تجولت في أحد مصانع كروب العملاقة. يجب أن تؤسس المصانع عندنا. نعم، هكذا... بماذا أفكر وأنا أنظر إلى هذه الصورة؟ الصورة شيء جميل، استفيدوا... نؤرخ على زاوية منها... آه، أهكذا سأكون أنا! هل كنتُ أعتبر الانشغال بهراء مسكين كهذا عملاً!" حزن فجأة، فنهض. وتمتم: "ماذا حدث لي، ماذا حدث لي؟ لا، أريد أن أذهب إلى المكتب. سأذهب إلى المكتب، وأدير الأعمال كلها. عثمان غبي، لا يفهم شيئاً. وعقل رفيق في أماكن أخرى! من سيدير الشركة؟" اقترب من النافذة، ونظر إلى الخارج نحو نيشان طاش. "الجميع يعيشون، ويركضون، وأنا هنا. لو أخرج في مشوار على الأقل." فجأة تذكر أخاه الكبير، فخاف. هو فقد صوابه على فراش الموت، وبدأ يردد الأناشيد، ويغني الأغنيات. كان يقول عبارات غريبة. كان يردد مارسيليز، وهاهي جمهوريته قد تأسست. وسمعت مارسيليزه أيضاً، ولكن ليس من الثوريين كما أراد، ولا من جماعة الاتحاد والترقي طبعاً، بل من الجيش الفرنسي المحتل!" تذكر اسطنبول تحت الاحتلال. "أي أيام كانت

تلك الأيام! جلبت السكر. عندما وصل خبر عبور السفينة من تشنق قلعة، بدؤوا يركضون خلفي. ولكنني لم أدخل بتجارة القاطرات لله الشكر. فؤاد كسب من هناك. واستفاد من صداقته بإسماعيل حقي باشا، والاتحاد والترقي!" انتشى عندما تذكر تلك الأيام الجميلة الحيوية، والمليئة بالتجارة والنجاح. ذرع الغرفة. "تلك هي الحياة! النجاح، وإنجاز شيء جميل، والربح... وماذا الآن؟ أنشغل بقصاصات الورق هذه! تحولت إلى شبيه لأخي الكبير! لا. لا أريد أن أسمع مارسيليز! نعم، كنت واقعياً دائماً. من الصعب جداً أن يكون الإنسان واقعياً، وأن يكون واقعياً في كل زمن، ولكنني فعلت هذا! ترى أين صدمت ذراعي؟ أم هذا؟" سيطر عليه الخوف فجأة، وجلس وراء الطاولة. فكر: "تؤلمني ذراعي من هنا! كأن عقرباً في ذراعي، ويندس ببطء إلى قلبي." ولكنه لم يتوتر، قال لنفسه: "لا يوجد شيء، لا، لا!" بدأ ينظر إلى الصور لكي يسلي نفسه. رأى صورة التقطت في عرس رفيق. "أراد رفيق أمراً من دون نفقات. ترى كيف سيديرون الشركة من بعدي؟ نعم، لابد من المصنع. ليتفقا مع سيمنس مثلاً، ويؤسسان مصنعاً هنا... صار لابد من ذلك. لأننا إذا لم ننشئ المصانع فسينشؤها الآخرون. ولكن هذا الألم عجيب. ما هذه الصورة؟ التقطت في الطابق السفلي سنة زواج عثمان. نرمين! لم أستطع حب تلك المرأة كثيراً. بدا لي دائماً أنها استفادت منا دائماً، ولكنها لم تحبنا. نحن؟ أنا، نيغان، عثمان، رفيق، عائشة... الحفيدان..." نظر إلى الصورة بانتباه. وفكر: "كم كانت الأشياء في الطابق السفلي مختلفة في ذلك الوقت! يا لسرعة ما يتغير كل شيء، وما أشد عدم انتباهنا. الأغراض التي في الطابق السفلي. غرفة المفروشات المطعمة بالصدف... والآن تريد نيغان تغيير أثاث غرفة النوم. بصعوبة اعتدت على ذلك السرير خلال ثلاثين سنة، والآن بعد هذا العمر كله، هل سأعتاد على واحد جديد؟.. فلأنظر إلى صورة أخرى!" كان ثمة جمع في هذه الصورة. ثمة عمال، وحمالون، وبائعون في المقدمة جلسوا على الأرض، جلسوا القرفصاء، استند أحدهم إلى الآخر. وفي الخلف يقف جودت بيك، وعثمان، والمحاسب صادق، وأحد التجار من آل أناوي مع ابنته. تذكر جودت بيك

منفعلاً: "يوم افتتاح دكان ومستودع شارع فويفودا! جاء الجار الجديد أناوي مع ابنته. دهشت عندما رأيت ابنته!" أراد أن يأخذ صورة أخرى من العلبة، ولكنه انتبه أن ذراعه الممتدة إلى العلبة لم ترتفع. فكر: "لماذا لا ترتفع؟" تذكر أنه ذات مرة ساعد الحمالين في المستودع، وآلمته ذراعه مساء. فكر: "إنه قلبي!" وأدرك أنه على وشك الإصابة بنوبة قلبية، ويتوجب عليه تناول دواءه من أجل التخلص منها. تذكر النوبة السابقة، وفكر: "نعم، أضطجع في السرير! لقد اضطجع بعد الظهر!" ثم انتبه بعد ذلك أنه لا يستطيع التنفس. عندما كان صغيراً أغلقوا عليه في غرفة، وأقفلوا الباب. "الباب، أم اللحاف؟" كان اللحاف فوقه على الأرجح، وكان أخوه الكبير نصرت فوقه، ويلف جودت باللحاف بقوة لكي لا يخرج من داخله. وكان جودت لا يستطيع أن يتنفس. فكر: "علي أن أتنفس!" فجأة تذكر دواءه. بعدئذ سمع وقع أقدام تصعد إلى الأعلى. "شايي قادم... لو كنت قد نمت... نفس... نفس؟ بعد انقضاء هذه النوبة... سيغضبون مني... سأضطجع في السرير. وأنام. أنام..." وفيما كان يتخيل كيف سيضطجع في السرير بعد عبوره الأزمة القلبية، وكيف سيتحلق حوله الجميع، شعر فجأة كأن الكرسي قد طار، واقتربت الطاولة من وجهه. أدرك أن رأسه ارتطم بالطاولة، وأن هذا سيئ، وهو لا يستطيع التنفس، واختنق كأنه وسط اللحاف. استنفر قوته كلها لكي لا يرتطم رأسه بالطاولة مرة أخرى، وفكر بأنه لم يبق عنده أي قوة: "مثلما كان داخل اللحاف. المرأة تنظر إلي، وتصرخ، وصينية الشاي... وصمتٌ، وظلام مثلما حدث داخل اللحاف!"

18
جنازة

قال عثمان: "صار كل شيء جاهزاً، كل شيء، كل شيء جاهز من أجل الجنازة!" أرخى ربطة العنق التي تعصر رقبته، وبحث عن مكان يجلس فيه. "سأرتاح عدة دقائق!" ثم تمتم بعدة كلمات مشتكياً من شيء غير محدد، وأرخى نفسه على الأريكة. استند إلى الخلف، وصار رأسه كأنه سينحني، بعد ذلك، انتبه إلى شيء.

قال: "آه، أين جلست!" ونظر إلى رفيق شاعراً بذنب غير معتاد عليه أبداً. ضحك بصحبة نظرة غبية ومرتبكة. فكر على الأرجح أنه ضحك فوراً، وقبل مرور يوم على وفاة أبيه، وأن هذا أمر غير لائق، وبنبرة معتذرة قال: "يا لما تعبت! وأنا أجلس على أريكة أبي، ولا أنتبه!"

قال رفيق: "نعم، تعبتَ كثيراً!" كان جالساً في البهو مقابل أخيه الكبير. قبل قليل تأبط الاثنان ذراعي أمهما، وأخرجاها من جوار جودت بيك. ولأن ثياب الجثة ستخلع، وتغسل، وتوضع في التابوت ثمة ضرورة لإخراج نيغان خانم التي قضت الليل كله باكية من الغرفة.

عندما أتى رفيق إلى البيت مساء، أدرك أن شيئاً غير عادي قد حدث، فارتبك، وغضب من الخادمة التي لم يستطع الحصول منها على جواب رغم سؤالها عدة مرات، صعد الدرج، وعندما رأى عائشة تنظر من باب المكتبة وهي تبكي، شعر بأن شيئاً قد حصل لأبيه فخاف. انتبه بعد ذلك

إلى أبيه الملتوي على الكرسي هناك. عندما رأى جثة أبيه محنية، ومستندة إلى الخلف على الكرسي أشفق عليه بداية، ثم انتبه كم كانت صغيرة ومسكينة وجافة، وفكر بأن أباه لم يكن هكذا من قبل، وأن الموت قد جفف الجثة خلال عدة ساعات، وصغّرها، ثم بدأ بالتفكير بما يجب أن يعمل.

كانوا قد قاموا بما يجب فعله: تقرر تشييع الجنازة بسرعة قبل انتهاء عطلة العيد، اتصلوا بالجرائد وأملوا إعلان وفاة. اتصل رفيق مع عثمان بالأقرباء، وحاولا تلطيف جو الرعب والارتباك المتجول في البيت كقط مذعور، هدأا من روع نيفان خانم وعائشة، وطلبا أن يُنوم الحفيدان الصغيران، قابلا مع الكنتين بعد ذلك الزوار الذين بدؤوا يتوافدون فرادى، وهرعا من هنا إلى هناك طوال الليل وهما يدخنان. وخلال ساعات الليل الطويل والثقيل، والصباح الحافلة بزيارات المعزين بقي رفيق مع نفسه أول مرة، وفكر باليوم الذي مر، وليس بأبيه، ودخن.

كان عثمان أيضاً يدخن. استند جيداً إلى الأريكة. فجأة رفع رأسه المحني، وسأل: "لم تنس الاتصال ببيت سعدي بيك، أليس كذلك؟ ستغضب نسليهان إن لم نفعل!"

قال رفيق: "اتصلت، ولكنهم لم يكونوا في البيت!"

قال عثمان بصوت أجش: "ترى هل نتصل مرة أخرى؟" وسحب سحبة من سيجارته، ولوى رقبته عائداً إلى وضعه السابق.

ساد صمت من جديد. لم يكن يُسمع سوى قرقعة الطباخ نوري بالقدور في المطبخ، وتكتكة الساعة في الطابق الأوسط. لم تعد نيفان خانم تبكي بقوة كما كانت ليل أمس. فقد بدأت مع زوار الصباح بفترات صمت ولو كانت قصيرة، وكأن الشهقات الطويلة، والنشيج المرتجف قد حل محل البكاء المتفجع.

قرع الجرس المربوط بالباب الخارجي. رفع عثمان رأسه، ونظر إلى الخارج موارياً الستارة الفريولية. رأى رفيق حركات أخيه الكبير الخاصة بأبيه عندما نظر إلى الخارج، فكر بعد ذلك أن كل من يريد الجلوس على الأريكة، والنظر إلى باب الحديقة لابد له في النهاية أن يتحرك الحركات ذاتها.

قال عثمان: "جاءت الخالة مبرورة، ومعها أحد أحفادها!"

زوج مبرورة مات قبل ستة أشهر بعد معاناة طويلة من آلام الكلي. وفكر رفيق أن خالته مبرورة وأمه ستبكيان معاً.

سأل عثمان: "هل قرأت الإعلان المنشور في *صون بوسطا*؟ كتبوا كل شيء بشكل خاطئ. متى سيتعلمون الانتباه إلى أمور من هذا النوع؟ وهل يمكن احتمال عدم الانتباه وانعدام الاحترام في إعلان وفاة؟" أطفأ سيجارته بحركات متوترة، ثم نهض. قرع الداخلون من باب الحديقة الباب الداخلي، وخرج نوري من المطبخ، ويركض على الدرج.

بقي عثمان عدة ثوان واقفاً دون أن يتحرك. تململ قلقاً كأنه لا يستطيع إعطاء قرار، ونظر خلف الطباخ الراكض على الدرج، وبعد ذلك قرر على ما يبدو: "أخذت مفتاح خزنة أبي التي في المصرف. لنحل هذا الأمر فيما بيننا قبل دخول كتاب العدل، وموظفي الضرائب!" وأضاف في أثناء ذهابه باتجاه الدرج: "فكرت بأن علي أن أبلغك بهذا." ثم لم يستطع ضبط نفسه، فعاد، ونظر إلى رفيق نظرة شعور بالذنب.

قال رفيق: "كما تريد!" فكر بعد ذلك على النحو التالي: "ها أنا أجلس هنا، وأدخن. أفكر بأنني يجب أن أشعر بالذنب، ولكنني لا أشعر بأي شيء."

حدث صخب على الدرج. ثم سمع بعد ذلك صراخ، وتنهدات، وكلمات مبهمة. يبدو أن الخالة مبرورة جاءت إلى هنا من أجل تجديد المها: بدأت تبكي عند أسفل الدرج قبل رؤية الميت، ونيغان خانم. وعندما ذهب رفيق إلى هناك، أدرك أنها تشير إلى شيء في خزانة أو فوقها وهي تنتحب، وأن لذلك الشيء ذكرى أو قيمة معنوية تستمد منها قوة، ولكنه لم يستطع استنتاج ما هو ذلك الشيء. يجب أن يكون ذلك الشيء إحدى المزهريات، أو الأطباق والكؤوس المزركشة الموجودة هناك. أمسكها مع أخوه الكبير من ذراعيها، وأخرجاها من الدرج. وعندما دخلت مبرورة خانم إلى الغرفة التي تبكي فيها نيغان خانم بصمت، تلفتت بداية حولها كأنها تبحث عن شيء، ثم وجدت ما أرادت، فارتجفت، وصرخت باكية وهي تحتضن نيغان خانم.

بعد أن خرج رفيق، وقف أمام باب الغرفة التي يمدد فيها جسد أبيه فترة. كان يعرف أنه يوجد في الداخل رجلان مسنان وجدهما عثمان صباحاً، وجلبهما، ويقومان بما يجب أن يفعل في زمن كهذا. لم يفكر أبداً ما يمكن أن يفعلاه في الداخل بشكل واضح، ولم يتجل أمام عينيه ما كانا يفعلانه. عندما كان واقفاً أمام الباب، فكر بهذا أول مرة خجلاً: "خلعا ثياب أبي، ثم غسلاه، وهما الآن يلفانه بالكفن!" وفتح الباب وهو يخشى التفكير بالأمر نفسه. رأى رجلين منهمكين بعمل ما وهما منكبين على شيء أبيض وطويل فوق السرير. التفت أحدهما عندما سمع أن الباب قد فتح. كان شيخاً ملتحياً، وفي يده قطعة حبل. قال على عجل: "تمام، تمام! الآن ينتهي!"

هز رفيق رأسه، وأغلق الباب و فكر ببريهان. صعد إلى الطابق العلوي. ودخل إلى الغرفة. كانت بريهان تتمدد على ظهرها فوق السرير، وبجانبها نرمين تنظر إلى جريدة.

تركت نرمين الجريدة من يدها حين رأت رفيقاً. أشارت إلى بريهان، وقالت: "ليست على ما يرام على الأرجح!"

قالت بريهان: "لا أعاني من شيء! تقيأت قبل قليل فقط!" بدا بطنها المنتفخ أكبر مما هو عليه لأنها كانت تتمدد مرتخية غالباً.

قلق رفيق كما كان يشعر دائماً كلما رأى ذلك البروز المخيف. ثم لاحظ أن عيني بريهان محمرتان. قال بصوت متوتر: "أنت بكيت!" ومن دون أن تقول بريهان شيئاً أضاف: "أرجوك بشدة، أنت لن تأتي إلى الجنازة!" ونظر إلى نرمين لكي تؤيد فكرته.

قالت نرمين: "كنت أقول لها الأمر نفسه، عليها الا تأتي. وسيكون من الأفضل الا تأتي عائشة أيضاً! لأنها في وضع سيئ جداً أيضاً! أرسلت الولدين إليها، ولكنها لم تصمت أبداً."

قال رفيق عند خروجه من الغرفة بشكل حاد: "أنت لا تأتي، حسنٌ، لن تأتي!" ودخل إلى الغرفة المجاورة.

هنا كانت عائشة تضطجع. كان رأسها مدفون بالمخدة دون حركة. لقد نامت لكثرة البكاء على الأغلب. كان جميل ولاله ينظران من النافذة

إلى الخارج. تحركا عندما رأيا عمهما. ولكن يبدو على وجهيهما أنهما خائفان من شيء ما، وقد بكيا أحياناً. بدأ وجه جميل يعبس.

فكر رفيق: "واخ، إنه سيبكي!" حاول أن يبتسم لهما، وقال: "هيا، اخرجا أنتما إلى الحديقة، والعبا قليلاً!"

قطب جميل وجهه أكثر قليلاً. خطا بعد ذلك خطوتين سريعتين، وألقى بنفسه على السرير بجانب عائشة، وقال: "أنا لا أريد أن أموت، لن أموت!" وبدأ يبكي.

دخلت أمينة خانم إلى الغرفة. داعبت رأس الطفل، وقالت: "لا تبك أيها السيد الصغير. أنت طفل. لن تموت الآن!" ثم التفتت إلى رفيق، وقالت: "يناديكم السيد عثمان إلى الأسفل. هناك ضيوف!" قالت الخادمة في أثناء خروج رفيق من الغرفة: "آه مما حل بنا..." وبدأت تبكي.

تمتم رفيق أثناء نزوله الدرج: "هذا ما حل بنا؟.." دخل إلى البهو. كان هناك رجل أمام عثمان، يمسك بيده قبعة كسكيت، ولم يجلس بشكل مريح على الأريكة، بل اسند نفسه على حافتها، وهو ينظر إلى الأرض. وحين اقترب رفيق فهم: إنه أحد العمال الذين يعملون في المستودع. ثمة شخص آخر معه. وجلس اثنان آخران ممسكين الكسكيت بأيديهما على كرسيين في الزاوية. يجب أن يكونوا قد علموا بالأمر لأن المستودعات تعمل حتى في العيد.

نهضوا جميعاً حين رأوا رفيقاً. تقدم أكبرهم سناً، وعانق رفيقاً، وقال عبارات ما بصوت مؤثر وغليظ، ولكن رفيقاً لم يفهم، فكر: "تتأجج مشاعري، ولكن الدموع لن تأتي إلى عيني!" لم يستطع تذكر وجه الرجل الثاني. وفكر أنه سيدخن سيجارة بعد قليل. عرف الثالث فوراً، كان يذهب إلى هنا وهناك لتأدية أعمال البيت أحياناً، تفوح منه رائحة العرق والتبغ. عانق الرابع بشكل أقوى خجلاً من انتباهه لهذا، وتمتم ببعض الكلمات. ثم جلس على حافة كرسي مثلهم.

قال عثمان: "الأصدقاء العاملون في المستودع اختاروا ممثلين من بينهم، وجاءوا معزين! والباقون سيأتون إلى الجامع!"

قال الأكبر سناً بين العمال: "كان جودت بيك رجلاً عظيماً! أمسك بأيدينا. لم أر أي سوء منه على مدى عشرين سنة، ولم أسمع أنه أكل حقاً ولو مرة واحدة."

قال عثمان: "كان أبي يحبكم جميعاً أيضاً!"

وخيم صمت طويل. سأل عثمان بعد ذلك أحد الحمالين: هل أغلقت الصناديق التي سترسل إلى أنقرة؟ أجاب المسن بصوت خفيض، وهز عثمان رأسه مبدياً امتناناً من الجواب. بعد ذلك خيم الصمت من جديد.

جلس العمال فترة أخرى خائفين من النظر إلى الأشياء الغريبة التي تحيط بهم، ومن قيامهم بعمل غير لائق. ثم خرجوا صامتين وباحترام، و يخشون أن يدوسوا على مكان ما، أو يلمسوا شيئاً ما بالخطأ. أشعل رفيق السيجارة التي أراد إشعالها. ونادى عثمان أمينة خانم وطلب منها فتح النوافذ، وتهوية الغرفة.

قرب الظهر قالوا إن السيارة وصلت. وأثناء نقل التابوت إلى السيارة التي ستأخذه إلى جامع تشويكية كان هنالك من استطاع المجيء من هنا وهناك. ساعد بحمل التابوت الجيران، والبستانيون، والمعارف من الشباب، وبعض أصدقاء الحي. سُمعت عدة نواحات، وجاء عدة شبان، وعانقوا رفيقاً. بعد ذلك، طلبت نيغان خانم سيارة أجرة لعدم تمكنها من احتمال السير مسافة خمسمائة متر. كانت ثمة شمس أيارية لامعة في الأعلى. كان يوم عطلة، علقت أعلام كبيرة على جبهة تراموای مارة، وكان هناك مرح في السماء. استندت نيغان خانم إلى جدار الحديقة ذي العريشة، وتأبطت ذراع ابنها الكبير. كانت ترتدي معطفاً أسود، وعلى رأسها قبعة سوداء ذات غربول. قالت نيغان خانم مرة لإحدى القريبات المتعلقات بالجدل وبالتقاليد إن ارتداء اللون الداكن في الجنازات ليس خاصاً بالمسيحيين، وهو مجرد رمز للاتزان والاحترام، ورفت عينيها بكبرياء. لم يكن رفيق يستطيع رؤية التعبير الذي ارتسم على وجه أمه في تلك اللحظة. لأن الغربول النازل من القبعة كان يغطي وجهها. أما على وجه عثمان فكان ثمة تعبير بالصبر. رفع رأسه بشكل خفيف إلى الأعلى، وارتخى جفنا عينيه قليلاً. كان يفكر بأشياء ما حول النيشان طاشين الذين يتفرجون عليه من

الشرفات، والرصيف المقابل، والطرف الآخر من الساحة، ونحو الموت، والخلود، والحياة، وكان يريد أن يُظهر هذا ناظراً إلى السماء. وبعد ذلك صدر من باب البيت نحيب رفيع، وفهم الجميع السبب، ولكن أحداً لم يفعل شيئاً: كانت عائشة قد تأبطت ذراع أمينة خانم، وهي تخرج الحفيدين إلى الحديقة. عندما اقتربت سيارة الأجرة المتأخرة من الرصيف تحركوا.

عندما نزل رفيق من سيارة الأجرة، لم يتأبط ذراع أمه. كان أمه قد خلعت القبعة، ووضعت غطاء رأس عادي، وكان عثمان متأبطاً ذراعها. كانوا يمشون ببطء نحو الجامع. وكانت باحة الجامع مزدحمة. برعمت الأشجار. وانتشر الناس في الباحة. كان ثمة عمال في مدخل الجامع. لعلهم سائمون لعدم وجود عمل لهم، فيدخنون السجائر، ويتفرجون على من حولهم. كان هناك أيضاً الموظفون العاملون في المكتب: كان المحاسب صادق تحت إحدى الأشجار متأبطاً ذراع زوجته، وقد جلبا معهما أولادهما. وفي أثناء تقبيل صادق يد نيغان خانم، كانت زوجته ترمق زوجة المعلم بانتباه واحترام. رأى رفيق محي الدين وسط الزحام يدقق بالأكاليل المسنودة على جدار الجامع. وخلفه أقرباء جودت بيك من الحسكة. لم يكونوا كثيرين، وكانوا ينظرون منكمشين إلى جامع تشويكية، والزحام الذي يلف الجامع، والأبنية الحديثة المحيطة بالجامع. كان ثمة فضوليون وأعلام العيد على الشرفات. فتحت النوافذ على دفء الربيع والعطلة. ومرت تراموای أخرى من الطريق. كان الركاب يتفرجون على الزحام من النوافذ. كان أقرباء نيغان خانم عند مدخل الجامع. وهؤلاء جميعاً أناس متزنون يرتدون سترات ويضعون ربطات عنق، ويرتدون ألواناً داكنة. ارتاحت نيغان خانم عندما اقتربت منهم، وتركت ذراع ابنها، وعانقت تركان خانم إحدى أخواتها الكبيرات، وخيم صمت من حولهما. جاءت بعد ذلك شكران خانم ابنة شكرو باشا الأخرى. وتعانقت الأخوات الثلاث. ذهب عثمان إلى جانب خالتيه. جاء بعد ذلك سيفي باشا، واقترب من نيغان خانم وهو ينهر خادمه. كانت نيغان خانم ستقبل يده على الأغلب، ولكنها أدركت أن من حقها اليوم ألا تفعل هذا. وعندما رأى سيفي باشا رفيقاً قطب وجهه بحكم العادة، ولكنه أدرك بعد ذلك

ضرورة أن يبدي قرباً على الأغلب فابتسم، ولكن ابتسامته كانت متزنة، وليست شاذة. قرر رفيق أن يخرج قليلاً من هذا الزحام. رأى سعيد نديم بيك وبجانبه أخته الأصغر غولار. دفع الفضول رفيقاً لمعرفة أي امرأة هي. اشتد حر الجو جيداً، ولم تعد الشمس شمس ربيع، بل شمس صيف. وظهرت قطرات العرق على الوجوه. كما بدا الصبر أيضاً عليها. رأى رفيق فؤاد بيك في أثناء سيره باتجاه جدار الجامع وزوجته ليلى بجانبه، وهما حزينان جداً. أراد رفيق الإيحاء لهما بأنه رآهما إلى أي مدى حزينين، وقد أثبتا بحالهما المنهكة هذه أنهما يحبان جودت بيك، ولكنه لم يجد ما يمكن أن يفعله ليوحي لهما بهذا. هز لهما رأسه بمعنى: "فهمت كم تحبانا، وتحبان أبانا، يكفي هذا، لا تحزنا!" ثم رأى بعض أصدقاء أبيه في العمل. وكان بعضهم يتكلم مع مسن محترم وملتح. هذا المسن كان باشا على الأرجح، ولكنه من الأقرباء البعيدين، لم يتذكر رفيق من هو. كان ثمة تجار ومصرفيون آخرون يعرفهم رفيق من السيركجي. كأنهم كانوا يشعرون بالضيق، فقد بدا على وجوههم تعبير يقول: "لماذا قرأنا إعلان الجريدة ذاك في صباح يوم العطلة هذا!" والشمس تلهب باحة الجامع تدريجياً. ثمة أكاليل خلف التجار. وفكر بأنه رأى محي الدين هنا قبل قليل، وقرأ المكتوب على الأكاليل: فؤاد غوفنتش وعائلته... أدوات كهربائية... فرع سيركجي لمصرف العمل... شركة بزآر لوند المساهمة المغفلة... عائلة أنوي." ثم جاء محي الدين، وعانق رفيقاً، ولا يفهم إلى مدى هو جدي وحزين. التفتا معاً، وبدأا يقرآن الأكاليل. كأن أحدهما متضايق من الآخر. بحث محي الدين عما يقوله على الأغلب، ولكنه لم يجد. ثم قال إن إرسال الأكاليل صارت عادة عندنا أيضاً. ولم يكن مسروراً من هذا أو متضايقاً، فقد قال هذا لمجرد الكلام. وكان رفيق قد قال هذا حول هذه العادة عندما افتتح دكان زهر في بشك طاش قبل سنتين. صمتا بعد ذلك مستمعين لهدير المزدحمين خلفهما المتحدثين بهمس وقلق كأن حرباً أو سفالة ما ستحدث، والمعبرين بنظراتهم ومواقفهم وألبستهم أكثر من كلماتهم. ابتعد رفيق عن محي الدين معتقداً أن الوضع هكذا سيكون أفضل، ومشى نحو مدخل الجامع. دخل مرة

أخرى بين بعض الباشاوات والسفراء: كانوا أقرباء أمه. عندما كان رفيق صغيراً كانت أمه تصطحبه إلى الدور التي يقيم فيها هؤلاء الناس، وكانوا يقبلونه، ويداعبونه، ويبتسمون له، ولكنهم لم يردوا الزيارة في أي وقت. والآن أيضاً يبتسمون لرفيق، أو ينظرون إليه بحب. فكر رفيق: "كانوا يجدونني محبباً في طفولتي! ترى كيف يجدونني الآن؟" ووقف من دون حركة ينظر إلى أمه المتأبطة ذراع أخته. كان العمال عند مدخل الجامع حيث الأشجار أيضاً يقفون دون حركة. التفت، واندس قليلاً داخل الجامع. رأى بعد ذلك طغراء دست على الجبهة الرخامية فوق الأعمدة. كانت طغراء عبد المجيد. وحدثت حركة.

اقترب عثمان من أخيه، وسأله: "ألن تأتي إلى الصلاة؟"

فكر رفيق: "صلاة؟" هز رأسه. فكر كيف سيخلع حذاءه. كان يفكر بهذا كلما جاء إلى الجامع. كان يأتي إلى هنا قديماً مع الخدم، وفي الأعياد مع أبيه. خلع حذاءه بسرعة من دون أن يفكر بشيء. كان حرم الجامع بارداً قليل الضوء، وثمة رائحة عفن وسجاد. فكر: "يجب أن أتوضأ!" ولكن عثمان أيضاً لم يتوضأ. اجتمع الزحام بعد ذلك بسرعة. عقد الجميع أيديهم على بطونهم، وانتظروا. رأى رفيق أن عثمان بجانبه. على وجهه تعبير تكبر من جديد، كان يرفع رأسه عالياً، ولم يكن ينظر إلى الناس، بل إلى نقطة فوقهم، إلى النحت البارز لرخام المحراب، ولكن موقفه المتكبر هذا كان يبدو عجيباً بجوربيه مع عدم وجود حذاء في قدميه. استدار رفيق، ونظر: لم تكن أقدام البستانيين والبوابين عجيبة بالجوارب. فكر: "إنهم لائقون بهذا المكان!" بدأت الصلاة بعد ذلك. فكر رفيق: "مات أبي." ونظر إلى رقبة الواقف أمامه، وصار يكرر ما يفعل. فكر بعدم صواب قيامه بهذه الحركات، وانحنائه إلى الأرض، ونهوضه رغم عدم إيمانه، رغب بعد ذلك بعدم التفكير، وتمتم قائلاً: "مات أبي!" انتهت الصلاة بعد أن كرر الأمر نفسه عدة مرات. خرجوا إلى الشمس من جديد. انضم رفيق إلى الزحام المتجمع عند التابوت، والمتحرك متموجاً. كانت الشمس تتوهج محرقة باحة الجامع، وكان التابوت هناك.

19
حرّ ومولودة

صعد رفيق الدرجات على رؤوس أصابعه، وفكر بمرح: "من يعلم كم ستفرح بريهان عندما تراني أمامها الآن؟" انعطف عند فسحة درج الطابق الثاني أثناء صعوده إلى الطابق الثالث. لم يكن يسمع شيئاً غير تكتكة الساعة. "لم ينتبه إلي أحد بعد! هذا يعني أنه إذا دخل لص هكذا خابطاً بقدميه الأرض فلن يشعر أحد!" انتبه إلى أنه تعرق، فوقف. شق باب الغرفة قليلاً. فرأى بريهان. كانت تقرأ جريدة عند سرير المولودة. تنظر إلى حيث تقرأ كأنها لا تعطيه أهمية كبيرة: كانت تقرأ الكلمات والجمل، ولكنها تفكر بأمور أخرى على الأغلب. وجدها رفيق ظريفة. خطر بباله أن يضحك، ولكنه في النهاية اتخذ قراراً مفاجئاً. صرخ: "باه!" ودخل. "هل خفت؟"

قالت بريهان: "لا، لم أخف! ولكنك ستوقظ الطفلة!" ونظرت بطرف عينها إلى السرير، فرأت أن الطفلة لم تستيقظ. "ألم تذهب أنت إلى العمل؟"

"ذهبت، ذهبت!"

"هل أنت مريض أو شيء من هذا القبيل؟"

قال رفيق: "أنا سليم جداً!" ثم أراد أن يريها انفعاله: "جئت، جئت، جئت! هل ارتبكت؟"

لم تقل بريهان شيئاً، وكانت تنظرت متسائلة.

فكر رفيق: "لم تسر أبداً من رؤيتي على الأرجح! لقد دُهشت قليلاً، وقلقت. تبدو وكأنما قبض عليها متلبسة. وتخاف من إيقاظي للمولودة!"

"عدت هكذا لمجرد العودة. ذهبت مع عثمان إلى المكتب. نظرت، وإذ بالجو حار جداً، قررت أن آتي إلى البيت! فعلت حسناً، أليس كذلك؟"

قالت بريهان: "حسناً فعلت! الجو حار جداً، أليس كذلك؟"

"يا... يُسلق كل شيء. الناس مشدودة أعصابهم. تشاجرت امرأة مع قاطع التذاكر في طريق العودة بالترامواي. إذا كان الجو متأججاً في هذه الساعة، فسيكون بعد الظهر..."

"كم الساعة؟"

"العاشرة والثلث."

"يا لسرعة ذهابك، ومجيئك!"

"بسرعة، أليس كذلك؟ دخلت إلى غرفتي. فجأة خطر ببالي: عدت، ودخلت إلى غرفة عثمان. قلت له: أنا لست على ما يرام، سأذهب إلى البيت! دهش قليلاً على الأغلب." بدأ يضحك. "كان عليك أن تري وجهه! لم يسأل حتى عما أصابني!"

"أنت لا تعاني من شيء، أليس كذلك؟"

"أقول لا ياه... لعلي أعاني قليلاً من عقلي!" ومد عنقه، وقبل بريهان من خدها.

قالت بريهان: "انظر، لعل هذا صحيح! أنت عجيب في هذه الأيام."

فكر رفيق: "حسنٌ، فهمت. لم تسر أبداً لرؤيتي! إنها تريد أن تجلس وحدها، ولا بد أن عندها مشاريع، ولديها ما تقوم به."

"هل لديك عمل ما الآن؟"

"لا.. ماذا سيكون لدي. المولودة أيضاً نامت!"

نظرا معاً إلى المولودة النائمة في السرير: كانت في يومها الأربعين، ولكنها صارت منذ الآن كبيرة. بدأ رفيق منذ الآن يخشى أن تصبح ابنته ضخمة البنية في المستقبل. فكر: "كلانا طويل أساساً!" وبدا كأنه قلق.

ولدت ابنتهما بعد موت جودت بيك بعشرة أيام. وأطلقا على هذه البنت الضخمة البنية اسم ملك. كان هذا اسماً فكر فيه رفيق قديماً. ولمح طفح أحمر على ساقي الطفلة النائمة.

"لماذا لم تغطها بالناموسية؟"

"اعتقدت أنها تتنفس بنحو افضل هكذا."

خيم صمت.

جلس رفيق على حافة السرير. وقال لمجرد الكلام: "ولكن ما هذا الحر ياه! منذ أسبوع والجو هكذا. إذا مر تموز كله هكذا..."

قال بريهان: "لو أننا ذهبنا إلى الجزيرة!"

"كيف يمكننا أن نذهب؟ في حضنك طفلة... ثم أن أبي مات حديثاً!"

أطرقت بريهان براسها: "أنت على حق! قلت هذا من دون تفكير."

قال رفيق: "نعم، سيكون جيداً لو أنكم الآن في الجزيرة، ولكن لم يعد هذا ممكناً! ثم إن أمي وعثمان أيضاً لا يريدان." "أعرف، أعرف!"

وخيم صمت جديد.

سأل رفيق قلقاً: "ألا يوجد عندك عمل حقاً؟"

قالت بريهان: "أقول لك لا يوجد ياه! لدي فضول لمعرفة ما تفكر فيه حقيقة!"

"ما أفكر فيه! كيف؟"

"لا، ما الذي يمكن أن يكون لدي؟ بماذا تفكر؟"

قال رفيق: "هه! لا شيء، لا شيء!" وتناول الجريدة التي رمتها بريهان على الأرض، وبدأ يقلبها: "ليس ثمة شيء أبداً!" بدأ يقرأ الجريدة بشكل عشوائي: "الإجراءات الرسمية ضد التفوئيد. تم حل الخلاف الروسي الياباني. المفتش الفرنسي سيذهب خلال هذه الأيام إلى هطاي، و..." تذكر أنه قرأ هذه الأمور صباحاً. نظر إلى بريهان. كانت جالسة على كرسيها دون حركة.

قال رفيق: "لنذهب هذا الأحد إلى الجزيرة إن شئت!"

"لا يا روحي! ثلاث ساعات ذهاب، وثلاث ساعات إياب. وكل هذا الارتباك، والعذاب للاشيء. ومن سيهتم بالطفلة؟"

"تهتم بها نرمين. وهناك أمينة خانم. وهل سنعاني في هذا البيت من نقص في الناس؟"

"لا ، لا! قلت هذا لمجرد الكلام! نفسي لا ترغب بشيء أساساً! حتى الحديث متعب في هذا الحر!"

"نعم! هل أحضر لك شيئاً من الثلاجة في الأسفل؟ لأطلب من نوري تحضير ليمونادة!"

"نوري غير موجود. ذهب للتسوق، أو إلى المقهى، أو إلى مكان ما. ونفسي لا تطلب شيئاً!"

قال رفيق بمرح: "أتعرفين، لم يرني أحد قادماً! قفزت من فوق الجدار لكي لا يرن الجرس. وكان الباب الخلفي، باب المطبخ، مفتوحاً. إذا دخل لص فلن يشعر به أحد!"

لم تجب بريهان. نهضت عن الكرسي، وجلست على مقعد الكوميدينة. كان عليها أن تخطو عدة خطوات بانتباه لتفعل هذا. كان ثمة ضرورة لتغيير أمكنة بعض المفروشات عندما وضع في الغرفة السرير الصغير الذي اشتروه للطفلة، وامتلأت الغرفة غير الكبيرة أساساً بالأثاث. نظر رفيق إلى بريهان، وكان ينتظر أن تقول شيئاً ما، وشعر أن مرحه يخبو. وفكر بعد فترة: "كان وضعي المرح هذا مضحكاً جداً بالأساس!"

"كنت تقولين شيئاً قبل قليل. وضعي عجيب في هذه الأيام؟"

"لا أدري! ليس شيئاً مهماً. خطر ببالي، فقلته!"

"لا تترددي يا روحي، احكي."

"كيف أعرف؟ أنت عجيب هكذا!" وبحثت بريهان عن كلمة وهي تتمتم لنفسها. في النهاية قالت: "توازنك! توازنك القديم لم يعد ظاهراً عليك. لعلني مخطئة. خطر هذا ببالي، فقلته!"

وفكر رفيق: "هذا يعني أنني فقدت توازني!" أعاد النظر بأيامه الأخيرة: "ماذا فعلت؟" لعلي أفرطت قليلاً بالمشروب. عبست! تحدثت هراء، ولكن هل هذه الأمور هامة إلى هذا الحد؟ ماذا فعلت غير ذلك؟" يفكر، فلم يخطر بباله غير هذا. قال خجلاً قليلاً: "مات أبي!"

تمتمت بريهان قائلة: "أنت محق!"

قال رفيق منفعلاً: "ثم صار لي ابنة! إنني مندهش على كل حال!"

قالت بريهان: "لماذا أدهشك مجيء ابنة لك؟" ورفعت رأسها إلى الأعلى قليلاً.

وجد رفيق نفسه من دون إجابة: "أدهشني هذا! لم يكن يخطر ببالي أن يكون لي طفلة. إنها طفلة بدم وروح! شيء عجيب..." وقال وهو يحرص على الا ينظر إلى الطفلة النائمة في سريرها: "شيء غير متوقع يا روحي، افهميني!" خاف من نبرة صوته، ولكنه أضاف: "كوم من المسؤوليات!"

لم تعد بريهان تتبس. ولم يكن يفهم أيضاً بماذا تفكر.

قال رفيق فجأة وكأنه شعر بتعرضه للظلم: "لن أذهب إلى العمل بعد الآن!" ودهش، ثم فكر: "لم يصل ما يدور في عقلي إلى هذا الحد يا ناس!" كان ثمة شعور في داخله بأن حقه ليس أن يقول هذا فقط، بل أن يفعل شيئاً بهذا الخصوص. لم يكن يعرف من أين كان يستمد هذا الحق، ولكنه واثق من وجود هذا الشعور.

صرخ قائلاً: "أريد أن تكون هناك أشياء أخرى في حياتي بعد الآن!" وخشي من قول أشياء أخرى.

قالت بريهان: "أرجوك لا تصرخ، ستستيقظ الطفلة! ثم أن النسيان يغدو صعباً!" كانت تنظر إلى الطفلة التي في السرير: "ماذا يعني أنك تريد أشياء أخرى؟"

قال رفيق: "لا أعرف! فكرت بعد موت أبي كثيراً بما يمكنني أن أعمله، ولكن لم يخطر ببالي شيء كثير... لم يعد بالإمكان أن تسير الأمور كما كانت. يجب أن أفعل شيئاً!"

قالت بريهان: "ألن تذهب إلى العمل بعد الآن حقاً؟ هل ستجلس طوال اليوم في البيت؟"

نهضت من جديد، واقتربت من الطفلة. كانت الطفلة تتململ، قربت بريهان رأسها منها.

كان رفيق ينظر إلى زوجته، ووجهها الطفلي بانتباه. قال: "في النهاية سأذهب إلى العمل طبعاً!" واختار زمناً لا يقابل فيه بريهان وجهاً لوجه: "لابد لي من الذهاب إلى ذلك المكتب طالما عشت في هذا البيت. ولكنني أريد أن أعمل أشياء أخرى. هل استطعت توضيح هذا؟ يمكنك أن تساعديني!" وغضب عندما رأى أن بريهان مازالت تنظر إلى الطفلة: "ولكن كيف يمكنك أن تساعديني؟ فمازلت أنت طفلة!"

التفتت بريهان، وقالت: "قلت لك إنك فقدت توازنك!"

فكر رفيق: "لم يبق لدي توازن، لم يبق لدي توازن! إنها على حق. وأنا أيضاً على حق. بريهان ذكية، ولكنها طفلة! لم يبق لدي توازن... ماذا أفعل؟.. هذا البيت، والمكتب الذي أذهب إليه لمجرد تحاشي العيب... ماذا أفعل أنا؟"

قال: "أريد أن أقرأ قليلاً، أن أقرأ بشكل جدي، وأفكر!"

تمتمت بريهان: "كما تريد!"

خيم صمت جديد.

قال رفيق: "ولكن الجو حار حقيقة، حار يا ناس!"

قالت بريهان بصمت: "نعم!"

صمتا من جديد.

غرق رفيق بالتفكير: "هربت من المكتب. الجو حار جداً. أنا أُدرك ضرورة القيام بعمل ما، ولكنني لا أعرف ما هو. يمكنني القيام بهذه الأمور: أولاً: القراءة وفق برنامج وانضباط معينين مدة طويلة. ثانياً: محاولة كتابة بعض الأمور. ثالثاً: بيع حصتي من الشركة لعثمان، والخروج من

البيت، والعمل في الهندسة. رابعاً: السفر مع بريهان في سياحة إلى أوربا. ولكنني لا أستطيع القيام بهذا، أي الأخير، لأن هناك طفلة. في هذه الحالة يكون الخامس: الخروج في رحلة وحدي. وعلي إيجاد ذريعة من أجل هذا. الجو حار جداً!" ولم يتثاءب بفمه فقط، بل تمطى بجسمه كله.

قالت بريهان: "آوه! يبدو أنك نعست منذ الآن!" كانت تضحك.

فرح رفيق عندما رأى حباً في وجه زوجته، ولكن مرحه كان قد فقده منذ البداية، فقال: "سأمنح حياتي معنى!"

قالت بريهان ضاحكة أيضاً: "تفعل حسناً!" في هذه اللحظة حل المرح.

"لا يمكن العيش بهذا الشكل. أنت تفهميني أليس كذلك؟ تجدينني على حق، أليس كذلك؟ لا يمكن العيش على هذا النحو!"

"أجدك على حق، طبعاً أجدك على حق!"

"حسنٌ، ماذا أفعل إذاً؟ ما رأيك؟"

قالت بريهان: "لا أدري!" وكانت يائسة، ولكنها مرحة. طنت الكلمة في الغرفة بخواء.

وفكر رفيق: "لا أعرف! ماذا أفعل؟ فلأفتش في المكتبة بدل جلوسي خاوياً هكذا..."

بدأت الطفلة تبكي في سريرها.

قالت بريهان: "ها هي استيقظت! هذا ما كان سيحدث!" استيقظت الطفلة، ولكن بريهان لم تتضايق. كانت مستمتعة كأن شيئاً متوقعاً ومرغوباً قد حدث. بعد أن دققت بها فترة، رفعت رأسها، وقالت: "فهمت. هذه عملتها في حفاضها من جديد!" واحتضنت الطفلة، ورفعتها. بعد أن رفعتها عالياً، وأنزلتها عدة مرات كأنها ترفعها، وتلتقطها، بدأت الطفلة المقطبة الوجه بالضحك.

قال رفيق: "انظري، انظري! رأتني، فضحكت! عرفت أباها."

"ها أنت تطلق عبارة فارغة! لا تعرف غير أمها بعد!" ومددت الطفلة على طاولة صغيرة بجانب السرير، وبدأت تخلع ثيابها.

قال رفيق: "لا، عرفت أباها. ستكون ذكية جداً مثل أبيها!"

قالت بريهان: "أوه، ملأنا تحتنا كثيراً!" خلعت ثياب الطفلة، وقربت رأسها من الجسد الصغير مرة أخرى.

نهض رفيق، وذهب لرؤية ما يمتع بريهان إلى هذا الحد عن قرب. ولكنه شعر بالظلم حين رأى الطفلة وبريهان تضحكان. وقال على عجل خشية من هذا الشعور:

"أنا سأنزل إلى الأسفل!"

"ولكن أمك في المكتبة الآن."

تذكر رفيق: كانت أمه تقضي أغلب وقتها في المكتبة منذ وفاة أبيه. فهي تجلس طوال اليوم هناك، تقلب الصور، وتبكي، وتصلي أحياناً عندما يخطر هذا ببالها. وغيرت نيفان خانم أمكنة الأشياء في المكتبة، ورفعت الصور عن الجدران، وحولت هذه الغرفة التي كان رفيق يلعب فيها البوكر مع أصدقائه إلى مسجد صغير.

قال رفيق: "حقاً ياه، نسيت!" وشعر بالضيق، ثم أضاف: "ولكنها صارت في الفترة الأخيرة تخرج إلى الشارع، أليس كذلك؟"

"لعلها ستخرج اليوم مع عائشة."

عاد رفيق، وجلس على حافة السرير من جديد: "أعرف أمي: لن يستمر هذا طويلاً. ستعود إلى حياتها المعهودة من جديد. ثم إن إقامتها الصلاة أمر عجيب جداً. فأمي لا تؤمن بشيء. كانت تسخر من نوري لأنه يصوم!"

قالت بريهان: "نعم!" وناغت الطفلة التي وضعتها في حضنها وهي تضحك: "هيا يا ابنتي، لنذهب الآن، ولنغتسل!"

خرجت بريهان مع الطفلة. فكر رفيق: "ماذا أفعل أنا؟" وجد نفسه وحيداً ومسترخياً. "زوجتي، ابنتي!" تمتم بالعبارة نفسها عدة مرات. "سأنزل إلى المكتبة، وأختار عدة كتب، ثم أقرؤها في الأسفل. ولكن ليس هناك غرفة في هذا البيت الكبير يمكن الجلوس فيها. لقد حشرنا في غرفة بحجم خم دجاج في بيت بثلاثة طوابق... من الخطأ أساساً سكن العائلة

كلها في بيت واحد هكذا في هذا الزمن. كل يراقب الآخر، وإذا حاول القيام بشيء، تفوح رائحته فوراً. وها أنا أدخل إلى هذه الغرفة في هذا الحر، وأجلس!" توقف فترة خجلاً من تفكيره هذا. نظر إلى الخارج عبر النافذة. بعد ذلك، أرخى نفسه من جديد: "تاجر ابن عائلة تاجر... شخص خاو لا هم له، ولا شغل. تزوجت... وصار لدينا ابنة. والآن أريد أن يكون لحياتي طعم... قليل من النضال، وبعض الأفكار والعواصف الصغيرة التي تودي بهذا الضيق والجمود... ابن التاجر يريد أن يمنح حياته وجهة. أجلس هنا في غرفة نوم تنتمي إلى فن الحداثة خدراً ومسترخياً، أتخبط من الحر متثائباً. ولكنني تأخرت. هنالك هذه الطفلة الآن... ليس لدي طموح!.. ليس لدي تعلق بشيء!.. أنا دون هموم! أريد أن أنفعل لأن السعادة فاضت قليلاً. إيه، مهما يكن، فأنا حفيد باشا... مهما كان دم التاجر يتدفق في عروقي، فإنني مدرك ضرورة إيجاد الآمال العظيمة... أي أمور يجب أن أجدها؟ أأقرأ قليلاً، أم أخرج في رحلة؟ شربت كثيراً بعد موت أبي. لأخفف المشروب. ثم أعد برنامجاً! لأنظم نفسي، وأؤذيها." نهض واقفاً وهو منتبه للسخرية من نفسه. كان ينظر إلى محي الدين في زمن ما، ويفكر بملامح السخرية، والتعاسة، والانهيار. مازال ينظر عبر النافذة. ثمة مقسم عريض حيث تنتهي الحديقة الخلفية. ثمة أطفال يلعبون القفز المتتابع أحدهم على ظهر الآخر تحت الشمس. وفكر رفيق خائفاً: "ليس قبل وقت طويل، قبل اثنتي عشرة سنة كنت مثلهم!"

دخلت بريهان إلى الغرفة: "ها نحن اغتسلنا، وجئنا! ابنتنا ملك خانم تحب الماء كثيراً. وتنتشي كلما اغتسلت!"

التفت رفيق، ورأى أن بريهان تضحك. وفكر: "حسنٌ، ماذا فعلت لأجلها؟"

قالت بريهان وهي تجفف الطفلة بالمنشفة: "آه، حالك غريبة! لماذا تنظر هكذا؟"

قال رفيق ناخراً: "حر شديد، حر شديد!" أضاف بعد ذلك: "هل حدث أن تركتك وحدك؟"

توقفت بريهان لحظة. قالت: "لي؟" وعندما فهمت من وجه رفيق أنها المقصودة بالكلام، شعرت بالارتباك قليلاً، والكبرياء قليلاً، وقالت: "لا!" ثم فكرت لعدة ثوان، وقالت: "أنا لا أشتكي من شيء! هل أنت على ما يرام؟ لتكن على ما يرام!"

حاول رفيق أن يبتسم: "أنا على ما يرام، على ما يرام يا روحي! متضايق قليلاً... أريد أن افكر، أستطيع أن أعبر، أليس كذلك؟ أقول ماذا يجب أن افعل. لا أعرف. أنا شارد. الحر سيئ جداً!" وصمت.

قالت بريهان بانتباه: "فلتكن على ما يرام. هذا هام جداً!"

فكر رفيق: "إنها تحبني!" خطر بباله أن يحتضن بريهان، ولكنه ضبط نفسه. سيطر عليه شعور أن هذا سيعني نوعاً من الاعتذار. "إنها تحبني، ونحن نجلس في الغرفة... وصار لنا ابنة الآن! وإذا تضايقت قليلاً فإنني أُحمل هذا لوجود الطفلة... كفى، يجب ألا افكر."

"أنا نازل إلى المكتبة. لعل أمي قد خرجت."

قالت بريهان: "أنا أيضاً سأنوم هذه."

فتح الباب في أثناء مسير رفيق نحوه. كانت نرمين. لم تندهش عندما رأت رفيقاً.

قالت: "هه، أنت هنا أليس كذلك؟ اتصل عثمان، وقال إنك لست على ما يرام. إنه قلق عليك! كيف حالك؟"

عصر رفيق نفسه، وانكمش وهو يقول: "أنا على ما يرام، على ما يرام، نازل إلى الأسفل!"

20

لماذا نحن هكذا؟

قال سعيد نديم بيك: "والدكم! والدكم!... والدكم... إذا كنتم لن تعتبروا هذا فظاظة مني."

"أرجوكم!"

"نعم، إذا كنتم لن تعدوا هذا فظاظة، ونظرتم إلى القليل من المشروب الذي شربته هذا بعين الاعتبار، وإذا سمحتم لي، فأنا أقدر أبيكم كثيراً. أريد أن أقول هذا. أريد هذا، لأنني أود التحدث عن المرحوم والدكم قليلاً، لنستذكر الماضي، ولنفكر بأنفسنا. لنفعل هذا."

هذا ما كانوا يفعلونه. كانوا يفعلون هذا، ويتناولون الفواكه بعد طعام العشاء البطيء على المائدة في الدار التي آلت إلى نديم سعيد بيك من أبيه الباشا. وهي الدار التي أقيم فيها عرس جودت بيك على نيغان خانم.

قال سعيد بيك في محاولة أخيرة: "أريد قول هذا: بلدنا بحاجة إلى أناس من أمثال والدكم!"

سأل رفيق: "كيف يكون هؤلاء الناس يعني؟"

ساد جمود على المائدة. وفكر عثمان وهو ينظر مستغرباً إلى رفيق: "وهل يسأل مثل هذا السؤال؟ واضح تماماً أي إنسان هو والدنا! فوق هذا فإن سعيد

بيك يشرح هذا منذ ساعات!" ألقى سعيد نديم بيك عدة حبات عنب إلى فمه قبل أن يقدم تصريحه. قطبت غولار حاجبيها أثناء انتظار جواب أخيها الكبير، وبدأت تقسم الدراق الذي في صحنها بالشوكة والسكين بانتباه.

لم يضحك سعيد نديم بيك: "أمثال والدكم الذين يعرفون معنى النقود والعائلة..." ونظر إلى زوجته بداية، ثم إلى أخته، وإلى المرأتين الأخريين الجالستين على المائدة بريهان ونرمين مسروراً من كلماته. وعندما لم ير تأثير كلماته على وجوههم، أدرك ضرورة أن يقدم شرحاً أكثر تفصيلاً. قال: "لم أشرح، لم أشرح! سأحاول أن أشرح، ولكن أثناء شربنا القهوة، وتدخيننا السجائر. لأن ثرثرتي أتعبت السيدات على الأغلب."

عارضت السيدات هذا الكلام كما كان متوقعاً. كان سعيد بيك يشرح أموراً غريبة جداً، ويحكي ما يحكيه بشكل ممتع جداً. وقالت نرمين إن الناس جميعاً يهتمون بما يُقال عن قرب. وإذا كان سعيد بيك لم يخف تصنعه، فقد اضطر إلى اتخاذ موقف المتواضع. نعم، لعل كلماته تجذب الاهتمام، ولكنه لم يستطع بأي شكل ضبط لسانه. فقد رأى قبل قليل أن إحدى النساء قد تثاءبت، وهي على حق بهذا. رغم ذلك فقد بدؤوا يعارضونه. ولكن قلقاً خفيفاً بدأ يحل هذه المرة. انتبه رفيق إلى أن بريهان قد احمرت. بريهان كانت هي التي قد تثاءبت قبل قليل. ولكن هذا لم يكن نتيجة عدم المبالاة، بل تثاءبت لمجرد قيامها بحركة ما. كانت بريهان تنظر أحياناً إلى كلب "ستر" المضطجع بجانب المائدة.

نهضوا عن مائدة الطعام، وانتقلوا إلى غرفة واسعة يتوسطها منقل مرصع بالبرونز. هذه الغرفة العالية النوافذ ذات المشربية العريضة تمتد نحو الحديقة، ويسقط ضوء الثريا المعلقة بسقفها على شجرة الزيزفون. ومثلما في غالبية حدائق نيشان طاش كان هناك في هذه الحديقة أيضاً أشجار زيزفون وكستناء. قبل الوليمة التي قدمها سعيد بيك لتذكر جودت بيك، والعودة إلى الحديث عبر رحلة ممتعة إلى الماضي، وقبل إظلام الجو، وفي أثناء اجتماع الغيوم الماطرة الباعثة على الكآبة في الأعلى أطلق صاحب البيت بعض العبارات حول تاريخ الأشجار. وهو الآن يتحدث عن تاريخ الدار،

ويشرح كيف حول هذا البناء الذي آل إليه من المرحوم والده إلى الحداثة. قال إنه أنفق الكثير لتحويل غرفة الضيوف هذه إلى بهو، وغيروا مفروشاتها كلها، واضطروا إلى هدم بعض جدرانها، ولكنهم أنقذوا الماضي أيضاً. القديم ليس عصياً على التحويل إلى طراز حداثي كما يعتقد كثيرون: فإذا كان الناس هادئي النفوس، وموهوبين إلى حد عدم انجرافهم بالانفعالات المؤقتة، يمكنهم أن يلووا القديم، ويشكلوه بتحويله إلى حديث. الأمر الذي يحاول كثيرون إعادة تشكيله من جديد، يمكنهم الخروج من القديم بتوفيقه مع المعاصر عبر مصالحات صغيرة ولكنها ذكية. بعد قول سعيد بيك هذا، اشتكى من ثرثرته، وترك الحديث للضيوف معتبراً أنه يمكن أن يعود إلى هذا الموضوع، إلى جودت بيك الذي تزوج في هذه الدار إن وجد الجرأة.

شاع الصمت و دخل الكلب ستر إلى الغرفة. تبادل الجميع النظرات متسائلين: "ترى ماذا نتكلم الآن؟" قبل الطعام هطلت زخة مطر، دار حديث عن الجو الحار في نهاية آب، وعن مقدار حزن نيغان خانم، وعن التعديلات الأخيرة التي أجريت على الشركة بعد موت جودت بيك أيضاً، واستذكروا بالطبع ابنة رفيق وبريهان التي بلغت الشهرين من عمرها، كما ألقوا نظرة على أخبار العالم والبلد المنقولة عبر الجرائد، بماذا سيتحدثون إذا لم يكن ثمة من يشكو من صحته؟ تلفت الكلب حوله قلقاً من الصمت المخيم على الغرفة. ثم تمدد بجانب المنقل.

فكر رفيق: "لماذا أتينا إلى هنا؟" أمل أن يكون بإمكانه أن ينسى ضيقه المتزايد في الأيام الأخيرة وكلماته الجارحة للنفس حول هدف الحياة التي يكررها مع بريهان باستمرار، ويترك نفسه لطعام جميل وثرثرة تاجر جميلة، ولكنه يفكر الآن من جديد بنفسه، وحياته، وبريهان، وفوق هذا بهذه المرأة المطلقة غولار، وكان يشعر بالقلق عندما يفكر بفولار. وكان ذلك قلقاً ماكراً وبارداً: لم يفكر فيه كخوف، كان يشعر أنه يقرب ما يجب تقريبه ليصبح لائقاً بوعي سليم ومتوازن، ويندس بخطوات حذرة معتنى بها. وفكر رفيق فجأة: "لم افعل شيئاً طوال الصيف! لم أستطع أن

أخطو أي خطوة جديدة. ذهبت إلى المكتب من جديد. واشتكيت من الحر مع بريهان من جديد، وجلست من دون أن أقرر شيئاً. لعلني قرأت قليلاً، ولكن لماذا؟ والآن تعلق هذه المرأة المطلقة بعقلي!"

عندما جاءت القهوة، قال سعيد بيك فجأة: "انظروا، ما أكثر ما يجلبه هذا الكلب إلى عقلي! لا أحد يتكلم، لذا يقع على عاتقي الحديث مرة أخرى، ولهذا السبب أتكلم!"

قال عثمان: "أرجوكم!" وكأنما يفاخر برقيه وتعقله.

"انظروا، هذا الكلب مرتاح في هذا البيت، يعيش ويتجول ويحك نفسه... لم يكن بإمكان هذا الكلب أن يدخل إلى الحديقة إلا بصعوبة أيام المرحوم والدي. وهل من الممكن وجود كلب في بيت مسلم؟" نادى الكلب: "تعال إلى هنا لنرى يا كونت!"

نهض الكلب باحترام، وتمطى، وذهب إلى سيده هازاً بذيله.

قال سعيد بيك بمتعة إمكانيته عرض أفكاره ممازحاً: "أنت لست مناسباً لبيت المسلم!" ثم التفت إلى محتسي القهوة الضيوف، وضحك. "ولكنكم ترون ياه، ها هو يحدث. لقد اعتدنا عليه، وهو اعتاد علينا. تواءمنا مع الزمن. لو كانت أمي على قيد الحياة، لوضعت البيت كله تحت القيود." التفت إلى الكلب: "هيا، حسنٌ، حسنٌ! اذهب إلى مكانك، واجلس!"

لبث الحيوان متردداً لعدم معرفة سبب استدعائه. وبعد ذلك، تجول في محيطه، شمشم الضيوف، ولامس بأنفه الرطب يد رفيق، وبعد أن تأكد أن كل شيء هادئ ومنتظم كما هو عليه دائماً، اضطجع بثقة.

قال سعيد بيك: "هذا ما أريد قوله! كل شيء نحن نوائمه مع الزمن، ودون أن نكون منتبهين. وكما قلت، لماذا لا نوائم القديم مع الجديد؟ انظروا إلى هذه الغرفة. أليس هذا المكان بهواءٍ؟ بالأمس كان غرفة ضيوف. انظروا إلي. ألست تاجراً بسيطاً وثرثاراً؟ لا، لا! اسمحوا لي أن أشرح لكم. بالأمس كنت ابن باشا... هل أستطيع أن أعبر؟ كان أبي يقول: بالنسبة إلينا لا تؤخذ التغييرات الكبيرة بعين الاعتبار، لأنها نتيجة للمصالحات الصغيرة وغير

المنتهية دائماً... ما قولكم بهذه الفكرة؟ نعم المصالحات... مصالحات صغيرة وذكية حققت تدفق التاريخ الصامت هذا كله! هذا ما كان يقوله المرحوم والدي. كأنه كان يعرف أنني سأكون تاجراً، وسأبيع كل شيء من أراض، ومقاسم وأستثمرها بالتجارة، وأن غولار ستتزوج عسكرياً جمهورياً صغيراً... أوربا، آه من أوربا! أفكر بها دائماً، كلما ذهبت إليها، أفكر بها. لماذا هم على ما هم عليه، ونحن هكذا؟ نعم، أسأل. لماذا هم على ما هم عليه، ونحن هكذا؟ انتظروا! هل نشرب عنبرية؟ إنها جيدة مع القهوة." قفز من دون انتظار رد أحد، واتجه إلى البوفيه. فأخذ عدة زجاجات، ثم قال لزوجته: "هات ذلك الألبوم أيضاً! ألبوم أوربا!" كأنه خجل قليلاً، ولكنه لم يكن يريد خفض توتر انفعاله. أراد أن يتكلم أكثر، ويفضي بما في نفسه، ويتلمس جرأة من خلال النظر إلى عثمان ورفيق.

خيم صمت قصير ومتوتر. وقررت نرمين وغولار شرب العنبرية مع القهوة.

اتخذ عثمان موقف المتعقل: "معكم حق. معكم حق إلى أبعد الحدود!" كان يريد على الأغلب إثارة النكد عبر التعقل والتسامح.

جاءت عطية خانم حاملة ألبوماً، وقالت: "أحضرت صور الولد أيضاً! أعطت ألبوم أوربا لرفيق.

قال سعيد بيك لرفيق الذي يقلب الألبوم: "أنا أستمتع بالسفر إلى أوربا بقدر ما أستمتع بالسفر إلى الماضي! نلتقط صوراً كثيرة، ثم نلصقها. إلى ماذا تنظرون الآن؟" نهض، وجاء إلى جانب رفيق راغباً بمشاركة ضيفه الشاب بالفرجة على أوربا حتى ولو كان هذا عبر الصور وبطاقات المعايدة. نظر إلى الألبوم من فوق كتف رفيق: "آه، انظروا، هذه باريس كيف كانت باريس قبل أربع سنوات، في عام 1933؟ كنت شاباً في تلك الأيام، أليس كذلك؟ وهذه أيضاً في العام نفسه... التقطت هذه الصور في برلين. باريس وبرلين! أي إنسان يمكن أن يخرج إلى أوربا، وأي تركي ينتبه إلى العالم قليلاً يمكن أن يتخلى عن هذه؟.. لعل هنالك فينا أيضاً، ولكنني لا أفهم بالموسيقى... آه، انظروا، هذه صور رحلة السنة الماضية. باريس! إنكم تقلبون بسرعة كبيرة. انتظروا، عرفتموه، أليس كذلك؟

عرفه رفيق طبعاً: كانت صورة عمر. كان عابس الوجه في مقصورة قطار وهو يحمل حقيبة.

صرخ سعيد بيك: "طبعاً هذا راستينياكنا! رأيناه في القطار في طريق العودة. ماذا يفعل الآن؟" واستمر يتكلم دون انتظار جواب رفيق: "انظروا، وهذه التقطت في السنة ذاتها... عائلة فرنسية تعرفنا إليها في برلين... نعم، نعم. عائلة فرنسية، عائلة فرنسية حقيقية مثقفة مرحة... نبيذ وجبن وبرج أيفل... وغير هذا، رجال يفهمون بالنساء! هل ثرثرت كثيراً؟.. ولكن انظروا، هذه هي العائلة! انظروا إلى هذه الصورة. كنا نقيم في الفندق نفسه في برلين. كانت غرفتانا متجاورتين. كنا نتناول إفطارنا معاً في الصباح. إنهم أناس مرحون... اقلبوا الصفحة. انظروا، إنها عائلة بكل معنى الكلمة... لهذا السبب أنا أذكر جودت بيك. لهذا السبب. نعم، أسس جودت بيك عائلة لا عيب فيها. لعلكم تجدون هذا مضحكاً، ولكنني معجب بعائلتكم عائلة الضوئي: أب ناجح، وولدان مجتهدان، وأم جميلة وطيبة، وأحفاد بصحة جيدة... عائلة كما يجب أن تكون. إنها كالساعة، ولكنها ملونة وحيوية مثل تلك العائلة!" فجأة انفجرت قهقهة. ولكنها لم تكن تبدو قهقهة صادقة. ضحك على ما يبدو من أجل تليين ما قاله، وإذا كان قد قال كلاماً غير مناسب، فللإشعار أنه منتبه إلى هذا غالباً. ونهض من جانب رفيق. ملأ كأسه الصغير بالعنبرية، ورفعه إلى الأعلى. قال: "وها نحن بدأنا نصنع بعض الأشياء! نصنع العنبرية. صناعة العنبرية! مصنع عنبرية في مجيدية كوي... مؤسسة كبرى! هه، لأضحك قليلاً... قولوا الآن، قولوا، لماذا نحن هكذا، وهم كذلك؟ لماذا؟ من يعلم سر ذلك؟ قولوا لماذا نحن هكذا؟ لماذا نحن على ما نحن عليه، وهكذا؟ قولوا!"

قالت غولار: "انفعلت كثيراً يا أخي الكبير! اجلس!"

كان سعيد بيك يعرض كأس العنبرية الذي بيده للجميع، ويهزه، ويقف هناك كأنه لم يسمع ما قالته أخته. بدا على من حوله الخجل أو الارتباك. لا أحد بالضبط يحدد إلى أي مدى هو جدي، وصادق. كأن الجميع انجرفوا بالانفعال. سرى توتر غير متوقع في الوجوه المتراخية بعد

الطعام الثقيل. كل منهم يبحث عن إجابة للسؤال الذي يكرره سعيد بيك من دون توقف، ويبدو حزيناً لعدم استطاعته العثور على الجواب. ولعلهم يضحكون على سخريات سعيد بيك كما لو كانوا مندهشين حقيقة لسؤال لماذا نحن هكذا.

"لماذا نحن هكذا؟.. نحن هكذا، نحن هكذا! لطفاً لا تتدخلوا بي هذا المساء! شربت، وانفعلت! على الإنسان أن يفعل شيئاً كهذا أحياناً. عليه أن يدع نفسه لانفعال القلب الحقيقي. لأنني سئمت، أقسم أنني سئمت، سئمت من مراقبة نفسي، وضبطها." ثم أشار إلى البوم أوربا الذي في حضن رفيق. "سئمت من التشنج من أجل أن أكون مثلهم، أكون مثلهم، والعمل وفق ما توحيه ذاتي. أنا أدع نفسي هذا المساء. أتصالح، وأصرح!"

قلب كأس العنبرية، وأطلق قهقهة في النهاية. كانت القهقهة هذه المرة موترة للأعصاب.

رأى رفيق غولار خانم بأنها تبدو قلقة. لابد أن هذا الصوت القوي والمتوتر غير معتاد في هذه الدار. الكلب أيضاً رفع رأسه، ونظر إلى سيده الذي كان يقوم بأعمال غريبة.

حين رأى سعيد بيك كلبه يرفع رأسه، قال: "آ، لقد تماديت كثيراً على الأرجح! انظروا حتى الكونت قد تأرق." وقف فترة دون حركة وهو ينظر إلى الكلب. اجلس يا كونت، اجلس، أنا لا أناديك. والتفت إلى الناظرين إليه. قال: "رأيت امرأة راقية في باريس. تشد رسن كلبها الذي يبول تحت عمود كهرباء، كانت تقول له: هيا يا باشا، هيا تعال يا باشا! لا أقول في الحقيقة إنني لم أغضب لأنني ابن باشا. لهذا السبب أسميت هذا كونت. مهما يكن! سئمت من ثرثرة تاجر، أليس كذلك؟ صرنا كلنا تجاراً. سكر، حديد، سيارات، تبغ، أو تين. سأصمت بعد الآن، أصمت، أصمت. أعطوني هذا الألبوم لإغلاق هذا الموضوع. أما زلتم تنظرون إلى هناك؟ هذا راستينياكنا ها؟ إنه كالفاتح. كيف هو؟ ماذا يفعل الآن؟ صدقوا إنه ليس مثلكم أو مثلي. ولكنه سيكون تعيساً في النهاية... لأن هناك ضرورة للتصالح في النهاية. أبي على حق: "ثمة ضرورة للمصالحة. يبدو على فاتحنا

أنه متكبر. ولكننا لنغلق هذا الموضوع. حسنٌ، ماذا يفعل السيد عمر الآن؟ إنه تعيس بالتأكيد. آه، ثمة ضرورة للتصالح، ضرورة للتصالح، وإسكات الضمير، والكينونة تاجراً، هادئاً وحذراً، متوازناً وماكراً. إنكم لا تغضبون، أليس كذلك؟ كلنا تجار. هل هذا مهم؟ نشتري، ونبيع؛ نشتري، ونبيع... ولكننا مازلنا نعيش في دورنا كما ترون. هذا هام. رأيتم يا! أنا أجلس مكاني. ودفن الكلب رأسه أيضاً. والآن أصمت!" وأسند رأسه على مسند الأريكة التي جلس عليها كمريض، وصمت.

ساد صمت. كان رفيق يفكر منذ البداية بأن صاحب البيت سيخجل كثيراً بعد انفعاله هذا. كان ثمة خجل ودهشة كأن أحدهم مات قبل قليل، واعترف بجريمة ارتكبت قبل سنوات. فكر رفيق: "لو أن أحداً يقول شيئاً!" ونظر إلى غولار. "بماذا تفكر هي؟ عسكري جمهوري صغير... ترى هل تذكر العسكري الذي انفصلت عنه على هذا النحو؟ لو أن أحداً يقول شيئاً، أو ..."

"آه يا جودت بيك، إلى أين أوصلتنا، إلى أين!" كان هذا سعيد بيك. رفع رأسه، واتخذ موقف القائد المحتضر، وابتسم بتسامح.

كان موقف التسامح الذي اتخذه صاحب البيت قد أرخى التوتر. وفكر رفيق بالتعريج على ذكر عمر، أو عدم ذكره. ثم نظر إلى بريهان. تبدو بريهان غير متأثرة بالعرض كثيراً. انتعش رفيق عندما رأى راحتها تلك.

بعد ذلك، قالت عطية خانم فجأة: "يا لجمال ما شرحته يا عزيزي سعيد! يا لجمال ما حكيته بانفعال، احك عن ذلك الأمر. إنك تحكي عنه دائماً بانفعال. كان المرحوم والدك يحكي عنه أيضاً. عندما كان عبد الحميد يؤنب كامل باشا، ودخل مشرف الحرم... احك لنا تلك القصة لطفاً!"

قال سعيد بيك: "قلت إنني سأصمت! سأصمت. تثاءب بعد ذلك، ودفن نفسه في وعيه المتموج.

21
خمارة في بشك طاش

"حسنٌ، هل يحيى كمال كشاعر أفضل من توفيق فكرت؟"

قال محي الدين: "ما هذا إلا ذاك! لا أهمية لكليما... كلهم صفر على الشمال مقارنة ببودلير!"

حدث جمود، ولكن محي الدين لم يعط ذلك اهتماماً. صار معتاداً على فترات الصمت القصيرة هذه. ولكنه اضطر للاعتراف لنفسه بأنه مستمتع بهذا عندما طال الصمت. فكر: "إنهم ينقبونون بجملتي الآن! طالبا المدرسة العسكرية محبا الشعر يدققان بجملتي الآن، وينتشي لعدم إمكانيتهما أن يبيضا جملاً براقة كهذه، ويعجبون به أكثر!" كانوا جالسين في خمارة وسط سوق بشك طاش. كانت مقابل الحلاق. كانت الخمارة مليئة بالموظفين، وأصحاب الدكاكين، وصيادي السمك، والسائقين. يلتقي محي الدين بهذين الشابين الهاربين من المدرسة العسكرية في يلضظ مرة أو مرتين أسبوعياً، ويتخذ موقف الأخ الكبير معهما.

قال أحد الشابين: "آه، يا للأسف! مع الأسف يا أخي الكبير، نحن لم نتعلم تلك الفرنسية بأي شكل! لا نستطيع قراءة حتى بودلير!"

قال محي الدين بنبرة ساخرة: "لابد أن تتعلموا!"

"إنكم تتكاسلون! لابد لشاعر شاب في تركيا أن يعرف لغة أجنبية."

"أنا أجد بعض الوقت مساء قبل الانزواء إلى المهجع. ولكنه لا يكفي!"

كان هذا طورغاي: متوتر مقارنة بزميله بريروس، وأوسم، ولكنه أكثر حمقاً. كان يرتدي قميصاً رقيقاً. قبل عودتهما إلى كليتهما بعد ظهر يوم الأحد، يخلعون ألبستهم الخاصة بالعطلة هذه، ويرتدون بزاتهم العسكرية.

لم يقل محي الدين شيئاً. كان يعاقبهم بعدم قول شيء حول كسلهم وترددهم في موضوع اللغة الأجنبية.

"وغير هذا، لا يوجد من نسأله... يصدوننا فوراً عندما نسأل سؤالاً!"

لم يجب محي الدين أيضاً. كان يقول بعينيه: "كل شخص مسؤول عن نفسه. لا أعتذر!"

قال بريروس: "يا أخي الكبير. هل قرأتم قصائد جاهد صدقي في مجلة فارلك؟"

"لا!"

بقي الطالب العسكري متردداً: "كنت سأسألك عن رأيك." ثم أضاف: "ألم يصدر شيء حول كتابكم بعد!"

تضايق محي الدين. لقد مضى شهر على صدور مجموعته الشعرية، ولكن أي ردة فعل لم تأت عبر الصحافة. كان يفكر: "ليقولوا شيئاً، وليكن ما يكون!" قال: "لا يكتبون بعد! هضم كتابي صعب!" قال جملة يجب أن تكتب على طرف ما. واتخذ تعبير العظمة، ولكنه غضب من نفسه فجأة. وفكر: "إنا أتكبر على هذين الولدين المسكينين!" وكاد أن يغضب من نفسه أكثر، خطر بباله شيئاً آخر: "سيأتي إلينا بعد قليل ضيف يا شباب!"

كان رفيق سيأتي. اتصل بمحي الدين إلى مكتب الإنشاءات الذي يعمل فيه، وقال له إنه يريد أن يتحدث إليه. كان صوته على الهاتف مرتجفاً، متردداً، متضايقاً. كان هذا شيئاً لم يعتد عليه محي الدين من رفيق.

"هل صديقكم هذا أديب يا أخي الكبير؟"

"هه، لا! مهندس! الأدباء لا يعرجون كثيراً على خمارات بشك طاش. إذا أردتما رؤيتهم فاصعدا إلى بيه أوغلو! هذا الصديق مهندس. زميل من كلية

الهندسة. والحقيقة أنه لا يعرج كثيراً على خمارات بشك طاش: إنه من نيشان طاش!" وبدأ يضحك. رأى طالبي المدرسة العسكرية يضحكان، فتوتر. إنهما يضحكان من دون فهم، وكأنما يسخران من رفيق في آن واحد. ولكن ما من أحد يجب أن يضحك من صديق محي الدين هكذا ببساطة، وليكن من يكون. إذا كان ثمة ضرورة للسخرية من رفيق، فهذا يقع على عاتق محي الدين فقط، وليس عليهما.

قال مقطباً وجهه: "إيه، لماذا تضحكان؟" ثم فكر أنه فعل عيباً. قال: "نعم، إنه لا يعرج على بشك طاش. إنه من نيشان طاش. ما ستفهمانه أنه يأتي من الأعلى. وبشك طاش هذه بقيت دائماً في الأسفل. كان سادتنا قديماً في يلضظ، في القصر، وهم الآن في نيشان طاش!.." وأطلق قهقهة. وفكر قائلاً: "إن الكلام الذي قلته حكمة!" بحث عن إمكانية قوله هذا بشكل أفضل: "مثلاً: عندما انتقل السيد الذي في يلضظ إلى بشك طاش، صارت الجمهورية! لا، هذه ليست جميلة. كيف يمكنني أن أقول هذا بشكل آخر؟" فجأة وقف شاكاً.

"إنكما تضحكان، ولكن لنر إن كنتما فهمتما كلامي؟"

"قديماً كان هناك سلطان سلاطين، والآن يوجد التجار. ولكن في بشك طاش هذه ليس هناك ما تغير." كان هذا بربروس.

قال محي الدين: "أف، خربتها! كما في كتب الثانوية." رأى أن بربروس أطرق ناظراً أمامه، ولكن لم يبال. فشرب نبيذه، وراح يفكر بحكمته: "ابن القصر الذي في يلضظ إلى نيشان طاش... هه، ها هو قد وصل!"

دخل رفيق إلى الخمارة، وبحث عن محي الدين. حدق به محي الدين فترة من دون أن ينبس. كان على وجه رفيق تعبير اشمئزاز، وتردد، وحزن غامض. كان غاضباً من نفسه لاضطراره إلى أن يأتي إلى هذه الخمارة الوضيعة على الأرجح.

فكر محي: "حسنٌ أنني قلت له لنلتقي هنا! ليصيح على مزبلتي قليلاً لنرى! لقد سئمت من صالوناته." ثم لوح لصديقه بيده. ودهش عندما رأى وجه رفيق عن قرب. تمتم: "ثمة شيء فيه!" كان منفعلاً: "لو أننا التقينا في مكان آخر. ترى ماذا حدث له؟"

أشار لرفيق نحو مكان، وعرفه على العسكريين الشابين، وسأله عما يشربه. وأثناء ذلك، دقق بوجهه. "لديه شيء. إنه متضايق!"

تحدثوا بكلام عام فترة.

عندما جاء النبيذ، قال رفيق: "إيه، كنت ستجلب لي مجموعتك الشعرية؟" كانا قد تكلما بهذا مساء البارحة.

أخرج محي الدين الكتاب من جيبه: *مطر مفاجئ*. فتح صفحته الأولى. وفكر: "سأوقعه الآن. إنهم تواقون لمعرفة ما سأكتب. أي احتفالية هذه!" خطر بباله حفل توقيع آخر، فبدأ يحكي: "جاء موظف مسنٌ يطبع كتابه على نفقته إلى دار النشر التي طبعت كتابي يوقع كتابه، ويوزعه على الجميع. التفت إلي، وسألني: ماذا تعملون أنتم يا ابني؟ وقع كتابه بتفاخر عندما عرف أنني شاعر: إلى الشاعر محي الدين الذي أقرأ قصائده مستمتعاً." وأطلق محي الدين قهقهة، ولكنه صار جدياً عندما رأى أن رفيقاً مكتئب. فكر: "هو اليوم مكتئب، ويقع على عاتقي سلوانه!" ووقع كتابه الشعري: "إلى التاجر الشاب الذي تابعت حياته بمتعة." وفور كتابته هذا، وجد مزاحه سمجاً، ولكنه قدم الكتاب لرفيق من دون مناص.

تأمل رفيق بالكتاب قليلاً، ونظر إلى غلافه، وقال بضع عبارات حول تنضيده، وصفحاته، وعندما قرأ تلك الجملة على صفحته الأولى قطب وجهه، وقال: "أف، يا أخي، حياتي!.. خرجت حياتي عن سكتها!"

قال محي الدين كأنه يئن: "ماذا تقول!" دهش، وارتبك... كان قد هيأ نفسه قليلاً لشيء من هذا القبيل، ولكنه لم يتوقع الأمر إلى هذا الحد. كان يصغي لصخب الخمارة، ويتجنب النظر إلى وجه رفيق. "يا أخي، خرجت حياتي عن سكتها. يا أخي... يا أخي..." كان رفيق قد قال هذا بالأمس: "يا أخي..." منذ متى لم يسمع عبارة كهذه. فكر: "أنا أنفعل بشكل سيئ جداً!" "حسنٌ، ماذا حصل لك يا صديقي؟ كنت سعيداً! لم تكن مثلي. ماذا حصل لك يا أخي؟ هيا، لنتحدث. لنتحدث، ولكن هذا غير ممكن أمام هذين الشابين..."

"حقاً، كيف ابنتك الصغيرة؟" سأله هذا لمجرد الكلام.

"جيدة، جيدة... إنها تكبر بسرعة!"

"انظر، أنا سعدت لهذا. أنا قررت. سأتزوج. سأنتظرها."

قال رفيق: "لا تتزوج! لا تتزوج، ستفعل جيداً إذا لم تتزوج." كان يشرب نبيذه بسرعة.

"لا، سأتزوج منها. ستكون ابنتك جميلة جداً بالتأكيد. لا أشك بهذا أبداً." كاد أن يقول شيئاً، ثم صمت. وفكر: "كدت أقول له إنني أجد بريهان جميلة جداً!"

قال رفيق: "لا، ابنتي لا تناسبك. ستكون ضخمة البنية. صارت منذ الآن بهذا القد!"

دهش محي الدين، وفكر: "لولا أنه خجل لقال لي فظة!" ثم قال: "وهل أنا قصير إلى هذا الحد يا روحي؟" وندم لقوله هذا، خجل من النظر إلى الطالبين العسكريين.

قال رفيق: "لا يا روحي! من يقول إنك قصير؟"

غضب محي الدين لطول الحديث أكثر. ونظر إلى ساعته، والتفت إلى العسكريين: "شباب، أما تأخرتما أنتما؟"

قال طورغاي: "لدينا مزيد من الوقت، يمكننا أن نصل في الموعد المحدد."

ولكن بريروس قال كأنه يهمر: "ولكنه سيكون من الأفضل إذا نهضنا! لن يكون جيداً صعودنا الطريق ركضاً."

لم يجب محي الدين. ونهض العسكريان. كان عليهما أن يرتديا بزتيهما العسكريتين في بيت المصور الذي وضعاهما عنده أمانة. قال لهما محي الدين عدة عبارات ليراضيهما. وأضاف إنهم سيلتقون من جديد هنا يوم الأربعاء القادم. ناداهما أثناء خروجهما: "لا تتأخرا. وإلا فإن قائدكما سيشدكما من أذنيكما. وادرسا دروسكما جيداً. واكتبا رسائلَ لأبيكما وأميكما. كونا عسكريين جيدين، وولدين طيبين، ومواطنين جيدين!" كانت هذه عبارات يقولها دائماً: سُحق الشابان قليلاً أيضاً، وابتسما، وخرجا منكمشين.

سأل محي الدين رفيقاً: "كيف وجدتهما؟"

"كانا يريدان الجلوس مدة أطول على الأغلب!"

قال محي الدين متضايقاً: "لا يمكنهما الجلوس أكثر! إنهما يتأخران." بعد ذلك أشار بيده إشارة تفيد الاستخفاف: "أرجوك، دع عنك هذا يا! احك أنت عن نفسك. أنطلب قليلاً من النبيذ أيضاً؟"

هز رفيق رأسه. طلبا النبيذ، بعد ذلك صمتا. خيم صمت طويل.

عندما جاء النبيذ قال محي الدين: "لديك شيء ما!"

"نعم. لدي شيء!"

"هل حدث لك شيء؟"

"قلت يا: خرجت حياتي عن سكتها."

"هذه العبارة لا تفسر شيئاً كثيراً..."

"معك حق... أقول لنفسي هذا دائماً؟.. اعتدت. كيف أقوله بشكل آخر؟"

"فكر قليلاً... ماذا حدث؟"

"لم أعد أستطيع أن أكون كما كنت. لم أعد أستطيع العيش كما كنت أعيش. ليس هذا بالضبط." بحث رفيق فترة عن كلمة. "أريد أن تحدث أمور أخرى. لم أعد أستطيع أن أكون كما كنت في السابق!"

أصدر محي الدين صوتاً: "هم م م!" ملمحاً إنه يفكر، ولكنه لم يفهم شيئاً.

"تقول بريهان إنني فقدت توازني السابق..."

"وهل تجد هذا صحيحاً؟"

"قليلاً... إذا كان ما يدعى توازناً هو ترك النفس لدفق الحياة... إذا كان التوازن يعني تحقيق السعادة بسهولة، فإنني فقدت توازني قليلاً على الأرجح..."

قال محي الدين: "سيئ جداً!" وفكر قليلاً، وأضاف: "كنت في زمن ما تباهي بتوازنك هذا! هذا يجعلك سليماً، وسعيداً، ولكنه يجعلك بصراحة مسكيناً قليلاً. لا، يجب ألا يجعلك فقدانك التوازن تعيساً..."

"كيف أتحرك، كيف؟ ماذا أفعل؟"

فكر محي الدين: "حاله سيئة جداً يا ناس! ولكنني لا أستطيع فهم همه." وتراكم غضب غير واضح على شفتيه.

"لا أستطيع فهم همك. اشرح قليلاً!"

فكر رفيق قليلاً: "ما الذي يمكن أن يقال!" ثم قال خجلاً: "لا أجد رغبة بالذهاب إلى العمل. أفكر بعدم الذهاب إلى المكتب!"

"ماذا ستفعل حينئذ؟"

"لا أعرف... فكرت أننا يمكن أن نتحدث بهذا معاً..."

قال محي الدين فجأة: "انظر! أنت متزوج. لديك طفلة. أنت مهندس. ليس لديك عمل يزجك بمصاعب كثيرة. تعيش في بيت سعيد. لديك كل شيء، زوجة محببة، وعدة أصدقاء، ومحيط، وحياة يومية هادئة... أأنا من سيذكرك بهذا؟ أنت منتبه لكل هذا على كل حال."

قال رفيق: "منتبه! منتبه أكثر من اللازم." كان على وجهه ابتسامة حزن غريب، وأضاف قائلاً: "لعل الأمر كله ينبع من هنا!"

شعر محي الدين بأن الغضب المتراكم على فمه قد نما. "وغير هذا... هل أنت واثق من عدم وجود شيء آخر؟.. هل ضيقك ينبع من هذا؟ احذر أن يكون أحد أمورك قد خرب، أو حل بك مكروه!"

"لا، لو كان قد وقع لأخبرتك!"

"هم م. حسنٌ، وفاة والدك، وولادة ابنتك.. لعل هذا أدهشك قليلاً."

"لعل هذا ممكن."

"حسنٌ، ليس هناك شيء كما كان في الماضي، كيف هو إذن؟ ما هو الشيء الذي كنت تفعله سابقاً، ولا تستطيع عمله الآن؟"

"قديماً كان لدي توازني. بريهان على حق غالباً. انت ايضاً قلت الأمر نفسه تقريباً. عندما فقدت توازني، لم أعد أستطيع تحقيق مواءمتي السابقة. يمكنني القيام بالأمور التي كنت أقوم بها، ولكن لم تعد ثمة

مواءمة بيني وبين الحياة. يمكنني أن أستمر فترة أخرى، وفي النهاية لن أستطيع القيام بما كنت أقوم به، ولا الاستمرار بحياتي اليومية."

قال محي الدين: "واخ، واخ، واخ!" وخشية من أن يظهر بمظهر الساخر، أضاف: "انظر، انت لا تريد أن تذهب إلى المكتب أيضاً!"

"ها أنت ترى، أليس كذلك؟"

"أي أنك تعيس؟"

"أنا تعيس يا أخي، تعيس على الأغلب، غير هذا فإن الأمر غريب!"

كان يقول: "أخي!" ولكن هذا القول الآن لا يؤثر كثيراً على محي الدين. بدأ الغضب الذي حاول ابتلاعه يتراكم في فمه من جديد.

"لعله سيكون جيداً إذا خرجت في رحلة. مهما يكن فلديك بريهان، والوقت!"

"لا، لا! لم يغب هذا عن تفكيري، ولكنه مستحيل!" وأضاف خجلاً: "أفكر فيما إذا ذهبت إلى عمر في السكك الحديدية."

"لعل ذلك البيت ضيق عليكم!" استجمع محي الدين الابتسامة التي على طرف شفتيه. " هناك طفلة أيضاً. انتقل مع بريهان إلى بيت آخر."

"ماذا سيتغير حينئذ؟... أنطلب نبيذاً؟"

"لنطلب. كنت سأقول لعل مشكلتك ناجمة عن الحر، ولكن تشرين الأول قادم..."

قال رفيق: "هل تسخر؟ أقول إنني تعيس. فقدت توازني..."

قال محي الدين فجأة: "انظر!" كان الغضب في فمه هذه المرة كالدم، وأدرك أنه لن يستطيع ابتلاع غضبه كالسم. "ليس لك الحق أبداً أن تكون تعيساً. هل فهمت، ليس لديك الحق بهذا. اسمع ما يخطر ببالي. جئت إليك في يوم أيلولي كهذا قبل سنتين. كنت سكراناً. قدمت لي نصائحَ. جرحت كبريائي. انتظر، واسمع الآن: الآن دوري: نعم، ليس لديك الحق أن تكون تعيساً. التعاسة خاصة بأولئك الشبان الذين يلهون بالشعر، إنها خاصة بالشعراء، بصيادي السمك والسائقين هؤلاء. نحن نستمتع بطعم التعاسة.

لماذا تنظر هكذا، هل أقول هراء؟ حسنٌ، حسنٌ! أقول هراء، ولكنك تقول هراء أيضاً، لأنني لا أستطيع فهم أي شيء."

قال رفيق: "وأنا لا أستطيع الفهم!" وبدا أنه خائف من غضب محي الدين.

"دهشت مما قلته حقيقة!"

قال محي الدين: "وأنا دهشت منك." مازال الغضب هناك، يشتعل في فمه ملتهباً. "دهشت البارحة عندما سمعت صوتك بالهاتف. وعندما رأيت وجهك حين دخلت إلى هنا دهشت أيضاً. كنت أعتقد أن مشكلة ما، أو شيئاً سيئاً، أو كارثة قد حلت بك. ولكن شيئاً لم يحدث أبداً!"

تمتم رفيق: "ماذا كنت تتوقع إذاً؟"

"أنت لا تعاني من شيء. كنت أعتقد أن ما يتعس الإنسان قد حل بك. لا أدري إن كانت قد مرضت ابنتك، أو عشقت امرأة أخرى، أو أفلست شركتكم، أو خانتك زوجتك... شيئاً كهذا. ولكن ليس لديك ذريعة حقيقية لتعاستك... صوتك الذي سمعته البارحة على الهاتف، ووجهك الذي رأيته اليوم يدل على أنك إنسان تعيس. لا شك في هذا. ولكن حياتك سعيدة بكل معنى الكلمة. لديك حياة مريحة، خالية من الهموم، مستقيمة... في هذا الوضع..." قرر محي الدين قول ما وصل إلى رأس لسانه. صمت فترة ضاغطاً على نفسه، ثم قال: "ماذا أقول بعد ذلك؟ أرى بأن الراحة يجب أن تدخل في مؤخرتك."

تخبط وجه رفيق. قال لنفسه: "يعني أن هذا ما ستقوله لي!"

"ماذا أفعل؟ قلته! ولكن هذا ما سيقولونه لك. لأن أحداً لن يسر من وضعك. الجميع يريدون أن يكون الناس سعداء مثلك. لا أحد يتفهم وضعك. لديه كل شيء، ويشكو في آن واحد: هذا شيء لن يستطيع أحد تفهمه، وحكاية لن يهتم لها أحد..."

"هل تريد أن تقول إنك غير مهتم؟"

صرخ محي الدين قائلاً: "كيف تقول هذا؟" ولكنه خشي أن يبدو صادقاً بهذا. "نحن صديقان منذ كم سنة!"

"ولكنك لم تقل شيئاً مفيداً. قبل مجيئي إليك فكرت بأن محي الدين شاعر، يمكنه أن يقول شيئاً ما."

قال محي الدين يائساً: "اعمل أشياء جديدة."

قال رفيق: "أقرأ كتباً. في هذا الأيام أقرأ روسو. أثرت بي اعترافاته..." صمت قليلاً، ثم قال خجلاً: "وأدون دفتر مذكرات!"

حاول محي الدين أن يضحك. فكر: "دفتر مذكرات! كلمات التعاسة، والحياة الخارجة عن سكتها، والانسجام... ماذا يقول؟ لم أفهم مشكلته. تزوج، صار عنده طفلة، مات أبوه. يعتقد أنه تقدم بالسن على ما يبدو. يفكر بأن حياته انقضت من دون جدوى..."

"لعلك تعتقد أنك تقدمت بالسن!"

"لعلني... أريد أن أكون شاعراً مثلك."

"إيه، لا أحد يمنعك!"

"إنك محق!"

انتبه محي الدين إلى أنه انفعل من جديد. ونظر إلى رفيق بحب. ولكنه فهم أنه لن يستطيع فعل هذا بعد الآن بسهولة. صورة رفيق التي في عقله تلوثت، وتبقعت. فكر: "يبحث عن عمق في حياته دون أن يدفع ثمناً!" رغب بداخله أن يعاقبه.

"انظر يا عزيزي رفيق! أنت متضايق بكل معنى الكلمة. يمكنك إيجاد سلوان غير الكتب. اجمع طوابع، سل نفسك بالشطرنج، جد أصدقاء جدد تلعب معهم البوكر، اذهب إلى المباريات، انهمك بالتصوير، من أين لي أن أعرف أنا؟ اعمل بجمع المجموعات، اعمل شيئاً."

قال رفيق غاضباً: "هذا ما ستقوله إذاً، ها؟ علي أن أجمع طوابع. أليس لديك كلمة أخرى؟"

"لا! لنشرب كاسي نبيذ! هيه يا صديقنا، اثنان إضافيان إلى هنا..."

22
دفتر المذكرات I

الاثنين 13 أيلول 1937

ذهبت البارحة إلى بشك طاش. قابلت محي الدين. جلسنا في إحدى الخمارات، وتحادثنا. لم يقل لي شيئاً أبداً. فوق هذا كان يبدو عليه ذلك الموقف الساخر. بعد حديثي معه بدت لي الحياة اليومية كأنها محظورة علي، كأنها أيضاً حرام يرتكب كل ثانية.

ذهبت اليوم إلى المكتب. جلست طوال اليوم هناك. استمعت للمذياع مساء. قرأت اعترافات روسو، ولكنني لم أحبها بقدر ما أملت. ماذا أفعل؟ أحياناً أقول لنفسي لو أنني أستطيع الإيمان بالله. قرأت قصائد محي الدين مرة أخرى. في الحقيقة لم أجد فيها شيئاً كثيراً.

23 أيلول

ذهبت إلى المكتب. عدت إلى البيت متضايقاً. قرأت قليلاً من وسط الاعترافات. انتعشت قليلاً، ولكنني شعرت أن هذا أيضاً شيء غريب. تصفحت الجرائد قبل الصعود إلى الغرفة العلوية للنوم، وأكتب هذا.

انسحب عصمت باشا لأنه متعب. جلال بايار رئيس حكومة.

الخميس 19 أيلول

عيد! مشينا بريهان وأنا حتى التقسيم بعد الظهر. بدأنا نتشاجر في

طريق العودة. قالت إنني أعبس دائماً، وأشتكي دائماً، ولكنها لم تفهم سبب شكواي بوضوح. بكت وسط الشارع. حاولت أن أشرح لها بأنني لا أتهمها، ولكنني لم أنجح. أعرف أنني زوج لا أشبه بقية الأزواج بتلك الغرائب، والمشاجرات.

7 تشرين الثاني

تحدثنا، عثمان وأنا، حول الوضع الأخير للشركة: بيّن إن الشركة حققت ربحاً كبيراً هذه السنة مقارنة مع ربح السنة الماضية، وضرورة إنهاء بناء المستودع الجديد في أقرب فرصة ممكنة، وأن المحاسب صادق قد ارتكب أخطاء في الدفاتر لصالحه، وضد مصلحة الشركة بعد موت أبي، وهذه الأخطاء صغيرة، ولكنها دقيقة جداً. وقال عثمان إن علينا الاعتماد على التصدير أيضاً. أنا تحدثت عن ضرورة سير الأعمال مثل الساعة. لعلني لمحت له بأنني لن آتي إلى الشركة، ولكنه لم يستطع فهم هذا. علق عثمان صور أبي في مدخل المكتب، وفي غرفته.

الأربعاء 23 تشرين الثاني

أنا مثل سمكة خرجت من الماء. فكرت بأنني يجب أن أفعل هذا، فضغطت على نفسي، ذهبت إلى المكتب. وهناك منحت نفسي بكل قواي للعمل، ولنسيان نفسي، ومحاولة نسيان من أنا، وماذا يجب أن أفعل. ولكن ضميري أو قلقي ضغط بقوة... وتجولت داخل البيت كالسكران. أحاول قراءة كتاب، ولكنني لا أستطيع استجماع انتباهي.

23 تشرين الثاني

أنا أشبه مسيحياً على الأغلب بمشاعر الضمير والمسؤولية والذنب. أعتقد أحياناً أنني يجب أن أنسى كل شيء من أجل إيجاد توازني السابق. ذهبت إلى المكتب. عدت متعباً. عندما أعود إلى البيت كل مساء، أفكر بيني وبين نفسي: "هذه هي المرة الأخيرة، غداً لن أذهب!" وفي الصباح، أفكر: "أجلس قليلاً، وأعود بعد ذلك!" ولكن لا يوجد في البيت ما يمكن أن أفعله، وما يربطني، ويجعلني أفكر. فأعطي نفسي للتجارة.

الأحد 4 كانون الأول

رأيت، بريهان وأنا، مساء سعيد نديم بيك عند زاوية المخفر. كان ينـزه كلبه. تضايق عندما رآنا على الأغلب. تحدثنا من هنا وهناك عند المساء. لماذا نحن هكذا؟ ولماذا هم كذلك أيضاً، ونحن هكذا أيضاً؟ لماذا أستمتع بقراءة روسو أو فولتير، ولا أستمتع بقراءة توفيق فكرت، أو نامق كمال؟ لماذا أنا هكذا؟

الاثنين 13 كانون الأول

ذهبت إلى المكتب. ثمة رسالة من عمر. كتب بأنه سيقضي الشتاء في كماه... تأجل زواجه إلى الخريف القادم... إنه يعمل في نفق، ويتعب كثيراً، ويقول "إنه ينسى الدنيا". قررت أن أجلس وأكتب رسالة جوابية لعمر، ولكنني لم أستطع أن أكتب. أنا متشائم في داخلي، يخطر ببالي كتابة أشياء سيئة. تركت الرسالة. قررت الكتابة هنا. جعلت غرفة العمل كما كانت في السابق. كانت أمي قد حولت هذا المكان فترة إلى مسجد بعد وفاة أبي. والآن صار كل شيء في مكانه. مساء أغلق على نفسي الباب هنا، وأقطّع الوقت. أكتب على أوراق بعض الكتابات، وأصمم بعض المشاريع، وأحياناً أخرج كتاباً من المكتبة، وأقرؤه. لماذا أعتقد أنني لا أشعر بالنفس المتنورة التي الاقيها عند قراءة فولتير الأحمر والأسود، أو الاعترافات التي قرأت قليلاً منها اليوم، التي لا الاقيها في نفسي أو في أي إنسان أعرفه، أو لدى أي كاتب تركي. حالي يائسة، وبشعة، وبطيئة بشكل يوتر الأعصاب، ولكن لماذا كل شيء في تركيا هكذا؟ كأن كل شيء، وكل شخص نائم... بدأ المطر.

الجمعة 17 كانون الأول

أبحث عن توازني السابق. قال محي الدين إن توازني السابق يجعلني سعيداً ولكنه يجلعني. أعمل كثيراً في المكتب.

الأحد 19 كانون الأول

إنها الساعة الثالثة بعد منتصف الليل. استيقظت مع بريهان عندما بدأت الطفلة تبكي فجأة. حاولت بريهان أن تنومها. أنا نزلت إلى هنا.

تأرقت. رحت أتجول بمنامتي داخل البيت شاعراً بالبرد. بعد ذلك، لبست ثيابي. ونزلت إلى الأسفل، والقيت فحماً في المدفأة. أشعلت المدفأة الصغيرة التي هنا. حاولت التفكير وأنا أفعل هذا. ولكن ما فعلته لم يكن تفكيراً. تتجلى صور في أماكن الأفكار التي في عقلي. المطر يهطل. منذ يومين وهي تمطر من دون توقف. عندما اريد أن أدون أفكاري، تخطر ببالي أشياء كهذه. أجلس الآن هنا، وأشعر بالبرد. سأذهب إلى المكتب غداً. قرأت ما كتبته على هذا الدفتر. كاد محي الدين أن يضحك عندما أخبرته إنني أكتب مذكراتي. ولكنني قلت له أيضاً إن حياتي تخرج عن سكتها. ماذا أفعل منذ بداية الصيف؟ نذهب، بريهان وأنا، أحياناً إلى السينما. أقرأ الجرائد. وعندما أقرأ الجرائد أفكر على النحو التالي: ترى هل يؤثر ما أقرؤه على حياتي بشكل ما؟ أقرأ الجرائد كل صباح على أمل أن أجد أشياء جديدة تغير حياتي وتؤثر فيها. أقرأ معتقداً أن حرباً عالمية ستنشب، أو أي شيء آخر. لا أريد أن تنشب حرب. ما أنتظره هو حدث يغير حياتي التي لا أستطيع تغييرها. أساساً لا أعرف كيف يجب أن يكون ذلك التغيير. ما أعرفه أن الحياة في هذا البيت، وفي المكتب التجاري حياة مسكينة لا تليق بحياة رجل عنده كرامة، وهي مليئة بالخدر، والسوء، والقذر، وضيق الآفاق. قال لي محي الدين إنني يجب أن أكون سعيداً، وأن لدي كل شيء. وهو محق! يحمر وجهي كلما فكرت بهذا... ولكنني أفكر فيما بعد أن شيئاً ما ينقصني. كنت أسميه "توازناً" أو "مواءمة" أو ما شابه ذلك، ولكنني لا أستطيع قول ما هو. وكلما تذكرت قول محي الدين "الراحة تدخل في مؤخرتك" تتوتر أعصابي... أكتب هذه الأمور هنا، وأشعر بالبرد، وأقضي الوقت حتى الصباح بالتفكير في أي كتاب سأقرأ. لعلني أكتب رسالة لعمر.

الأربعاء 22 كانون الأول

أنام في البيت منذ يومين. أنا مريض بشكل سيئ. حرارتي مرتفعة. لابد أنني أصبت بالبرد يوم الاثنين. جئت من المكتب إلى البيت مساء، ونمت. كانت درجة حرارتي 39,5 وهكذا كانت مساء البارحة. نزلت هذا المساء

إلى 39. عيناي تسيلان، ورأسي يؤلمني، وأسعل، أنا مثل الميت. أخذت بريهان الطفلة، وانتقلت إلى غرفة عائشة لكي لا ينتقل إليها المرض. أجلس هنا في غرفة النوم التي تنتمي إلى فن الحداثة وحدي: لست في وضع يمكنني من قراءة شيء ما. أحاول قراءة الاعترافات لأنسى نفسي، ولكن هذا الكتاب يجعلني لا أفكر إلا بنفسي... أتصفح الجرائد. ثمة شتاء قاس في البلد. أعلن مرشحو نواب الأمة الجدد. سفينتان ضائعتان بسبب العاصفة. قرأت هذه الأخبار كلها عشر مرات على الأقل.

الجمعة 24 كانون الأول

لم أشف من المرض. الحرارة نفسها دائماً. ظهري يؤلمني بسبب النوم في الفراش. ما أفعله طوال اليوم هو قراءة الجرائد، والنوم بائساً مثل أبلوموف. قراءة الأمور نفسها لفولتير وروسو دائماً، والجرائد. النظر إلى الأشجار وإلى السماء التي تبدو من فرجة النافذة من حيث أضطجع. هذا ما أفعله طوال اليوم... أخجل من جسدي المريض والضعيف هذا، ونفسي الخدرة، المترددة، المتفسخة...

الاثنين 27 كانون الأول

نهضت صباحاً. تفقدت حرارتي: 38. رغم أنني كنت أفكر: "سأذهب إلى المكتب صباح الاثنين!" وأنني لن أستطيع احتمال الاضطجاع في السرير، نهضت. وارتديت ثياباً ثقيلة، وخرجت في مشوار. مشيت إلى المحجرة. كانت تهب ريح باردة. تفرجت على صباح الاثنين في نيشان طاش. بقالون، وخضريون، وسيدات خارجات للتسوق، وخدم، وأولاد، وأشجار، وسيارات مارة واحدة واحدة... مشيت حتى موقف ماتشكا للتراموايات. ركبت الترامواي في طريق العودة. رأيت عند زاوية بيتنا شقيقة سعيد نديم بيك غولار. كانت تنزه كلبها. عندما رأيتها صار وجهي غريباً قليلاً، أعرف هذا. سيطر علي شعور يشبه القلق، والضيق، والتوتر. سيئ جداً أن أضع أموراً كهذه بالحسبان، ولكنني كنت متضايقاً لأن على وجهي لحية أسبوع. سألتني: "هل تطلقون لحية؟" يا إلهي، ما هذا الهراء؟ لماذا تؤثر علي أمور من هذا النوع؟ ماذا أفعل أنا؟ أي شخصية لي؟ أين توازني السابق؟

الأربعاء 29

ارتفعت حرارتي مساء الاثنين، ووصلت حتى الأربعين. عدت طريح الفراش. جاء الطبيب إسحاق. قال إنني أصبت بأنفلونزا سيئة. النوم هنا مكبل اليدين والرجلين كارثة!

الجمعة 31

انخفضت حرارتي. ليلة رأس السنة. إنهم يلعبون السحب في الأسفل. أما أنا فلا أنام، ولا أستطيع عمل شيء. أشعر أنني خاو، شديد الخواء، وليس لي ماض أو مستقبل، مجرد شيء من دون شخصية، مزهرية أو لا أدري، لعلي مقبض باب. نعم، أنا مقبض باب.

الأحد 2 كانون الثاني 1938

لم تنخفض حرارتي. إنني أضطجع، وأريد الا أفكر بأي شيء.

17 كانون الثاني

منذ ثلاثة أيام وأنا على قدمي، ولكنني لا أذهب إلى المكتب. قابلت الطبيب إسحاق. قال إن من المفيد أن أرتاح في البيت مدة أسبوع أو عشرة أيام... أدخن سجائر. أمضي يومي كله بقراءة الكتب في غرفة المكتب. لدي لحية بطول شبر.

21 كانون الثاني

أقرأ كثيراً جداً. قرأت بعض كتب الاقتصاد والفلسفة. كنت ألف، وأدور، وأعود لقراءة فولتير وروسو، ولكن ليس بالانفعال السابق. كتبت هذا الصباح رسالة لعمر. في الرسالة الجوابية لرسالتي السابقة قال لي: "تعال مع بريهان إلى هنا في الربيع، وإذا لم تأت هي، فتعال أنت." فكرت بهذا جدياً ذات لحظة. سيفيدني تغيير جو كهذا. أعرف ذلك. عثمان أيضاً يقول شيئاً كهذا، ولكنه يريدني أن أعود إلى المكتب في أقرب فرصة ممكنة. لعل هذا المرض الذي أصبت به مرض آخر غير الأنفلونزا. مازلت رئتاي مليئتين... والشخير الذي أصدره عند السعال لا يبدي حالاً مطمئنة. عندما تسمعني بريهان تقطب وجهها. وكنت سأكتب هذا. قبضت على نفسي متلبسة بالتفكير بفولار عدة مرات خلال الأيام الأخيرة، ودهشت.

أتوق لمعرفة ما تفعله، حياتها اليومية، و بعد ذلك حياتها كلها. لم يكن هذا توقاً يتجاوز معرفة إنسان كيف يكون، وكيف يفكر. رغم معرفتي أنه كان على هذا النحو بالتأكيد، شعرت بضرورة الكتابة عنه هنا. هطل ثلج بشكل سيئ...

27 كانون الثاني

جاء آخر الشهر، ولم أذهب حتى الآن إلى المكتب. رئتاي جيدتان، وسليمتان، وأنا مرح على ما يرام، أقضي اليوم كله خلف الطاولة أقرأ. وأحياناً أخرج مع بريهان في مشوار، نذهب إلى السينما. أستمر بحياتي السابقة، ولكن بنقص كبير: لا أذهب إلى المكتب. سألني عثمان وأمي عن سبب عدم ذهابي عدة مرات. تمتمت بأمور تتعلق بصحتي، وتعبي. قررت الذهاب إلى المكتب في الأسبوع الأول من شباط. رجوت عثمان أن يبحث لي عن بعض الكتب في سوق الصحافين، ويرسل بطلب شرائها. والآن أنا أقرؤها بانفعال. اقتصاد الدولة، الثورة والتنظيم، الدولة والفرد، سياسة الضرائب. طلبت شراء مجموعة مجلة التنظيم. أنا مرح. أكاد أقول إنني استعدت صحتي السابقة، وتوازني. ولم أعد أجد الرغبة الجامحة للكتابة على هذا الدفتر...

5 شباط

قرأت ما كتبته هذا. إنها لا تعكس حياتي اليومية بشكل صحيح. تمضي معظم حياتي اليومية بالثرثرة مع بريهان، وولدي أخي، وعائشة، وأمي، وبأعمال بسيطة صغيرة. لم تنعكس هنا أبداً. ثم إن أفكاري، ومضايقاتي، وهمومي أيضاً على هذا النحو... أفكر بملايين الأشياء المعقدة أكثر بكثير، ولعلها صغيرة، ولكنها مضايقة. لم أذهب إلى المكتب بعد. أترك هذا الأمر إلى ما بعد العطلة. بعد عيد الأضحى... وحينئذ سأحلق هذه اللحية الطويلة... تخليت عن الكتابة على هذا الدفتر أيضاً لأنها لا تعكس الحقيقة. يسيطر علي أساساً شعور يشبه الازدواجية دائماً وأنا أكتب. ربطت الخراف المشتراة من أجل العيد في الحديقة الخلفية، وهي تثغو أحياناً، وأسمعها. تشاجر عثمان اليوم مع نرمين... ثمة جو من الحزن في البيت. يجب علي الا أكتب بعد الآن... لأنه ليس ثمة جديد...

23
عيد آخر

الطباخ نوري أيضاً يحمل الصحن الذي بين يديه بحذر. لم تنظر إليه نيفان خانم، ولكنها بدت كأنها تراه: يدوس نوري على رؤوس أصابعه من جديد. ثمة حركة، ونفاذ صبر، وتململ على المائدة. مد نوري جسده، ووضع الصحن على الطاولة. إنه صحن التوزيع الرئيس المذهب الذي فكرت نيفان خانم بإخراجه من البوفيه قبل سنتين. فيه أبراج أرز من جديد، ولم تكن البازلاء تنقص نوافذ الأبراج أيضاً. لم يكن أحد غائباً، أو ينقص شيء غير جودت بيك. كانت صورة جودت بيك معلقة في غرفة السفرة. كانت قد علقت في غرفة الجلوس، وغرفة المفروشات الصدفيه، وغرفة المكتب. وقال عثمان إنه علقها على جدران المكتب أيضاً. قربت نيفان خانم وجهها من حرارة المائدة: كانت تلك حرارة الصحن الموضوع على المائدة، وحرارة العيد، والحركة، والصحة، والسعادة ونظام العائلة الذي ينبغي المحافظة عليه بانتباه. كانت نيفان خانم ترغب أن يشعر الجميع معها بهذا، وأن يؤمنوا بأن كل شيء على ما يرام، وتبحث عن ذلك الزمن الذي لا نقص فيه حيث ترف بجفنيها، وتتنبه للقيام بهذا، ولكن لحية رفيق البشعة تلك كانت مقابلها.

قال عثمان: "من سيوزع الطعام؟" ثم مد الملاعق نحو زوجته مجيباً عن السؤال بنفسه. "هيا، أنت اعملي هذا!"

بدأت نرمين توزع الطعام. الجو بارد في الخارج، ولكنه مشمس وجاف. إنه الأسبوع الأول من شباط. كانت نيفان خانم تراقب نرمين من حيث تجلس. ثمة تعبير كبرياء وحزم على وجه الكنة الكبيرة. تبدو أيضاً متضايقة وشاكية قليلاً. تشاجرت نرمين وعثمان أول أمس. كانت لاله تجلس بجانب نرمين، وكانت في العاشرة من عمرها، وإلى جانبها جميل، وهو في الثمانية من عمره. لم يكن أحد بجانبه عند الزاوية. وإلى جانب الفراغ الذي كان يملؤه جودت بيك تجلس عائشة. نظرت نيفان خانم بطرف عينها إلى الأرز الذي وضعته عائشة في صحنها. وجدت أنه قليل، ولكنها لم تنبس. على الطرف الآخر من نيفان خانم جلست بريهان. وكان عثمان يجلس مقابل بريهان. ورفيق بينهما. وبدت لحية رفيق لنيفان خانم بشعة جداً.

علقت لحية رفيق بعقل نيفان خانم فكانت تقول لنفسها: "لا، لا يمكنني أن أرى إنساناً، وخاصة ابني بشعاً لمجرد أن له لحية. في بيت والدي الباشا كان لكل رجل لحية. كان كل من يبلغ الأربعين من عمره في بيت والدي يطلق لحية. ولكن ذلك الزمن هو زمن آخر، وأولئك الناس أناس مختلفون. والزمن الحالي زمن مختلف!" إنها تفكر بهذا دائماً في الفترة الأخيرة، في أثناء تجوالها في البيت، و خلال شرب شاي فترة العصر، وعند خروجها إلى بيه أوغلو، وذهابها ضيفة إلى أحد تتمتم غاضبة حين تخطر ببالها اللحية. وهي الآن على وشك أن تغضب متذكرة كل هذا. لقد وضعت في عقلها أن مائدة العيد هي مكان السعادة الدافئة والحلوة، وليس مكان الغضب البارد منتبهة إلى الصمت المخيم على المائدة: لم يكن أحد يقول شيء. كل شخص دفن نفسه في طعامه، وعالمه. تقع مسؤولية هذا الأمر الآن على عثمان، ولكنه يفكر بأمور أخرى مختلفة عن مسؤوليات كهذه. تمتمت نيفان خانم لنفسها: "أتوق لمعرفة ما يفكر به. ليس ثرثاراً كوالده، وليس أباً حنوناً أبداً، ولن يكون. أتوق لمعرفة ما يفكر فيه، وأخاف!" لأن عثمان لم يذهب صباحاً إلى صلاة العيد أيضاً. لم تكن نيفان خانم متدينة، ولكن ذهاب أحد أفراد العائلة إلى صلاة العيد أمر جيد. لماذا لا يذهب الآن

وقد ذهب في عيد الفطر؟ فوق هذا فقد تشاجر مع زوجته أول البارحة. بعد أن ألهت نيغان هانم نفسها بهذه الأفكار المقلقة، خطر ببالها أن ابنها الصغير مصدر قلق أكبر، فبدت على وشك التعاسة. لا، لا يمكن أن تكون اللحية ما يغضبها. هنالك أمر آخر وراء اللحية يغضبها، ولكن ليس حسناً التفكير به الآن. أرادت أن تكسر الصمت. بعد أن ابتلعت لقمتها، سألت: "كيف وجدتم اللحم؟"

وسمع الصمت مرة أخرى. ثم صدر صوت كأنه همس: "مدهن كثيراً."

كانت تلك عائشة. وقد وجدت ما يزعج أمها كما تفعل دائماً. خطر ببال نيغان خانم أن تؤنبها، ولكنها هي التي طرحت السؤال. من جهة أخرى كان لابد من إعطاء فرصة لهذه البنت التي لم يعد حتى السكين يفتح فمها بعد وفاة أبيها. لم تقل نيغان خانم شيئاً لابنتها. ولم يقل أحد شيئاً آخر أيضاً. لم يُسمع غير قرقعة الشوكات والسكاكين والصحون على المائدة.

فكرت نيغان خانم: "لماذا صرنا هكذا؟ ذهب جودت بيك، فصرنا هكذا!" لم تجد هذه الإجابة مشبعة. "لماذا صرنا صامتين هكذا؟ لماذا ينزوي كل شخص في عالمه الخاص هكذا؟" كانت تفكر شاعرة بوجود تلك البقعة السوداء الموترة على ذقن رفيق وهي تتحرك ببطء دون أن تنظر إلى وجه رفيق، ورغم عدم نظرها إليه. "لماذا لا يذهب هذا الولد إلى العمل منذ أربعين يوماً، ويقطب وجهه، ولا يعيش؟ تدهورت صحته، ولكنه تحسن... ترى هل هو الآن في صحة جيدة؟ ماذا لو لم يحلق ذقنه، ويذهب إلى المكتب بعد العيد أيضاً؟"

سألت ضاغطة على نفسها: "عزيزي رفيق، أنت على ما يرام أليس كذلك؟" فكرت بعد ذلك أن هذا سؤال لا يمكن طرحه على مائدة العيد.

قال رفيق محتداً: "جيد، جيد يا روحي!" وقد حرك لحيته إلى الأعلى والأسفل.

فكرت نيغان خانم: "سيذهب إلى العمل!" ورأت السبانخ بزيت الزيتون يُحمل إلى المائدة ببطء، ويوضع مكان الطبق المذهب المرفوع. غير الجميع

صحونهم. استمعوا إلى صوت ترامواي تتعطف في الساحة ببطء. تمتمت نيفان خانم مرة أخرى: "ها نحن نصمت دائماً!" فكرت بأنها يمكن أن تكون قد أعطت الصمت أهمية أكثر من اللازم، وانزوت إلى أفكارها الخاصة. استذكرت أنها ستذهب بعد الظهر لزيارة قبر جودت بيك، وستلتقي أخواتها غداً. تلتقي الأخوات الثلاثة في دار المرحوم أبيهن كل عيد. وتشارك عائلتا شكران وتركان في تلك الزيارات، ولكن نيفان خانم لم تكن تصطحب جودت بيك. قال جودت بيك عدة مرات إنه لا يحب دار الباشا تلك، ولا دار الباشا تحبه و في أحد الأعياد، وبعد العنبرية التي أفرط بشربها، وقبل أن يتقيأ، قال: "أنا تاجر بسيط، لن أذهب إلى هناك!" وقد اشمأزت نيفان خانم من زوجها التاجر الثمل الذي تقيأ على مائدة الغداء، وألقى الذنب على اللحم الطازج الذي تناوله، وذهبت راكضة إلى بيت أبيها، وعائلتها، وبكت. تضايقت عندما وجدت نفسها تفكر بهذه الأمور، وأرادت أن تكون في حياتها أشياء مسلية ومثيرة للانفعال. أرادت ألا تحدث أمور كهذه، وأن تغدو هذه الأمور تحضيراً للمرح والانفعال والسعادة. لعل التوقع بحد ذاته في حياة تسير كالساعة جميل، ولكن الإنسان لا يمكن أن يتظاهر بالانتظار دون حدوث أي شيء. والآن هاهي تنتظر. والآن تصمت، وتنتظر بدء أحدهم بالحديث، وقول كلام جميل ممتع، كما تنتظر قطائف عجينة البرتقال التي سيجلبها نوري بعد قليل. فكرت على هذا النحو قليلاً، وانتظرت وهي تفكر أنها فعلت جيداً بارتدائها الثوب الذي ارتدته اليوم، وأن أحد الفناجين المزهرة بالأزرق قد انكسر هذا العام أيضاً، وسمعت بعد ذلك وقع أقدام الطباخ نوري. التفتت لرؤية الحلوى، ولكن نوري جلب مظروفين، وقدمهما إليها.

فتحت أحد المظروفين على عجل: كان هذا بطاقة مؤسسة الجو التركية للمعايدة القادمة من المحاسب صادق. قدمته لعثمان دون أن تقرأه. فتحت المظروف الآخر وهي تفكر بأنه قادم من ابن الأخ العسكري، وقرأته: "زوجة العم الحبيبة، لم ترسلوا حتى الآن النقود التي علمت أن

المرحوم عمي قد تركها لي. لم تخبروني شيئاً عن النقود، ولا عن الأملاك. حقي هذا محفوظ دائماً. ليكن عيدكم مبارك. أقبل يدك، وعيون الجميع." غضبت فجأة. فكرت: "هذا الولد مجنون!" في عيد الفطر الماضي أيضاً أرسل بطاقة كهذه، وقد دهشوا حينئذ. كانت وصية جودت بيك واضحة: ليس ثمة شيء لابن أخيه. ولا يمكن أن يكون أساساً. رغم هذا فقد كتب عثمان رسالة مهذبة لضياء، وسأله عن أصل هذا الحق، وطبعاً لم يبين هو أي شيء. "هذا الولد مجنون!" وقرأتها مرة أخرى. في الرسالة السابقة كان يتحدث عن النقود فقط. وفي هذه الآن أخرج الملك إلى العلن. واضح أنه يلفق، ولكن من أين يستمد هذه الجرأة للفظاظة؟ قدمت نيغان خانم الظرف لعثمان. بعد ذلك، دققت بوجه ابنها وهو يقرأ الرسالة. وعندما رأت أن عثمان أيضاً قد غضب، فكرت: "فقدت شهيتي!" مع أن القطائف بالبرتقال جاءت إلى المائدة، وكانت تنتظر.

قرأ عثمان الرسالتين. لم يقدمهما بعد ذلك إلى رفيق كما هو متوقع. ومزق الظرفين الذي أمسكهما بين يديه بسرعة. وأثناء إعطاء الفضلات لنوري الذي يقترب منه، قال: "طاش! طاش هذا الشخص بكل معنى الكلمة!"

سأل رفيق: "من؟ هل هو ضياء؟"

قال عثمان: "لو أننا سنعطي شيئاً ما لكل عسكري مقمل ملوث بالدم لما أسسنا هذه الشركة، وهذه العائلة، وهذا النظام بسهولة!"

سرت نيغان خانم من غضب ابنها، وكلماته. إنها العبارة الجميلة التي أرادتها، والسعادة التي رغبت بها جاءت فجأة بشكل غير متوقع. وفكرت: "مهما كانت عادات ابني الكبير هذا وطباعه، فهو مرتبط بهذه العائلة وبالحياة بقدر أبيه!" ثم فكرت بضياء، والأيام الأولى التي جاءت فيها إلى هذا البيت. كان هذا في السنة الثالثة لزواجهما. أسقط عبد الحميد. وظهر أن لجودت بيك علاقة جيدة مع معارضي عبد الحميد. وذات يوم جاء إلى البيت عسكري سياسي. وخلال تناول الطعام اندس ضياء في الزاوية، ونظر إلى العسكري باستمرار، ثم قرر أن يكون عسكرياً. حينئذ فرحت نيغان

لأن هذا الولد الذي ينظر إليها دائماً بخوف، والخجول، المتوجس، الشبيه بالخدم والأجراء دون تعلم أن يتعلم كيف يكون سيداً في البيت، والمنعزل عن السادة، ويدور في محيطهم دائماً دون كبرياء، والناظر من الأسفل إلى الأعلى سيغادر البيت. وفرح جودت بيك أيضاً على الأغلب. ولكن نيغان خانم لا تريد أن تفكر بهذا الآن. لأنها لا تسر من ذلك الولد، وذلك الولد الذي صار عسكرياً كبيراً، و منالتفكير في هذه الأمور. وغير هذا فإن القطائف بالبرتقال مازالت على الطاولة لم تمس بعد.

قال عثمان من جديد: "لو أننا سنعطي شيئاً ما لكل عسكري مقمل ملطخ بالدم!" ولكنه هذه المرة خفض صوته وكأن أحداً في مكان قريب سيسمعه. صمت بعد ذلك فترة. وأدرك على الأغلب بأن الجميع يستمعون إليه بانتباه، وقوبل حزمه وغضبه باحترام، فأضاف: "يعتقدون أن النقود تكسب بسهولة... لا يعرفون ما يُفعل لكسب النقود، والجلوس إلى هذه المائدة، والمحافظة على هذا البيت منتصباً..."

فكرت نيغان خانم: "إنه حازم أكثر من أبيه! إنه حازم إلى حد انفعاله كأنه هو الذي فعل كل شيء... ولكن ليغلق هذا الموضوع المزعج."

قال عثمان مرة أخرى: "لا أحد يعرف كيف تكسب النقود!" ثم التفت فجأة إلى رفيق، وقال: "إنك قادم إلى المكتب بعد العيد، أليس كذلك؟"

دهش رفيق، وقال ناخراً: "نعم، أنا قادم، أنا قادم!"

فرحت نيغان خانم لأن هذا الموضوع قد انتهى نهاية حلوة. ثمة أمر آخر، وهذا هو وقته بالضبط. فكرت، وقالت دون أن تضيع الوقت: "احلق لحيتك هذه قبل الذهاب إلى قبر أبيك بعد الظهر!" قالت هذا بنبرتها الأحلى والأكثر أمومة. "أليس ممكناً أن تحلق لحيتك هذه يا عزيزي رفيق؟.."

قال رفيق ببرودة الجليد: "سأحلقها!"

وفكرت نيغان خانم: "تمام! كل شيء تمام. والحلوى تنتظرنا أيضاً!"

"لماذا لا نبدأ بتناول الحلوى؟"

بدؤوا بتناول الحلوى، ولكن نيفان خانم شعرت بنقص ما. لم يكن المقصود جودت بيك، فهي تعرف هذا، ولكنها لا تعرف ما هو. وكما قالت المرحومة أمها: "يا ابنتي نيفان، أشتهي تناول شيء ما، ولكنني لا أعرف ما هو!" لا تعرف نيفان خانم ما الناقص، وتريد الاستمتاع بطعم الحلوى، ولكن أموراً مضايقة خطرت ببالها. وقفت بعد ذلك، وخطر لها أنها تفكر دائماً بالأمور ذاتها. نظرت إلى المتحلقين حول المائدة واحداً واحداً: إنه طعام عيد بحسناته ومساوئه. وقد صلوا إلى نهايته. سيزورون جودت بيك بعد الظهر، وسيحتسون القهوة بعد قليل. فكرت: "ولكن هذا الصمت! كل شخص مع نفسه... هذا صمت سيئ!"

فجأة سمعت صيحة ضعيفة. ودخلت أمينة خانم راكضة. قالت إن الطفلة تبكي في الأعلى، وإنها لا تصمت بأي شكل. اعتذرت بريهان، ونهضت عن المائدة. ولكنها قطبت وجهها. لعلها تعتقد بأن لها الحق بالعبوس لأن لديها طفلة، وخربت لذتها بتناول طعام العيد هذا.

تمتمت نيفان خانم: "أنا لدي ثلاثة أولاد، ولكنني لم أدع يوماً أن لدي حقوقاً كهذه!"

انتهت الحلوى بعد ذلك. انفض الجميع عن المائدة فرادى دون اهتمام أحد بالآخر. لم يكن الصمت يهم أحداً.

التفتت نيفان خانم إلى عائشة التي نهضت عن المائدة، وقالت: "هيا، اعزفي لنا شيئاً لنرى! كل شيء صامت إلى حد..." رأت أن عائشة قد عبست. "هيا، اعزفي لنا شيئاً... أليس لي حق بطلب هذا أيضاً؟ اعزفي تلك المقطوعة الشبيهة بالنغمات التركية التي كان المرحوم والدك يحبها على الأقل، هيا!"

24
عاصفة

قال رفيق للخادمة التي فتحت الباب: "كنت سأترك شيئاً لسعيد بيك!"

قالت الخادمة: "سعيد بيك غير موجود في البيت! خرج مع عطية خانم. السيدة الصغيرة في البيت."

قال رفيق: "سأترك ظرفاً فقط." وأخرج المظروف الذي أعطاه له عثمان من جيب سترته.

قالت الخادمة: "انتظروا، لأناد السيدة الصغيرة!" وأرادت أن تأخذ معطف رفيق.

لم يخلع رفيق معطفه، ونخر ببعض الأشياء، ولكنه لم يترك الظرف، ويذهب. كانت الخادمة قد صعدت. وفكر: "لماذا لم أترك الظرف وأذهب؟" كان ينتصب أمام الباب. نظر إلى ساعته: تجاوزت السادسة بقليل. خرج من المكتب باكراً، ولكنه ألهى نفسه في بيه أوغلو.

عادت الخادمة، وقالت: "ستأتي غولار خانم حالاً. تفضلوا أنتم!"

قال رفيق: "لا، لا أريد أن تعذب نفسها! الجلوس... لو أنكم لم تنادوها!" وخلع معطفه، ودخل.

كانت هذه الغرفة هي التي فقد سعيد نديم بيك فيها سيطرته على نفسه وهو يحمل كأس العنبرية. استعرض رفيق الأشياء. رأى مرآة مؤطرة

بإطار مذهب، ونظر إلى نفسه متردداً. وجد وجهه أبيض، وصحيحاً، ولكنه أعجب بشاربه. قبل ثلاثة أيام، وإثر طعام العيد، وقبل الذهاب إلى المقبرة حلق لحيته، ولكنه ترك شاربه. الشارب الذي يبدو دائماً أشعث وخاوياً من المعنى منحه معنى "المستجمع نفسه". كانت تلك كلمة بريهان. فكر رفيق ببريهان أثناء نظره في المرآة. ثم تذكر غولار قلقاً. سمع وقع أقدام على الدرج. تمتم: "أنا مندهش!"

دخلت غولار إلى الغرفة. تمتم رفيق من جديد: "أنا مندهش!" تبادلا التحية، وعدة جمل. أخرج رفيق المظروف من جيبه، وبدأ يشرح: هذا نموذج لرسالة عمل طلبها سعيد بيك من عثمان. لم يستطيعوا إرسالها صباحاً، لأنها لم تكن جاهزة. الرسالة مكتوبة إلى سيمنس في ألمانيا، ولكن يمكن كتابة مثلها لشركات أخرى. أعطى هذه المعلومات بانتباه، وفكر بأنه سيخرج بعد قليل من البيت. بدأت غولار أيضاً تحكي بعض الأمور عن أخيها الكبير. كان رفيق يصغي لما تقوله المرأة، ويخطر بباله إعطاء المظروف الذي بيده، والخروج ذاهباً. عندما بدت غولار أنها صمتت قليلاً، قدم إليها المظروف، وكرر الجمل التي قالها حول نسخة رسالة العمل قبل قليل.

قالت غولار: "لماذا؟ هل تذهبون فوراً؟" ثم هرعت، ونادت الخادمة طالبة منها أن تجلب الشاي. ورجت رفيقاً أن يجلس قليلاً. وجلست قبل أن تنتظر جواب رفيق، وسألته عن حال ابنته.

تمتم رفيق بكلمات فيما هو ذاهب خلف غولار كالحمل. جلس على الأريكة المقابلة للديوانة التي جلست عليها المرأة. ولعدم وجود ما يقوله، بدأ يحكي عن ابنته بانفعال مصطنع. ذكاء ابنته مصدر تباه لرفيق وزوجته. هنالك إشارات كثيرة جداً تدلل على ذكائها منذ الآن. ثم شعر بالذنب بشكل غائم. وضايقه حديثه عن بريهان وعن ابنته لهذه المرأة. بحث في سبب ضيقه من هذا. ثم فكر: "لأن هذه امرأة مطلقة!" وكرر المعلومات التي قالها حول نموذج الرسالة خائفاً من الولوج في التفكير أكثر. جلبت الخادمة الشاي. وبدأ صمت، ولكن لفترة قصيرة. دخل الكلب إلى الداخل.

عندما رأى الحيوان رفيقاً، توقف بداية بشك، ثم اقترب حذراً، وشمشم وأدرك أنه ليس غريباً، فتمدد بجانب المنقل.

قالت غولار: "عرفكم."

قال رفيق: "نعم، عرفني." كان يشرب شايه بسرعة. فكر: "لم يبق ما يمكن أن يقال." وخشي أن يسيطر عليه الشعور بالذنب، فينظر إلى وجه غولار، ولا يُسر من حالها أبداً. كانت الغرفة الغريبة التي يتوسطها منقل تثير في نفسه شعوراً بالانسحاق والهزيمة لم يعتد عليه أبداً.

قالت غولار: "أطلقتم شارباً! وحلقتم لحيتكم."

بحث رفيق عما يقوله، ولكنه لم يستطع أن يفعل شيئاً غير هز رأسه. خجل من إعطاء المرأة رأياً حول إطلاقه اللحية أو الشارب. أنهى شايه بعد ذلك، وفكر بأن من الصواب، ومقتضيات اللباقة أن يقول أشياء ما قبل ذهابه: "حسنٌ... حسنٌ! ماذا تفعلون أنتم غير هذا؟"

قالت غولار: "لاشيء!" وفكرت قليلاً كأنها لم تفهم السؤال. "أجلس في البيت. غيرت اليوم مواضع الأشياء في غرفتي... نعم... غير هذا؟ نفكر بتنظيم حفل سمر."

قال رفيق: "حقاً؟ أمر غريب!"

قالت غولار: "ماذا تفعلون أنتم؟ لم أركم على ما يرام عندما رأيتكم قبل فترة عند زاوية نيشان طاش!"

قال رفيق: "نعم، كنت مريضاً!.. بقيت في البيت طريح الفراش فترة طويلة. هذا هو اليوم الأول الذي أذهب فيه إلى المكتب منذ فترة طويلة." ثم خطر بباله أن يقول هذا: "لست على ما يرام، لست على ما يرام! خرجت حياتي عن سكتها، ولا أعرف ما أفعله." ولكنه نهض واقفاً فور تفكيره بهذا. ارتبك عندما انتبه إلى أنه نهض واقفاً. لم ينه شايه بعد، وفور وقوفه قفز من مكانه. اندهش الكلب أيضاً، كان ينظر إليه. وكرر مرة أخرى ما قاله حول الظرف الذي جلبه لمجرد أن يقول شيئاً. بدأ بعد ذلك بالمسير نحو الباب. في أثناء سيره نحو الباب أدرك أن توازنه الحبيب الذي كان

يماخر فيه سراً منذ سنوات طويلة لن يجده بسهولة. فكر: "يجب عدم القيام بشيء خاطئ! لأخرج من هنا، ولأنقذ نفسي من هذه المرأة المطلقة!"

كانا أمام الباب. قال رفيق: "أستودعك الله! سلمي لي على سعيد بيك، وعطية خانم."

بدا لرفيق أنه رأى شيئاً من السخرية في وجه المرأة. وفكر: "إنها مطلقة عسكري جمهوري صغيرا وأنا زوج أم ابنتي الصغيرة!"

لحظة خروجه، قالت له غولار: "إذا دعوناكم إلى حفلة السمر فهل تأتي مع بريهان؟"

قال رفيق: "نأتي. لِمَ لا؟" ولم يكن ينظر إلى غولار، بل إلى الكلب القادم حتى الباب.

قالت غولار: "نلهو، ونتحدث!"

فكر رفيق: "نتحدث! نتحدث، نتحدث! أحتاج إلى الحديث مع امرأة مطلقة: خرجت حياتي عن سكتها." بعد ذلك، قال وهو ينظر إلى الكلب من جديد: "سيكون جيداً! كنت راغباً بالحديث مع امرأة مثلكم أساساً!" وظل ينظر إلى الكلب. وفكر: "ماذا قلت!" ونزل الدرج من دون أن ينظر إلى وجه غولار: خرجت حياتي عن سكتها! ماذا قلت تواً!"

كان ثمة برد وريح خفيف في الخارج يهب من طرف مرمرة. كان رفيق يعرف جيداً برد الشتاء الخفيف هذا الذي يسبق الريح الجنوبية غربية. كانت تفوح من نيشان طاش رائحة الطحالب والبحر. تغلغلت الرائحة في أشجار الزيزفون، والدكاكين، والأبنية القذرة والجديدة، والبيوت القديمة، والرجال بربطات العنق، وكل شيء. خرج إلى الشارع من أمام المخفر. كان الناس عائدين إلى بيوتهم. المستوردون، والمتعهدون، وباشاوات عبد الحميد الذين ينتظرون الموت، وأجراء البقالين، والبستانيون، والخادمات المياومات، والمصرفيون، والموظفون، وركاب الترامواي. كأن أحداً لا يفكر بأن الجو عابق برائحة الطحالب، ويعيش وسط حياته اليومية دون أن يشم شيئاً. وقف رفيق في زاوية نيشان طاش مفكراً: "أنا

ذاهب إلى البيت، سأتناول العشاء. سأقرأ الكتب بعد ذلك. لم تخرج حياتي عن سكتها؟" كانت أضواء البيت في الطرف المقابل؛ وتلك الرائحة في الجو؛ ورائحة المطبخ، والعائلة، وبشرة بريهان، وعرق ابنته الصغيرة، و الطعام في البيت. وكانت تلك المرأة المطلقة في عقله. كان خائفاً من نفسه. "أشعر أنني شخص دون ماض أو مستقبل، شيء دون شخصية، مزهرية أو مقبض باب!" حلق لحيته، لأن اللحية ليس شيئاً يطلقه الشباب أمثاله. ولكن يمكن إيجاد حل صغير، أو مصالحة دائماً: لم يحلق شاربه. عبر إلى الطرف الآخر. جعل الأجراس المربوطة بالباب تقرع. دخل إلى البيت: ثمة دفء وحياة في الداخل. صعد إلى الأعلى. كانت بريهان بجوار الطفلة، ترتدي ثوباً كحلياً، وقد دهنت وجهها بمساحيق التجميل.

قالت بريهان: "دهنت نفسي بمساحيق التجميل على شرف ذهابك إلى العمل. وارتديت هذا الثوب!"

قال رفيق: "صار جيداً!" و وجد نفسه بعد ذلك صحيح الجسم.

نزلا معاً إلى الأسفل لتناول طعام العشاء. ثرثر عثمان على العشاء. كان فرحاً لأن شقيقه الأصغر ذهب إلى المكتب بعد أشهر من انقطاعه. وكانت نيفان خانم أيضاً فرحة. نرمين أيضاً كانت تتحدث، وبدا أن الخصام السري الذي كان بينها وبين زوجها قد انتهى على الأغلب. فعندما يكونان متشاجرين لا يكلم أحدهما الآخر، ولكنهما يتكلمان بما هو ضروري أمام أفراد العائلة والآخرين. حكت نيفان خانم عن إحدى ذكرياتها مع جودت بيك. تدلل الولدان قليلاً، ولكنه نظر إليهما بتسامح.

بعد الطعام ساعد رفيق جميلاً الصغير بوظيفة الحساب. ثم صعد إلى غرفة المكتب. أراد أن يكتب في دفتر ذكرياته، ولكن شيئاً لم يخرج من قلبه. جلس فترة، وقرأ في كتاب، ولكنه لم يُركز على ما يقرؤه. ذرع الغرفة وهو يدخن السجائر. بعد ذلك نزل من جديد إلى غرفة الجلوس، فتح الجرائد، وبدأ يقرأها. كان يستمع للصوت القادم من المذياع أحياناً، وينظر إلى الجرائد، ويعطي أذنه لنيفان خانم وبريهان اللتين تتحدثان من هنا وهناك. ومن كلماتهما، والأصوات القادمة من

الخارج فهم أن الريح الجنوبية غربية قد هبت. أراد قراءة الجريدة بانتباه أكبر. وفيما هو ينظر إلى الجريدة، فكر: "بريهان تنظر إليّ!" لم يكن يدرك كيف فهم هذا، ولكنه كان يعرف أن بريهان في أثناء حديثها مع نيفان خانم، أو كلامها مع الآخرين تنظر إليه بطرف عينها، وترمق ظل زوجها الجالس على الأريكة متفقدة ما إن كان موجوداً أم لا. شعر بأن بريهان فرحة لأنه بعد أن بدا عليه المرح في الأيام الأخيرة، وحلق لحيته، وذهب إلى المكتب. ولكنه كان يدرك أن هذه النظرة المتجولة عليه تحمل قلقاً أكثر مما تحمل فرحاً. فجأة طوى الجريدة، وألقى القبض على بريهان متلبسة بالنظر إليه كما شعر. حاولت بريهان أن تبتسم. وفتح رفيق الجريدة من جديد، ولكنه لم يستطع تركيز انتباهه أبداً هذه المرة. كانت أمه ونرمين تتحدثان.

كانت نيفان خانم تقول: "الريح تشتد!"

وتقول نرمين أيضاً: "يا، يا، الريح الجنوبية غربية تهب."

استمع إليهما وهو يقرأ مادة في الجريدة عن ألمانيا والنمسا عدة مرات. وطرح في المادة سؤال: "هل ستطأطئ ألمانيا رأسها للنمسا؟" اشتدت سرعة الريح في الخارج. وفكر رفيق: "سأجن على الأغلب!" أخذ الجرائد، وخرج من الغرفة. وفكر في أثناء صعوده الدرج: "لم يعد يحدث، لم يعد يحدث شيء مثلما كان في السابق. ماذا عليّ أن أفعل؟ لا أستطيع فعل شيء. هذا مقرف!" ثم دخل إلى غرفة النوم. كان المصباح الصغير للكوميدينة مناراً. والبنت الصغيرة نائمة على سريرها. عندما تيقن الجميع بأن رفيقاً شفي من مرضه، أعيد نقلها مع هذا السرير من غرفة عائشة إلى هنا. وقف رفيق حاملاً الجرائد عند طرف السرير، ونظر إلى ابنته: تحركت الفتاة وهي نائمة، وبدت كأنها تتمتم، وقطبت وجهها، وبعد ذلك ارتخت، وعادت إلى نومها العميق. جلس رفيق عند حافة السرير، وبدأ يقرأ الجرائد. وبعد قليل سمع وقع أقدام صاعدة على الدرج. عرف صوت النعلين البيتيين الخاص والواثق: بريهان قادمة. أراد رفيق أن يترك خلف ظهره هذا اليوم الذي ذهب فيه إلى المكتب أول مرة منذ أشهر، وتعلق عقله بالمرأة المطلقة الموترة

للأعصاب، وفكر بحياته بعمق، ولكنه أدرك من وقع أقدام بريهان أن هذا لن يحدث: ثمة وقت أمامه. دخلت بريهان إلى الغرفة. وحاول رفيق أن يقرأ الجرائد من جديد، ولكنه كان منتبهاً إلى بريهان التي كانت تتجول في الغرفة، وتسحب الستائر، وتفتح الأدراج، وتفتش في الخزانة، وتلهي نفسها بعلبة أدوات الخياطة. جلست بريهان على الكرسي في النهاية، وبدأت تقطب زراً مقطوعاً على قميص. تذكر رفيق أنه جادل بريهان صباحاً من أجل هذا الزر المقطوع. وفكر أن بريهان لم تمس هذا القميص الذي كان سبباً للجدال بينهما حتى الآن، وقد تناولته تواً. وفي النهاية أدرك أنه لن يستطيع القراءة، فألقى الجرائد على الأرض، وبدأ ينظر إلى بريهان.

أدركت بريهان أن زوجها ينظر إليها. فرفعت عينيها عن القميص، وسألت: "هل ستنام؟"

قال رفيق: "الآن؟" ونظر إلى ساعته، كانت تشير إلى التاسعة والنصف. "لا، لن أنام. سأخرج لأمشي قليلاً. لست على ما يرام!" لم يكن قد فكر بهذا من قبل، فقد قال ذلك لأنه انزلق من لسانه، ولكنه لم يتحرك من مكانه. كان يتفرج على أصابع بريهان الرفيعة الممسكة بالإبرة، ويدها البيضاء الصاعدة والنازلة. كان يعرف أن اليوم لم ينته، ويشعر بأنه لابد من وقوع شيء ما من أجل أن ينتهي، وينتظر هذا. فيما بعد، أراد أن يقول بعض الأمور: "ذهبت اليوم إلى غولار خانم تلك. هي تقول إنها ترتب حفلة سمر، وتدعونا."

قطعت بريهان الخيط بأسنانها، ورفعت رأسها: "حسنٌ، نذهب!"

"أنذهب؟ ماذا سنفعل هناك؟"

"لماذا؟ نذهب، ونلهو!"

"لا، لا! ما الذي سنفعله نحن هناك؟"

"لماذا؟ لا نفعل شيئاً أبداً! نرى على الأقل وجه إنسان!"

"لا يا روحي! وخاصة وجوه الناس الذين هناك. أنا لا أحب أولئك الناس. ولا سعيد نديم بيك! ما حال المهرج التي كان عليها في ذلك اليوم... ابن باشا يشعر بالألم، ومهزلة يقول إن التجارة تثقل على ضميره. إذا كان أبوه باشا،

فإن جد أبيه راع! ثم أخته المستهترة تلك... ثمة ما هو قبيح فيهم! لن نذهب!"

قالت بريهان: "ولكنني أريد أن أذهب..." وبدت حازمة. "أناس مسلون... سئمت من الجلوس في البيت بشكل دائم!"

صرخ رفيق: "مسلون ها!" ثم بدأ يقلد سعيد نديم بيك: "أوربا، آه يا أوربا.. أرجوكم بشدة! لطفاً! آه، أشكركم! آه، باريس! واخ أبي كان باشا! أف، يا للأسف علي!" كان يحني جذعه، ويطأطئ في أثناء قوله هذا، ويوزع قبلاته في الهواء كأنه يقبل أيدي النساء بحركات أنثوية لا يبديها سعيد نديم بيك أبداً.

فجأة أطلقت بريهان ضحكة متوترة. قالت: "هذا يشبهك أكثر مما يشبه سعيد بيك." وبدأت هي التقليد هذه المرة: "أف، أنا مريض! آه، أنا متضايق! واخ، لا أستطيع الذهاب إلى المكتب!.." تركت التقليد، وأضافت بحزمها الذي ظهر قبل قليل: "أنا أريد أن أذهب إلى هناك، والهو!" ثم التفتت إلى الطفلة النائمة في السرير: "وها نحن أيقظناها أيضاً!"

صرخ رفيق: "هذا إذاً ما تفكرين به بحقي!" لا يستطيع أن يفكر بشيء، ولا يتجلى في عقله غير التقليد الذي قدمته بريهان قبل قليل. "هذا إذا ما تفكرين به بحقي!"

قالت بريهان: "أنا أريد أن أذهب إلى السمر!"

أدرك رفيق أن كلمات بريهان هذه ناجمة عن عنادها، ورغبتها بكسر كبريائه: "هذا كل ما أردته أساساً: اللهو... ولا تفكرين حتى بزر قميص، وتضعين اللهو دائماً في عقلك!" عندما رأى أن بريهان تحاول التظاهر بعدم التأثر، ومشغولة بالطفلة، صرخ بقوة أكثر: "أنت مخلوقة مسكينة وسطحية ومن دون عقل!" التفت ليرى بريهان تنظر إليه، فصرخ أكثر: "أنت مخلوقة جاهلة، وغبية، ولا فائدة منك، هل تفهمين هذا؟ لم تفهميني في أي وقت، ولا حاولت أنت تفهميني."

نظرت بريهان إلى رفيق قلقة كأنها تنظر إلى مريض.

خرج رفيق من الغرفة، وصفع الباب خلفه. وقف أمام الباب برهة منتظراً

صوتاً قادماً من الداخل، ولكنه لم يسمع شيئاً. بعدئذ، نزل إلى غرفة المكتب. حاول قراءة الكتاب الذي كان بيده قبل قليل. ضغط على نفسه ضابطاً كل حركة من حركات يده وذراعه للنظر إلى ذلك الكتاب، اعترافات روسو، راغباً بالقراءة، والفهم، ولكنه لم يفعل سوى قراءة الجملة نفسها، وأعادها عدة مرات. نهض واقفاً، وأشعل سيجارة. وانتبه إلى أن يده ترتجف. ثم بدأ يذرع الغرفة أثناء تدخينه. كان يفكر بالكلمات التي قالها قبل قليل، والتقليد الذي قامت به بريهان. ولو أن أحدهم قال له قبل ذلك بأن زوجته يمكن أن تسخر منه على هذا النحو، وأنه يمكن أن يقول كلاماً من هذا القبيل، فلن يصدقه، ويقول له إن أموراً كهذه لا يمكن أن تحصل إلا في زواج الناس الضعفاء، وعديمي الأخلاق. كان هذا أكثر ما أدهشه: كيف دخلت إلى حياته هذه الأمور التي يمكن أن تلاحظ في زواج الناس الضعفاء؟ تمتم: "كيف حدث هذا؟ ماذا قلت لتلك المرأة المطلقة؟ ماذا قلت لبريهان؟" ولكنه لم يكن في وضع يمكنه من التفكير بهذه الأمور بتفاصيلها، وأن يفهمها. ثمة حنق يقف في بلعومه مثل قبضة يد يعيق تفكيره بشيء، ويتأجج في نفسه شعور بالكارثة، ويرغب أن يقوم بشيء ما. أثناء ذرعه الغرفة اصطدم بالأريكة، وقلب منفضة السجائر التي كانت على الطاولة الصغيرة، حاول أن يضبط أعصابه، ويوقف ارتجاف يديه. ثم خرج من الغرفة. وصعد الدرج بسرعة غير راغب بالتفكير بشيء. دخل إلى الغرفة كالسكران. كانت بريهان جالسة على حافة السرير تبكي. والطفلة أيضاً تبكي.

"لم تفهميني في أي وقت! ولم تهتمي بي أبداً!"

فتح الخزانة بحركة فظة، وأخرج ستراته، وكنزاته، وجواربه، وبدأ يلقيها على السرير. كان يريد أن ترى بريهان ما يفعله، ولكنها كانت تغلق وجهها بيديها، وتبكي.

صرخ مرة أخرى: " أنت لم تفهميني أبداً!" ولكن صوته بحّ كأنه اختنق. فأضاف بصوت مبحوح، وعلى عجل: "لم أعد أستطيع البقاء في هذا البيت، أنا ذاهب!"

قالت بريهان: "يا إلهي، يا إلهي، ماذا فعلت أنا؟!"

دس رفيق سراويله الداخلية، وجواربه التي أخرجها من الخزانة، في حقيبة، ويردد بين فينة وأخرى: "لم تفهميني أبداً!" ثم توقف لحظة، وفكر: "إيه، إلى أين سأذهب؟" وشعر أنه يريد أن يحتضن بريهان، ولكنه خاف، وقال من جديد: "لم أعد أستطيع البقاء في هذا البيت!" كرر هذا عدة مرات كأنه يريد إقناع نفسه به. ثم أغلق الحقيبة، وأخذ نقوده كلها من الدرج، وخرج من الغرفة خائفاً من النظر إلى وجه بريهان. نزل الدرج، ودخل إلى غرفة المكتب، ودس الكتب والدفاتر التي على الطاولة في الحقيبة. لم يجد الكتب التي أخذها كافية، فنظر إلى رفوف المكتبة. أخذ عدة كتب أخرى. وأراد أن يأخذ المزيد، ولكن الحقيبة لم تتسع لها. وغضب من نفسه في أثناء محاولة توسيع الحقيبة لها، فالتقط حقيبته، وخرج من الغرفة. ونزل الدرج بسرعة.

كان المذياع مفتوحاً في غرفة الجلوس. وأمه ونرمين تثرثران، وعثمان يدخن سيجارة. مشى رفيق بخطوات واثقة وسريعة إلى وسط الغرفة، ووضع حقيبته على الأرض.

حدث جمود. ونهض عثمان واقفاً، وقال: خير إن شاء الله؟ ماذا يحدث؟"

قال رفيق من جديد: "أنا ذاهب!" كان هذا وضعاً باعثاً على الضيق. لا يعرف كيف سيخرج من هذا الأمر، وكان يقف هكذا في وسط الغرفة غاضباً منهم لعدم استطاعتهم إدراك وضعه، ولا يريدون فهمه، وإفهامه.

قالت نيفان خانم: "ماذا يحدث؟"

قال رفيق ناظراً إلى عثمان: "تشاجرنا، بريهان وأنا!"

قال عثمان: "إيه، وهل تُوضب حقيبة، ويُغادر البيت من أجل هذا؟ نم في الأسفل هذا المساء. تعال أنت إلى غرفتي، ولتصعد نرمين إلى هناك!"

قال رفيق: "أنا أساساً لا أشعر بأنني جيد!" صرخت نيفان خانم: "إلى أين تذهب، إلى أين؟" وبدا هذا الصوت كأنه اعتاد الكوارث، وجهز نفسه لها. وكادت تبكي.

كان رفيق منكمشاً مسحوقاً، لا يستطيع قول شيء. خرجت عائشة مع الحفيدين من غرفة المفروشات الصدفية. ينظرون إلى ما يجري بفضول.

التفت عثمان إلى نرمين، وقال: "هيا، نومي الطفلين!" ونظر إلى عائشة، وذكرها بضرورة صعودها إلى الأعلى. صعدت نرمين مع الطفلين.

بدأت نيفان خانم تبكي. وقالت: "أعرف، كنت أعرف!"

قال عثمان: "انتظري يا أمي لنرى، ولنفهم ما يحدث، ما المبكي الآن؟" والتفت إلى رفيق: "لماذا تشاجرتما أنت وبريهان؟ انظر، يمكن أن يكون الذنب ذنبك. لأنك غريب قليلاً في هذه الأيام."

لم يرد رفيق على عثمان. التفت إلى أمه، وقال: "لا تبكي يا أمي، يا روحي!"

أدرك عثمان أنه قال ما يجب الا يقوله، فقال: "حسنٌ، تعال إلى هنا، واجلس، حباً بالله!"

قال رفيق: "لا، أنا خارج!"

قال عثمان: "لا افهم شيئاً أبداً! لا افهم شيئاً أبداً!"

كان رفيق مايزال واقفاً بجانب الحقيبة التي وضعها على الأرض، دون أن يحمل الحقيبة، ويغادر، أو أن يذهب إلى جانب أمه ويجلس. تناهى من الخارج صوت الأشجار التي تجعلها الريح الجنوبية الغربية تصدر صوتاً. وتضغط النوافذ المطلة على الحديقة أحياناً، فيصطدم مشهده بالزجاج المظلم، ويتبدد.

قالت نيفان خانم فجأة: "لن تستطيع الذهاب إلى أي مكان. إلى أين ستذهب في هذه العاصفة!" ولأنها تحدثت بيأس، لم يفد كلامها إلا بتأجيج جو الكارثة القائم.

قال رفيق: "سأذهب، سأذهب!" ثم قال لنفسه: "إن شاء الله لا يخطر ببال بريهان أن تنزل إلى الأسفل!"

خطا عثمان خطوتين، واقترب من رفيق. وحاول اتخاذ موقف أبوي حنون، ووضع يده على كتف أخيه، ولكن تلك الحركة كانت معوجة.

"إلى أين ستذهب حقاً يا رفيق؟"

كان رفيق يشعر بيد أخيه الكبير على كتفه: "سأذهب إلى عمر!"

"عمر؟ هل جاء عمر إلى اسطنبول؟"

"لا، لم يأت!"

سحب عثمان يده، وقال: "أخشى أنك ستذهب إلى ذلك المكان؟ أين كانت أعمال السكك الحديدية... أتقول إنك ستذهب إلى هناك؟"

قال رفيق: "نعم، سأذهب إلى هناك!" ولم يرغب هو أيضاً بقول كلمة "كماه". وفكر: "انتهى الأمر". حمل حقيبته عن الأرض: "أنا ذاهب يا أمي! احمر، وحاول أن يبدو هادئاً وسعيداً. "كرما لله ما الذي يبكي الآن؟.. أقول إنني سآتي بعد شهر. قفي، لأقبلك."ترك حقيبته، وعانق أمه، وقبلها من خديها. لبث بعد ذلك متردداً برهة، وقبل يدها بحركة مفاجئة. ثم ندم بعد قيامه بهذا. تقبيل اليد يليق بالمراسم العظيمة ذات المظاهر، والمفعمة بالمشاعر. وهكذا أثبت أنه يفعل شيئاً جدياً.

قالت نيغان خانم: "حسنٌ، إلى أين تذهب؟"

قال رفيق: "أذهب إلى فندق! لا تنهضي أنت، لطفاً لا تنهضي."

قالت نيغان خانم: "أتذهب إلى فندق؟" ولكن رفيقاً كان قد حمل حقيبته، وذهب. وسمعها تسأل عثمان مرة أخرى: "أيذهب إلى فندق؟"

جاء عثمان إلى الباب، وقال: "إنك لا تفعل حسناً، لا تفعل حسناً! اتصل بي غداً إلى المكتب. لن تسافر فوراً يا... فكر قليلاً..." بعد ذلك، نط عرق الأخ الكبير على الأرجح، وأضاف بحدة: "ضع عقلك في راسك!"

قال رفيق: "سأتصل غداً!" وخرج.

قرع الأجراس المربوطة بالباب. كان ثمة عاصفة. ولكن نيشان طاش كانت هادئة. الأشجار تهدر. لم تكن تنبعث رائحة البحر والطحالب التي كانت قبل عدة ساعات. كانت العاصفة ترجف أضواء نيشان طاش الهادئة، وتذوب الطمأنينة والنظام المنتشر من النوافذ في الجو متبدداً.

25
غرفة راستنياك

قال عمر: "لو أنك تأخرت قليلاً، لبقيت حتى الظلام!"

قال رفيق: "نعم!" ومازال عليه انفعال السفر. "لم أكن أعتقد أن أربعين كيلو متراً ستستغرق كل هذا." ثم بدأ يحكي عن الأمر نفسه، أي عن سفر ثلاثة أيام. جاء من أنقرة إلى سيواس بالقطار. ثم ركب حافلة سيواس ارزنجان، وبعد سفر المغامرة هذا، نام ليلة البارحة في إرزنجان، وانطلق في الصباح في سفر إرزنجان - آلب مسافة أربعين كيلو متراً، والذي استغرق نصف يوم. مضى على مجيئه نصف ساعة. خلع معطفه المثلج، وجلس بجانب مدفأة البراكة الكبيرة، ولكن عمر مازال يشعر أن البرد يتدفق من جسمه النحيل. يجب أن يكون برد الشرق قد أثر بقوة في هذا الجسد النيشان طاشي الرقيق.

قال عمر: "إنك بردان على الأغلب."

"بردان، ولكن ليس كثيراً."

"سنتناول طعاماً بعد قليل. تناول الحساء، فتدفئ نفسك. ولكن، لأريك المكان أولاً."

نهضا معاً. فتح عمر أول باب صادفه. غير صوته كأنه صاحب بيت يحاول جعل زبونه يعجب بالبيت قائلاً: "هنا دورة المياه! إنها تركية الطراز،

ولكنك يمكن أن تتدبر أمورك بها. ثم لديكم دورة مياه تركية الطراز في الطابق السفلي من بيت نيشان طاش... للخدم."

قال رفيق وكأنه يعتذر: "ولكن أبي كان يستخدم تلك الدورة. ولكن تلك كانت إفرنجية الطراز عندما اشتروا البيت، وقد غيرها أبي فيما بعد.

فكر عمر: "ما فعلته مزاح سمج." ثم تذكر، فقال: "حزنت من أجل أبيك، البقية بحياتك!"

خيم صمت. مازالا ينظران إلى أحجار دورة المياه الباردة كأن هنالك ما ينظر إليه.

قال عمر مجدداً: "البقية بحياتك." ثم عانق رفيقاً: "فرحت لمجيئك. فرحت عندما تلقيت برقيتك، ولم أصدق. فرحت كثيراً." وجد نفسه منفعلاً جداً، وهرب بوجهه من نظر رفيق: "انتظر، لأريك غرفتك!" فتح الباب المجاور لدورة المياه: كانت تلك غرفة كبيرة، وفارغة. ويبدو الثلج الهاطل في الخارج من نافذتها الصغيرة.

قال رفيق: "إنها كبيرة جداً يا هذا! وهي باردة جداً أيضاً!"

"نعم، من الصعب تدفئتها. فكرت أنك سترغب بغرفة كبيرة. وستغدو البراكات فارغة لأن العمل يجري في الأنفاق فقط شتاء... انظر إلى غرفتي أيضاً إن أردت. ولكن لا أدري إن كنت تستطيع إيجاد زاوية للقراءة فيها." وفتح باب غرفته باسماً.

خطا رفيق خطوة مترددة إلى الداخل. نظر عمر إلى غرفته من خلف رفيق. نظر إلى الأشياء التي نسي وجودها لمجرد الاعتياد عليها بعين مقيم مفكراً بما يراه رفيق: غرفة قديمة وقذرة، خشبية المفروشات، فيها سرير، وعدة ديوانات فارغة، وطاولة عليها رسوم وأوراق حسابات، وخزانة فظة، ومدفأة كبيرة تلتف أسطواناتها داخل الغرفة، وطاولة صغيرة تجفف عليها السجائر، وجرائد دست بحواف النوافذ.

قال رفيق: "المكان هنا أفضل، وأدفأ!"

"اسكن هنا إن أردت."

"لئلا أقلق راحتك."

"ماذا تقول!.. سيكون أفضل. ونتكلم كثيراً أيضاً."

قال رفيق: "نتكلم ياه! هنالك الكثير مما يجب أن نتكلم به!"

هز عمر رأسه. فكر: "وهل يوجد الكثير؟ بدأت راحتي تقلق منذ الآن. لماذا أتى؟.. ولكنني فرحت لمجيئه. سأتكلم... صحيح، نتكلم، نتكلم!" التفت إلى رفيق الذي مازال يتفقد الغرفة، وقال له فجأة: "إيه، كيف حالك أولاً لنرى؟" ولكنه انتبه إلى أنه قال هذا بصوت غريب، فاندهش.

قال رفيق: "ها أنا جيد!" وكان مندهشاً أيضاً. وجهه شاحب، وقد نحف، وفقد تدويرته السابقة. كما لا تظهر في نظراته السعادة والثقة والراحة كما كان في السابق. كما بدا عليه أيضاً حال الإنسان الذي يصارع الهواجس، والقلق على الأكثر. ولكن عمراً كان يرى في عينية حسن النية التي تلطف كل شيء، وتهدئه. هذه هي حسن نية رفيق الدائمة. وقد تعزز ذلك التعبير فيها كثيراً بعد تباعد طويل، ولمعت بصداقة تبدد كل الشوائب بينهما.

قال عمر: "حسن أنك أتيت، حسنٌ أنك أتيت!"

كان رفيق هذه المرة هو المتضايق من دفق المشاعر الزائد عن الحد. وقال: "لأجلب حقيبتي، وأرتب نفسي." ثم خرج.

نظر عمر إلى غرفته بعين مقيّمة، وفكر: "أنا هنا منذ سنتين!"

دخل رفيق إلى الغرفة حاملاً حقيبته. فحاول عمر أن يبتسم. ثم سحب واحدة من فرشتين مطويتين إحداهما فوق الأخرى فوق إحدى الديوانات، وشمها، فوجد أنها قذرة. شم الأخرى، فتلقى الرائحة ذاتها، أخرج ثالثة، وسأل رفيق أين سينام. ظل رفيق متردداً برهة. وكمتزوج جديد يريد أن يفرش بيته بدأ يمعن النظر بالغرفة الكبيرة كأنه يقيسها. وأخيراً مدوا الفراش. كان ثمة غطاء أيضاً، ومزيداً من اللحف. مدوها أيضاً. وفكر عمر: "منذ كم سنة ونحن صديقان!" كان يسمع هدير المدفأة. "منذ عشر سنوات. لقد نسيت ذلك الشيء القبيح المدعو طموحاً، وأنا أنساه..." استنشق عمر رائحة اسطنبول المنبعثة من حقيبة رفيق عندما فتحها. دقق بالكتب والأغراض الخارجة من الحقيبة. جلس بعد ذلك على حافة السرير، وأشعل

سيجارة، وبدأ يراقب رفيقاً وهو يفرغ الحقيبة، ويضع أغراضه فوق صندوق صغير. وفجأة أدرك عمر أنه يستغرب رفيقاً. وبالطريقة التي يندهش فيها إنسان عند رؤيته ساقي قصاب يمشي في الشارع اعتاد على رؤيته خلف طاولته على مدى سنوات، اندهش عمر لرؤية رفيق الذي لم يره إلا في نيشان طاش، وكلية الهندسة، وإسطنبول، وفي أمكنة أخرى. فجأة شعر كأن رفيقاً الذي أمامه قد تغير، وانفعل أيضاً كأنه إنسان آخر، ومن وسط آخر، وفكر: "لو كنت ماذا؟ ماذا كنت سأفعل بعد مجيئي من إنكلترا؟" وبدأ يعدد الأشياء التي كان يعددها منذ سنتين من دون توقف على أصابعه وهو يثنيها واحدة تلو أخرى: "الجامعة، شركة هندسة، شركة إنشاءات صغيرة، حياة في اسطنبول..." وفجأة غضب من نفسه، وتمتم: "لا شيء منها! كنت على حق إذاً!"

وفجأة التفت رفيق، وسأل: "حقاً، كيف حال ناظلي يا؟"

"جيدة. ذهبتُ في الصيف والربيع إلى أنقرة، والتقيتها هناك. ونحن نتراسل الآن." فجأة أراد عمر أن يفرغ ما بداخله، فأضاف: "نحن نتراسل، ولكن ما يمكن أن يكتب يقل تدريجياً! هي تكتب لي عن حياتها اليومية، وأنا أكتب لها عن حياتي اليومية... حسنٌ، ما معنى هذا؟"

ابتسم رفيق. وبدت نظراته تقول: "أتسأل ما معنى هذا؟ معنى هذا أن تبادل المراسلة بين المخطوبين أمر جميل! لماذا تسأل عن هذا؟.."

"حسنٌ، كيف حال بريهان؟"

"جيدة."

"حقاً، لم تذكر لي ابنتك. اسمها ملك، أليس كذلك؟"

"نعم."

"كيف هي؟"

قال رفيق: "ضخمة قليلاً، ولكنها ستكون جميلة على الأرجح."

"ببال من خطر هذا الاسم؟"

قال رفيق خجلاً: "ببالي! في الحقيقة كنت دائماً أرغب أن يكون عندي ابنة كالملاك!" ثم ترك الحقيبة المفرغة، وتمدد على السرير.

تمدد عمر أيضاً على السرير. وهو يدخن سيجارته، وينظر إلى السقف محاولاً الاستمتاع بهذا اللقاء الأول الذي يعيش آخر أحلامه. وستخمد بعد قليل شرارة الأخوة، والصداقة التي تأججت بعد زمن طويل، وتزول المشاعر المشتركة بين طالبين في دار طلبة، أو جنديين في مهجعهما الآن هنا، ويحل محلها برودة إنسانين كبيرين يقارعان حياتيهما، ويقيم كل منهما الآخر...

قال رفيق من جديد: "كنت أريد أن يكون لي ابنة كالملاك!" ثم أطلق قهقهة متوترة مرضية.

اندهش عمر. كانت تلك الضحكة ما لم يتوقعه عمر، ولم يعتد على سماعه منه. قال: "أنا أراك متوتراً جداً يا هذا!"

"تعبت! منذ كم يوم وأنا على الطرقات..."

"نم قليلاً إن أردت. سنأكل بعد ساعة. سيفيدك النوم."

"لا، لا... كيفما يكون سأنام هنا كثيراً على مدى شهر... لنتحدث الآن."

"أتنوي البقاء هنا شهراً؟"

"نعم، شهر... خرجت من البيت لشهر!"

فكر عمر: "خرج من البيت لشهر! خرج من البيت ليغيب شهراً، وجاء إلى هنا. سينام هنا، وسيقرأ الكتب التي جلبها، وسينشر نفسيته السعيدة المتوازنة المألوفة دائماً، وأنا أيضاً سأفكر بأنني شخص طموح، ومتعلق، وقلق، وسيئ... من السهل التظاهر بالسعادة والأخلاقية من دون المساس بشيء!... ولكنه بحال متوترة الآن أيضاً... بدأت التفكير من جديد! لأقرأ هذه الجرائد التي جلبها على الأقل... لأر ما يحدث في العالم فأنا هنا أحاول أن أكون فاتحاً، وأعمل لكسب النقود." لا يعد على غير علم مطلقاً بما يجري في هذا العالم. لدى مهندس ألماني مذياع قوي يلتقط أوربا كلها. أحياناً يذهب إليه عمر، ويستمع، ولكن جرائد البلد الطازجة القادمة من أنقرة أمر مختلف: "تصريح رئيس وزرائنا جلال بايار: تفتتح الحكومة مرحلة جديدة لسن القوانين... فرنسا وسوريا في هطاي... زيارة الملك فاروق لتركيا... أيام أوربا اليائسة... النمسا رداً على إنذار هتلر... يقول ستالين، رداً على التجاوزات..." كان يرغب بقراءة المزيد، ولكنه ترك الجريدة.

وفكر: "ماذا يفعل رفيق؟" أدرك مجدداً أن وجود رفيق قد تغلغل فيه جيداً، ورفع رأسه بشكل خفيف عن المخدة، ورأى البقعة المتمددة على السرير في الطرف الآخر من الغرفة. وفكر: "تمام! سأقلق على مدى شهر... ستتجول نظرات هذا الإنسان السعيد ولكنه مفكر ورفيق علي طوال شهر! لأكن البادئ على الأقل!"

رفع رأسه الذي كان قد أرخاه على الفراش، وسأل: "حسنٌ، حسنٌ! ماذا يوجد غير هذا؟ ماذا فعلت في الفترة التي لم أرك فيها؟"

قال رفيق على عجل: "دع عنك هذا الآن، احك لي أنت عن حياتك هنا..."

"حياتي هنا؟"

"كيف تعيش، وما تفعله في الوقت الزائد من العمل بالنفق، والناس... الحياة يا روحي!"

"حل الظلام... عندما يحل الظلام هنا نتناول الطعام: نشعل مصابيح الكاز. كتبت لك هذا. يعمل معي هنا مهندسان نسبقهما بأربع سنوات... يلعبان الورق قليلاً... ستة وستون، أو باصرة. وهنالك الحاج الذي ذكرته لك... يعد الطعام، ويكنس البراكة، ويمسحها، ويغسل الغسيل، ويهرع لقضاء الحاجيات... نحن أربعة أشخاص في هذه البراكة الضخمة. الورشة الكبيرة الأساسية إلى الغرب بكيلو مترين على طريق كماه... هناك بيوت إقامة مؤقتة، والمهندس الألماني، والمولّد. أذهب إليه أحياناً للثرثرة... بعد ذلك، يأتي وقت النوم أساساً... هكذا تمر الأمسيات! الزمن بطيء، يمضي بثقل... يندف الثلج... تنظر صباحاً من النافذة، فلا ترغب بالنهوض... أدخن... أحياناً نشرب مشروباً... أمور من هذا النوع... هذه الحياة هنا. ننهض بعد قليل، ونحتسي حساء... وهذه غرفة راستياك، الفاتح... هيا لننهض، ونتناول حساء... بعد ذلك تنام براحتك!"

26
صباح اليوم الأول

كان رفيق يسمع وقع أقدام تتجول على الأرضية الخشبية. أحدهم فتح غطاء المدفأة، وألقى فيها حطباً، ولكن غطاء المدفأة المفتوح، وقرقعة الخشب لم تكن مألوفة. فتح عينيه، وفهم: إنه هنا، في براكة ورشة بين إرزنجان وكماه. كانت الشمس تسقط نحو الداخل. رأى أكوام الثلوج في الخارج.

قال عمر: "هه، هل استيقظت؟ لم أوقظك أنا ياه؟"

قال رفيق: "كنت قد استيقظت أساساً!" تمطى، وتثاءب براحة المسرورين من وضعهم، والمطمئنين. وفكر: "حتى إنني وجدت توازني!" وتذكر أنه رأى حلماً قبل قليل. كانت نيفان خانم، وجودت بيك يؤنبان بريهان، ويقولان: "أنت جعلت الولد يهرب!" وبريهان تتجول في نيشان طاش على دراجة هوائية، وتضحك باستمرار، وتقول: "لا أحد يغضب من رفيق. كلنا نحبه!" وهو يتفرج عليهم سراً من خلف جدار الحديقة شاعراً بالفرح.

"هل نمت جيداً؟"

"نعم. نمت جيداً. أنا كالفجل." تمطى رفيق، ونهض من الفراش فوراً. فكر بأن الغرفة ليست باردة كما توقع. نظر إلى ساعته. كانت السابعة والنصف. "نمت اثنتي عشرة ساعة!" كان سيقول لعمر بأنه نام من دون أرق، ولكنه تذكر: استيقظ مرة، وسمع عواء ذئب.

قال هذا لعمر أثناء ارتدائه ثيابه. وقال عمر هنالك ذئاب كثيرة في المحيط، ومن الخطورة الخروج ليلاً من دون سلاح، وخرج. وحمل رفيق أدوات الحلاقة. ثمة مرآة في زاوية الغرفة. وقف أمام المرآة بعد أن جلب طاس ماء من دورة المياه الباردة. وجد وجهه شاحباً ومريضاً، ولكنه ليس حزيناً، ومتضايقاً. وفي أثناء حلاقته بالأدوات التي اشتراها من بيه أوغلو في اليوم الثاني لخروجه من البيت، خطر بباله بأن متوازن، وسعيد، ومسترتخ. كان يفكر: "كنت متوتراً بالأمس، ولكنني الآن جيد!" كان ينظر إلى الزرقة التي تحت عينيه في وجهه المدور الشاحب. أنهى حلاقته مستمتعاً، ومتململاً، ونافد الصبر من أجل أن يلقي بنفسه تحت الشمس الساطعة، والسماء الزرقاء في الخارج. وكان شعر بالانفراج والحرية، ويعيش، ويعمل ما يجب عمله. خرج بعد ذلك من الغرفة، ودخل إلى الغرفة الواسعة في الوسط، والتي تقوم مقام البهو، وقابل فيها عمر البارحة.

فرشت مائدة إفطار على طاولة كبيرة وسط الغرفة. جلس عمر في طرفها، وهو يأكل خبزاً. وعندما رأى رفيقاً تحدث إلى الشابين الجالسين على طرفي الطاولة.

قال: "ها هو قد أتى!" كان فمه مليئاً. "وهو منا أيضاً، من قسم الهندسة المدنية، وهو أخوكم الكبير مثلي!"

صدرت ضحكات. تعرف رفيق على الشابين اللذين لم يتعرف إليهما مساء لذهابه مبكراً إلى النوم. كان اسم الطويل الأسمر صالح. والآخر السمين أنور. كان هناك جبن ومعقود وقشدة على الطاولة. وعلى المدفأة شاي يخمر. أخذ رفيق شاياً، وجلس إلى الطاولة. وبدا أن صالح أحد الشابين يتذكر وجه رفيق. بدا رفيق كأنه سيباهي بنفسه، وسأل مدركاً ضرورة قوله شيئاً ما: هل دخلا إلى الكلية سنة تقاعد الأستاذ منيب؟ ثم استذكروا أساتذة آخرين. أخذوا درس السكك الحديدية من الأستاذ نفسه. قال عمر إنه سيجدد معلومات رفيق، ولكن رفيقاً قال إنه لن يبقى مدة طويلة، وإنه ابتعد عن هذه الأمور إلى حد أنه لا يستطيع تذكر الكثير منها. وعندما كان رفيق يجدد شايه، قال المهندس السمين أنور: "اعتقدت أنكم أتيتم للعمل!"

قال رفيق: "آ، لا، لا! أنا لا أعمل في الهندسة، بل في التجارة. أتيت إلى هنا لقضاء عطلة!" وصمت عدة ثوان، ثم أضاف: "هربت من اسطنبول، من المدينة، سأرتاح!"

قال أنور محتداً: "الجميع يذهبون إلى أوربا من أجل هذا العمل." ونهض عن المائدة كأنه خجل من شيء. ونهض صالح من خلفه أيضاً.

بعد نهوض الشابين، قال عمر ضاحكاً: "اعتقدا أنك ستعمل! عقدت معهما اتفاقاً جيداً جداً. فهما يعملان مقابل حصة، وليس مقابل أجر. اعتقدا أنك ستكون شريكاً أيضاً، وخافا." أطلق قهقهة، ولكنه لم يبد محبباً. "حسنٌ، كيف وجدتهما؟"

تذكر رفيق محي الدين.

قال عمر من دون انتظار جواب رفيق: "شابان جيدان. كلاهما مثل النار! كانا من أفضل طلاب صفهما. وهما يحتاجان النقود أيضاً!" كان عمر يبتسم متخذاً موقف المعلم الناجح الذي لم يره فيه رفيق من قبل.

ولمجرد الكلام قال رفيق: "نعم، يبدو عليهما أنهما شابان جيدان!" ثم نهض فجأة ليأخذ شاياً. قال لعمر: "هل تريد أنت أيضاً؟"

قال عمر: "شاي آخر، ها؟" تمطى، وقال وهو يتثاءب: "إيه، لنشرب!" وتثاءب مجدداً.

ملأ رفيق فنجاني الشاي، ووضعهما على الطاولة، وقال: "ما أجمل الشمس في الخارج!"

"يا! لا يوجد شمس كهذه في اسطنبول حتى في شهر شباط!"

كانا ينظران معاً إلى الخارج عبر النافذة. كانت الشمس تسقط على حافة الطاولة. أخذ رفيق قليلاً من القشدة أيضاً.

قال عمر: "القشدة جيدة، أليس كذلك؟" ثم قال لنفسه مندهشاً: "آ، حلقت ذقنك أنت. سيندهش السيد رودولف من هذا الأمر، ويغضب. لم أتحدث لك عن السيد رودولف، أليس كذلك؟ سنذهب إليه مساء. سيفرح عندما يراك... ألماني يتكلم التركية جيداً. إنه في تركيا منذ ست عشرة

سنة. عمل في خط صمصون - سيواس أيضاً... وهو يغضب من الذين يحلقون ذقونهم للاشيء. إنه معارض للانضباط.

فتح الباب الذي خلف رفيق. ودخل الحاج. عرفه رفيق البارحة: كان مرتاحاً، ولا يهتم بالمظاهر. ثم خرج دون أن يقول شيئاً أبداً. عندما رأى رفيق الرجل المسن يمشي ببطء على الثلج، أراد أن يلقي بنفسه إلى الخارج فوراً. ولحظة نهوضه، قال عمر: "اجلس، واشرب سيجارة الصباح الأولى! سنذهب إلى النفق معاً. لدي عمل. تعود وحدك، وتتجول، وترى المحيط!"

دخنا معاً. لم يتكلما بشيء. نظر رفيق من النافذة إلى الجبال والسماء التي تنادي الإنسان.

عندما خرج، تلقت عينه الشمس اللامعة. كان ثمة ضوء حاد، ولكنه هادئ لم يره من قبل. رفع رأسه إلى الأعلى كثيراً، وحاول الاعتياد على الضوء المبهر الذي ملأ عينيه ووعيه. كان الجو بارداً، ولكنه ليس برداً قاسياً من النوع الذي يتغلغل إلى الأعماق: كان الضوء يبث الحيوية في الجسم، ويذكره بضرورة أن يكون كثير الحركة، وحازماً. بدأا المسير معاً نحو النفق. لم يكن رفيق يسمع غير أزيز الثلج تحت قدميه. كانا يصعدان القمة بميل خفيف. رفع رفيق رأسه نحو السماء معوداً عينيه على الضوء. وبدا كل شيء هناك من حوله نظيفاً جداً، ورحباً، ولامعاً، وكانت السماء زرقاء جامدة، وعميقة. وفكر: "لعلني جئت إلى هنا من أجل هذا! كأن هذا الضوء وحّد ما في عقلي من تفتت، وتشتت، وأشياء لا علاقة لأحدها بالآخر، فارتاح، وشعر بالطمأنينة.. الطمأنينة!.." وينظر إلى القمة المرتفعة أمامه، والبراكات على اليسار واليمين، وإلى النهر البعيد، ويستمع لعمر وهو يقدم معلومات حول ما يرى. قدم عمر معلومات مبتسماً أحياناً، وتعلق البخار المتصاعد من فمه عند رأس أنفه مدة طويلة. البراكات الكبيرة والواسعة التي تظهر في الأسفل هي براكات العمال. قال عمر إنهم يعملون اثنتي عشرة ساعة علىورديتين، وإن فرشهم مشغولة بشكل دائم. تفرج رفيق على تعرج النهر بعيداً، وعلى الصخور المنتصبة مع اقترابهما من

النفق، ورأى الثلج المحصور بين تلك الصخور، والسهول المغطاة بالثلج شاعراً بتأجج رغبته بعمل شيء ما.

دخلا من فتحة النفق التي تتجه باتجاه النهر. كان هنالك زحام كبير، وهدير آلات. وكان داخل النفق رطباً، تفوح منه رائحة عفن وتراب رطب. كانت الجدران قد بُنيت من مدخل النفق نحو الداخل. نظر عمر بطرف عينه إلى العمال الناظرين منكمشين، وسلم على واحد منهم، هو معلم قطع حجارة، أو نجار بيتون برؤوس شفتيه، أو حركة خفيفة برأسه، وتحدث بعد ذلك لرفيق بانفعال: عمال بناء الجدران هؤلاء من منطقة البحر الأسود. وعمال الحفر هؤلاء من إسبير. هناك حاوية مليئة بالتراب والصخور تخرج على سكة. وطول النفق ستمائة متر. حفرت مائتي متر من كل طرف من طرفيه. وظهرت صخرة في الطرف الآخر، وتعثر العمل. ثمة مصابيح غاز كربيد مضاءة على الجدران. طلب عمر مولد كهرباء، ولكنه لم يصل بعد. من المفروض أن تنتهي جدران النفق كلها، وليتم تسليمه بشكل جاهز لمد السكك الحديدية في مطلع أيلول. كان ينبعث من الداخل في الأعماق صوت تكسير الحجارة. سيفجر الديناميت في فرصة الظهر. وكانت تُجهّز حفر الديناميت، وتملأ الحاويات بالأحجار التي حطمها الديناميت البارحة، وكان المعلمون الحجارون ينحتون الأحجار، ونجارو البيتون يقصون قوالبهم، و النفق يهدر. مشى عمر مسلماً على هذا وذاك، وكان يقف أحياناً مع معلم يحدثه بأمور ما. عادا بعد ذلك، وخرجا من النفق الهادر مثل بركان، ووقفا تحت السماء الصافية. مازالت الشمس تلمع فوق الثلج.

قال عمر: "سأذهب إلى الطرف الآخر. تعال أنت أيضاً، سترى الورشة الكبيرة، والنفق الأكبر، والجسور."

في تلك الأثناء اقترب قروي ممسكاً بيده قبعته الكسكيت. كان يهيئ نفسه لقول شيء ما، ولكن واحداً من خلفه قال: "لا يمكن، لا يمكن، اترك السيد براحته!"

اندهش الممسك بكسكيته، واستجمع قوته بعد ذلك، وبدأ يقول عبارات ما.

قال عمر على عجل: "ماذا أفعل أنا، اذهب، واحك مع الوكيل!" وبعد خطوه عدة خطوات، التفت إلى رفيق: "يكونون خمسة أو ستة أشخاص، يخرجون من القرية، ويأتون باحثين عن عمل. ويختارون ممثلاً لهم مثل هذا، وبعد ذلك، يتجولون على الورش، واحدة تلو الأخرى... انظر، انظر! الورشة الأساسية الكبرى هناك!.. يعمل هناك في نفق كريم ناجي بيك ألف ومائتي شخص."

كانا يسيران ملتفين حول القمة الصخرية التي يخترقها النفق، مع القوس الذي يرسمه النهر في الأسفل. كان ثمة براكات أكبر من التي رأياها قبل قليل على حافة النهر. وظهرت إلى الأمام قليلاً بقالية، ومقهى، وبراكات يقيم فيها المراقبون الفنيون الحكوميون، والبيوت المؤقتة التي يقيم فيها المهندسون الأجانب. كانت كل هذه تلمع بوجوهها النظيفة، وخطوطها الواضحة تحت السماء العميقة والرحبة في الأعلى بين الجبلين الكبيرين. كل شيء يقف متواضعاً وهادئاً تحت الضوء الصافي المنتشر في كل مكان. كان الناس أيضاً متواضعين إذ لا يمكن لهم أن يكونوا على غير ذلك في غمرة هذا الضوء. كان رفيق يراهم من الأعلى: يلتفون من حول البراكات، ويذهبون إلى البقالية، يجلسون، ويدخنون السجائر، ويناقشون أموراً ما، ويصعدون إلى القمة، ويتحركون كالنمل ببطء وسط الثلج.

قال عمر: "ما يجب أن تراه أصلاً، تراه في فرصة الظهر! يغدو تدافع أمام البقال. لا يغلق باب المقهى أبداً!..."

تمتم رفيق فجأة: "هذا الضوء، وهذه الحركة.. حسنٌ، ماذا أفعل أنا؟" كان وعيه كالفولاذ، اتخذت الأشياء والحركة أمكنتها، ووقفت بطمأنينة، ولكن رفيقاً في الأعماق، وفي أعمق الأعماق كان يعرف أن ثمة تململ، ثمة ضرورة لشيء آخر، لعله شيء لن يجده أبداً من أجل التخلص مما يشعر به. قال لنفسه: "لن أفكر!" وانتبه إلى أنهما وصلا إلى فتحة النفق الأخرى. لم يكن راغباً بالدخول إلى هناك. فانفصل عن عمر، وبدأ يمشي نحو البراكات.

مشى فترة من حيث كان قبل قليل مع عمر يتفرج على النهر والبراكات، والناس المتململين. وعندما رأى براكته من بعيد ترك تعقب الآثار، وبدأ ينزل من الأعلى. وبعد أن نزل عدة خطوات، ودفن بالثلج أدرك أن السفح حتى سهل البراكات مغطى بهذا الثلج الناعم، وعليه أن ينزل الثلاثمائة متر هذه وهو يسقط، وينهض على هذا النحو، ولكنه لم يرغب بالعودة للمسير على الثلج المتجمد. كانت الشمس تأتي من الطرف المقابل، وليست عمودية، ولكنها كانت تبهر البصر. مشى رفيق محصياً خطواته خطوة خطوة، ومنتبهاً إلى حركات جسمه مع كل خطوة يخطوها.

انتبه إلى تعبه عندما نزل إلى السهل حيث الثلج المتجمد. كان يلهث. ثم التفت، ونظر إلى الآثار التي تركها خلفه. بعدئذ، بدأ السير باتجاه براكته. كان فرحاً لأن جسمه قد تعب، وقميصه المبلل بالعرق قد التصق بلحمه. فكر بهدير العمال الذين يعملون في النفق، والآلات التي تدور، والجبل الذي يثقب. تمتم: "أريد أيضاً أن أتعب جسمي!" مشى نحو البراكة، وهو يشعر بخجل خفيف، ويتصور: سيلعب رياضة كل صباح، ويذوب هذا البطن الذي يهين الإنسان ولو قليلاً، ويتخلص من خمول جسمه، ويقرأ الكتب التي جلبها كلها، ويكتب كتابات ما، ويفكر، ويعود إلى بيته في نيشان طاش إنساناً صحيح الجسم، متوازناً، وسعيداً كما كان سابقاً.

رأى الحاج أمام البراكة. أخرج كرسياً إلى الخارج تحت الشمس، وجلس يقشر بطاطا. كان بجانبه كلب راع طويل الوبر، فتياً، ومسروراً. كان الحاج يكلم الكلب على الأرجح، ولكنه صمت عندما رأى رفيقاً. في أثناء اقتراب رفيق من البراكة، نظر في عيني الحاج، وابتسم. رأى الحاج نظرات رفيق، ولكن التعبير على وجهه لم يتغير. هز رأسه مرة واحدة فقط، كأنه يفكر: "رأيته ينظر إلي بمودة!" وخلال اقتراب رفيق منهما اتخذ الكلب المتقافز على الثلج، والمتلاعب موقفاً جدياً: رمق الرجل الغريب بنظرة جدية ومسؤولة خلال مروره بجانبه. ورأى أن الكلب يركض مرحاً كما كان في السابق. بدأ الحاج يقول له أشياء ما. كان ثمة تقارب شكله الاثنان هناك: كانا يقولان إن هذه السماء والضوء وقطعة العالم الهادئة لهما.

فكر رفيق: "كيف يفكر الحاج بي يا ترى؟" ثم قال لنفسه: "ماذا أفعل الآن؟" مازال إبريق الشاي على المدفأة. خلع معطفه. وأخذ فنجان شاي. وجلس إلى الطاولة، وبدأ يشرب. "ماذا أفعل الآن؟ استنشقت الهواء، وتجولت، ورأيت المحيط، وأنا في وضع جيد. لأبدأ قراءة الكتب فوراً." شرب فنجان شاي آخر، وانتقل إلى غرفته.

رتب كتبه مساء أمس، قبل أن ينام، على كرسي بجانب السرير. تناول كتاب الثورة والتنظيم من على الصندوق، وجلس على طاولة عمر بجدية. قرأ فترة. ثم انتبه إلى أنه لم يعط انتباهه للكتاب، وأنه يفكر بأمور أخرى. رفع رأسه عن الكتاب. وفكر: "يا لجمال الخارج! كيف كان النفق يهدر... لا يمكن أن تكون الشمس هكذا كل يوم... ترى ماذا تفعل بريهان الآن؟ كم الساعة؟ مازالت الساعة تشير إلى الحادية عشرة، ولكنني جائع منذ الآن. كم كانت تلك البراكات والنهر تبدو من بعيد جميلة! أنا أتثاءب، أنا نعسان! ولكن من يعلم كيف يكون داخل البراكات؟ ثمة عاطلون عن العمل. لن أستطيع قراءة هذا، لأقرأ شيئاً آخر!" تناول اعترافات روسو عن الطاولة. أعطاه انتباهه، وحاول أن يقرأ، فتح الأجزاء الأحب إلى نفسه عندما كان في اسطنبول، والمتعلقة بحياة الحقول والطبيعة، ولكن شيئاً لم يستيقظ في داخله. إنه يفكر بما رآه قبل قليل، ونفسه تدفعه إلى الخروج. تثاءب بعد ذلك مرة أخرى، وأدرك أنه نعس. نظر إلى ساعته مرة أخرى: قرر أن ينام بعد الغداء، ولكنه ارتاب بوجود عادة تناول الغداء هنا. أدرك أن الأيام في اسطنبول مقسومة بشكل منتظم بحسب الأطعمة، وأن الأيام تنظم وفق تلك الفواصل. ترك بعد ذلك روسو بين الكتب الأخرى. وأشعل سيجارة. وبدأ يذرع الغرفة. ثم فكر: "سأعمل بعد الطعام، سأعمل كثيراً!" وفرح لأنه آمن بتصميمه.

27
الشاعر في بيه أوغلو

نزل محي الدين من الترامواي. عندما كان ماراً من أمام دورة المياه، كان عليه أن يعود إلى الساحة ببطء. فكر بأنه سيعود إلى الساحة ببطء، وينظر إلى الناس وهو يدخن سيجارة، ويشعر مع سم السيجارة التي في فمه بألم ممتع كما يفعل الآن أثناء عودته إلى الساحة بخطوات مرحة، وكما يفكر أثناء وجوده في مكتب الهندسة المدنية بأنه سيذهب إلى بيه أوغلو مساء، ويمشي هناك، ويشرب كأس مشروب على عجل، ثم يذهب إلى بيت الدعارة، وبعد ذلك إلى السينما. أثناء انعطافه من ساحة التقسيم كان يشعر بالمتعة لأن كل هذا قد اقترب. كان منفعلاً بوضوح، وحازماً، وخجلاً، وطفولياً. فكر: "كأنني أذهب إلى السينما مع أبي!" كان الملازم حيدر بيك مسلماً متعصباً، ولكنه كان يمر بفترات تسامح على هواه. فيأخذ ابنه مرة في الشهر إلى بيه أوغلو في فترة ما بين تقاعده وموته، ليدخله إلى السينما. فكر محي الدين: "لعل ذلك ليس بسبب التسامح، بل لأنه كان يحبها بشكل واضح!" ولكنه لم يبتهج. تمتم: "كان الملازم حيدر بيك موضوعاً معكراً للمزاج بالنسبة إلى المهندس محي الدين!" بعد أن مشى عدة دقائق، تذكر: "ها هو بيه أوغلو الحبيب!.. ووجوه الناس المتدفقة... انتظرت هذا طوال اليوم. بيه أوغلو الحبيب القذر، الدموي،

الغدار. أنا شاعر! أمشي ناظراً إلى الوجوه المحمرة من البرد!" كان ثمة برد آذاري حاد ومقيم. وكانت تهب ريح أحياناً من الشارع، فتطير أطراف معطفه. ولكن، لم تعد هنالك نساء. أما المارات بشكل نادر، فكن متأبطات أذرع رجال. كان محي الدين يتجنب النظر إليهن: تؤلمه رؤية امرأة جميلة بجانب رجل. ولكنه رغم هذا نظر إلى واحدة بجانب جامع الآغا. فوجدها جميلة: تأبطت ذراع رجل، ومشت بهدوء وانتباه. تذكر رفيقاً وبريهان. وجد في نفسه رغبة بالضحك: علم بذهاب رفيق إلى عمر من عثمان عندما اتصل به هاتفياً. كان صوت عثمان على الهاتف مهموماً ومندهشاً. كان يريد انتزاع معلومات من محي الدين حول جنون أخيه هذا، ولكن محي الدين لم يجد عنده الدافع لقول شيء. أيقول له: "إن أخاكم يريد أن يمنح حياته معنى!"؟ أم لو يقول له: "شقيقكم نادم لكونه ليس شاعراً مثلي، ولعدم وجود هدف معين لحياته، ويبحث عن هذا!"؟ يمكن أن يقول هذا ليكوي نفس هذا التاجر المستقر قليلاً، حتى إن بإمكانه أن يتمادى، ويقدم بعض النصائح، ولكنه لم يجد في نفسه الرغبة بهذا. وفوق ذلك فإنه لن يرى احمرار وجه عثمان خجلاً من ظهور أحد أفراد العائلة المفكرين بأمور من هذا النوع عندما سيقول له: "نادم لأنه لم يكن شاعراً".

كان يستمتع بتذكره قول رفيق: "أريد أن أكون شاعراً مثلك!" ولو أن أحداً آخر قال مثلاً إن جده كان شاعراً رابطاً هذا بنظمه بعض الرباعيات، لما اهتم محي الدين بهذا. كان ثمة حسرة واضحة وقوية في كلام رفيق تجعل محي الدين يدرك أن حياته تثير غيرة عنده كلما تذكر هذا، فيجد سلواناً. ثمة ضرورة لسلوانه، لاعتقاده أنه منبوذ من الحياة، وأن شاعريته قد باءت بالفشل. مضى على صدور مجموعته الشعرية ستة أشهر دون أي ردة فعل غير مقالة قصيرة ذات رؤية أبوية حنونة، ولكنها عدائية وماكرة حقيقة، نشرتها إحدى الصحف. وكلما خطر بباله أن مجموعته الشعرية قد باعت مائتين وخمسين نسخة، يتذكر تلك المقالة المزدوجة المعيار، والمهينة، ويفتش عما إذا كان قد أقدم على ما يغضب كاتبها

المسن حين التقى به في إحدى الخمارات، وعندما لا يؤدي هذا به إلى نتيجة، يستنتج أن شاعريته وحياته قد فشلت، وعندما تتكثف هذه الفكرة عبر الشهور يخطط للذهاب إلى بيه أوغلو طوال اليوم كما يفعل الآن. في آذار من عام 1938 كان في الثامنة والعشرين من عمره. وكان عليه أن يبدأ التفكير فيما إذا كان قد بقي مرتبطاً بقراره السابق حول الشاعرية والانتحار.

فكر محي الدين: "بعد سنتين سأكون في الثلاثين من عمري!" ودخل إلى الخمارة التي يدخل إليها كل مرة بدافع الاعتياد: اتخذ وجهاً بارداً من أجل ألا يسلم على الوجوه المألوفة له، ولا يترك نفسه لمراسم الخمارة السافلة. وضع النادل العرق والحمص المحمص الذي يجلبه له دائماً أمامه. بدأ بالشرب مسرعاً من دون أن يرفع رأسه.

كان في الثامنة والعشرين من عمره. لم يحصل على ما توقعه من الشعر، ولكنه لم يستطع أن يجد ملجأ آخر غير الشعر وبيه أوغلو. ولكن بيه أوغلو بدأ يثير اشمئزازه منذ الآن. كان يصغي لما يحكى على الطاولة التي وراءه، والتي أمامه. صحفي يعرفه من صوته يقول لامرأة تبدو من كلماتها أنها محترمة يحكي كيف قال كلمة حادة. هناك شخص آخر جالس على الطاولة نفسها كان يقول: "ما أجوع عينه من شخص، ما أجوع عينه من شخص!" وكان أحد الجالسين إلى الطاولة الخلفية يحكي عن سياسي يعرفه عن قرب، بأنه كم كان مسكيناً عندما كان طفلاً. كان عليه أن يذهب إلى خمارات بشك طاش المتواضعة، وليس إلى خمارات بيه أوغلو، ولكن النساء لسن قريبات من بشك طاش. وفوق هذا كان يذهب إلى هناك من أجل أن يلتقي الطالبين العسكريين.

أنهى محي الدين كأسه، ودفع الحساب، وأثناء نهوضه عن الطاولة، فكر: "سأقتل نفسي في الثلاثين من عمري!" لحظة خروجه من الباب قابل متعهد إنشاءات مسن يعرّج على مكتبه الهندسي كثيراً. وقد ابتسم للمسن بمحبة فقط دون تفكير بشيء، لمجرد اعتقاده أن هذا هو التصرف

المناسب إزاء المسنين الناظرين بحرارة أمثاله. أدرك بعد ذلك أنه يريد معاقبة نفسه بسبب شعور تأجج في داخله، وتذكر قول عمر يوماً ما: "أنت لا تستطيع قتل نفسك!"

كان في الشارع مرة أخرى. وقد امتزج العرق الذي شربه على عجل بدمه. تتدفق وجوه الناس، تنعكس على الوجوه أضواء ملونة وميتة متدفقة من الواجهات، وملصقات السينما، ومصابيح المطاعم. "هل سأقتل نفسي في الثلاثين من عمري؟" انعطف إلى أحد الأزقة. تأجج الإحساس بالاشمئزاز والخوف الذي يكوي قلبه كلما دخل إلى هذا الزقاق، وسار مفكراً بأن الأرصفة، ونقع المياه على بلاط الطريق تعكس الأضواء الحمراء، وبيه أوغلو قبيحة، وأنه بائس مسكين خواف على وشك الانهيار. رأى البيت القديم المؤلف من ثلاثة طوابق. دخل متخذاً الموقف المعهود اللامبالي، وغير المنفعل كأنه يدخل إلى بيته. نظر إلى المرأة التي فتحت الباب نظرة خاوية، وصعد الدرج، ورأى النساء الجالسات على أرائك في بهو صغير مضاء، ورأى أيضاً أن النساء قد رأينه، وقد فرحت إحداهن فأشارت إليه إشارة ناشزة وفاضحة، وضحكت الأخريات، ولم يرغب هو بالتفكير. ومن دون رغبة بالتفكير، دفع لأحدهم نقوداً راغباً بأن يتسرع اختلاط العرق بدمه، صعد الدرج. ودخل إلى غرفة قذرة مخنوقة لا نافذة لها، منارة بمصباح أحمر. أعطى بقشيشاً لأحدهم، وقال له إن عليه أن ينتظر قليلاً من دون انفعال أو مبالاة، وجلس على أريكة بجانب السرير. وفكر: "ستأتي بعد قليل!"

أسند رأسه إلى الخلف، ودلى يده من أحد الطرفين، جالساً يصغي لقلبه كمسن أصيب بنوبة قلبية، ناظراً إلى مصباح أحمر يتدلى من سقف الغرفة القذرة والكريهة الرائحة. كان المصباح شيئاً أحمر قذراً. يثير في الإنسان شعوراً بالبرودة رغم أنه منار. بدأ محي الدين ذات مرة بقصيدة عنوانها: "المصباح الأحمر" ولكنه لم يكملها لإدراكه أن ما تصوره يحتاج إلى صراحة، وصدق غير محدود. ولم يقرر هذا لأنه كان ازدواجياً يحب إخفاء نفسه، بل لاعتقاده أنه يعيش في وسط تفسر فيه الصراحة من هذا

النوع انحرافاً، وأن قصيدة كهذه في هذا الوسط ستتسبب بفضيحة، ولن تفسر بغير الرغبة بجذب الاهتمام. ولكنه الآن، وهو جالس وحده، شعر مرة أخرى بأنه يجب أن يكون قاسياً على نفسه، واعتقد أنه لم ينه القصيدة التي أرادها بسبب الجبن والازدواجية. إنه الآن حاد نحو نفسه: وفكر بأنه لن يستطيع قتل نفسه في الثلاثين من عمره؛ وأنه ازدواجي؛ وشاعر سيئ، ومحتال جيد؛ ويخاف قليلاً من انتقال المرض إليه من المرأة التي ستأتي بعد قليل. ولكنه يمتلك الذكاء الذي يخفف فكرة المرض. كلما سيطرت عليه هذه الفكرة كان يتذكر بودلير. ثمة عاملان صنعا بودلير الفرنسي البائس المتوسط الحال المنبوذ اجتماعياً: الوحدة، والزُهري!... وفكر: "أنا شاعر وحيد، متشائم، ذكي، متعطش للحب مثل بودلير! صداقتي الوحيدة للعاهرات مثل بودلير؛ الأمر الوحيد الذي ينقصني بالمقارنة مع بودلير هو الزهري. إذا التقطته يغدو الأمر على ما يرام!" قال هذا على عجل أثناء نظره إلى المصباح الأحمر ليتملص من مخاوف الأمر المقترب منه. سمع بعد ذلك صوت امرأة تدندن بأغنية وهي تصعد الدرج. استمع لوقع القدمين، ولكن الأغنية عبرت، ولم تتوقف عند بابه. فُتح بعد ذلك باب الغرفة المجاورة مصدراً صريراً. يجب أن يكون هنالك واحد مثله. فكر محي الدين: "هن صديقاتي الوحيدات!" حاول تذكر وجه المرأة التي ستأتي، ولكنه لم يتذكر شيئاً كثيراً. خطرت بباله وجوه نساء أخريات. خطر وجه زوجة شريكه القادمة اليوم من التسوق إلى المكتب. كانت امرأة عادية سمراء في الثلاثينيات من عمرها. فجأة استيقظت مشاعر استخفاف في داخله. فكر: "أفكر بزوجة شريكي، لأنها لا تشبه الأميرة التي في خيالي!" وضحك. كان يستهين بالنساء اللواتي لا يشبهن الأميرة التي في خياله كلهن. شريك محي الدين الذي بذل جهوداً موترة للأعصاب من أجل تزويجه، حاول أن يتهمه ذات مرة بأنه عدو النساء ممازحاً، وصد محي الدين شريكه بكل ما أوتي من قوة متذكراً كم يحترم الأميرة التي في خياله، ورد عليه رداً قاسياً، ثم غضب من نفسه. "هن صديقاتي

الوحيدات!" أعتقد أحياناً أنني أحترمهن أكثر من النساء كلهن. عندما تسيطر عليه فكرة كهذه، يؤمن أن تلك النساء لم يقعن في وضعهن الحالي نتيجة الفقر أو اليأس، بل هو نتيجة خيارهن الواعي لأنهن لا يرغبن عمل ما تعمله الأخريات، ولا يعطين قيمة لقواعد المجتمع. انتبه إلى وقع أقدام يصعد الدرج، فانفعل. سيطر عليه القلق مع الانفعال. بعد ذلك، فكر بما يفكر به دائماً على عجل: "لن آتي إلى هنا مرة أخرى!.. سأعمل أكثر! يجب ألا آتي إلى هنا مرة أخرى!"

توقف وقع الأقدام بجوار باب الغرفة. سأل صوت المرأة المبحوح والمخنوق الذي يعرفه محي الدين عن قرب دون محاولة إخفاء نفسه: "صغير العينين العائد لي هنا؟"

أجابها رجل. اعتاد محي الدين على هذا ولم يعد يهتم. سمعه من قبل. عندما جاء أول مرة قبل ستة أشهر... والأمر لا يبقى عند حدود عدم الاهتمام، بل إنه يستمتع غالباً: كان يجد عطفاً غير واضح تماماً، وأمومة في صوت المرأة. "صغير العينين العائد لي!"

فتح الباب، سقط ضوء أحمر على وجه المرأة. تقمص الوجه تعبيراً مزوراً كما في كل مرة، وقال لمحي الدين: "آه منك يا شبق، آه!" واتخذ محي الدين تعبير الخجل. ستتكلم المرأة بعد قليل، ويسأل أحدهما الآخر عن حاله، ثم تقول المرأة وهي تخلع ثيابها: "هل أخرتك؟" نهض محي الدين فجأة، وأمسك المرأة من كتفيها، وسألها: "هل أستطيع قتل نفسي أنا؟"

قالت المرأة مندهشة: "هل ستقتلني؟" وانتفضت خائفة، وتملصت من بين ذراعي محي الدين. "ما هذا الكلام؟" ونظرت إلى محي الدين كأنها تنظر إلى مجنون، ولكنها لم تخف كثيراً على ما يبدو. يبدو أنها معتادة على أمور من هذا النوع.

لم يقل محي الدين: "لا، ليس أنت، بل نفسي!" ولوى رقبته.

28
تمضية الوقت

ثمة عاصفة ثلجية في الخارج. كانت الريح ترجف النوافذ، وتجعل المدخنة تهدر، وتغطي على صوت المذياع. وقطب الهر رودلف، أو الهر فون رودولف حاجبيه مع تصاعد الهدير، وقرب أذنه من صوت المذياع الناري، صوت هتلر. عندما ثقلت كلمات هتلر إلى حد عدم إمكانية نقلها إلى الآخرين، خجل المهندس الألماني، ونظر إلى يديه الموضوعتين على ركبتيه، وأدرك رفيق أن كلمات تدعو إلى القلق تدفقت من المذياع. كان هتلر في فيينا. الهر رودولف يترجم لضيوفه ما يسمعه من المذياع. كان رفيق ينظر إلى الثلج الذي يصفع النافذة، ويتثاءب بين فينة وأخرى، ويدقق بوجه الهر رودولف منتبها. نظر الهر رودولف إلى يديه خجلاً مرة أخرى، وقطع صوت هتلر. سُمع صوت مذيع يثير الاحترام، ثم أصدر المذياع الذي قوى المهندس الألماني قدرة التقاطه بإمكانياته الخاصة حشرجة، وشخيراً، وبدأت نغمة فالس: الدانوب الأزرق.

قال الهر رودولف: "ها قد تم الأمر! المانيا ابتلعت النمسا. استقبل هتلر في النمسا بانفعال..." ترجم المهندس الألماني بلغته التركية المتقنة التي يتكلمها منذ عشر سنوات الأخبار: في أسبانيا اقترب أنصار فرانكو من النصر، وفي فرنسا بدأ فشل الحكومة، في تشكوسلوفاكيا ازداد التوتر.

سأل رفيق: "حسنٌ، ماذا سيحدث الآن؟"

نهض عمر وهو يقول: "لن يحدث شيئ! سنلعب الشطرنج. أليس كذلك يا هر؟" وأخذ الرقعة من فوق الخزانة، ووضعها على الطاولة الصغيرة.

قال المهندس الألماني: "صديقكم إنسان عملي كما ترون، الخوف المطبق على أوربا لا يهمه بشيء. ما يهمه هو الشطرنج فقط..." وأضاف بابتسامة خجولة: "ولكنني لا أعد مختلفاً عنه بهذا."

قال رفيق: "العبا أنتما يا عزيزي إن أردتما! أرجوكما، العبا."

قال الألماني: "لعبة واحدة!" واحمر فوراً. نهض بانفعال، وجلس إلى الطاولة الصغيرة. عندما دخلا قبل ساعة، قال رفيق ممازحاً إنه يريد الحديث، وليس الشطرنج.

قال عمر: "المصارع المهزوم لا يشبع من المبارزة!" وكان يتذكر اللعبة قبل يومين.

كان عمر ورفيق يجيئان كل يومين أو ثلاثة لزيارة المهندس الألماني. فيفرح المهندس الألماني كثيراً عندما يراهما. كان وحيداً. جاء من ألمانيا قبل عشر سنوات للعمل في خط سيواس - صمصون، ثم بدأ بالعمل في خط سيوس - أرظروم. وقرر عدم العودة عندما رأى أن هتلر قد سيطر على ألمانيا. ثمة أمور أخرى على الأغلب: فقد قال ذات مرة إنه لا يحب والده الجنرال النبيل، ويكره التعصب الألماني. وهذايوضح عدم عودته إلى ألمانيا إضافة إلى مبلغ النقود الكبير الذي يكسبه في تركيا.

حين سحب رفيق كرسيه إلى جوار الطاولة الصغيرة، سأل من جديد: "ما رأيكم؟"

قال الألماني: "لن أستطيع العودة إلى بلدي بعد الآن! لن يشن هتلر حرباً إذا منحته أوربا ما يريد، ولكنه لن يتخلى عن حكم ألمانيا أيضاً."

قال عمر: "جيد هذا! تبقون هنا. لا أدري كيف ستذهبون بعد عشر سنوات أساساً! أنتم تعدون شبه تركي!"

قال المهندس الألماني: "هه، لا تضحكوني! تضحكونني، فأخسر."

خيم صمت طويل. لا يسمع غير صوت الدانوب الأزرق، والعاصفة. فيما كان رفيق ينظر إلى رقعة الشطرنج.

بعد إن لعبا من عشر إلى اثني عشرة حركة، حرك عمر حجره بشكل سريع إثر حركة للهر رودولف، وتبين أنه توقع هذه الحركة من المهندس الألماني مسبقاً، وفكر قبلها طويلاً. تمتم المهندس الألماني بعبارات تمزج بين التركية والألمانية، وتأوه، ونفخ، وفتل غليونه الذي لا يتركه من يده، وعندما دخل الخادم جالباً الشاي، أدرك أنه خسر اللعبة، ونظر إلى رقعة الشطرنج حزيناً مبتسماً ابتسامة حزن وانسحاق.

قال عمر وهو ينهض: "قدموا لنا كونياكاً يا هر!" وجلب الزجاجة، وأتى قبل انتظار جواب صاحب البيت. قولوا لي أيضاً: "لماذا يبدو لكم مضحكاً كونكم شبه تركي؟"

قال المهندس الألماني: "لأنني مختلف عن الأتراك!" وصار وجهه الذي يحمل آثار الهزيمة غاضباً.

سأل رفيق: "إلى أين ستذهبون من تركيا؟"

"إلى أمريكا!"

قال عمر مرحاً: "حسنٌ، لماذا لا تبقون هنا؟"

"لأن هذا البلد لا يناسبني!"

"لماذا؟ أنتم هنا منذ عشر سنوات. اعتدتم..."

قال الهر رودولف: "لعل جسدي اعتاد، ولكن ليس نفسي." ووضع يده على قلبه بحركة انفعالية.

قال عمر: "لمَ لا تعتاد؟ ثمة أناس كثيرون هاربون من ألمانيا مثلكم في اسطنبول. لماذا لا تكونون مثلهم؟"

"أنا أتحدث عن نفسيتي."

"يقول النفس! لا تعجبكم ظروف الحياة هنا. تريدون بعد الآن طمأنينة. جئتم لرؤية تركيا التي رأيتموها ذات مرة في طفولتكم حين زرتموها مع والدكم، بقيتم فيها فترة، وكسبتم أموالاً، والآن تهربون إلى الراحة!"

قال الألماني: "لا، لا!" واحمر وجهه أكثر. "ما قلتم إنها فترة، هي عشر سنوات. أغضبتموني، سأخبركم: أنا لا أحب هذا الشرق. أنا لا أحب هذا الجو هنا، وهذه النفوس الغريبة غير المنسجمة مع نفسي أبداً. كم مرة قرأت لكم هذا، وترجمته، وكتبته، وقرأتموه..." قرأ لرفيق من الذاكرة منفعلاً هولدرلين الذي أعطاه لرفيق سابقاً ليقرأه. استعاد الجمل واحدة واحدة بعد ذلك، وترجمها إلى التركية: يشبه الشرق مستبداً رائعاً، يسحب الإنسان إلى الأرض بضوئه القوي والمبهر، فيضطر لتعلم الركوع قبل المشي، والدعاء قبل الكلام! كم مرة قرأت هذا عليكم، ووجدتموني محقاً، ماذا يحدث الآن؟"

"نحن نتحدث يا هر! نحن نتكلم لنمضي الوقت. ما الداعي للغضب، إننا نتكلم. ولكنكم تستخفون بنا أيضاً... هل هذا كذب؟ إنكم تعيدون كلام هذا الشاعر المجنون، وتهينوننا. هكذا..."

"أنا لا أستخف بأحد. أقول إنني لم أنسجم مع نفسية الشرق. وأقول هذا دائماً..."

"حسنٌ، ولكنكم تقولون دائماً إنكم تتفاهمون معي؟"

"طبعاً، لأنكم لستم منهم! ألم تسألوني عما إذا كنتم تشبهون راستنياك؟ أنتم أيضاً لا تنسجمون مع نفسية هذا البلد..." وأشار الهر رودولف إلى رفيق منفعلاً: "أنتم لا تستطيعون الانسجام طبعاً، أنتم أيضاً! لا أحد بيننا يناسب هذه الأرض التي نعيش عليها. دخل الشيطان بينكم مرة، سقط شعاع ضوء العقل إلى نفسكم، صرتم غرباء، إنكم غرباء مهما فعلتم. ثمة عدم انسجام بين العالم الذي تعيشون فيه ونفوسكم، أعرف هذا، وأراه جيداً. إما أن تغيروا العالم، أو تبقون خارجه!" التفت إلى رفيق، وسأله: "ما هي أوضاع عملكم؟.. هل أنهيتموها، وقررتم العودة إلى اسطنبول؟"

قال رفيق: "لم أقرر أي شيء!"

قال رفيق كأنه يئن: "ها هو، انظروا، شعاع ضوء العقل لا ينسجم مع الشرق... لا تستطيعون أن تكونوا مثل المحيطين بكم. تذكرون لي روسو... ولكن العالم الذي تعيشون فيه مختلف تماماً!"

"حسنٌ، ماذا أفعل؟"

قال عمر: "انتظر لنرى! لا تتحدث عني... أنا أعرف جيداً ما سأفعله... يختار الإنسان هدفه، ويخطط، ويمشي بإيمان. هذا كل شيء... ليتكلم كل شخص عن نفسه!"

قال رفيق: "حسنٌ، حسنٌ!" تمتم بعد ذلك: "لم أقرر شيئاً!" كان يقرأ كتب الاقتصاد التي جلبها معه طوال الأسابيع الأربعة التي قضاها هنا. ويفكر بالاقتصاد التركي، وقطاع الدولة، والثورات، ويكتب أموراً ما، ويناقش ما يفكر به ويكتبه مع الهر رودولف، ويريد الوصول إلى نتيجة من كل هذا، ولكنه لم يستطع لملمة أفكاره بعد، وأدرك أنه لن يستطيع استجماعها بسهولة.

قال الهر رودولف: "لا تتخلوا عن العقلانية! ستتهارون إذا تخليتم عن العقلانية!" وكان يشرب الشاي بالكونياك بسرعة مثل عمر.

فكر رفيق: "ما الذي تدعونه عقلانياً؟.. الصحة والتوازن، عدم خلط انفعالاتي ودوافع أفكاري. يجب أن تكون أمور كهذه... لماذا يقول هذا؟ هل يساعدني هذا المدعو عقلانية على إيجاد طمأنينتي السابقة في بيت نيشان طاش؟ هل يمكنني التخلص من عذاب ضميري، ومتاعبي، والاستمرار مع وعيي الحالي بحياتي اليومية السابقة؟... لا!" وتذكر فجأة حياة بيت نيشان طاش. فكر ببريهان وابنته... وبدا كأنه يسمع تكتكة الساعة عند الدرج.

"ولكنكم اعتبرتم هولدرلين محقاً!" مازال الهر رودولف حيث هو. حزن لأن عمر بدا معارضاً لكلمات هولدرلين التي لم يعارضها حتى الآن. وفي أثناء خروجه من الغرفة لجلب الشاي، قال: "طعنتموني من الخلف!" وأضاف عندما دخل حاملاً الصينية: "فوق هذا، قلتم إنني أريد حياة مريحة. ما الذي ينقصني هنا؟ لدي مولد كهربائي، وخادمي الذي مازال ينتظرني حتى الآن في المطبخ... حياة مريحة، ها؟... أنتم أيضاً راستنياك آخر!.."

وسُمع عواء ذئب من الخارج.

قال الهر رودولف: "ستنامون هذه الليلة هنا بعد الآن!" سار نحو النافذة، والصق وجهه على زجاجها. أسند يديه على طرفي عينيه، ونظر إلى الظلام.

صرخ عمر: "نحن، نحن لا نبقى في بيت المستخفين بالأتراك!"

كم كان عمر جدياً، وكم كان مازحاً! لم يستطع رفيق فهم هذا، ولكنه فهم أن الهر رودولف قد غضب كثيراً. انسحب الألماني من جانب النافذة، ونظر إلى عمر بوجه غاضب ومحمر. لم يكن محمراً لأنه ألماني تغذى جيداً، بل لأن نفسه قد كويت، وغضب.

"أنتم، تدعون السرور من القول إنكم راستياك... لا، لا يمكنكم أن تكونوا هكذا." وجلس على أريكته بحركات انفعالية. فتل غليونه، وأشعله، وصمت فترة وهو ينظر إلى يديه، ثم بدأ من جديد: "ها أنا أقول إنكم لا تستطيعون أن تكونوا هكذا. بلدي ونفسي في نهاية طريقي، أما أنتم فهي في أوله... نفوسكم شابة لأن شعاع الضوء الذي ذكرته قبل قليل قد سقط تواً... ولكنه لن يجد الفرصة للنضج... لا أدري كيف تنتش البذرة التي جعلت منكم راستياك في هذه الأرض، في أرض الشرق القاسية الظالمة هذه... لو كان عندكم بعض المخاوف الأخلاقية مثل رفيق على الأقل... إيه، لماذا تنظرون إلي هكذا؟

قال عمر محتداً: "مازلتم تستخفون بنا! لن أستمع إليكم. لم تتركوا شيئاً مما خطر ببالكم لم تقولوه عندما أفلت من لساني كلمة (فون)..."

قال الألماني: "ليس هذا كل ما خطر ببالي... أنا قلق عليكم... أنا عبرت الأربعين عاماً من عمري... وأعرف ما سأفعله بعد الآن. مدينة في أمريكا، وقليل من الهندسة، وكتب، وموسيقا... ولكن أنتم... طموحاتكم غير مناسبة لهذه الأرض... لأنني أعتقد أن هذا التراب قديم، ولم يُنظف من الأعشاب الضارة، والأشواك. كانت الثورة الفرنسية الدموية تقف خلف راستياك بلزاك. هنا؟ مازال هنا السيد الأكبر هو كريم ناجي بيك... هنا أكبر معلم لإنشاءات السكك الحديدية كلها هو آغا ملك زراعي... وهو متعهد السكك الحديدية، ونائب برلماني... لم يبق لكم شيء يا عزيزي... هه، هه... إذا كانت الأعشاب والأشواك العجوز قد أمسكت كل شيء، فماذا ستفتحون يا هر فاتح؟"

قال عمر: "أنا أعرف ما سأفعله! أنا أعرف، لا تتدخلوا أنتم، اصمتوا!"

صمت الهر رودولف، ولكن الانفعال والاستفزاز مازال على وجهه. ملأ فنجانه بالكونياك مباشرة من دون شاي، وبدأ يشرب بسرعة. وساد جمود.

قال عمر: "لم تهدأ العاصفة بعد!" وتمطى بحركة مريحة كأن شيئاً لم يحدث. نهض واقفاً، وقال: "لنسمع قليلاً من الموسيقى على الأقل!" والتف إلى الألماني: "هل تأخر الوقت؟ لنذهب نحن إن أردت."

قال الهر رودولف: "اجلسوا، عفوكم!" كان الانفعال مايزال على وجهه لم يهدأ. "إذا بحثتم عن برلين جيداً يمكنكم أن تجدوها... سيبثون في هذه الأيام موسيقى فالس بعد هذا."

بدأ عمر يعبث في المذياع. وبعد قليل، وجد ما يبحث عنه. ملأ الغرفة فالس حلو لطيف.

سأل هر رودولف على عجل: "أنتم لا تفكرون بأنني أستخف بكم، اليس كذلك؟"

قال عمر: "لا أفكر، ولكنكم جرحتموني!" وصمت فترة، ثم أضاف: "ولكن اعترفوا بأنكم استهنتم بشيء ما هنا."

قال المهندس الألماني: "نعم، نعم! يوجد: كريم ناجي بيك. أنا أكرهه. الجميع عمالاً، ومعلمين، ومتعهدين ثانويين معجبون به... يؤلف الجميع عنه قصصاً... مثل أبي الجنرال... يعشقه الجميع: يمتدحون ركوبه الحصان، وثروته، ومشيته، ووسامته... إنهم كالعبيد أمامه، ويمتدحونه... ماذا يفعل هو؟ لا شيء! عنده أراض لا نهاية لها في إسكي شهير! إنسان طيب، نائب، رامي جيد... رامي، سيد طيب يداعب شعر عبده! يلفقون عنه أساطير. تباً للأساطير! اصبحنا نعيش في عصر العقل. لماذا يُعجب الناس حتى الآن بهذه القوى الظلامية؟"

قال عمر: "أنا لست معجباً به! وأنا أكره هذا الرجل المعجب بنفسه، الحنون، !"

قال المهندس الألماني: "هذا هو الأمر الغريب عن نفسيتي! عقلي لا يعتاد على هذا أبداً... يعملون من أجله اثنتي عشرة ساعة، ويعجبون به... يتحدثون

عن فروسيته، وتواضعه... يؤمنون به... يكادون يعملون من أجله حباً وإيماناً... لا أستطيع فهم هذا... هذا غير موجود في أمريكا!.. هناك أيضاً يعمل الناس، ولكن ليس إيماناً وإعجاباً... لعل الناس هنا أسعد لأنهم يعملون إيماناً، ولكن عقلي لا يقبل أساطيرهم وكذبهم... هل استطعت أن أوضح لكم؟ أريد أن يكون العقل مسيطراً على كل شيء. أنا لا أستخف بكم!.. كيف أستخف بكم؟ وأنا أستخف بكريم ناجي بيك..."

قال عمر: "حسنٌ تفعلون!"

"اضحكوا لنرى، اضحكوا. انزلقت قبل قليل من لسانكم، إنكم تغارون مني لأن نفسي شابة... لأنني أحمل طموح فاتح، أو أنني أقول هذا مؤمناً... لأنكم لا يمكن أن تكونوا هكذا... ولكنكم تفقدون قلبكم!"

ولكي يهدئ رفيق النقاش الحامي: "لا يا روحي، كفى!"

قال الألماني: "لا تقلقوا، أنا لست غاضباً! إنني لا أغضب منه حتى لو قال من جديد إنني (فون). لأنني أعرفه.

قال عمر: "طبعاً سأقول إنكم فون!" ولكنه لم يكن يبدو مشاكساً. التفت فجأة: "ما قولكم الآن بلعبة شطرنج؟ أخبروني عن هذا!" رأى الألماني ينظر إلى رفيق: "هو لا يقول شيئاً يا روحي. إنه مشغول بأفكاره، ويشرب مشروباً... نحن نلعب. هو يشرب، ويغوص في أفكار عميقة، ويروح ويأتي بين بيته الحبيب، وبلده الحبيب. ونحن في هذه الأثناء نقوم بعملنا!.." التفت إلى رفيق: "لم تغضب ياه؟"

"لِمَ أغضب يا روحي! أنتم العبوا!"

"نلعب، ثم ننام هنا، أليس كذلك؟"

صرخ الهر رودولف: "تمام، نعم!" بعد ذلك، توقف فجأة كأنه أقدم على شيء غير لائق، وقال: "العالم يغلي، ونحن نلعب الشطرنج! نعم! إيه، ماذا نفعل؟ حدث ما حدث فوق رأس النمسا... ولكننا ماذا يمكن لنا أن نفعل؟"

29
دفتر المذكرات II

الاثنين 14 آذار 1938

ذهبنا مساء البارحة إلى الهر رودولف مرة أخرى. جلسنا حتى ساعة متأخرة، واحتسينا مشروباً. كان ثمة عاصفة أيضاً، فبقينا ليلاً هناك. لعب عمر ورودولف الشطرنج، ووخز أحدهما الآخر كالعادة... ثم تحدثا، وتحدثنا. قرأ رودولف مرة أخرى من ذاكرته نص هولدرلين. وفسر نفسية الشرق وفق ما يقوم به عمر. وقدم رؤى حولي أيضاً. نصحني بعدم الحياد عن العقلانية. ما هذه المدعوة عقلانية؟ هل هي فصل أفكاري عن مشاعري وانفعالاتي؟ إنه يخز إعجابي بروسو على الأغلب... ولكنني أفهم ما يسميه تنويراً، وأجد تفسيره بعدم مواءمتي مع الأرض التي أعيش عليها صحيحاً. الحديث مع هذا الألماني ممتع! مازالت العاصفة مستمرة منذ البارحة... أفكر بالأمور نفسها. متى أعود إلى البيت، وكيف؟

19 آذار

هدأت العاصفة البارحة. أنا أقرأ. مضى أكثر من شهر على مغادرتي البيت، ولكنني لم أعد حتى الآن. يجب أن أكتب رسالة، أو أن أقرر، وأعود إلى البيت. أفكر: لماذا أنا هنا؟ اعتقدت بأن تبديل المكان، والابتعاد

عن البيت شهراً سيفيدني. لا أستطيع الاستمرار بحياتي السابقة في اسطنبول. الأمور هكذا، أعرف، ولكنني ماذا أنتظر؟ لا أعرف. عندما انطلقت في الطريق، أدركت أنني كنت مؤمناً بأن الأمور كلها ستحل، وبأنني سأحظى بطمأنينتي السابقة خلال شهر. والآن أدرك أن شيئاً كهذا ليس سهلاً إلى هذا الحد. سأكون غير مطمئن، وقلقاً من جديد. كان ثمة فائدتان لمجيئي إذاً: 1 - الابتعاد عن البيت، والنظر إلى كل شيء من بعيد قليلاً. ورؤية أن هناك عالماً آخر أيضاً. 2 - إيجاد الطاقة والراحة التي تجعلني أمنح نفسي لهذه الكتب التي أقرؤها.

الثلاثاء 22 آذار

كتبت رسالة تبلغ أنني سأعود إلى البيت بعد شهر. شرحت أنني عملت هنا على بعض الدرسات، وقضيت يومي كله هنا بالتفكير والقراءة، وأنني أخشى من عدم إكمالي ما بدأته إذا عدت إلى البيت فوراً. سأكتب رسالة إلى بريهان أيضاً. فكرت أن عدم الكتابة لها طوال شهر هو عبث. كان الذنب ذنبي في الشجار الذي نشب بيننا. أساساً كان الشجار ذريعة. البارحة تحدثت مع عمر عن هذا، ووجد أن رأيي صحيح، وقال علي أن أكتب لبريهان فوراً. تحدثت مع عمر بأمور أخرى أيضاً. سأل عما أنويه. شرحت له: سأعمل حتى استنتاج المفيد مما أقرأ. ما الذي يجب أن يُعمل من أجل تنمية الريف؟

26 آذار

كتبت رسالة لبريهان أيضاً، وارتحت. كتبت لها إن الذنب ذنبي في كل المشاجرات التي جرت بيننا، وقد كنت خلال السنة الأخيرة مشاكساً، مشاجراً، متوتراً، وقد فهمت أن سبب هذا هو تفكيري بنفسي. ورجوتها أن تمنحني قليلاً من الوقت لأعمل هنا قليلاً، وأن تتفهمني. والآن أكتب هذا براحة داخلية لم أشعر بها منذ زمن طويل. قلبي مرتاح. أفكاري صريحة، أو أعتقد أنها كذلك. أستطيع تحديد مستقبلي. أو على الأصح، أدرك أن مستقبلي بيدي. أرى أن حدوث أشياء سيئة أو جيدة، سعيدة أو تعيسة،

وشعوري بالطمأنينة أو القلق كله بيدي، أو مرتبط بما سأفعله. ليس ثمة قوة خارجة عني تحدد حياتي. أصبحت أعرف أيضاً أنني لست إنساناً ذكيا جداً.

السبت 2 نيسان

إنه يوم مشمس كأول يوم جئت فيه إلى هنا. ليس ثمة عمل كثير يقوم به عمر أيضاً. نزهنا الحاج قليلاً. مشينا أربعة أو خمسة كيلومترات باتجاه إرزنجان، حتى محطة قطارات ألب. ثمة مزرعة عمل فيها الحاج وكيلاً بعد المحطة بقليل. تعيش هناك زوجة الحاج، وابنته الجميلة، وابنه الكبير. المزرعة والأرض لشخص نفاه عبد الحميد إلى كماه، ومنحه منصب قائم مقام. وعندما مات اقتسمها الورثة. وبيع جزء منها. ويعمل الحاج وكيلاً على جزء آخر منها، ولكنه تركها فيما بعد. القصر الظريف جداً ذي التزيينات الرفيعة الذائقة، الخشبي القديم يتفسخ. تقيم عائلة الحاج في الطابق الأسفل. صادفنا حيواناً في طريق العودة. له ذيل ضخم وغليظ. قال الحاج إنه ثعلب. وهرب في الوقت الذي سدد فيه الحاج بندقيته. الحاج أيضاً رجل عجيب، لم أستطع فهمه. سيبدأ قريباً بالعمل في الجسور، وفي الهواء الطلق على الأغلب. بدأ التحضيرات الأولى. تحدثت مع عمر قبل قليل. قال إنه يخاف ألا ينتهي التعهد في وقته، ولكن هنالك وقت طويل. أشعر بتعب لذيذ، وأتثاءب باستمرار، سأنام...

الجمعة 8 نيسان

ذهبنا إلى رودولف. ثرثرنا. أنا أيضاً لعبت الشطرنج. غلبني رودولف، وفرح كثيراً. دار الحديث بعد ذلك حول الأمور نفسها. يقول رودولف إنه فضولي لمعرفة مستقبلنا، عمر وأنا. هل أنا مخبول؟

12 نيسان

يبدو أنني سأستنتج أموراً مما قرأته، ودونته من ملاحظات. ما الذي يجب عمله من أجل تنمية الريف في تركيا؟ أعتقد أنه يجب عمل ما يختلف عما سبق حتى الآن لتخليص القرى من ظلام العصور الوسطى، وإدخالها

بعلاقة مع المدن والثورات... ثمة أشياء يجب تناولها في إطار قطاع الدولة! أما الثورة والتنظيم ليست كافية لحل كل شيء. وليبرالية الدولة والفرد أيضاً... أكتب أشياء خاصة بي، وأفكر بأمور مختلفة ومعقدة، أكتبها، ثم أطورها. أفرح كثيراً عندما أعتقد أنني ابتكرت شيئاً ما، وانهض عن الطاولة منفعلاً، وأبدأ بالمسير في الغرفة رواحاً ومجيئاً، ثم يخطر ببالي أمور أخرى، فيتلخبط عقلي أكثر. وفجأة تتجلى أمام عيني مشاهد. مثلاً كما حدث معي قبل قليل، زواجنا بريهان وأنا، أو إنسان غير متوقع رأيته في مكان ما، وزمن ما. أريد أن أذهب بأفكاري حول قضية تنمية الريف إلى النهاية، وأكتبها بعد ذلك في يوم ما، وأعطيها لأحدهم... لمَ لا يكون عصمت باشا؟ يمكنني أن أراه في جزيرة هيبلي. أو شخص آخر... سليمان آيتشليك؟ أجد نفسي خيالياً رغم تفكيري بهذه الطريقة. لعلني أشعر بالضيق قليلاً عندما أستيقظ صباحاً، ولكن هذا كل شيء.

16 نيسان

وصلت رسالة من بريهان. إنها قصيرة تبلغ صفحتين. من يعلم كم مرة قرأتها طوال اليوم. تقول: "يمكنك أن تعود متى شئت، وهذا أمر تقرره أنت، ولكنني أريدك أن تعود في أقرب وقت ممكن، وإلا تتركني وحدي مع الطفلة هنا!" لم تفكر أبداً بمغادرة البيت، والذهاب إلى أمها، وتعرف أنها محقة في موضوع الشجار. وإدراكي أنني على خطأ في الشجار أمر جيد... وتحدثت عن الطفلة في الرسالة القصيرة... لم تتهم أحداً. استخدمت جملاً متوازنة تماماً لكي لا تجرح كرامة أحد، وشعرت بدافع في نفسي للعودة إلى اسطنبول فوراً، ولكن هذا يعني ترك كل شيء قبل أن ينتهي. حسنٌ، متى سأعود؟ مضى على مجيئي قرابة شهرين، ولم أتقدم كثيراً... أنهض في السابعة صباحاً. أتناول إفطاري حتى الثامنة، وأخرج في مشوار قصير مهما كان الجو. أعمل حتى الساعة الواحدة. بعد ذلك الطعام، وقيلولة قصيرة. وأعمل حتى السادسة بعد الظهر، أو بعد مغيب الشمس بقليل. بعد ذلك،

طعام العشاء. وبعدئذ إما زيارة رودولف، أو قراءة كتاب كما أفعل اليوم... فولتير، روسو... كتبت بريهان أنها ستشتري الكتب التي طلبتها، وترسلها. إنني خجل في الحقيقة، خجل كثيراً، ولكنني ماذا أفعل؟

26 نيسان

الربيع! بدأ عمل بناء الجسور في الهواء الطلق. غرف البراكة الأخرى امتلأت بالقادمين من المهندسين الجدد. لم نعد نستطيع استخدام الغرفة كما كنا في السابق. جاء ثلاثة أشخاص، تعارفنا. دهش هؤلاء الناس عندما عرفوا أن لا علاقة لي بالعمل. يريدون معرفة ما أفعله. الشرح ممل... أغدو قلقاً. ويبدو أن أنور وصالح يقدمان تصريحات ساخرة.

27 نيسان

تعرفت إلى كريم ناجي بيك الشهير. كان يتجول على حصانه. يبدو عليه ما يقال بحقه. يكاد أن يكون نابليون راكباً على حصانه. فتح الجميع أفواههم إعجاباً، ووقفوا مستعدين وهم ينظرون. وكان يهز رأسه مثل قائد عسكري يتفقد جنوده. توقف عند أوامر عمر، ومداخلاته الذاتية، ولكنه فعل هذا كما لو أنه باشا يعترف لضابطه. لم يفهم من أنا. المراقبون الفنيون الحكوميون أتوا على خيولهم من ورائه... ركبت على حصان، وخفت أن أسقط، ولكنني لم أسقط. الحصان يمشي، ويعمل بنفسه كل شيء، وأنت فوقه، تذهب.

دراستي تتقدم بسرعة. أعيش فرحة هذا الأمر.

30
هاويا موسيقى

نظر جزمي إلى الشجرة التي تتوسط الطريق كأن هناك ما يجب النظر إليه، وقال: "ماذا ستفعلين في العطلة الصيفية؟" كانا يسيران من التقسيم باتجاه الحربية. تفتحت الأشجار التي تتوسط الشارع العريض. كان مطلع أيار. بعد خروجهما من درس موسيقى المسيو بلاتزس مشيا معاً من النفق نحو الحربية. كان جزمي يريد أن يأتي حتى نيشان طاش، ولكن عائشة لا تسمح له، وكان هذا هو سبب النقاش بينهما حول الحضارة والعلاقات بين المرأة والرجل. لم تعد نيفان خانم تأتي إلى بيه أوغلو لاصطحاب عائشة من درس الموسيقى. ونشبت حرب طويلة وصامتة داخل البيت حتى فرضت عائشة هذا القرار، وفي النهاية قلبت نيفان خانم شفتيها مبدية أن ابنتها لن تكون في أي وقت كما تريد، لهذا فقد سئمت من هذه الحياة المعذبة، وأغلقت الموضوع بحركة يأس.

سأل جزمي مرة أخرى وهو يهز هذه المرة حقيبة الكمان التي بيده: "ماذا ستفعلين في العطلة الصيفية؟"

كانوا سيذهبون إلى جزيرة هيبلي، فهم لم يستطيعوا الذهاب في الصيف الماضي بسبب وفاة جودت بيك، ولكن أم عائشة وأخاها الكبير يريدان إرسالها إلى خالتها في سويسرا لتقوي فرنسيتها، فهي ستنهي الثانوية هذا العام. إذا ذهبت إلى سويسرا فلن تبقى دروس الموسيقى هنا، والمشوار

من النفق إلى الحربية، وهذا الشاب. فكرت عائشة: "لا أريد الذهاب إلى سويسرا!" ثم انتبهت إلى أن الشاب يهز حقيبة الكمان متوتراً، فقالت: "لا أعرف. ماذا تفكر أن تعمل أنت؟" وخجلت. لأن جزمي قال لها على سبيل إبراز الخلاف العميق بينهما إن الناس في محيطه يسألون هذه الأسئلة بشكل مجرد فقط: "ماذا ستفعل؟"، أما عائشة والناس الذين في محيطها، فلامتلاكهم الزمن لعمل الكثير والاختيار يطرحون السؤال على شكل: "ماذا تفكر أن تفعل؟"

قال جزمي: "أنا على الأغلب سأذهب إلى أبي وأمي في طرابظون!" كان يدرس الحقوق في اسطنبول شتاء.

قالت عائشة: "ما أجمل هذا!" وحاولت أن تبدو منفعلة: "هناك تقرأ الروايات التي تحبها، وتسبح في البحر."

"هه! لا أحد يسبح في البحر هناك. السباحة في البحر هنا في الجزر، وفي سعادية. وفي أوربا طبعاً." عندما كان جزمي يتوتر ينسى أنه يجب أن يكون مناصراً للحضارة، ويذكر بأنه ابن عائلة فقيرة. كان أبوه معلم موسيقى في طرابظون.

خجلت عائشة مرة أخرى، وفكرت: "مرتان في دقيقة واحدة" ثم تذكرت أمراً ففرحت، وقالت: "جيد ياه! أنت أيضاً تعلمهم عناصر الحضارة. تعلمهم أن السباحة في البحر ليس عيباً!"

قال جزمي محتداً: "سأعلمهم!"

صمتا. كانا يسيران ببطء نحو الحربية. شمس أيلول المائلة لا تسقط أشعتها إلا على رؤوس الأشجار التي تتوسط الطريق، وظهور بعض الأبنية البعيدة. الطريق، والأشجار، والجدران بقيت في الظل. نسيم الربيع العليل الذي يهب من طرف شيشلي يحمل إلى الظل رائحة الزيزفون، وصريمة الجدي.

فجأة سأل جزمي قلقاً: "لم تغضبي مني يا؟"

فكرت عائشة: "نعم، هو لا يغضب!" ونظرت إلى الجسم النحيل والضعيف والجميل المجاور لها، وانفعلت. كان الشارع يعبق برائحة الزيزفون. وأدركت أن حباً قد اندفع من قلبها، ولكنها ضبطت نفسها.

قالت على عجل: "كان الدرس اليوم ممتعاً، أليس كذلك؟ وعزف المسيو بالاتزس جيداً!"

اشتغل المدرس المجري في هذا الدرس أيضاً مع طلابه مرات، ومرات في البداية، ثم استمع إلى أسطوانة، ثم عزف بعض المقطوعات الصغيرة نزولاً عند رغبة طلابه.

دفع جزمي النظارة النازلة نحو رأس أنفه، وقال: "إنه درس مثل كل الدروس!"

"ألا يعجبك كمان بالاتزس؟"

"ليس كثيراً جداً!"

"أنا يعجبني كثيراً... أدوخ إعجاباً به عندما يرافق البيانو بالكمان! كان يمكن له أن يكون موسيقياً كبيراً في الحقيقة!"

قال جزمي: "وأنا أستطيع أن أرافقكما إلى هذا الحد!" عندما يكون متوتراً ومنفعلاً جداً ينتقل من خطاب الفرد إلى الجمع مع عائشة. "كان يمكننا عزف سوناتا كروتزر. هل قرأتم القصة التي تحمل العنوان نفسه؟"

قالت عائشة مدركة أن غضباً وخوفاً ما قد سيطر عليه بشكل غائم: "لم أقرأها!"

كان جزمي يذكر عائشة في مواقف كهذه أنها لا تقرأ روايات أبداً، ولكنه لم يقل شيئاً. سارا فترة دون أن يتكلما.

قال جزمي: "حسنٌ، ما رأيكم بقضيتنا في هطاي؟"

"لا شيء!"

"ولكن يجب أن يكون عندك فكرة!"

لم تقل عائشة شيئاً. مرت بجانبهما حافلة خلطت الدخان بالغبار. رأت عائشة امرأة مغطاة الرأس تنظر إليهما بانتباه. دفعها الفضول لمعرفة ما رأت المرأة، وما فكرت فيه. فكرت: "صبية قبيحة مع شاب وسيم يحمل حقيبة غريبة!" وضايقتها الفكرة المزعجة.

"لم تقولي ما ستفعلينه في الصيف حتى الآن!"

قالت عائشة فجأة: "أمي وأخي الكبير يريدان أن يرسلاني إلى سويسرا!"

"هل تريدين أنت؟"

"لا أعرف!"

بدأ جزمي يسأل باعتياد مثلما يفعل دائماً: ما رأي أخيها الكبير، ما الذي تعزم أمها على عمله، لماذا يريدون إرسالها، ماذا يقولون حول هذا الأمر في البيت، وماذا يقال في البيت غير هذا، هل هنالك خبر من الأخ الكبير رفيق؟ كانت تجيب بأجوبة قصيرة، ومن غير رغبة. الطبع الوحيد غير المحبب لدى هذا الشاب، هو فضوله الشديد لما يجري داخل عائلة الضوئي. يستمع إلى كل شيء بالتفاصيل، وبشيء من الكره، والفضول يظلله طموح عصامي شديد، ثم يتنهد كأنه يحلم بجنة بعيدة يتوق إليها، ويبدأ بتعداد انتقاداته وأفكاره. كان يقدم انتقاداته، وأفكاره دائماً من زاويتين: إما أن يبرز بعض جوانب ما يجري داخل العائلة بوصفها لا تنسجم مع تصرفات العائلات المتحضرة والناس الحضاريين، أو يبين أن حياة الأسرة والأغنياء لا علاقة لها بحياة الأغلبية في تركيا أبداً. وتبدأ عائشة بعد ذلك دائماً بالشرح مبينة بأن المرحوم والدها، وأخويها الكبيرين، وحتى أمها أناس طيبون.

كانا يقتربان من ثكنة حربية. قال جزمي باعتياده على معارضة كلمات عائشة: "أنا لا أقول إنهم أناس سيئون! أنا فضولي لمعرفة السبب فيما هم عليه فقط. أنا لا أفهم سبب عدم تفضيلهم حياة حضارية أكثر عقلانية، ومنطقية. هنالك الحاج إلياس أفندي في طرابظون، يعمل في التجارة، غني، ومهووس بدينه، ومرابٍ! هه، نعم، أي أنه يقرض نقوداً مقابل فائدة كبيرة... أتفهم موقف هذا الرجل قليلاً بمعارضته للثورات... ولكن ماذا عن عائلتكم؟ أنا لا أتحدث عن كونهم معارضين للثورات، أعرف إنهم يقابلون ما يجري بفرح، ولكنني لا أعرف كيف يفكرون. ولكن يبدو لي أنهم يقابلون ما يجري كله بشيء من الريبة... أو دون انفعال كافٍ! كنت أعتقد أنه يجب على الأغنياء القاطنين المدينة، أي الأغنياء المتأوربين، هل استطعت أن أوضح، أي الأغنياء الطيبين، تأييد الثورات. ولكن لا يبدو أنهم منفعلون. الشعب الجاهل أساساً، لا يعرف شيئاً. حسنٌ يا عائشة، من سيتقدم بالثورات إذاً؟ هل نحن الموظفون دائماً، أبي المسكين

الذي يسخر منه بانفعال كل الطرابظونيين؟ أنا الذي يسخر منه كل من في بيت الطلبة لأنني محب للموسيقى، وأتجول حاملاً حقيبة غريبة؟ وفوق هذا، فقد غدا حتى الموظفون يتوقون لحياة هؤلاء الأغنياء الفظين. حسنٌ، ما رأيك أنت بهذا؟" والتفت بوجهه المحمر انفعالاً، والمتصبب عرقاً... "أنت أيضاً تسخرين مني بطلبك أن أعلم الطرابظونيين السباحة في البحر. تعتقدين أنني لا أحب الأغنياء عندما قلت إن الناس هناك لا يسبحون في البحر. أنا لا أكره الأغنياء! أنا أعارض كون الأغنياء فظين وغير مثقفين وجاهلين، وعدم تفكيرهم بالبلد، والثورات، وتلك القضايا!"

قالت عائشة: "هذا يعني أنك تعتبر أن عائلتي فظة وعديمة الثقافة، وجاهلة!" ولكنها غير مؤمنة بما قالته.

"لا، لا تفهميني بشكل خاطئ!... أنا لا أتحدث عن عائلتك... أنا... أنا أسأل عن سبب عدم تصرف جماعتك على هذا النحو. فهم يريدون إرسالك إلى أوربا، وأنتم مثلاً... أي أنت لا تريدين مجيئي معك حتى نيشان طاشِ..." ورفع رأسه المطرق فجأة. ونظر فيما حوله كأن أشياء ما ستدور في محيطه.

كانا قد وصلا إلى أمام ثكنة حربية. يتشعب الطريق هنا إلى شعبتين. نظرت عائشة إلى الشاب مرة أخرى بقلق، ورأت الحزن والارتباك في وجهه، فأدركت أنها لن تستطيع معارضته بالمجيء حتى نيشان طاشِ. بدأا يسيران معاً كأن نقطة الفراق المعهودة ليست هذه. كانت رائحة الروث الفائحة من إسطبل الثكنة، ورائحة البول المنبعثة من مراحيض الصفيح التي تتوسط الطريق تختلط مع رائحة الزيزفون.

قال جزمي فجأة: "أشكرك كثيراً!" ثم أدرك على الأغلب أنه قال عبارة خاطئة. تمتم قائلاً: "لم تغضبي مني ياه؟" ولكن ملامح النصر كانت تقرأ في وجهه.

أدركت عائشة أن حباً قد اجتاح قلبها، ولكنها أجابت هذه المرة بانتباه: "عن ماذا تتوقع أن أغضب منك؟"

"من أجل كلماتي السخيفة هذه كلها، وما قلته بحق عائلتك. أريد أن أقول إنني أحترم عائلتك مهما كانت تصرفاتها. لعلني أوخزك لأن عائلتك غنية جداً، وأنت منها، ولكن... هنالك ما أقدره.. ولكنك لا تصغين إلي؟"

قالت عائشة: "أصغي! وبدأت تمشط الشارع بعينيها. هنالك بائع تبغ عند الزاوية يوزع صحفاً أيضاً. تقف أمامه سيارة.

تمتم جزمي قائلاً: "أنا لن أذهب إلى طرابظون في عطلة الصيف! أشعر بالاشمئزاز وسط أولئك الناس غير المتفهمين الجهلة. وجدت عملاً في فندق. أنا في عطلة الصيف... هل تسمعينني يا عائشة؟ هل أضايقك؟ أنا في هذا الصيف..."

فكرت عائشة: "إنه أخي الكبير! سيارتنا! السيارة الجديدة الكرزية الداكنة! كيف لم أنتبه إليها قبل قليل؟" كانت تنظر إلى السيارة، وإلى الرجل الخارج من السيارة، إلى أخيها الكبير كالمتجمدين انفعالاً من الخوف لأنها تشهد كارثة ما.

تمتمت: "أخي الكبير هناك!"

"أيّهم؟ الذي يحمل جريدة؟"

هنالك مسافة عشرين خطوة أو أقل تفصلهم. لم تكن عائشة تعتقد أنها ستخاف وتدهش إلى هذا الحد. عندما انعطفا نحو هذه الجهة، كانت تحاول الاعتقاد أن ما تخاف منه عبث، وأن جزمي على حق.

قال جزمي من جديد: "هل هو الذي يحمل الجريدة؟" ثم أدرك من وجه عائشة أنه هو. بدأ يدقق النظر بهذا الرجل الذي عرف كثيراً من تفاصيل حياته العائلية بفضول.

قالت عائشة غاضبة من هذا الفضول: "هيا اذهب أنت، اذهب أنت، اذهب!"

"لماذا؟ أنا لا أخاف من أحد. لن أذهب. إنسان مثله يجب أن يعتبر علاقات الشاب والفتيات..."

كان عثمان قد رآهما. رفع رأسه لحظة دخوله إلى السيارة، وألقى نظرة إلى ما حوله، ورآهما. كان يقف هكذا، كأنه قد قرر عدم الصعود إلى السيارة. ثم عبر إلى الطرف الآخر من الشارع خلال عدة ثوان. بدأ يسير باتجاههما. كانت عائشة تنتظر أخاها الكبير بخوف - ولعله الفضول على الأغلب - مقابل دار المحافظ وهي تنظر إليه.

اقـترب عثمـان، وقبـل نظـره إلى جزمـي وقبـل وصـوله إلى عائشـة بعـد خطوات، قـال لعائشـة: "هـل كنـت ذاهبـة إلى البيـت؟" ودون انتظـار جـواب أخته، قال كأنه يهمر: "هيا اصعدي إلى السيارة لأصطحبك!" تظاهـر بأنه لم ير الدهشة على وجه أخته. بعد ذلك رمق جزمي بنظـرة اسـتخفاف. "هـل هذا الشاب معك؟"

قال جزمـي بموقـف حـازم ممـزوج بشـيء مـن الغضـب الـذي لا يخلـو مـن الاحترام: "نعم يا سيدي!" وخطا خطوة إلى الأمام كأنه واثق بنفسه كثيراً، ولكن عثمانَ لم يمد يده.

قال عثمان: "ما فعلتموه هذا..." ووقعت عينـه علـى حقيبـة الكمـان الـتي يحملـها جزمـي. قطـب وجهـه كأنـه رأى شـيئاً مضـايقاً. "المهـم... هـل أنـتم بالموسيقى أيضاً؟"

"اسمي جزمي يا سيدي... في الحقوق..."

قال عثمان: "اصطحبتم أختي إلى هنا. ولكن لا تكلفوا نفسكم العناء مـرة أخـرى!" ونظـر إلى حقيبـة الكمـان عابسـاً وهـو يقـول تلـك الكلمـات المخجلة، كأن الذنب كله هو ذنب الحقيبة. "أنا أصطحبها بعد الآن!" ثم نظـر فيمـا حولـه كأنـه يمنحهمـا عدة ثـوان ليـودع أحدهمـا الآخـر. وكـان يتحقق مما إن كان هنالك من رآهما على الأغلب.

نظرت عائشة إلى وجه الشاب بانتباه، وحاولت أن تقول له بعينيهـا: "هـا أنت ترى، الذنب ذنبك. ماذا يمكنني أن أفعل؟..."

وحاول جزمي اتخاذ موقف مباه وكـريم، ولـكنـه ارتبك. كـان يقـول لعائشـة بعينيـه أيضـاً: "أنـا لا أخـاف مـن أحـد. هـذا هـو أخـوك إذاً؟ كيـف تصرفت معه؟" أمسك عثمان عائشـة مـن ذراعهـا، وقـال: "هيـا لنـذهـب!" ثـم داعب رأس عائشة بحركات حنونـة تشـبه حركـات المرحـوم جـودت بيـك، ولكنهـا أبـرد منهـا بكـثير، وأكـثـر اعوجاجـاً، وبـدأ يسـألها أسـئلة عـن مدرستها ودروسها. أدارا ظهريهمـا للشـاب، وسـارا باتجـاه السـيارة الواقفـة تحت شجرة الكستناء.

31
يقظة؟

إنه في بيه أوغلو من جديد، في تلك الخمارة البائسة وسط الناس والصخب، أمامه كأس عرق وصحن صغير من الحمص الأبيض، كان جالساً يفكر بالذهاب إلى بيت الدعارة بعد قليل، ثم إلى السينما، وبعد سنتين إلى الموت. لأن شتاء طويلاً قد مر، وحل أيار، ونُسيت مجموعته الشعرية التي ربط حياته كلها بها دون تحقيق أي صدى. فكر محي الدين: "مثل حجر ألقي في محيط!" وغضب لأنه وجد آثار شاعريته في هذه العبارة أيضاً. خطر بباله أن حياته أيضاً ستنسى كحجر ألقي في محيط دون أن تغير شيئاً، أو تصدر صدى. ولحظة قرر أن لديه ما لا يوجد لدى الآخرين، كما قرر التصدي لفكرة الزوال والنسيان في هذا العمر الفتي، وإيجاد جانب بطولي في نفسه، رأى رجلاً مسكيناً مسناً في الخامسة والأربعين أو الخمسين من عمره، جالساً على الطاولة المقابلة له، ينظر إليه نظرة انتباه ومودة مدة طويلة، فشعر بالفضول.

ترك الرجل للوهلة الأولى لدى محي الدين انطباعاً بأنه مسن، لأن ابتسامة تسامح خاصة بالذين مر على رؤوسهم الكثير ارتسمت على وجهه. ولكنه يبدو الآن ناظراً بطريقة أخرى. كأنه كان يقول: "أنا أعرفك. أعرفك جيداً، وأداعب روحك، وأحزن من أجلك!" إن نظرة حازمة، وحادة،

تلج إلى الأعماق على هذا النحو هي أمر مقلق قليلاً لم يصادفه محي الدين. وفوق ذلك، فإن هذه هي المرة الثالثة التي يغمره فيها ببصره براحة، ويتجول نظره ثم يعود كأنه يتفقد إن كان موجوداً. نظر محي الدين إلى الرجل هذه المرة بوجه حاد عدواني يتخذه عندما يدخل إلى هذه الخمارة، ولكنه ابتسم هو أيضاً عندما رأى تلك الابتسامة اللطيفة المتسامحة. إثر ذلك نهض الرجل، وبعدة خطوات خفيفة كالريشة كأنه يريد أن يري الآخرين كم هو رشيق وطويل جلس مقابله. وتركت الابتسامة المتسامحة مكانها لرجاحة عقل.

قال الرجل: "أنتم محي الدين نيشانجي، أليس كذلك؟ أنا أعرفكم!..."

نبش محي الدين ذاكرته مرتبكاً على عجل كأنه يفتش في جيوبه، ولكن الوجه المقابل له ضاع وسط المشاهد التي يرخيها العرق قبل أن يجد تشبيهاً بينه وبين أحد.

قال الرجل: "لم تستطيعوا معرفتي طبعاً، أنتم لا تعرفونني، ولكنني أعرفكم، لأنني أعرف أباكم. رأيتكم في دار خالد يشار للنشر. كنتم خارجين. تحدث خالد يشار عنكم فيما بعد. أعطاني نسخة من كتابكم. نعم، قرأت كتابكم. ولكنني لم أعرف بنفسي: ماهر أصاف. أو ماهر الطايلي..." مد يده بتواضع.

قال محي الدين: "سررت بكم!" وصافح يد الرجل القاسية والكبيرة.

قال الرجل: "قلت لكم إنني أعرف المرحوم والدكم، أعرفه من الجيش السابع. كنا في فلسطين معاً. لديكم حق بالحصول على لقب نيشانجي!"

قال محي الدين: "لعله يجب أن يكون ابن نيشانجي!" وتذكر منغصاً قديماً صغيراً عبثياً، وقال هذا لمجرد قول شيء.

"بماذا يختلف؟ المهم أنكم ابن عسكري تركي، وانتبهتم لذلك... نعم، أفهم ما تفكرون به!" قطب وجهه، وأشار بيده لمن في الخمارة. "إنها المرة الأولى التي آتي فيها إلى هنا منذ سنوات طويلة! أحزنني كثيراً ما رأيته، كما أحزنني منظر هؤلاء. سأشرح لكم، ولكنني لا أضايقكم ياه؟"

لم يكن ثمة مفر أمام محي الدين من قول: "أرجوكم!" وقد شعر بالضيق. وصار مشاكساً كأنه يحضر نفسه للقاء فيلسوف، أو معلم يبعث على الضيق. ورغم هذا كان في كلام الرجل ما يثير فضول الإنسان، أو يجذبه. إضافة إلى أنه واحد من مائتين وخمسين شخصاً قرؤوا كتابه.

قال ماهر الطايلي: "عن إذنكم، لأخبر صديقي هناك!" نهض، وذهب إلى الطاولة التي كان يجلس إليها قبل قليل. وقال كلاماً ما للرجل الجالس هناك. ثم عاد، وجلس، وقال: "إنهم اصطحبوني إلى هنا بالقوة تقريباً! كنت خارجاً من المدرسة، ذاهباً إلى البيت. لا تساعد صحتي على الاستمرار بالعسكرية. تركت الجيش. أنا مدرس للأدب في ثانوية قاسم باشا! حضرتكم مهندس، أليس كذلك؟" وابتسم من جديد ناظراً نظرة العارف لكل شيء، والقارئ لما يدور في ذهن الإنسان.

قال محي الدين: "نعم، أنا مهندس!" ثم فكر: "ترى ماذا يعرف عني غير هذا؟" وتذكر أنه مدون على الغلاف الخلفي لكتابه أنه مهندس.

"نعم، لقد حزنت عندما رأيت الناس هنا. لا تعتقدوا أنني متدين متخلف: شربت المشروب أيضاً عندما كنت شاباً... ولكن، بوصفي تركياً أحزنتني رؤية هذا الجو المفتقد للروحانية، والإيمان هنا!"

فكر محي الدين: "بوصفي تركياً!" وبدا كأنه يشعر بأمور ما، وارتبك، وخطر بباله أن يذهب إلى الغرفة ذات المصباح الأحمر، والبقاء وحده.

"ورأيتكم هنا، فعرفتكم! قلت لنفسي هاهو شاب مثل الفولاذ، مثل الزئبق، ولكنه تعيس. اضحكوا يا روحي، اضحكوا، ولا تضبطوا أنفسكم. ولكنكم تعساء أليس كذلك؟"

كاد محي الدين أن يقول "لا!" لغضبه من ثقة هذا الرجل بنفسه، ولكنه لم يقل، صمت.

قال ماهر الطايلي باسماً: "نعم، أعرف أنكم تعساء!" ثم اتخذ تعبير الرصين الحزين عندما وجد أن من الخطأ الابتسام إثر هذه الكلمات. وبصوت باكٍ قال كأنه يئن: "لماذا يكون إنسان شاب على هذا النحو؟" ولكن حاله لم تكن مضحكة.

شعر محي الدين بقلق مفاجئ. إذا سمح لهذا الإنسان بالحديث بنبرة مدرس العقيدة فإنه سيفقد كثيراً من ثقته بنفسه. أراد أن يقول له بأن لديه موعداً مع إنسان آخر، أو أي ذريعة أخرى، ويخرج من الخمارة، ولكن هذا الخدر والفضول الذي لم يدرك سببه جيداً منعه من الحركة.

"قرأت قصائدكم. وعندما قرأتها، تذكرت وجهكم هناك عند الناشر، وأدركت أنكم شخص تعيس. شاعر موهوب وتعيس... لديكم غالباً كل ما يلزم للشاعر الجيد، ولكن ثمة نقص لديكم! وهو المبدأ! ليس ثمة مبدأ مثالي في حياتكم!"

قال محي الدين لنفسه: "مبدأ!" وفكر بما تذكره به هذه الكلمة: "ضياء غوكالب... بعض شعراء القومية التركية. كتب القراءة لدى ابن عمته الذي يذهب إلى المدرسة الإعدادية... مقالات بعض كتّاب المقالات الصحفية المخبولين إلى حد عدم استطاعتهم إخفاء ازدواجيتهم... أشياء مضحكة..."

قال ماهر الطايلي: "هل فكرتم مرة بأنكم من الترك؟"

ابتسم محي الدين، ولكنه فكر أول مرة بأنه لا يحترم الرجل. بحث عن إجابة يرضيه بها، ولكنه لم يجد. فكر قليلاً، ثم قال: "أنا سأشرب كأساً آخر!"

نادى النادل. اتخذ النادل المعتاد على جلب صحن حمص محمص وكأس عرق كلما ناداه، اتخذ هذه المرة موقف الرصين المندهش إزاء الطلب.

سأل الرجل من جديد: "هل فكرتم مرة بأنكم من الترك؟" ثم فكر متخذاً موقف المنتبه الرصين كأنه يقول: "يرتبط حكمي عليك بما ستقوله الآن! بحسب الكلمة التي ستقولها فإما سأمتدحك كما فعلت قبل قليل، أو يمكن أن أستخف بك أيضاً. ولكنه قال لنفسه في النهاية: "فكرت، ولكن ماذا سينتج عن هذا!"

قال ماهر الطايلي حزيناً ولكنه متسامح: "كنت أعرف أنكم ستفكرون على هذا النحو!" اتخذ حال المسن المجرب المتسامح تلك التي كانت قبل قليل: "ولكن هذا هو سبب تعاستكم. إنكم لا تفكرون متوقفين عند كونكم تركياً. مع أنكم أتراك، وأنا أعرف أباكم. هذا

امر هام جداً. هنا يكمن المبدأ المثالي الذي يجب أن تتبنوه!" وضغط بسبابته على نقطة فوق الطاولة.

نظر محي الدين إلى النقطة التي ضغطت عليها إصبع الرجل السمينة، ثم رفع رأسه، ودقق النظر في الوجه الحنون المتسامح والمضحك، وأدرك أنه لن يغضب من هذا الرجل، ومهما بلغ به الأمر فإنه سيستخف به. ولكن هذا الاستخفاف بدا تافهاً مقارنة بالقرب الذي شعر به من هذا الرجل المسكين الذي نهض فجأة عن طاولته قادماً إليه، وقرأ شعره، وحاول قول عبارات ما من أجل أن يكون مضحكاً، وفكر: "فهمت، هذا الرجل طوراني!" وبدأ يذهب ويجيء بين أحكامه وأفكاره المستخفة والساخرة من هذا الأمر من طرف، والقرب الذي يكاد يشعر به نحوه من طرف آخر.

كان ماهر الطايلي يقول: "ها أنتم تجلسون هنا، وتعيشون حياة تعيسة، وتسممون أنفسكم بالمشروب! بسبب عدم وجود مبدأ مثالي في حياتكم. بماذا ترتبطون بحياتكم؟ بالدين؟ لا! بعائلتكم؟ لا! بالهندسة؟ لا!" كان يطرح كل سؤال وهو يثني أصبعه، ويرى نظرة محي الدين الخاوية، ويجيب بنفسه. "بفتاة؟ لا! بالمتعة واللهو؟ لا! بالثورات مثل أبناء جيلكم؟ وهذا أيضاً لا! حسنٌ، بالشعر؟ نعم، لا يمكنكم قول لا عن هذا، ولكن ما قيمة الشعر من دون وجود تلك الأمور؟ يمكن أن تكونوا على حق باستخفافكم بالأمور الأخرى تلك... ولكن ثمة أمر. أنتم ترك!" وضغط من جديد بإصبعه على النقطة ذاتها.

نظر محي الدين إلى أصبعه السمينة، ثم فكر: "حسنٌ، ماذا يريد مني؟ لابد أنه يريد هديي إلى الطريق الصواب، وجعلي أؤيد عقيدته... رآني في هذه الخمارة، فأشفق علي قليلاً، وجاء إلي. هذا يعني أنني أبدو مثيراً لشفقة الآخرين!"

"أن تكون تركياً! فكروا بهذا. يعني الذوبان في المجتمع لخوض النضال في سبيل مبدأ مثالي مشترك للترك جميعاً باعتبار الفرد تركياً. الانخراط في مجتمعنا، وبين أبناء عرقنا الآخرين كلهم، ونسيان أنفسنا من أجل أن نكون سعداء جميعاً... أنتم لا تؤمنون بغير الشعر وأنفسكم. ومن

كتابكم فهمت ما تعتبرونه جميلاً في الشعر، ‹نها الجوانب البشعة التي كتبها الأوربيون... بودلير، أليس كذلك؟ حشاش فرنسي متفسخ! ولكنكم ترك. هل تعرفون ما يفعله الفرنسيون بأبناء عرقنا في هطاي؟" وانفعل فجأة، وكاد يتحول كلامه إلى صراخ: "يحرق الفرنسيون أنفس أبناء عرقنا في هطاي، وأنتم تتوقون للشعراء الفرنسيين مبددين موهبتكم. آه من الأمة التركية! آه، متى ستستيقظين يا أمتي؟"

قلق محي الدين فجأة. كان يهيئ نفسه للقول بإنه لا يشارك الرجل أفكاره، ولكنه لم يستطع قول هذا الآن بسهولة. اتخذ موقف الخجول والمذنب أملاً أن يُسر به الرجل. ووجد في نفسه دافعاً للبحث عما يمكن أن يقوله للرجل مهدئاً، ولكنه كان خائفاً أن يسخر، أو يترك انطباعاً بأنه يسخر منه.

حين أنهى كأسه الثاني، تمتم قائلاً: "نعم، يبدو أنكم على حق. وضعي ليس جيداً. ولكنني ماذا أفعل، لا أستطيع أن أكون شخصاً آخر!"

لم يجب ماهر الطايلي. كان يحاول تهدئة انفعال كلماته التي قالها قبل قليل على الأرجح. وساد صمت.

فكر محي الدين: "لديه عقيدة معينة. أنا محكوم بالظهور بمظهر القبح أمام إنسان لديه عقيدة كهذه مهما كانت تلك العقيدة عبثية، وخاطئة!" ثم شعر بالغضب لأن عقيدة هذا الرجل وتوتره بدت له عبثية وفارغة إلى حد كبير، وفكر: "لماذا ينفعل إلى هذا الحد؟ ما الذي يدفعه للانفعال إلى هذا الحد؟" خطر بباله ما يجري في هطاي. كان قد قرأ الجرائد: سيجري استفتاء، وقد حدثت مشاكل في أثناء التعداد الذي يسبق الاستفتاء. وإذا كان ما يكتب في الصحف صحيحاً، فإن الأتراك هناك يتعرضون للأذى. تمتم قائلاً: "حسنٌ، ولكن ما علاقتي أنا بهذا؟" ولكنه وجد هذه الفكرة سافلة، كما وجد نفسه كذلك. فكر ببيت الدعارة، وبالمصباح الأحمر، والمرأة. بدا له أن ما أعطاه قيمة فيما مضى، وفرديته وتقديس نفسه، وتعاسته ليست سوى لعبة كبيرة سطحية وبشعة. فجأة خطر بباله ما قرأه في بعض الجرائد. تمتم قائلاً: "تحدث أحداث يقشعر لها الجسد في بعض الأمكنة!"

"نعم، فتح الفرنسيون النار على مقهى تركي، ثم قتلوا دركياً تركياً. إنهم يعينون قائم مقامات أرمن في بيروت..." انفعل ماهر الطايلي هذه المرة كثيراً. وقال: "يجب عمل شيء ما! يمكن عمل أشياء كما حدث في اسطنبول قبل سنتين..."

تذكر محي الدين. حدثت تظاهرة ضخمة قبل سنتين في اسطنبول من أجل قضية هطاي. سار الطلاب والجموع من بيازيد إلى تقسيم، وكادوا يصطدمون بالشرطة في بعض الأماكن.

قال: "هل تسمح الحكومة بشيء كهذا؟" ثم طلب كأس عرق من النادل.

قلب المدرس القومي التركي شفتيه قائلاً: "إذا تركنا أمورنا للحكومة! فهي تريد حل القضية بالتفاهم مع الفرنسيين... ستجلس إلى الطاولة مع أعدائنا... حل سلمي... من يؤمن بهذا إما أن يكون مخبولاً، أو خائناً!" قال هذا بموقف استعراضي. ثم أضاف كأنه يهمس: "هو أيضاً ذهب إلى مرسين. ولكن ليس ثمة ما يفعلونه. أنا أقول لكم هذا براحة، ولكنني لا أقوله للآخرين ببساطة!"

وجد محي الدين ثقة الرجل الاستعراضية مضحكة. ثم فكر: "لماذا أهتم لكل هذا؟ ما الذي يثيرني باجتماع الأتراك كلهم تحت راية واحدة؟" أراد أن يفضي للرجل الذي يكن له مشاعر الصدق وقليلاً من القرب بكل أفكاره، وأن يكون معه صادقاً وصريحاً. فقال: "أنا لا أؤمن بأمور كهذه أساساً! ما أهمية أن يكون الأتراك كلهم معاً؟ أنا لا أجد الطورانية، والعرقية، والتطرف القومي التركي صحيحاً."

صرخ الرجل فجأة: "من تكونون أنتم لتقولوا هذا الكلام! من تكونون حتى تستخفون بالقوميين الأتراك..."

دهش محي الدين. والتفت إلى يمينه ويساره، ولكن أحداً لم يكن منتبهاً: كان جو الخمارة الثقيل، والخدر، والقذر يتفسخ تدريجياً كما هو عليه دائماً.

"من تكونون أنتم لتعتبروا أن القومية التركية غير صحيحة؟ من أين استمددتم هذه الجرأة؟ من هذا المشروب، أم من روحكم المتفسخة، أم من حياتكم التعيسة هذه التي ستضيع من دون أن تصلوا إلى مكان، أو

تضربوا جذراً في أي مكان؟ أرجوكم، اصحوا! فكروا بأنفسكم. فكروا بما أنتم عليه، ماذا فعلتم، ومن تكونون! أنتم، أنتم تكرهون أنفسكم، والآخرين، وكل شيء! أنتم غرباء عن هذا المجتمع. وليتكم غرباء فقط... أنتم أعداء هذا المجتمع. اخجلوا من إعجابكم بأنفسكم الذي يظهر في شعركم، وفي وموقفكم هذا، وكلامكم. ماذا فعلتم لتعجبوا بأنفسكم إلى هذا الحد؟ لا شيء! مع أنكم موهوبون، وأذكياء، وأنا أعرف هذا، أسفي عليكم. ألا يدعو هذا للأسف عليكم وعلى أمتنا؟ أنا أعرف المرحوم والدكم. ألا يدعو هذا للأسف؟ هل تفهمونني؟"

كان محي الدين ينظر إلى الرجل شاعراً بالذنب كأنه كسر مزهرية بحركة متهورة، تمتم قائلاً: "إنه على حق، إنه على حق! أنا لا أفكر بأحد غيري. ولكنه انتبه إلى أنه كان متعلقاً بهذا المديح الصغير حول ذكائه ومواهبه أكثر من أي شيء آخر. أنهى المدرس القومي التركي كلامه، وأضاءت وجهه تلك الابتسامة المدهشة من جديد، الابتسامة الحنونة والمتسامحة، أدرك محي الدين أن رغبة داخلية تأججت لديه ليبدو بريئاً ونظيفاً: "أنتم تقولون لي هذا. لا تعتقدوا بأنني مسرور من الوضع. أنا غير مسرور من وضعي هذا أبداً. ولكنني لا أجد شيئاً أتمسك أو أؤمن به يخلصني من هذا الوضع المخجل."

قال الرجل: "هاهو الفكر القومي التركي! ها هو رهن أنفسكم لأمتكم! ها هي القضية القومية التركية!" وهز الرجل رأسه إلى اليمين وإلى اليسار مندهشاً كأنه يقول: كيف لهذا الشاب أن لا يقطف ثمرة الخلاص من الغصن المدلى نحوه، كيف له أن يتكلم هكذا، وضغط على النقطة ذاتها بإصبعه.

كان محي الدين يفكر: "أنا لست شخصاً سيئاً! لو أنني شخص سيئ لما قررت أن أقتل نفسي. أنا أقدر ذكائي فقط، ولعل هذا هو السبب الذي يجعلني أبدو سيئاً. إنني على هذا النحو لأنني أفكر بكل شيء... ولن أؤمن بالقومية التركية هذه لأنني أفكر على الأغلب. ولكنني أريد أن أتمكن من فعل شيء كهذا الآن. أأقول لهذا الرجل بإنني سأقتل نفسي إذا لم أغدُ شاعراً جيداً في الثلاثين من عمري؟"

قال ماهر الطايلي: "أنا أفهمكم!" وكانت نظراته تقول من جديد: "أنا أقرأ نفسكم، وأفهمها! أنا أفهمكم. أنتم تريدون أن تفكروا، وأن تفهموا قبل أن تؤمنوا. وأنتم لا تؤمنون لأنكم تفعلون هذا. ولكنكم لا تستطيعون التخلص من تعاستكم على هذا النحو... دعوا أنفسكم لمشاعركم بداية! آمنوا بداية، وانفعلوا، ثم استخدموا عقلكم... التفكير بالعمق هكذا فجأة... يجعل الإنسان تعيساً. والتفكير على هذا النحو هنا في تركيا يدفع الإنسان خارج المجتمع. إنكم تعرفون هذا بقدر ما أعرفه. من يفكر هنا يبقى وحيداً... التفكير من دون مشاعر هنا يعني انحرافاً... ثم كيف نفهم كل شيء بعقولنا؟ فنحن لم نمنح العقل وحده بخلقنا. لدينا مشاعرنا أيضاً! ألا تنفعلون حين ترون العلم التركي، وتعلمون بما يحدث في هطاي؟.. قليل من الانفعال يكفي! انفعلوا، آمنوا، وانخرطوا داخل المجتمع، وامحوا عقلكم. حينئذ ستسعدون..."

قال محي الدين متخذا موقفاً يائساً: "أعرف!" كان راغباً أن يوقظ الانفعال الضروري تجاه هذا الرجل الذي يريه طريق الخلاص.

قال ماهر الطايلي: "لماذا تقفون إذا كنتم تعرفون؟ إذا كنتم تعرفون بأنه يجب ألا يدرك كل شيء بالعقل، هذا يعني أنه ليس ثمة من يكبلكم. أصغوا قليلاً إلى صوت قلبكم. ماذا يقول قلبكم؟ لا أشك أبداً أنه يقول: أنت مذنب إزاء حياتك حتى الآن! أنت تعيس لأنك لم تصغ إلي حتى الآن. أنا أريد أن أناضل من أجل الأتراك الآخرين! أصغوا إلى ذلك الصوت. ينبئكم قلبكم بمن هو عدونا. أعداؤكم هم الأمم الأخرى، واليهود، والفرنسيون الآن، والعرب، وغداً سيكونون آخرين، ماسونيين، وشيوعيين، وعناصر أجنبية متسللة إلى داخل الدولة." كان المدرس القومي التركي يبتسم بتسامح كأنه يعدد الأصدقاء، وليس الأعداء.

كان محي الدين يفكر: "حسن، هل يمكنني فعل هذا؟ هل يمكنني أن أكون قومياً تركياً؟" وشرع يستعيد كلمات ماهر الطايلي بذاكرته. لا، لم تكن الكلمات هي التي تؤثر فيه: إنه يتعلق على الأغلب بمواقف الرجل، وبثقته بنفسه، وبوجه المتصلب أحياناً، والغاضب أحياناً، والمبتسم

واللين في أحايين أخرى، ويجد عنده نظاماً ليس لديه هو منه، ولا يصادفه كثيراً لدى الآخرين، وليس مفهوماً للوهلة الأولى، وهو يدهش لهذا. من الواضح أن نابض هذا النظام هو الإيمان بالقومية التركية. لقد أظهر ماهر الطايلي الغضب حيث يجب أن يغضب، والتسامح حيث يجب أن يتسامح مثل ساعة دقيقة، ولكنه رغم هذا لا يبدو آلياً خاوي الروح كالساعة، وهو يشبه الإنسان أكثر مما تشبهه المخلوقات الأخرى التي تجلس في الخمارة كلها. فكر محي الدين فجأة: "أنا أيضاً سأكون مثله!" ولكنه لم يستطع استنتاج ما يجب عليه أن يفعله بداية. وخلال تفكيره كيف سيطلب هذا من الرجل، رأى ماهر الطايلي يهب واقفاً فجأة.

"هل أنتم ذاهبون؟"

قال المدرس القومي التركي: "أنا ذاهب. البقاء أكثر من ذلك في مكان كهذا يدنس الإنسان!"

تمتم محي الدين: "انتظروا. قد أخرج أنا أيضاً. هل لديكم ما ستضيفونه لي؟"

قال الرجل: "قلت ما علي أن أقوله، وأنجزت مهمتي يا ابني!" وضحك عندما قال كلمته الأخيرة، واتخذ موقفاً أبوياً حنوناً. "الباقي عليكم أنتم. تعالوا إلى الثانوية إذا أردتم أن تقابلوني. أو تعالوا إلى مجلة أوتوكان/ المفرد أيام الثلاثاء والخميس.!" وأخرج بطاقة تعريف من محفظته، وقدمها لمحي الدين. وصافح محي الدين بقوة قائلاً: "الباقي عليك!" ثم هز رأسه بشكل خفيف، ونظر إلى محي الدين بانتباه كأنه يفكر: "يمكنني أن أمتدحك بعد الآن، أو أستخف بك أيضاً!" وسار جسمه النحيل سريعاً كأنه لا يريد أن يتلوث بالمكان أكثر.

نظر محي الدين إلى البطاقة التي بيده: ماهر الطايلي، مدرس الأدب في ثانوية قاسم باشا، فزنجيلر، شارع كمر آلطي، الرقم: **14**... ولم يجد محي الدين هذه البطاقة مضحكة.

32
هموم تاجر

عندما قرعت الأجراس المعلقة على باب الحديقة، نظر عثمان إلى ساعته باعتياد، ورأى أنها مازالت تشير إلى السادسة إلا ربعاً. فرح حين أدرك أنه عاد إلى البيت أبكر مما كان يأمل. عبر الحديقة مسرعاً. وكما يفعل عندما يريد تنفيذ مداهمة صغيرة من دون إعلام أحد في البيت، فتح الباب بمفتاحه. ونظر إلى المرآة بطرف عينه، وصعد الدرج. انتبه إلى الصمت المخيم على البيت: كانت تكتكة الساعة مسموعة. لم يكن ثمة أحد في غرفة الجلوس: يجب أن يكونوا في الحديقة الخلفية يشربون الشاي. عند أول الدرج رأى أمينة خانم قادمة من الحديقة.

قالت الخادمة حين رأت عثمان: "آه، هل جئتم يا سيدي المحترم؟" وقطبت حاجبيها: "إنهم في الحديقة الخلفية. هناك ضيوف!" وأشارت إلى الصينية التي بيدها كأنها تريد أن تقول بأن الضيوف لا يعنون لها غير مزيداً من الفناجين والصحون: "جاءت ليلى خانم، ودلدادة خانم!"

صعد عثمان الدرج هازاً برأسه مبدياً أنه سمع ما قيل، وفهمه. حين ألقى الجرائد التي اشتراها من بائع التبغ على الطاولة أسفل الساعة في الطابق السفلي، رأى رسالتين على طرفها، عرف أحداهما من الخط: كانت من رفيق. صعد إلى الأعلى مقرراً أن يقرأ الرسالتين مع الجرائد فيما بعد. دخل

إلى غرفته، وخلع سترته. نظر بطرف عينه إلى الحديقة الخلفية حيث جلست النساء تحت الشجرة. دخل إلى الحمام ليغسل يديه ووجهه.

أول عمل يقوم به بعد عودته من العمل إلى البيت دائماً هو غسل يديه. بعد أن فرك يديه بالصابون مدة طويلة، غسل وجهه بماء كثير. بعدئذ يخرج من الحمام ليجد في نفسه القوة والسلامة النفسية الكافية ليتمكن من مواجهة ما تبقى من اليوم مسروراً. حين كان يعمل في المكتب، ويتضايق، ويدرك أنه مضطر للعراك مع الناس، ويتلوث بقذر كسب النقود والحياة، كان يفكر بأنه سيعود مساء إلى البيت، ويغسل يديه بماء كثير وصابون مدة طويلة مستمتعاً. واستعرض ما قام به من أعمال خلال عملية تنظيف نفسه التي تفصل بين ساعات العمل، وساعات الراحة داخل الأسرة.

فتح الصنبور، وبدأ يتدفق الماء. لقد انشغل اليوم بأمرين في المكتب. الأول ليس مهما كثيراً: كتب رسالة إلى شركة ألمانية حول تخفيض السعر الذي تقدمه له عن قائمة الأسعار المبينة في دليل الشركة، وعرض فيها أيضاً اتساع السوق التركية. أما الثاني فكان هاماً جداً: التقى ممثلاً لشركة مواد بناء ألمانية. وقال له ممثل الشركة الألماني إن شركته التي تبيع صنابير، وأنابيب، ولوازم الحمامات مستعدة لعرض أسعار أدنى من أسعار الشركة الإنكليزية الأقوى من شركته في هذا المجال في السوق التركية، وتأمين تسهيلات متنوعة بالدفع. وفكر بأنه إذا اتفق مع هذه الشركة، وحصل على وكالة حصرية لتركيا، فإن الشركة التي تباطأ نموها في السنوات الأخيرة، وخاصة في السنوات الأخيرة للمرحوم جودت بيك، ستتوسع بالأرباح الكبيرة التي ستحققها، بحيث يمكنه أن يؤسس الشركة الكبيرة التي يحلم بها. كان يقلب الصابون في يده ويرغيه. وفكر: "قد لا أستطيع الاتفاق مع الرجل لعدم معرفتي اللغة الألمانية، ولأن فرنسيتي ليست جيدة جداً!" وتضايق. رفع رأسه، ونظر إلى المرآة. فوجد نفسه هرماً ومنهكاً، ودون روح. كان في الثانية والثلاثين من عمره، ولكنه منهار مثل موظف صغير وصل عمره إلى حدود الخمسين عاماً. فقدت عيناه بريقهما، وتخضب شعره بالشيب، وبرزت له حدبة وإن كانت

صغيرة. هناك بعض رفاقه مازالوا في العصر المسمى شباباً. حين أدخل يديه تحت الماء من جديد، فكر: "لأنني أعمل كثيراً! لأنني عملت كثيراً عندما كان أبي حياً. وصرت أعمل أكثر بعد موته. أعباء العائلة كلها على كتفي!" وقد ازدادت الأعمال أكثر بعد ذهاب رفيق، وازدادت المنغصات أيضاً. إنه يريد أن يكسب الزمن الذي فقدته الشركة في الفترة الأخيرة لجودت بيك، ويشعر أن همه الوحيد في الحياة هو توسيع الشركة التجارية التي أسسها أبوه، وتنميتها. قرر أن يغسل يديه مرة أخرى بالصابون، فسحبهما من تحت الماء. وشعر بالسرور حين تذكر شيئاً آخر قام به هذا اليوم، وهو تناوله طعام الغداء مع تاجر من مدينة قيصري يشتري من شركتهم بضاعة. حكى التاجر عن اسطنبول التي يأتي إليها مرة أو مرتين في السنة معتبراً أنها جنة، ومركز للهو مضيفاً بعض مآثره مع النساء. رشق وجهه بماء كثير بعد أن غسل يديه بالصابون. وفكر: "ترى ماذا كتب رفيق؟" فقد مرحه، وتمتم غاضباً: "سحب نفسه، وذهب في فترة تراكم الأعمال بالضبط!" ثم فكر قلقاً بزمن مجيء أخيه. تمتم فجأة: "لأدع الألماني إلى الطعام!" كان يفرك وجهه بالصابون. فكر كيف سينظر الألماني، ومن في البيت إلى هذه الدعوة. لم يجلب جودت بيك إلى البيت أحداً من زملاء العمل غير أصدقائه المقربين جداً. شعر بالضيق من هذا. ولكنه ابتهج عندما تخيل أن الألماني سيأتي إلى البيت، ويفرح، ويشعر بالقرب منه، وسيتوصل معه إلى اتفاق. كان واثقاً أن نجم زوجته سيلمع في تلك الدعوة، وأن الألماني سيعجب بها. خطر بباله مباهياً كيف أن نرمين تتصرف براحة في الصالات، ووسط الزحام، وهي على عكس شبيهاتها من النساء تتحدث مع الجميع وخاصة مع الرجال براحة. ثم تذكر الأخطاء باللغة الفرنسية التي ارتكبها أثناء الحديث مع الألماني فاحمر وجهه. درس الثانوية في غلاطة سراي، ولكن لغته الفرنسية كانت سيئة. خلال آخر رشقة ماء على وجهه، فكر: "لأنه لم يبق عندي وقت للدراسة بسبب التجارة!" لقد عمل إلى جانب أبيه بعد إنهائه الثانوية فوراً. هذا يعني: "أنا تاجر أنتش من البذرة!" جلبت عبارة: "أنا تاجر أنتش من البذرة!" إلى ذاكرته التاجر القيصري من جديد. عرض عليه التاجر الذي يسمي نفسه

"زير نساء من البذرة" بلغة مستترة أن يقوما معاً بملاحقة النساء، ولكن عثمان رفض عرضه ببرود. خلال تجفيفه وجهه بالمنشفة، تمتم قائلاً: "ملاحقة النساء!". وابتسم كأن تلك العبارة تدعو إلى الضحك. فتح الباب، وخرج. تمتم: "كريمان!" كاد يتذكر خليلته التي يلتقي بها مرة في الأسبوع، ولكنه ضبط نفسه. غسل نفسه، ونظفها، وسرت بيديه ووجهه برودة لذيذة. ذهب إلى غرفته، وسار نحو الشرفة: كانت رائحة زيزفون شذية تدخل من النافذة. وجد نفسه معافى، وقوياً، وخرج إلى الشرفة مستمتعاً، وأسند نفسه إلى حاميتها.

تناهى إليه من الأسفل صوت النساء اللواتي يجلسن تحت الأشجار. كانت السنونو تحلق بعيداً فوق القرميد والأشجار. وحطت حدأة على رأس شجرة سرو. كانت نهاية شهر أيار. وكان عثمان يشعر أنه يستمتع بهذا الوقت الأجمل من اليوم. هنالك غيمتان في السماء بعيدتان حمرتهما الشمس التي ألهبت الحديقة طوال اليوم. ستغيب الشمس بعد قليل خلف أبنية الحربية، ولكن الضيفتين لم تنهضا بعد. كان عثمان يسمع حديثهن.

كان صوت ناعم ورفيع يقول: "أمرت بإشعال أربع مدافئ طوال الشتاء. يشعر الإنسان بالبرد أكثر مع تقدمه بالسن..." كانت هذه ديلدادة خانم.

صوت شاب ومرح يحكي عن راحة الشقق ذات التدفئة المركزية. إنها زوجة فؤاد بيك ليلى خانم.

إثر هذا قالت نيفان خانم: "يبدو أنني لا أستطيع الاعتياد على هذه المسماة شقق بناء!" وتنهدت. قالت هذا بصوت يبدي ضيقاً، وشكوى، وهماً كأن هنالك من يجبرها على السكن في شقة بناء.

تدخلت نرمين بالحديث. تحدثت عن تحضيرات الصيف، والبيت الذي يدلف سقفه في جزيرة هيبلي. وغير عثمان مكانه ليتمكن من رؤيتها بين الأشجار. رأى بريهان. أثارت فيه بريهان انطباع أنها طفلة صغيرة كما كان يشعر نحوها دائماً. لم تكن تشارك بالحديث، بل تلهو بالفنجان الذي بيدها كالأطفال. قرر عثمان ألا يشرب شايه في الحديقة بين النساء، بل في غرفة المكتب أثناء قراءته الجرائد والرسالتين، ولكنه لم يتحرك من

مكانه. كان مصغياً إلى النساء والحديقة، يجد نفسه صحيح الجسم.

هناك خمس ربات بيوت في الأسفل. وعندما فكر فيهن عثمان، خطرت بباله الصحة النفسية، والاسترخاء، والمرح. فكر مرات بالنساء اللواتي في الأسفل، أمه، وزوجته، وبريهان، والضيفتين. وتذكر عائشة بضيق، وابنته الصغيرة بمرح. وفجأة تمتم من جديد "كريمان!" ولكنه لم يبعدها هذه المرة عن عقله. ففي وقفة عيد الأضحى، وقبل ذهاب رفيق، كشفت الأمر نرمين، ونشب شجار بينهما، ثم أقسم عثمان عدداً من الأيمان أنه لن يراها مرة أخرى، وصدقت زوجته. وفكر وهو ينظر إلى نرمين التي تتحدث إلى ديلدادة: كيف صدقت قسمه بهذه السهولة؟ وشعر مثلما يشعر كلما تذكر هذا الموضوع: "لأنها المرة الأولى التي أكذب عليها!" وبدأ يعزف ناقراً على حامية الشرفة. "حسنٌ، ماذا كانت ستفعل إذا لم تصدق؟ أو إذا اكتشفت أنني ألتقي بها من جديد؟ لا يمكن أن تكتشف، لأنها امرأة ضعيفة رغم راحتها كلها!" ثم تذكر بقليل من الضيق، والتباهي: "ولكن أبي كان سينتبه إلى ذلك. لم أكن أجرؤ على هذا في حياته أصلاً... أبي كثيراً ما..." وانتبه فجأة إلى أنهن ينادينه من الحديقة.

كانت نيغان خانم تقول: "لماذا لا تأتي إلى الأسفل، تعال إلى الأسفل!"

حيا عثمان النساء اللواتي يحركن رؤوسهن إلى الأعلى وإلى الأسفل كالحمام ليرينه من بين الأغصان والأوراق بمرح، ولكنه كان متعباً. قال: "الآن وصلت!" ورد على صوت ليلى خانم التي قالت بضع كلمات: "أهلاً بكم. لدي عمل قليلاً، سأنزل بعد قليل."

دخل إلى الداخل معتقداً أن أولئك الضيفات اللواتي رأينه سيذهبن بعد قليل. نزل إلى طابق الأوسط. أخذ الجرائد والرسالتين. نادى نحو الأسفل ليحضروا له شايه إلى الأعلى. جلس على الطاولة في غرفة المكتب. فتح المظروفين بفتاحة عليها حرق مجيدية: كتب رفيق كالعادة أنه سيتأخر عدة أشهر. وشرح ما أسماه "دراساتي" الغريبة والغامضة، ويسلم على الجميع، ويسأل عثمان عن وضع الشركة لإسقاط العتب. رمى عثمان الرسالة جانباً بغضب. ورغم معرفته ما في رسالة ضياء فقد قرأها بفضول

ليعرف ما إن كان قد أضاف لترهاته ووقاحاته جديداً، ولكنه لم يصادف شيئاً جديداً. كان العسكري المقيم في أنقرة يكتب رسالة كهذه كل أربعة أو خمسة أشهر، ويقول إنه سيأخذ حقه من النقود، ولكنه لا يقدم على أي حركة من أجل تحقيق مطلبه المضحك هذا. ولحظة أراد أن يمزق الرسالة، خطر بباله أن يريها لأمه. فتح الجرائد بعد ذلك ليهدأ من غضبه. كان هناك خبر وحيد احتل عناوين الجرائد كلها: قضية هطاي. لم يكن عثمان يتابع تطورات هذه القضية في الفترة الأخيرة، وليس لديه فكرة محددة حول ما يجري. مع أن بإمكانه أن يتحدث مثلما يتحدث الآخرون هنا وهناك عن اللجان، والهيئات، والمراقبين، والوفود، ويكون له رأي خاص به في الموضوع يمكن أن يجعل الآخرين يصغون إليه. فكر فجأة: "كل هذا بسبب أنني أعمل كثيراً. ليس لدي وقت كاف لمعرفة ما يجري في العالم بشكل معقول!" ثم بدأ يقرأ الجرائد بانتباه. "خطاب وزير داخليتنا: شرح الدكتور أراس البارحة في البرلمان قضية هطاي. الوثيقة التي لا تقبل الجدل حول الظلم في هطاي..." خلال قراءة هذه الأخبار أدرك فجأة أنه يفكر على النحو التالي: "ماذا يفيد تجارتي جعل هطاي لنا؟ ماذا يمكننا أن نبيع لهطاي؟ المكان هناك في النهاية سوق، ومن الجيد جيداً أن تُضم لنا." خجل من هذه الفكرة، وقرأ الجريدة بانتباه محاولاً ألا يفكر بشيء آخر: "صرخة تركي في هطاي... سنحصل على حقنا بالتأكيد!..."

فتح الباب في هذه الأثناء بالضبط، وجلبت أمينة خانم الشاي معتذرة عن التأخير. دخلت لاله خلفها. رفع عثمان رأسه عن الجريدة، ونظر إلى ابنته البالغة من العمر عشر سنوات، وابتسم لها ابتسامة عطف نابعة من القلب كأب يحب ابنته.

قال: "إيه، ماذا فعلت اليوم لنر؟" وأدار عينه إلى الجريدة.

قالت لاله: "لا شيء!"

تذكر عثمان أنه لم يقبل ابنته ويداعبها. وخطر بباله أن يناديها إلى جانبه، ويقبلها.

قالت أمينة خانم: "حصلت الخانم الصغيرة على جيد جداً في درسها!" ولم تخرج، وقفت عند عتبة الباب، ولكي تتفرج على مشهد الأب والبنت الانفعالي، انتصبت والصينية بيدها، وعلى وجهها بهجة رؤية الآخرين سعداء.

سأل عثمان ابنته: "لماذا لا تخبريني في أي درس؟" عندما عرف أنها مادة الرسم، قطب حاجبيه، وقال: "الرسم هام، ولكن الحساب أهم! الحساب رأس كل شيء. كم أخذت بالحساب؟" وعندما عاد إلى الجريدة كان قد علم أنه لم يكن لديها درس حساب هذا اليوم. سأل ابنته أين جميل. وعرف أنه في غرفته. ثم سأل عما إذا كانت الضيفات قد ذهبن أم لا، ولكنه كان يعرف جواب هذا السؤال. لأن أصوات الوداع تحت النافذة مسموعة. وخلال تصفحه الجريدة سأل عن أشياء أخرى، وتلقى أجوبة بالنفي. وفكر فجأة: "لابد لي أن أدعو هذا الألماني إلى الطعام!" وعندما كانت ابنته خارجة من الباب سألها عن عمتها عائشة. وأثناء نظره إلى الجريدة أيضاً سمعها تقول: "في الأعلى، في غرفتها تبكي!" فشعر بالضيق.

كان ينظر إلى جريدته، وينصت إلى الجرس الذي ستقرعه الضيفات اللواتي لا يخرجن، ويفكر بسبب بكاء أخته. وقد رأتها نرمين أيضاً مع ذلك الشاب الذي يحمل حقيبة كمان، ونبهها بعد ذلك عثمان بلغة حذرة. كان يعرف أنه سيغضب كثيراً إذا كررت الأمر. رفع رأسه عن الجريدة وهو يخشى من الغضب والتوتر. نظر إلى صورة أبيه المعلقة على جدار الغرفة. كان جودت بيك الذي مضت سنة بالضبط على وفاته يبدو في تلك الصورة الملتقطة في شيخوخته كما لو أنه ينظر إليه بمرح وتفكير، وكأنه يقول له: "هي ذي العائلة على هذا النحو. هل تعتقد أن تأسيس عائلة، والمحافظة عليها منتصبة أمراً سهلاً؟" وفجأة تذكر أن لديه خليلة، فهرب بعينيه من نظرة أبيه. ولكنه سامح نفسه عندما فكر كم عمل في السنوات الأخيرة، وكم بذل جهوداً من أجل توسيع الشركة، وتأسيس المصنع الذي كان أبوه يتخيله. وعندما عرف من صوت الضيفات اللواتي لم يغادرن بأي شكل، بأنهن غادرن، أخذ الجرائد، ونزل إلى الأسفل. وطلب من أمينة خانم شاياً طازجاً، وخرج إلى الحديقة الخلفية من باب المطبخ.

النساء اللواتي عدن إلى الجلوس على كراسي الخيزران. عند اقتراب عثمان منهن اتخذ شخصية الرجل المتعب الذي يحتاج إلى حنان ومحبة وحب التي يتخذها كل مساء، واستمتع. نظر إليهن واحدة واحدة، وسلم على كل واحدة منهن بشكل خاص، ومشى نحو مقاعد الخيزران. رأى أمه عن قرب، وفهم بشكل قاطع أنه لا يستطيع أن يدعو الألماني ممثل شركة مواد البناء إلى البيت. كانت أمه تجلس مهمومة مشتكية مثلما هي دائماً. خلال جلوس عثمان بجانب أمه لم يستطع أن يستنتج كيف فهم أنه لن يتمكن من دعوة الألماني إلى البيت منذ اللحظة الأولى. ولكن ابنها عندما ذهب إلى جانبها، وجلس، ونظر بانتباه إلى نيغان خانم التي لم تستطع إخفاء بعض ملامح السعادة، حتى ولو كانت قليلة، ورفت بجفنيها، بدا كأنه استنتج بعض الأمور: هناك جانب في حركات أمه، في فرحها، أو حزنها تجعل الإنسان لا يستطيع التفكير بجلوسها مع الألماني على طاولة واحدة متقابلين. وهذا أكثر ما أدهش عثمان المباهي بأن أمه ترعرعت في بيئة مثقفة غنية كابنة باشا. عندما حل وجه المرأة اليائس من الحياة محل الوجه السعيد الذي كان لدى نيغان خانم، ودقق النظر بجلوس أمه على الكرسي، وتململها، وإمساكها بالفنجان، آمن بأن أمه تلقت تربية جيدة، ومثقفة، وغنية بالنسبة إلى الألماني برأيه، ولكنها ستكون مسلية مثل نساء العثمانيين الشرقيين في الحرم، وغضب مدركاً أنه لن يستطيع الحصول على وكالة شركة مواد البناء لأنه لن يستطيع دعوة ذلك الرجل إلى بيته. وفي أثناء شربه الشاي الذي جلبته الخادمة أمينة خانم استمع إلى أخبار اليوم من أمه ومن نرمين. وهذه أمور صغيرة تافهة تتكرر كل يوم: نيغان خانم أنبت البستاني، دعتهم أسرة فؤاد بيك مع نرمين إلى وليمة، أرسل معلم قرميد إلى جزيرة هيبلي، شفيت ملك الصغيرة النائمة في الأعلى من الإسهال الذي أصيبت به... عندما ذكر هذا الأمر الأخير خيم صمت قصير، وفهم عثمان أن الجميع فكروا برفيق للحظة.

بعد قليل، سألت نيغان خانم كأنما أدركت أن الجميع يفكر برفيق: "ماذا كتب؟" ثم نظرت بطرف عينها إلى بريهان.

قال عثمان: "كتب ما يكتبه عادة! يقول إنه سيتأخر عدة شهور أخرى، وإنه يعمل على بعض الكتابات!" كان سيستخدم بعض العبارات المستخفة بأخيه، والاتهامية، فتذكر وجود بريهان، فضمت. واكتفى بالتمتمة قائلاً: "في فترة تراكم الأعمال علينا هذه!"

وخيم صمت قصير.

سألت نيفان خانم بغضب مفاجئ: "حسنٌ، والآخر؟ ماذا كتب الآخر؟"

لم يفهم عثمان بداية. ثم دهش لوضع أمه رفيقاً وضياء في كفة واحدة، ولكنه فرح قليلاً. ثم قال خجلاً من فرحه هذا: "هذا أيضاً كتب الأمور نفسها!"

قالت نيفان خانم: "لنبلغ ساعي البريد على الأقل ألا يجلب بعد الآن رسائل ذلك المجنون، العسكري الفاسد! وليعدها!" ونظرت مرة إلى عثمان، وأخرى إلى نرمين بفضول لمعرفة ما إن كانت فكرتها تلاقي الترحيب أم لا. ثم قالت فجأة بأنين مصحوب بحركة تبدي الندم الشديد والدهشة أكثر مما تبدي الفضول: "لماذا لا يأتي؟ آه يا عزيزي رفيق، ماذا فعلنا لك نحن!" وقطبت وجهها.

فكر عثمان: "ستبكي!" لقد مضت سنة على وفاة جودت بيك، واعتاد الجميع على بكاء نيفان خانم في الوقت المناسب أو غير المناسب، ولكن رغم هذا فإنه أمر مضايق. يريد عثمان أن يقرأ جرائده، وأن يستنشق رائحة الزيزفون، ويشرب شاياً بهدوء، وينظر إلى وجه أمه قلقاً.

بدأت نيفان خانم تنشج بشكل خفيف. نظر عثمان إلى نرمين يائساً. أراد بنظرته تلك أن يقول لها إنه لا يجد الطمأنينة التي يرنو إليها في البيت. ولكن نرمين رفعت رأسها إلى الخلف بشكل خفيف كإنسان يعرف بعض الأمور.

قالت نرمين: "رأت ديلدادة خانم، وليلى خانم عائشة في الطريق أثناء مجيئهما" وأمالت بكتفها كأن طبلاً ثقيلاً معلق عليه. "مع ذلك الشاب عازف الكمان أيضاً..." ونظرت إلى نيفان خانم بتعبير متفهم كأنها تقول: "أمك تبكي أساساً من أجل هذا الأمر! قالت ليلى كم كبرت عائشة، وصارت أجمل. وأبدت أنها أفلتت من لسانها أنها رأتها بصحبة عازف كمان!"

نهض عثمان وهو يفكر: "هذا هو السبب إذاً، هذا هو هاا" كان قد غضب لعدم طاعته، ولإقدام عائشة على هذا الطيش، ولعدم إيجاده تلك الطمأنينة التي يرنو إليها وسط العائلة. قال: "أين هي؟ نادوها. نادوها هيا!"

بدأت نيفان خانم تتمتم: "لم يعد هنالك من يحترمنا! آه يا جودت، بعد رحيلك!"

عندما كان عثمان ينظر إلى أمه أدرك مرة أخرى، وبشكل قاطع أنه لن يستطيع دعوة الألماني إلى البيت.

نهضت بريهان واقفة. وقالت: "كنت أساساً ذاهبة لأتفقد الطفلة! سأصعد إلى الأعلى. ولأخبر عائشة!" وكان يبدو عليها البكاء أيضاً. وهي لا تريد البقاء أثناء هبوب العاصفة الوشيكة على الأغلب.

كان عثمان يعرف أن عاصفة ستهب. طلب من نرمين أن تعيد ما قالته ليلى خانم. وقالت نرمين إن نيفان خانم قد صرخت بعائشة عندما صعدت إلى الأعلى. وفكر عثمان: "هذا هو سبب بكائها إذاً!" واخذ يمشي غاضباً وسط الحديقة. عندما سمع أمه تعيد الكلمات ذاتها، فكر: "وفوق هذا فإن أمي تخطط لإعطاء عائشة لابن ليلى المكور ذاك! ..مع الشاب عازف الكمان ذاك دون خجل من أحد... فوق ذلك فقد كانا قد جاءا حتى دار المحافظ عندما رأيتهما أول مرة!" ومن أجل أن يهدأ نفسه خرق قاعدة تدخينه أول سيجارة في البيت بعد طعام العشاء، واشعل واحدة من نوع ترياقي/ المدمن. ولكي يوجه غضبه كله نحو نقطة معينة، ويحول العاصفة التي يوشك على تفجيرها نحو نتيجة مثمرة أدرك أنه لابد أن يتخذ قراراً حاسماً، وفكر فجأة: "يجب أن تُرسل إلى أوربا هذا الصيف! يجب أن تُرسل إلى تاجيسير خانم في سويسرا." ثم خطر بباله أن ابن ليلى خانم المكور سيكون هناك أيضاً. "ولكن ماذا لو لم تقبل؟" تفكيره بهذا طيّر صوابه. كان يتجول في الحديقة بخطوات صغيرة سريعة. "اريد طمأنينة في هذا البيت، ولكن بسبب هذا..." تذكر رفيقاً، فتأجج غضبه. وخطرت بباله رسالة ضياء. "أنا أعرف ما سأفعل إذا لم توافق! ما هذه الحال التي يمر بها البيت؟ انظر إلى هذه الأزهار فقد ذبلت!" ورأى أعشاباً صفراء ميتة

مرتخية مكان الخضرة التي كان يستنشق منها رائحة الربيع. "لا يستطيعون تدبر أمر بستاني..." نظر إلى تلك الأزهار الغريبة ذات الأسماء العجيبة التي كان يرعاها جودت بيك. كانت نيغان خانم تسقيها بيديها. فجأة بدا كأنه تعرض لظلم: كان أبوه يجد الراحة والنظام اللذين ينشدهما داخل البيت على الأقل. تذكر خليلته، وتوازن شعوره بالظلم. فقال لنفسه: "إذا لم يبحث الإنسان عن الطمأنينة في مكان آخر، فماذا يفعل؟" وخطرت بباله ذقن كريمان، وفمها الصغير المحبب الذي لا يشبه فم نرمين الكبير، والمتكبر أبداً، فبدا عليه كأنه انتشى. ثم رأى عائشة. كانت تمشي عابسة، ولكن عينيها ليستا دامعتين على الأرجح. خطر بباله أن أخته قبيحة. وقال لنفسه: "آه، خدعت بسرعة مثل المخبولين!" مشى نحوها. ونظر إلى وجه أخته بتمعن قبيل وصوله إلى كراسي الخيزران بعدة خطوات، فلم يجد في عينيها الدموع أو الخوف مثلما كان متوقعاً، بل تحدياً غير واضح تماماً.

قال: "أين كنت؟" ودهش لأن أول عبارة له كانت باردة ودون معنى على هذا النحو.

قالت عائشة: "كنت في غرفتي!" وتبلور التحدي في وجهها: "كنت أقرأ كتاباً!"

"هل هو كتاب مدرسي؟ لا، طبعاً، أليس كذلك؟ اقرئي، ولكن مجرد القراءة ليست مهارة!" كان يغضب عندما يسمع صوته...

كانت تنظر إلى أخيها الكبير بموقف العارفة إلى أين ستؤدي هذه العبارات، وبدأت واثقة من نفسها صامتة. لم تكن هذه الثقة بالنفس والتحدي أمراً مألوفاً لديها.

قال عثمان: "لن أطيل بالكلام!" وقطب وجهه: "رأوك مع عازف الكمان ذاك مرة أخرى!" وأضاف وهو ينظر إلى نرمين، ونيغان خانم: "رأتك ديلدادة خانم، وليلى خانم!" وحين جلس على مقعد الخيزران، قال: "هل لديك ما تقولينه؟"

هزت عائشة رأسها. ثم تململت كأنها جاءت إلى هنا لتقول هذا فقط، وتذهب.

"إلى أين؟ اجلسي هنا، اجلسي، واسمعيني! نبهتك مرتين في هذا الموضوع. نبهتك أول مرة بشكل حلو معتبراً أن الأمر مصادفة، وبشكل جدي في المرة الثانية... ولكنني أرى الآن أن كلامي دخل من إحدى أذنيك، وخرج من الثانية." ولكي يريها كيف خرج الكلام من الأذن الثانية، أمسك شحمة أذنه بأصبعيه. وجد نفسه مضحكاً عندما انتبه إلى هذا، وتأجج شعوره الداخلي بالظلم، وقال غاضباً: "لن أطيل بالكلام. أولاً: ستذهبين هذا الصيف إلى تاجسير خانم في سويسرة. سأكتب لهم رسالة فوراً. ستقضين الصيف هناك... ثانياً: لن تتلقي دروس بيانو عند ذلك الرجل بعد الآن." وأضاف متابعاً تأثير كلماته على وجه عائشة: "واعتباراً من الآن سيذهب أحد ما لاصطحابك من المدرسة أيضاً... سيذهب نوري... أو يذهب ذلك البستاني الذي لا يفيد بأي شيء، يذهب أحدهم!.. هل لديك ما تقولينه؟"

خلال توهج التحدي في وجه عائشة للمرة الأخيرة، تمتمت قائلة: "لا أريد أن أتلقى دروس بيانو بعد الآن!" وحلت الهزيمة واليأس محل ذلك التوهج.

أعاد عثمان: "لا، قلت إنك لن تتلقي دروس بيانو من ذلك الرجل فقط! لن تتلقي هذه السنة. ولكنك ستتلقين في السنة القادمة. في السنة القادمة... هل تسمعينني؟ عندما تصغين إلي انظري في عيني رجاء. نعم، هكذا.. ثم لا تهزي برجليك رجاء، هذا يوتر أعصابي. لا تنسي هذا. توفي والدنا. وأعد أنا والدك أكثر مما أعد شقيقك الكبير..." نظر إلى نيغان خانم بداية، ثم إلى نرمين بشعور نصر غير واضح.

نظرت نيغان خانم، ونرمين إلى عائشة بانتباه كأنهما تفكران قائلتين: "هكذا تكون نهاية هذا!" وهزتا برأسيهما إلى الأعلى والأسفل.

فكر عثمان بما سيختم به كلامه قبل أن يشرب شايه، ويقرأ جريدته قال: "لا أدري إن كان هنالك ضرورة لأقول لك إنني لا أريد أن أراك مرة أخرى مع ذلك الشاب الذي يحمل حقيبة كمان؟"... وكرر وهو ينظر نظرة تنتظر جواباً: "هل هنالك ضرورة؟" ثم سأل بشكل مفاجئ: "ماذا يعمل أبوه؟"

تمتمت عائشة: "مدرس!"

"مدرس! ابن مدرس..." نهض غاضباً. "ها هو قد خدعك! الأمر واضح تماماً! فهم أنك ابنة عائلة جيدة. سيخدعك، وسيضع يده على حصتك من

إرث والدك، وسيمضي عمره كله مستمتعاً... ولكي يدفع لك دينه سيعزف لك على الكمان كثيراً..." ثم انحنى إلى الأمام، وقلد عازف الكمان بيده، وفرح لأنه لم ير تلك الحركة مضحكة، بل مهينة كما أراد.

قالت عائشة فجأة: "إنه شاب جيد!" وبدأت تبكي.

"تقولين شاب جيد! الشاب هذا الذي تقولين عنه إنه جيد هو ثعلب ماكر. خدعك... ألا تفهمين نيته؟ أليس عندك ولو مقدار صغير من عقل؟ شاب جيد! الشاب الجيد سيجلس على كل شيء! ثم يعزف لك على الكمان... كيف تكسب النقود، أتعرفين أنت؟ سنرسلك إلى سويسرا. هل تعرفين أن هذا يعني نفقات؟" وفجأة تأجج في داخله شعور بالاشمئزاز. وأراد أن يغسل يديه بماء كثير وهو يرغي الصابون طويلاً. قال متأججاً غضبه أكثر: "لا تبكي، لا تبكي! لن تحصلي على شيء بالبكاء! ضعي عقلك في رأسك بدل أن تبكي! وانظري ما يكلف هذا، وكيف يبنى بيت، وتؤسس شركة... لا تنسي أن أباك بدأ من بيع الحطب! حسنٌ، حسنٌ! ابكي إن أردت، ولكن ليس هنا. اصعدي إلى غرفتك، وابكي..."

نظر من خلف أخته الماشية نحو المطبخ. تمتم: "كل هذه الأعمال، هذه العائلة، الشركة، كل شيء!" ثم انتبه أن الشاي على طاولة الخيزران قد برد. جلس على المقعد محاولاً تهدئة أعصابه. التفت إلى أمه ثم إلى زوجته. ولكي يضغط على شعور الظلم والقلق حاول أن يقرأ ما كتبته الجرائد حول قضية هطاي بانتباهه كله، ولكنه لم يستطع استجماع نفسه. ترك الجرائد في حضنه، وأسند رأسه بشكل خفيف إلى مسند كرسي الخيزران، ونظر شارداً إلى أشجار الكستناء والزيزفون العالية.

33
صوت القلب

إنه يوم السبت الرابع من حزيران. اضطجع بعد الطعام، ودفن رأسه بالمخدة، ولكنه لم يستطع أن ينام. يريد أن ينام ليلقي عن كاهله تعب الصباح الذي مضى بالهندسة، وقراءة كتاب رضا نوري في التاريخ التركي، ولكن النوم لا يدخل إلى عينيه، ويعرق، وشعر بالنبض في رأسه المدفون بالمخدة، وخلف أذنيه. كان قلبه يخفق ببطء. قال ماهر الطايلي قبل عشرة أيام: "أصغوا إلى صوت قلبكم قليلاً!" كان محي الدين يريد أن يصغي إلى صوت قلبه، ويقرأ الكتب والمجلات، وينفعل. قرر أن يكون قومياً تركياً. قرر أن يكون قومياً تركياً مثلما يقرر شاب أن يكون طبيباً، وطفل أن يكون إطفائياً، ولكنه يدرك أنه مختلف عنهم بسبب تفكيره وبأن قراره سيكون غريباً. عندما كان يريح رأسه على المخدة المتحولة إلى عجين بسبب الحر وقطرات العرق المنسابة من جبينه فكر: "ماذا أفعل؟ هل ما أفعله صحيح؟" وسيطر عليه الخوف فجأة. وخجل من جبنه. استنتج أن هذه الفكرة الخاصة بالناس الضعفاء الذين لا حول لهم قد خطرت بباله لأنه مخمور بالنعاس. أدرك أنه لن يستطيع أن ينام. نهض من السرير، وذهب لغسل وجهه، وضع نظارته، وجلس إلى الطاولة. وبحث في عدم استطاعته النوم.

خاف من أفكاره، ولم يستطع أن ينام لأن عاصفة هبت في داخله. كانت العاصفة تسأل محي الدين سؤالاً لم يعتد عليه أبداً. كانت تقول: "هل ما تفعله صحيح؟" نادراً ما سأل نفسه هذا السؤال حتى الآن، لأنه لم يصغ إلى صوت قلبه. فقد تصرف دائماً وفق فكره، وقرر منقباً في محيطه بواسطة عقله. أثناء نظره إلى الجرائد والمجلات والكتب التي على الطاولة، تمتم قائلاً: "أنا أدع نفسي الآن لانفعال قلبي، وأسمع ما لم أسمعه من قبل، ولكنني سأعتاد!" ثم أدرك أنه لن يستطيع الجلوس إلى لطاولة. بدأ يذرع الغرفة رواحاً ومجيئاً.

كان قلقاً كأن شيئاً مما يحل برأس الآخرين قد حل به، أو أصيب بالسرطان، أو قتل أحدهم وهو مضطر للاعتياد على هذا. حدد سبب قلقه، وفهم أنه على هذا النحو بسبب عدم اعتياده على الإصغاء إلى صوت قلبه، ولكنه لم يكن يعرف كيف سيتخلص من هذه الضائقة. وفكر: "هذا يعني أنني يجب أن أتغير من فرقي إلى قدمي!" تجلت أمام عينيه حاله السابقة. كان يجلس إلى هذه الطاولة في هذه الغرفة أيضاً، يحاول أن يكتب شعراً، ويفكر، ثم يلقي بنفسه إلى الشارع متضايقاً، ويبحث عن لهو. فجأة بدا له أنه يتوق إلى حاله التعيسة السابقة الكارهة لكل شيء وكل شخص. قال لنفسه: "كان كل شيء واضح أمام عقلي، ولم يبق علي سوى التفكير! حسنٌ، ماذا أفعل الآن؟ أغدو إنساناً آخر!" وقف وسط الغرفة بتشكك. "هل أغدو إنساناً حقيقياً فعلاً، أم أنني ألقي نفسي في مغامرة؟"

"مغامرة!" كانت هذه كلمة مسلية. كان يلمع حياته التي انقضت في المكتب والخمارات وسط النوم، والمتعفنة وهو في عمر الشباب. ذهب إلى مجلة أوتكان بعد لقائه ماهر الطايلي في الخمارة بثلاثة أيام، والتقى به. قابله ماهر الطايلي بمحبة، وعرفه بعدة أشخاص ينظرون إليه بإعجاب واحترام، ثم فُتح الحديث حول قضية هطاي. لم يكن محي الدين قد ذهب إلى المجلة ليتبنى الفكر القومي التركي، بل بدافع الفضول، ولكي

يتخلص مما يشغل باله منذ أيام. وفور مقابلته لأولئك الأشخاص أدرك فوراً ضرورة حمايته لنفسه، وأن يكون حاسباً كل شيء، ومنتبهاً لكلماته. شعر أن الناس هنا كرسوا أنفسهم لفحص الآخرين، ومعرفتهم، ووضع نفسياتهم في راحات أيديهم، واللعب بهم، ولعب لعبة، أو تلعيب لعبة. حُكيَ عن قضية هطاي، ولكن محي الدين فكر بأن ما يحكى عنه كان موضوعاً آخر، وكان كل منهم يعرض موهبته، وذكاءه، ومكره محضراً نفسه بشكل خفي لنضال آخر. ابتسم حين خطرت بباله كلمة "نضال". وفكر: "ها أنا محي الدين المعهود! وجدت ملعباً لخيلي!" ثم رأى المجلات على الطاولة، وخجل من أفكاره هذه. كان صوت ماهر الطايلي يقول: "إنهم يحرقون نفس أبناء عرقنا في هطاي، بماذا تفكرون أنتم هنا!" فكر محي الدين: "كنت إنساناً سيئاً. يجب أن أتخلص من حالي البشعة وإعجابي بنفسي، وأهيّج قلبي!" ثم جلس إلى الطاولة.

كان يجب عليه أن يهيج قلبه. سيتهيج قلبه، ويطفئ لهيب عقله الصغير الماكر الخبيث، سيذوب محي الدين في المجتمع، ويتخلص من ذنوبه. وفكر بأن آخرين يسبحون في المحرمات منذ سنوات، فغضب من نفسه، ولكن هذا نادراً ما يحدث. وعندما تذكر ماضيه تأجج في قلبه الكره على الأغلب. أما الآن فحاول توجيه الكره نحو هدف معين. نحو الفرنسيين الذين يقتلون أبناء عرقنا في هطاي، العرب الذين طعنونا في الظهر... ولكن لا، لا! كان غاضباً من اليهود والماسونيين أكثر. كان هنالك شاب يهودي في كلية الهندسة. ستعتقدون أن شاباً طيباً من النظرة الأولى، يغشش الآخرين في الامتحانات، ويساعدهم، ويعطي واجباته التي يعدها للكسالى من أجل أن ينسخوها دون تردد، ولكن محي الدين يدرك الآن وجود ازداوجية تكمن وراء تلك التصرفات كلها. ثم خطر بباله الماسونيون. أغلق الماسونيون جمعياتهم كلها، وتبرعوا بها، وبأموالها لمراكز الثقافة الشعبية، ولكن هذا ليس دليلاً على انسحاب الماسونيين فرداً فرداً من

الحركة... وعندما يذكر الماسونية، يخطر بباله دائماً شقيق رفيق الكبير عثمان، فهو يعتقد أنه ماسوني. لديه تصرفات تشبه تصرفات الماسونيين بالضبط: معجب بنفسه، تاجر ناجح، وهو متكبر إلى حدود الهزل، يداه نظيفتان معتنى بهما، يذكر حديثه برائحة الصابون. غير هذا هناك الألبان والشراكس، وهؤلاء خطرون برأي ماهر الطايلي لأنهم تسللوا إلى الدولة. وهنالك الأكراد أيضاً. وهنالك الشيوعيون طبعاً.

تثاءب فجأة فاغراً فمه إلى أقصى حد، ثم تمطى. فكر: "أكاد أجن! ماذا يحدث لي؟ كيف أغدو؟ أغدو قومياً تركياً. لم أغد بعد، ولكنني سأغدو. كيف حدث أن صرت هكذا؟" وخطرت بباله الليلة التي صادف فيها ماهر الطايلي. فبعد خروج المدرس القومي التركي من الخمارة في تلك الليلة، شرب محي الدين كأساً آخر، وعاد مباشرة إلى بيته دون أن يعرج على بيت الدعارة. فكر: "كل شيء بسبب هذا! لو ذهبت إلى بيت الدعارة، فسيضيع سحر كلمات الرجل، وتبدو لي تافهة. وهكذا لا أذهب إلى المجلة، وأبقى كما كنت. حسنٌ، لماذا لم أذهب إلى بيت الدعارة؟ لأنني، نعم، أفرطت بالشرب." دهش من نتيجة هذا التفكير، وقرر أنه عديم المنطق. ثم فكر: "الأمر الصحيح الوحيد هو أنني لم أعد أستطيع أن أكون مثلما كنت في الماضي!" وخطرت بباله الكلمات ذاتها التي قالها رفيق في الخريف الماضي. "ماذا يفعل الآن؟ كتب رسالة، يتحدث فيها عن تنمية الريف! ما علاقتي أنا! لو أنه اهتم بالقومية التركية بدل أن يهتم بتنمية الريف يا! لا يمكن أن يهتم هو، لأنه أساساً لا يشبه الأتراك. هذا أيضاً مضحك. وأخوه أساساً ماسوني بالضبط!" رفع رأسه فجأة متوجساً خيفة من وجهة غضبه. رأى أمامه صورة والده في فتحة المكتبة، وأدرك أن رأيه قد تغير فيه. لم يعد أبوه إنساناً مسكيناً أمضى حياته دون جدوى، دون أن يفهم شيئاً، بل محارباً مؤمناً وبطلاً، وأنه يدينه لعدم انخراطه في حرب التحرير. لم يفهم بالضبط ما إذا كان يفكر على هذا النحو حقيقة، أم

أنه يريد أن يفكر على هذا النحو. قال لنفسه: "الحالتان تؤديان إلى الباب نفسه! سأعتاد في النهاية!" وانفعل. سيعتاد. سيعتاد على الاستماع لصوت قلبه، والضياع وسط المجتمع، ومحو وعيه العفن هذا، ووضع الانفعال مكانه. نهض عن الكرسي منفعلاً. وبدأ يمشي وسط الغرفة من جديد.

كان يمشي داخل الغرفة، محاولاً استنتاج ما يمكن أن يحدث له عندما يغدو قومياً تركياً جيداً. "أتحرر من هذه التعاسة. ولا تسيطر علي انحرافات عبثية مثل الانتحار في الثلاثين من عمري. ويكون لي حياة منتظمة مفعمة بالإيمان! يحترمونني!" وقال بصوت عال فجأة: "يحترمونني!" وتجلت أمام عينيه مجلة أوتكان. كان هناك عدة شبان ينظرون إلى ماهر الطايلي بإعجاب. وكان هنالك شخص بعمره. رمق محي الدين بنظرة شك، نعم، ونظرة استخفاف. وفهم من نظرته أنه كان يفكر على النحو التالي: "لماذا تأخرت إلى هذا الحد لتكون قومياً تركياً، أين كنت؟" وخطر بباله العسكريان اللذان كان يلتقي بهما في خمارة بشك طاش. لم يقل لهما بعد شيئاً حول عقيدته. ثم فكر: "لأحضر نفسي جيداً، ثم أبدأ!" قرر أن يُهيئ نفسه بشكل جيد جداً، وأن يكون حذراً. تذكر الحديث في قضية هطاي. ماهر الطايلي وأحد الشباب عارضا الحل السلمي، وقال الآخران بأن من الخطأ معارضة الحل السلمي إذا كان سيؤدي إلى النتيجة نفسها، أي ضمها إلى تركيا. وتمتم محي الدين: "حسنٌ، ما رأيي في هذا الموضوع؟ لم يقل شيئاً أبداً، وعندما جاء دوره بالكلام مرتين أطلق عبارات غائمة "رأيي الحالي هو إعطاء الحق لماهر الطايلي، فرأيه سيحقق إعجاباً أكبر، ويثير الشباب. لأن إثارة الحمية في الكلام أهم من أن يكون صحيحاً." نظر بطرف عينه إلى الجريدة على الطاولة في أثناء مشيه. ثمة عنوان فوق ثمانية أعمدة في الجريدة: "إعلان حالة الطوارئ في هطاي!" وقدم رئيس الحكومة تصريحاً في هذا الموضوع أمام البرلمان. حاول أن يفكر بما يحدث بتفاصيله كلها، ولكن لم يتجلَ أمام عينيه سوى أن هطاي صارت دولة مستقلة،

أجريت هناك انتخابات، واصطدمت مختلف المجموعات في أثناء تسجيل قوائم الانتخابات. خجل من نقص معلوماته في هذا الموضوع، وفي موضوع القومية التركية، وعاد للجلوس خلف الطاولة.

كان على الطاولة كتاب رضا نور التاريخ التركي، وكتب ضياء غوكالب، وبعض المقالات، والمجلات، وجرائد الشهر الأخير. قرأ الجرائد القديمة جيداً، وأراد أن يعرف المناقشات التي جرت بين القوميين الأتراك، وبينهم وبين أعدائهم، وبحث بانتباه في التاريخ التركي المتنوع. وخلال تقليبه صفحات كتاب رضا نوري في التاريخ فكر بالكاتب. وقد وجده بسيطاً، وبدائياً، وسطحياً. ثم فكر أنه يمكن أن يكتب ذات يوم تاريخاً أهم من هذا بكثير. واستنتج أنه أذكى من الذين رآهم في المجلة كلهم. ولكنه كان قد قرر أيضاً أن يتخلص من إعجابه بنفسه أيضاً. وأنه يجب أن يخجل مما يخطر بباله. ثم تذكر خجلاً قوله لماهر الطايلي في الخمارة: "أنا لا أجد الفكر القومي صحيحاً!" فغضب من حاله القديمة، وانتبه إلى أنه نهض واقفاً بلاوعي. قال منفعلاً: "ولكنني قلت له إنني لست مسروراً من حالي السابقة!" كانت ذكريات اللحظات التعيسة التي عمل على نسيانها تتجلى أمام عينيه من جديد: يوم خطوبة عمر، وأيام إفراطه بالشرب، وخمارات بيه أوغلو، الكره والوحدة التي يشعر بها في بيت أسرة رفيق. قال لنفسه: "ولكنني يجب أن أتخلص من كل ذلك!" وجلس خلف الطاولة. "يجب أن أتخلص من هذه الأمور، وأتملص من ثرثرة عقلي، وأن أدع نفسي لصوت قلبي وانفعالاتي!" فتح كتاب رضا نور تاريخ تركيا، وبدأ يقرأ بانتباه.

34
وليمة

قال كريم بيك: "أووو، أهلاً بكم يا هر!" وصمت لحظة كأنه لا يرغب بذكر اسمه الذي على رأس لسانه: "هر رودولف... أهلاً وسهلاً. لا تجلسوا هناك، تفضلوا إلى هنا لطفاً..." كانوا يجلسون إلى المائدة. ورأى كريم بيك عمر أيضاً. "آ، وهنا متعهدنا الشاب طبعاً... أهلاً وسهلاً..." والتقط يد عمر، وجره نحو الرجل القصير القامة، ذي الشارب اللوزي. "الشاب خاطب ابنة صديقنا مختار بيك النائب عن مانيسا..."

قال الرجل ذو الشارب اللوزي: "آ، ناظلي خانم؟ إنها ابنتنا الناعمة المحترمة. مبروك!"

ابتسم عمر. وابتسم الرجل ذا الشارب اللوزي، كأنه يقول: "آه منك، آه، أنت بوضع عال!" كان نائب أماصيا، ومفتش الحزب في إحدى المحافظات الشرقية. ففي أثناء دعوة كريم بيك لأصدقائه، وبعض المتعهدين والمهندسين إلى وليمة هذا المساء التي يعدها لهم كل سنة، ذاع خبر وجود مفتش الحزب إحسان بيك العائد من جولة الشرق.

قال كريم بيك: "وهذا مهندسنا الشاب الآخر" وعرف مفتش الحزب برفيق. ثم أنهى الجملة التي بدأها وهو ينظر إلى عمر ورفيق مبتسماً لمهندس آخر، وسحب إحسان بيك إلى الطرف الآخر من الطاولة نحو أناس آخرين سيعرفه إليهم.

جلس الضيوف المتجولون حول المائدة كالقطط الجائعة منذ نصف ساعة على الكراسي ببطء. كانوا ينتظرون تقطيع الخروف الذي نزل عن النار قبل قليل. انكب طباخ يرتدي ألبسة بيضاء مع خادم على الحيوان يقطعانه تحت شجرة إلى الأمام قليلاً. قبل قليل صمت الضيوف المتجمعون زرافات في صالة براكة كريم بيك التي ينيرها مع محيطها مولد كهربائي مصغين إلى كريم بيك الجالس إلى المائدة. كان كريم بيك يروي إحدى ذكرياته حول إنشاء سكة حديد سيواس - صمصون. صمت الجميع في أثناء حديثه، فلا يُسمع غير صوت إحسان بيك موافقاً ما يرويه، وصوت المهندس الدانمركي الذي يترجم ما يُروى لزوجته.

عندما جاء اللحم المقطع إلى المائدة تركز انتباه الجميع في نقطة واحدة. وما إن باشر الطباخ ذا الألبسة البيضاء بتوزيع القطع، حتى بدأ إحسان بيك يحكي عن جولته في الشرق: تحققت الطمأنينة بعد عملية درسيم العسكرية في السنة الماضية. لم يعد أحد يرتجف خوفاً من قطاع الطرق، ولا أحد يقلق مما سيحدث في الغد. لم تكن قوة العسكر وحدها قد فرضت الأمن والنظام، بل حملة الإسكان والتعليم التي قامت بها الجمهورية أيضاً. كان إحسان بيك كثيراً ما يلتفت إلى كريم بيك وهو يتكلم، ولكن الجميع يعرفون أن المفتش في الحقيقة يتحدث لكل من على المائدة، وخاصة إلى المتعهدين الذين لم يقبضوا نقودهم السنة الماضية في موعدها بسبب العملية العسكرية. فبعد أن قال المفتش هذا، تذكر حادثة مضحكة عاشها أثناء حفل افتتاح جسر في إلظاغ: طالت كلمة المحافظ كثيراً تحت الشمس الحارقة، وفي تلك الأثناء بدأ حمار بالنهيق، فقال أحدهم من بعيد: "أسكتوا هذا الحمار!" وضحك أحد الموظفين، فأمر الوالي في ذلك المساء بجر ذلك الموظف الصغير الذي ضحك مع صاحب الحمار إلى المخفر، وضربا. وابتسم المفتش بتسامح بعد أن قص هذه القصة. كأنه كان يقول بتلك الابتسامة لمن حول الطاولة: "مع الأسف أن هنالك في الحياة السيئ، والمؤلم، وحتى المضحك مع الطيب. وأنا لا أتردد بقص هذا عليكم!"

بعد أن انتهى إحسان بيك، بدأ أحد المراقبين الفنيين الحكوميين المسنين مستفيداً من جو التسامح المخيم على الجلسة بقص حدث عاشه في

خط فيليوس. وهذا أيضاً كان ينظر إلى كريم بيك أثناء قصه، وكان الضيوف يصغون وهم يشربون من العرق المهرب المثلج الموضوع أمامهم في إبريق. كانت أمسية حزيرانية هادئة دون ريح. وبدت براكات العمال بعيداً توزع الضوء على الظلام الساكن.

أحضرت إلى المائدة مع اللحم صينية كبيرة من الأرز. فبسبب تأخر توزيع هذا الأرز لم يباشروا الطعام، وشرب أغلب الضيوف كؤوسهم الأولى على بطن خاوية. ورأى عمر أن تلك الكأس المشروبة مبكراً قد أرخت البعض، وبددت قليلاً جو النظام والاحترام المخيم على المائدة. كان هو أيضاً يريد الدخول في هذا الجو، وقول شيء ما، والحديث. لم يكن يعلم بوضوح ما إن كان يريد الحديث من أجل أن إشعار كريم بيك بأنه لا يخشى شخصيته القوية الساحقة للإنسان، والمسيطرة على كل شيء، والإيحاء بوجوده، أم لأنه يشعر بضرورة المرح فقط، ولكنه كان يدرك أن تلك الرغبة تتصاعد مع استمرار جلوسه إلى المائدة. تحدث فترة مع رودولف ورفيق، ولكن ما أمكنه أن يتحدث به معهما كان محدوداً، لعدم استطاعتهم أن يتحدثوا همساً. غير هذا، ليس ثمة ما يمكن أن يتحدثوا به فيما بينهم لأنهم معاً منذ أشهر. وبعد أن أنهى المراقب الفني الحكومي المسن قصته التي وقعت له في خط فيليوس، بدأ إحسان بيك بتلخيص العبر التي يمكن استخلاصها من هذه القصة. فالتفت عمر إلى مهندس صامت متوسط السن يجلس مقابله، وبدأ يحكي عما جرى له في السنة الماضية، وهي حادثة لا تثير الاهتمام أبداً من أجل أن يتحدث بأي ثمن، وأن يُسمع صوته. ولكي لا يلتفت المهندس إلى مكان آخر، إلى كريم بيك مثلاً، ركز عينيه على عيني المهندس ليأسره مدة طويلة. ولكنه عندما رأى أن المهندس ينظر إلى مركز المائدة نظرة اعتذار حيث انتهت القصة، ويجب أن يبتسم، أدرك أنه لم يجد المرح الذي يصبو إليه. وخطر بباله أن ينهض عن المائدة، ولكنه لم يفعل هذا عندما رأى رفيقاً يملأ بطنه على مهل.

لم يكن رفيق يتكلم، وكان يصغي لما يدور من حديث، ويتفرج على الناس، ويأكل كثيراً. كأنه جاء إلى هذه المائدة ليملأ بطنه الذي لم يستطع إشباعه منذ مدة طويلة بالطعام، وليغذي عينيه بصور أناس مختلفين. كان يشعر بانفعال سطحي لما يحكى مثل الجميع، ويبتسم

أحياناً، ويضع أرزاً في صحنه من جديد، ويجلس دون هم أو شكوى. ويبدو مثل إنسان مرتاح ومطمئن أنهى عملاً طويلاً وشاقاً بنجاح، وهرع إلى مائدة الوليمة، ولكن عمر يعرف أنه لم يكن يستطيع الراحة منذ ليال عديدة، وأنه قلق على "تنمية الريف" التي يعمل عليها منذ أشهر، وعلى مستقبله وحياته، وتسيطر عليه المخاوف.

كانوا يصغون لكريم بيك، وإحسان بيك، والرجل المسن. عمر يعرف هذا المسن الذي أدخل في السنة الماضية ضمن كوادر المراقبين الفنيين رغم أنه ليس مهندساً لأن عملاً له كان مع هذا الرجل. وفسر هذا الرجل الذي يفهم بالحساب والقانون تعيينه في هذا الموقع بسبب خبرته، ودقته الواصلة إلى حد المرض، ونزاهته. لم يدع هذا المسن إلى هذه الوليمة في السنة الماضية لأنه لم يكن في هذه الوظيفة. وبدا أنه منفعل كثيراً لمصادفته مفتش الحزب على مائدة كهذه يدعى إليها أول مرة في حياته: كان يحكي عن بعض الأمور بشكل ناري، ويعرض ما يجب عمله من أجل تصحيح بعض حالات الظلم، ويغضب من نفسه لأنه يخلط بين الجمل التي حضرها من قبل، ولا يغتنم هذه الفرصة التي تسنح مرة واحدة للإنسان في حياته.

عندما أنهى المراقب المسن حديثه، سأل إحسان بيك المهندس الشاب الجالس بجوار المسن: "أنتم أيضاً مهندس، أليس كذلك؟ ما الذي يمكن عمله في هذه الحال؟"

قال المهندس الشاب: "في هذه الحال ينبغي البدء بتنظيم الجداول قبل شهر، وإنهاء هذه الشكاوى نهاية لا تزعج أحداً."

قال مفتش الحزب للمسن على عجل: "أرأيت؟" وقال للطباخ الذي كان يركض حول المائدة دون ترك فرصة للمراقب المرتبك أن يرد: "هات قليلاً من الأرز لنرا" ثم أسند قدح العرق إلى فمه الذي يبدو كأنه مخبوء تحت شاربه اللوزي، وأخذ رشفة، ونظر بطرف عينه إلى المراقب المسن، وقال: "ثقوا بالثورة والدولة! ليس كل شيء تام بالتأكيد... ولكن المبالغة ببعض النواقص الصغيرة كتلك تأخذكم إلى جانب أعداء الثورة. كل شخص يخشى من الوقوع بالخطأ يجب أن يكون مع الدولة. وفوق هذا، فإن قضية هطاي الآن هي أهم من كل شيء..."

كان المرح والصخب يزداد. ولم يعد الحديث موجهاً إلى مركز المائدة، بل استمر ضمن مجموعات صغيرة تشكلت حولها. أحياناً يسمع صوت كريم بيك الذي يغطي على صوت الجميع، ولكن الضيوف استمروا بالحديث فيما بينهم. كان هنالك امرأتان في آخر الطاولة. وهما زوجتا المهندسين الدانمركيين. جلستا متجاورتين، تتحدثان فيما بينهما بلغتهما، وتشربان العرق بحذر، وتضحكان. كان الرجال على الجانب الآخر من الطاولة ينظرون أحياناً إلى المرأتين، ويدخنون السجائر مع العرق، ويستمعون للأحاديث، ويغتنمون فرصة عدم التقاء نظرهم بنظر أحد فينظرون إلى المرأتين من جديد، وينفخون دخان سجائرهم وهم غارقون بالتفكير. وفهم عمر من وجوههم أنهم يفكرون بتانك المرأتين وبحياتهم، ورغباتهم، وعندما رأى وجه أحدهم بدا له قبيحاً وهو ينظر إلى المرأتين، وتذكر ناظلي، واندهش لأن ناظلي خطرت بباله، وغضب من شيء ما، فشرب بعد ذلك من عرقه أكثر مثل بقية الرجال، وأشعل سيجارته، وأصغى إلى إحدى المجموعات.

كان هنالك نوعان من المجموعات على المائدة. المجموعة الأولى تتألف من رجال أكبر سناً، وأرجح عقلاً، وأكثر حذراً، وهؤلاء متعهدون اغتنوا من إنشاء السكة الحديدية. وأكثر هؤلاء أخذوا كنيات مثل شبكة الحديد، شاق الطريق، رابط الحديد، ثاقب الصخر عندما صدر قانون الكنيات، وكانوا قبل ست أو سبع سنوات إما متعهدين ثانويين صغار، أو مهندسين متخرجين حديثاً، أو موظفين حكوميين. اغتنوا خلال العمل في السكة الحديدية مستخدمين ذكاءهم أو مبادراتهم. ولأنهم مندهشون من المستوى الذي وصلوا إليه خلال ثلاث أو خمس سنوات، فهم حذرون، محتاطون، دقيقون. كانوا يريدون أن لا يشتكي أحد، وأن لا يتعرض أحد لظلم، وأن لا يمتعض أحد من النظام في عمل السكك الحديدية. يبدو أحياناً أن أحداً يريد أن يشكو، أو يبدي امتعاضاً، يصابون بالهلع كأن ثروتهم ستزول من بين أيديهم، لهذا السبب فهم يقابلون بفرح باشاوات الجمهورية، وقضية هطاي، وقمع التمرد الكردي، وكلمات الأخوة والتضامن. أما المجموعة الثانية فهم مراقبون فنيون حكوميون، وموظفون، ومهندسون يعملون مقابل راتب.

وهـؤلاء يسـتخفون بالمجموعـة الأولى لمعـرفتهم كيـف اغتنـت، ولكـن لتـوق أغلـبهم إلى أن يكونـوا مثلـهم، يمتـزج اسـتخفافهم بـالغيرة، والإعجـاب، والغضب، والاشمئزاز. ويختلف أحدهم عن الآخر بحسب الظروف، فمنهم متطرف للشرف، ومنهم يبدو عليه كره الجميع، وكل شيء، ومنهم المتسرع بالدخول إلى المجموعـة الأولى، والمدرب علـى هـذا، ومـنهم المتفـرج الخـدر لإدراكه أنه لم يعد يستطيع عمل اي شـيء. ولكـن هـؤلاء أيضـاً مثلهم مثل الآخرين المفتنين من السكك الحديدية يشعرون بأن وجودهم ومستقبلهم يرتبط بنواب مثل إحسان بيك، أو كريم بيك، وبالتالي بالدولة. لهذا السبب تخـرج مـن المائـدة الكلمـة المرحة والصـادقة والانفعاليـة الـتي لا تخاطـب إلا المهندسين الأجانب الخارجين عن شبكة العلاقات تلك بشكل أو بـآخر مـن مهندس شاب لم يستطع ضبط نفسه على المائدة، ولا يرتبط بكريم بيـك أو إحسان بيك بخوف أو احترام. وكان الهر رودولف يتكلم كثيراً، أمـا رفيـق فيبدو مشغولاً بمتع عينيه وجسمه فقط.

عمر أيضاً شرب كثيراً مثل رفيق. كان يرغب بأن يدرك بأن وجوده غير مسحوق تحت وجود هذا النائب الشهير والملاك الكبير والمتعهد كريم بيك. ومن أجل أن يدرك هذا كان عليه إما أن يضغط على نفسه، ويتحدث إلى الآخرين رافعاً صوته كما فعل قبل قليل، أو يفعل أموراً ناشـزة، ويتعب جسمه، وينهمك بأمور ما، ويأكل، ويشرب. فكر بهذا عندما كان يضع في صحنه (محشياً) من جديد، وأثناء ندائه للطباخ من أجل تجديد إبريق العرق، وخطر بباله فجأة أن ينهض عن المائدة، ويذهب. ولحظة عزمه على القيام بهذا، شعر أنه ثمل. ثم تذكر هذا السلوان الذي يتذكره دائماً مع تلك الفكـرة: "المشـروب يـؤثر علـى معـدتي فقـط!"، نهـض وافقـاً بشـكل مفاجئ. وحين نهض، تقابلت عيناه بعيني الهر رودولف، وتمتم دون أن يفكر بشيء: "أنا ذاهب إلى المرحاض!"

ابتسم الهر رودولف متفهماً. وابتسم مهندس آخر يجلس بجانبه. مشى عمر باتجاه المرحاض. كان يعرفه لأنه تناول الطعام في نزل كريم ناجي بيك في السنة الماضية، فتح الباب، وأغلقه. وحين دخل المرحاض، فكر: "أريد أن أتقيأ على الأغلب!" انحنى بعد ذلك على الثقب، وتقيأ. ثم غسل وجهه على

المغسلة ببطء. ونظر إلى المرآة. لم يكن وجهه شاحباً، بل ملوناً وصحيحاً. خرج من المرحاض. فسمع صخب المائدة، ولكنه لم يرغب بالذهاب إلى هناك. كان ثمة باب يُفتح إلى الطرف الجانبي. ومن هناك خرج إلى الليل الساكن، والظلام المتجمد. استنشق بعمق متنسماً رائحة التراب والعشب. انسحب من الزحام، واستمتع بإدراك نفسه، والليل. ثم تمتم: "أنا مختلف. أنا لست منهم. لن أستطيع أن أكون مثلهم!" وخاف من نفسه. أشعل سيجارة، ووراح يمشي في السكن المؤقت. رأى في إحدى الزوايا أضواء المطبخ.

اقترب من نافذة المطبخ، وألقى نظرة إلى الداخل. كان الطباخ يسكب أشياء ما على صينية بقلاوة. ثم تراجع خطوة، ونظر كما ينظر رسام إلى لوحته. تناول سكيناً، واقترب من الصينية مجدداً، وبدأ يصحح أشياء ما.

فكر عمر: "نعم، لن أستطيع أن أكون مثلهم! لا يمكن أن أكون مثل هذا، أو مثل أولئك الذين في البراكات طبعاً!" سار باتجاه الطاولات. وتذكر كلمات الهر رودولف: "سادة وعبيد... كريم ناجي بيك! لماذا أكرهه؟" وأجاب قائلاً: "لأنه امسك بكل مكان، وكل زاوية! هل هذا صحيح؟ إذا كان هذا صحيحاً فليس بإمكاني عمل شيء له، ولهذه الدولة، وعبيد هذه الدولة المقرفين! ولكنني أريد القيام بشيء ما، وتكسير كل شيء، وتحطيمه! أريد أن أكون سيداً. وفوق هذا أكثر من كريم بيك هذا... أذكى، وأكثر سيادة." نظر إلى براكات العمال من جديد. "هؤلاء لا يمكن أن يعجبوا بي... ولكنهم يأتون طالبين عملاً... ماذا افعل؟ لأكسب نقوداً أكثر بكثير. لأدع هذه الأفكار الخاوية... الأفكار، والمثل! بماذا تفيد؟.. نعم، لأذهب، وأجلس، ولا أفكر بأي شيء غير عملي! حسنٌ، ماذا سأفعل عندما ينظر إليه الجميع على المائدة؟ لن أستطيع التفكير بهذا!"

جلس إلى المائدة. وجلب الطباخ صينية البقلاوة. نظر الجميع إلى الصينية.

35
المناقشات المملة ذاتها دائماً

بعد أن تناولوا البقلاوة والفاكهة، دعا كريم بيك الضيوف إلى داخل السكن المؤقت قائلاً إن الجو قد برد. روى كريم بيك على الضيوف قصصاً عن صور الأقرباء، وعن بندقية، وحزام أهداه أحمد مختار باشا لوالده، وكلها معلقة على الجدران. وتثاءب بعد ذلك عدة مرات ناسياً كل شيء، ففهم الضيوف أن موعد الانصراف قد حل.

بدأ كريم بيك يودع الضيوف عند الباب واحداً واحداً. كان مفتش الحزب إحسان بيك بجانبه. عندما رأى عمر، هز برأسه مرة أخرى كأنه يفكر: "عملك أمر مهم ها!" أو هذا ما بدا لعمر. أما كريم بيك فابتسم عندما رأى عمر كما كان يفعل باعتياد عندما يرى أي وجه. وعندما رأى رودولف ابتهج كأنه على وشك تناول حلوى مختلفة. وبعد أن قال لهم ما قاله للجميع، التفت إلى عمر فجأة: "متى العرس، لنرى؟"

قال عمر: "بعد أيلول!" ورأى وجه كريم بيك عن قرب. كان جبينه ضيقاً، وحاجباه كثين، وعيناه واسعتين، ومتقاربتين.

"هل سينتهي الجسر والنفق حتى أيلول؟" وبدا جفناه اللذان يغطيان نصف عينيه الواسعتين أنهما يتململان. كأن تململ جفنيه يقول لعمر: "سواء قلت ستنتهي، أو قلت لن تنتهي فهذا لا يختلف! ماذا يمكن أن يكون لكلامك من قيمة في عالمي!"

قال عمر: "سأنهيه إن شاء الله!"

كرر كريم بيك: "إن شاء الله!" وصافح رفيقاً على عجل، ثم التفت إلى متعهد مسن قادم خلفه.

سار عمر ورفيق ورودولف مدة طويلة بعد خروجهم من السكن المؤقت دون أن يتكلموا بشيء. ثم تثاءب رفيق، وتمطى: آه ياه، يا لهذه الليلة ياه!" وعندما لم يتلق جواباً من أصدقائه أضاف بريبة: "لهونا جيداً، أليس كذلك؟"

سأل عمر: "هل لهونا يا هر رودولف؟"

قال المهندس الألماني: "أنا لم أله، ولكنني شبعت!" ثم أطلق قهقهة غريبة متوترة.

صرخ عمر: "الله يبعث له البلاء!" وصرخ بالعبارة نفسها مرة أخرى كأنه يريد أن يسمع صوته سكن كريم بيك المؤقت الذي ابتعدوا عنه. قال بعد ذلك: "أنا سكران ولاه!" وفكر فيما إذا كان في كلامه صعوبة أو فظاظة مقصودة، أم لا. وقال: "أشعر بأنني أريد أن أكون فظاً عندما أرى هؤلاء الأشخاص!"

قال رفيق: "آ، كنت أعتقد أنكم تلهون بشكل ما!"

صرخ عمر: "ماذا كان هنالك يدعو إلى اللهو ولاه، ماذا كان هنالك؟" ثم فكر فيما إذا كان يحرص على التصرف بفظاظة أم لا.

قال رفيق: "كان الطعام جيداً. ثم إنني رأيت أناساً مختلفين!" ووقف مفكراً ببراءة كأنه يبحث طبيعة أصل اللهو، وأضاف: "إنه تغيير!"

صرخ عمر: "يقول تغييراً يا هو! حياتنا، وعملنا، ودمنا، وروحنا هو التغيير يا هر رودولف، ما قولك بهذا التغيير؟"

حرك الألماني يده حركة تفيد الكره، وأنه لا يرغب بالنقاش.

وصرخ عمر من جديد: "يعني تغيير، ها! لعل هذا ما جلبك إلى هنا على الأغلب: كما تذهب إلى حديقة الحيوان لترى أموراً مختلفة، جئت..." صمت فجأة، ورأى وجه رفيق. فتأبط ذراع صديقه قائلاً: "أنا حيوان يا عزيزي رفيق!" وساروا فترة بصمت. عصر عمر ذراع رفيق، وبدأ يفكر فيما إذا كان سكراناً أم لا. ثم أفلت ذراع رفيق مقرراً أنه ليس سكراناً، وأنه

منفعل فقط، وأنه يستمتع بالتصرف كالسكران. قفز فوق نتوء صغير يرى بصعوبة في الظلام. ثم بدأ بترديد أهزوجة: "أنا منارة خضراء/ أنار وأطفأ/ أنا لست خاطباً/ أعود لأي كان" كيف خطرت له هذه؟ وتذكر: كانت جدته ترددها، وكان يصغي إليها متضايقاً في السابعة أو الثامنة من عمره. وفكر: "إنها أهزوجة جميلة، ولكنها عبثية!" تذكر جدته لأمه، وأباه، وخالته، وأموراً أخرى. وقال: "أتصرف كأن لي حقاً بقول كل هذا الهراء، والتفكير به. أنا ألعب لعبة السكران، رغم عدم وجود شيء فيَّ!" وصمت.

ساروا دون أن يتكلموا أي كلمة مدة طويلة. كان يُسمع أحياناً نباح كلاب، وصرير جداجد، وخرير الماء الجاري. وحين رأى الهر رودولف مسكنه قال: "لم يبق بالنسبة إلي سوى أمريكا! أمريكا فقط!" ثم التفت إلى رفيق فجأة، وقال: "حسنٌ، ماذا ستفعلون أنتم؟ كيف ستخرجون من قلب هذا الأمر؟" وأشار بيده إلى الأرض والسماء: "من قلب هذا الظلام؟"

قال عمر بنبرة ساخرة: "لكل ليل صبح يا عزيزي! لا تقلق علينا." وبدأ يضحك.

قال رفيق: "أنا لست تعيساً إلى هذا الحد!"

قال هر رودولف: "لندخل إذاً، وأعد لكم قهوة، ونتحدث."

لم يرغب عمر بالدخول بداية لأنهم تحدثوا مرات عديدة بهذه المواضيع، ولم يصلوا إلى نتيجة في كل مرة رغم بقائهم حتى الصباح. ولكنه قال إنه سيجلس قليلاً لأنه أشفق على الألماني الذي كان يرغب بحديث مقرراً أنه لن يشارك فيه. دخلوا. دور هر رودولف المولد وهو يقول إنه لن يستطيع النوم حتى الصباح، وأعد القهوة. وعندما جلس على أريكته التي يجلس عليها دائماً نظر إلى عمر ليدرك ما إذا كان يريد أن يقطع النقاش بالسخرية والوخز. ثم التفت إلى رفيق، وقال كأنه يعتذر:

"لن أقول لكم شيئاً جديداً. سأقول لكم الأمور نفسها، ولعلكم ستردون بالإجابات نفسها، ولكنني رغم هذا سأقولها. ولكننا سنضايق الهر فاتح... نعم، فإن هذا المكان، أي الشرق، هو دولة الظلام والعبودية. وقد شرحت ما قصدته من هذا. لهذا السبب فإن الناس هنا ليسوا أحراراً، وإذا قلنا هذا بلغة ميتافيزيقية فإن الأرواح هنا أسيرة. كنت قد قلت لكم

هذا، وليس لديكم الكثير للرد على هذا..."

"نعم، لا يوجد، ولكنني أقول ما تريدون قوله بشكل آخر. دون إعطاء أهمية للأرواح!.. وسأذكركم بأن قليلاً من أسس الحرية القانونية موجود في تركيا، و..."

نهض عمر مدركاً أنه لن يستطيع الاستماع إليهما. بدأ يمشي داخل الغرفة. وفكر: "هذان طفلان! إنهما يلهوان بالنقاشات المملة ذاتها دائماً، والمضحكة، والخارجة من الكتب. لو أنهما يقولان شيئاً آخرَ!.." تمطى. وأخذ إحدى مجلات الشطرنج العائدة للهر رودولف عن الرف، وفتحها. "هناك لعبة يموت فيها الملك بحركتين للأبيض! دون لمس الحصان أيضاً... كيف؟" سمع رفيقاً وهو يشرح، ورودولف يطيل الإجابات لكي يطول الحديث. "يجب أن يكون لدى الإنسان هدف، وأن يعيش. هدفي أن أكون فاتحاً!.." أخرج الرقعة والأحجار عندما أدرك أنه لن يستطيع حل مسألة الشطرنج. وزعها، وبدأ التفكير. انتبه بعد فترة أن رفيقاً والألماني قد ارتاحا وهما ينظران إلى الشطرنج. ولكي يدعهما براحتهما، حل مسألة شطرنج أخرى. ثم حل مسألة أخرى في عشرين دقيقة تمنح المجلة فترة خمس عشرة دقيقة لحلها. وحل أخرى في عشر دقائق. قرأ بعد ذلك أن الذين يحلون هذه المسائل خلال الفترات الممنوحة يعدون في فترة التدريب. حل مسألة أخرى ليثبت أنه معلم، وليس متدرباً. ولكنه غضب لأنه آمن بأنه ليس معلماً، بل كما تبدي المجلة رأيها التافه. وعندما سمع في هذه الأثناء هر رودولف يعيد ما حفظه من هولدرلين، نهض: "آمين!.. ولكن وقت النوم قد حل."

قال هر رودولف غير غاضب من عمر لأنه لم يقطع حديثه بسخرياته، ووخزاته حتى الآن، كما يقول في كل مرة: "آه، آه! ستفهم يوماً ما!"

سأل عمر رفيقاً في طريق العودة: "ما الذي يوجد عند ذلك الرجل للمناقشة إلى هذا الحد؟ وفوق هذا، إنكما تتحدثان بالأمور نفسها!"

قال رفيق: "نتكلم بالأمور نفسها، صحيح!" وصرح بهدوء، وصوت معلم دون انفعال: "ولكن ما نتكلم به يستحق المناقشة."

صفع عمر بيده الهواء مرتين: "كلام فارغ... كلام فارغ..."

"أقليل ما تناقشنا نحن الثلاثة قديماً؟ أنت، ومحي الدين، وأنا، أقليل؟..."

قال عمر: "صحيح! كنا نتناقش قديماً، ولكن تلك المناقشات كانت ممتعة بكل معنى الكلمة... حسنٌ، لا تعبس الآن، لنتناقش إن أردت... ولكن بماذا سنتناقش؟.. ماذا سنحل بالمناقشة؟ أنا أرى أن الشيء الوحيد الذي يستحق المناقشة هي هذه الوليمة. لماذا كانت هذه الوليمة على هذا النحو؟ لماذا غدا كل شيء منحطاً على هذا النحو؟.. ولكنك تجد تلك الوليمة ممتعة! لماذا كان هذا المساء على هذا النحو؟ لا يمكنك القول..."

"ها نحن أيضاً نقول هذا. لماذا كان هذا المساء على هذا النحو؟"

وقفوا تحت شجرة ترى بصعوبة في الظلام، ونظر أحدهما إلى الآخر. قال عمر من جديد: "لماذا كان على هذا النحو؟ كان مقرفاً، ومنحطاً!" وفي أثناء قوله هذا كان يتذكر كريم بيك الذي سأله عن موعد زواجه، وما إذا كان التعهد سينتهي في موعده أم لا، وعينيه الواسعتين المتقاربتين، والمسبلتي الجفنين، فصرخ: "إذا كنا سنتكلم، فلنتكلم بهذه الأمور. لماذا كان أولئك الناس سافلين ذوي أرواح مستعبدة، لماذا كلهم هكذا؟! هل تجدهم أنت على هذا النحو؟"

"من منهم؟"

"كلهم..."

"لا! انظر، كان هناك مفتش الحزب أيضاً، ومتعهدون أغنياء جدد. يجب الفصل بين هذين الجانبين... مفتش الحزب مرتبط بالثورات في النهاية!"

قال عمر بنبرة ساخرة: "طبعاً ستجلب تلك الثورات النور إلى تركيا، أليس كذلك؟ هل تؤمن بهذا أنت؟ إنك تصمت. أنت تؤمن، أنت تؤمن. وتكتب لهم في أنقرة رسالة، وستعطيهم دراستك حول تنمية الريف... ها، ها!.. هل فهمت وضعك الآن؟"

"أولاً أنا لا أراسل من تقصدهم أنت، بل سليمان آي تشليك. وفوق هذا، فهذه هي المرة الأولى التي أراك فيها مستخفاً بالثورات بهذا الشكل!"

قال عمر على عجل: "هيا، هيا! لا تجر الحديث إلى أمكنة أخرى. أنا أعرف أنك تعرف أيضاً أن شيئاً لن يُحل مع أولئك. لا يمكن أن يحدث شيئاً على أيديهم!.."

قال رفيق: "نحن نختلف هنا!" وانفعل كأنهما كانا متفقين على كل شيء حتى الآن، وقد ظهرت بينهما الآن نقطة خلاف: "أنا مؤمن بأن شيئاً ما سينجز، أما أنت فلا تؤمن بشيء."

قال عمر بسرعة: "أنا أؤمن بما سأفعله بنفسي!" ثم خيم صمت طويل.

بعد فترة طويلة قال رفيق: "لا، أنا لا أستطيع فهم هذا! أنت لا ترى ما ينجز. الجميع الآن أكثر حرية من السابق. هذا الظلام ليس داكناً كما كان سابقاً. ضع هذا في عقلك. ثمة أمور تنجز، وأخرى أنجزت، وأخرى ستنجز!" وتململ متوتراً كأن هنالك الكثير مما يجب أن يقوله، ولكنه لا يخطر بباله حالياً.

قال عمر: "أكثر حرية ها!" وأراد أن يظهر أنه يسخر، ولكن صوتاً مخنوقاً مفعماً بالمشاعر خرج من حلقه. "أكثر حرية ها! هؤلاء هم الأكثر حرية!" وأشار نحو مكان في الظلام. بما أنهما سارا مدة نصف ساعة، فيجب أن تكون براكات العمال هناك. "الأكثر حرية... يأتون متوسلين أن يعملوا. كانوا قبل سنتين لا يعطونهم ست ليرات أجرة الطريق، كانوا يجلبوهم سخرة. لعل الذين تقصدهم بقولك أكثر حرية هم أولئك الذين رأيتهم على مائدة الوليمة، ووجدتهم مسلين، ومختلفين؟ هه، ما قولك؟ كان الجميع على المائدة ينظرون إلى كريم بيك. لعلهم هم..."

صمت فجأة. كانت الكلاب تنبح من بعيد، ويُسمع صوت النهر. من المؤكد أن هنالك في مكان قريب شجرة ذات رائحة غريبة، أو أزهار. كانت تتناهى إلى أنفه رائحة لذيذة خفيفة. كان رفيق أيضاً لا يقول شيئاً.

صرخ عمر: "الجميع هنا عبيد. الجميع هنا مراؤون، وسطحيون، وكذابون، وسيئون. سيئ، سيئ، لا يوجد أي شيء جيد. الذين كانوا على الطاولة يمكن القول إنهم جيدون، مساكين يستحقون الشفقة... لا شخصية لهم كلهم، مقلدون، مساكين... أنت تعرف ما جرى في درسيم في السنة الماضية... وسمعت مفتش الحزب أيضاً. ولكن ما علاقتي بهذا؟ لا أريد أن أتحدث بهذه الأمور. أنت تقول روسو، وما شابهه. ما علاقة أولئك بهذا المكان؟.. لو عاش روسو في تركيا، لمددوه تحت الفلقة، وأدبوه."

شرع رفيق يمشي من جديد. قال: " ليس كل شيء سيئاً إلى هذا الحد!" وتنهد. "لعل شيئاً من الحقيقة موجود في كلامك. ولكن ما الفائدة من رؤية العالم بهذا السوء؟ في تلك الحالة لا يستطيع الإنسان أن يؤمن بأي شيء!"

"هذا صحيح. هنا، في تركيا، لا يؤمن الإنسان بأي شيء بعقله." وأشار عمر مرة أخرى نحو براكات العمال. "إما أن تؤمن بالله مثلهم، أو لا تؤمن بأي شيء. لأن كل شيء مزور هنا. كل شيء مقلد! كل شيء كذب، وازدواجي، ومليء بالخداع. تقول روسو. من هو روسو الخاص بنا؟ هل هو نامق كمال؟ هل تستطيع قراءته؟ هل يستيقظ شيء داخلك عندما تقرؤه؟ مهما يكن فهذا هو الأفضل بينهم. وبعد ذلك؟ هذا الألماني محق: ذلك العصر المستمر في فرنسا منذ خمسين سنة، لم يستمر عندنا خمسة أشهر. كل شيء عاد ليدفن في سفالته القديمة، وازدواجيته السابقة. هذه هي تركيا... آه يا تركيا، عندما أفكر بك أشعر أنني سأبكي، ولكن هذا هو الأمر!.. يجب أن لا أفكر!"

قال رفيق: "إذا كنت تؤمن بما قلته، فهذا سيئ جداً!"

"ما السيئ؟ هل القول إنك رأيت الحقيقة؟ أنا أرى أن الأسوأ هو الانجراف وراء الخيال. وعلينا الا نتكلم بهذا بعد الآن. كم الساعة؟ سيضاء الجو بعد قليل..."

قال رفيق: "لنتكلم، لنتكلم! أريد أن أقول لك كل ما يخطر ببالي الآن. انا اجد افكارك هذه غير صحيحة. كيف يمكنك أن تعيش مع هذا التفكير، ودون إيمان بشيء، لا أفهم؟"

"ما العيب في هذا؟ الجميع يعيشون هكذا. وهل أنا الوحيد الذي يعيش دون إيمان؟ حسنٌ، بماذا كنت تفكر انت قبل سنة؟"

"أنا؟" وابتسم رفيق بنية صافية وبراءة. "كنت في ذلك الوقت افكر ما إذا كان على الإنسان أن يؤمن بشيء أم لا." وأضاف منفعلاً: "ولكنك انت... انت تعرف. لم يعد الأمر ممكناً بعد معرفة هذا."

36
ذهاب إلى الجزيرة

تمسكت نيفان خانم بحامية الدرج المؤدي إلى القسم الراقي في السفينة بقوة وهي تصعد ببطء: منذ صغرها كانت تخاف جداً من أدراج السفن الضيقة، وعلى الأصح من كل ما في السفن، ولكنها منذ صغرها أيضاً ترغب بأن يكون لديها بيت في الجزيرة. يؤدي الدرج إلى صالة واسعة. نظرت نيفان خانم إلى اتساع الصالة، وتلبيس المفروشات والسقف، وبدت كأنها سرت قليلاً. كانت تلك سفينة أنيقة وواسعة وجديدة. تحفظ اسمها في عقلها: قالندر. وعندما تواجه تحديثات كهذه ولو صغيرة تتسل من أفكارها المتشائمة حول تركيا. ها هي، تنطلق في موعدها من المرسى. الأمكنة نظيفة أيضاً، لا يضطر الإنسان أن يدوس على أعقاب السجائر، وقطع التذاكر، وأكوام الورق والزبالة التي لا يعلم أحد أي قذارة تحمل. ولكنها كانت مزدحمة. نظرت نيفان خانم إلى الناس الذين يشغلون المقاعد بوجه عابس. فرأت أمينة خانم التي شغلت مقعداً طويلاً بقبعات وحقائب. كانوا قد أرسلوها مسبقاً لحجز مكان في السفينة.

قالت الخادمة: "آه يا سيدة خانم، كدت أعتقد أنكم لم تصلوا السفينة في الموعد المحدد." نهضت، وأفسحت لها المجال للجلوس، وأضافت: "جاء من يريد أن يجلس مكانكم، ولكنني لم أسمح لهم!"

جلست نيفان خانم، وجلست بجانبها بريهان، ووضعت في الوسط الطفلة البالغة سنة من عمرها. وجلست نرمين مقابل نيفان خانم. انتقل عثمان إلى

جوارها، وأشعل سيجارة. اندس الحفيدان الصغيران بجانب بريهان. انزوت أمينة خانم في الزاوية. لم يكن رفيق موجوداً. وعائشة التي أرسلت إلى سويسرا غير موجودة أيضاً. كان الطباخ نوري في الطابق السفلي ينتظر ثلاجته بجانب الحبال. لم تُشترِ ثلاجة أخرى من أجل بيت جزيرة هيبلي هذه السنة أيضاً. وأدى هذا الموضوع لنقاشات طويلة، ومنغصات مختلفة، ولكن نيغان خانم تريد أن تفكر حالياً بأمور جيدة، وتستمتع بالرحلة.

كانوا ذاهبين إلى بيت المصيف الذي انجزه جودت بيك قبل وفاته بسنة في جزيرة هيبلي. لم يستطيعوا أن يأتوا في السنة الماضية بسبب وفاة جودت بيك، ولم تكتمل تحضيراتهم. قرروا هذه السنة البدء متأخرين بإعداد التحضيرات لأن نيغان خانم تتشاءم بالتحضير باكراً. وكان هذا أحد أسباب تأخرهم إلى هذا الحد، ومغادرتهم في يوم الأحد الأول من تموز. وفوق هذا كان على عائشة أن تتقدم إلى الامتحانات النهائية للثانوية. وبذلت الجهود لإرسالها إلى سويسرا. وبرزت لدى عثمان أعمال مختلفة. كل منهم تباطأ بعمله، فتأخروا هكذا. قالت نيغان خانم فجأة: "ترى هل نسوا شيئاً؟" ثم تذكرت أنها تريد أن تفكر بأشياء جيدة، فنظرت إلى الخارج عبر النافذة. كانت السفينة تمر ببطء من أمام سراي بورنو. ظهر في الأعلى هناك قصر طوب قابي، وفي الأسفل تمثال أتاتورك واضعاً يده على خصره، وينظر إلى البحر. يقال إن أتاتورك مريض. وعلى غرار المعتادين على مديح الآخرين أو ذمهم فكرت نيغان خانم: "أقدر ما قام به!" وادركت أن عينيها بدأتا ترفان. لعل هذه اللحظة لم تكن الأمتع في الرحلة كلها، بل في الصيف كله. كان كل شيء في نصابه، وهي مسرورة من نفسها. بدأت تفكر بنفسها ناسية كل شيء، وكل شخص. خطر ببالها أنها في الخمسين من عمرها. ثم دُفنت في الذكريات.

فقدت متعتها عندما صحت على صراخ بائع متجول. كانت تفكر بأمور لذيذة: تذكرت سنواتها الأولى مع جودت بيك في نيشان طاش. أخبرت جودت بيك برغبتها في أن يكون لهم بيت في الجزيرة. قال جودت بيك إنهما سيكتفيان حالياً ببيوت الأجرة. كانا يذهبان في تلك السنوات إلى الجزيرة الكبيرة. وفيما بعد، صرح جودت بيك أنه اشترى مقسماً في جزيرة هيبلي، ولمعرفته أن عقل نيغان خانم متعلق بالجزيرة الكبيرة، بدأ الثرثرة: بما أن

الأرمن الدمويين، وروم بورغاظ، واليهود في الجزيرة الكبيرة، ولم يبق أمام التجار الأتراك غير جزيرة هيبلي. وفي النهاية، اختتم جودت بيك حديثه بإحدى ممازحاته: لأن عصمت باشا صديق التجار والعسكريين الأتراك، اشترى بيتاً في جزيرة هيبلي حيث يقيم التجار الأتراك، كما توجد هناك الكلية العسكرية. لم تجد نيفان خانم لديها القوة لتعبس إثر هذه الكلمات، فابتسمت. كانت تفكر أحياناً بأنها من الناس الذين يعرفون كيف يكتفون بالقليل عند الضرورة. والآن هاهي ترف بجفنيها مستمتعة بطعم هذه الفكرة. ولكن هذه المتعة لم تستمر طويلاً، لأن البائع المتجول مازال يصرخ بكل ما أوتي من قوة.

كان رجلاً في الستينيات من عمره، قذر الهيئة، أشيب الشعر. يحمل في إحدى يديه حقيبة قديمة. وبيده الأخرى يلوح بميزان حرارة، ويشرح ميزات الشيء الذي يبيعه. عرفته نيفان خانم: ميزان الحرارة الأوربي الصنع يطوف على الماء مثل السفينة تماماً لأنه غاطس في قطعة خشب ملمعة، ويفيد لقياس درجة حرارة البحر. وفوق هذا يمكن استخدامه في الحمامات من أجل الأطفال الصغار، والمرضى. عندما اقترب البائع بين المقاعد، رأته نيفان خانم عن قرب. فُتقت خياطة سترته القديمة، وعلى بنطاله بقع زيت. فكرت: "متى ستتعلم هذه الأمة أن ترتدي ألبسة نظيفة، وأن تتكلم بشكل صحيح، وأن تغتسل، وتحلق ذقونها كل صباح؟" تذكرت أتاتورك مرة أخرى، وحزنت لمرضه. هربت بعينيها عن البائع لكي لا تترك له فرصة الاقتراب منها. خطر ببالها بعد ذلك أن ميزان الحرارة شيء مفيد الاستخدام. هكذا كانت تركيا: لم يكن ثمة شيء في الدكاكين: إما أن يضطر الناس لجلب ما يريدون من أوربا، أو من الباعة المتجولين في السفن، كما يجري الآن مع هذا البائع الذي يضع قبعة بنمية على رأسه. خرجت نيفان خانم من مشاعرها التي فاضت بها عندما دخلت هذه الصالة الجديدة، والنظيفة، والمعتنى بها، وعادت إلى أفكارها المتشائمة واليائسة حول تركيا. ولأن البائع وجد زبوناً بدأ يصرخ بقوة أكبر، وبدأ يدس بضاعته في أعين الركاب واحداً واحداً.

دبت الحركة بين الركاب الذين كان معظمهم من الروم والأرمن واليهود: كانت السفينة ترسو في جزيرة قنالي/ ذات الحناء. لم يعد صخب

صالة النازلين في قنالي محتملاً بسبب نداء الأمهات كي لا ينسين شيئاً، ونداء أولاد التجار أحدهم للآخر، ونخر الآباء. شعرت نيفان خانم بأنها تكره عائلات التجار والأقليات في أوقات كهذه، ورغم تحقيق المرحوم زوجها تجارة جيدة جداً مع الأقليات، قررت أنه كان من أصل مختلف. كان جودت بيك من أصل مختلف: فهو ينحدر من أسرة مسلمة تتفتح في حديقة بيتها صريمة الجدي، وتزوج من ابنة باشا. نقلت نيفان خانم عينيها عن الركاب، وجالت بهما على ابنها وكنتها الجالسين مقابلها، وأعجباها.

كانوا يجلسون متجاورين، يتكلمون فيما بينهم بصوت خفيض مثل الأولاد المهذبين، وينظرون أحياناً من النافذة. رأت نيفان خانم بمتعة أنهم مختلفون عن هؤلاء الناس الصاخبين، وأعجبت بعائلتها مرة أخرى، وتذكرت جودت بيك باحترام. ولكنها تذكرت الجدل الحاد الذي خاضه عثمان ونرمين قبل يومين. الآخرون لا يسمون هذا جدلاً، بل يستخدمون كلمة أخرى، ولكن نيفان خانم لا ترى كلمة أقسى من هذه تليق بهما. تجادلا قبل ثلاثة أيام على المائدة، وأمام الجميع. كان سبب الجدل الثلاجة التي يحرسها نوري في الأسفل، ولكن ما أقلق نيفان خانم أمور أخرى، فقد دخلت أمور أخرى. قالت نرمين بغضب يمكن تفهمه من امرأة أمضت يومها كله بالإعداد للسفر، أفرغت صناديق، وملأت أخرى، ولفت الصحون والفناجين بجرائد قديمة إن أخذ الثلاجة كل سنة من نيشان طاش إلى هناك، ومن هناك إلى نيشان طاشٍ أمر غير لائق. فقال لها عثمان إنهم يبقون ثلاثة أشهر فقط في الجزيرة، وذكرها بأن الكهرباء تنقطع بعد الثامنة مساء في الجزيرة، وأن من غير اللائق أصلاً هو التفكير بنفقات تافهة كهذه في وقت ضيق الشركة، وحاجتها للنقود. ورأى عثمان أن إصرار نرمين على هذا الموضوع الذي نوقش من قبل ينبع أساساً من عدم معرفتها كيف تكسب النقود. إثر ذلك قالت نرمين الكلمات التي أقلقت نيفان خانم، وجعلت وجه عثمان يحمر: يجب على زوجها أن لا يجري تخفيضاً على نفقات البيت عندما يريد أن يخصص نقوداً للشركة، بل من نفقات خاصة ليست جيدة أبداً. وبعد أن قالت الكنة الكبيرة هذا نظرت بغضب إلى زوجها، وإلى نيفان خانم، واتخذت موقفاً كأنها ستفصح عن النفقات الخاصة، ثم حل صمت على المائدة. لعل نيفان خانم لم يسيطر عليها القلق

من هذا كله، ولكنها ليلاً رأت أن ضوء غرفتهما بقي منارًا حتى ساعة متأخرة، وفوق هذا سمعت نرمين تصرخ عدة مرات دون خجل من نبرة صوتها. وحين نظرت نيغان خانم إلى ابنها وكنتها جالسين بتهذيب أمامها، قررت أن أبنها كانت له علاقة مع امرأة أخرى، ولكنه ابتعد عنها، وأجلت التفكير بهذا الموضوع المزعج إلى زمن آخر. تتردد في مقارنة ابنها بجودت بيك. وكأن عثمان أيضاً يخاف من هذه المقارنة، ففتح الجريدة التي بيده مثل شرشف، واختبأ وراءها.

كانت السفينة ترسو في بورغاظ. نهض الرجل الذي كان يضع على رأسه قبعة بنمية. لم يكن الفرق بين الجزر حاداً وهو ما جعل جودت بيك يقدم على ممازحته تلك، ولكن هذا الرجل يجب أن يكون رومياً. خطر ببال نيغان خانم المدام الرومية الخياطة في بيه أوغلو. كانت امرأة لذيذة، ضحوكة، ثرثارة. ذات مرة زلت بالكلام بأنها كانت تذهب إلى بورغاظ في الأصياف من أجل العثور على زوج جيد لابنتها القبيحة. فجأة تذكرت نيغان خانم عائشة. واستعادت المتاعب التي تحملتها من أجل إرسالها إلى سويسرا، وطيش ابنتها. تمتمت: "مع ولد عازف كمان!" ثم تذكرت ذلك المثل الشهير الذي يناسب هذا الموضوع: "إنها بنت مضروبة بعقلها لتزوج لطبال أو زمار!" ولكنها لم تكن تريد أن تفكر بأشياء مزعجة. لقد أرسلوا البنت إلى سويسرا. وسيكون ابن ليلى هناك أيضاً. رمزي هذا ولد مربى، مهذب، وراق. لعله سمين قليلاً، يداه وذراعاه تعمل ببطء مثل عقله، ولكنه دائماً أفضل من ابن مدرس موسيقى.

بدأت السفينة تهتز عندما مرت قرب جزيرة قاشق/الملعقة. تمتمت نيغان خانم بأحد الأدعية التي تعلمتها من المرحومة أمها بشكل مقطع، وفكرت أنها ترتبط أكثر بالدين مع مرور الأيام. ولم يكن هذا ارتباطاً غريباً مفاجئاً بالدين كذاك الذي حصل بعد وفاة جودت بيك. فقد صارت تمرر ذكر الصحة المتدهورة مع اللواتي في سنها بصمت، بعد أن كانت تسخر من الأمر قديماً. كما أنها لم تعد تسخر من الخدم والطباخين لأنهم يصومون. ولكن صحتها كانت جيدة. لم تكن تعاني من مرض يمكن أخذه مأخذ الجد. كانت مؤمنة بأنها ستعيش طويلاً. وعندما كانت تغضب، تقول بصوت يسمعه الجميع: "يا جودت بيك، انتظروني، أنا قادمة

إليكم، أريد أن آتي!" ولكنها رغم هذا كانت مؤمنة بأنها ستعيش طويلاً. وكانت تعرف أن ارتباطها بالدين لن يكون في أي وقت ارتباطاً بالشعوذة. وها هي الآن تنظر إلى مدرسة الخوارنة في قمة جزيرة هيبلي بين أشجار الصنوبر بتسامح. خوري من جزيرة هيبلي له لحية سوداء، ويضع على رأسه قبعة ضخمة أثار لدى الحفيدين الخوف، ولدى الخدم والطباخين الاشمئزاز، ولكنه أثار لدى نيغان خانم المتعة كأنها استمعت لقصة مضحكة، كما أثار قليلاً من التوق لأوربا.

انعطفت السفينة ببطء حول جزيرة هيبلي. سيظهر سقف البيت بين أشجار الصنوبر بعد قليل. استند الحفيدان إلى النافذة، ونظرا. وضعت بريهان طفلتها في حضنها، ونهضت. وفكرت نيغان خانم كما تفكر دائماً بأنها طفلة: ثم تذكرت رفيقاً. إنه طفل أيضاً، ولكن دلاله ليس من النوع الذي يمكن التسامح معه. قبل مدة كتب رسالة أخرى، قال إنه سيتأخر أيضاً. كان هذا الموضوع جرحاً في قلب نيغان خانم. وكانت كثيراً ما تقول هذه الكلمة لنفسها، وتنتبه إلى أنها تدين بريهان بسبب هذا الجرح أحياناً: لم تنجح الكنة الصغيرة بالحفاظ على زوجها في البيت.

نهضوا عندما كانت السفينة ترسو في مرسى جزيرة هيبلي. وفكرت نيغان خانم من جديد بما إنهم كانوا قد نسوا شيئاً. عند نزولها من الدرج تمسكت من جديد بقوة في حاميته، وأطلقت كلاماً لأنهم كانوا غير منتبهين للحفيدين، وراقبت الطباخ نوري وهو يحرس الثلاجة، ومشت على العبارة الممتدة بين السفينة ورصيف المرسى بخطوات صغيرة حذرة. وفور نزولها إلى اليابسة استنشقت رائحة الخيول، وروثها، وحزنت متذكرة أول مرة جاءت فيها إلى الجزيرة مع جودت بيك.

تطاير الزحام فور نزوله من السفينة نحو المكان الذي تنتظر فيه الحنتورات. وجد عثمان حنتوراً، واستغرقوا زمناً طويلاً حتى ركبوا جميعهم بداخله. أُنب الحفيد الكبير جميل لأنه أراد أن يجلس بجانب الحوذي. ثم تحرك الحنتور ببطء لثقل حمله. وتسارع متمايلاً إلى الجانبين. وقع نعال الخيول المنتظمة والمتعبة ذكر نيغان خانم بجولات العربة التي كانت تؤجل دائماً، ونادراً ما تنفذ. في أثناء مرورهم بالسوق، كان عثمان يحيي الوجوه

المألوفة له، والباعة الذين يعرفهم جيداً رغم مرور سنتين فقط على وجودهم في الجزيرة، وركاب الحنتورات الأخرى المارة بجانبه، واضعاً يده على قبعته في كل مرة، ودون أن يرفعها ولو مرة واحدة. وكان يخبر أمه بمن يكون الذي يحييه في كل مرة. استمعت نيفان خانم بانتباه لهذه المعلومات رغم أن عينيها لا تحيجانها لهذا: لقد غير القصاب فوتي مكان دكانه. وأسرة مهريماه خانم أيضاً انتقلت تواً. وزكي بيك الذي بدأ حديثاً بتجارة التبغ نزل إلى السوق مع ابنته. مقابل الكنيسة يبنى بيت جديد. لم تنتقل بعد أسرة تاجر الحديد ساجد بيك. والمحامي جناب صورار بيك مشغول بنكش الحديقة الصغيرة لبيته الصغير. كانت أباجورات بيت عصمت باشا مفتوحة. سكن آخرون في بيت التاجر ليون الذي هرب إلى أوربا بعد انفضاح فساده.

تمتمت نيفان خانم فجأة: "ما أسرع مرور الزمن!"

نظرت إلى ابنها وكنتيها كلا على حدة لمعرفة ما إن كانت كلماتها قد سمعت أم لا. ولكنهم لم يسمعوا. كل منهم انزوى إلى أفكاره. كان عثمان يشرح، وهما تسمعان. "ما أسرع مرور الزمن!" وفكرت نيفان خانم بعائلات التجار الآخرين الذاهبين إلى الجزيرة. وشعرت فجأة بالرابط المشترك بينها وبينهم. رأت أحد السقائين الذين ينقلون الماء على حمار. وبحثت بعد ذلك عن أدلة تثبت أن عائلتها لا شبيه لها: بريهان جميلة جداً، والأحفاد بصحة جيدة، ابنها نشيط. ولكن هذه الأمور كانت بعيدة عن الإقناع. شعرت بالضيق. كانت العربة تقترب من البيت. فسيطر على نيفان خانم شعور لم تشعر به من قبل، وهو أن عائلتها مثل عائلات التجار الأتراك جميعها. ثم خطر ببالها أن تجد سلواناً بتذكر ماضيها.

الماضي: يمنحها الماضي المباهاة وحب الحياة. كان المستقبل مخيفاً ومجهولاً: كيف يمكن للإنسان أن يكون واثقاً من عدم خراب كل شيء، وانقلاب العائلة والشركة رأساً على عقب بموجة مخيفة غير مفهومة ذات يوم؟ رغم أنها ترى أن الزمن يمر بسرعة. أراد أن يتدفق الزمن ببطء، أرادت أن يتغير كل شيء ببطء، ويقابل القديمُ الجديدَ بتسامح، ولا يدقق أحد بأحد. نزلت بعد ذلك من الحنتور بحذر. صهل أحد الخيول المتعبة غاضباً وهو يهز رأسه. بدأ الصيف.

37
السكة تُمد

استيقظ رفيق على صوت صخب. كان هنالك كلب ينبح تحت النافذة تماماً في الخارج. عرفه من صوته: إنه كلب الراعي الطويل الوبر العائد للحاج. وسمع صوت الحاج.

كان يقول: "هشت، اصمت يا طرومان!"

نظر رفيق إلى ساعته: تجاوزت الثانية عشرة! فكر: "سينتهي اليوم، اليوم هو الثامن من أيلول 1938." سيصل إلى نفق عمر اليوم "القطار الرمادي" وهو القطار الذي يمد السكك. إما أن ينهي عمر التعهد بموعده، ويفسح المجال للقطار، أو سيدفع ألف ليرة عن كل نصف يوم غرامة تأخير، ولكن رفيقاً فهم أن عمراً سينهي العمل بوقته قبل أن ينام.

صعد إلى النفق في الأعلى قبل أربع ساعات، ورأى الحركة والانهماك، وفهم. قال عمر إن من الممكن أن يتأخر نصف يوم، ولكنه سيغلقه على الأرجح. لم ينم عمر منذ يومين. وأغلب العمال يعملون فترتين. نهض رفيق من السرير. تجول في الغرفة وهو يتمطى. لم يستطع أن ينام مساء البارحة. لم يستطع النوم بسبب قلقه من العمل المخيف هناك في النفق قليلاً، ولقلقه على مستقبله، وعلى دراسته "تنمية الريف" التي تحتاج إلى تبييض، وما سيفعله بها. أمضى ليله كله وراء الطاولة يقرأ ما كتبه طوال الأشهر

الماضية، وشطب منه بعض العبارات، وصححها، ثم نهض لينام، ولكنه لم يستطع. ذهب بعد ذلك إلى النفق، ولم يستطع النوم بعد عودته بسبب نباح الكلب الذي مازال مستمراً حتى الآن.

نهض من السرير، وذهب إلى المرحاض. كان كلما دخل إلى المرحاض يتذكر ما تحدث به مع عمر عندما دخل إليه يوم وصوله وهو ينظر إلى حجره. نظر إلى المرآة. كان وجهه بصحة جيدة. إذا رأته بريهان، ستقول: "عاد اللون إلى وجهك." حلق شاربه يوم جاء إلى هنا أيضاً. مضت سبعة أشهر. رشق ماء على وجهه، وخرج، ثم دخل إلى الغرفة. وفكر: "سبعة أشهر!" ثم جلس على حافة السرير.

ما يسميه "دراستي" كانت على الطاولة. وهي رزمة أوراق لا يستطيع الإنسان أن يتوقع وزنها بسهولة. والكتب التي قرأها مرات على الطاولة أيضاً. وضع بجانبها صورة غوته المؤطرة. أعطاه هذه الصورة الهر رودولف قبيل ذهابه إلى أمريكا قبل شهر. أثناء تحميله أغراضه وكتبه التي دسها في حقيبتين وصندوق في الشاحنة، قدم الهدية لرفيق خجلاً، وغمغم بكلمات ما، واحمر، ثم رفع رأسه إلى الأعلى قليلاً مذكراً أنه "فون" وأن أباه جنرال، وقال لرفيق وعمر إنه يتوق لمعرفة مستقبل هذا البلد الفتي وأناسه الشباب. نهض رفيق عن حافة السرير. تمتم قائلاً: "ماذا سيحدث؟ حسنٌ، ماذا أفعل الآن؟" أنهى كتابة دراسته. لم يفعل شيئاً منذ عشرة أيام غير إعادة قراءتها. كان سيذهب مع عمر إلى أنقرة. سيلتقي في أنقرة بصاحب كتاب "الثورة والتنظيم" وزعيم الحركة المسماة "التنظيم" سليمان آيتشلك، وسيحاول الاتصال بالنواب والوزراء بمساعدة حمي عمر. فكر: "ماذا أفعل الآن؟ سأكتب رسالة لبريهان. ليحدث ما يحدث بعد الآن في أنقرة!"

جلس خلف الطاولة ليكتب رسالة لبريهان، ولكنه لم يستطع أن يبدأ. في كل رسالة لبريهان لا يكتب شيئاً سوى أنه سيتأخر قليلاً، وأنه اشتاق إليها وللطفلة. يحدث أحياناً أن يتحدث عن الحياة هنا، والناس، ولكنه يفكر دائماً أن هذا سيغضب بريهان. ضغط على نفسه قليلاً محاولاً كتابة أمور ما، ولكنه لم يستطع أن يكتب. وقعت عينه بعد ذلك على الرواية التي على الطاولة: قرأ رواية يعقوب قدري "أنقرة" عدة مرات، وفرح لنظرة الكاتب إلى

الثورة، وإلى تركيا الحديثة بانفعال. كلما قرأ الكتاب خطر بباله وجود أمثاله في أنقرة ممن يريدون أن يفعلوا أموراً ما، فيشعر بالراحة، ويبدو كأنه ينسل من هواجسه. بدأ بقراءة الكتاب، بعد أن قرأ نصف صفحة، فكر: "ترى ماذا يحدث الآن في النفق؟ هل سينجزونه في الوقت المحدد؟" ونهض واقفاً. تجول في الغرفة قليلاً. ثم خرج مقرراً الذهاب إلى النفق.

رأى الحاج أمام الباب. كان يقشر بطاطا أيضاً بحال مطمئنة وهادئة كما هو عليه دائماً. كان مرتاحاً كأنه سيقضي عمره كله بتقشير البطاطا هنا، ولن يمر "القطار الرمادي" من هنا أبداً، ولن تغادر الورش كلها بعد أسبوع، ولن تُخلى البراكات. جلس كلبه بجانبه أيضاً، ونام. مر رفيق بجوارهما غير راغب بإقلاقهما بوجوده، وبدأ يتسلق القمة صامتاً. لم يكن ماشياً على الدرب الذي مهدته أقدام الآخرين، كان يمشي عشوائياً بين الصخور والأشواك، ويتفرج على المحيط. الأرض التي كان الثلج يغطيها قبل سبعة أشهر تلفها الآن الأشواك والأعشاب البرية. والبراكات في الأسفل أيضاً تقف وسط الناس المتحركين، ولكنها لم تبد لرفيق غريبة بدهان أخشابها الأصفر، وأسقفها المصنوعة كيفما كان، ونوافذها الصغيرة. والنهر البعيد عنها أيضاً هكذا: اعتاد رفيق على هديره، وعليه أن يصغي إليه مفكراً به، وأن ينظر إليه لكي ينتبه لذلك الهدير. رفع عينيه إلى السماء مدرياً لهما كما كان يفعل دائماً. السماء نفسها بثت فيه الانفعال، بريقها، وشمسها، وسكونها، وعمقها... ولكنه لا يشعر بالأمر نفسه وهو ينظر إلى السماء: "ماذا سيحدث لدراسة تنمية الريف، ماذا تفعل بريهان؟ ترى بمن سيعرفني ذلك النائب؟ صرت ألهث، رغم أنني قررت يوم مجيئي أن أمارس رياضة ألعاب القوى كل يوم!"

حين وصل إلى فتحة النفق، داهمه شعور الندم والشعور بالذنب الذي يسيطر عليه كلما جاء إلى هنا، ولكنه ترك نفسه بسرعة للحركة التي بداخله. انتهى كل شيء في النفق، ولم يبق إلا إعداد أرضه لمد السكة، وإكمال بعض الأمكنة من جدرانه. يجري العمل الآن في مكانين فقط من النفق: بناء جدار في وسط النفق. وفرش حجارة في مدخله حيث دخل رفيق. ولأن سكة قاطرات النقل قد غطيت، تُنقل الحجارة على الحمير بطريقة

بدائية جداً، وهذا يوتر أعصاب المهندسين بشكل خاص. كان شريكا عمر المهندسين هناك مع عمر رغم عدم بقاء ما يفعلانه. كانا يهرعان من هنا إلى هناك، ويصرخان نحو اليمين ونحو اليسار، ويساعدان بتفريغ حمولة الحمير، ويحملان الحجارة من أجل إشعار العمال بجدية اليوم الأخير، وعدم وجود زمن لتضييعه. كان عمر أيضاً يفعل الأمور نفسها من أجل تحفيز العمال. بعض العمال يهرعون إلى حيث يمد هؤلاء السادة أيديهم كأنهم مسؤولون عن هذا العمل، ولا يريدون ترك العمل لهم. وبعضهم لا يعمل أي شيء بسبب التعب، وإذا حاولوا القيام بشيء فلا يفيدون إلا بزيادة الزحام، وعرقلة العمل. وعندما رأى عمر رفيقاً وسط ذلك الهلع هز له رأسه، وابتسم ساخراً. اقترب رفيق مرة من أحد الحمير ليساعد بتفريغه. ولكنه فور اقترابه من الحمار أدرك إلى أي مدى كانت تلك الحركة عبثية، وعرجاء، ومفتعلة فور لمسه للسريجة التي على ظهر الحمار، وابتعد من هناك. ظل يسمع الصراخ، وصوت تفريغ السرائج حتى خرج من الفتحة الثانية للنفق. رأى معلمي البناء الذين يعملون صامتين، ولكنه لم يلتفت لينظر إليهم بسبب شعور الندم والخجل الذي لفه.

بعد خروجه من النفق، اتجه غرباً، وسار فوق الأحجار المعدة لمد السكة. كان يريد رؤية القطار الرمادي، ومعرفة مدى اقتراب ذلك القطار من النفق، ورؤية الورش الأخرى، والمحيط من الأعلى للمرة الأخيرة. خطرت بباله مرة أخرى دراسته، وبريهان، وبيته، وعمل عمر، ومستقبله، ولكنه كان يمر عليها دون أن يتوقف عند كل منها، ويفكر فيها مطولاً للوصول إلى نتيجة، كان يقفز من موضوع إلى آخر، ومن فكرة إلى أخرى وهو ينظر إلى شيء ملفت للانتباه، إلى النهر، أو إلى نبتة غريبة، أو البراكات، أو غيمة تذكر بوجه إنسان.

بعد مسيره حوالي ستمائة متر رأى القطار الرمادي فوق جسر بناه كريم بيك. حاول تمييز العمل المسمى "فرش السكك" والذي كانوا قد درسوه في مادة السكك الحديدية من بعيد دون أن يقترب من القاطرة، والعمالو رأى بعد ذلك بين العمال "بوظجو بكر" الشهير الذي ذكره الأستاذ وقال إنه الوحيد الذي يقوم بمد السكك. كان يعرف هذا الرجل الذي يكرهه كل متعهدي

السكك الحديدية من نيشان طاشِ. كان يشتري بالنقود التي يكسبها من مد سكة حديدية مقسماً، ثم يمد سكة أخرى مع مجموعته الماهرة في مكان آخر، ويشتري مقسماً آخر. وعندما كادت عيناه تلتقيان بعيني الرجل وهو يدخن سيجارة بين عماله، تمتم قائلاً لنفسه: "ما عملي هنا؟" وتذكر بعد ذلك وهو ينظر إلى العمال الذين يمدون السكة أنه قال لنفسه ذات يوم: "خرجت حياتي عن سكتها!" فضحك ساخراً من نفسه، وعاد.

عاد إلى البراكة. وشعر بفقدان شيء عندما لم يرَ الحاج وكلبه عند باب البراكة. جلس وراء طاولته. قلب صفحات رواية أنقرة. وعندما أدرك أنه لن يستطيع قراءتها، ضغط على نفسه وبدأ بكتابة الرسالة التي لم يستطع البدء بها بأي شكل. وبعد أن كتب بسرعة ما ألف كتابته دائماً، والسؤال عن حال الطفلة وبريهان، وما يفعله أهل البيت، أضاف مرة أخرى بأنه سيتأخر. خجل أثناء كتابته ذلك، وشعر بالعرق يتصبب على ظهره، وبدأ يكتب أسباب التأخير. أثناء تفكيره بها سبباً تلو آخر تجلت أمامه دراسة "نهضة الريف". وفرح متخيلاً الأثر الذي ستتركه دراسته والتي كانت الفكرة الجوهرية فيها "نحن نشبه أنفسنا"، ثم الفصول التي يشرح فيها طرق إيصال إمكانيات المدينة كلها إلى الوحدات الريفية بيد المؤمنين بالثورات أمثال الذين في رواية "أنقرة". ثم قال لنفسه منفعلاً: "ستلاقي هذه الدراسة الترحيب بالتأكيد، سيحدث هذا، أعرف ذلك!" ونهض واقفاً. نظر إلى صورة غوته، وأشعل سيجارة، وتجول في الغرفة. جلس بعد ذلك وراء الطاولة، وأنهى الرسالة، وعندما تمطى عدة مرات أدرك أن النعاس قد داهمه من جديد، فاضطجع.

عندما استيقظ كان الجو قد أظلم. نظر إلى ساعته: العاشرة! فكر: "نمت سبع ساعات!" نهض من السرير. وقرأ الرسالة التي على الطاولة في ضوء الشمعة. أعجبه. كان ينبعث صخب من الغرفة الوسطى، وقهقهة. دخل إلى هناك. فقابلته رائحة عرق كثيفة فجأة.

قال صوت: "أوه، جاء رجلنا! أين كنت يا هذا؟"

قال رفيق: "غططت في النوم" ثم أدرك أن المتكلم قبل قليل هو صالح. وكان الآخر أنور.

صرخ أنور: "أنت نم،و نحن أنهينا العمل، انتهى، انتهى. إنهم يمدون السكة الآن. جاءت القاطرة. أطلقت صفارتها. ولوحنا لها نحن بالراية الخضراء. قلنا: تعال ولاه، تعال، مد سكتك يا بوظجو بكر لنرى!" وأطلق قهقهة. وكان يحرك يده عارضاً كيف لوح بالراية الخضراء، ويضحك. ثم اتخذ موقف الجد كأنه تذكر شيئاً ما. ثم سأله: "هل تشرب؟" رفع زجاجة العرق التي على الطاولة، وقدمها له.

كان رفيق يعود عينيه على مصباحي الكاز اللذين وضع أحدهما على الطاولة، والآخر في الزاوية، ويفكر: "انتهى، أنجزوه في موعده!"

سأله أنور بحدة: "هل تشرب أنت أيضاً؟"

قال رفيق: "أين عمر؟"

قال أنور بنبرة ساخرة: "المعلم في الخارج على الأرجح. يتكلم مع أحد الموظفين الذين أغرقهم بالرشاوى..."

خرج رفيق. وعندما أغلق الباب خلفه سمع قهقهة جاءت من خلفه. رأى مصباح الكاز الموضوع على طاولة وضعت أمام البراكة. كان يجلس على طرفي الطاولة عمر ومراقب فني تعرف إليه رفيق في الوليمة التي قدمها كريم بيك قبل ثلاثة أشهر، ويتحدثان. وتناهى إليه صوت طبلة من بعيد حيث براكات العمال.

عندما رأى عمر رفيقاً، قال: "هه، هل استيقظت؟"

حين أراد رفيق أن يهنئ عمر، هب المراقب واقفاً. وتمتم بأمور ما على عجل، وصافح عمر. وصافح رفيقاً بعد ذلك، وهنأه أيضاً.

قال رفيق بموقف خجول بعد ذهاب المراقب: "مبروك!"

أشار عمر إلى المراقب الذي ضاع في الظلام، وقال: "اضطررت لإعطاء هذا مبلغاً رغم عدم ضرورة هذا!" وتنفس بعمق، وتنهد عدة مرات: "الله يبعث لهم جميعاً البلاء!"

قال رفيق: "نعم، أمر قبيح جداً أن يأخذ رشوة للاشيء!"

قال عمر: "لا يا روحي، لا أقصده! الله يبعث البلاء لكل هذه الأعمال،

ولكل هذه العلاقات، وللموظفين القادمين من أنقرة، ولكريم بيك، ولكل شيء، ولكل شيء..."

قال رفيق قلقاً: "المهم، انتهى يا!"

قال عمر: "نعم، انتهى. كسبت نقوداً كثيرة، انتهى."

صمت الاثنان. انضم كمان إلى صوت الطبلة المنبعث من براكات العمال. فانطلقت موسيقى ممتعة وراقصة وانتشرت في الليل الساكن. وصدرت من البراكة أحياناً قهقهة سكر.

قال عمر: "أنا أيضاً سأشرب." وأشار برأسه إلى حيث ينبعث الصوت، وقال: "انظر، الجميع اليوم يمرحون. الجميع يمرحون وهم يشتمون سكة الحديد هذه. أنا أيضاً سأشرب."

قال رفيق: "هل نذهب، وننظر؟"

قال عمر: "هيا، حسنٌ، لننظر!"

نهضا، واتجها نحو براكات العمال. كانت تلك الموسيقى المتأججة بالفرح تبدو لدى الاقتراب منها وسط الليل الساكن أمراً غريباً وبعيداً لم يعتد عليه رفيق. كان عمر يعرف هذه المجموعة الغجرية لأنه رآها من قبل. حُكي له عن تجولهم على الورش كلها من سيواس إلى أرظروم، وانتقالهم من ورشة إلى أخرى، وعزفهم، وغنائهم، ورقصهم، بعد ذلك يقضون ليلتهم عند النساء أو عند المتعهدين الثانويين والمعلمين، وهم يتجولون منذ سنوات على هذا النحو ممضين الفترة الممتدة من الربيع حتى نهاية الخريف. أضاف بعد ذلك مخموراً أنهم عندما جاؤوا في السنة الماضية تشاجر متعهدان ثانويان من ورشة كريم بيك من أجل فتاة، وكانت تلك الفتاة جميلة جداً. والتفت فجأة إلى رفيق حين اقتربا من المقهى، وقال: "ما رأيك بي؟" يبدو أنه ندم لسؤاله المفاجئ، وأشار إلى إحدى الفتيات وسط الزحام، وقال: "ها هي، انظر، إنها هي التي حدثتك عنها قبل قليل. كيف، هل هي جميلة؟"

كانت هنالك مجموعة من العمال تبلغ خمسين إلى ستين عاملاً أمام المقهى. ضارب الطبلة، وعازف الكمان انزويا جانباً وهما يعزفان، وكانت

فتاتان ترقصان في الوسط. الفتاتان ليستا جميلتين، وبدا عليهما التعب. كانتا تنظران إلى محيطهما، وتبتسمان بصعوبة. ولا يبدو العمال المحيطون بهما مرحين جداً. يصفق ثمانية أو عشرة أشخاص، وكان أحدهم يصرخ، وغالبيتهم متعبين، عيونهم ناعسة، ويتثاءبون كأنهم يفكرون قائلين لأنفسهم: "لو ينتهي هذا الأمر، ونذهب للنوم!" كانوا يقفون هناك واجمين كجنود منهكين ينتظرون أمراً ما بعد أن لبثوا هناك مدة طويلة، وكلفتهم إقامتهم أثماناً باهظة، و هم ينتظرون العودة إلى بيوتهم بعد تحقيقهم نصراً دموياً، ولكنهم لم يؤمنوا بأن الحرب قد انتهت بأي شكل. كان هنالك عدة أشخاص داخل المقهى منكبين على الطاولات، ونائمين. هنالك شخص سكران يصفق وهو مستند إلى باب المقهى، ويصرخ في بعض الأحيان. صمتت الطبلة في إحدى الأثناء. وخيم الجمود. إحدى الفتيات دفعت شخصاً عاكسها وهي تجمع النقود. وضحك عدة أشخاص. وتململ الزحام. ثم فتح باب المقهى، وأغلق. مشى خمسة أو ستة أشخاص ببطء نحو براكاتهم، ذاهبين إلى النوم. ثم عادت الطبلة والكمان بعد ذلك إلى العزف.

كانت الطبلة تقرع، ويتفرج الحشد منتظراً أمراً ما. فكر رفيق بضرورة عمل شيء ما لهذا الحشد، وأدرك شعور الخجل والندم الذي يسيطر عليه كلما دخل إلى النفق. فكر: "لم أدع أنني يمكن أن أختلط بهذا الحشد، ولكن البقاء بعيداً إلى هذا الحد أمر قبيح أيضاً... لماذا أتفرج عليهم؟ هم أنهوا عملهم، وهم متعبون، ويلهون قليلاً قبل النوم. وأنا؟ هم هناك، وأنا بالنسبة لكل هذا..."

سأل عمر: "إيه، بماذا تفكر هكذا؟"

"لا شيء!"

قال عمر: "أنا أفكر، سأعود لكي أشرب."

قال رفيق: "حسنٌ، وأنا سألحق بك بعد قليل، ربما أتجول قليلاً."

38
آخر أمسية

كان عمر متجهاً إلى البراكة وهو يستمع للموسيقى المنبعثة من خلفه. فكر: "أوه، ما أجمل أن أشرب الآن... انتهى والحمد لله! صرت غنياً الآن... عندما سيذكرونني سيقولون الرجل الغني... ولكن هذا ليس الوقت المناسب!" رأى ضوء المصباح المنار في البراكة.

عندما فتح باب البراكة سُمع أنين ضعيف. ثم انقطع الصوت حين دخل. كان صالح يغني على الأرجح، ولكنه صمت عندما رأى عمر. جلس صالح وعمر عند طرف الطاولة، ووضعا أمامهما زجاجة عرق كبيرة، وشرعا يشربان. رأى عمر زجاجتين فارغتين في الجزء المظلم من الطاولة.

"مرحبا يا شباب!"

ومن دون أن يلتفت أنور إلى عمر، هز كتف صالح، وقال: "لماذا صمت يا روحي، عن أغنيتك!"

حاول صالح أن يتمتم بكلمات ما. نظر إلى عمر، وصمت، فكر قليلاً. قال بعد ذلك: "لا يمكن أن أغني وأنا أنظر في عيني المعلم!" وضحك.

قال أنور بموقف تحدٍ: "ماذا في الأمر؟ أنا أغني!" وضغط على نفسه، وبدأ أغنية وهو يصرخ. غنى قليلاً، ثم قال: "وفوق هذا فإنه ليس معلماً، إنه

شريك. إنه شريكنا. أليس كذلك؟ بصحتك يا شريك!"

قال صالح بموقف بريء: "حسنٌ، هكذا، ولكنه كالمعلم، إنه يشبه المعلم!" ونظر إلى عمر: "إنكم لا تغضبون ياه؟"

قال عمر: "بالعافية يا شباب، الله يجعلها عافية!" كان يحاول اتخاذ موقف أبوي حنون.

قال أنور: "بصحتك يا شريك، بصحتك! اشرب أنت أيضاً يا شريك!" ونظر فترة إلى عمر وبدا كأنه يفكر: "كيف سأصطدم به؟" ولكنه قال بعد ذلك: "ولكن ما أذكاك أنت يا شريك!" والتفت إلى صالح: "لم يشغلنا كالآخرين بأجر، أعطانا حصة: جعلنا شركاء. نعم شاركنا. ونحن أيضاً عملنا كالحمير لأن العمل عملنا. اشتغل كل منا شغل عشرة مهندسين." والتفت إلى صالح، كان يقول ذلك وكأن صالحاً لا يعرف هذا، وعمر غير موجود.

دخل عمر إلى المطبخ. بحث عن زجاجة العرق التي وضعها هناك في إحدى الزوايا، ولكنه لم يجدها. فكر: "أخشى أنهم أخذوا زجاجتي، وشربوها؟" ثم تذكر المكان الذي وضعها فيه. لحظة خروجه، تذكر أنه لم يأخذ كأساً. تجول في المطبخ وهو يقول: "كأس... كأس..." بعد ذلك أدرك أن عقله مشغول بأمور أخرى. وفكر: "ماذا يتكلمان هناك؟" سمع كلامهما. كان أنور يشرح أمراً ما. ثم بدآ يضحكان مقهقهين.

دخل عمر حاملاً زجاجة، وكأساً. سيخرج من الباب الآخر، ويشرب في الهواء الطلق على الطاولة التي في الخارج.

مازال أنور يشرح: "لماذا اختار أن يشاركنا؟ لماذا؟ بينما كنا فرحين لاعتبارنا مهندسين جيدين، كان ينتفنا مثل الإوز."

قال عمر فجأة: "هل تريدان أكثر؟" ثم أدرك أنه ارتكب خطأ.

صرخ أنور: "ها، ها! يعتقد أننا نتسول نقوداً. جيد هذا؟ لا نريد شيئاً منك ولاه! ينتفنا مثل الإوز، ويعتقد أننا متسولون. انظر يا صالح إلى هذا؟"

قال صالح: "أنا لم أتسول حتى الآن! قالت لي أمي المسكينة..."

هم عمر بالخروج.

صرخ صالح: "انتظر، إلى أين أنت ذاهب؟ اجلس معنا، اجلس لنتكلم..."

قال عمر: "إنكما سكرانان كثيراً!"

قال أنور فجأة: "لماذا تتذلل له ولاه! إذا لم يرغب بالجلوس، فلا ضرورة أن يجلس!"

قال عمر محاولاً اتخاذ موقف أبوي حنون: "سأجلس يا شباب، سأجلس!" وسحب الكرسي، وجلس في الطرف الآخر من الطاولة.

قال أنور: "انظر، تذللت له، فذهب، وجلس هنااااك بعيداً. لم يجلس بجانبنا. فكر بأننا يمكن أن نعاكسه، أو نصطدم معه. ولكن هذا جيد، فقد تنازل أيضاً، أليس كذلك؟"

قال عمر: "لا يوجد مكان هناك!" ثم ملأ كأسه بالعرق شاعراً بالخجل، وقلبه في فمه.

"لماذا ينظر إلينا من هناك، من بعيد، ولا يأتي ويجلس إلى جانبنا؟ لماذا؟ لأن عينه إلى الأعلى. يريد أن يشرب مع كريم بيك، ومع ذلك المهندس الأوربي، ماذا يفعل مع المساكين مثلنا؟" ثم صرخ فجأة: "ولكننا لسنا مساكين!..."

كان عمر يفكر: "سأشرب أكثر!"

"... ويسر من الحديث مع ذلك الألماني النسوي اللباس. حتى لعبه بالورق مختلف ولاه. فهو لا يلعب لعبتنا، بل يلعب بريدج. ثم الشطرنج: رياضة العقل! ها، ها ها..." ثم رفّع صوته، وبدأ يقلد: "مونشير، كم ورقة تفضلتم أنتم؟"

تمتم صالح بحذر: "ولكن مونشير يقولها الفرنسيون!"

صرخ أنور: "أليسوا كلهم كفاراً في النهاية؟ ألا يسر هذا بالحديث مع الكفرة؟ ويجد الأوربيين متفقين علينا. سئمت ولاه، سئمت. قالوا لنا في المدرسة إنهم أفضل منا، وفي البيت إنهم أفضل منا، رأيناهم في المجلات، وفي السينمات، والآن هنا يفضل هذا المخنث الحديث معهم أكثر."

كان عمر بحذر يستمع.

كان أنور يتحدث كأنه ينمُّ بشخص آخر غير موجود في الغرفة: "عينه أيضاً في الأعلى. ولأن عينه إلى الأعلى أوقع بابنة ذاك النائب. أوقع بابنة النائب." يبرز الكلمات كلمة كلمة، ويتكلم مستمتعاً بما يقول: "ترى كيف تكون ابنة نائب؟ شابنا ما شاء الله وسيم. لا كلام على وسامة شابنا، ولكن ترى كيف هي الفتاة؟ أتريد أن تكون تلك التي تضع الرسائل في ظروف زهرية واحدة دميمة؟" وصمت فجأة. وخيم الصمت. ثم صرخ بغضب مفتعل: "أي شخص أنت ولاه! إذا بصقنا في وجهك فلن تتبس!"

حاول عمر أن يبدو غاضباً: "أنت سكران، لذلك لا آخذك على محمل الجد!" ولكن كلماته هذه كانت كلمات تافهة، وعادية. كانت كلمات عادية، مترفعة، منتظمة، كلمات غني جديد متعقل عادية، وحذرة...

كان أنور يقول: "لا تأخذني مأخذ الجد ها! هذا يعني أنك لا تأخذني مأخذ الجد. حسنٌ، لأتكلم أنا، وخذ كلامي محمل الجد إن أردت، أو لا تأخذه. سأتكلم أنا..." فكر قليلاً. ثم قال: "كريم بيك هذا، كريم بيك تعرفه ياه، أنت لا يمكن أن تكون ظفراً له، هل فهمت؟ ظفراً..."

فكر عمر: "أين وجد هذا؟ ذلك هو هدفه. ولكنه أين وجده؟"

"كريم بيك ذاك لا يشبهك. أنت مزقت مؤخرتك، وشغلتنا كالحمير، لتنجز العمل في موعده. أنجزته! كسبت كثيراً! ولكن انظر إلى كريم بيك، إلى كريم بيك... هو غني بكل ما فيه. بروحه، ومحفظته، ونسبه، وأصله، وقلبه... أرضه لا يمكن أن تجول فيها خلال شهر. هو ليس مثلك. هو لا يمزق نفسه من أجل كسب النقود. هو يقول لأكسب قليلاً من النقود بدل أن أبقى هكذا من دون شغل. أبوه آغا. لا يمكن أن تجول في أرضه بيوم على حصان. هل يمكنك أن تكون ظفراً له أنت؟ هل كان أبوك محامياً، أم تاجراً صغيراً؟"

وفكر عمر: "عرف هذا من وجهي. عرف من وجهي أنه وجد الهدف، والآن هو يستمتع!"

وسأل أنور مشمئزاً مرة أخرى: "هل كان محامياً؟ أبي كان جندياً. كان عسكرياً معجباً بالباشوات إلى حد أنه أسماني..."

قال صالح: "أبي كان نادلاً، أبي كان نادْلاً. وأمي تنتظر الآن أن أرسل لها نقوداً!"

قال أنور: "حسنٌ ياه! كسبنا النقود. يسلم لنا الشريك، فقد جعلنا نكسب نقوداً جيدة!" ثم نهض عن الطاولة. وبدأ يتجول في الغرفة. اقترب من عمر، وسأله فجأة: "هل كنت تعرف أن أبا هذا نادل؟"

قال عمر: "الآن عرفت!" وفهم أن في صوته نبرة مشفقة، فخجل.

قال أنور بحدة: "ها، اعرف إذاً! أبوه نادل. وفي فندق طوقاطليان، هل كنت تعرف؟ كان يخدم في مطعم يذهب إليه أمثالك من المخنثين الجافين الذين يقسمون الخبز، ويأكلون نصفه، ويتركون نصفه الآخر على الطاولة، ومن عاهرات المجتمع الراقي المغنجات، هل فهمت؟" وأضاف محامياً عن صالح كأخ كبير: "لا يستطيع هذا الشاب أن يذهب إلى ذلك المطعم بسبب نساء المجتمع الراقي، هل كنت تعرف هذا أيضاً؟"

لم يكن عمر راغباً أن يقول شيئاً، كان يشرب عرقه بسرعة، ويفكر بأنه إذا شرب بهذه السرعة فسيتقيأ هنا دون أن يستطيع الخروج.

كان أنور ما يزال يقول: "بسبب نساء المجتمع الراقي تلك!" ثم صمت فترة، وجلس على كرسيه، وصرخ فجأة: "أنا أيضاً سأوقع بامرأة من المجتمع الراقي ولاه! سأطبّق امرأة من المجتمع الراقي... سأطبّق امرأة مثل النخاع... سأطبّق امرأة مثل نساء المهندسين الدانمركيين، يا صالح. أي امرأة كانت تلك، أليس كذلك؟ شريك، أنت تعرف كيف تُطبّق تلك النساء من المجتمع الراقي، اخبرنا؟ أي ماذا يجب أن نفعل؟ اخبرنا، ماذا يحببن؟ والله آخذها كل يوم إلى السينما!" وفجأة وضع يده على كتف صالح: "انظر يا صالح، لدينا نقودنا، وعندما نذهب إلى اسطنبول يطبق كل منا فتاة من المجتمع الراقي. لدينا نقودنا. ولدينا شهاداتنا، فنحن مهندسون. أنت وسيم. كيف أبدو أنا؟ أنا ذكي!"

قال صالح: "ولكن لا تغضب. أنت كالبرميل يا أخي!"

قال أنور بصوت مؤمن وحازم: "غير مهم! المهم هو جمال الروح!" وأطلق قهقهة. وصرخ قائلاً: "جمال الروح!" وأطلق قهقهة أخرى. ثم اتخذ موقف الجد فجأة، وقال: "لو أردت الحقيقة فأنا أرضى بواحدة من تلك الغجريات! ولكن فتيات المجتمع الراقي أيضاً..." وفجأة خاطب عمر: "ولكنك لا تتكلم أنت، ها! أتعرف يا صالح من سنسأل هذا أساساً؟ ... صديق هذا... رفيق. فهو يعرف في هذه الأمور!"

فكر عمر: "رفيق!" وتذكر نفسه. كانا قبل قليل هناك، عند العمال. فكر: "إنه صديقي، أعز أصدقائي! هو الذي يعرف من أكون، وماذا أكون."

"هو يعرف بهذه الأمور، لأنني رأيته مرة، في الشتاء قبل الماضي في نيشان طاشٍ. كانت معه واحدة مثل قطعة الراحة!"

فكر عمر: "سخرت من أفكار رفيق. استخففت بتلك الأفكار. ولكنني أرى أنه محق أكثر مني دائماً، وأكثر خلقاً، وأشرف، وأفضل."

كان أنور يشرح: "كانت واحدة فتية مثل الراحة. رأيتهما يتأبط أحدهما ذراع الآخر، في نيشان طاشٍ، في حي المجتمع الراقي ذاك. أنا أيضاً عندما أذهب إلى اسطنبول سأطبق فتاة نيشان طاشية من المجتمع الراقي. لنسأل رفيقاً هذا عن الأمر. فهو من نيشان طاش، ويعرف هذه الطرق جيداً..."

قال عمر: "إيه، ولكنك تماديت!"

"ما هذا؟ هل غضبت؟ انظر إلى هذا. صالح، إنه لا يسمح بأن نغبر على صديقه... ولاه، نحن نعرف من تكون أنت، ومن يكون صديقك... تتذكر هذا من الكلية، أليس كذلك... كان هذا، ورفيق، وكان معهما واحد مثل الأقزام. كانوا ينظرون إلى الجميع نظرة استعلاء. كان هذا مائعاً. كان يأتي كل يوم بسترة وربطة عنق من النوع الأكثر أناقة، ويدخن الغليون. كان الآخر القزم مريضاً. له نظرة من وراء نظارته السميكة، لا

تختلف عن نظرة الشيطان... كنا نحن في الصف الأول. أتذكر مجموعة المتسكعين هذه... كانوا يستخفون بكل شيء. رغم هذا كان الأفضل بينهم رفيق هذا. يبدو عليه الطيب، ولكنني الآن فهمت: كان يبدو عليه هذا نتيجة الحماقة والخبل!"

وصرخ عمر: "كفى هذا، كفى!" فكر بعد هذا على النحو التالي: "سيأتي رفيق بعد قليل. يجب ألا يسمع هذه القباحات، هذه الأمور لا تناسبه!"

"انظر، انظر! لا يسمح بالتعبير على صديقه! لا يسمح بالتعبير على ذلك الأحمق والمخبول النيشان طاشي. ترك الرجل تلك المرأة الشبيهة بقطعة الراحة، وجاء إلى هنا. لماذا جاء إلى هنا؟ من أجل أن يبكي... من أجل أن يلقي نظرة على الأكراد، والجائعين، وبؤس البلد... ويكتب كتابات من أجل نهضة الريف، ويبكي. يذهب إلى الألماني ذي اللباس النسائي، ويبكي. طالما أنك تاجر يا ابني، اجلس في اسطنبول كالباشاوات، وسير أعمالك، ولا تترك فراش امرأتك تلك شبيهة الراحة فارغاً! لا، مستحيل! سيأتي إلى هنا ليبكي!"

صرخ عمر: "اسكت ولاه، اسكت!"

نظر أنور بطرف عينه إلى عمر، وأضاف مشفقاً: "رجل مخبول يا روحي. ثم إنه يدون على دفتر، هل تعرف هذا؟ دفتر مذكرات... وضعه على الطاولة. قبل فترة فتحته، ونظرت إليه. يموّت من الضحك!.. الرجل يبكي أينما نظر. كتب واخ من هذا البؤس، واخ من هذا البلد!.. أحياناً كتب زوجتي الحبيبة! كدت أتبول في سروالي من الضحك! اسم زوجته بريهان. إنها راحة مثل الملاك! وسريره ليس فارغاً يا روحي. أنت تعرف هذا المجتمع الراقي. لابد أنه استدعى أحدهم، وقال: أنا ذاهب، وأنت، ملاكنا..."

قفز عمر عن الكرسي. وسار نحو أنور. تجلت أمام عينيه بعض مشاهد العراك. وينظر المتعاركان أحدهما إلى عيني الآخر قبل العراك، ويمشيان ببطء. أنور أيضاً نهض واقفاً. فكر عمر: "لعلني أطرحه أرضاً لأنه سكران!" تمتم بعد ذلك: "سيفصل بيننا صالح!" خطر بباله أنه لم

يعارك أبداً، وأدرك أن أنور أيضاً لا يريد العراك. فكر: "سيكون العراك شيئاً أحمق جداً! نتبادل الركلات... أحدنا يضرب الآخر... لن يعرف من سيكسب... ستكسر الزجاجات والكؤوس... ورفيق سيعلم أنني تشاجرت من أجله..."

وفجأة قال أنور: "أنا لا أعاركك ياه!" وجلس مكانه.

تناول عمر زجاجته، وخرج إلى الهواء الطلق. ثم تمتم قائلاً: "المشروب يؤثر على معدتي فقط!" جلس إلى الطاولة في الخارج. أفرغ آخر القطرات التي في قعر الزجاجة في الكأس. استمع لليل بانتباه. مازالت الطبلة تقرع متعبة، والكمان يصدر أنيناً. وفكر: "انتهى! ماذا سأفعل الآن؟" فكر بالزواج من ناظلي. "ابنة نائب! سيكون لدينا مطبخنا أيضاً!" أنصت للبراكة. لم يعد يأتي صوت من هناك. وفكر: "لأنتظر رفيقاً. ليأت. ولنتكلم قليلاً. سنذهب بعد ذلك إلى أنقرة. سآخذ بعد ذلك ابنة النائب. حسنٌ، ماذا يمكنني أن أفعل غير هذا؟ كنت قد ألقيت الخطب حول ضرورة الوقوف ضد الحياة الرتيبة العادية! مثلاً، يمكنني أن أشتري مزرعة هنا. المزرعة التي أراني إياها الحاج. كم يبلغ ثمنها؟ كم كسبت من هذه الأعمال كلها؟ انتظر لنر: بكم كان المتر المكعب من التراب في السنة الأولى؟" اندهش كثيراً عندما وجد أنه نسي هذا الرقم الذي لن ينساه أبداً، وكم مائة مرة استخدمه في الحساب. استنتج بعد ذلك من نسيانه هذا أنه لا يعطي أهمية للنقود، ولحظة أراد أن يباهي بنفسه، تذكر الرقم. فكر بناظلي. فكر بمجيئه من إنكلترا. ثم رأى رفيقاً يقترب ببطء، ولكن المحبة المتأججة قبل قليل في البراكة عندما كان الحديث يدور حوله، لم تتأجج هذه المرة. تذكر وهو يتمطى أنه نعسان كثيراً، ولم ينم كما يجب منذ عدة ليال.

39
خريف

قالت نيفان خانم من حيث جلست: "ماتت الأزهار التي زرعها جودت بيك بيديه العزيزتين أيضاً!" وكانت تشير برأسها نحو الزاوية التي زُرعت فيها الأزهار التي حفظ المرحوم زوجها أسماءها اللاتينية.

كانت نيفان خانم وبريهان ونرمين في الحديقة الخلفية، تحت الشجرة، يجلسن على كراسي الخيزران. لم يتبخر بعد ندى الصباح على الأوراق والأعشاب رغم مضي ساعة على خروج عثمان من البيت. فشمس الخريف الضعيفة لم تستطع طرد برودة الصباح من الحديقة. كان اليوم الأخير من أيلول. مضى أسبوعان على عودتهما من الجزيرة. منذ أسبوعين وخيم على بيت نيشان طاشِ حزن، وضيق، وخريف كثيف: مات الطباخ نوري قبل أسبوعين، صباح اليوم الذي انتقلوا فيه بالضبط.

قالت نيفان خانم من جديد: "ماتت الأزهار التي زرعها جودت بيك بيديه العزيزتين..." وتقمصت الوجه التعيس المتضايق الذي يعرفه الجميع قبل إنهاء عبارتها، وصمتت. رمقت كنتيها بنظرة تتهم الجميع، وكل شيء، والعالم كله عدا جودت بيك. قالت: "ورحل نوري يوم كنا نحتاجه فيه بالضبط. كان يحترم جودت بيك على الأقل، ويسقي أزهاره."

قالت نرمين: "كان جودت بيك يكتب أسماءها على ورقة على الأغلب! يمكن أن أذهب إلى أمينونو اليوم وأشتري منها!" والتفتت ناظرة إلى بريهان بوجه حاد الملامح، وبارد. كانت نظرتها تقول: "هل فهمت إلى أين سأذهب بعد ظهر هذا اليوم؟"

أشاحت بريهان بعينيها عن وجه نرمين خائفة. صارت نظرات نرمين المتحدية غير مفهومة بعد تلك المصادفة قبل شهر. رأتها بريهان قبل شهر متأبطة ذراع رجل وسيم طويل القامة في محطة سيركجي للقطارات. ولأنها لم ترغب بالتفكير بهذا الأمر، أصغت لنيفان خانم. كانت نيفان خانم تشرح بأنه لا يمكن أن يوجد من تلك البذور في أي وقت، وإن وجدت فإن ذلك البستاني الذي لا يفيد في أي شيء سيقتلها، وشدت أطراف الشال الذي على كتفيها برؤوس أصابعها. ثم وقعت عينها على الخادمة التي رأتها خارجة من المطّبخ حاملة صينية. انتظرتها تقترب قليلاً، وسألتها: "هل استيقظت؟" كانت تقصد عائشة العائدة من أوربا قبل أربعة أيام.

حركت أمينة خانم رأسها بمعنى لا. والتفتت إلى بريهان قبل أن تضع الصينية على الطاولة: "البنت تبكي أيتها الخانم الصغيرة!"

لم تعد تسمى ملك البالغة خمسة عشر شهراً من عمرها "المولودة"، أو "الطفلة"، صارت تسمى "البنت". نهضت بريهان. وأخذت أحد فناجين الشاي من الصينية، وإحدى الجرائد، وسارت نحو البيت. دخلت من باب المطبخ، وصعدت إلى البيت. وفي أثناء صعودها الدرج، فهمت من صوت بكاء ابنتها، وصوتها المرتفع تارة، والمنخفض تارة أنها بللت ثيابها. ذهبت إلى جانب السرير الصغير فور دخولها الغرفة. ابتسمت عندما رأت ابنتها الباكية. نظرت ملك إليها أيضاً، وصمتت ناسية همها. ثم بدأت تبكي من جديد. تركت بريهان الشاي والجريدة التي بيدها على الطاولة، ورفعت ابنتها من السرير كما ترفع صرة صغيرة. انتبهت لنعومة، ودفء ما بين فخذيها، فقالت: "آه، آه منك يا مهرجة آه! ثم وضعت الفتاة التي بعناية على الطاولة اتي مُد عليها غطاء سميك.

بدأت تخلع لها ثيابها، وخرقها الرقيقة وهي تحكي معها كما تفعل كل مرة. وخلال خلع القميص الذي ترتديه فوق ثيابها، قالت: "أف، عرقنا على الأغلب!" وفكرت بأنها ألبست ابنتها ألبسة سميكة جداً. وفكرت أن الجو قد برد، فقالت: "ولكن هل سيكون جيداً إذا مرضت. وعندما ناغت ملك، فرحت كأن ابنتها توافقها على هذا. خطر ببالها بعد ذلك رفيق. بحسب آخر رسالة كتبها يقول إنه سيكون في اسطنبول بعد أسبوع. كانت بريهان تخشى أن تتلقى رسالة جديدة من رفيق يقول فيها إنه سيتأخر شهراً آخر. خلال محاولتها فتح دبوس مشبك مستعص، ولم تستطع فتحه بأي طريقة، قالت: "مضى على ذهاب البابا سبعة أشهر!" وخافت من صوتها لأنها سمعت وقع أقدام على الدرج. فُتح دبوس المشبك. فكرت: "لعله يأتي بعد هذا!" قطبت وجهها عندما رأت أن قذرها قد لوث كل أطراف الخرقة. وضعت الخرقة المتسخة جانباً، ووضعت ابنتها في حضنها، ودخلت الحمام، وغسلتها. خلال غسلها فكرت برفيق، وبوضعها. وحين عطست البنت، أدركت أنها تأذت من الماء البارد، وارتبكت. خطر ببالها أباها الطبيب. حين بدأت الفتاة تبكي فجأة، فكرت: "لو ذهبت من هنا إلى بيت أهلي، فهل كان هذا أفضل؟" فكرت بهذا كثيراً، واتخذت قرارها قبل ثلاثة أشهر، ولكن أمها جعلتها تتراجع عن قرارها. ذكرتها بكلمات رفيق التي يقول فيها إنه لم يهجرها، بل هجر اسطنبول. فكرت: "هذا هراء!" تراجعت بعد ذلك. تمتمت: "ليس هراء!" وتذكرت رسائل رفيق التي يعتذر فيها، ويعترف بأن الذنب كله ذنبه. فكرت بالرد الذي ردت به عليه. كانت تباهي بالرسالة التي كتبت فيها أنها لا تفكر بمغادرة البيت أبداً، وتشعر بأن رفيقاً يشعر الشعور نفسه. عادت إلى الغرفة على عجل خشية أن تصاب ابنتها بالبرد. أخرجت قميصاً نظيفاً، وخرقة نظيفة. وفكرت: "ماذا تفعل امرأة أخرى بوضعي؟" لم تجب على هذا كما تجيب في كل مرة. فهي تعتبر أنه لا يوجد وضع يشبه وضعها. والسبب في أن وضعها لا شبيه له هو كون رفيق لا شبيه له: ليس لأي امرأة تعرفها زوج مثل رفيق. ولكن ابنتها عندما عطست مرة أخرى وهي تلبسها ثيابها، أرادت أن تعاقب نفسها.

وفكرت: "مازلت في هذا البيت لأنني من دون كرامة!" ارتاحت عندما مددت ابنتها في سريرها. تناولت فنجان الشاي الذي وضعته على الطاولة مقررة أن تتخلص من هذه الفكرة التي لم تبارح عقلها منذ سبعة أشهر، وهي تركض كأنها تطارد حصاناً، وفتحت الجريدة.

برد الشاي. كتبت الجريدة: "أُنقذ السلام العالمي. تم التوصل إلى اتفاق تام في ميونخ" وكتبت أيضاً: "دلاديا، وهتلر، وتشمبرليني، وموسوليني" بدأت بريهان بقراءة الجرائد بنهم كما تفعل دائماً كأنها تريد أن تلج العالم خارجها. لا أحد يتابع أخبار البلد والعالم مثلها في هذا البيت. عندما كانت على وشك إنهاء قراءة خبر مؤتمر ميونخ فُتح الباب دون أن يُقرع مسبقاً، ودخلت نرمين.

سألت نرمين: "هل عندك خيط أخضر؟ من هذا اللون!" وعرضت عليها زراً فستقياً أمسكته بيدها.

سيطر على بريهان ذلك الخوف الغامض، وهبت واقفة. هرعت كأن بقاءهما معاً في الغرفة كان ذنباً، وهي تريد أن تتخلص من هذا الذنب بأسرع وقت ممكن، وتناولت حقيبة المدرسة الابتدائية القديمة التي تستخدمها علبة لأدوات الخياطة، وفتحتها بسرعة، وبحثت منهمكة، ووجدت المطلوب، ومدته لها.

"ها هو!" وبيدها الأخرى أغلقت الحقيبة التي ذكرتها بطفولتها.

قالت نرمين: "أشكرك!" وابتسمت فجأة كما تفعل كلما رأت تلك الحقيبة القديمة. وخرجت من الغرفة بوجه يبدي تفكيراً يوحي بأنها عادت إلى التفكير بالزر الذي بيدها، والثوب الذي ستخيط الزر عليه.

لم تبد ابتسامة نرمين من حقيبة المدرسة الابتدائية محببة لبريهان، بدت لها باردة، مستخفة، وحتى متحدية. نظرت إلى الباب المغلق خلفها متحققة إن كانت قد أخطأت أم لا. ثم تذكرت اليوم الذي رأتها فيه مع الرجل الوسيم. كان ذلك اللقاء يتجلى في عقلها بشكل مختلف من يوم إلى آخر. كان الرجل الذي تسميه وسيماً له سالفان طويلان، احترق وجهه من

الشمس، شارياه ويداه معتنى بها، من النوع الذي يثير في بريهان الخوف والاشمئزاز. كانت بريهان قد جاءت إلى المحطة من أجل أن توصل أمها التي التقت بها في قرة كوي إلى القطار الداخلي. كانت نرمين خارجة مع هذا الرجل من مطعم المحطة. رأت كل منهما الأخرى في اللحظة ذاتها، ولم تشح بريهان بعينيها. ارتبكت نرمين بداية، ثم ابتسمت لها ابتسامة تحرر بدأت تخيف بريهان، وتدهشها تدريجياً. وعندما اقتربت المسافة بينهما حتى ثمانية أمتار أشاحت كل منهما بوجهها عن الأخرى. أم بريهان التي كانت تتحدث عن تسوق ابنتها لم تر نرمين. أثناء عودتهما مساء مع عثمان إلى الجزيرة أدهشت بريهان برودة أعصاب نرمين إلى حد أنها كادت تؤمن بأن التي رأتها في المحطة هي توءم نرمين. ولكنها تذكرت أن نرمين بعد تلك المصادفة بعدة أسابيع قالت لها غاضبة إن عثمان ليس أكثر من آلة تدير آلة نقود تدعى شركة، وأن خليلة كانت لديه قبل فترة، لم تستطع منع نفسها من التفكير بأن جانباً عقلانياً يحكم تصرفاتها. وبعد ذلك، كلما قابلت نظرات وحركات نرمين المتحدية، بدأت تلك المصادفة تتجلى في عقلها بأشكال مختلفة. كانت تفكر كل يوم بأن ابتسامة نرمين في محطة سيركجي في ذلك اليوم هي أكثر جراة ورعباً، وقد أخذت تلك الابتسامة أبعاداً مختلفة في عقلها معتقدة أنها كانت تسخر منها. كأن ابتسامتها تقول: "انظري، أنا لا أتردد بالقيام بهذا! أنا امرأة حرة إلى الحد الذي لن تستطيعي فهمه. أنت تخافين من أمور كهذه، وتنتظرين زوجك فقط..." فكرت بالأمور نفسها بخوف مرة أخرى. عندما فكرت أن نرمين ستلبس ثوبها الأخضر بعد الظهر، وتذهب إلى مكان ما، أرادت أن تشغل نفسها بأمور أخرى، وفتحت الجريدة. وما إن قرأت جملة أو اثنتين حتى قرع الباب، دخلت عائشة باسمة.

تمطت عائشة وهي تغلق الباب خلفها. قبلت بريهان من خديها، وتمطت من جديد. اقتربت من سرير ملك. قالت: "آه، يا مشاغبة، كم تصرخين!"

قالت بريهان: "آه، هل أيقظتك؟"

قالت عائشة: "لا يا روحي، أصلاً كنت أريد الاستيقاظ باكراً!" اقتربت من النافذة. تمطت. قالت: "أوه، ما أجمل هذا اليوم!" التفت، واندست بسرير البنت الصغيرة من جديد. أمسكت الخشخاشة التي على جانب السرير، وقربتها من وجه ملك، وبدأت تهزها. كانت ترتدي ثوب نوم أزرق حريري.

رأت بريهان صدرها الأبيض، والجزء العلوي من ثدييها، وفكرت بأنها عادت من سويسرا إنسانة مختلفة تماماً.

قالت عائشة: "هه، هه! انظروا إلى هذه، انظروا! هل عرفت عمتك، هل عرفت عمتك يا ملك الصغيرة؟" ثم تركت الخشخاشة على طرف السرير فجأة. ثم تمطت وهي تتثاءب. وبدأت تعبث بشعرها، وتحك رأسها.

قالت بريهان: "لم تشبعي من النوم على الأغلب!"

عرفت بريهان أنها كانت مع رمزي ابن فؤاد بيك وليلى خانم وأصدقائهما: "إلى أين ذهبتم؟"

قالت عائشة: "فتح مطعم جديد في منطقة النفق من بيه أوغلو! مكان جميل جداً. تُفتح عندنا الآن أيضاً محلات جيدة. فرحت كثيراً عندما رأيته. ثم ذهبنا جميعاً إلى بيت الخالة ليلى، وجلسنا. عرجنا على إميرغان في طريق العودة، وشربنا هناك شاياً! ترى هل تعرف أمي في أي ساعة جئت؟"

قالت بريهان باعتياد كاتمة الأسرار: "سألت قبل قليل عما إذا كنت قد استيقظت أم لا!"

"ماذا سيحدث لو تأخرت... ثم إنها هي التي كانت قبل أربعة أشهر تطلب مني أن أتجول وأتنزه." اقتربت من النافذة، ثم التفتت فجأة: "إنه شاب جيد إلى حد!..."

لم تسأل بريهان: "من؟" ابتسمت متخذة موقفاً متفهماً.

قالت عائشة: "رمزي شاب جيد جداً! يريد مصلحتي، ويفكر بي دائماً. إنه جنتلمان بكل معنى الكلمة. راق. كريم. مستقيم. آ، ها هي أمي، انظري! تنتظرني عابسة." فتحت النافذة، ونادت نحو الأسفل. "هو، هووو... أنا استيقظت! حسنٌ، حسنٌ! سآتي بعد قليل!"

التفتت إلى بريهان، وفكرت كأنها تبحث عما كانت تتحدث به قبل قليل، تذكرت: "آ، نعم. شاب جيد إلى حد... أبدى لي قرباً في سويسرا أيضاً. غضبت من نفسي لأنني لم أعرف أنه على هذا النحو هنا. لماذا كنت هكذا من قبل؟ ذلك شيء آخر ياه... لعل نظرتي إلى الحياة قد تغيرت! أترين؟ لا، لا! عندما يذهب الإنسان إلى هناك تتغير نظرته إلى الحياة." برقت عيناها. "كل شيء هناك مختلف جداً، مختلف عن هنا، وأجمل... فكرت، متى سنغدو نحن هكذا. هل يمكن أن نغدو نحن هكذا؟ سنكون مثلهم يوماً ما إن شاء الله، أليس كذلك؟ يجب أن تذهبي أنت أيضاً يا بريهان بالتأكيد. اذهبي مع أخي الكبير." صمتت فجأة كأنها ارتكبت خطأ.

قالت بريهان شاردة: "لا أدري."

قالت عائشة: "وهل ستسكنون في هذه الغرفة دائما يا روحي! سأخدع أخي الكبير. لعلنا نذهب معاً! ولكن رؤية الإنسان هناك لكل شيء تتغير. هناك فهمت أن حياتي حياة. من يذهب إلى هناك لابد أن يغدو شخصاً آخر. أو يغدو منهم... المهم... أنا لا أنوي أن أغلق على نفسي الباب في هذا البيت بعد الآن... سأسجل في الجامعة، ولكنني لا أفكر كثيراً. لعلني ذات يوم، بعد سنة..." احمرت وهي تبتسم.

فجأة فتح الباب. كان يلماظ ابن الطباخ نوري. يحمل ظرفاً بيده. فور رؤية بريهان الظرف فهمت أنه من رفيق، كتب أنه سيتأخر شهراً آخر.

في أثناء تقديم يلماظ الظرف لعائشة قال: "تنتظرك السيدة الكبيرة في الأسفل." كان ينظر إلى مكان آخر لكي لا ينظر إلى صدرها المكشوف.

قالت عائشة: "حسنٌ، حسنٌ! أنا قادمة!"

قالت عائشة: "تأخرت!" ثم سترت صدرها بيدها، وشدت ثوب النوم: "مهما يكن! اجلب ما تريد! وقل لأمي إنني قادمة!" التفتت إلى بريهان بعد إغلاق الباب، وأشارت بيدها من خلفه، وقالت: "يجب أن يقرع الباب قبل أن يدخل يا روحي!"

قالت بريهان مندهشة: "ألم يقرع؟"

"لم يقرع ياه... ولكن لديه أنف مضحك، أليس كذلك؟ ويحمر فجأة! يا لشبهه بأبيه. آه، حزنت كثيراً لموت نوري. كنت أريد أن أشارك بجنازته. أتعرفين؟ كان يناديني 'بذرة'. لابد أنه كان يناديني بذرة لأنني كنت صغيرة بحجم البذرة، وجافة، وفاقدة للمرح. كنت أرغب برؤية نوري مرة أخرى. كان يحبني كثيراً. وقد راح بمرض القلب هكذا فجأة ها؟ المهم، جيد أن يحل أخي الكبير ابنه محله. فكر جيداً... سيكون من غير اللائق بنا الإبقاء على ابن الرجل الذي طبخ لنا طعامنا طوال هذه السنين كلها حمالاً في المستودعات لمجرد أنه لم يدرس. إنه سيتعلم تدريجياً.

كانت بريهان تستمع شاردة. كانت عينها على الظرف الذي بيد عائشة. وفكرت: "الأمر نفسه من جديد! كتب أنه سيتأخر بالتأكيد!"

انتبهت عائشة إلى المكان الذي اتجهت عين بريهان إليه. قالت: "ها، لديك رسالة، أليس كذلك؟" نظرت إلى الظرف: "من أخي الكبير! الله الله، وأنا غصت بالثرثرة!" أعطت الظرف لبريهان. "وأجعل أمي تنتظر أيضاً!" سارت نحو الباب. لحظة خروجها من الباب، رأت البنت في السرير.. هزت لها الخشخاشة، وخرجت منتشية.

نظرت بريهان إلى الباب المغلق، والظرف الذي بيدها نظرة خاوية. أخرجت من درج الكوميدينة مبرد أظافر. أدخلته في طرف الظرف، ولكنها لم تمزقه فوراً. كانت تنتظر كل رسالة من رسائل رفيق هكذا ببطء، وفي هذه الأثناء تفكر بما ترغب بأن يكون مكتوباً فيها. فكرت مرة أخرى: "ماذا أريد؟ أن يكتب لي بأنه سيعود فوراً! ماذا سيحدث إذا عاد فوراً!" فكرت بابتسامة نرمين التي قالت عن عثمان إنه "آلة تدور آلة نقود"، وفكرت بعائشة. ثم خافت مما خطر ببالها. فكرت: "كيف أريد أن يكون رفيق؟" خافت عندما بدا لها أن أفكارها، ورغباتها عبثية، ولا حل لها. فتحت الظرف غير راغبة بالتفكير بشيء، وقرأت الرسالة. الأمر نفسه مرة أخرى: كتب أنه سيتأخر من جديد. بدأت بريهان بإعادة قراءة الرسالة مفكرة بما يمكن أن تكون عليه نهضة الريف التي يدرسها رفيق، والعلاقة التي يمكن إيجادها بين هذه الدراسة، وحياة زوجته.

40
أنقرة

نهض مختار بيك غاضباً بشكل مفاجئ. بدأ يذرع دهاليز الوزارة المرتفعة السقف رواحاً ومجيئاً. قال لنفسه: "لقد وعدني، وها نحن ننتظر هنا منذ نصف ساعة! أظلم الجو! ماذا يتكلمون في الداخل حتى الآن؟" سأل هذا وكأنه سيتلقى رداً من رفيق فيما هو ينظر إليه. أشاح بعينيه عن عيني رفيق خجلاً: "كان يمكننا أن نأتي في زمن آخر يا روحي!" ثم التفت فجأة، وفتح باب كاتب الوزير بحركات حازمة، وقال: "أنا مختار نائب مانيسا يا ابني. أخشى أن يكون هنالك خطأ؟" قطب وجهه أثناء استماعه لجواب الكاتب. وقال بغضب مفتعل قليلاً: "إذا كان هو من هيئة التجارة الألمانية، فأنا من متطوعي الهيئة التركية!" وتحرك كأنه سيضرب الباب، ولكنه تراجع، وسحب المقبض بهدوء. ذرع الدهليز رواحاً ومجيئاً من جديد. ثم عاد، وجلس بجانب رفيق، وقال: "ها أنت ترى، هذه أنقرة!"

كانا ينتظران عند باب وزير الزراعة. حين علم النائب بدراسة رفيق القادم مع عمر إلى أنقرة ونواياه، قرر أن يساعد صديق صهر المستقبل هذا. وصرح النائب بعد استماعه لدراسة رفيق بأنه سيهيء له مقابلة مع وزير، وحتى مع عصمت باشا، ولكن الفرصة المنتظرة لم تسنح بأي شكل. كان الوزراء القريب منهم النائب مشغولين كثيراً، وأكثرهم ليسوا في أنقرة.

تعقدت الأمور كلها بسبب مرض أتاتورك الخطير، وكل منهم دخل حالة انتظار. لم يلتق رفيق الكاتب في التنظيم سليمان آيتشليك الذي كان يراسله من كماه. ومنذ أيامه الأولى في أنقرة عمل على الوصول إلى نتيجة محددة حول دراسته، ثم علم مذهولاً أن الكاتب حصل على إجازته السنوية. إنه في أنقرة منذ عشرين يوماً، ولكنه لم يقابل أي مسؤول بعد حول موضوع دراسته.

قال النائب: "هذه أنقرة! ولكن لا تتضايق أنت أبداً! إذا لم نساعد واحداً مثلك..." صمت بموقف المفكر، ثم صحح: "إذا لم نستفد من واحد مثلك..."

قبل ساعة اتصل بالفندق الذي يقيم فيه رفيق، وقال إنه التقى بوزير الزراعة في المجلس، وحصل على موعد منه في الخامسة مساء، وطلب منه أن يأتي إلى ساحة الهلال الأحمر على عجل. التقيا في ساحة الهلال الأحمر، وهرعا إلى الوزارة، ولكن الكاتب قال لهما إن الوزير قد انشغل قبل نصف ساعة. نهض نائب مانيسا مختار لاتشين غاضباً، وبدأ يمشّي جسده الضخم المسن الذي لا يشبه جسم ابنته ناظلي الناعم في دهليز الوزارة.

فتح الباب بعد ذلك، وحدث صخب. خرج رجال من الداخل. أدرك رفيق أن بعض الخارجين كانوا ألماناً من لون بشرتهم، ومشيتهم المتكبرة منتصبين. كان يمشي وراءهم من اعتقد أنه وزير، وترجمان. في هذه الأثناء حيا الوزير مختار بيك بطرف عينه. عاد بعد قليل مستعجلاً، ودخل إلى غرفته. جاء الكاتب ليدعو مختار بيك، ولكن مختاراً كان قد تأبط رفيقاً من ذراعه، وشده نحو غرفة الوزير غاضباً. تمتم رفيق: "حسنٌ، ماذا سأقول للوزير؟ كيف يمكنني تلخيص كل شيء له! سأخبره بتلك الفكرة التي تشكل جوهر دراستي وملخصها..."

دخلا إلى غرفة كبيرة، وواسعة، ولكنها مزدحمة بالمفروشات. لم يكن الوزير خلف طاولته، بل عند طرف النافذة ينظر إلى الخارج وهو يشعل سيجارة. كان رفيق يعرف الوزير قليلاً من الصحف، ولا يراه شخصاً يبعث الرهبة، ويفرض الاحترام الشديد. ولم يكن من كوادر الحزب القليلة صاحبة المواقع المهمة المنتقلة من مقعد إلى آخر. لابد أنه قد حصل على الوزارة نتيجة قربه من جلال بايار.

التفت الوزير حين انتبه لدخولهما الغرفة. واعتذر من مختار بيك لأنه أخره. أشار بعد ذلك من النافذة نحو الأسفل، وقال: "هؤلاء ألمان... أنقرة كلها الآن تلهث خلف هؤلاء الألمان. رجانا رئيس الحكومة أن نلتقي ببعض أفراد الهيئة من أجل بعض التفاصيل التقنية. أخرتكم. يمكن أن توقع اتفاقية تجارية. يريد رئيس الحكومة أن ندرس التفاصيل درءاً لوقوع أي شيء... أوو، نعم، أهذا هو الشاب الذي حدثتموني عنه؟" صافح رفيق. "تحدث عنكم رفيق بيك، قال إنك مهندس!"

تمتم رفيق: "نعم!" ثم فكر: "تتشكل جوهر دراستي..."

قال الوزير: "أتعرف كم يحتاج البلد إلى أمثالكم الذين يريدون عمل شيء ما، ويهرعون من أجل هذا؟" والتفت إلى مختار بيك، واتخذ موقفاً يدل على صعوبة الظروف التي يعمل في ظلها: "الشاب الذي كان معي قبل قليل! يفكر نصف ساعة كي يترجم جملة من الألمانية.. خجلت!" التفت إلى رفيق من جديد، وقال: "يحتاج البلد إلى أناس دارسين ولديهم وعي!"

قال مختار بيك مباهياً: "الشاب مهندس مدني!"

قال الوزير الذي جلس في هذه الأثناء وراء طاولته، وبدأ بتصفح ملفاً كان أمامه وهو يفكر بأمور أخرى بكل وضوح: "آ، هذا يعني مهندس مدني... غريب جداً. مهندس مدني يراجع وزارتنا، وزارة الزراعة، لأن... لأن... من أجل...؟" ورفع رأسه فجأة مندهشاً، وقال: "من أجل ماذا؟" وقبل أن يستمع لجواب رفيق، هز رأسه بتسامح، قال: "آ، طبعاً، طبعاً، طبعاً!"

قال رفيق: "لدي بعض الدراسات يا سيدي، وضعت بعض المبادئ من أجل نهضة الريف..."

كان الوزير يقول: "طبعاً، طبعاً! هل تريدون نشرها؟"

"أريد قراءتها، ومناقشتها، وطرح بعض الآراء الأخرى..."

قال الوزير: "لدى وزارتنا مدفوعات محددة للنشر! هل كتابكم سميك؟ هل يمكنني رؤيته إذا كان معكم؟"

قال رفيق: "لم أطبعه على الآلة الكاتبة بعد!" وعرق خجلاً.

قال الوزير بعد رؤيته تعبير الدهشة على وجه رفيق: "نعم، إذا كان سميكاً، يمكنكم أن تقدموا لنا ملخصاً له!"

قال مختار بيك: "إذا لم أكن مخطئاً، فإن الشاب يريد أن تُناقش!"

تدخل رفيق بالحديث قائلاً: "أن تقرأ، وتناقش!"

قال الوزير: "طبعاً، سأكون أول من يقرأ الكتاب! نحن نعطي أهمية لتنمية ريفنا، وللأفكار الجديدة كلها حول الزراعة!" ثم عاد إلى الملف الذي أمامه. نظر إلى ساعته، وبدأ بالعبث في أدراجه. سألهما: "لماذا لا تجلسان؟" ونهض. ونادى كاتبه.

فكر رفيق: "ماذا يمكنني أن أقول له غير هذا؟ المهم بالنسبة لي هو مناقشتها، وجلب الخدمات الحديثة إلى الوحدات الريفية الموحدة... لأقل له على الأقل إن نشرها ليس مهما بالنسبة لي... كان يتكلم مع كاتبه؟ آه، عقلي ليس في رأسي!"

بعد أن تحدث الوزير مع كاتبه عدة جمل، قال: "في هذه الحال قدموا ملخصاً قصيراً حول كتابكم لوزارتنا. أنا ألتقي أعضاء لجنة النشر." عندما رأى وجه رفيق، قال: "ثمة طريق آخر! يمكنكم أن تنشروه على نفقتكم من دون اختصار. ونحن في الوزارة نشتري عدداً محددا من النسخ." ورفع رأسه قليلاً، وابتسم لمختار بيك معتبراً أن مقترح الحل هذا كرم. ثم دس الملفات التي على الطاولة، وأوراقاً أخرى سحبها من الأدراج على عجل في حقيبة أخرجها من الخزانة.

فكر رفيق: "لا، لم يكن هذا ما أريده! ولكن هذا الرجل يمكنه أن يساعدني!"

بعد أن دس الوزير ملفاً جلبه كاتبه على عجل، قال: "أرجو المعذرة! جعلتكم تنتظرون، ولكنني يجب أن أذهب! ثمة دعوة طعام على شرف الدكتور فونك في السفارة الألمانية!" ثم أغلق حقيبته، وحملها، وسحق سيجارته في المنفضة، وخطا بضع خطوات مقترباً من رفيق. أمسك رفيقاً من الجزء العلوي من ذراعه، والتفت إلى مختار بيك، وقال: "أنا مبسوط جداً لأنكم جلبتم الشاب إلي! سنساعده بالتأكيد!"

قال رفيق مدركاً أنه يجب أن يقول شيئاً ما: "أشكركم، ولكنني أرغب بفتح جلسة حوار أكثر من هذا!"

كان الوزير يعصر عضلة رفيق كأنه يدزك ما يخطر بباله، وأي إنسان هو من مدى قوة هذه العضلة: "أي حوار؟"

قال رفيق: "كما حدث في مجلة التنظيم مثلاً!" ورأى أن الوزير قد فقد مرحه. نظر إلى مختار بيك، كان هذا أيضاً مندهشاً.

ترك الوزير ذراع رفيق فجأة: "آه، مجلة التنظيم، وحركة التنظيم. ولكن موضتها انقضت." التفت إلى مختار بيك: "انقضت، أليس كذلك؟" ثم اتخذ موقفاً كأنه تذكر شيئاً ما، وسأل مختار بيك: "كيف حال عصمت باشا؟"

قال مختار بيك: "والله أنا معلوماتي مثل معلوماتكم!" واحمر وجهه.

تذكر رفيق أن ناظلي قالت إن والدها كان مقرباً من عصمت باشا، وأن كنيتهم اختارها لهم عصمت باشا. أدرك أنه قال شيئاً خاطئاً، ولكنه لم يفهم ما هو.

قال الوزير: "كلنا مرتبطون بعصمت باشا. ولكن رئيس الحكومة الآن هو جلال بيك، ثم لماذا لا يذهب إلى اسطنبول، ولو مرة واحدة في هذه الأيام التي يعاني فيها الغازي من أشد ظروف المرض؟" كان يسير ببطء نحو الباب. وفجأة التفت إلى مختار بيك. أشار إلى الحقيبة التي بيده، وقال: "يطمرنا العمل إلى فوق رأسنا يا سيدي!" ولكنه لم يقل هذا بغضب، بل بابتسام. اليوم قابلنا وزير الاقتصاد الألماني فونك، وسترى غداً وزير الاقتصاد الإنكليزي السير لا أدري ماذا يأتي. لا تنظروا إلى مؤتمر ميونخ: العالم يتجه نحو الحرب. كل منهم يريد أن يأخذنا إلى جانبه. أليس كذلك؟" كان يستمتع بالتلاعب بالألفاظ أحياناً. خرجوا من الغرفة، ومشوا معاً في الدهليز. "ما رأيكم بحادث البارحة؟" انقلبت العربة التي تنزه زوجة وزير الاقتصاد الألماني الدكتور فونك في المزرعة، ورضت ذراعها.

قال الوزير وهو ينزل الدرج: "وما قاله في الوليمة التي أقيمت البارحة! قال إنه لن يعرقل تجارتهم معنا، ولا تجارتنا مع الدول الأخرى. أي أنه

سيعرقلها... ومع الأسف فالغازي مريض. إننا ننتظر. ماذا سينتج عن كل هذا؟ أليس كذلك؟" وقف فجأة على عتبة الباب. فتش نفسه، وتلفت فيما حوله. قال: "يا ابني، هاته!" ارتدى معطفاً قدمه له مستخدم. ثم أمسك بذراع رفيق، والتفت إلى مختار بيك، وقال: "أشكركم لأنكم أحضرتم لي الشاب! سأساعده." ورمق رفيقاً بشك: "سأفعل كل ما بوسعي." ونظر إلى مختار بيك: "تمنيات النواب بالنسبة لنا أوامر... إلى أين ستذهبون أنتم؟" سأل هذا وهو يشير بيده إلى سيارة الوزارة.

قال مختار بيك بصوت حاد أيضاً: "سنمشي!"

قال الوزير: "سأتحدث مع لجنة النشر من أجل الشاب إذاً!" وابتسم بعد ذلك ابتسامة راقية، ولكنها في الوقت نفسه تستخف بالرقي، وصعد إلى سيارته. وتحركت السيارة صاخبة.

شاهد مختار بيك السيارة وهي تضيع بالظلام، فصرخ فيما بعد نحوه: "مهرج، متقلب، عديم الشرف!"

سار الاثنان نحو ساحة الهلال الأحمر. كان الجو بارداً، وجافاً، وميتاً. في يني شهير، وكان في الشارع، ثمة زحام الموظفين الخارجين من دوائرهم، والمتسوقون لتسوق المساء، والذين يشربون شيئاً ما على الماشي قبل عودتهم إلى بيوتهم. كان قال الوزير: "ننتظر". الجميع ينتظرون أمام واجهات المحلات، وفي الخمارات الصغيرة، وأمام باعة الأزهار، وفي مواقف الحافلات. وفكر رفيق: "وها أنا ذا أنتظر أيضاً!"

كان مختار بيك يقول: "سيكون الشخص وزيراً، ويمشي كل هذه المسافة وراء موظف ألماني صغير! أين هيبة الدولة؟ وغير هذا، فهو يستطيع أن يغمز من قناة عصمت باشا."

فكر رفيق: "بريهان أيضاً تنتظرني في غرفتها! وأخي الكبير في المكتب، وأمي في غرفة الجلوس!" كان منتبهاً إلى أنه يشعر بالخجل، ولا يريد أن يفكر.

تكلم مختار بيك: "اعتقد أننا نريد منه نقوداً ببيعه كتاباً كما ترى. لأنه لا يوجد عند هؤلاء ذرة مما يسمى مُثُل. ولكن الكوادر نفسها

مازالت على رأس عملها. قريباً سيتغير كل شيء!" تتهد. "قريباً سيتغير كل شيء إن شاء الله!"

فكر رفيق: "حسنٌ، ماذا سيحدث لي أنا؟" كان يجد الناس في الشوارع، والمصابيح ميتة، ويائسة، ولا روح فيها. تذكر رواية أنقرة التي بجانب رأسه في غرفة الفندق، فضحك. أراد أن يسخر من نفسه، فخاف. تمتم: "لا أريد أن أفكر في شيء!"

قال مختار بيك: "آ، لا تعبس لنرى! ستوضع الأمور في نصابها. سأقابلك بوزير المالية، ووزير العدل. فيما كتبته جوانب تتعلق بهؤلاء أيضاً، أليس كذلك؟ لا تعبس! يجب إتقان الانتظار أيضاً. ويجب الحذر. لماذا ذكرت مجلة التنظيم؟ مهما يكن، مهما يكن. هنالك أمر وهو أنك جئت إلى هنا في أيام سيئة جداً. كل شيء يتغير، وسيتغير. وسيكسب من يعرف كيف ينتظر في أيام كهذه. ولكن ظهر أن هذا الرجل تافه جداً. أنت ترى الجمهورية بأيدي من؟ إن عصمت باشا لا يكلف رجلاً كهذا ليس بوزارة، بل بحمل حقيبته!.." وصلا إلى زاوية الهلال الأحمر. وضع النائب يده على كتف رفيق، وقال: "ننتظرك غداً مع السيد عمر على الطعام!"

عاد رفيق إلى فندقه في أولص. صعد إلى غرفته. ونظر إلى صورة غوته التي وضعها على طاولة صغيرة. قال لنفسه: "من أكون أنا؟" تمدد على السرير. فكر بحديث الوزير، وانتظاره هنا عشرين يوماً، وسبعة الأشهر التي قضاها في ورشة السكك الحديدية، واسطنبول، وبريهان. في مثل هذا اليوم قبل سنة سأل محي الدين في بشك طاش عما إذا كان مايزال مثلما كان من قبل. تمتم: "كيف أنا الآن؟" ولكن لم تخطر بباله أفكارٌ، بل كلمات الوزير، وبعض الذكريات، وبريهان، والبيت في نيشان طاش، وحياته السابقة. تمدد فترة طويلة وهو ينظر إلى مصباح الفندق القذر دون أن يفكر بشيء. فتح بعد ذلك رواية يعقوب قدري "أنقرة". وجد كما في كل مرة أن ما يقرؤه مضحك، ومسكين، وضغط على نفسه بعد ذلك مؤمناً بانفعال الكاتب.

41
فتاة جمهورية

صاح الديك. صاح الديك مرة أخرى. استيقظت ناظلي، فكرت: "إنه عيد الجمهورية!" نظرت إلى ساعتها: السابعة. نهضت من سريرها عندما كان الديك يصيح مرة أخرى. وجدت أن الغرفة باردة. نظرت إلى الخارج عبر النافذة. كان ثمة دجاج في حديقة البيت المجاور الخلفية. فكرت مرة أخرى: "إنه عيد الجمهورية!" انفعلت. كانت أشعة الصباح الأولى تسقط على خم الدجاج. في الحديقة التي يصيح فيها الديك كان رجل يرتدي معطفاً فوق منامته، يتجول بالنعل البيتي في الحديقة وهو يدخن سيجارة. كان هذا هو العقيد مظفر بيك الذي يعمل في وزارة الدفاع. كان يأتي للزيارة في عيد الجمهورية قبل عشر سنوات عندما جاء أبوها إلى أنقرة بعد أن انتخب نائباً. ولكنه لم يعد يأتي في السنوات الأخيرة. يبدو أنه لم يعد يهتم بعيد الجمهورية. وبلحيته الطويلة، ومنامته الكالحة يشبه مريضاً مصاباً بالسل يتجول في حديقة مشفى أكثر مما يشبه عسكرياً يستقبل الذكرى الخامسة عشرة للجمهورية. لم ترغب ناظلي باللعب بهذا المشهد المؤسي. مازال الوقت باكراً، ومن المؤكد أن أحداً لم يستيقظ بعد. قررت أن تمشي حتى ساحة الهلال الأحمر، وتعود.

اغتسلت على عجل، وارتدت ثيابها. لم تفكر أي ثوب سترتدي، لأنها قبل أن تنام مساء البارحة فكرت بهذا تلقائياً باعتياد عشية العيد. نظرت

إلى ثوبها الأحمر المخطط باللون الأبيض، ونظرت إلى نفسها في مرآة البوفية، وأعجبت بنفسها. أشعلت بعد ذلك المدافئ. سيستيقظون بعد قليل، ويجدون البيت دافئاً، وممتعاً، ويفكرون بأن ناظلي استيقظت قبل الجميع. ستكون في تلك الأثناء تمشي في ساحة الهلال الأحمر. سرت لتفكيرها بكل هذا. ووجدت نفسها بصحة جيدة، محببة، وذكية. داعبت بعد ذلك القط. كانت ستقدم له ما يأكله، ولكنها رغبت بالخروج فوراً. نزلت الدرج، وأغلقت الباب بهدوء دون أن تُسمع أحداً. كانت الشمس المفشاة والجافة تفوح برائحة العيد وهي معلقة فوق أنقرة. بدأت تمشي.

كان هذا المسير الصباحي في العيد من عادات العائلة القديمة التي بدأت تنسى. عندما كانت أمها على قيد الحياة كانوا يمشون معاً بعد شروق الشمس بقليل إلى يني شهير/ المدينة الجديدة، ويعودون. كان أبوها يردد كلمات الطلاب المنفعلين، أما المرحومة أمها فتميل نحو المزاح أكثر. كانت ناظلي تفكر بأن أباها وأمها يحبانها، وأن المسير هكذا أجمل بكثير. كان أبوها يشير إلى البيوت التي لا يعلق عليها ساكنوها أعلاماً مديناً لهم، ومهموماً، فتحزن ناظلي لكون الناس سيئين على هذا النحو. وهي الآن تنظر إلى الأعلام وتمشي بين البيوت الموحدة ذات الحدائق، ولا ترى بيتاً دون علم، وتفرح باعتياد قديم.

مشت بسرعة كأنها مستعجلة تريد أن تلحق بموعد معين، ولكن ثمة وقت طويل لاستيقاظ الجميع، واليوم أمامها طويل جداً، ولم يُمس بعد. سيأتي عمر مع صديقه رفيق صباحاً. وسيأتي العم رفعت بالتأكيد، ويتناولون الطعام. ثم يذهب الأب إلى المجلس لحضور حفل المباركة. يذهبون بعدئذ جميعاً إلى الملعب، ولعلهم يشاركون مع الجميع في مسيرة يني شهير، ويصعدون إلى منطقة أولوص للفرجة على المفرقعات النارية. كانت تفكر بهذه الأمور، وتغضب من أصحاب البيوت التي لا ترفع أعلاماً، وتتذكر الأعياد الماضية الجميلة، ولكن أمراً آخر يدور في عقلها، وتعرف أنها لن تستطيع التخلص منه بسهولة. كانت تفكر: "ماذا سيحدث لي مع عمر؟" وتوجست خيفة مما يخطر ببالها وهي تتفرج على نافذة المدرسة التي تمر من

جوارهـا. دُسـت في النوافـذ شـرائط أوراق الكـورنيش، وصـور أتـاتورك، وأعلام عليها صور أتاتورك، ومشاعل. فكرت بأعياد مانيسا حيث قضت طفولتها. كان والدها في تلك الفترة في مركز كل شيء. فيلقي المحافظ مختار بيك كلمة عيد الجمهورية، ويتبادل كبار المسؤولين التهاني، ثم يداعب الجميع شريطة بيضاء مربوطة على شعر ابنة المحافظ المجدول وهي ترتدي ثوباً أحمر. كانت أمها تبتسم كأنها تجد كل شيء مضحكاً قليلاً، ومحزناً قليلاً، ويكبر المرض الذي في رئتيها بحذر، وتذكر ابنتها بكلمات رقيقة بالخط الفاصل بين ما يجب عمله، وما يجب إلا يُعمل. أتاتورك الذي كانت تُنتظر زيارته مريض الآن. وماتت الأم. وذهبت ناظلي إلى اسطنبول للدراسة، وعادت. يقال إن أتاتورك مثل الأم، لن يعافى. قال الأب مساء بأنهم أعدوا مكاناً له في الملعب من دون أي فائدة، وإن العيد سيمر مصحوباً بالخوف والترقب أكثر من الحماس.

كانت تسير. خرجت إلى الشارع الرئيس بانفعال ونشوة وقلق. كانت تسير في الساعة السابعة والثلث. لقد بدأت الحركة في الشارع. عامل تنظيفات يكنس الأوراق المتساقطة من أشجار الطريق العريض الصغيرة. لجأ تلميذ من "الطيور التركية" إلى مدخل إحدى الأبنية الحديثة كأنه خجل من ألبسته الزرقاء منتظراً شيئاً ما. طفل يحمل علماً يمسك بيد أبيه. أحنى الأب رأسه إلى الأسفل، ليقرأ الجرائد الممدودة على الأرض. كتبت الجرائد: "الذكرى الخامسة عشرة" فكرت ناظلي: "أنا في الثانية والعشرين من عمري! سأتزوج. متى؟" خطر ببالها أن عمر كثيراً ما يعبس. يأتي إلى البيت، ويجلس على الأريكة مقابل منظر البندقية، وينظر إلى ناظلي، ولكن نظرته تخرق ناظلي، وتركز على نقطة خلفها. من الضروري إيجاد بعض الكلمات التي تسليه، ولكن شيئاً لا يخطر ببالها في أكثر الأحيان. لم تفكر بأن عمر غبي أو لا شخصية له. كانت مؤمنة بأن الرسائل التي أرسلتها له تحمل خصائص الفتاة "العصرية". كانت ابنة طليعي يناضل من أجل الثورات والتجديد. لم تكن خجولة، ولديها رأي خاص بكل شيء. لعلها ليست جميلة جداً، ولكنها ليست قبيحة.

انتقلت إلى الرصيف المقابل فجأة من أجل التخلص من الأفكار الباعثة على الضيق. أُلصقت ملصقات على الحاجز الخشبي لبناء يبنى حديثاً. كانت تلك الملصقات قد ألصقت في كل مكان من المدينة قبل أيام. نظرت بطرف عينيها: مع الشعب، ومن أجل الشعب: صورة امرأة مسنة تغطي رأسها. تربية جديدة في عصر الجمهورية: وكتب فوق حشد القرويين ذوي قبعات الكسكيت أرقام السنوات المتعاقبة وازدياد أعداد المحوة أميتهم. خطر ببالها رفيق. كانت حزينة من أجله. بذل جهده طوال أشهر، وكتب دراسة من أجل التقدم خطوة أخرى فيما تم إنجازه، وقوبل بعد ذلك بجدار عدم التفهم. أخذه مختار بيك إلى الوزراء، ودعا نواباً إلى البيت ليعرفه عليهم فقط، ولكنه وصل إلى النتيجة نفسها دائماً. لعل الجميع عداه يعرفون أنه سيصل إلى النتيجة الفاشلة ذاتها. كانت ناظلي مندهشة على الأكثر لعدم رؤية رفيق هذا الأمر. كيف يمكن لمهندس ذكي ومثقف مثله أن يكون بعيداً عن الواقعية إلى هذا الحد؟ سألت نفسها: "ما هي الواقعية؟" قال أبوها إن رفعت بيك واقعي. ترك العم رفعت السياسة، وهو يعمل في التجارة. لديه بيت ريفي في كتشي أوران. بينما يتجول مختار بيك في أروقة المجلس يجلس هو أمام الموقد الشمينيه، ويلعب الطاولة، ويشرب النبيذ، ويدعو رفاقه السياسيين لرؤية الواقع. لم يكن أبوها واقعياً. رفيق هذا ليس واقعياً أيضاً، إذ لا يرى ما يراه الجميع مسبقاً. فكرت بعمر. قال إنه كسب نقوداً كثيرة في السكك الحديدية، وبحثت ما إن كان واقعياً أم لا، ثم تراجعت متوجسة خيفة. لم تكن الأفكار السيئة تتركها. وغير هذا فقد تعبت. عادت إلى الرصيف المقابل من جديد، وقررت العودة إلى البيت. سألت بعد ذلك: "حسنٌ، وهل أنا واقعية؟" خطت عدة خطوات. فكرت: "عمر ذكي، ووسيم، وهو الآن غني جداً!" واحمرت. ارادت أن تكون بريئة وطاهرة كابنة المحافظ الصغيرة ذات الثوب الأحمر. قررت بعد ذلك أننا مع الجمهورية أيضاً قد غاصا بالذنوب. لم تفهم كيف توصلت إلى هذا القرار، ولكن الملصقات المضحكة المعلقة على الجدران، والجار العقيد الذي يدخن سيجارة بالمنامة صباح العيد جعلها تدرك أنها على حق. فكرت بعد ذلك: "أنا فتاة

جمهورية!" كان أبوها يقول لها هذا بعد شربه كأس العرق الثاني. لم ترد أن تفكر في: "فتاة جمهورية تسير في الذكرى الخامسة عشرة!"

فُرشت بسطة بائع أزهار على زاوية أحد الأزقة المؤدية إلى الشارع العريض. علم كبير غطى واجهة بناء الهلال الأحمر كلها. طفل يتجول على دراجة هوائية بادئاً العيد والمرح باكراً. هنالك حارسان يسيران وهما يأكلان كعكاً. وتأتي من الطرف المقابل صبية مرتدية زي الكشافة. فكرت ناظلي: "هذه أيضاً فتاة الجمهورية!" أشفقت عليها. تذكرت ابتسامة أمها الحزينة. "كيف يجب أن تكون فتاة الجمهورية؟" فكرت بمظهر الفتاة "الشابة العصرية" التي يتخيلها الشباب. تنظم الجرائد عادة استطلاعات رأي في هذا الموضوع. "كيف يجب أن تكون الصبية العصرية برأيكم؟" الجواب: "يجب ألا تكون مترددة في العلاقات بين الشباب والفتيات، وأن يكون موقفها مما يؤمن به أتاتورك..." تضايقت. انتبهت إلى أنها تتسارع بسيرها. كأن خطواتها تريد اللحاق بأفكارها. مرت فتاة الكشافة من جانبها مباهية. فكرت: "هذه أيضاً ستتزوج، ويكون لديها أولاد. تذكرت أن عمر قال هذا من أجل الاستخفاف بواحدة أخرى. وقال إنه يستخف برائحة المطبخ. إنه يضع نفسه موضع بطل رواية، هو راستنياك، ولكن هذا أمر طفولي. وتضايقت ناظلي كثيراً حتى أدركت أنها يجب أن تقابل هذا التوق بتسامح وتفهم. رؤية الضعف في الرجال يقلل ثقة الإنسان بالحياة. لعل هذا ما يجعل رفيقاً يتوتر. قالت من جديد: "الرغبة في أن يكون راستنياك، أو فاتحاً! لماذا يفكر الإنسان بأمور كهذه؟" فكرت أن عمر قد استمد هذه الرغبة من أوربا. تمتمت بغضب: "ها نحن سنتزوج في النهاية! إذا كان يكره رائحة المطبخ، فإنه لن يُدخل زوجته إلى هناك، ويستخدم خادمة..." وسألت: "ماذا يريد الشاب؟" لم تجد جواباً سهلاً وقصيراً. ماذا أريد أنا؟ أنا لا أريد أن أكون مثل أمي، ولكنني أرى بأنني سأكون مثلها." وقارنت بين عمر وأبيها. تعلم عمر في أوربا أن للحياة قيمة. والجمهورية أيضاً تعلمت الكثير من أوربا. وهذا الرجل الذي يضع القبعة مائلة على رأسه، والصبية التي تذكرها الجرائد... علموا هذا بعدئذ للجميع. فكرت: "أنا لا

أنجرف بالأهواء مثل عمر!" بدا لها عمر كأنه يفسر تلك الأمور بكلمات غامضة، ولكنه بعد ذلك ركز عينيه على النقطة البعيدة. ثمة موقف يتخذه عمر كثيراً في الفترة الأخيرة، ويوتر أعصاب ناظلي: "كان يبتسم بتسامح كفيلسوف العصور البدائية، أو كحكيم صيني رأى الحقيقة، ومر بالتجارب كلها. تخرج تلك الابتسامة من كونها ابتسامة حكيم، وتتحول إلى ابتسامة سخرية واستخفاف، ويستمر هذا حتى تشعر ناظلي كأن هفواتها وأخطاءها كان يُعفى عنها باستمرار. غضبت فجأة لاضطرارها إلى التفكير بأمور كهذه في صباح العيد.. فكرت: "سأسأله عن كل شيء! ليتكلم إذا كان لا يريدني. سأسأله عن هذا أيضاً!" بعد انعطافها إلى الأزقة الفرعية، وخطوها عدة خطوات، أدركت أنها لن تستطيع سؤاله عن هذا. لأن جواب عمر سيجعل وجهها يحمر.

كانت تسير بين بيوت الجمعيات في يني شهير خلف الأبنية الموحدة مرة أخرى. البيوت متشابهة بأشكالها، ومداخنها الصغيرة، وشرفاتها الضيقة، والأعلام المتدلية من شرفاتها، ولكن الحدائق، والأشجار، والأزهار مختلفة. هنالك فروق بين الموظفين أيضاً. منهم من يهوى الأشجار، ومنهم من يعتني بالأزهار الغريبة، ومنهم من يحيط حديقته بالجدران، ومنهم من يربي الدجاج مثل الجار العقيد. تحدثت مع عمر عن هذا بأرق. فكرت بالحياة داخل البيوت: "الآن هم يستيقظون، ويتناولون الإفطار بعد قليل، ويتصفحون الجرائد، ثم يدورون المذياع، ويجهزون أنفسهم للذهاب إلى الاحتفال." كانت تفكر بأمور كهذه عندما سارت في هذا الأزقة في الظلام أيضاً. كانت الأنوار الباهتة المتشابهة للحياة اليومية التي تكرر نفسها تنتشر من النوافذ إلى الليل. فكرت: "نحن سنعيش في اسطنبول." ولكنها أدركت أنها تخدع نفسها قليلاً. كانت أمها أيضاً تسلي نفسها بالتفكير باسطنبول. انتبهت بدهشة أن البيت يمنحها الطمأنينة من دون أن تدري. قالت لنفسها: "بماذا أؤمن أنا؟ ما المهم في الحياة بالنسبة لي؟ سأسأله: هل يريد أن يتزوجني أم لا؟ ليخبرني هذا بصراحة!" فكرت أن عمر سيقول شيئاً آخر. ولكن لم يخطر ببالها هذه المرة أن وجهها سيحمر. فكرت: "سأكون كالجميع." وأضافت على عجل: "ولعلني أكون أفضل قليلاً!"

ولجت زقاق بيتها. لم تعد تنظر فيما حولها منتشية، بل أمامها شاردة. لم يكن المسير، ولا الأفكار، ولا اليوم الذي أمامها مبهجاً. خرج الجار العقيد بألبسته الباعثة على الضيق إلى الحديقة الأمامية. إنها المرة الأولى التي تراه فيها قريباً من الروح منذ سنوات طويلة. فتحت بعد ذلك الباب بمفتاحها، ودخلت إلى البيت. وفي أثناء صعودها الدرج فكرت من جديد بأنها تريد فرحاً. فهمت من الأصوات أن أباها قد استيقظ، ونزل إلى الأسفل. ودخل إلى غرفة الجلوس.

كانت قد وضعت مائدة إفطار لشخصين. خُمر الشاي، ووضع فوق المدفأة الهادرة وهي تشتعل. كان ينبعث من الداخل صوت سكين يكشط حروق الخبز المحمر. فجأة فكرت أن هذه الأمور، هذه الأمور الصغيرة فقط، تمنحها سعادة، وأن الأمر الذي تعطيه أهمية في الحياة هو الغرفة الصغيرة والمائدة المعدة لشخصين. توجست خيفة عندما فكرت بأن عمر لن يكتفي بهذا فقط. تمتمت: "ما الذي قلبه على نحو سلبي؟" ونظرت إلى المائدة بمرح. التفت شاعرة بأن أباها يجلس على الأريكة.

خفض مختار بيك الجريدة التي بيده، ونظر إلى المائدة تارة، وإلى ابنته تارة، وحاول اكتشاف الأمر الذي جعل ابنته منفعلة. ابتسم بعد أن رأى ابنته تبتسم. قال: "أعلن أنني بدأت باعتباري نائباً قبول التهاني!"

اقتربت ناظلي، وقبلت أباها من خديه.

بعد أن رد النائب على القبل، قال: "هل مشيت؟ لماذا لم تخبريني؟ كنت سأرافقك أنا أيضاً."

قالت ناظلي: "مشيت، وكان مسيراً جميلاً جداً."

تنهد النائب قائلاً: "يا، يا! هيا لنجلس إلى الإفطار أيضاً، واحكي لي عما رأيته، وما فكرت به لنرى!"

42
في بيت النائب

كان عمر يمشي بين البيوت الموحدة. حاول ذات مرة أن يفتح لناظلي موضوع هذا الحي الذي تتشابه بيوته، وحياة أهله كلها، وصمت حين رأى أنها قلقت. لم يكن راغباً الآن بالتفكير في الحي وحياته. مضت عشرون دقيقة على خروجه من الفندق. تركه رفيق قائلاً إنه يريد أن يمشي في الشوارع. خشي عمر أن يزل لسانه بالقول إنه يجد حماسه مضحكاً، وطلب منه ألا يتأخر على الغداء. سيتناولون طعام الغداء معاً في بيت ناظلي، ثم سيذهبون إلى حضور الاحتفالات في الملعب. حكى النائب مختار بيك للجميع فرداً فرداً عن المراسم التي ستجري في الملعب، وكرر في كل مناسبة أنهم سيذهبون معاً إلى هناك. كان عمر غاضباً بسبب أنه خاطب، وأنه مضطر لطأطأة رأسه لمتاعب وهموم كهذه. وغاضب لأمور أخرى لأنه خاطب، ولكنه لم يكن يعبر عن هذا الغضب إلا بابتسامة ساخرة.

عندما انعطف إلى زقاق بيت ناظلي، ضحك من نفسه مبتسماً ابتسامة ساخرة كهذه. فكلما انعطف إلى هذا الزقاق تذكر مجيء خالته وزوجها لطلب يد ناظلي. حَسَبَ: كان هذا قبل عشرين شهراً. قارن بين مجيئه الانفعالي والمتشبث ذاك، ومجيئه الساخر والغاضب الآن. فكر: "خبرت الحياة!" ولكن هذا كلام المخبولين المهزومين: "هل أنا طموح، ومنفعل كما كنت سابقاً؟" كان كلما انعطف إلى هذا الزقاق قديماً يشعر

بالانفعال. أما الآن فهو يستثار غضباً. قال لنفسه: "أنا غني الآن!" رأى على شرفة البيت المجاور لبيت أسرة ناظلي رجلاً يجلس بمنامته ومعطفه فدهش. قرع جرس الباب. قال لنفسه أثناء الانتظار: "حسنٌ، متى سنتزوج؟" سأل هذا بصدق كأنه ليس هو الذي يؤجل موعد العرس بذرائع صغيرة في كل مرة، ويعبس كلما فتح هذا الحديث. اندهش عندما فكر: "لعلني لا أتزوج أبداً! حسنٌ، ما فائدة هذا؟" سمع وقع أقدام الخادمة وهي تنزل الدرج. تذكر ليلة الخطوبة الطويلة تلك. "هل كنت أتوقع إيجاد القوة التي تمكنني من احتمال شيء كهذا؟ وهل سأجد في نفسي القوة لاحتمال الحياة التالية ذات المطبخ، والنعل البيتي؟ إيه، لم تنزل هذه المرأة حتى الآن ثلاث درجات!" توجس خيفة عندما شعر أنه يريد أن يلكم الباب، فدس يديه في جيبه.

ابتسمت الخادمة لعمر عندما فتحت الباب: كانت تلك الابتسامة التي يعرفها عمر جيداً: كان يعرف أن العجائز يبتسمن له في طفولته لأنهن يجدنه طفلاً وسيما لطيفا محبباً، وفتياً أيضاً، ولكنه فكر في أثناء صعوده الدرج: "لماذا تضحك؟ نعم، إنها تضحك لأنها تعتبرني محبباً ووسيماً، ولأنني مرشح صهراً!" دخل بعد ذلك إلى غرفة الجلوس بحركات حادة وسريعة فجأة، وتقابلت عيناه بعيني مختار بيك، فأدرك أن الجميع لا يجدونه محبباً. وعندماصافح حماه انتبه إلى أنه يضغط على نفسه ليبتسم. استعرض من في الغرفة بعد ذلك. رأى ناظلي قد ارتدت ثوباً أحمر، ورفعت بيك الذي يتردد كثيراً على البيت يهز رأسه مسروراً من نفسه كما هو دائماً، والقط يرمقه من حيث يجلس على المخدة، ورأى المائدة قد أعدت. نظر إلى ناظلي مرة أخرى، فكر: "ارتدت الأحمر في العيد مثل البنات اللواتي في الثانية عشرة من أعمارهن!" وذهب ليجلس على الأريكة التي يجلس عليها دائماً في الزاوية المقابلة لمنظر البندقية المؤطر.

سأل مختار بيك: "أين شابنا الثوري؟" كان يذكر رفيقاً على هذا النحو.

أخبره عمر بأنه يتجول، وسيأتي بعد قليل. هز مختار بيك رأسه. ومازال رفعت بيك يهز رأسه. كانا يستمعان للإذاعة معاً. ستستمر إذاعة أنقرة الجديدة التي بدأت بثها طوال اليوم. كان برنامج الصباح يتألف من مجموعة ندوات. عمر أيضاً استمع بانتباه: كان المذيع يتحدث عن النجاح

العالمي، والسياسة الخارجية التركية. استمع للمذياع فترة طويلة دون حديث في أي موضوع. ثم دخل بعد ذلك متحدث آخر، وصرح أنه ستبث ندوة بعنوان: "القوة التركية ضرورية للسلام العام!" إثر هذا، نهض مختار بيك بسرعة غير متوقعة من جسمه الضخم. قال: "هذه كلمات جيدة، وممتعة، وجميلة، ولكن ماذا سيحدث بعد ذلك؟ من يعلم ما سيحدث بعد ذلك؟"

رفع رفعت بيك رأسه عن الجريدة، وقال: "هناك ندوة بعد هذه حول موضوع بنك العمل!" وفقد صوابه مثل المرحين الذين لا هم له في الحياة سوى المزاح، ووضع العبارة في مكانها المناسب، وقال: "هذا يعني أن البرنامج التالي أيضاً لجلال بيك." وأطلق قهقهة.

قال مختار بيك بغضب: "الله يحمينا!" وبدأ يذرع الغرفة رواحاً ومجيئاً. انحنى على ثوب ناظلي، ورفع عنه خيطاً عالقاً به. نظر إلى ساعته، وقال: "أين هذا الشاب الثوري يا روحي؟" ثم التفت إلى رفعت بيك بنظرة مفكرة: "هذا يعني أن كل شيء سيسير كما كان في الماضي، ها؟ هذا رأيك؟"

قال رفعت بيك مهموماً كاللماحين الذين لا هم لهم في الحياة سوى إطلاق العبارة المناسبة في الوقت المناسب خاصة عندما يريدون سحب تلك العبارة: "يا عزيزي مختار، أنت فهمتني خطأ. يا عزيزي مختار، انظر، وسترى كيف سيتغير كل شيء!" وعندما رأى الأسى على وجه صديقه، أضاف: "لماذا تحزن إلى هذا الحد من جديد يا روحي؟ اليوم عيد! افرح قليلاً. لماذا هذا الهم، وهذا القلق والانتظار؟"

قالت ناظلي: "اجلسوا يا أبي!" ثم نظرت إلى رفعت بيك نظرة حادة.

يبدو أن رفعت بيك فهم عظمة ما كَسَرَه من نظرة ناظلي. قال: "هيا لنشرب نبيذاً!" ودون أن ينتظر رداً من أحد، نهض براحة كأنه في بيته، وجلب زجاجة نبيذ. ملأ كأساً لمختار بيك الذي كان يذرع الغرفة رواحاً ومجيئاً، وقدمه. وقدم للمخطوبين كأسين أيضاً. وشرع يقص قصة: جاء قبل فترة النائب والشيخ في آن واحد رسول إلى دكانه، وقال إنه يريد أن يشتري ثلاجة، ولكنه يريد أن يراها بداية. فتح رفعت بيك الثلاجة التي يخبئ فيها زجاجات النبيذ. فدهش الحاج بداية، ثم... بعد أن ختم هذه القصة حكى رفعت بيك قصة أخرى مشابهة. ثم كررا ذكرياتهما المشتركة في المجلس.

وسخرا من رجال الدين المتعصبين، وأعداء الثورات. حكى مختار بيك عن الاحتياطات والإجراءات التي اتخذها في مانيسا عند صدور قانون القبعة، واستمتع، وشرب في هذه الأثناء عدة كؤوس من النبيذ. المخطوبان أيضاً شربا نبيذاً. حين كان مختار بيك يروي ذكرياته مرحاً، قطع حديثه، وصرخ: "آ، مازال يجلس في الشرفة بهذا الهندام القبيح ياه!"

قال رفعت بيك: "من؟"

"جارنا العقيد! لا يستحي. لحيته طولها شبر! وفي الذكرى الخامسة عشرة للجمهورية!"

قال رفعت بيك: "ما علاقتنا به يا روحي! هذا عيد، كل شخص يستمتع، ويرتاح كما يشاء!"

صرخ مختار بيك: "لا، لا! سأذهب الآن، وأقرع جرسه. وأعرف ما سأقول له... لماذا تضحك يا رفعت، ما المضحك؟ صرت مثلهم في النهاية. تضحك حاملاً المشروب، حباً بالله هل متنا نحن؟ هل مات جيل الثوريين؟"

قال رفعت بيك: "دع الرجل يا روحي يستمتع بالصباح."

قالت ناظلي: "بابا، لو تتوقفوا عن الشرب."

قال مختار بيك: "أي متعة صباح يا هوه! كم الساعة الآن؟ إنها الحادية عشرة والنصف. أين شابنا إذاً؟"

قالت ناظلي: "قلنا إننا سنتناول الطعام في الثانية عشرة يا بابا!"

قال عمر قلقاً: "سيأتي بعد قليل يا سيدي!"

كان رفعت بيك يقول: "اهدأ قليلاً يا هذا، وأنت لا تستطيع التغلب على المشروب أيضاً!"

قال مختار بيك: "هيا، هيا! لا تجعلني أنزل بمشروبك الآن. هو أيضاً يدوخ من المشروب في اسطنبول!" تغطى وجهه بالحمرة. "سأذهب، وأقرع باب هذا الجار. في هذا الصباح الباكر... إيه، أين شابنا؟"

هبت ناظلي واقفة، وقالت: "بابا، اجلسوا لو سمحتم."

قال مختار بيك: "وهل هذا اليوم يوم جلوس؟ سأتأخر عن المجلس.

سيقول الجميع بعد ذلك إن مختار بيك لم يهنئ رئيس المجلس! سأتأخر! لأغير هذا اللباس، وأجهز نفسي على الأقل!"

قالت ناظلي: "أرجوك يا بابا، ستلوثون لباسكم بالدهن في أثناء الطعام! دعوا عنكم هذا. ترتدون الفراك فيما بعد."

قال مختار بيك: "ماذا يحدث لكم اليوم يا هؤلاء؟ افعل هذا، ولا تفعل هذا. سأذهب، وأقرع باب الجار والله." وبدأ يضحك.

ضحك رفعت بيك أيضاً: "أرجوك يا مختار، لا تهتم! وهل نحن في زمن عبد الحميد؟ دع الرجل يرتدي ما يريد، ويجلس كما يريد. صار هنالك حرية!"

كانت ناظلي أيضاً قد بدأت الضحك. كانوا يضحكون جميعاً. نهض القط أيضاً.

قال مختار بيك: "سأرتدي الفراك وأضع القبعة الآن، وهيا شاهدوني، وليأت هذا الشاب الثوري، ويراني. نحن مازلنا كالسكاكين، ألسنا كذلك، كالسكاكين!" وبدأ يضحك.

هرعت الخادمة إلى الصخب، ودخلت، ونظرت إلى الضاحكين، وبدأت تضحك دون أن تفهم شيئاً، ولكنها مؤمنة أنها ستفهم بعد قليل. ورأت بعد ذلك زجاجة النبيذ الفارغة على الطاولة، وكادت تعبس، ولكنها ضحكت أيضاً.

تأبط رفعت بيك ذراع مختار بيك، وقال: "هيا اذهب، وعلم هذا كيف يرتدى الفراك!" يبدو أنه لم يعجب بمزحته، فلم يضحك.

أطلق مختار بيك قهقهة في أثناء خروجه من الباب. وفجأة عاد متذكراً شيئاً. ونظر إلى وجه عمر مقطباً وجهه كأنه ينظر إلى بقعة على ثيابه، وخرج بعد ذلك.

التفتت الخادمة الناظرة من خلف السيدين إلى ناظلي وعمر، وقالت: "حسنٌ، السيد البيك مسرور اليوم!"

قالت ناظلي: "نعم."

قالت الخادمة: "رحماكم، رحماكم! فليكن الجميع جيدين، و..." وسارت نحو المطبخ.

ساد صمت.

رأى عمر أن ناظلي تجول بنظرها عليه. نهض، وأشعل سيجارة، وأطفأ المذياع، وعاد للجلوس على الأريكة ذاتها. كان يرغب بالخروج من هذا البيت، ومن العائلة، ومن جو الجمهورية اليوم، ولكنه لا يعرف ماذا يفعل. تمتم لنفسه، ولمجرد أن يحكي شيئاً قال: "إنني أعيش. سأرى أشياء أكثر، سأعيش!"

قالت ناظلي فجأة: "كيف تجد والدي؟"

قال عمر: "جيد، إنه جيد." ثم فكر أن عليه أن يقول شيئاً آخر، فقال: "متوتر، ومتململ!" ولكنه فهم أن هذه الكلمات ليست مختلفة.

قالت ناظلي: "نعم..."

صمتا فترة طويلة. فكر عمر بالأمور نفسها، قرر بعد ذلك أن أفكاره بمنتهى العبثية.

قالت ناظلي: "أين تأخر رفيق؟"

قال عمر كأنه ينخر: "سيأتي يا روحي!"

قالت ناظلي وهي تشد ثوبها من أطرافه بحركة يد متوترة: " أنت أيضاً لا تحكي شيئاً أبداً اليوم!"

قال عمر وهو ينظر إلى اليد المتوترة التي تشد طرف الثوب: "ما لك أنت؟ ماذا تريدين؟"

قالت ناظلي: "لا شيء. لا أريد شيئاً!" ونظرت بعد ذلك إلى عمر نظرة غريبة.

وجد عمر أن تلك النظرة غريبة في البداية، ولكنه تذكر بعض الأمور القديمة الممتعة. خطر بباله أن يبدي لناظلي قرباً. هرب بعينيه منها، وسحب نفساً من سيجارته. التفت مدركاً أن ناظلي مازالت تنظر إليه تلك النظرة العجيبة. فقال على عجل كأنه يريد التخلص من شيء: "أنت تعرفين أنني أحبك!" وركز نظره على نقطة فجأة كأن شيئاً هاماً جداً هناك. انتبه إلى أن الشيء الذي ينظر إليه هو منظر البندقية ذي الإطار العريض، ولكنه لم يستطع النظر إلى مكان آخر لأنه ركز عينيه إلى نقطة هناك. دقق بالمنظر

مطولاً كأنه يراه للمرة الأولى. نظر بعد ذلك إلى رأس سيجارته. وفكر أن عيناه ركزتا على هذه النقطة أيضاً، انتبه إلى أن ناظلي تتكلم.

كانت ناظلي تقول: "أريد أن أتكلم معك!"

"حسنٌ، لنتكلم!"

"أريد أن أسألك عن بعض الأمور!"

قال عمر: "اسألي يا روحي!" رمق ناظلي بنظرة عامة، ثم تعلق نظره مرة أخرى برأس سيجارته التي في فمه.

قالت ناظلي: "أنت في الأيام الأخيرة قلق جداً."

"هذا ليس سؤالاً!"

"حسنٌ، لماذا أنت على هذا النحو؟"

قال عمر: "لست قلقاً!" ثم فكر أنه قلق.

"حسنٌ، ما بك؟ كيف أمورك، ماذا يحدث؟"

صرخ عمر: "لا شيء، لا شيء، لا شيء!" وهب واقفاً. "ما سبب هذه الكلمات؟" خاف من هذه الحركات غير المتوقعة. أراد أن يجلس، فلم يستطع.

تمتمت ناظلي: "لا أعرف! أريد أن أسألك بصراحة!"

سار عمر إلى الطرف الآخر من الغرفة خائفاً أن تسأله ما تريد أن تسأله باكية. نظر إلى رف القبعات فوق البوفيه عن قرب. ثم أطفأ سيجارته.

نهضت ناظلي، واقتربت منه وهي تسأله: "أريد أن أسألك هذا. فكرت بهذا. أريد أن أسألك هذا بصراحة. وأعتقد أنني سأتلقى الرد دون أن يحمر وجهي!"

نظر عمر إلى رف القبعات المطعم بالصدف، وفكر بأن خده يجب أن يسجل، وفمه يأخذ مظهراً بشعاً.

"لن يحمر وجهي. أسألك. ألا تريد أن تتزوجني؟" كانت خلف عمر مباشرة. "قل إنني لا أريد أن أتزوجك!"

صرخ عمر: "هراء!" والتفت فجأة بحركة معوجّة، وقلقة. فرأى وجه ناظلي عن قرب. أمسك رأسها بيديه، وجذبه نحوه، واقترب منه، وقبلها

بقوته كلها من فمها. فعل هذا بانفعال غريب دون أي يفكر بأي شيء.

قالت ناظلي: "احك إذا كنت لا تريد أن تتزوجني!"

قبل عمر الوجه نفسه بكل ما أوتي من قوة أيضاً راغباً بأن يؤلمها، ثم قال: "أنا فاتح. أنا رجل، ولست إنساناً عادياً!"

تمتمت ناظلي: "لماذا تؤجل العرس دائماً!" كانت ترتجف على الأغلب.

قال عمر دون أن ينظر إلى وجهها: "تعرفين أن أعمالاً ما تظهر أمامي دائماً!"

"هذا ليس صحيحاً!"

صرخ عمر: "ها هو وجهك يحمر!.."

قالت ناظلي: "لا تصرخ لطفاً، لا تصرخ، سيسمعون!" وبدأت الدموع بعد ذلك بالانهمار من عينيها.

تركها عمر. انسحب خطوة. ورمق ثوبها الأحمر.

مسحت ناظلي دموعها، ورفعت رأسها: "ها هي النظرات الساخرة، والمستخفة من جديد. ماذا فعلت لك؟ إذا كنت تستهين بي، ولا تريدني، فقل هذا!"

قال عمر: "أنا أريد، ولكنك أنت لا تريدين!" وضحك.

بدأت ناظلي تبكي من جديد. اقترب منها عمر راغباً بتهدئتها، وسلوانها، وأمسكها من كتفيها، ولكنه انسحب خائفاً عندما سمع أصواتاً تنبعث من الداخل.

قال عمر: "هيا لنجلس هنا." خاف من نبرة صوته: "كان عليك ألا تشربي هذا المشروب. كل شيء بسببه. إنه يؤذيك، وتعرفين هذا."

أسرعا للجلوس حيث كانا يجلسان قبل قليل. كانت تنبعث من الدهليز أصوات منتشية.

دخل رفعت بيك بعد قليل، وقال: "أبوك هذا رجل غريب!" ثم نظر إلى عمر، وفهم على الأغلب أن سوء تفاهم ما قد حدث بينهما، ولكنه نجح بالمحافظة على النشوة التي في وجهه.

جاء مختار بيك بعد ذلك. كان مرتدياً فراكاً نظيفاً ولامعاً. ابتسم لناظلي، وقال: "كيف صرت، ها، كيف صرت؟"

نهضت ناظلي من حيث تجلس فجأة. وخطت عدة خطوات سريعة، وقالت: "أنت جيد جداً يا بابا!" وعانقت أباها.

انفعل مختار بيك أيضاً، وعانق ابنته. بعد ذلك، طبطب بيده على ظهرها عدة مرات. وشعر بأن ناظلي ترتجف على الأغلب، فأمسكها من كتفيها، ونظر إلى وجهها، وقال: "آ، إنك تبكين! ما الداعي للبكاء الآن؟"

قالت ناظلي: "كيف أعرف. ها أنا أبكي!" وبدأت تبكي هذا المرة بصوت يسمعه الجميع.

حلت الدهشة فجأة. احتضن مختار بيك ابنته بقوة أكبر. داعب شعرها. ضحك بعد ذلك متذكراً أمراً ما: "آه، حسنٌ، بسبب النبيذ. كانت أمها هكذا. طبعاً... كنت أقول لها: كأس نبيذ، وملعقة دموع..." وبدأ يضحك: "إنها ابنة أمها. لو كانت المرحومة هنا، ورأت الذكرى الخامسة عشرة." ثم قبل ناظلي من خديها. وتقابلت عيناه بعيني عمر، فبدا مرحه قد ضاع.

حاول عمر التخلص من النظرة الاتهامية هذه، ولكنه لم يستطع. كان يرى نفسه مذنباً، وسيئاً، وسافلاً، وحاول أن يفكر بأمور أخرى، كي يقابل ما يجري بشكل عادي، وأن يكون مرحاً لكي لا يشمئز من نفسه.

قبل مختار بيك ابنته من خديها مرة أخرى، وابتسم، وقال: "اليوم عيد، يجب أن نكون مرحين." وفرح عندما رأى أن ناظلي قد ابتسمت، فسألها: "حقاً، كيف وجدت هندامي؟" ثم سمع جرس الباب قد قرع بعد ذلك، فقال: "ها هو الشاب الثوري صديقنا قد أتى! لنر ماذا سيقول عندما يراني؟ سيقول كيف بقي الثوري منتصباً! نعم، هذا ما سيقوله!"

43
الدولـة

سأل رفيق الخادمة عن حالها بحكم الاعتياد. كان كلما رآها تذكر بيته في نيشان طاش، وأمينة خانم، وأمه، وبريهان، وأموراً أخرى. أثناء صعوده الدرج سمع القهقهات تنبعث من الأعلى. فكر: "سأبدد مرحهم الآن!" كلما جاء إلى هذا البيت يرى في نفسه مبدداً للمرح، ومثيراً للحزن في النفوس. تذكر الوليمة التي أعدها مختار بيك ليعرفه على نواب آخرين. شرح رفيق دراسته للنواب الذين تعرف إليهم، وقالوا إنهم أعجبوا كثيراً بهذه الدراسة، ولكنهم بعد ذلك غرقوا فيما له قيمة حقيقية لديهم، ألا وهي الشائعات السياسية. "نعم، أنا بالنسبة لهم شخص بحاجة إلى الشفقة، والشعور بقليل من الذنب أمامه لعدم نجاح مساعيهم لمساعدته... ولهذا السبب يتبدد مرحهم عندما يرونني!" فكر بهذا من قبل، وأمعن التفكير فيما يمكن أن يفعله لكي لا يتبدد مرحهم، ولكنه رأى في النهاية أيضاً أنه سيتبدد مرحهم. صعد الدرجة الأخيرة، ورأى مختار بيك ينظر إليه نظرة حنونة وهو يرتدي فراكاً أنيقاً.

قال مختار بيك: "ها هو قد أتى في النهاية. الشاب الثوري بيننا من جديد." صافح يد رفيق الممتدة إليه بقوة. "أين تأخرت؟ تجولت، وتفرجت، أليس كذلك؟ هل ما رأيته جيد؟ حسنٌ، كيف وجدتني لنرى؟"

قال رفيق: "أنتم على ما يرام يا سيدي." ثم تلفت فيما حوله شاعراً بجو غير معتاد.

كان رفعت بيك وناظلي يبتسمان. ثمة غرابة في وجه ناظلي. عمر أيضاً كان يضحك، كأنه لم يكن في الغرفة، بل في مكان آخر.

قال مختار بيك: "أرأيتم، وجدني الشاب كالسكين! هيا لنجلس إلى المائدة، احك لي عما رأيته. لماذا أجلس طوال فترة الصباح في البيت؟ أنت اجلس هناك، وأنت هنا... لماذا تأخر الطعام؟ الطعام يا خديجة خانم؟"

قالت الخادمة إنها أخرجت اللحم من الفرن، ولكنه لم يبرد بعد، ولم يجهز بعد لإحضاره إلى المائدة. وطلب مختار بيك أن تجلب زجاجة نبيذ أخرى. فعارضه رفعت بيك وناظلي. وشرح لرفيق أنه شرب قبل قليل كأسين. ثم قطب حاجبيه، وسأله ما إذا كان قد رأى الرجل في الشرفة. عندما لم يفهم رفيق شيئاً، حكى له بأن الجار العقيد يتجول بلحية طولها شبر، وهندام قبيح في الحديقة من أجل إبداء عدم الاحترام. كان مختار بيك سيذهب لتأنيبه، ولكن رفعت بيك منعه. طلب بعد ذلك من رفيق أن يحكي له عما رآه.

كان رفيق قد مشى في الشوارع شارداً دون أن يشعر بالحماس الذي أراده. عندما انفصل عن عمر كان يأمل بأن يرى الجنود، وتحضيرات المراسم، والساحات المزدانة، والناس المتحمسين، ولكن هذا لم يحدث، تجول وهو يفكر ببيته، وبريهان، ودراساته، وما يمكن أن يفعله في أنقرة. وبدل الانفعال الذي أراد أن يتأجج في داخله، تأجج شعور الاستخفاف بنفسه، واعتبر نفسه مخبولاً. ولهذا السبب حاول أن يشرح أموراً تفرح مختار بيك، ولكنه لم ينجح. شك بعد ذلك بانفعال مختار بيك، واستنتج أن لديه ارتباكاً وتململاً أكثر مما لديه من انفعال. عندما جلبت الخادمة اللحم إلى المائدة، نظر النائب الذي تأججت نشوته وانفعالاته دون أن يفهمها، وفكر من جديد بأنه مبدد للمرح. تمتم: "عندما يرونني يحزنون! مع أنني جئت إلى هنا لأجلب التنوير!" تحدث للنائب عن بعض الأمور التي رآها. وحين حكى عن عائلة فلاح يضع قبعة الكسكيت على رأسه، ويحمل أفرادها الأعلام، قال مختار فجأة: "حسنٌ، حسنٌ! جميل جداً، ولكن ماذا سيحدث

بعد هذا؟ هل ستأتي كوادر جديدة لتكون على رأس عملها؟"

دهش رفيق، وقال: "كوادر جديدة؟" وفكر بمجلة الثورة والتنظيم. بحث عن نقاط مشتركة بين أفكاره، ورغبات مختار بيك، وعبر عن اعتقاده بظهور كوادر جديدة بأفكار وخطط جديدة.

قال رفيق بأن هذا أمر يتوسط الحالتين، ولكنه غير مهم هنا، وأن النقطة المهمة أساساً في مكان آخر، وهي الرؤية الجديدة للريف. سأل مختار بيك عن تلك الرؤية الجديدة. ولكنه لم يستمع لما شرحه رفيق: اشتكى من قساوة اللحم، وقال بعد ذلك إنه ساخن جداً. كأنه يريد أن يغضب، ويبحث عن ذريعة، ولكنه لا يجد. وتخلى رفيق عن القول بأن رؤيته الجديدة تنبع من بعض الاتجاهات الموجودة في مبدأ "الشعبية" لحزب الشعب.

قال رفعت بيك: "الثورة نتاج الكوادر، وهذا الكادر شخص واحد."

انفعل مختار بيك، وقال: "وهذا في اسطنبول على فراش الموت." ثم خاف على الأغلب من صراحته، فسأل: "ماذا سيحدث بعد ذلك؟"

قال رفعت بيك: "أنتم تعرفون كم ينبغي الانتظار من أجل ظهور كادر جديد لدوائر الدولة!" وضحك متابعاً الوجوه واحداً واحداً لمعرفة الأثر الذي تركه مزاحه على المائدة.

قال مختار بيك: "تقول إن الثورة تموت أيضاً." ورفع حاجبيه، قال هذا كأنه يهدد الذي أمامه. كان ينظر إلى رفعت بيك بوجه حاد التعبيرات، واتهامي.

قالت ناظلي من أجل تغيير الموضوع كما يبدو: "ضعوا تلك القطع في هذا الصحن، لنقدمها للقط." ثم سألت عمر الذي لم يفتح فمه ولو مرة منذ جلوسه إلى المائدة: "هل ستأكلون هذا؟" مشيرة إلى قطعة لحم ذات دهن على حافة صحنه.

قال رفعت بيك: "فهمت الأمر خطأ يا عزيزي مختار. لماذا أنت هكذا اليوم؟ أوه، سبانخ بزيت الزيتون ها؟"

قال النائب: "لا، لا! فهمت الأمر بشكل صحيح. إذا كان وحده الكادر، وقد مات، فإن الثورات ستنتهي أيضاً. مع أن الأمر ليس هكذا. ما رأيك بعصمت باشا؟"

قال رفعت باشا: "هل سمعتم ما قاله شكرو قايا بحق عصمت باشا؟" وبدأ يقص قصة حول إصابة مرارة عصمت باشا بالتهاب. وقال الأطباء بأن الحصى التي في المرارة تسببت بالالتهاب نتيجة ركوبه الخيل. ومنعوا الباشا فترة من ركوب الخيل. وحين سمع بهذا شكرو قايا، انتقد التزام الباشا بالمنع، وتوقف رفعت بيك في مكان من القصة، وابتسم قائلاً إن الأمور تداخلت فيما بينها، ولكن الجميع فهموا أنه لا يعطي أهمية للحكاية، وأن السبب الأساسي لانخراطه بها هو تغيير الموضوع.

سأل مختار بيك رفيقاً: "حسنٌ، هل تؤمن انت بأن كل شيء سيحل بالمنع والقوة؟"

قال رفيق: "معروف للجميع أن القسر، والعنف الذي تطبقه الدولة أدى في تاريخنا دائماً إلى التقدم."

قال: "أي أنك تؤيد تطبيق الدولة للقسر من أجل التقدم بالأمور."

قال رفعت بيك: "ألم يُنفذ ما نفذ حتى الآن بهذا الأسلوب يا روحي؟"

قال مختار بيك: "انتظر، انتظر! ليجب الشاب! ليقل أولاً إنه مع استخدام القسر!"

لم يستطع رفيق القول إنه يؤيد استخدام القسر. ولكنه شعر بضرورة أن يُكرر موقف الناس جميعاً الذين يضطرون لاختيار خيار صعب في هذا الموقف، وفكر كيف سقط بهذا الوضع، وبدأ يتحدث عن الدور الذي لعبه القسر في المراحل التي استخدم فيها عبر تاريخنا. تحدث عن إصلاحات محمود الثاني، وفكر بما أوقعه في هذا المأزق.

قال مختار بيك: "أرأيت؟ ها إنك لا تعارض استخدام القسر، والاستفادة من قوة الدولة! ولكنك انتقدت تطبيق أجرة الطريق، وعملية درسيم!" ثم اضاف منتشياً: "كيف تعارض... من سيطبق دراستك دون استخدام القسر؟ هل سيقرأ دراستك الفلاحون؟.. هه، هه... لا يمكن أن يحدث أي شيء من دون قسر! يلزمنا شخص يحمل عصا! يا ابنتي ناظلي، هات اللبن!"

كان رفيق يفكر: "ولكن هذا ليس صحيحاً. كيف يأتي التنوير بالعصا والسوط؟ هذا خطأ! ولكن هل ما قاله من أجل تطبيق دراستي خطأ؟ لأجبه!" قال رفيق: "ولكن يجب أن يكون الإنسان متوازناً في هذه الأمور!"

قال مختار بيك محاولاً الانشغال بأشياء أخرى لإخفاء مرحه: "اللبن جيد أيضاً. ها أنت ترى. قلت إن ما نفذ في درسيم كان خطأ. ولكن لولا التقدم نحوهم بالعصا فإن الثورة ستكون في خطر. إما أن تكون معنا، ومع الدولة والثورات، وتحمل العصا، وتحقق الإصلاحات والتقدم الذي تريد، وإما أن تبقى وحدك، ولعلك تدخل السجن من دون ذنب! خذ مثلاً إغلاق التكيات... يجب تحرير الناس من تلك العقائد العبثية. ولكنهم لا ينوون التخلي عنها! ماذا تفعل؟"

فكر رفيق: "لا يمكن استخدام السوط لتحقيق أي شيء مهما كان هذا الشيء." ولكنه رغم هذا فكر بعدم إمكانية معارضة مبدأ القسر المؤدي إلى التقدم.

قال مختار بيك من جديد: "ولكنهم لا ينوون التراجع، احك له يا رفعت عن تلك القضية. عن الإجراءات المتخذة لإسكان العشائر في أضنة... يريدون منذ القدم، أي منذ مئات السنين إسكان القبائل التركمانية. ولكن تلك القبائل تريد أن تبقى رحلاً. في النهاية أسكنوهم في مكان تحت وطأة العصا. ماذا حدث؟ عمّ الخير! تقدمت الزراعة! تقدم البلد! وزرع هناك القطن الذي يطلبه العالم كله! لو بقي الأمر لهم، لبقوا على حالهم السابقة تلك البائسة والمتخلفة... ها هي أهمية القسر!"

قال رفيق: "ولكن التنوير والتقدم لا يمكن أن يأتي بإيذاء الناس!"

قال مختار بيك بسبب ما تراكم عنده من احتقان نحو رفيق في المناقشات السابقة كلها: "آه، يا ابني أنا لا أفهم كلماتك هذه!" وضحك. "ما هذا الذي تسميه تنويراً؟ فهمت التقدم. التقدم مهم. ليتقدم البلد، ولئلا يعكر ما تسميه التنوير الأجواء. ليبق الظلام. ليبق الظلام، ولكن ليتقدم البلد، ولتتقدم الزراعة، ولتتقدم الصناعة. وإلا فلن يحدث التقدم، أليس كذلك؟ لأن كل ما أنجز، أنجز بالعصا!" وقال مشاهداً اليأس على وجه رفيق: "لعلني فهمتك خطأ. لعلني أخطأت، ولكن لا يمكن أن يترك كل شيء حراً هنا!" والتفت بعد ذلك بمتعة إلى رفعت بيك: "لهذا السبب أنا أغضب من الجار العقيد. المهم تقدم البلد... حسنٌ، لماذا أقول كل هذا؟ لأنني أنظر فأرى كأن الجميع يستهجنون أفكار العم مختار... ليس هكذا

أبداً. لعل كادر الثورة الوحيد يموت في اسطنبول، ولكن هناك آخرون سيحملون الراية!"

قال رفعت بيك بمتعة: "الراية، أم عصا الراية يا عزيزي مختار؟" وأطلق قهقهة. وكرر الأمر نفسه، وأطلق قهقهة أخرى كأنه يريد أن يثبت أن الأهم بالنسبة له هو المزاح الذي يلقيه.

قال مختار بيك: "اضحك أنت، اضحك، ولكن لا تنس أن الجيل الثوري مازال منتصباً على أقدامه." ونظر إلى الخادمة الداخلة بصحن الفواكه، وكرر: "نعم، منتصبون على أقدامنا!" ثم نظر فجأة إلى ساعته، وصرخ قائلاً: "مازلت أجلس هنا! تأخرت عن المجلس. ماذا سيقولون فيما بعد!" قفز منفعلاً، اصطدم بالطاولة، وقلب الإبريق.

هرع مختار بيك، وارتدى معطفه. قبل ابنته من خدها دون أي سبب. كأنه يفكر بأن يتوجه لرفيق: "أرأيت، أنا هكذا!" ثم نظر إلى عمر بحدة أيضاً. أبلغهم أنه سيأتي بعد ساعة، وعلى الجميع أن يكونوا جاهزين للذهاب إلى الملعب. وخرج من البيت راكضاً، وترك خلفه الجميع.

ولكي يتخلص رفيق من هذه الدهشة، وتنظيم أفكاره، شعر بالحاجة لاستكمال الحديث الذي كان قد بدأ قبل قليل، فسأل: "حسنٌ، كيف يحدث؟ كيف يمكن تنوير الناس بإخضاعهم بالعصا؟ إذا أردنا أن يلمع نور العقل والحداثة في هذا البلد، ألا نريد هذا من أجل الشعب؟" ولأن أحداً لم يجب عليه، سأل ناظراً إلى عيني رفعت بيك: "ألا ترون من الخطأ قسر الشعب على قبول الحداثة والتقدم؟ لعله يوجد في تاريخنا فرض للحداثة باستخدام القوة ضد الشعب، ولكن هذه الدولة الآن لا تضطرنا إلى استخدام القسر..."

استمع رفعت بيك لرفيق متحيناً فرصة لمبادرته بمزحة على عادته دائماً، وقدمها في النهاية، وضحك، ولكنه انزوى داخل أفكاره لأن أحداً لم يضحك لمزاحه، ونظر إليه رفيق بكره.

التفت رفيق إلى عمر، وكرر عليه الأفكار نفسها. ولكنه لم ير سوى تلك الابتسامة الساخرة التي يفتعلها عندما يناقش الهر رودولف. استيقظ في داخله شعور بالانسحاق لم يشعر به إثر أي نقاش خاضه حتى الآن، وبدأ

يفكر بالأجوبة التي يجب أن يرد على مختار بيك بها. فكر بداية: "سأقول له إنني لا أؤيد أي رأي ضد الشعب! سيقول لي هو إن هذا ليس ضد الشعب، بل من أجله، ولكن بالقوة. وأنا أقول له عندئذ، هذا أمر غير ممكن. سيعدد لي غاضباً الأمثلة من التاريخ، ثم سيسألني كيف سأنفذ دراستي حول نهضة الريف. فأقول أنا بقوة المجلس. وسيضحك مني قائلاً إن المجلس لم ينتخبه الشعب! سأحزن أنا! حسنٌ، من المخطئ؟ لا أحد! هو يريد أن يثبت لي أن استخدام الضغط على الشعب ليس سيئاً فقط. وأنا أعارضه. النتيجة؟ كل منا يقول فكرته، ويبدو هو محقاً قليلاً. ودراستي هذه سبب جعله على حق. رغم أنني عملت على هذه الدراسة من أجل نشر التنوير. ماذا سيحدث بعد ذلك؟ سيأتي مختار بيك بعد قليل. وسنذهب إلى الملعب. ولعلني ألتقي قليلاً بسليمان آيتشلك. سأعود بعد ذلك إلى بيتي في اسطنبول. عمر وناظلي يتبادلان العبوس منذ أيام... ماذا أفعل أنا؟" تمطى فجأة، وتثاءب كأنه يجب أن يتحرك، ونظر من النافذة، أراد أن يتحدث بحديث ما مع أحدهم، ولكنه شعر أنه لا يستطيع عمل هذا، لأن كلاً منهم انزوى داخل أفكاره، ولا أحد يريد أن يخرب هذا الصمت. عاد مجدداً إلى أفكاره التي كان يغوص فيها قبل قليل: "سأقول له حينئذ أن الشعب يجب أن ينتخب المجلس. وسيقول له هو أن الشعب لا ينتخب من سيفيده، بل من سيخدعه، وهذا صحيح. إذا سمح بانتخابات حرة الآن، وبحزب ثان، وثالث، فإن الحجاج، والمشايخ، والمشعوذين سيدخلون المجلس. وفي هذه الحال يجب أن توضع قوانين تحول دون دخولهم إلى المجلس: لا يمكن استخدام الدين أداة من أجل الدخول إلى المجلس، لا يمكن أن يكون النائب من غير خريجي الجامعات، ولا يمكن للتجار والإقطاعيين أن يدخلوا المجلس. يجب تعليم الشعب حيث ينتخب الناس الجيدين! غير هذا؟" ضحك من نفسه. وقال لنفسه: "ما الذي يجب فعله إذا؟ مختار بيك ليس محقاً. وأنا أيضاً لستُ محقاً. ولكنني طيب النوايا. أنا أريد عمل شيء ما! ماذا أريد أن أفعل؟" تمتم لنفسه متذكراً النقاش الذي خاضه مع الهر رودولف: "أريد أن أجلب التنوير!" وانتبه إلى أنه دخل دائرة الكلمات الغامضة، والأفكار نفسها، وهو يدور فيها. كان قد مر وقت طويل. شرب

قهوته. ودخل دائرة الأفكار نفسها، ودار. تذكر بعد تلك الأفكار حياته السابقة، وبريهان، والأمور التي كان يتذكرها دائماً. "كان لدي توازني في ذلك الوقت. اعتقدت بعد ذلك أنني فقدته. ذهبت إلى بيت غولار خانم تلك، وكنت عائداً إلى بيتي. كنت أمشي في نيشان طاشِ، وأفكر بأنني فقدت توازني. قبل كم شهر؟ مضت ثمانية أشهر! ماذا أفعل الآن؟ أجلس هنا، وانظر. أرى أن ثوب ناظلي أحمر، وأفكر فيه. حسنٌ أنها ارتدته. الشيء الوحيد الفرح في هذه الغرفة التي يعبس فيها الجميع هو لون هذا الثوب الأحمر بلون العلم!" نظر إلى الثوب، وفكر: "ولكن مختار بيك كان مرحاً. كان مرحاً إلى حد أنه لم يتردد بمضايقتي. بماذا يفكر هو؟ يريد أن يصعد عصمت باشا إلى الذروة، وأن يكلف بمهمة. لعله ينتظر وزارة. لم لا؟ إنه رجل لطيف، وجيد. كيف سأكون عندما أبلغ عمره؟" تثاءب فجأة، وفكر أنه تناول طعاماً ثقيلاً، وتذكر أباه، وفكر فيه فترة. وانتبه إلى أن الباب يُقرع. فكر كم مر الوقت بسرعة.

قال مختار بيك الذي دخل بعد قليل: "هيا، هيا! أسرعوا، تأخرنا! ما هذا العبوس على وجوهكم جميعاً. السيارة تنتظر في الأسفل!"

صعدوا إلى السيارة راكضين. حكى مختار بيك بغضب عما سمعه من شائعات في المجلس: قال شكرو قايا مرة أخرى لصحفي: "بماذا يفكر المثقفون؟ إنهم يرونني الأنسب لهذه المسؤولية أليس كذلك؟" مازح رفعت بيك من أجل أن يسلي صديقه: أقسم شكرو قايا على الانتقام لنفيه من السلطة عندما كان في مالطا، تذكر قسمه عندما جاء هو نفسه إلى السلطة... لسبب ما ضحك لهذا الجميع. وانتشى مختار بيك، وبدأ يسخر من المراسم التي جرت في المجلس:

"ما هذا كله يا روحي! مبروك، مبروك عليكم يا سيدي، كيف حالكم يا سيدي؟ أشكركم يا سيدي..." كان ينحني إلى الأمام، ثم يستوي بقامته كأنه يصافح أحداً ما حقيقة، ويحمر وجهه أكثر كلما انحنى مرة. ثم رفع رأسه فجأة: "آه، ها هو الطريق قد انسد! هذا ما كان ينقصنا. تأخرنا." توقفت السيارة كثيراً، وسارت قليلاً، وكان مختار بيك يتحدث مع نفسه كلما توقفت. وعندما ظهر الملعب بعد فترة أعطى السائق

نقوده، وقال: "حسنٌ، نحن ننـزل، وسنمشي!" فتح الباب، ونزل. وبدأ يمشـي موسعاً خطواته، وهو يطلب من النازلين خلفه أن يسرعوا. وعند اقترابه مـن منصة الشرف رأى أسرة نائب آخر. وفجأة حيّا ضابطاً برتبة عالية. وارتاح بعد ذلك مدركاً أن الاحتفال سيبدأ متأخراً قليلاً كما في كل مرة. نظر إلى نفسه بانتباه كأنه ينتبه لثيابه أول مرة، وتصرف كما لو أنه يرتب نفسه. وعندما كانت ناظلي تشد طرف ثوبها سألت ما إذا كانت البقعة التي على بنطالها تظهر أم لا، ثم التفتت إلى رفيق، وابتسمت. كانت ابتسامتها تقول: "يا، يا! أنا هكذا! وكل شيء هكذا، أنت ترى، أليس كذلك؟"

فكر رفيق: "سأقول لها بعد عودتنا من الاحتفال..." ونظر إلى ما حوله بانتباه، ولكن الشعور الذي أراد إيقاظه في داخله، لا يستيقظ كما حدث في جولة الصباح. على العكس من هذا، فهو يستخف بنفسه كما كان صباحاً، ويجد أنه مخبول، وكان ينظر إلى الأشياء والناس من حوله بالشعور ذاته، ويتوجس خيفة من هذا الشعور. كان يمشي خلف عمر وناظلي محاولاً عدم الاستخفاف بما يراه، والتفكير بأن الناس قيّمون وأذكياء، ويتمتم أحياناً لنفسه بالأجوبة التي رد بها على مختار بيك. صعدوا الدرج معاً، ودخلوا إلى صالة بجانب المنصة المخصصة للنواب، والوزراء، والدبلوماسيين، والضباط ذوي الرتب العالية، وكبار الموظفين.

هنالك موقد للشاي في زاوية الصالة الواسعة التي يسميها مختار بيك البوفيه. هنالك طاولات صغيرة على اليمين واليسار، يجلس أناس حولها، ولكن الحشد الحقيقي كان واقفاً. غالبية الرجال الواقفين، والماشين بخطوات صغيرة، على شكل مجموعات صغيرة، يبتسمون مرتدين الفراك مثل مختار بيك. كان الجميع يتكلمون فيما بينهم، ويعرّف كل منهم عائلته على عائلة الآخر إذا كان هذا ضرورياً، ويقف المتعارفون لتبادل التحية، والسؤال عن الأحوال. وتتوجه النظرات المنتبهة إلى الآخرين، وإلى عائلات أخرى دون تفارق البسمة وجوههم، منتظرين تبادل تحيات أخرى، منضمين إلى صخب الصالة. عندما علم مختار بيك أن هنالك وقتاً طويلاً لبدء الاحتفال، قال بأنه من المناسب أن يشرب كل منهم كأس شاي. وسار نحو طاولة توزيع الشاي مبتسماً لعدة أشخاص، ورافعاً قبعته،

ومحنياً بشكل خاص لأحد الأشخاص. وفي أثناء تناول فناجين الشاي من خلف الطاولة، التفت مختار بيك إلى ابنته مشيراً إلى أب وابنته يبدو من كل ما عليهما أنهما أجنبيان.

"انظري، السفير الفرنسي وابنته هناك. ولا أحد عندهما. هيا لنذهب، وتحدثي معهما!"

قالت ناظلي: "رحماك يا أبي! ماذا سأقول لهما؟"

قال مختار بيك: "ولكنك كنت تدوخين إعجاباً بالحديث مع الأجانب سابقاً." وهمس بأذن رجل بعمره مر بجانبه، وضحك. ثم احمر كأن ضحكته أمر غير لائق.

في هذه الأثناء قالت ناظلي: "آ، كيف حالك يا بيراية؟" وأطلقت صرخة خفيفة وهي تعانق صبية مثلها، وقبلتها. تحدثت معها بأمور ما، وأرتها الخاتم الذي بأصبعها، ونظرت إلى عمر مبتسمة.

هز عمر رأسه مبدياً إدراكه أنه المقصود من الحديث، ونظر إلى ناظلي مبتسماً الابتسامة الساخرة نفسها التي تقمصها منذ الصباح حتى الآن، وتظاهر أنه يبتسم لصديقة ناظلي بشكل لا إرادي. اتخذ قراراً بعد ذلك، وخطا خطوتين. قدم نفسه لبراية، وتمايل يميناً ويساراً كصهر يعرف أنه محط إعجاب، وقطب وجهه.

في هذه الأثناء اندس مختار بيك برفيق، وقال: "انظر، انظر! ها هو وزير العدل. هل أعرفك عليه؟" وأثناء الفرجة على الوزير الماشي بسرعة دون أن يلتفت إلى أحد، أضاف: "الرحمة، لا يمكن الاقتراب منه لشدة تكبره!"

كان رفيق ينظر إلى الزحام عله يرى وجهاً مألوفاً له. كانت فكرة احتمال التقائه بسليمان أيتشليك تنهش زاوية من زوايا عقله منذ الصباح. كان واثقاً كما هو واثق من اسمه أن الكاتب في موضوع التنظيم قد عاد من عطلته، وسيشارك في احتفالات الذكرى الخامسة عشرة. في إحدى الأثناء رأى وجها وسط الزحام شبهه بوجه الكاتب، ولكنه قرر أن ذلك الشخص ليس الكاتب الذي يعرفه من صور الجرائد. وفي أثناء تفكيره بمن يكون، ابتسم له صاحب ذلك الوجه. لم يكتف بالابتسام. خرج من الزحام، واقترب من رفيق. كان عليه بزة عسكرية. عرفه رفيق: كان

ضياء ابن عم رفيق. كان يرسل بطاقات معايدة في الأعياد. طلب نقوداً من أبيه عندما كان حياً، وإرثاً بعد موته. حياه شاعراً بالضيق. بدا كأنه خجل عندما رأى الميدالية على صدره.

قال ضياء: "كيف حالك؟ ماذا تفعل هنا؟"

تأتأ رفيق قائلاً: "أنا مع صديق. أنا عائد من رحلة إلى الشرق!"

قال ضياء: "من رحلة إلى الشرق، من رحلة إلى الشرق ها!" وكان يتخذ موقفاً حازماً لم يره رفيق فيه من قبل. "إيه، كيف وجدت البلد؟" قال هذا وهو يرمق مختار بيك بطرف عينه.

عرف رفيق مختار بيك، ورفعت بيك بضياء.

سأل ضياء مجدداً: "إيه، كيف وجدت الشرق؟" هل ذهبت إلى درسيم أيضاً؟ كيف كانت الأمكنة هناك؟ إنها على ما يرام أليس كذلك؟ قمع جيشنا كل شيء."

قال رفيق: "لم أذهب إلى درسيم!"

قال ضياء: "وأنا لم أذهب يا روحي! ولكن المكان هناك أصبح على ما يرام. حرقنا نفوسهم، والثورة تدخل إلى هناك. لم يعد بإمكانهم أن ينتصبوا. لأن القبضة الحديدية للثورة أصبحت هناك." قال وهو ينظر إلى مختار بيك: "أليس كذلك يا سيدي؟"

قال مختار بيك: "يا، يا!"

قال ضياء: "نشر جيشنا قوة الدولة والثورة هناك أيضاً." وبدا كأن ظلاً سقط على وجهه: "لولا الجيش لما كانت هنالك ثورة. والجيش يحصل على حقه في كل وقت... يأخذ حقه في النهاية! ولكن على الزمر الأخرى أن تفكر بالثورة أيضاً. التجار أيضاً. كان الظل الساقط على وجهه يدكن لون ما تحت عينيه، وطرف فمه. "إذا لم يفكروا، فالجيش يعرف كيف يأخذ حقه منهم بالقوة. لا امتياز لأحد. والتجار أيضاً. كيف حال نيفان خانم؟"

قال رفيق إن الجميع بخير بحسب المعلومات التي يحصل عليها من الرسائل.

قال ضياء: "حزنت من أجل أبيك، ولكن يجب أن لا ينسى أن هنالك أموراً أهم من التجارة في الحياة. انظر، ها أنت قد أدركت هذا، فتجولت

في البلد. أم أن تلك الرحلة كانت تجارية؟" وحيا ضابطاً مر بجانبه.

قال رفيق: "لا ، من أجل الفرجة فقط!" وخجل إلى حد أنه غضب من نفسه بدل أن يغضب من ضياء.

"أرأيت؟ ذهبت لترى كيف دخلت الثورة إلى تلك الأرض، هـا؟ والآن ستشاهد الجيش. هذا الجيش قوة كبيرة! لولا هذه القوة، ولولا هذه القبضة الحديدية، لما كانت هنالك ثورات، ولا تقدم، أليس كذلك؟" غدت اليد المحيية قبل قليل قبضة.

قال مختار بيك: "نحن أيضاً يا للمصادفة كنا نتحدث بالأمور نفسها هذا الصباح."

صرخ ضياء فرحاً: "طبعاً، طبعاً! الجيش كل شيء. الجيش يرعى الثورة. فهو الحارس ضد اغتصاب الحقوق، والفوضى. ويعرف كيف يحصّل حقه. أليس كذلك؟ ويأخذ حقه في النهاية." قال كلماته الأخيرة بوجه يتخبط بالتشبث. قال بعد ذلك: "آ، ها هو قد أتى!" وصافح رفيقاً على عجل، وضاع وسط الزحام في لحظة.

قال مختار بيك: "من هذا؟ من يكون بالنسبة لك؟ يبدو أنه ضابط ثوري مؤمن. إيه، حارب في معركة النضال القومي، وحصل على ميدالية، ليس كجارنا الكسول يا... لو تعرف كم يفرحني رؤية أشخاص مثله. لم أعد قلقاً على مستقبل البلد. ها! قبل قليل أخبروني بهذا... تسوء حالة المريض في اسطنبول... حقاً، ها هو قد جاء على الأغلب."

انشق الجمع كأن كرة من نار سقطت وسطه، وتفرق، ثم اجتمع باتجاه الدرج المؤدي إلى منصة الشرف وهو يتثاءب. حدث تدافع. سقط فنجان شاي على الأرض، وانكسر. بدا أن رفيقاً رأى وسط الزحام رقبة رئيس الحكومة جلال بايار من الخلف، أو خده. كان وسط الجميع. رأى إطار نظارته أيضاً، ولكن شخصاً داس على قدمه في هذه الأثناء.

قال نائب مسن أيضاً: "ألم أقل لكم بإنه علينا أن نحجز مكاناً؟" وانحنى لمختار بيك محيياً، ثم عاد للتعبير عن الغضب لزوجته، وابنته.

صرخ في هذه الأثناء موظف عند باب منصة الشرف: "يا سيدي، لطفاً من الباب الآخر، امتلأ المكان هنا. قلنا من الباب الأخر لطفاً يا أخوان!"

هرعوا إلى الباب الآخر مع الحشد. صعدوا الدرج متزاحمين. امسكت ابنة النائب ناظلي بيد عمر. فجأة رأى رفيق أرض الملعب. كانت منصة الشرف تتماوج بشكل حلو بحراً من بزات الفراك، والقبعات الأسطوانية، والميداليات، وثياب النساء الملونة، وقبعاتهن الصغيرة، والأعلام المعلقة هنا وهناك، ويتموج كل شيء وسط صخب، وانتظار فضولي.

مد مختار بيك رأسه نحو اليمين ونحو اليسار بحثاً عن مكان وحيا عدة أشخاص. رفع قبعته عدة مرات، وأعادها. قرر بعد ذلك اختيار زاوية، وبدأ يمشي إليها وسط الجالسين. كان يلتفت أحياناً ليرى ما إن كانت ابنته وضيوفه قد جاؤوا أم لا، ثم يحيي من حوله من جديد. ويقول لرفيق عبارات ما.

في تلك اللحظة بالضبط حدث تململ على المنصة، والتفتت الرؤوس إلى إحدى الجهات في لحظة واحدة. وسمع بعد ذلك صوت تصفيق. نهض الجميع ليرى أحدهم من فوق الآخر. اشتد التصفيق أكثر. التفت رفيق، ونظر. رأى بين الرؤوس من جديد الرقبة والخد اللذين رآهما قبل قليل. ثمة يد فوق الرقبة، تلوح بالقبعة ببطء كأنها تداعب الناس فرداً فرداً. واشتد التصفيق في الجهة التي تتجه نحوها اليد والقبعة.

بعد قليل جلسوا مع الجميع، ولكنهم وقفوا من جديد من أجل نشيد الاستقلال. أثناء ترديد النشيد فكر رفيق بأن الحماس لم يحدث أيضاً. تذكر بعد ذلك عندما كان يردد النشيد مع الجميع أيام الثانوية. تذكر رودولف عندما كان يفكر أنه ينزوي داخل الحشد. وفكر: "سقط على قلبي شعاع الضوء، لذلك أنا غريب!" ولكن هذا لم يكن سبب عدم ترديده نشيد الاستقلال. "حسنٌ، لماذا لا أردد؟ لأنني أسمع صوتي، ويبدو لي هذا غريباً جداً." فكر بالهر رودولف من جديد. وتذكر كلمات هولدرلين المتعلقة بالشرق. تذكر النقاش الذي خاضه مع مختار بيك. "سأقول له..." تذكر أن الصوت المنطلق من الطرف المقابل من الأفواه جماعياً تتردد أصدائه في المدرجات، وتتلاحق تلك الأصوات بفاصل زمني خلال ثانيتين، لهذا السبب حدث تداخل يشبه "تعددية الأصوات" التي درسوها في درس الموسيقى. فكر بأمور أخرى اعتبرها عبثاً، وعندما انتهى النشيد، جلس مع الجميع، واستمع لخطاب أتاتورك الذي قرأه جلال بايار.

دبت الحركة من جديد بعد الخطاب.

صرخ أحدهم من الخلف: "سيتغلب على الموت من تغلب على سبع دول!"

التفت الجميع، ونظروا. قال أحدهم في هذه الأثناء: "كيف حالك يا مختار بيك؟"

قدم مختار بيك تحية استعراضية.

كان صاحب الصوت كريم ناجي بيك، وبجانبه إحسان بيك مفتش الحزب الذي رآه رفيق في الورشة. كانا يمشيان معاً نحو منصة الشرف. سلما على رفيق وعمر أيضاً.

قال كريم بيك: "ها هما المهندسان الشابان معك!"

قال مختار بيك كأنه يهمر: "نعم، نعم!" ثم قال فجأة: "كيف؟ لم أفهم يا سيدي!" لأن الطائرات كانت تمر فوق الملعب مصدرة صخباً رهيباً.

قال كريم بيك: "قلت ها هما المهندسان الشابان معك!" وهز رأسه مبدياً عدم رغبته بإعادة كلماته. ثم جال بعينيه المسبلتين نصف إغماضة على عمر وناظلي. سأل: "هل تزوجتما؟" وهز رأسه بحنان أبوي دون انتظار جوابهما. وبدا كأنه يفكر كما يفكر دائماً: "ما قيمة كلامكم في عالمي، وبجانبي..."

بعد أن ابتعد كريم بيك، قال رفعت بيك بمتعة بعد أن حانت فرصة للمزاح: "رجل مثل الدولة. فهو إقطاعي، ومتعهد، ونائب!"

ولكن مختار بيك لم يفهم هذا. لأن مجموعة طائرات أخرى تمر مصدرة صخباً رهيباً وهي تطير فوق الملعب على ارتفاع منخفض، وتصفق المدرجات للطائرات، وفيما كان بعضهم يخاطب السماء.

44
آمال نائب

صعد مختار بيك الدرج بسرعة. نظر إلى غرفة الجلوس، وغرفة النوم على أمل رؤية ابنته، فلم يجدها. دخل إلى غرفته، وأغلق الباب. ألقى بنفسه على السرير كطفل يُهيئ نفسه للبكاء. تمتم: "ها قد انتهى كل شيء، والآن يبدأ كل شيء! الموت سيئ جداً. وأنا لا شيء. أنا لا شيء تماماً بجانبه." وبدا كأنه سيبكي. قطب وجهه، وخجل. تمتم من جديد: "ما أسوأ هذا؟ ماذا سيحدث الآن؟"

حدث ما كان يتوقعه الجميع، وقد جهزوا أنفسهم له، فقد مات أتاتورك في اسطنبول قبل عشرة أيام. ووضع جثمانه اليوم في مدفنه المؤقت في متحف الأعراق البشرية، وأقيمت مراسم شاركت فيها أنقرة كلها. شارك مختار بيك بالمراسم التي أقيمت في المجلس، وبكى هناك مع الجميع، وكان قد فكر بعدم المشاركة بالمراسم التي تقام وسط المدينة خشية أن يبكي، ولكنه تراجع عن هذا لاعتقاده أن وجوده هناك سيكون صائباً. جرت المراسم وسط سيل من الدموع مثلما جرت مراسم اسطنبول والمجلس، وبكى مختار بيك وسط الجميع أيضاً لعدم اعتياده على مشاهد مؤثرة كهذه. فكر: "حسنٌ، لماذا بكيت؟" انقلب على السرير الكبير المزدوج الناعم، وطرح على نفسه السؤال من جديد: "بكيت، لأنه كان

أمراً مخيفاً جداً. نعم، كان أمراً مخيفاً جداً!" ومع هذه الكلمات خامرت عقله المشاعر التي تأججت في المراسم. وفكر مرة أخرى أن كل شيء فارغ، وتافه، ولا معنى له. بحث بعد ذلك عما دعاه للتفكير على هذا النحو. "لأنه لا قيمة لحياتي مقابل موت إنسان بكاه كل هذا العدد من الناس... أنا نملة مقارنة بذلك الجبل!" ولكن لهيباً ماكراً تأجج في داخله فجأة: "ولكنني أعيش، وأرى ما يحدث في العالم، وسأشهد أموراً أخرى! نعم، لنر ما سيحدث بعد ذلك؟" وخجل من أفكاره، وحاول من جديد تذكر موت أتاتورك لمعاقبة نفسه. ولكنه غضب منتبهاً أنه بدأ يفكر بموته وحياته هو كما يحدث كلما فكر بهذا الموت.

انقلب على سريره وهو ينفّخ لكي يتخلص من ضيق هذه الأفكار، وحرارة المخدة تحت خده، وأذنه. وفكر: "ماذا سيحدث بعد ذلك؟ سينسحب جلال بيك! ينسحب جلال بيك، ويتسلم المؤمنون بعصمت باشا المسؤوليات. ترى متى يحدث هذا؟" اعتقد مختار بيك أن هذا سيحدث بعيد موت أتاتورك مباشرة، ولكنه أخطأ. لم يجرؤ أحد على إظهار أن تغييرات كبيرة تحدث في البلد، وهكذا حصلت حكومة بايار السابقة على الثقة في المجلس قبل خمسة أيام. وهذا يشير إلى أن الحكومة السابقة ستمارس مسؤولياتها مدة شهر أو شهرين على الأقل. فكر مختار بيك: "شهران يلقيان في الزبالة من أجل عدم إرباك البلد! ولكن البلد في الوقت نفسه بحاجة إلى التجديد، والكوادر الجديدة. والكوادر الجديدة تتململ طالبة تكليفها بالمسؤوليات." تمتم بأمل وانفعال: "أنا أيضاً أتململ!" كان سيضحك من نفسه، ولكنه تخلى عن هذا. "ما المضحك في هذا؟ انتظرت صابراً، وعملت! ولدي المعلومات والخبرة والجرأة لتحمل المسؤولية. فوق هذا فأنا أعرف الحزم للسير في طريق. ما الذي ينقصني إذاً لأجد رغبتي هذه مضحكة؟" رفع رأسه عن المخدة منفعلاً. "ما الذي ينقصني بالقياس إلى الآخرين حباً بالله؟ عن توفيق، وعن فكرت؟" مرر بعقله الوزراء السابقين، والمحتملين واحداً واحداً، وكلما وجد أنه يتفوق على أحدهم، طوى أصبعه بفرح وعدد: "أأنقص عن مخلص؟ عن الدكتور خلوصي؟ عن ساجد الذي

يتكلم فرنسية مكسرة؟ لا ينقصني شيء عن أحد منهم والحمد لله! وغير هذا فأنا أجرأ منهم، وأكثر حزماً، نعم، عرفت كيف أسير في طريق ضمن سياسة متوازنة!" انفعل أكثر عندما مرر في عقله مدى التوازن الذي أبداه في مسيره، وارتباطه بعصمت باشا. قال لنفسه مؤمناً أنهم سيتذكرونه، ويدعونه لممارسة المهام في الحكومة الجديدة: "حسنٌ، متى سينهى تكليف جلال بيك بالمهمة؟ لا عمل لهذه الحكومة غير إلهاء البلد. أيام تمضي بقيمة الذهب يوماً وراء يوم. يا للأسف، يا للأسف!" أسند رأسه على المخدة مرة أخرى مؤمناً بالتأكيد أنهم سيتذكرونه.

نعم، لابد لعصمت باشا أن يتذكر مختار لاتشن الذي ربط حياته السياسية كلها به أثناء تشكيل الحكومة، ويوصي به لرئيس الحكومة الجديد. استحضر مختار بيك أمام عينيه مشهداً ستجري أحداثه في القصر الرئاسي بتفاصيله كلها. سيسأل عصمت باشا رئيس الحكومة الذي يتصور أنه رفيق صايضام، أو شكرو سراج أوغلو: "بمن تفكرون؟" وسيقول دون انتظار الجواب: "هل فكرتم بمختار بيك لاتشين؟" وتمتم مختار بيك وهو ينظر إلى سقف الغرفة منفعلاً: "نعم، نعم، لاتشين!" سيتذكر عصمت باشا الكنية التي اختارها له بالتأكيد. كان هذا قبل أربع سنوات. كل شخص يتلمس قريب قريب كبير له أن يختار له كنية. وحين دعي مختار بيك إلى القصر الوردي للعب الشطرنج، وأخبر رئيس الحكومة بعد اللعب بأنه يرغب بالحصول منه على كنية، وبعد أن فكر عصمت باشا قليلاً، قال "لاتشين!" وقد رجاه مختار أن يدون له هذه الكنية التي لم يفهم معناها على ورقة. وعرف فيما بعد معنى كنيته المدونة بخط مرتجف على ورقة تحمل توقيع الباشا، وظل يخبئها طوال تلك السنوات، وفهم أن تلك الكلمة لا تحمل دلالة كبيرة، وتوحي بشخصيته، فقرر أنها تعني الصوت الهادئ. كانت شخصيته هادئة. كان يتقن الانتظار، والفرجة بصبر على ما يجري: بصبر، ولكن ليس بخدر وكسل وتردد! ارتبط بعصمت باشا بصبر. تذكر كيف بدأ هذا الارتباط. كان ذلك في الأشهر الأولى من مجيئه إلى المجلس. فقد تعرف عصمت باشا على النواب الجدد،

وفتح معهم حديثاً حول العادات اليومية، وسأل عمن اعتاد القيلولة بعد الغداء، وقال مختار بيك بانفعال، واحترام إن عادة كهذه لديه، ونجح بجذب الانتباه إليه. ولكن الباشا أظهر له الاهتمام الحقيقي بعد علمه بما يمتلكه من مهارة بالشطرنج. وبعد تعيينه في المجلس بفترة قصيرة لا تتجاوز ستة أشهر، نجح بتأسيس علاقة مكنته من الدعوة للعب الشطرنج في القصر الوردي التي لا يمكن الارتقاء إليها بسهولة. انفعل مختار بيك عندما تذكر تلك السنوات. لم تكن قد توفيت زوجته بعد. كان يحارب أعداء الثورة في المجلس، ويسقط اقنعة الثوريين المزورين، ويحب أنقرة كثيراً، ويؤمن بوجود مستقبل لامع أمامه. تمتم بأمل: "ها هو ذا المستقبل الذي هو ثمرة صبري وحماسي على مبعدة خطوة أمامي! بقيت خطوة للوصول إلى هدف الذي وجهت له حياتي كلها!"

انقلب مرة أخرى في سريره ذي الكرات البرونزية اللامعة، وتمتم: "خطوة صغيرة!" سيخطو خطوة أخرى، وتكتسب حياته كلها، وليس مستقبله فقط، بل ماضيه أيضاً بعداً جديداً جداً. سيتوج انفعال التجديد والتقدم في شبابه، وحزم كهولته، بمسؤوليات كبرى في مرحلة نضجه. بأي مجد يمكن للإنسان أن يتوج حياته سوى بمسؤولية كهذه؟ تمتم مختار بيك بضيق: "خاصة إذا كان الإنسان مثلي!" لم ير نفسه في أي زمن متعدد الألوان والأبعاد. ولم يستمتع بالحياة مثلما استمتع غالبية أمثاله أيضاً. لم يعرف امرأة بعد موت زوجته غير واحدة بعد حفلة لهو مع المشروب في اسطنبول، وقمع رغبات جسده المسن بسبب تردده قليلاً، وخموله قليلاً. ولم يصبح رجل صالونات كأمثاله أيضاً. فهو يدرك أنه سيبقى في أمكنة كهذه على الأطراف، وأنه لا يملأ الصالون الذي يدخله، ولا حتى الأريكة التي يجلس عليها. وغير هذا فهو لا يُسر من الثرثرة الفارغة أيضاً. ولكنه في الحقيقة يقبض على نفسه متلبساً بالثرثرة الفارغة أحياناً، وقد انسحر بشكل خاص بوهج حلقة المعجبين والمهتمين من حوله في أثناء فترة شغله منصب المحافظ، ولكنه عندما جاء إلى أنقرة أدرك أن الثرثرة لا تتفق مع ضبط الشخصية. كما أنه لم يكن يتلذذ بالمشروب أيضاً. انفعل أثناء

تعداده مزاياه واحدة واحدة، وفكر: "لم ألهِ نفسي بأي كتاب غير كتب المذكرات! وهكذا لا يمكنني العثور على ما يمنح حياتي عمقاً غير تلك المسؤولية التي أتوقعها! معنى الحياة بالنسبة لي هي تقديم الخدمة، والارتقاء من خلال خدمة بلدي! ويقيت هناك خطوة من أجل الوصول إلى هذه المسؤولية. خطوة صغيرة جداً واحدة!" ولكن طمأنينته تبددت بعد ذلك لأن هذه الخطوة لا تقع على عاتقه، بل على عاتق عصمت باشا، واضطر إلى التقلب على سريره مرة أخرى.

كان يتقلب على سريره، ويتمتم قائلاً: "خطوة صغيرة واحدة!" مع أنه ما أكثر ما عانى في سبيل الصعود إلى هذه الخطوة الصغيرة. ففي أثناء شغله منصب المحافظ تلقى تهديدات بالقتل، ورسائل مليئة بالشتائم والإساءات. لعن أصحاب الدكاكين الصغيرة ورجال الدين في المدينة بذريعة تطبيق قانون القبعة والهندام. في عيد الجمهورية لذلك العام صرخ بكل ما أوتي من قوة بأن الرجعيين سيعاقبون دون أن يبالي بأن الصواعق كلها ستتوجه إليه. كانت تلك فترة الشباب. وقد أعطى لقراءة نامق كمال، وفكرت حقهما بالقراءة عندما كان يدرس في كلية الشؤون الإدارية. وكان نضاله يعتمد على العقلانية والحزم في المجلس. ومن المؤكد أنه لم يجد لنفسه مكاناً في الصفوف الأولى لهذا النضال في المجلس، ولكنه لا يمكن القول إنه كان في المؤخرة، لأنه قبل كل شيء كان أكثر النواب تمسكاً بالثورية. كان يحضر كل جلسة من جلسات المجلس، ويستمع بانتباه، ويتجول في الدهاليز، وإذا شهد مناقشة ولو صغيرة في مكان انضم إليها فوراً، وأفصح عن أفكاره، ولكنه لم يلفت الأنظار في اي وقت، ولا يحدث صخباً، وكان يتجول دائماً بهدوئه كظل. ولا شك أن سبب وجوده في الوسط إلى هذا الحد هو عدم وجود عمل له غير النيابة. كان لأكثر النواب الذين لم يعملوا وزراء أو يتسلموا مهاماً حزبية عمل آخر. فبعضهم صحفيون، وبعضهم محامون، وبعضهم إقطاعيون. وهؤلاء عينوا نواباً لنجاحهم في هذه الأعمال أساساً. أما مختار بيك الذي عين نائباً لنجاحه بعمل المحافظ، وثوريته فلا يمكن أن يكون له عمل خارج المجلس. لأن الإنسان يمكن أن

يكون نائباً وصحفياً في آن واحد، ولكن القواعد لا تسمح بأن يكون محافظاً ونائباً في آن واحد. وفكر مختار بيك فجأة: "ولكن القواعد تسمح بأن يكون الشخص نائباً وثورياً في آن واحد، وأنا هكذا!" ونهض منفعلاً من السرير، وبدأ يذرع الغرفة.

كان يتمتم العبارة نفسها وهو يتجول في الغرفة: "خطوة صغيرة، لو خطا عصمت باشا خطوة صغيرة!" بدأ يستذكر ما فعله لعصمت باشا الذي سيتوج له حياته بتلك الخطوة الصغيرة... دعمه بكل ما أوتي حينما كان رئيساً للحكومة. وغدا صوته وأذنه في المجلس عندما ترك رئاسة الحكومة. كان يذكر عصمت باشا في الكواليس دائماً، ويتحين الفرصة لامتداحه، ويلخص له شائعات الدهاليز عندما يزور القصر الوردي. وبعد أن أسقط الباشا من الاعتبار، وانسحب من رئاسة الحكومة، وطور لغته الانكليزية، ودرس التاريخ الإنكليزي من أوله إلى آخره بمساعدة مدرس، ثم تلقى دروساً بعزف الكمان، وقرأ مجلات الشطرنج، كان يتصنع الانفعال وهو يتحدث عن حماسه، ويجامله أحياناً ببعض عبارات المديح. قال له الباشا بعد لعبة شطرنج انتهت بتغلبه عليه كما يحدث دائماً: "دفاعكم جيد، ولكنكم تتأخرون عندما يحين موعد الهجوم، وتفوتون الفرصة!" تمتم مختار بيك: "أفوت الفرصة ها! لا، لا! هذه المرة سيتذكرني عصمت باشا!" وفجأة تمتم بخجل: "أهذه هي مهارتي: الولاء؟" ولكنه سلى نفسه لخوفه من الخجل: "هذا ليس أمراً سيئاً! اقبل أنني لست ذكياً جداً. ولست أذكى شخص في العالم. والناس من أمثالي يرتقون بولائهم، وإيمانهم، وليس بذكائهم... خاصة أن العناد، واتخاذ القرارات في بلدنا لا يُقابل بتسامح! لابد أن يودع الإنسان نفسه أمانة لدى من يعرف أكثر، ومن يفكر بشكل أفضل دائماً، وأن يقدم ولاءه لأحدهم، ويغذي عقيدته. نعم، الولاء والعقيدة! نعم، قدمت الولاء لعصمت باشا، وآمنت بالثورة." توقف وسط الغرفة فجأة ساخراً من نفسه. ثم التفت، ونظر متوجساً خيفة إلى المرآة التي خلفه. وتمتم: "وهل أنا إنسان مثير للسخرية يا إلهي؟ لست على هذا النحو، لست على هذا النحو... أنا كالجميع. انظر إلى وجهي هذا،

وافكاري هذه... آه، كل شيء على هذا النحو!" تذكر مراسم الجنازة. "كان كل شيء خاوياً، وتافهاً هكذا. كيف بكى الجميع! أما أنا فأحسب حسابات قبيحة هنا. ماذا سيقول الآخرون لو اطلعوا على أفكاري المقززة هذه؟.. هراء! حسنٌ، ما الذي يجب عمله في الحياة؟ انظر إلى تلك المرآة! جسدي ضخم، ولكن أنفي صغير! من قال هذا؟ هل هو كامل باشا؟... أولى خصوصيات رجل الدولة المهاب هو أنف مهاب! ولكن بالنسبة إلي فليس لدي سوى هاتين الأذنين الشراعيتين المضحكتين..." ثم قرر الخروج من الغرفة، والثرثرة مع أحدهم لتخليص نفسه من الوحدة التي تجره نحوها تلك الأفكار الباعثة على الضيق.

دخل إلى المطبخ بخطوات سريعة ومتوترة. كانت الخادمة تغلي شيئاً على الموقد. غشى البخار زجاج النوافذ.

سأل مختار بيك: "أين ابنتنا يا خديجة خانم؟"

"خرجت مع السيد عمر، كانا سيشاركان بالجنازة."

قال مختار بيك: "ألم تأت بعد؟" ثم خرج من المطبخ غاضباً من سذاجة سؤاله البين الجواب. وفكر: "أين تأخر هذان؟" غضب من ابنته لأنها تتجول وتتنزه في يوم كهذا: "حبها، وربها، وضعها تاجاً على رأسك، ولتعجب بعد ذلك بذلك المخنث، المغرور، المجنون بحب النقود، وتختاره!" كان ينظر إلى منظر البندقية المعلق على الجدار. لقد اشترى هذا المنظر، ولم يعجب المرحومة زوجته، ولكنهما علقاه على الجدار. حزن عندما تذكر زوجته: "أحببتها هي فقط. وقد ضحكت مني طوال حياتها بشكل خفيف، ثم أخذت نفسها، وذهبت. والآن ستتركني ناظلي، وتذهب. وفوق ذلك مع هذا الرجل البغيض، والمعجب بنفسه... لو أنها وجدت واحداً آخر..." تذكر رفيقاً. "نعم، ذاك مثلاً. إنه طيب النوايا، ونظيف الروح رغم كل براءته..." وضحك عندما تذكر المناقشات التي أجراها مع رفيق: "ولكنه ساذج أكثر من اللازم... يمكن أن يكون الإنسان مثالياً، بل يجب أن يكون هكذا، ولكن مثالية هذا أكثر من الحد!" وفرح عندما خطر بباله أن

وزارة الزراعة قررت طبع كتاب رفيق. لعل الوزير قضى حاجة الشاب الذي توسط له مختار بيك لرغبة الوزير بأن تكون علاقته مع أنصار عصمت باشا جيدة. سيلتقي رفيق في هذه الفترة بكاتب التنظيم سليمان آيتشلك، وسيعود إلى اسطنبول على الأغلب. شعر مختار بيك بالضيق عندما خطر بباله سليمان آيتشليك، ومجلة التنظيم، وتمتم قائلاً: "أنا لا أحب الخياليين! لعلني خيالي وأنا أتحرق الآن توقاً إلى المسؤولية... أنا خيالي مسكين يتغذى على آمال فارغة! خاصة أنني لا أساوي شيئاً إلى جانب تلك الجنازة. الموت مخيف!.. تعيش، وتعمل، وتحاول إنجاز أمور، وتغدو أحد أكبر رجال بلدك وتاريخك. ثم فجأة تنتهي!" وفتح يديه: "الموت سيئ جداً. وأنا نملة صغيرة. خاصة بعد موته... آه، ليس هناك من أتكلم معه، وأفضي له بهمومي أيضاً!" فجأة خطر بباله أن يفضي بهمومه إلى خديجة خانم. فمشى إلى المطبخ بأمل.

مازالت خديجة منكبة على القدر نفسه، وتتفقد قوام ما تغليه داخله.

قال مختار: "إيه، ماذا تغلين يا خديجة خانم؟"

قالت الخادمة بنبرة حادة: "طلبتم البارحة أرزاً بالحليب يا!"

"آ، حقاً، أليس أرزاً بالحليب؟ ولكن انتبهي لطبخه جيداً، واحذري من أن يشيط!"

قالت الخادمة بالنبرة الحادة نفسها: "متى أطعمتكم أرزاً بالحليب شائطاً يا سيدي؟"

قال مختار بيك: "أنا أمزح يا عزيزتي!" ولمجرد أن يفعل شيئاً، فتح الثلاجة، وبدأ يعبث بما فيها من أشياء. شعر بالهم حين رأى أحد الصحون في الثلاجة. كانت مجموعة الصحون هذه التي رغبت زوجته أن تشتريها قبل موتها بثلاثة أشهر سبباً للجدل في البيت. كان مختار بيك يرى أن دفع النفقات من أجل أشياء أخرى مثل الأرائك، ومفروشات البهو، والألبسة أمر أكثر عقلانية. وظهر أن تلك النقاشات كلها كانت عبثية، وفارغة. تمتم: "آه، آه! الحياة، والموت، وكل شيء عبث!" عبث في الثلاجة، ولم يجذب

شهيته غير الزيتون. ثم شعر بالعطش بعد تناوله الزيتون. فكر بالطريقة التي يمكن أن يفتح بها الحديث مع الخادمة فيما كان يشرب. نظر إلى يدها التي تحمل الملعقة، وتحرك ما في القدر، وقال: "هكذا يجب أن يحرك إذاً!"

قالت الخادمة بوجه عابس من جديد: "نعم، يجب تحريكه!"

"ألا يفقد طعمه عندما يحرك كثيراً؟ ألا يغدو... ألا يخرب قوامه!"

أخرجت الخادمة الملعقة، وبدأت تضرب بها على حافة القدر رداً على كلامه. ثم أغلقت القدر بحركات التوتر والحدة نفسها.

اقترب مختار بيك من جانب النافذة. وبدأ يرسم خطوطاً على الزجاج المغشى بأصبعه، ثم قال: "إيه، ما قولك يا خديجة خانم، أتاتورك العظيم مات أيضاً."

قالت الخادمة: "كان رجلاً عظيماً. رحل. كلنا سنموت."

قال مختار بيك: "ولكن ماذا سيحدث بعد هذا؟ لنر، ماذا سيفعل عصمت باشا؟ من سيجلب إلى السلطة، ما رأيك بهذا؟"

قالت الخادمة: "أرجوك يا سيدي المحترم، أنا لا أفهم بهذه الأمور أبداً لأقل شيئاً!" ولمع برق فجأة في عينيها، وتلون وجهها: "أنا لا أفهم بشغل السياسية، ولا أتدخل به! مثلما أنتم لا تفهمون بشغل المطبخ، أنا لا أفهم بتلك الأمور..."

قال مختار بيك: "نعم، نعم!" معتبراً أن غضب الخادمة كان ظريفاً. خرج من المطبخ. وقد نسي همومه كلها حين دخل إلى البهو. بدا له تافهاً أن تكون الحياة ذات قيمة، أو بلا قيمة. تمتم: "المهم أن أعيش! أنا أعيش، وأضحك، وأتكلم! وانتظر المسؤولية التي ستمنح لي، وشعر بالمرح. الأرز بالحليب يغلي في المطبخ... هذا كل ما في الأمر!"

45
مع الكاتب الثوري

كان رفيق واقفاً أمام الباب، وقبل أن يضغط على زر الجرس، فكر: "سأقول له... سأقول له بداية بأن مبدأ نحن نشبه أنفسنا يشكل جوهر دراستي. وانطلاقاً من هذا المبدأ تُوحد القرى، وتمدد إليها الطرق، والقرى المركزية..." وضغط على الزر فجأة: "ما أطلبه من حضرتكم يا سيد سليمان آيتشليك هو مساعدتكم بتشكيل حركة تتمحور حول هذه النقاط التي نتفق عليها لتؤثر على الثورات، والدولة الشابة. أريد هذا منكم..."

فُتح باب شقة البناء. ابتسم لرفيق وجه بدين، معافى، مدور: "هذا أنتم إذاً. أهلاً بكم. هل وجدتم المكان بسهولة؟"

تمتم رفيق قائلاً: "نعم، نعم! وجدته بسهولة يا سيدي!" وفكر بأنه سيخاطب بعد الآن كاتب التنظيم قائلاً: "سيدي".

قال سليمان آيتشليك: "هاتوا معطفكم لنرى! أوه، يبدو أنكم تشعرون بالبرد. الشاي حاضر، خمرته تواً. تفضلوا إلى الغرفة التي في نهاية الدهليز، أنا قادم. لم أتوقع أن يكون وجهكم بهذه الصورة. يا الله، لم يتركوا ولو علاقة واحدة هنا!"

دخلا معاً إلى غرفة مليئة بالكتب، واسعة، ولكنها خفيضة السقف. اعتقد رفيق أنه انفعل. دقق النظر في مجموعة كتب على الطاولة. وجلس حيث أشير له على أريكة بجانب طاولة المكتب.

قال سليمان آيتشليك: "سأجلس خلف الطاولة، لا تؤاخذوني، أليس كذلك؟ أنا أفكر بنحو أفضل عندما أجلس وراء طاولتي. هذا غير نابع من الرسمية. الإنسان يرتخي على تلك الأرائك..."

تمتم رفيق: "طبعاً، طبعاً! أرجوكم!" ونظر مجدداً بانفعال إلى الكتب، والصور التي على الجدران، والأوراق، والأقلام، وأدوات الرجل المفكر التي تفصح عما يفكر فيه، ويخشى من عدم استطاعته شرح ما قرر أن يشرحه للكاتب نتيجة الانفعال. عندما خرج السيد سليمان لإحضار الشاي، قرر أن يلملم أفكاره. وحين رأى على الجدار صورة تجمع أتاتورك وعصمت باشا، فاضت مشاعره.

رأى سليمان تشليك حين دخل إلى الغرفة إلى أين كان ينظر رفيق، فقال: "ما أسوأ الموت، أليس كذلك؟" وأضاف دون أن ينظر إلى وجه رفيق: "ولكن ثمة ما هو جيد هنا. واجهت الجمهورية رحيل فقيدها العظيم باتزان. لم نرتبك، أو نهلع بما سنفعله. وهذا نجاح عظيم... كم قطعة سكر تريدون؟"

تحدثا فترة عن الحياة، والموت، والشباب، والشيخوخة. وهكذا بدأ رجل في متوسط العمر وآخر في نهاية الشباب متزنان حديثاً لمعرفة كل منهما الآخر عن قرب. ذكر سليمان تشليك ابنه الذي يدرس في الصف الأخير من الثانوية في اسطنبول.

"يريد أن يصبح مهندساً. شباب هذه الأيام يهتمون بالتقنية، والهندسة... أما في أيامنا فكان الجميع يرغبون في أن يكونوا عسكريين..."

قال رفيق: "نعم، ولكنكم لم ترغبوا بأن تكونوا عسكريين على كل حال! درستم الجامعة إن لم أكن مخطئاً في موسكو..."

قال سليمان آيتشليك: "نعم، ولكنني لا أتحدث عن هذا الآن... يريد ابننا أن يغدو مهندساً! ليكن، لا اعتراض عندي! خاصة بعد أن تلقيت رسائلكم، فقد رأيت إلى أي مدى يمكن أن يفكر المهندس بالتفاصيل. ولكن حقيقة الأمر أن ابني ليس لديه حماس! وهذا ما يحزنني قليلاً! أقول ترى ألم تعط الثورات الحماس اللازم للشباب؟"

قال رفيق: "نعم، الحماس أمر هام، أليس كذلك؟"

قال السيد سليمان: "نعم، نعم في شبابي!" وقام بحركة متوترة. بدل بين موقع قدميه، وقال: "ولكن شباب هذه الأيام خمول جداً. ونتيجة لخموله فهو يبتعد عن المجتمع! ماذا يحدث في المجتمع الذي يعيش فيه ابني، لا هواية، ولا اهتمام لديه. هم فضوليون للآلات الكهربائية، والمحركات. يفكرون بطريقة عمل المذياع... حسنٌ! أنا أدافع عن ضرورة التقنية والصناعة لنا، ولكن كون ابني على هذا النحو يضايقني."

قال رفيق: "نعم، ثمة ضرورة للصناعة من أجل تحررنا من ظلمات القرون الوسطى." وفكر أنه تكلم لمجرد أن يقول شيئاً.

سأل السيد سليمان فجأة: "هل اهتممتم بأصول التدريس!"

قال رفيق: "لم أهتم بعد!" ووجد كلماته مبتذلة.

قال السيد سليمان: "هنالك حاجة ماسة للمدرسين في بلدنا! كيف ستربون قروييكم أولئك؟ ليس من أجل دراستكم فقط! لا يعرف أولئك القرويون من ينفعهم، وماذا."

أدرك رفيق أن الموضوع قد دخل إلى دراسته دون توقع، فقال: "أنا أؤيد اتخاذ بعض الإجراءات الاقتصادية بداية!"

"حسنٌ، ولكن ماذا سيحدث إذا عارض أولئك القرويون تلك الإجراءات؟"

قال رفيق منفعلاً: "لا أعتقد أن الإجراءات التي كتبت عنها من النوع الذي يمكن للقرويين أن يعارضوه. ففي دراستي..."

قال السيد سليمان: "نعم، نعم! قرأت دراستكم يا سيدي!" وفتح أحد أدراج المكتب. تناول المخطوط الذي أرسله إليه قبل عشرة أيام عبروسيط، ووضعه جانباً. "ولكن كيف ستطبق هذه الأمور؟"

قال رفيق: "هو ذا ما أريد أن أناقشه معكم هذا يا سيدي!" واحمر وجهه، وفكر: "قلت يا سيدي!"

"أنا لا أجد هذه الأمور صحيحة..."

"كيف؟"

"أنا لا أجد هذه الأمور صحيحة. أنتم تريدون أن تحولوا تركيا إلى جنة فلاحين!"

أدرك رفيق من نبرة صوت كاتب التنظيم أن عبارة "جنة فلاحين" هي استخفاف، فقال: "أنا أريد أن تكون تركيا جنة الجميع!"

"نعم، فهمت من رسائلكم أن هذا ما تريدونه. الجميع يريدون هذا، ويقولونه. أنتم تقولون لي: تنوير! ولكن لصالح من سيأتي هذا التنوير؟ للفلاحين، أم للشعب، أم للفقراء؟ جميل، ولكن بأي زيت سيقلى هذا الشيء الجميل؟ بزيتنا؟.. هذا جميل. ليس لدينا صناعة. وهذا يعني أن الزيت سيؤخذ من الزراعة، وسيعاد إلى الزراعة، أليس كذلك؟"

"إلى حد ما. ولكن مهمة الثورة هنا هي القيام بهذا التنسيق. توحيد القرويين على ضوء مبادئ جديدة..."

قاطع السيد سليمان رفيقاً قائلاً: "هذا يعني أن الزيت سنعيده للزراعة... هذا لا يختلف عما كان يجري سابقاً... مع أن هدفنا يجب أن يكون تأسيس الصناعة بهذا الزيت. لم تفكروا برأيي حول أمة خالية من التناقضات ذات تقنيات متقدمة. مع أنكم كنتم تقولون هذا في رسائلكم."

قال رفيق منفعلاً: "كنت أفكر!"

"إذا فكرتم، فإن هدفكم هنا هو أن تجد الدولة الرساميل التي لا يستطيع رأسماليونا إيجادها لخلق الصناعة. أم أنكم تفكرون بالدولتية بشكل آخر!"

قال رفيق: "أنا أيضاً أفهمه على هذا النحو!" ثم فكر بأنه من غير المهم فهم شيء معين بطريقة معينة، بل المهم هو تطبيق هذه الدراسة التي ستجلب التنوير إلى البلد. تمتم لنفسه: "أنا شرحت له ضرورة أن تطبق هذه الدراسة!"

قال السيد سليمان: "كيف تفهمون الأمر على هذا النحو، إذا كنتم تفهمون مبدأ قطاع الدولة كما أفهمه أنا؟" وأشار بيده إلى المخطوط الموضوع على الطاولة أمامه. "كيف تأتون إلى مفهوم جنة القرية المتناقض تماماً مع هذا المفهوم إذاً؟"

أدرك رفيق من كلام كاتب التنظيم أن ثمة تناقضاً بين بعض أفكار الكاتب، وبعض تفاصيل دراسته. وهذا التناقض الذي يعتبره الكاتب مهماً، لا يمكن أن يكون مهماً بالنسبة لرفيق. فالاثنان في النهاية يؤمنان بالثورة نفسها، وكلاهما حسنا النوايا. ولأن حسن النوايا وحب الثورة هما

المتكأ الذي سيتجاوز هذه التفاصيل، فإن رفيقاً يستمع لكلمات سليمان آيتشليك دون معارضته، وينتبه لانفعاله، وليس للتفاصيل.

كان سليمان آيتشليك يشرح آراءه التي يدافع عنها في كتابه، وفي مجلة التنظيم ويسلط الضوء على الخلاف بينهما. كان يقطب حاجبيه، وينظر إلى رفيق بحدة وهو يشرح أفكاره. كان يصمت أحياناً كأنه يفكر قائلاً: "هيا، أرنا النقطة التي لم نستطع الاتفاق عليها!" وبعد أن لخص أفكاره مطولاً، ذهب إلى المطبخ لجلب الشاي.

لم يفكر رفيق برؤاه مجرد التفكير. لأن تلك الأمور كان قد قرأها عدة مرات، وهو يعتبرها صحيحة. لم ينتبه رفيق إلا لحركات سليمان آيتشليك، وانفعالاته فيما كان يشرح. تمتم: "نعم، سيأتي التنوير!" ويدفعه الفضول لمعرفة سبب مشاكسة سليمان آيتشلك.

عندما عاد كاتب التنظيم حاملاً فنجان الشاي، اتخذ الموقف المشاكس نفسه: "تقولون إنكم تعتبرون كل ما قلته صحيحاً. ولكنكم تقدمون دراسات تتناقض معها."

حاول رفيق أن يكون لطيفاً قدر المستطاع، فقال: "ولكنني لم أر حتى الآن أين التناقض!" وابتسم. ثم بدأ يعدد لكاتب التنظيم الرؤى المشتركة بينهما مستذكراً الرسائل التي تبادلاها.

قاطع سليمان آيتشليك كلام رفيق: "ما تسمونه رؤى مشتركة لا يتعدى كونه انفعالاً مشتركاً. لأخبركم ما هو التناقض بيننا يا سيدي: أنتم لم تفهموا أن قوة الثورة هي الدولة والكوادر فقط. وأنتم تصممون على تقديم بعض التسهيلات للفلاحين، وجعلهم يعيشون في ظل ظروف أفضل، وأن تجلبوا لهم بعض الإمكانات التقنية العالمية فقط. نحن جميعاً في النهاية نريد ذلك. أنتم لا تفهمون هذا: لا يمكن أن يتحقق هذا فوراً، ومنذ الخطوة الأولى. بداية، يجب أن تقوى الدولة، وأن تحمي قوتها السابقة، وأن تهدم العوائق التي تعترض التقدم بواسطة تلك القوة. الدولة قبل كل شيء! أنتم لم تفهموا أننا نعطي للدولة موقعاً خاصاً جداً!"

قال رفيق: "أنا فكرت دائماً بأن لنا خصوصيتنا!" وخاف مفكراً أن صوته يائس، فتمتم قائلاً: "ها أنا أتخبط!"

قال كاتب التنظيم: "نحن نشبه أنفسنا!"

قال رفيق منفعلاً: "نعم، وأنا أدافع عن الشيء نفسه!"

"هذا ما تقولونه، ولكنكم لا تقترحون شيئاً غير تغيير حياة الفلاحين!"

قال رفيق: "حياة الفلاحين سيئة جداً! أنا رأيت كل شيء في السكك الحديدية!"

فجأة نهض السيد سليمان. وابتسم محاولاً أن يبدو هادئ الأعصاب: "ذهبتم إلى هناك، واشفقتم عليهم. أنا أيضاً أشفق عليهم. حاولت أن أكون ماركسياً في السابق. ولكنني تعلمت بعد ذلك أن لا أهزم أمام مشاعري. أنتم أيضاً تعلموا. وحينئذ سيكون لما تكتبوه قيمة!" قال ذلك الكلام بفظاظة لم يعد يرى ضرورة لإخفائها، ثم جلس على كرسيه. "ستعتمد الدولة والثورة على أولئك الفلاحين لترتقي. إذا هزمنا أمام مشاعرنا، وأعدنا لهم ما في أيدينا، فكيف سنؤسس الصناعة؟ وإذا لم نؤسس الصناعة، ستبتلعنا الامبريالية!"

قال رفيق: "نعم، سيكون سيئاً جداً إذا لم يكن ثمة صناعة!" ووجد نفسه ساذجاً جداً.

"تقولون هذا وذاك في آن واحد. الاثنان معاً غير ممكنين. أول ما يجب عمله هو أن تؤسس الدولة صناعة. وقد بدأت هذه الحركة، ولكنها أوقفت. لا أدري ما سيفعله عصمت باشا الآن، ولكن لابد من الصناعة للدولة. وهذا سنؤمنه من الزراعة، أي من الفلاحين الذي تشفقون عليهم!"

قال رفيق: "لو أزيلت سطوة الآغا عن الفلاحين على الأقل..." ووجد نفسه ساذجاً مرة أخرى.

ابتسم سليمان آيتشليك: "تعرفون أن الثورة لا تستطيع عمل هذا. البلاشفة يريدون عمل هذا. ولكن لا كلمة لهؤلاء في تركيا. لا أحد يدعمهم. وهم يطرحون أعمق الانتقادات!" ابتسم كأنه يشفق على رفاقه السابقين. غضب من شيء ما فجأة: "المثالية أمر جيد، ولكنني أرى أن عمل شيء ملموس في الحياة أمر أفضل!" وسأل بموقف متوتر: "من أين انطلقنا، وإلى أين وصلنا؟ نعم، الثورة لا تستطيع المساس بالآغوات!"

تمتم رفيق: "لا تستطيع الثورة القيام بهذا ها!.."

ولكن السيد سليمان قال: "ولكن الثورة قامت ببعض الأمور. فقد تم التخلي عن فرض الضرائب على الزراعة. ونفذت المساواة في الجندية. كان هناك ممارسة أجرة الطريق: وألغينا هذا قبل سنتين..."

"يقال إن مسألة أجرة الطريق تلك هي سخرة مروعة. لعلكم تعرفون هذا على كل حال: لم يكونوا يستطيعون دفع أجرة الطريق، بعد ذلك..."

قاطعه كاتب التنظيم غاضباً: "أعرف يا سيدي، أعرف كل شيء. احكوا عن درسيم إن أردتم أيضاً. وأعرف هذا أيضاً. أعرف كل ذنوب الدولة، وأتبناها. لأنني أعرف أنه لم يكن ثمة سبيل آخر! إذا أردتم عمل شيء أنتم أيضاً، وأردتم أن تعمل الدولة لصالحكم، فعليكم أن تكونوا جريئين إلى حد تأييد كل ذنوبها... والحقيقة إنني لا أستطيع تسمية تلك الأمور ذنوباً... لا يمكن أن يعتبر ما تم عمله من أجل الدولة ذنباً. ولكنكم برؤيتكم العجيبة غير المألوفة تلك تعتقدون أن بعضاً مما تم عمله ذنباً، وهكذا تحضرون دراسات خاطئة كهذه! فكروا ما تعنيه الثورة. الثورة هي العمل لصالح الشعب رغم إرادة الشعب، ولكنه من أجل الشعب، وللشعب..."

فكر رفيق: "نعم، أنا واحد مخبول!" خاف: "حضرت دراستي تلك كلها لأمنح حياتي وجهة. أشفقت على الفلاحين لأمنح حياتي وجهة وهدفاً. ثم ظهر أن كل هذا مجرد عبث، وخواء." كان جالساً كمذنب، ومخلوق خارج المجتمع، ومنحرف، و كان يهز رأسه المطرق بشكل خفيف، وينظر إلى طرف قدميه. "ظهر أنني فكرت بأمور خاطئة، وأنني مجرد خيالي. قرأت روسو... هربت من اسطنبول. رأيت بؤس الفلاحين... ولكنني أخطأت..." كان يشعر لأول مرة بأن الإحساس بالنبذ من قبل المجتمع أمر مروع. وفكر: "أردت القيام بعمل ما! ومازلت أريد حتى الآن."

نظر إلى السيد سليمان، وقال: "إيه، حسنٌ، ما الذي يمكنني القيام به؟" ثم بدا أنه خجل من موقفه هذا الخارج عن اللياقة.

قال سليمان آيتشليك: "يمكنكم أن تعملوا مثلي."

فكر رفيق: "ماذا يفعل هو؟ إنه مدير اقتصاد أنقرة. موظف لدى الدولة... إذا صرت موظفاً لدى الدولة فسأتبنى كل ما تفعله الدولة. وإذا

عارضت هذا، فإنني لا أستطيع عمل شيء..."

قال السيد سليمان: "يمكننا أن نجد لكم وظيفة جيدة، يقال إن وزارة الزراعة ستتشر كتابكم هذا. أنا أرى هذا خطأ، ولكنه غير مهم! إنها خدمة في النهاية، وتظهر حسن نواياكم. يمكنكم أن تجدوا شاغراً في الهيئة التقنية الصناعية التابعة لوزارة الاقتصاد... لعلني أنتقل أيضاً إلى هناك. لأن الهدف الأول هو تأسيس صناعة قوية كما تعلمون..."

قال رفيق بما يشبه الأنين: "آه، أنا لا أستطيع أن أكون مع الدولة، أو أن أعارضها!"

قال كاتب التنظيم: "هذا صحيح!" وبدا لأول مرة أنه حزين: "ولكن عليكم أن تختاروا. إما أن تكونوا معنا، أو تكونوا ضدنا... أنتم تعرفون الذين ضدنا." وأشار بحركة من يده إلى الطرف الأيسر من صدره: "الشيوعيون من جهة. وهؤلاء لا تأثير لهم أبداً. وبعضهم في السجن مع الأسف." وأشار بيده نفسها إلى الطرف الأيمن من صدره: "وأنصار الحرية من جهة أخرى، مجموعة مصرف العمل، الليبراليون المزورون... لقد قرأتم كتاب الدولة والفرد لأحمد آغا أوغلو، أليس كذلك؟.. ولكن هؤلاء، أو الآخرون لم يستطيعوا إعاقة حركة التنظيم. أعاقنا الرجعيون وأعداء الثورة. شتتوا شملنا في ليلة واحدة. أتعرفون كيف أُرسل كاتب كتاب أنقرة ذاك الذي تحبونه كثيراً إلى تيران؟ لعلنا نكمل من حيث انتهينا الآن مع عصمت باشا. يمكنكم أن تنضموا إلينا..."

دهش رفيق. بدا له كاتب التنظيم كأنه يعني: "يمكنكم أن تجلسوا على هذا الكرسي. وفكر: "هل يمكنني أن أنضم إليهم؟ أغدو موظفاً حكومياً بعد كل هذا الحماس." ووجد أن مجرد التفكير بهذا أمر مروع، فقال: "لا، لا يمكنني أن أعمل ذلك!" فكر بعد ذلك بالطريقة التي انسكبت بها الكلمات من لسانه.

خيم صمت.

تمتم سليمان أيتشليك: "حزنت!" وصمت فترة. "رغم أن الحماس الذي لم أستطع رؤيته لدى الشباب موجود لديكم! حسنٌ، ماذا تفكرون أن تعملوا؟"

"سأذهب إلى اسطنبول!"

"آ، نعم، منذ فترة طويلة وأنتم في السكك الحديدية، أليس كذلك؟"

فكر رفيق: "سأذهب إلى اسطنبول! هل لدي قلب رقيق؟ أن أكون إلى جانب الدولة، ها؟ لست رقيق القلب. لا أستطيع المشاركة بالإساءة! أي هل أنا أفضل من السيد سليمان هذا؟ لست كذلك: وفوق هذا فأنا ساذج قليلاً... أنا أريد العودة إلى البيت. ولكن ماذا سأفعل هناك؟ هل سيكون كل شيء كما كان في السابق؟ في هذه الحال انا أيضاً أعارض الدولة... ماذا يحدث إذا تجرأت على هذا؟"

قال سليمان آيتشليك: "ستراسلونني من اسطنبول أيضاً! لعلنا نتفاهم في يوم ما!"

قال رفيق: "أنا أريد مصلحة البلد، وليس مصلحة الدولة!"

"أعرف، أعرف! ولكنكم لا تعرفون أنهما لا ينفصلان، بل إن الدولة تتقدم على البلد!"

أعرف، ولعل هذا صحيح، ولكنني لا أستطيع التصرف على هذا النحو!"

ساد الجو جمود. تبادلا الضحك مثل إنسانين يتفهم أحدهما الآخر حتى النهاية. وبعد تبادل الضحك، ظهر كل شيء، وظهرت إلى العلن كل الخلافات.

نهض السيد سليمان عن كرسيه، وبدأ يذرع الغرفة رواحاً ومجيئاً. ابتسم بنحو طفولي خجول لم يتوقعه رفيق منه أبداً، وقال فجأة: "أحببتكم كثيراً أيها الشاب. كانت رسائلكم تفرحني، وتدفعني إلى التفكير في آن واحد... وغضبت منكم عندما قرأت دراستكم التي أرسلتموها إلي... ولكنني أقول لكم الآن: أحببتكم كثيراً!.." وربت على كتف رفيق عدة مرات. "لم أفكر أبداً بأن وجهكم سيكون على هذا النحو... فهمت الآن. إنه هكذا مدور، وبريء، وهادئ..." ولم يستطع إكمال كلماته خجلاً. وقال وهو ينظر إلى مكان آخر: "هيا، احكوا لي عما شاهدتموه في السكك الحديدية. وأعتذر إذا كنت قد تصرفت بفظاظة معكم.. نعم، نعم! لأحضر الشاي، أليس كذلك؟" وخرج من الغرفة بخطوات صغيرة وسريعة.

فكر رفيق: "وجهي مدور وهادئ" شعر أنه كالمخبول. "كمخبول حسن النية! لماذا دقق النظر في وجهي؟ لأن الخبل لابد أن يكون مقروءاً على وجهي!" حاول أن يرى نفسه عبر زجاج المكتبة الجرار. نهض واقفاً. بدا كأنه ميز وجهه: "وجه هادئ ومدور!" فكر ببريهان. تذكر حياته السابقة. "كنت أطل بهذا الوجه الهادئ والمدور على مائدة الغداء في الأعياد، وأرسم فوقه بسمة في أثناء لعب السحب في رأس السنة." تذكر يومه الأخير في اسطنبول قبل مغادرته. تجول في بيه أوغلو، وفكر بأنه يشمئز من الحياة اليومية، وشبه نفسه بمسيحي، وقرر أنه مخلوق عجيب لا يهتم به أحد. تمتم: "لماذا حدث كل هذا؟" وفكر: "كيف حدث؟ من أنا؟ لماذا خرجت عن الطريق؟ إنا إنسان طيب! هكذا يرونني... طيب، بريء، مستقيم..." هكذا يتحدث الآخرون عن شخص عندما لا يكون لديه مزايا أخرى: إنسان طيب! كانت قرقعة الفناجين تُسمع من المطبخ. "سيقول هذا الرجل للآخرين عني مثلاً: رفيق الضوئي؟ آ، نعم، إنسان طيب! حسنٌ النية... ويفكر آخر: هذا يعني أنه مخبول! سيقول سليمان آيتشليك: يخاف هذا الشاب من العمل مع الدولة... وسيرفع رأسه بعد هذا، ويهز برأسه: كم هنالك من أناس تحت هذه السماء يا ربي!" وتذكر الحديث العابر كالعاصفة: لم يفهم بداية أي شيء، وابتسم كالمخبولين. رغم أنه كان بإمكانه أن يفهم هذا من قبل. فكر فجأة: "فهمت هذا من قبل!" عندما رأى ضياء، وعندما رأى وزير الزراعة، لا، لا. "فهمته عندما رأيت كريم بيك!" وتذكر الهر رودولف. "دخل الشيطان إلى داخلي ذات مرة! وأنا أيضاً غريب في هذا البلد! ولكنه يستمتع هذه المرة بالشعور بالذنب لأنه خارج المجتمع، وتنفس الصعداء بشكل خفيف كأنه يسحب نفساً من سيجارة، وجعل النفس يتجول في عروقه. "هذا يعني أن شيئاً من هذا غير مرتبط بحسن نيتي، ورغبتي، وخياري. فأنا محكوم بالبقاء خارجاً. لأن شعاع العقل والنور قد سقط مرة على روحي! كل شيء محاط بهذا الذي يسمونه الدولة، والثورة، والجمهورية. ليس ثمة طريق أمامي!" وتذكر كلمات هولدرلين. فتمتم فجأة: "إيه، حسنٌ، كيف سيأتي التنوير؟" تذكر مرح مختار بيك الذي يتحدث عن ضغط الدولة، فغضب: "كيف سيأتي التنوير؟

لقد آمنت بهذا. التنوير أم الظلام؟ هذا يعني أنني محكوم دائماً بالظلام. إذا كان هناك ظلام، فهل أطأطئ رأسي، وأتخلى عن الحرية؟ ولكن أي حرية، ولماذا، ومن أجل من؟ إذا نظرنا إلى ما قاله مختار بيك، فإن تخلينا عن الحرية، أو التنوير يجعلنا نتقدم... أهكذا؟ حسنٌ، من يريد الحرية؟ الدولة لا تريد! التجار لا يهتمون بها كثيراً. الإقطاعيون يكرهونها! الفلاحون لم يسمعوا بها. من هناك غير هؤلاء؟ العمال؟.. وأنا أيضاً! هه، هه... أنا أريد الحرية!" كان يذرع الغرفة، وينظر إلى صور كبار رجال الدولة المعلقة على الجدار. كأن أولئك محتدّون، ولكنهم مشفقون في الصور قد دهشوا، فيقولون له: "من تكون أنت أيها الشاب؟ نحن نصحح كل شيء. نحن نعمل ما هو جيد، مهما كان، وما هو مناسب لك! أمور كهذه ليست على عاتق فانٍ مثلك! تذكر أنك عبد، وطأطئ رأسك!" فكر مبتسماً! لطأطأة الرأس متعتها أيضاً. يطأطئ الإنسان رأسه، ويلقي الذنب على التاريخ، وعلى من حوله، ويعيش... وإذا قلق أحياناً، يعلن عن هذا مباهياً: "أنا أعرف الذنوب كلها، واتبناها!.." أضاف مرحاً: "أعرف أنني عبد!" ولكنه تذكر بعد ذلك هولدرلين غاضباً. وقال لنفسه فجأة: "لا، هذا خطأ!" وانتبه أنه أقام دائرة فكر كعادته دائماً. وجلس مكانه لأنه لم يرغب بالدوران داخل تلك الدائرة والغرفة أكثر من ذلك. نظر إلى ما فوق طاولة كاتب التنظيم: بدا له أن كل ما رآه على الطاولة مثيراً للإنفعال حين دخل إلى الغرفة من أقلام، وأوراق، وسجائر، ومنفضات، ومخطوطات، وكتب مضحكٌ. ومخطوط دراسته أيضاً كان مضحكاً. ثم تذكر أنه سينشر، ونسي كل أفكاره التي كانت قبل قليل، وتمتم قائلاً: "لعله يظهر من يؤيدها عندما تُنشر!" وشعر فجأة بأنه جاهز أيضاً لإلقاء الذنب على التاريخ، وعلى محيطه.

46
بين القوميين الأتراك

قال ماهر الطايلي: "لقد ارتبك هو، ارتبك! ولو كان الأمر بيده لكان علينا أن نقيس جماجم ستين مليون إنسان لفهم أنهم أتراك!"

فكر محي الدين: "تسعة وخمسون مليوناً ومائتان وخمسون ألفاً!" وخطرت بباله الأرقام الواردة في "خريطة الترك المفصلة". ثم غضب من نفسه لأنه منشغل بثرثرة صغيرة وعبثية كهذه.

"تاه، وخرف! ماذا قال لي! لعل مصطفى كمال أشقر، وأزرق العينين، ولكن جمجمته جيدة أيضاً. أما جمجمة عصمت، جمجمة عصمت فهي مختلفة. إنه مشغول بأمور كهذه!..."

دهش محي الدين لأنه لم ينتبه لأمور من هذا النوع من قبل.

"لعل جمجمة عصمت كانت جيدة سابقاً، ولكنها تبدو كأنها غارت إلى الداخل من أحد جانبيها بلكمة. حاول أن يشرح لي هذا بالتفصيل. استمعت إليه لضرورة الاحترام الذي أشعر به نتيجة عمره وتجربته، ولكنني عارضته في النهاية. قلت له إنني لا أرى أن العرقية والقومية يمكن أن تعتمد على أسس الجمجمة. ذكرت له مفهوم "رايسن النفسي"، وشرحت له أن "النفسية العرقية" التي نتبناها تعاكس هذا الأمر. لم يستمع إلي حتى... واتهمني، واتهم من يفكر مثلي بالصبيانية وقلة التجربة."

سأل سرهات غول أوغلو: "هل اتهمنا صراحة؟"

"قال إن المجلة لا تعجبه... وقال إننا نعكر العرقية التركية بأفكار خاطئة. وقلت له إننا لا يمكن أن نكون معاً بعد الآن."

قفز سرهات، وقال: "نعم، صار بقاؤنا معاً يعني تقديمنا التنازلات! ولكن أحداً لم ينفعل.

"عندما قلت له إننا لن نكون معاً بعد الآن، اتخذ موقف المجرب الذي رأى كثيراً، موقف المستهين الذي يتخذه المسنون المعجبون بأنفسهم، وقال إننا لم نكن معاً في أي وقت. في الحقيقة إننا نحترم دائماً تجربته، وخدماته التي قدمها للقضية القومية التركية. نحن نعترف بهذا! لم ننكر ما قام به أبداً، ولكن كلامه هذا، نعم، وقاحة! المجلة الوحيدة التي تمثل الحركة القومية التركية في العالم كله الآن هي أوتوكان/ المغرد. ماذا يقصد بقوله إننا لم نكن معاً في أي وقت؟"

تمتم أحد الشبان: "أما كان مع الحركة القومية التركية في وقت ما؟"

نظر ماهر الطايلي كما لو أنه ينظر إلى شيء. هز رأسه قليلاً كأنه يكلم نفسه. ثم صرح بصوت يشبه صوت نبي: "افترقت طرقنا الآن. نحن لسنا معه ومع من معه بعد الآن، افترقت الطرق. ولكن هذا لا يعني أن الحركة القومية التركية قد انقسمت. على العكس تماماً، فالحركة القومية إنما هي رؤية صحيحة، وستستمر بشكلها الكلي. لقد انفصل بعض العناصر المتطرفة التي تجر الحركة إلى موقع خاطئ يسيئ الحركة القومية...."

وساد صمت. بدا فيه الجميع كأنهم يستمتعون باللحظة التاريخية. كانوا يجلسون في بيت ماهر الطايلي في فزنجيلر. كانوا ثلاثة أو أربعة من الذين يصدرون مجلة أوتوكان صباح كل يوم أحد، ويتحدثون حول المجلة، وحول الحركة القومية التركية، وحول ما يمكن عمله. انتهى الغداء قبل قليل، ورفعت زوجة ماهر الطايلي المائدة، وأحضرت ابنته التي لفتت نظر محي الدين القهوة، ولكنهم لم يغادروا الطاولة. وتحدث ماهر الطايلي منذ أن بدؤوا الطعام عن لقائه مع البروفيسور القومي التركي

العائد إلى تركيا بعد وفاة مصطفى كمال. بدا الجميع مرحين، وحازمين، ولكن ثمة ريبة وقلق في الوسط لأن اللقاء لم يحقق النتائج المرجوة. كانوا خائفين من إصدار البروفيسور صاحب الحظوة والتأثير في الأوساط القومية والعرقية مجلة جديدة.

سأل سرهات: "ما رأيه بقضية هطاي؟"

قال ماهر الطايلي: "نعم، أنا أرى أن هذه القضية قد أغلقت، ولكنني رغم هذا سألته عن رأيه! إنه يفكر بأمور خاطئة. هو أيضاً يؤيد الموقف السلبي، الموقف السلمي المؤدي في النهاية إلى ضمها... لعله كان على حق، ولكن هذا خطأ... إنه لا يفهم أن الفرنسيين منحونا هطاي لكي لا نقف إلى جانب الألمان. لو طرقنا باب القوة في هطاي، كنا سنصطدم بالفرنسيين والإنكليز، ونكون إلى جانب الألمان بشكل تلقائي. كانت هطاي فرصة جيدة، بقيت لنا، ولكننا فوتنا أموراً أخرى... شرحت له هذا، فلم يفهمه، أو تظاهر بعدم الفهم. وفوق هذا فقد انتقد الألمان بلغة غير مباشرة. قال إن الحركة القومية التركية تقتبس كثيراً من القومية الاشتراكية، وهم يشبهوننا بها مطلقين علينا اسم الفاشية، ولهذا السبب يجب أن نكون حذرين من الألمان، وما شابه ذلك... تحدث معي كأنه يتحدث مع طالب ساذج... لا أدري إن كان يؤمن بهذا. ولكنني لم أرغب بلفت نظره إلى إحدى تناقضاته. قلت كيف يحدث أن نكون من أنصار مقاسات الجمجمة من جهة، ونطالب بسياسة معتدلة من جهة أخرى؟ غضب، وتوتر، وتحدث عن تجاربه، وعمره، وعن شبابي، وعن الكتب الجديدة التي قرأها، وعن بلومخن، وغوبنيو. مازال عند غوبنيو حتى الآن!"

قال سرهات: "نعم، نعم! يجب أن نتخذ إجراء ما ضده!" وكان أشد المتحمسين العاملين في المجلة.

قال ماهر الطايلي: "لا أدري، هل الأمر يستحق هذا؟" كأن تواضعاً هبط عليه.

قفز سرهات قائلاً: "نعم، لا يستحق! إنه بروفيسور مسن. لديه اسمه

فقط: غياث الدين كاغان! وهذا يعني أنه يربي الدجاج في حديقة بيته في أسكودار."

تمتم ماهر الطايلي: "لعلنا كنا سنستفيد من اسمه! ليس من صاحب الاسم، بل الاسم. ها هو لم يحدث... ولكنني لم أقطع الأمل. يجب أن ننهج سياسة حذرة تجاهه."

تمتم أحد الشبان: "سياسة حذرة!"

شرب ماهر الطايلي قهوته دون أن يبالي لمظهر التعجب الذي ظهر على رفيقه. قال: "لننظر إلى الملفات الآن!" سننظر في المقالات والقصائد التي ستنشر في عدد كانون الثاني من المجلة.

نهض ماهر الطايلي عن كرسيه، ولكن أحد الشبان سبقه، وتناول ملفين موضوعين فوق المكتبة في إحدى زوايا الغرفة. التفت محي الدين نحو الشاب، وأخبره أن الملف الذي أحضره صباحاً كان بجانب المذياع، ولكن الشاب تظاهر بعدم السمع، وجاء، وجلس دون أن يُحضر ملف محي الدين لأنه لم يكن جاهزاً للسمع.

نهض محي الدين غاضباً. وبدأ بالحديث كأن وجوده غير مهم. فكر محي الدين: "إنهم مريدوه!" وتناول الملف الذي يحتوي على الشعر من جانب المذياع. كان يقع على عاتق محي الدين اختيار القصائد التي ستنشر في المجلة. وخلال سيره نحو الطاولة رأى أن ماهر الطايلي مازال يتحدث، وأن الشبان يصغون إليه. "لعلهم نسوني... إنهم معجبون به... يمكن أن يفعلوا كل شيء من أجله... ما عملي بينهم؟.. لا، علي ألا أبدأ من جديد. أنا مؤمن، وأنفعل!" ثم جلس إلى الطاولة.

لم يكن يتحدث عن الملفات والمقالات التي ستنشر في المجلة، بل عن غياث الدين كاغان. لم يكن لدى محي الدين أدنى شك بأن هذا الموضوع يسبب قلقاً. وفكر: "ما الضرر الذي يمكن أن يلحقه بنا؟ يمكنه أن يصدر مجلة إذا كان قد حصل على ترخيص، ولعلنا نمحى، من يعلم!" وأثارت فيه فكرة المحو هذه المرح وانفعال العيد أكثر مما أثارت فيه شعور الكارثة.

"لن تستطيع المجلة تحقيق المبيعات، وسيعزل القوميون الأتراك المحترمون ماهر الطايلي!" كان يشعر بالمرح لدى تفكيره بهذا. فجأة خاف. وقال لنفسه: "لا، لا! يجب أن أهب نفسي! يجب أن أهب نفسي! نعم، ما هي المهمة الملقاة على عاتقي الآن؟" فتح غلاف الملف الذي تحت يده، ولكنه أغلقه بعد ذلك معتبراً أن الأصح هو الاستماع إلى ماهر الطايلي الذي مازال يتحدث عن البروفيسور.

قال سرهات: "لماذا نخشاه؟ يبدو أنه مجرد رجل مسن، ينعزل في زاويته في أسكودار، منهمك بكتبه، ودجاجه. من الأفضل أن لا نحتك به..."

نهض ماهر الطايلي: "يجب أن نستفيد منه!" وبدأ يذرع الغرفة. "سيكون من الجيد أن نكتب مديحاً بحقه! نلفت انتباه المعجبين به. سيثق المتأثرون به بالمجلة. ولكنني لا أستطيع كتابة مقالة كهذه... ينبغي أن يكتب أحدهم مقالة تمتدحه، وتشير إلى أنه شاخ، وانتهى أمره. يجب أن يكون موقفنا منه تعبيراً عن احترام لجنازة..." كان واثقاً أن العيون كلها تتابعه، فراح يمشي كأنه صامت.

لم يرغب محي الدين بالنظر إليه. كان يقرا القصائد الواردة إلى المجلة كلها، ويشمئز. كانت تتضمن كلها كلمات البطولة والشجاعة، والجرأة، ورغبة النضال ذاتها، والأسماء المأخوذة من الملاحم ذاتها أيضاً. عشر الكلمات التي تتضمنها القصائد متطابقة تماماً. كان ماهر الطايلي يريد نشر كثير من القصائد في المجلة لتحميس الشباب، وتشجيعهم، وربطهم بالمجلة. اختار محي الدين بعضها. ووضع في الملف قصيدة أحد العسكريين اللذين كان يلتقي بهما في خمارة بشك طاش... كان قد ربطهما بالقومية التركية خلال ثلاثة أشهر. وفكر: "إنهما مريداي أيضاً!" أراد أن يقرأ إحدى تلك القصائد لكي لا ينتبه لكلام ماهر الطايلي، رأى قصيدته التي كانت فوق القصائد كلها في الملف... وفجأة سيطر عليه الفضول الذي كان يسيطر عليه دائماً، ويعيق إعطاء نفسه للقومية التركية. بدأ يفكر: "كيف يغدون هكذا؟ كيف يكتبون تلك القصائد؟ ماذا يوجد في قلوبهم؟ بماذا يشعرون؟" ثم انتبه إلى أن ماهر الطايلي يخاطبه."

قال ماهر الطايلي: "لعلك تستطيع كتابة مقالة كهذه يا محي الدين!"

"ولكنني لا أعرفه كثيراً..."

"كتابة مديح لشخص كهذا سيكون أفضل. ألم تقرأ أعمال الأستاذ الكبير؟"

قال محي الدين: "قرأت بداية للتاريخ التركي، والفولكلور التركستاني..."

"يكفي هذا... إن الأستاذ أساساً تواق للتعريف بنفسه. قَدَمَ في ذانك الكتابين حياته الشخصية... استفد منها، واسألني إن أردت! لتكن مقالة بصفحتين..."

بحث محي الدين عن كلمات يعبر فيها عن عدم رغبته بالقيام بهذا، ولكنه شعر فجأة أن الجميع ينظرون إليه، ويفكرون بأمور ما نحوه، وتذكر أنه يكتب في هذه الأيام قصائد عن الموت والوحدة، فقال: "صفحتان، أكتبهما بسرعة!"

قال ماهر الطايلي: "ولكن يجب أن تكتب بحذر!" وقد أظهر انتباهاً كأنه خرج عن الرقابة.

قال محي الدين ناخراً: "سأكتب بحذر!" ولكنه شعر بأن كلماته تعبر عن طأطأة راس أكثر مما تعبر عن غضب، فتوتر. "أنا أيضاً مريد... يعتقد أنه وضعني في قبضة يده أيضاً. يذكرني أحياناً أنني كتبت يوماً قصائد تحت تأثير بودليرا لا، هذه أفكار قبيحة. أنا أفعل ما يجب فعله. نحن نريد أن نبعث الحيوية في الحركة..." فكر ضاغطاً على نفسه: "كانت الحركة القومية التركية في ثبات منذ أربع سنوات... وبدأت تدب فيها الحياة، وتكتسب حيوية، وتلملم نفسها مع مجلة أوتوكان... وظهر غياث الدين قاغان باعتباره خطراً... للحيلولة دون الانقسام..."

"نعم مديح محسوب... وسيندهش الأستاذ نفسه لهذا أكثر من الجميع. هه، هه! لا يمكنه أن يفهم! إنه مريض أساساً... مصاب بالانفلونزا... ونضع في بدايتها تمنياتنا بالشفاء العاجل... فيفكر: هل أموت؟ نعم، لننظر إلى الملفات..." جلس ماهر الطايلي خلف الطاولة، ومد يده إلى الملف الموضوع أمام محي الدين.

عندما رأى محي الدين أصبعاً مكتنزة ممسكة بالملف، فكر: "خدعني!" ثم ارتعد: "لا، لا أحد يستطيع خداعي!" تذكر اليوم الذي رأى فيه ماهر الطايلي في الخمارة: "كان يشبه في ذلك الوقت رجلاً مسناً بحاله وذاته... أما الآن فهو شيطان!" تذكر أمه، وزملاء الدراسة. "لن أدخل في أي وقت في دور المدفوع خارج الطريق... أنا شيطان! وقصائد ضحاياي في الملف الذي تحت يدي... ولكن الملف هناك..."

كان ماهر الطايلي قد فتح الملف، ورأى القصيدة التي على السطح. نظر محي الدين بانتباه إلى وجهه، ولكن الذي يقف أمامه مهما يكن هو معلم. وجهه لا يشي بحاله. كان ينظر إلى القصائد الأخرى. كان محي الدين قد أشار إلى القصائد التي يمكن أن تنشر. وبدا محي الدين أنه ماهر الطايلي كما رآه أول مرة في الخمارة، كان ينظر إلى القصائد كأنه يفكر: "أنا أقرأ ما يدور في خاطرك!" سأل فجأة:

"من أين جاءنا توقيع بربروس هذا؟"

قال محي الدين: "عسكري! مشاعره القومية تنمو باستمرار! طلبت منه ألا يكتب كنيته!"

قال ماهر الطايلي: "أو، هذا يعني أنك تعرفه! عسكري قومي... هل يتابع مجلتنا؟ كنا نريد أن نتعرف إليه!"

قال محي الدين كأن شيئاً يمكن أن يختطف من بين يديه: "مازال فتياً جداً!"

ابتسم ماهر الطايلي، وقال: "كلنا شباب!" ولكنه فهم من وجه محي الدين ما أراد فهمه فوراً. "نحن لا نستعجل يا روحي... نجحت الحركة القومية التركية بأن تصمد إزاء الضغوط كلها، والمؤامرات الماكرة. إننا نعرف كيف ننتظر... أنا أعرف هذا التوقيع. وهذا أيضاً..." وألقى نظرة على القصائد الأخرى بسرعة. بعد أن أغلق الملف، ألقى نظرة إلى قصيدة محي الدين التي وضعها جانباً: "ماذا كتبت أنت لنر، بودلير؟"

ضحك سرهات. وضحك أحد الشبان، ولكن الآخر كان يحترم محي الدين. خيم صمت متوتر. وبدا أنهم قلقون لعدم مشاركة محي الدين بالمرح.

قال ماهر الطايلي: "نعم، يكفي هذا القدر من المزاح! شربنا قهوتنا، والآن عمل المجلة..."

فتح الباب، ودخلت ابنة ماهر الطايلي. صمت الأب فيما كانت تجمع ابنته الفناجين. لم يكن ثمة من ينظر إلى الفتاة، ولكن الجميع كانوا يفكرون فيها على كل حال. لم تكن فتاة جميلة. فجأة شعر محي الدين في داخله برغبة التحدي، فالتفت، ونظر إليها مظهراً بوضوح أنه ينظر. فكر قائلاً: "ترى كيف يفكرون بي! إنهم يعتبرونني مثقفاً جداً. أو ساذجاً جداً... وبالنسبة لهم فإن الأمرين يؤديان إلى الباب نفسه... هم؟ من هم؟ لا، أنا أيضاً منهم... يجب أن لا أدع نفسي للشك، الشك المقرف، وثرثرة العقل! لن أتركك، وسأؤمن... سأؤمن، سأؤمن يا إلهي، وسأسكت ثرثرة العقل الصغيرة! ماذا يقولون هم؟ اليوم رمضان! ماذا يفعل رفيق... يفسر ماهر الطايلي 'نفسية رايسن' للمرة الأربعين. يقول إن الخصائص الفيزيولوجية لا تكفي وحدها لتثبيت العرق، ويجب وضع الخصائص التاريخية بعين الاعتبار أيضاً. وكانوا هم أيضاً يستمعون. بما أنني أدركت هذه القضية، فلا ضرورة لاستماعي. لأفكر: اليوم رمضان، رفيق... لا، لأستمع... حسنٌ، كيف أكتب تلك القصائد... تلك القصائد؟ لا! صحيح ما أفعله... ستنشر قصيدة بربروس في عدد كانون الثاني... لا، سأستمع إليهم، وأشاركهم. ماذا يقول؟ مثلاً، إذا كان الأسبان متطرفين لأحاسيسهم، وشهوانيين، وذوو نفسيات أرستقراطية، فإنني أقول إن نفسيتهم العرقية... حسنٌ، ماذا عنا نحن الأتراك؟ يمكننا أن نظهرها بالشهامة، والجرأة والإقدام في الحرب... ويقول الأجانب إن هذا كرم ضيافة، وكباب، و... كفى!"

47
ضيق

كان عمر متمدداً على سريره في غرفة الفندق الذي ينزل فيه دائماً، ينظر إلى السقف، ولا يستطيع أن يقرر إلى أين يذهب. كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة من يوم السبت، بإمكانه الذهاب إلى الحلاق لأنه لم يحلق لحيته بعد. ولأنه متضايق، ولا يرغب بالبقاء وحده، ويبحث عن صديق ذكي يمكنه أن يبادله الحديث فهو يستطيع أن يتصل بزميله صميم من كلية الهندسة. ولكن هذا الأمر الثاني لا يجذبه كثيراً، فهو يفكر بأمور أخرى. "يمكنني الذهاب إلى النادي، أو إلى السينما... ماذا يحدث إذا ذهبت إلى ناظلي؟" نهض من السرير. نظر إلى الخارج عبر النافذة، كان ثمة ثلج يندف. تمتم قائلاً: "ماذا أفعل، ماذا أفعل؟" جلس على الكرسي. وفتح جريدة "أولوص/ الأمة"، وبدأ يقرأ بشكل عشوائي: "مازالت الانتخابات مستمرة بحماس في البلد! رئيس الحكومة البلغاري الصديق كوسة إيفانوف في مدينتنا. ترك الجريدة جانباً. تمتم مرة أخرى: "ماذا أفعل، ماذا أفعل؟" وبدأ يمشي داخل الغرفة. ثم قرر أن ينزل إلى الصالة في الطابق السفلي للفندق، فخرج من الغرفة.

نزل في هذا الفندق في أنقرة منذ ستة أشهر. كان غالبية نزلاء هذا الفندق الواقع في حي أولص رجال أعمال كان لهم عمل لدى نوابهم في أنقرة. وكان الفندق شبه خاوٍ لأن المجلس بدأ عطلته اعتباراً من نهاية

كانون الثاني بسبب إجراء الانتخابات في نهاية آذار. لم يصادف عمر أحداً في الدهاليز، وعلى السلالم إلى الأسفل غير نادل يغفو على أريكة. فكر بعد ذلك: "ترى هل أشرب قليلاً هنا؟" ودخل إلى الصالة لأنه يخشى المشروب.

مضي أيامه، أو الفترة الأخيرة على الأقل، في أنقرة التي يقيم فيها منذ ستة أشهر بالتفكير كيف سيقضي تلك الأيام، أو بلقاء ناظلي مرة كل يومين كما بدأ يفعل مؤخراً. تحدد في النهاية تاريخ العرس، ثم أجل إلى نهاية نيسان. وحتى نهاية نيسان، لا يجد رغبة بالذهاب إلى اسطنبول، ولا الانهماك بالتحضير للعرس. ولهذا السبب اصطدم مع ناظلي بالأمس، ولكن عمر لا يريد التفكير بهذا أيضاً، يبحث عن أمور تلهيه. وأدرك أنه لا يمكن أن يمضي وقته في الصالة التي لم يكن يوجد في زاويتها غير رجل مسن يقرأ جريدة، وعائلة حضرت حقائبها، وتنتظر شيئاً ما وكانت سابقاً تعج برجال الأعمال والنواب. عاد إلى غرفته خشية البدء باحتساء المشروب بعد الظهر، وأعاد النظر بالأمكنة التي يمكن أن يذهب إليها.

لم يكن راغباً بالذهاب إلى الحلاق، لأن الإنسان لا يمكنه احتمال مكان قاس ومزعج كدكان الحلاق إلا إذا كان سيذهب بعد خروجه من هناك إلى حفلة لهو. ولم يكن راغباً بالذهاب إلى نادي المهندسين المدنيين أيضاً. لأنه لا يوجد في هذا النادي، كما في نظيره الذي في اسطنبول، غير الناس أنفسهم المجتمعين على النميمة حول العمل، والرشاوى، وملاحقة النساء وسط دخان السجائر، ولعب الورق الذي لا ينتهي، والممازحات. كان عمر ذهب إلى هناك، وسلى نفسه، وقضى ساعات بلعب البريدج، ولكنه كان يعرف أنه لن يجد الصحبة التي يبحث عنها هناك الآن. لا يمكن أن يكون ثمة شيء جديد في دور السينما لأنه ذهب مع ناظلي مرتين هذا الأسبوع. رغم معرفة عمر هذا، فقد فتح الجريدة، وألقى نظرة أخرى إلى ما يعرض في دور السينما، ولم يجد جديداً. فكر أن الأفلام التي شاهدها مع ناظلي كانت سيئة. ثم وقعت عينه على زاوية التسلية في الجريدة. دهش لسذاجة إحدى الطرائف، وقرأ أخرى باسماً، ثم قلب الصفحة. قرأ إعلان مناقصة كان قرأه صباحاً. يبين بأن هنالك طلب استدراج عروض أسعار لإنشاء بعض الجسور في منطقة غرب البحر الأسود، ومن أين يمكن

الحصول إلى دفتر الشروط. كان قد سمع بعض الشائعات حول هذا الموضوع في النادي لأنه صار غنياً إلى الحد الذي يمكنه من الدخول بأعمال كبيرة كهذه. في أثناء قراءته عن الأمكنة التي ستنشأ فيها الجسور، تمتم قائلاً: "هل يستحق؟ هل يذهب إلى تلك المناطق البعيدة من أجل كسب النقود؟" خلال الأشهر الستة هذه لم يعمل إلا على شراء عدة مقاسم في اسطنبول بمساعدة زوج خالته، وبيعها، وكسب منها تسعة آلاف ليرة فقط. قلب الصفحة وهو يقول لنفسه: "هل يستحق؟" وفيما كان ينظر إلى إعلان كريم، فكر: "ولكنني كنت سأغدو فاتحاً، وسأكسب نقوداً كثيرة!" ضحك من نفسه، وتمطى. وتمتم قائلاً: "الحلاق يكئب النفس، والنادي لا أريده، ولا يوجد سينما، وناظلي لا يمكن! سأذهب يعني أنني ذاهب إلى صميم." ونهض بمرح. وربط ربطة عنقه، وارتدى ألبسة ثقيلة، ونزل إلى الأسفل، وأعطاهم المفتاح، وخرج.

كان الثلج يندف ببطء في حي أولوص، وتذوب الندف فور سقوطها على الأرض. لم تكن الساحة مزدحمة. صعد عمر إلى سيارة أجرة، وقال للسائق إنه ذاهب إلى منطقة الصحية. لم يفكر بشيء طوال الطريق. ألهى نفسه بما رآه. قال لنفسه: "لن أفكر بالمشكلة مع ناظلي البارحة!" بعد أن نزل من سيارة الأجرة، رأى أن الوقت مازال مبكراً، فمشى نحو ساحة الهلال الأحمر. بدأ يفكر بزوجة صميم التي تزوجها حديثاً، والاهتمام الذي أبدياه له. تمتم قائلاً: "نعم، ذلك البيت هو المكان الوحيد الذي يمكن الذهاب إليه!"

كان قد التقى صميم مصادفة في نادي المهندسين المدنيين قبل شهرين. كان زميله في كلية الهندسة. لم يكن هنالك قرب بينهما في الكلية مثلما الآن، ولكن أحدهما لم يكن غريباً عن الآخر تماماً. عندما سأله عن سبب عدم قيام صداقة بينهما أيام الكلية، تحدث عن رفيق ومحي الدين، وقال: "كنت أتهيب منكم!" وضحك عمر. عندما تذكر هذا، فكر: "نعم، إنه شاب طيب! هو وزوجته يبديان مودة لي. لم أعرف كيف كان صميم أيام الكلية؟ كان يخشانا! إنه على حق. لم نكن محببين، أو قريبين من القلوب. كيف نحن الآن؟ كيف أنا الآن؟" لم يكن الشارع

فارغاً مثل أولص، بل مزدحماً. زحام يوم السبت غير المبالي بالبرد والثلج وهو يدخل إلى الدكاكين، ويخرج منها، ويتدفق على الأرصفة مسرعاً. نظر عمر مدققاً بالوجوه العابرة. "الجميع نافدو الصبر من أجل العودة إلى بيوتهم، ويريدون إكمال نقص ما في بيوتهم! كيف يرونني؟ وسيم. لديه معطف أنيق. شاب. نعم، لابد أنهم يرونني على هذا النحو؟" وفجأة تذكر صميم وزوجته، وتمتم قائلاً: "هما أيضاً يريانني على هذا النحو! شاب، وسيم، معطفه أنيق... وفوق هذا فإنهما يعرفان أموراً أكثر: غني... خاطب ابنة نائب... ولكنني أسيئ هكذا لصميم!" رفع رأسه إلى السماء كأنه يريد تذكر أن كل شيء ليس سيئاً كما فكر قبل قليل. لم تذكره ندف الثلج الهاطلة بين الأبنية العالية إلى الشارع بغير قصيدة قديمة مثيرة للأعصاب: "الثلج كطائر فقد زوجه..." فجأة أدرك أنه على وشك تذكر ناظلي، وسوء التفاهم الذي حدث بينهما البارحة، فتمتم: "لابد أن زوجة صميم قد حضرت شاياً ساخناً الآن!" ولكنه لم يجد سلواناً. "ثمة ضيق قذر، وسافل في داخلي، لا أستطيع التخلص منه بأي شكل! لماذا؟ لأننا تشاجرنا البارحة ناظلي وأنا. لأنني بهذا الزواج، وهذا... لا... سأشرب شاياً الآن هناك. وسنتحدث." شعر بالضيق عندما استعرض ما يمكن أن يتحدث فيه في بيت صميم. "نعم، إنهما معجبان بي. لأنني غني، وذكي، ودراستي جيدة، ولأنني خاطب لابنة نائب. ماذا أفعل؟ هل أعود؟" كان قد انعطف من الشارع الرئيس إلى الأزقة الفرعية. فكر أنه إذا عاد فسيشرب في الفندق، ودهش عندما لم يجد هذه الفكرة مريعة بقدر ما كان يتوقع. "لماذا لا أحب صميماً؟ لأنهما هناك يترقبان كل كلمة من كلماتي، ويستمعان لأتفه كلماتي، وأكثرها سخاء بانتباه كأنها أمور عظيمة. ويبديان ألفة لم يبدها لي أحد من قبل. إنها إلفة كتلك التي يريها باشا لابنه في أحد عيد الأم!" قطب وجهه، ولحظة عزمه على العودة، تذكر ابتسامة صميم البريئة، والنابعة من القلب. "ولكنه ليس إنساناً سيئاً! ليس سيئاً إنه كالجميع! ليس لديه ازدواجية في المعايير بحبه لي!" حاولت زوجة صميم أن تتصرف وكأنها ند لناظلي، ولكنها لا ترى أنها ند لها، فبدا هذا غريباً جداً، ودهش الجميع، ولم يتحدث بأي شيء. "تصرفا معنا –ناظلي وأنا -

بطيب مبالغ به، لأنهما كانا يرغبان بالدخول إلى المحيط الذي عشناه أو نعيش فيه، وأن يكونا مثلنا. لعلهما لم يظهرا هذا بشكل صريح، ولكنهما يندفعان للتصرف على هذا النحو فور رؤيتهما لي. لا، لن أدخل الآن إلى هناك!" توقف وسط الزقاق. كان البناء الذي يقيم فيه صديقه على بعد خمسين خطوة. "ما أسوأ ما أفكر فيه!" فتحت إحدى النوافذ في البناء المجاور، وامتد رأس امرأة، وطلب من ولد يخرج من البناء شراء خل من البقال. "ما أسوأ ما أفكر فيه... إنهما إنسانان طيبان، وأنا سيئ. لماذا؟ لأنني قررت أولاً أن أكون فاتحاً." التفت عائداً بعد أن سار عدة خطوات. قال لنفسه: "لا يمكنني إيجاد الراحة التي أنشدها هناك بعد أن فكرت بأمور على هذه الدرجة من السوء!" وشعر بالنشوة.

كان الثلج قد توقف حين خرج إلى الشارع الرئيس. وامتلأت الدكاكين، وتجمع أمام أبواب البيوت، كأنه كان ينتظره الناس ليملؤوا الأرصفة. تمتم عمر: "ماذا افعل، ماذا أفعل؟ أأذهب إلى ناظلي، وأتحدث معها من جديد بكل شيء؟ ولكن من الممكن أن ينشب سوء تفاهم أسوأ. لا أريد! ماذا أفعل؟ إلى أين أذهب؟ ولكنه كان يعرف، منذ فترة طويلة إلى أين سيذهب. سيذهب إلى الفندق، وسيشرب شراباً في الصالة. ولمعرفته بهذا، كانت قدماه تقودانه تلقائياً إلى موقف سيارات الأجرة. قال للسائق إنه سيذهب إلى أولوص. وفيما هو يدخن سيجارة في السيارة، أوحى له ضميره مرة أخيرة إن شربه المشروب سيكون سيئاً، ولكن عمر أسكته معتقداً بأنه ليس ثمة شيء آخر يفعله.

ولكي يهدئ ما أسكته جيداً بعد أن دخل إلى الفندق، وولج الصالة التي يشرب فيها كثيراً، والتي يسميها البعض "لوبي"، وجلس على الأريكة التي اعتاد الجلوس عليها، قال لنفسه: "ها أنا قد خرجت، وتنزهت، ورأيت، ولم أجد ما يلهيني!" فاندهش من نفسه، وفكر: "لم يعد الذنب ذنبي!" راغب بأن يرتاح. كانت العائلة ذات الحقائب قد خرجت من الصالة، ولكن المسن مازال يقرأ الجريدة نفسها. جلس أجنبي على الأريكة المجاورة لأصيص الزرع الموضوع في الزاوية. النادل الذي رأى عمر يجلس على الأريكة التي اعتاد الجلوس عليها ليحتسي المشروب يعرف ما سيشرب،

ولكنه ألقى نظرة تفيد بأنه مضطر لطرح هذا السؤال العبثي التزاماً بالقواعد، اقترب وسأله عما يريد أن يشربه. قال عمر إنه يريد أن يشرب الكونياك. ثم فكر: "ها نحن نبدأ!" كان يعرف أنه متضايق اليوم أكثر من الأيام الأخرى كلها، وأن المشروب سيؤجج الأفكار الأسوأ، بسبب ميله لرؤية الجانب الأسوأ والأقبح في كل شيء.

عندما وضع الكأس الذي كان يعرف شكله، وأرضيته العريضة، واللون الذي يأخذه عندما يوضع فيه الكونياك، ويحبه كثيراً، فكر منتشياً: "نعم، حسنٌ أنني لم أذهب إلى صميم!" وارتشف الرشفة الأولى. "لو أنني ذهبت إلى صميم فسأدع نفسي لتلك الثرثرة الفارغة محاولاً نسيان نفسي، وفي النهاية لن أفعل سوى خداع نفسي. ولكنني الآن أريد أن أفكر بكل شيء، وأفهمه!" ارتشف رشفة أخرى من المشروب. تمتم: "لنر الآن ما سبب اصطدامنا ناظلي وأنا؟ لماذا تشاجرت مع ناظلي؟ بما أن لهذا الصدام علاقة بالصدامات الأخرى، فيجب أن يطرح السؤال التالي: لماذا نحن نتشاجر دائماً؟" وفجأة أدرك أنه يخشى مما يفكر به، فرأى أنه لم يشرب بالقدر الكافي للتفكير، وافرغ كأسه بجرعة واحدة. "ماذا تنتظر ناظلي مني؟ أن أكون زوجاً جيداً، ومتعهداً ناجحاً، وأن أحبها، وأحميها، وأن يكون لدينا بيتنا الخاص... أهذا كل شيء؟" هز رأسه. "لا يمكن للإنسان أن يعددها كلها في أي وقت، ولكنه قال إن هذه الرغبات كلها بغاية السهولة. حسنٌ، ماذا أنتظر منها أنا؟" نظر إلى الكأس فترة. ثم نادى النادل، وطلب منه كأساً آخر. "ماذا أريد منها أنا؟" تمتم مدركاً أنه لن يستطيع إعطاء جواب قاطع لهذا السؤال في أي وقت: "حسنٌ، ماذا ينتظر واحد في وضعي، أو مثلي؟ لا شيء! لا شيء! أنا أريدها هي فقط!" ضغط على الكلمة وهو يشعر باختلاط المشروب بدمه. "أريدها!" وفجأة مازح نفسه لكي لا يفيض الغضب المتأجج داخله: "أنا أريدها، أما هي فتريد أن نشتري مفروشات بيتنا!" فجأة توضح شجار الأمس، والنقاشات الحادة السابقة: حين طلبت ناظلي العمل على تحضيرات الزواج، والذهاب إلى اسطنبول من أجل اختيار الأشياء التي ستشترى، والبيت الذي سيستأجر، ادعى عمر أنه سيبقى في أنقرة لوجود أعمال لديه. مع أنهما يعرفان

كلاهما أن لا عمل لديه أبداً في أنقرة. تمتم عمر: "ولكن لابد لي من الذهاب إلى كماه لبيع الأدوات المتبقية هناك!" ولكنه أدرك أن هذه الفكرة لم تضف شيئاً إلى النقاش. قال لنفسه: "لا أريد أن أذهب إلى اسطنبول! لا أريد أن أذهب إلى اسطنبول، لأنني..." ونهض واقفاً فجأة. "لأنني..." أخذ القدح بيده، وسار نحو الباب. عندما رأى النادل، أعطاه القدح، وطلب منه أن يُحضر له واحداً آخر. وفيما كان عائداً إلى أريكته، التقت عيناه بعيني الأجنبي. كان الأجنبي يبتسم، أو بدا هذا لعمر ذات لحظة، فابتسم له. تمتم: "إنكليزي... إنكلترا... لو أنني بقيت في إنكلترا؟ أم أنه ألماني؟ الهر رودولف! ماذا يفعل رفيق يا ترى؟ ... إلى اسطنبول وحدي كفاتح" عاد للجلوس على الأريكة، وفكر: "يجب أن أكون هادئاً! لا يمكن التفكير على هذا النحو." نظر إلى الكأس الذي أحضره النادل نظرة عداء. "أناقش ناظلي بحدة لأنها تعرف ما تريد، أما أنا فلا أعرف! ماذا أريد أنا؟ ما أريده واضح! أنا أقول هذا دائماً. أن أكون فاتحاً. حسنٌ، ماذا يعني هذا بصراحة؟ أي ماذا يعني للآخرين، أو ماذا يجب أن يعني للآخرين؟ الأمر بسيط: أنا لا أريد أن أكون كالجميع، وأكتفي بالقليل. أنا لا أريد أن أكون أباً لأسرة عادية، مكتفياً ببيت جديد، ومفروشات جديدة، وأولاد. حسنٌ، ماذا أريد بدلاً عن هذه الأمور؟.. أنا!.. أنا!.. أنا أقول دائماً: أنا، أنا! وأعرف أن هذا قبيح. أنا..." فجأة توقف جزعاً. وفكر: "أنا أعرف ما أريد أن لا أكون، ولكنني لا أعرف ما أريد أن أكون! أنا شاب. ولكنني بدأت أفكر!.. لن أفكر. التفكير لا يناسبني! لماذا عدت إلى هذا المشروب!" نهض واقفاً مشمئزاً من كل هذه الأفكار، والمشروب. تمتم: "ماذا أفعل، ماذا أفعل؟ ها أنا سكرت. لأذهب إلى ناظلي. علي ألا أفكر بأمور قبيحة كهذه. لأتحدث معها. سأتزوجها. لتفهمني..."

خرج من الفندق. شعر بالفرح، لأنه سيذهب إلى ناظلي، سيتحدث معها مهما كلف الأمر، ولكنه خاف عندما فكر بأنه سيصادف مختار بيك هناك، ولن تقابله ناظلي بحب كما يتوقع. قرر أن يتصل هاتفياً لمعرفة إن كان مختار بيك هناك أم لا.

48
النائب حزين

نظر مختار بيك إلى ساعته مرة أخرى: إنها تقترب من السادسة والنصف. وفكر: "إنه الوقت المناسب" كان سيذهب إلى أنقرة بالاس حيث الوليمة التي ستقدم على شرف رئيس الحكومة البلغارية كوسة إيفانوف، وحفل السواريه. نظر للمرة الأخيرة إلى المرآة: "أنا جاهز في الوقت المناسب! ولكنهم لماذا دعوني إلى هناك يا ترى؟ من أجل سلواني!" خرج من الغرفة على عجل لكي لا يغضب، وبحث في الغرفة عما يهدئ أعصابه، ونادى: "يا ابنتي ناظلي، أين أنت؟ أنا ذاهب!"

"أنا هنا. كنت أتحدث بالهاتف!" خرجت ناظلي من الغرفة الصغيرة حيث الهاتف، ومكتب مختار بيك.

"أنا ذاهب... من؟"

"عمر! ربطة عنقكم غير مناسبة يا بابا..."

"عمر؟ ماذا يريد؟"

"إنه قادم بعد ساعة!"

"إيه، أما كان سيأتي غداً؟"

"ها هو قد اتصل الآن. وقال إنه سيأتي." واتخذت ناظلي موقفاً خجولاً، ومذنباً.

قال مختار بيك ناخراً: "ليأت لنرى، ليأت لنرى!" بعد ذلك قال مفكراً بأن من حقه إبداء امتعاضه مما يجري: "أنا لا افهم ما يحدث في الحقيقة، أنا لا افهم."

"لا أعرف! وأنا أيضاً خائفة."

"أنت خائفة ها؟ لا تخافي! لا أحد يستطيع أن يتعسك طالما أنا موجود، هل فهمت؟.." وفكر بأن ناظلي لا ترغب بالحديث في هذا الموضوع أكثر من ذلك: "هذا يعني أن ربطة عنقي لم تعجبك؟ أليست لائقة؟ إذا كانت غير لائقة، فلتكن، هل سأرتدي أفضل من هذا من أجلهم! إيه، هيا لنر، استودعك الله!"

"مع السلامة يا بابا!"

سار مختار بيك نحو الباب. ثم استدار فجأة، وعانق ابنته القادمة خلفه بانفعال.

"أنا قلق عليك..." وتناول معطفه عن العلاقة. ازداد قلقه حين رأى أن ابنته لم تجب. في أثناء ارتداء أحد كمي المعطف، قال: "أف، لنر ماذا سيحدث؟" قال هذا كأن الأمر يتعلق به فقط، قال وهو يدخل ذراعه في الكم الآخر: "تحدد تاريخ الزواج، ولكنني بدأت أشك في هذا الأمر، لا تغضبي يا؟" ولكي لا ينظر إلى ابنته، ركز عينيه على الأزرار التي كان يزررها.

"لا، لا أغضب."

شعر مختار بيك بأنه الوقت المناسب لشعوره بالقلق الذي كان يحمله طوال اليوم: "ماذا يحدث يا صغيرتي؟ ماذا حدث البارحة؟ وضعك أنت أيضاً غريب!"

ركزت عينيها على أحد الأزرار التي لم تزر، وقالت: "تشاجرنا البارحة."

"يا! لماذا؟"

"لطفاً، لا تسألوا..."

"حسنٌ، لا أسأل! ولكنني غير مسرور مما يحدث. أنا لا أسأل عن هذا الشجار. ولكن ألا يحدث هكذا دائماً؟ اتريدين ان اتكلم معه؟ حسنٌ، حسنٌ! لا تقطبي وجهك... ولكن لا تنسي هذا، أبوك معك دائماً."

"أعرف!"

فتح مختار بيك الباب لإخفاء وجهه الطافح بالمشاعر. أراد أن يقول شيئاً، ولكنه لم يقل شيئاً لأنه خشي من خروج صوته مخنوقاً. تمتم وهو ينزل الدرج: "ماذا تحب في هذا الشخص؟" أخذ نفساً عميقاً عندما خرج إلى الهواء الطلق. ثم وضع القبعة التي بيده على رأسه. "أنا إنسان حزين!" وبدأ يمشي.

لم يحدث شيء مما كان ينتظر مختار بيك حدوثه بعد وفاة أتاتورك، لم يخط عصمت باشا تلك الخطوة، ويكلفه بمسؤولية، ولا الكوادر القديمة أبعدت عن مسؤولياتها. لهذا السبب كان مختار بيك يرى نفسه إنساناً تعيساً لم تتحقق أحلامه وتصوراته. منذ أكثر من شهر وهو يغضب من كل شيء، ويكره كل شيء لأنه لم يحصل على المسؤولية التي ستمنح حياته كلها عمقاً، ومعنى. وفي أثناء مسيره ببطء نحو الشارع الرئيس، فكر: "فوق كل هذه المساوئ ظهرت لي هموم ابنتي!" أبرز حدبته بشكل خفيف. وسحب رأسه إلى ما بين كتفيه كأنه يحميه من المساوئ، وتمتم قائلاً: "نعم، كل شيء سافل، وقبيح، وازدواجي، ورديء! وهذا الشخص الآن. وخاصة في هذه الأيام التي يبحث فيها عن التوازن والصحة." كان قد اقترب من الشارع الرئيس، ولكنه لم يصادف سيارة حتى الآن. بعد أن مشى فترة، وجد سيارة، وقال للسائق إنه يريد الذهاب إلى أولص. وفكر: "لماذا دعوني إلى هناك؟ ورد بالإجابة نفسها: "من أجل سلواني..." هز رأسه إلى الأمام وإلى الخلف. "ولكنهم لن يستطيعوا سلواني بعد الآن... لم يعد يستطيع أحد سلواني..." وتمتم فجأة: "لا يمكن إلا لابنتي أن تبعث في السلوان..." وبدأ يفكر بهموم ناظلي. وقال لنفسه: "تعاستها كلها تكمن بأنها أحبت ذلك الشخص السيئ، والمعجب بنفسه، والذي لا يمكن أن يُحب. كانت هذه الفكرة هي الأكثر وضوحاً في عقله دائماً. تمتم فترة من الزمن: "إنه شخص معجب بنفسه!" ثم خجل عندما وجد نفسه يقارن بين شبابه وعمر، وفكر على النحو التالي: "سأفعل كل ما بوسعي لكي لا تكون ابنتي تعيسة. أنا جاهز للشجار مع ذلك الشخص لكي لا تكون ابنتي تعيسة!" كانت السيارة تصعد الطريق ببطء. رفع رأسه المستند إلى الخلف فجأة. "ماذا يفعلان الآن في البيت؟ وخديجة خانم في إجازة!" نظر إلى

ساعته. "هما هناك... ابنتي تريد مساعدة. وأنا في ذلك الاجتماع العبثي الذي دعوني إليه من أجل تعزيتي..." قال لنفسه بموقف ساخر، ومستهين: "كوسة إيفانوف، كوسة إيفانوف رئيس الحكومة البلغارية ها؟"

تمتم بالأمور نفسها بعد أن نزل من السيارة أمام الفندق. تلفت فيما حوله معطياً وجهه تعبيراً ساخراً. لم يكن هنالك سوى الخدم والموظفين. ولثقته بأنه جاء في الوقت المحدد، دخل الصالة الهادرة عبر الدهاليز والأدراج التي عبرها من قبل بحركات واثقة. انزوى جانباً كأنه يريد أن يحتمي من الأضواء التي انجذبت عيناه إليها، ومن الضجيج. ثم اقترب مبتسماً من نائبين يتبادلان الحديث وقوفاً. فرح حين شعر أن الابتسامة الساخرة التي اتخذها قبل فترة طويلة قد رسخت جيداً على وجهه: "هل يمكنني أن أنضم إلى حديثكم يا سادة؟"

"واخ، مختار بيك! تفضلوا، أرجوكم!"

كان النائبان يتحدثان عن "ائتلاف البلقان. وبعد انضمام مختار بيك إليهما انتقل الموضوع فجأة إلى الجرائد، ثم إلى خبر قرأه أحد النواب في الجرائد. وحسب هذا الخبر فإن اللحم النيئ أنفع صحياً من المطبوخ. استمع مختار بيك إلى النائبين وعلى وجهه الابتسامة الساخرة نفسها، كان ينظر أحياناً بطرف عينه إلى من في الصالة، ويحاول عدم الالتفات كثيراً إلى ما حوله. ورغم نظراته القصيرة جداً إلى الصالة، رأى خلال عدة دقائق من كان هنالك، وأين يجلس، ومن مع من. وعندما رأى أن المدعوين ليسوا كثيرين، وأن الأشخاص الثمانين تقريباً الموجودين هنا كلهم مكلفون بمسؤوليات، اقتنع مرة أخرى بأنه دعي إلى هنا من أجل السلوان. عندما طال الحديث حول اللحم النيئ والمطبوخ رأى زوجة كوسة إيفانوف، وابنة زوجة رئيس الحكومة البلغاري، أو المرأة الأخرى التي يقال على سبيل المزاح إنها ذات وضع مختلف، ورأس رئيس الحكومة رفيق صايدام الأقرع، وفكر فجأة: "بماذا يتفوق علي رفيق صايدام حباً بالله؟" وأدرك أن الابتسامة الساخرة التي كانت على وجهه قد ضاعت. "صار رفيق صايدام رئيس حكومة. وأنا لا شيء! رفيق صايدام! خريج كلية الطب العسكرية! كان الذراع الأيمن لسليمان نعمان باشا قائد

الخدمات الصحية في الحرب. ولديه حظ ركوب سفينة بانضرمة مع أتاتورك! وليس له أي ميزة أخرى! ليس لديه أي ميزة سوى أنه عبد لعصمت باشا... عندما انسحب عصمت باشا من رئاسة الحكومة، انسحب هو من الوزارة. وها هو الآن رئيس حكومة... أما أنا فلا شيء! آه، لماذا جئت؟ سأعود إلى البيت! ماذا تفعل ناظلي؟"

"أوه، كيف حالكم يا مختار بيك؟"

رفع مختار بيك رأسه، ونظر: وزير الداخلية فائق أوزطراق! فكر: لماذا يضحك لي على هذا النحو؟" ثم قال: "الحمد لله يا فائق بيك." وفكر قائلاً لنفسه: "أجبت إجابة ساذجة جداً!" ثم رأى أن الوزير قد تأبط ذراعه، واندهش.

ابتسم الوزير معتذراً لأنه أبعده عن النائبين الآخرين، وبدأا يسيران نحو مكان خاو.

"ما بك يا سبعي؟ هل لديك هم؟"

اندهش مختار بيك لحميمية الوزير غير الرسمية التي تذكر بأيام كلية الشؤون الإدارية، وصداقتهما في وزارة الداخلية، وقال: "لا!"

"ولكن وجهك عابس! كأنك تحدث نفسك في كل مكان؟"

"أنا؟ من قال هذا، وماذا قال؟"

"لم يقل أحد شيئاً يا روحي. ولكن حضرة الباشا سأل: هل مختار بيك غاضب منا؟"

"وهل هنالك ما يستدعي الغضب؟" تباهى مختار بيك معجباً بجوابه.

قال الوزير: "لا أدري! أنت تعرف هذا بشكل أفضل!" وابتسم لامرأة بدينة.

"ما الذي سأعرفه بشكل أفضل؟"

أفلت وزير الداخلية ذراع مختار بيك: "جميل جداً! فرحت. كانوا يعتقدون أنكم غاضبون من شيء ما. نريد أن لا يكون أحد غاضباً من أحد. جميل جداً!"

"نعم، أنا أعرف سياسة الباشا بإصلاح القلوب المكسورة!" قال هذا مختار بيك محاولاً أن يبدو ساخراً، ولكنه لم يستطع اتخاذ الموقف المراد.

أطلق الوزير قهقهة. "إصلاح القلوب المكسورة ها؟" ثم أطلق قهقهة أخرى كأنه يسمع العبارة التي تستخدم كثيراً هذه الأيام أول مرة. ثم تلفت فيما حوله ليرى ما إن كان قد فهم أنه إنسان يفرح عندما يكون الوقت وقت الفرح.

قال مختار بيك غاضباً: "إنك فرح جداً!"

بدا الوزير خائفاً من الامتعاض الظاهر على وجه زميله السابق. "أنت حاد كما أنت دائماً! اضحك قليلاً يا روحي!" تذكر أن هذه الكلمات لا تعكس الواقع. ثم قال بنبرة مؤنبة: "دخلت القائمة. ستنتخب. وستعمل معنا. يبدو أنك تعتقد أننا نسيناك."

تمتم مختار بيك: "أرجوكم!" ووجد كلمته هذه هراء.

انفجرت بعد ذلك قهقهة وراءه. التفت الاثنان، ونظرا. لم يفوت وزير الداخلية الفرصة. كأنه وجد على الأرض في تلك الزاوية من أطلق القهقهة بعد أن بحث عنه في السماء، فابتعد عن مختار بيك منهمكاً، ومنفعلاً.

فكر مختار بيك وهو ينظر إلى خلفه: "يعني أن عصمت باشا سأل عني! وهذا يستدرجني بالكلام. هذه هي المرة الأولى التي يجلس فيها على كرسي الوزارة. ولعله يبادر من نفسه، فلماذا يسأل عني الباشا؟" التفت، ونظر إلى رفيق صايدام الجالس مع كوسة إيفانوف. وفكر: "إنه يضحك! لابد أن الباشا قد قال لهذا، قولوا لمختار بيك أن لا يعبس، ها نحن جعلناه يُنتخب مرة أخرى!" وجاء هذا، وأخبرني به! لم يكن لدي شك أنني سأنتخب. ولكن لماذا قالوا هذا؟... لأنهم يريدون أن يتصالح الجميع فيما بينهم. إنهم يريدونني أن أذهب وأعانق الجلاليين. ترى من أوصل إليهم أنني أتحدث صاعداً نازلاً في ردهات المجلس؟ شهد موجة غضبي قبل عشرة أيام خلوصي وسرمت وأكرم. سرمت لا يبوح بهذا. أكرم..." وارتعد فجأة من أفكاره. وتمتم: "أنا أكرههم جميعاً!" كان وحيداً في صالة مزدحمة، وعلى طرفها. "أنا أشمئز منهم جميعاً. أعرف أي بضاعة أنتم! كلكم عبيد! أنا أيضاً كنت هكذا، ولكنني استيقظت الآن. أنا مدين بالشكر لعصمت باشا الذي ساعدني على الاستيقاظ." مازال واقفاً وحده في المكان نفسه، لم يكن هناك من يقترب منه. "أعرفكم كلكم، وكل شيء."

تمتم مشمئزاً: "إصلاح القلوب المكسورة!.. عصمت باشا يصالح الآن رجب زهدو الذي كان يخشى أن يطلق عليه النار، ولهذا لم يستطع الذهاب إلى اسطنبول في أثناء مرض أتاتورك." وتذكر شائعة: قالَ رجب زهدو إنه أطلق النار على عصمت باشا. واعتقد أتاتورك في الأشهر الأخيرة أن عصمت باشا قد قتل، وحزن. ولهذا السبب كتب في وصيته عن تخصيص مبلغ من المال لتدريس أولاد عصمت. واستمتع عندما تذكر هذه الشائعة. وانتشى أكثر عندما رأى نائب مرعش برهان الدين أوقاي. "تعين هذا النائب في الدورة الماضية إثر وفاة أحد النواب. وصعد إلى المنبر لأداء القسم. فقال: أشكركم لأنكم انتخبتموني. قلنا له: لسنا نحن من انتخبك بل الأمة. وصرخ هو: أشكركم لأنكم جعلتموها تنتخبني! آه منكم جميعاً!..." ذهبت عيناه تلقائياً، ووجدتا رفيق صايدام. كان يضحك من جديد. فكر مختار بيك: "إنه يضحك، يضحك! يضحك وكل شيء بائس، ومسكين، وقبيح، وسافل إلى هذا الحد. ما المضحك؟ فكر بالبلد بدل أن تضحك! بحال البلد..." وتذكر رفيقاً صديق صهر المستقبل. "ماذا يفعل هو؟ نشر كتابه. ولم يُدخلوا وزير الزراعة ذاك إلى الحكومة... أجريت بعض التعديلات الأخرى بالطبع. ولكن أيكفي هذا؟ آه، أيكفي؟ أيمكن الاكتفاء بهذا؟ تصالحوا، وأنهوا الأمور بسلام. لم يكلفوا الكوادر الجديدة بالمسؤوليات. الرحمة، يجب ألا يغضب أحد من أحد. الرحمة، لتسر الأمور كما كانت سابقاً. الرحمة، يجب ألا يغضب أحد! ولكنني غضبت! أنا مختار لاتشين الحامل لهذه الكنية المضحكة المخجلة، خريج كلية الشؤون الإدارية، محافظ مانيسا السابق، أكرهكم جميعاً! أنا حزين! لدي ابنة فقط. أنا أكرهكم جميعاً، وأكره عالمكم البائس هذا، وكل ما لكم..."

"يا عزيزي مختار بيك، هل تطبق حمية؟"

"نعم؟"

"إنكم لا تلتفتون إلى البوفيه! هيا، لنذهب، ولنملأ صحوننا!"

نظر مختار بيك إلى مفتش الحزب ذي الشارب اللوزي إحسان بيك كأنه لم يعرفه. "أنملأ أطباقنا؟ ولكنني لست جائعاً!"

"تعالوا، تعالوا! ستجوعون عندما ترون. لن يبقى شيء فيما بعد... ما رايكم بهؤلاء البلغار؟"

قال مختار بيك: "أنا أعتقد أن..." وسار مع المفتش نحو البوفيه خجلاً لأنه لم يفكر في هذا الموضوع، ويُهيء نفسه مسبقاً.

"أنا أرى بأن حياد هؤلاء ليس سياسة، بل اضطراراً. فكروا، ملكهم انكليزي الهوى، وحكومتهم ألمانية الهوى، وملكتهم إيطالية الهوى، والأمة البلغارية صديقة الروس. هل تحبون الدجاج؟ ثم إن عينهم على دوبريجة ومكدونيا..."

فكر مختار بيك: "أنا لا أهتم بهذه الأمور." وشعر بأنه سيغير من معلومات إحسان بيك للحظة، ولكنه تمتم لنفسه: "وهذا منهم أيضاً! لماذا يقول لي هذا؟ أوو، شكرو سراج أوغلو يسلم علي..." حيا مختار بيك وزير الخارجية منحنياً. "كيف كانت تحيتي؟ نعم، كانت متوازنة... لا، انحنيت كثيراً. آه، ما عملي هنا؟ لا أختلف هنا عن مهرج! هذه الأطعمة... البلد جائع، وهؤلاء هنا يملأون معداتهم. وهذه النسوة المقرفات، العاريات الأذرع، البدينات... كيف يأكلن أيضاً... نساء العبيد وبناتهم... لا، لن تكون ابنتي هكذا! لأعد إلى البيت. ماذا تفعل ناظلي؟ الخادمة أيضاً ليست في البيت! كم الساعة؟ ماذا يقول هذا؟"

"إذا دعونا أتراك دوبريجة..."

في هذه الأثناء انحنى مختار بيك لآخر، وحيا بخوف غير واضح تماماً. وفكر: "أنا لا شيء بجانب هؤلاء!" وبدا جفنا الرجل الذي حياه اللذان يغطيان نصف عينيه قد تحركا قليلاً. كان هذا كريم ناجي بيك.

"هل زوجتم ابنتكم يا مختار بيك؟"

"خطبتها..."

"أعرف هذا."

قال مختار بيك: "لماذا تسألون إذا كنتم تعرفون؟" دهش بعد ذلك. تمتم: "آ، ماذا قلت أنا؟ ماذا قلت أنا! ماذا قلت لكريم بيك؟ ماذا قلت أنا؟"

قال كريم بيك: "يبدو أنكم تعانون من مرض قليلاً؟"

أراد مختار بيك أن يقول كلمات ما، واعتقد للحظة أنه قال، ولكنه انتبه أن شفتيه فقط قد تحركتا.

قال إحسان بيك: "نعم، يبدو أن مختار بيك مريض على الأغلب..." وراغب بتهدئة غضب كريم بيك. بعد أن ترك مختار بيك، وتأبط ذراعه.

نظر مختار بيك إلى الصحن الذي بيده شارداً. فكر: فخذ دجاج! كنت سآكل منه!" شعر برغبة قذف الصحن الذي بيده، ولكنه لم يستطع أن يفعل غير تركه في إحدى الزوايا بهدوء. "كنت سأتناول دجاجاً رغم كل هذا القبح هنا. أنا إنسان مسكين. فخذ دجاج..." انسحب عن الطاولة، كان يمشي. يمشي ببطء متمايلاً، ويمر وسط الواقفين على أقدامهم، المتضاحكين، والهازين برؤوسهم لكي يتحدثوا بأفواههم الممتلئة، العارفين له، وغير العارفين، والمبتسمين لإظهار المودة له. "كنت سآكل فخذ دجاج. ما أنا؟ مسكين. أجبت كريم بيك إجابة حادة. إنهم يهزؤون بي الآن. مختار بيك المسكين فقد عقله قليلاً... وابنته أيضاً لا تستطيع الزواج بأي شكل!.. ابنتي! ماذا يفعلان في البيت؟ أنا ذاهب إلى البيت. لماذا تركت ابنتي مع ذلك الرجل وحدهما في البيت؟ لم يبق لدي أخلاق. كيف لم أنتبه لهذا؟ نعم، أنا مريض. أنا مريض. كريم بيك على حق. ماذا قلت له! رفيق صايدام يضحك! رأيته في الجريدة. وكان عصمت أيضاً يضحك. لماذا تضحكون؟ ما المضحك؟ أخبرهم أكرم. أنا ذاهب إلى البيت. لم أجد سلواناً! لا أحد يستطيع أن يسليني. لدي ابنتي فقط! آه، الحياة! أنا أيضاً كان يجب علي أن أعمل مثل رفعت... كان علي أن أفعل مثلما فعل رفعت، وأدع هذه الازدواجية جانباً، وأكسب نقوداً، وأنتبه إلى متعتي. كنت سأمتلك بيتاً ريفياً في كتشي أوران. أبني موقد شمنيه فيه، وأدخن وأنا أستمع لطقطقة الحطب المشتعل..."

49
عائلة، أخلاق، وما شابهها

جلس عمر مقابل منظر البندقية، يستمع إلى صوت الشواية التي تئز في المطبخ، وقرقعة الشوكات والسكاكين التي تصدرها ناظلي. "إذا تزوجنا، سأعود مساء إلى البيت من العمل، وأنتظر الطعام مستمعاً إلى هذا الأزيز!" مضى على مجيئه إلى البيت نصف ساعة. جلس مع ناظلي بداية دون أن يتحدثا بشيء، ثم استذكرا خلاف البارحة، وتبادلا القبل، وتصالحا، ودخلت ناظلي إلى المطبخ بعد ذلك لإعداد الطعام. كان عمر يعرف أن ناظلي تفكر مثله بالشجار، وبشجار الأيام الأخرى رغم تبادلهما القبل، ويشعر أنها ذهبت إلى المطبخ لأنها تضايقت من الجلوس أمامه دون كلام.

جاءت ناظلي من المطبخ حاملة صينية، وصحوناً. جهزت المائدة. نظر عمر إلى منظر البندقية من جديد. وعندما ذهبت ناظلي إلى الداخل، فكر: "لماذا جئت إلى هنا؟ لأنني لم أعد أحتمل البقاء وحدي!" نظر إلى ناظلي من الخلف بعد أن جلبت بعض الأشياء إلى المائدة، ووضعتها. "نحن مخطوبان، ولكننا يجب أن نحمر خجلاً بسبب تبادل القبل." تذكر قبلة المصالحة قبل قليل. تمتم: "أنا سكران!" ولكنه لم يستطع منع نفسه من التفكير بأمور أخرى. "يبدو أنها نسيت أنني رجل، وأن للناس رغباتهم الجنسية. لابد أنها ترى نفسها كما تراني من الملائكة. وعندما لا ترى على هذا النحو، تتذكر بأنه يجب أن يكون لنا بيت ومفروشات!" نهض واقفاً وهو يشمئز من

أفكاره، ومن نفسه. بدأ يذرع الغرفة. فهم أن خطواته المتوترة، والصغيرة، والسريعة تقلق ناظلي. ذهبت ناظلي إلى المطبخ من جديد. انقطع أزيز الشواية بعد قليل، وجلست إلى المائدة بعد أن جلبت صحن كفتة.

قال عمر وهو يجلس: "أنا شربت بعد الظهر، هل تعرفين؟"

"أعرف، عرفت هذا من رائحة فمك!"

"ذهبت إلى بيت صميم. أي لم أذهب. عدت من وسط الزقاق."

"كيف وجدت الكفتة؟ خذ أكثر."

"آخذ قليلاً. ألن تسألي لماذا عدت من وسط الزقاق؟"

قال ناظلي دون مرح: "لماذا عدت؟"

"لأنني وجدت قبحاً لدى أسرة صميم. جو العائلة السافل هناك، رغبتهما بالتعارف إلى أناس جيدين، والدخول إلى وسط جيد، أشكال سعادتهما، ورغباتهما مقرفة..." ونظر عمر إلى وجه ناظلي التي تنظر إلى صحنه للحظة، ولم يستطع البقاء في مكانه، وقال: "أريد أن أشرب أكثر. هل يوجد من نبيذ أبيك؟ لن يعود بسرعة، أليس كذلك؟"

"فوق الصوان في المطبخ! لن يعود..."

هرع عمر، وجلب النبيذ، وفتحه.

قالت ناظلي: "أنا أيضاً أريد أن أشرب."

"ولكنه لا يواتيك، تعرفين! ستبكين!"

قالت ناظلي: "لا، أريد الآن..." وأخذت الزجاجة بحركة متوترة. "هذا يعني بأنك تفكر بأن أسرة صميم سافلة. ولكنك كنت تقول إنه شاب طيب... ماذا تقصد بعبارتك عن جو العائلة هذا؟"

شرب عمر النبيذ بسرعة، وقال: "تلك العبارة؟ عبارة جو العائلة تلك؟.. آه، كيف تشربين أنت؟ انتظري، انتظري! وهل يُشرب على هذا النحو؟"

"قل ما تعنيه بتلك العبارة..."

أراد عمر أن يبتلع تلك العبارة التي وصلت إلى رأس لسانه، ولكنه لم يستطع ضبط نفسه، فقال: "أقصد بعبارة جو العائلة عبارة مثل: كيف وجدت الكفتة؟ أريد أن أشرح أموراً أخرى!" وأراد أن يفتح موضوعاً آخر: "ماذا فعلت اليوم في البيت؟"

"لا شيء! حضرت الطعام لأن خديجة خانم في إجازة... حضرت هذه الكفتة التي تسخر منها!"

لم يرد عمر. وخيم الصمت. شربت ناظلي كأس نبيذ آخر، ولكن عمر لم يطلب منها ألا تشرب.

قال عمر بعد ذلك شاعراً بالذنب: "بماذا تفكرين؟" وندم لأنه سأل هذا.

"أفكر دائماً بالأمر نفسه!"

"ما هو؟"

"لا شيء!"

قال عمر متوتراً كأنه يريد قطع الخيط الذي يغدو رفيعاً أكثر بالتدريج، ولكنه لم ينقطع وحده بأي شكل: "لطفاً، هل تقولين لي بماذا تفكرين؟"

"بالأمر نفسه. نحن... ماذا سيحدث لنا؟"

"لن يحدث شيء! سنتزوج!" وأضاف بنبرة ساخرة: "في السادس والعشرين من نيسان.."

قالت ناظلي: "أنا لا أستطيع أن أفهمك! ماذا تريد أنت؟ إذا كنت تحبني، وتجدني مناسبة لك، فلماذا تؤجلني؟ إنك تستخف بي، أعرف هذا، ولم تعد تجد ضرورة لإخفاء هذا كما كنت تفعل في الماضي. إنك تستهين برغبتي بفرش بيت، والسكن فيه؛ وارتدائي ألبسة جيدة، والعيش مثل الناس أمثالنا في المجتمع؛ لا، ليس هذا فقط، بل تستهين بكل ما يتعلق بي! تنظر إلي ساخراً. ولكن لماذا؟ لا أستطيع فهم هذا. أفكر بأن الذنب ذنبي. أفكر بأنني قلت عبارة خاطئة، وأنني غبية، وأنني لست ذكية بقدر ذكائك، وأنني سطحية لأنني لا أستخف بما تستخف به. حسنٌ، لماذا تقابلني إذا كنتُ على هذا النحو؟ أنت تكن لي العداء، وتستخف بي، ولكنك تقابلني؟ أنت لست مضطراً لهذا... أنا خطيبتك فقط!"

قال عمر: "هل تريدين فسخ الخطوبة؟" وقال هذا لمجرد الكلام من جهة، ولاتهام ناظلي من جهة أخرى. كانت الكلمات تتراكض في عقله. أراد البدء بالسخرية، ولكنه لم يستطع عمل هذا.

صرخت ناظلي: "لا أريد، لا أريد!" وتمتمت: "أنا..." وأطرقت برأسها، ثم رفعته باعتزاز، ضاغطة على نفسها على الأغلب: "أنا أحب الرسائل التي أرسلتها لي من السكك الحديدية كثيراً. كنت تسخر من كل شيء في تلك الرسائل. كنت أستمتع بقراءة تلك الرسائل، لأنني كنت أعتقد أنني أشاركك الرأي بهذا. ولكنني الآن أرى نفسي دائماً واحدة من أولئك الناس الذين تسخر منهم."

قال عمر وكأنه تعرض لظلم، ويستخدم حقه بالتمرد محاولاً أن يبدو حاداً، ومؤمناً: " كتبت لك في تلك الرسائل أيضاً أنني أريد أن أكون فاتحاً!" ووجد نفسه مخبولاً.

"هذه العبارة! يا إلهي كم هي طفلية، وساذجة!.. أنا لا أستطيع فهم هذا. اندهش حين أرى مدى ارتباطك بهذه العبارة، وقولها بهذا الجد ، وأدين نفسي لأنني لم أستطع فهمك، ولكن ماذا أفعل؟ لا أستطيع فهمك."

قال عمر وقد شعر هذه المرة حقيقة أنه تعرض للظلم: "نعم، هذا صحيح! أنت لا تستطيعين فهمي!"

صرخت ناظلي: "كم أنت معجب بنفسك! يجب أن يكون هنالك ما تعرفه أنت، ولا علم لي به... ما هو؟ بسببه..."

قال عمر: "ذلك الذي تسمينه طموحاً!" ثم صرخ: "أنا لست معتاداً على هذه المناقشات العجيبة! ولا أستطيع تفهم الحديث حول أشياء كهذه. أريد أن أكون إنساناً ناضجاً يستطيع التحدث في كل شيء... أنا أريد أن أكون أنا. أريد أن أعيش، وأستطيع أن أسخر، وأكون الأذكى، والأقوى، وكل..." صمت فجأة، ثم قال: "نعم، أو لا! أنا قبيح... أنا لا أشبه الأتراك! أنا لا أستطيع البقاء صامتاً. أنا أفكر بنفسي دائماً. أرى كل شيء، وكل شخص أداة. أنا غريب. أعرف هذا... أنا طموح، وجبان، والآن سكران، أعرف أوربا..." نهض على قدميه، وتمتم: "العشاء... هل أنا مخبول؟ ولكنني عملت في السكك الحديدية أكثر من الجميع. هذا مقرف... سأتزوج... أريد هذا... وأخاف" دفعه الفضول لمعرفة كيف تنظر إليه ناظلي. شعر برغبة لاحتضانها، ولكنه ضحك لأنه يعرف أنه سيفكر بذلك في أثناء القيام به، ورأى أن ناظلي تنظر إليه خائفة، وأدرك أنه يريد أن ينام، فقال: "لماذا شربت كل هذا القدر!"

قالت ناظلي فجأة: "أنت لست على ما يرام. اذهب إلى فندقك، ونم!"

"لو تعرفين إلى أي حد كنت أريد البقاء معك هنا!"

قالت ناظلي: "لا تقف هكذا. تعال، واجلس!"

"ما أنا؟ كيف ترينني أنت؟ كيف أبدو للآخرين؟"

"لعلك تعلمت هناك، في أوربا التفكير بنفسك. أنت قلت لي هذا."

صرخ عمر قائلاً: "نعم، نعم! صحيح. هذا هو ما يجعلني قبيحاً! العقل! لا! أو نفسي! أعرف أن نفسي هي نفسي. أنا فقط أعرف أن نفسي هي نفسي، ولهذا السبب أغدو غريباً الآن، تحولت إلى حيوان. نعم، أنا حيوان! نعم ماذا أشبه غير الحيوان هنا وسط الناس الحيويين المتوازنين بأفكار تطفح بالسوء؟ فوق هذا أنا رب عمل... رب عمل مقرف، ماكر، ازدواجي. أيها أهم بالنسبة لك؟"

قالت ناظلي: "كفى، لطفاً! كفى، لن أسمع بعد ذلك!" وحينما حاولت تغطية وجهها، رفعت رأسها: "أبي قادم!"

لم يسمع عمر شيئاً: "هل هو قادم؟"

"نعم، إنه قادم، قادم! أعرف وقع قدميه..."

قال عمر: "إيه، حسنٌ! أنا كنت ذاهباً أساساً! كانت الكفتة جيدة جداً. أشكرك كثيراً.. ماذا سنفعل بعد الآن؟ لماذا لا أعمل أكثر، وأكسب أكثر؟ لأنني أكرههم. هل آتي غداً؟"

"كما تريد!"

سُمع مختار بيك يغلق الباب الخارجي، ويصعد الدرج.

"إنه قادم! أعرف أن أباك يكرهني. الجميع يكرهونني. إنهم على حق... لأنني رب عمل من جهة، و..."

فُتح الباب. وسعل مختار بيك. وبدأ بعد ذلك يخلع معطفه على الأغلب.

نادت ناظلي: "أهذا أنت يا أبي؟"

قال مختار بيك: "أنا، أنا!"

"ماذا حدث؟"

رداً على هذا سمعت حركة سحب النعل البيتي لمختار بيك بداية، ثم ظهر بنفسه.

مازال عمر واقفاً على قدميه. وعندما رأى وجه مختار بيك الغاضب، قال: "كنا نتناول الطعام!" وارتبك قليلاً. "أهلاً بكم!"

قال مختار بيك: "إنكما تشربان المشروب ها؟"

قالت ناظلي: "أخذنا زجاجة من زجاجاتك من فوق الصوان." ولسبب ما نهضت أيضاً.

تمتم مختار بيك: "الصوان، زجاجتي..." ثم قلق حين رأى ابنته قادمة نحوه.

قالت ناظلي: "ماذا حدث لك يا بابا؟"

تمتم مختار بيك: "لست على ما يرام، لست على ما يرام!" ثم قال لنفسه: "الصوان... نبيذ ها..." وصرخ فجأة: "أيها شاب، أيها شاب، أنا أمنعك من الجلوس مع فتاة عازبة في بيت وأنت تشرب المشروب إلى هذه الساعة!"

"كيف؟"

"أمنعك، هل تفهم؟"

"ماذا يحدث يا بابا؟"

قال عمر: "أنا كنت ذاهباً أساساً يا سيدي!"

"لا، لا تذهب! أريد أن أتحدث إليك!" وأمسك مختار بيك ابنته بين ذراعيه. "ماذا حدث لك هكذا؟ شربت! والآن تبكين. ادخلي، ونامي لطفاً!"

قالت ناظلي: "لطفاً يا بابا!" وبدأت تبكي دون أن تخفي شيئاً.

"هذا قبيح جداً! هذا قبيح جداً! ادخلي الآن، ونامي. لم ينهْر مختار بيك بعد. إنه يعرف ما هي الأخلاق. لم أنحرف ولله الشكر. ادخلي، ونامي، وإلا سأكسر بخاطرك كأب للمرة الأولى..."

خرجت ناظلي من الغرفة باكية.

قال عمر: "أنا أيضاً أريد أن ذهب إن أردتم!" ولكنه جلس بعد أن نظر إلى وجه مختار بيك.

قال مختار بيك: "لا، لا! اجلس! أنا لا أغضب منك. الآن أنا غير غاضب منك. اجلس قليلاً. لدي كلمتان أقولهما لك، ثم تذهب. لأقل لك هذا: بقاء ابنتي وحدها في البيت مع رجل قبل زواجها حتى منتصف الليل، حسنٌ، حتى الساعة التاسعة، مع تعاطي المشروب، أمر غير لائق بحسب القواعد المعهودة. والمذنب الأول في هذا الأمر هو أنا! نعم، أنا أهمل ابنتي، أو أعتبر نفسي مذنباً لعدم رؤيتي ما يحدث تحت أنفي بسبب انشغالي بهمومي الذاتية. نعم، لهذا لا أغضب منك. ولكنني أراك مذنباً أيضاً. أعرف أنكم، أنك خطيبها، وستتزوجان قريباً، ولكنني رغم هذا لا أجد تصرفك صحيحاً، وأعتبرك مذنباً." وأشار نحو الباب: "وهي مذنبة طبعاً، ولكنها فتاة مهما يكن!"

لم يخجل عمر أبداً، ولم يشعر بالذنب، وكان يسيطر عليه شعور سيطر عليه منذ صغره في أوضاع كهذه، وهو شعور بأنه على حق، وإنه متفوق في أثناء استماعه إلى مختار بيك. واتخذ موقفاً كأنه يمنح مختار بيك شيئاً ما، وقال: "معكم حق!"

قال مختار بيك: "أنا على حق ياه... أنا على حق. أنت أيضا ترى هذا، ولكن ماذا حدث حتى رأيته؟" وأشرق وجهه بإعطاء عمر الحق له. "أنا على حق... قلت لي هذا يا ابني. سررت! لأنني متضايق جداً. سأخبرك بأمور أخرى، ولكنني سأتحدث عن نفسي بداية. ذهبت إلى أنقرة بالاس اليوم. دعيت من أجل كوسة إيفانوف. تعرف، أليس كذلك؟ ومن وسط حفلة اللهو تلك، أو الوليمة، أو الاجتماع، ليكن ما يكن، خرجت لا مبالياً بأحد، وجئت. خرجت من هناك، لأن كل شيء بدا لي قبيحاً. كل شيء بدا لي بائساً، وسافلاً، وقبيحاً. فهمت أنني على وشك أن أكون إنساناً عديم الأخلاق.

قال عمر كأنه يمنحه شيئاً ما: "أرجوكم!"

ولكن مختار بيك بدا أنه لم يسمعه. وقال مرة أخرى: "فهمت أنني على وشك أن أكون إنساناً عديم الأخلاق. كنت على وشك الإيمان بأن حياتي كلها سافلة، ومليئة بالازدواجية. ناضلت لسنوات طويلة في سبيل عقيدتي. كانت لدي عقيدتي عندما كنت في الشؤون الإدارية، وعندما كنت قائم

مقام، ومحافظاً، وفعلت ما اعتقدت أنه صحيح بجراة، ولم ألوث شرفي، وحميت كرامتي، أو آمنت بأنني فعلت هذا. ولكن الآن... الآن أشعر بأنني زوج مخبول مخدوع، وتُرك مخدوعاً، نعم، متروك. أنا إنسان حزين! هل تفهم هذا؟

هز عمر رأسه دون أن يقول شيئاً.

ظهر على وجه مختار بيك الندم فجأة. كأنه كان يفكر: "لماذا قلت هذا؟ لم يكن ثمة ضرورة لقول هذه الأمور لهذا الشخص!" ثم يغضب. وتأجج غضبه تدريجياً وهو يقول بلهجة مؤنبة كأنه يتحدث عن عمر، وليس عن نفسه: "فهمت أنني سأستخدم عقلي، وإرادتي فقط لأنقذ نفسي من أن أكون إنساناً عديم الأخلاق. فكرت بهذا في طريق العودة، واتخذت هذا القرار، حتى ولو كان متأخراً. لن أعتمد على غير حدسي في موضوع الأخلاق، لا، ليس في هذا الموضوع فقط، بل في تنظيم حياتي كلها، وتصرفاتي أيضاً. متى أفلت رأس الخيط؟ لا أدري! أين هو الخط الفاصل بين الأخلاق، وعدم الأخلاق؟ لا أعرف! ما أعرفه أنني وجدت نفسي اليوم في وضع قبيح، انتبهت لهذا بحدسي. ما هي الأخلاق؟ لا أثق بأي شيء." قال هذا بغضب متزايد تدريجاً، وبصوت تزداد حدته. وبدا بعد ذلك فجأة أنه يهدأ. "سأعتني بنفسي، وليس بمحيطي. انتظرت موقعاً رفيعاً، لم يحدث. وجدت نفسي، وعقلي. وفهمت أن ابنتي هي كل ما أملكه. إنك تفهمني. لعلك تضحك بداخلك، ولكنني أبلغك الآن قراري، وما أعتبره صحيحاً، وضرورياً. يا ابني، لا تأت إلى بيتنا، وترى ابنتنا حتى تتزوج. رأيت ما يجب أن تراه. لديك شهر، ثم ستتزوج. بعد الآن لا ترها، ولن تراها..." انفعل فجأة على الأغلب. "لن تراها. هذا هو قراري. وسأتخذ التدابير كلها لتنفيذ هذا..."

قال عمر: "أنا أيضاً أفكر بالأمر نفسه يا سيدي!" ونهض.

نهض مختار بيك أيضاً، وقال: "حسنٌ، جميل جداً. هذا يعني أنك تفكر بالأمر نفسه أيضاً!" ولعب بأزرار سترته بشكل متوتر. "إذا كان هذا قرارك، فلماذا انتظرت حتى الآن؟"

قال عمر معجباً بنفسه، ويكاد يكون مباهياً بكلامه: "الآن قررت هذا يا سيدي!"

قال مختار بيك: "يا شاب، أنت تعرف هذا، ولكنك لم تعجبني أبداً."

"نعم، أعرف."

خيم جمود. وتبادلا النظر.

قال مختار بيك: "اعذرني، تصرفت معك بسوء، ولكن هذا ما خرج من قلبي." وذهبت يده إلى زر سترته. أنا نادم لما قلته لك قبل قليل. لماذا أفرغت ما بداخلي؟ لم أفهم شيئاً!"

قال عمر: "أنا سكران."

صمت مختار بيك فترة. ثم تمتم بصوت شبه باك: "شربت مع ابنتي حتى منتصف الليل. وأبكيتها. كم مرة أبكيتها."

قال عمر: "نعم، نعم! فعلت هذا! أعرف أنني لست صهراً يفاخر به كثيراً." ومشى نحو الباب. "أستودعكم الله يا سيدي!"

"هيا لنر، مع السلامة!"

فجأة فتح باب الدهليز، وظهرت ناظلي، وصرخت: "ماذا يحدث، ماذا يحدث؟"

قال مختار بيك: "لم يحدث شيء! إنه ذاهب!"

قال عمر: "قررت ألا أراك حتى الزواج!" قال هذا كأنه يلقي اللوم على نفسه فقط، ولكن إحساساً كهذا لم يكن في داخله.

قال مختار بيك وهو ينظر إلى ابنته: "قررنا هذا معاً!" والتفت إلى عمر: "هكذا، أليس كذلك يا شاب؟"

قال عمر: "نعم، طبعاً، طبعاً."

أطلقت ناظلي صرخة: "لماذا! انتظر. مستحيل!"

نزل عمر الدرج على رؤوس أصابعه كأنه يخشى أن يكسر شيئاً، وخرج إلى الليل.

50

في اسطنبول مرة أخرى

نهض رفيق قبل نهاية المباراة بدقيقة أو دقيقتين لكي لا يتأخر للزحام، ومشى على طول جدار ثكنة المدفعية الطويل التي تستخدم ملعباً لكرة القدم، وأثناء خروجه من النفق المفتوح على ساحة التقسيم، سمع أحدهم يناديه:

"واخ، رفيق! رفيق!"

التفت، ونظر، فابتسم: كان نور الدين زميله من كلية الهندسة. وهو أيضاً ابتسم لرفيق. تعانقا.

قال نور الدين: "سيئة، أليس كذلك؟ كان صراع عميان بكل معنى الكلمة!"

قال رفيق: "هذا كل ما يمكن عمله في الطين!"

قال نور الدين: "والله لم يعد له طعم. لشدة ضرب أحدهم الآخر لم يستطيعوا ضرب الكرة. لن آتي بعد الآن." وضحك من نفسه. "أنا أقول هذا، ولكنني آتي. لدى فنار مباراة أخرى في الأسبوع القادم. ولكنك لا تظهر في الميدان..."

"نعم..."

قال نور الدين: "حقاً، طبعاً، طبعاً! رأيت محي الدين، وأخبرني: ذهبت إلى أرزنجان. متى عدت؟"

"مضى وقت طويل. جئت في تشرين الأول. مضت أربعة أشهر..."

"إيه، ماذا فعلت هناك؟ هل كنت في السكك الحديدية؟"

"كنت في السكك الحديدية، وشاهدت البلد!"

قال نور الدين: "يا، ما أجمل هذا!" وتنهد. "لو أنني أستطيع إيجاد مثل هذه الفرصة. كان عمل السكك الحديدية هذا فرصة جيدة. الجميع ذهبوا، وشاهدوا، وكسبوا. وأنا هنا علقت ثيابي في مسنن، ولا أستطيع التملص بأي شكل."

كان الخارجون من الباب يتزايدون. أحدهم صدم رفيقاً. انبعث صخب من باحة الثكنة.

قال نور الدين: "انتهت على الأغلب!" وأمسك رفيقاً من ذراعه. "قبل أن أذهب إلى البيت، سأ..." وأغلق قبضته، وأخرج سبابته، وقربها من فمه، وكأنه مصها، ثم أخرجها. "تعال أنت أيضاً!"

"سأذهب إلى نادي التنس!"

نزل نور الدين بقبضته التي كورها قبل قليل على كتف رفيق بقوة ذكرته بأيام الكلية عندما كانوا يلعبون كرة القدم: "أنت تذهب إلى نادي المائعين ذاك ها؟" قال هذا بمرح لمعرفته أنه لن يزعج رفيقاً.

خجل رفيق، وقطب وجهه بمعنى: "ماذا نفعل يا أخي!"

قال نور الدين: "يعني أنك لن تأتي. عندما نشرب ندفئ داخلنا، ونستمتع!" وعندما رأى على وجه رفيق التعبير نفسه، قال: "حسنٌ، حسنٌ... اذهب إلى أولئك المائعين... ها، حقاً، كيف حال عمر؟"

"سيتزوج على ما أعتقد..."

"حقاً؟ قل إنني بقيت وحيداً..." دخل بينهما عدة أشخاص من الزحام المتفرق. "هيا، مع السلامة. في الأسبوع القادم هنالك مباراة بين فنار وغونش. أنا في جهة المقبرة، وراء الهدف!"

ابتسم رفيق. وبعد أن ضاع نور الدين وسط الزحام، سار على طول سكة الترامواي قليلاً، واشترى تذكرة، ودخل إلى حديقة تقسيم. ولأن الوقت بعد ظهر يوم الأحد فإن الحديقة لم تكن خاوية وصامتة مثلما هي في الأيام الأخرى، ولكنها تفوح بالرائحة على عادتها. كان يتناهى هدير الزحام المتفرق من بعيد. وفكر رفيق: "كانت مباراة سيئة. دخلت الكرة في النهاية إلى أحد الهدفين مرة واحدة. أنا تفرجت. واستنشقت هواء نظيفاً كما أردت، وبردت!" عندما رأى البناء الخشبي المستخدم مقصفاً ونادياً للتنس، تمتم قائلاً: "نعم، استنشقت الهواء قليلاً. والآن نعود كلنا إلى البيت. ونجلس في البيت دافئين!" جاء إلى هنا عثمان ونرمين وبريهان بعد الغداء بقليل، وظلوا هم في النادي، بينما ذهب رفيق إلى المباراة. ولأنهم قرروا العودة معاً فهو مضطر للتعريج على النادي الذي كان يقصده كثيراً في زمن ما. دخل رفيق من باب البناء الخشبي متذكراً كلمات نور الدين عن النادي، وصعد الدرج على عجل، وحين رأى مقبض باب النادي المكسور وغير المستبدل، وابتسامة النادل غير متبدلة أبداً، ونظام النادي الداخلي تحت الزجاج المكسور وسط الإطار نفسه منذ سنوات طويلة راوده شعور بالحزن، ولكن هذا الشعور لم يسيطر عليه. عبر من أمام الغرف التي يُلعب فيها الورق، وتُدخن السجائر، من دون توقف، ورأى نرمين وعثمان حيث توقع أن يراهما. بعد أن حيا الذين في الغرفة، جلس إلى جانب بريهان التي تحتسي الشاي. وطلب من النادل المتعب شاياً بصمت، وأصغى للحديث مرحاً لأنه لم يقطعه.

كان يجلس مقابل عثمان مكرمين بيك رئيس النادي. كان بروفسوراً في الطب، وقد انتخب رئيساً للنادي لعلاقته بالمجتمع الراقي والحكومة أكثر من علاقته بالتنس. لم تكن علاقته بالرياضة تتعدى كتابته مقالات في الجرائد أحياناً حول صحة الرياضيين. كان يتحدث لشاربي الشاي والمشروب مقابله عن المخاطر المحيقة بالنادي: أراد المحافظ الجديد هدم

النادي، وهو يقول لهم بأنه سيعطيهم مقسماً صغيراً في مقبرة صورب أغوب التي في الطرف المقابل. ومن المشكوك فيه أنه سيعطيهم إياها. وغير هذا، يقول رئيس النادي إن المحافظ يرى أن النادي يُستخدم مركزاً للعب القمار أكثر مما هو مركز رياضي، وبهذا يهين أعضاء النادي جميعاً. كان من بينهم من يرى ضرورة التصرف باعتدال، ومنهم من يرى ضرورة إلى إرسال رسالة لرئيس الحكومة، والدفاع عن التنس التركي. بدت حرارة النقاش كما لو أنها سترتفع في إحدى اللحظات، ولكن أحدهم أطلق ممازحة، وتضاحكوا. وعندما قالت إحدى السيدات إنه من غير المناسب لعب التنس في المقبرة القديمة تلطف الجو، وخيم الصمت فجأة. في تلك الأثناء سمع رفيق تاجر الحديد حمدي زميل عثمان في مدرسة غلاطة سراي الجالس في الزاوية، وكان ينظر إليه بين حين وآخر يناديه: "يا هذا، رفيق! ماذا فعلت أنت؟ ذهبت إلى كماه؟"

انتبه رفيق إلى أن الجميع قد سمعه لأن كلامه صادف أن انطلق مع فترة من الصمت، فقال: "نعم!"

"إيه، ماذا فعلت هناك؟"

"لا شيء!"

"قيل إنك كتبت كتاباً أيضاً؟.. نشرته الوزارة!"

فكر رفيق أن الجالسين يستمعون لما يقال، فرغب بأن يتخذ موقفاً مريحاً، وغير محرج، ولكنه انتبه إلى نفسه بأنه يتخذ موقف الأخ الصغير أمام عثمان، فقال: "نعم! نشر."

قال حمدي: "هذا يعني أنك صرت الآن كاتباً" وضغط على كلمة كاتب، وأضاف: "إنك تكتب..." ونظر إلى يمينه وإلى يساره كأنه وجد ما يثير الاهتمام. "ماذا تكتب؟ حول مشاكل البلد طبعاً، أليس كذلك؟"

ولكي لا يسمع رفيق كلمة "كاتب" مرة أخرى، ولكي يرد، قال: "حول مشاكل قرانا."

كرر حمدي: "مشاكل قرانا..." وتلفت فيما حوله، كأنه يدعو الجميع للانتباه إلى رفيق. ثم قال: "هل يمكنكم أن تعطوني نسخة من كتابكم لو سمحتم؟" وأضاف: "طبعاً موقعة. لأنني أيضاً..."

في هذه الأثناء، امتد رأس من الباب، وسأل: "هل هنالك من يعرف نتيجة المباراة؟"

لم يفوت رفيق الفرصة، فقال: "فنار غلب بواحد!"

"هكذا إذاً؟ من سجل الهدف؟"

"يشار!"

قال حمدي: "أوه، أين أنت يا عزيزي واصف، إنك لا تظهر، لماذا لم تعرج البارحة؟" ونهض واقفاً.

عاد الحديث مجدداً حول مستقبل النادي من حيث توقف، ولكن هذه المرة على شكل حديث أكثر مرحاً وليونة شارك فيه الجميع بالممازحة. وهدأت المرأة التي تقول إنه من غير المناسب لعب التنس فوق المقبرة القديمة، وقالت إن المقسم الذي في الزاوية غير مغطى بالقبور، بل ببقايا كنيسة قديمة. في هذه الأثناء كان كل من يدخل إلى النادي يعرج على هذه الغرفة الكبيرة، ثم يخرج. شخص ضخم البنية خرج من إحدى الغرف الداخلية يستأذن زوجته بلعب "لعبة واحدة فقط"، وعندما أشارت إلى ساعتها بغضب، نهض عثمان. وكانت هذه إشارة لنرمين، وبريهان، ورفيق. وبعد أن انتظروا عثمان وهو يتحدث عدة جمل مع رئيس النادي، خرجوا، ونزلوا إلى الحديقة عبر الدرج. كان الجو بارداً وغائماً في الخارج مثلما كان. تأبطت بريهان ذراع رفيق.

في أثناء سيرهم باتجاه السيارة المتروكة بجوار جدار المقبرة، اقترب عثمان من رفيق: "أبلغني مكرمين بيك بأنك لم تدفع اشتراكك الشهري منذ أشهر. طلبه مني، ولكنني لم أرغب بدفعه مكانك."

"نعم."

"النادي في وضع حرج، أنت أيضاً تعرف هذا. سيكون جيداً إذا دفعت."

"نعم."

"ترى لو دفعت عنك؟"

"لا أدري."

قال عثمان: "ماذا تعني بقولك لا أدري؟" وتوقف أمام باب السيارة، ولم يجد مفتاح السيارة الذي كان يخرجه بسرعة من جيبه دائماً. نظر إلى رفيق غاضباً، وقال: إيه، أين هذا المفتاح؟" رغم أن جيوبه كانت دائماً مرتبة كما هي حياته اليومية، وهو يباهي بتذكره كل شيء، أين وضعه. كان يبحث في جيوبه، ويقول وهو ينظر إلى رفيق: "أين هذا؟" كانت عيناه تقولان: "أي شخص أنت يا رفيق؟ ماذا تعتقد نفسك؟ أين أنت؟ متى ستصحو إلى نفسك؟ متى ستكون مثلنا جميعاً؟ انظر أنا لا أجد حتى المفتاح بسببك..." وفي النهاية وجد المفتاح.

هرب رفيق بعينيه من وجه عثمان، واتخذ موقف الأخ الأصغر الفاشل، والساذج، وغير المبالي من جديد، ونظر إلى السماء. كانت هنالك مجموعة غيوم كبيرة تقترب من مجموعة غيوم صغيرة تتقدمها قليلاً... تمتم قائلاً: "الاشتراك الشهري... نعم، يجب اتخاذ قرار... كأن تلك الغيوم كانت تنتظر الأخرى... الاشتراك الشهري... أنا سأموت. سنموت كلنا. هم يريدون مني أن أدفع الاشتراك الشهري... إنهم على حق... ولكنني يمكن أن أفكر بهذا فيما بعد. ليفعل عثمان ما يفعله... الغيوم تتبع بعضها بعضاً. لماذا أغضب من أجل أمر صغير كهذا؟.. ذهبت اليوم إلى مباراة كرة القدم. فنار واحد، ووفا صفر. وها نحن الآن نعود إلى البيت. عثمان يغضب مني لأنني لم أصبح كما أراد... أنه على حق... ولكننا سنموت كلنا!"

فتح عثمان أبواب السيارة بوجه غاضب بدا أنه لن يمرح بسهولة. دور المحرك دون انتظار جلوس الآخرين. لم يبال للمازحات التي أطلقتها نرمين لتهدئته. وقبل انتظار تسخين السيارة الكرزية الداكنة انطلق بها من الطريق المرصوف بالحجارة نحو نيشان طاش.

لم يكن يسمع غير هدير المحرك. كان رفيق جالساً في الخلف، مندساً بالنافذة، محني الرأس. كان ينظر إلى المشاهد، والأبنية، والجدران، والأشجار، والمواقف غير المتغيرة في محيط طريق الترامووي الذي يمر منه كل يوم منذ أيام كلية الهندسة. "ذهبت إلى المباراة. ونحن الآن عائدون إلى البيت. إنه بعد ظهر يوم الأحد. التاسع عشر من آذار، عام 1939. وغداً سأذهب إلى المكتب كما أفعل دائماً. الأولاد يتعلقون بمؤخرات الترامووايات... أمي في البيت مصابة بالأنفلونزا... الجو بارد... سأشرب شاياً في البيت، وأجلس في الأسفل قليلاً، ثم أصعد إلى الأعلى. لنتحدث... مع بريهان؟.. ماذا؟.. لماذا لا نتكلم الآن؟.. لدى عثمان خليلة، ونرمين لا تعرف هذا... هل تعرف؟ لدى نرمين علاقة برجل... لم أخبر عثمان بهذا!.. سنموت كلنا... ماذا ينتظر ذلك الرجل هناك؟.. المقابر، وشواهد القبور، والمسيحيون... الهر رودولف... ماذا أكتب له؟ هولدرلين. كم الساعة؟ الخامسة والنصف. لابد أن أمي قد قلقت. ماذا تفعل ملك؟ سيتحسن كل شيء... ستدخل حياتي كلها في نظام معين. سأجد ما يجب علي أن أفعله... الاشتراك الشهري؟ سأكتشف كيف يجب أن تعاش الحياة... بعد ذلك، ولكن بعد ذلك... نعم، بعد أن أنهيت الدراسة الكبرى تلك، مشروعي الكبير، ستنتظم حياتي كلها. ماذا أفعل الآن؟ أنتظر، أنظر من النافذة. أنا داخل السيارة لا أتكلم أبداً. ولكننا -بريهان وأنا - نتكلم في غرفتنا. مضى شهر على عودتي من أنقرة... بريهان لا تغضب مني... الكتب... إنا أعيش..."

51
سفر

نهض عمر من السرير فور استيقاظه، ورغم نومه بالسترة وربطة العنق، فقد شعر أنه نشيط، ومرح كأنه ارتدى ألبسته تواً، غسل وجهه بالماء البارد. وبدأ يمشي في غرفة الفندق بخطوات حثيثة. نظر إلى ساعته: الخامسة والنصف. فكر: "بعد ظهر يوم الأحد... لماذا لا أذهب اليوم؟ ولكن يمكن أن يكون قد اتصل هاتفياً!" لم يرن جرس الهاتف في غرفته، ولكنه رغم هذا نزل إلى الأسفل، وسأل الشاب عما إذا كان قد اتصل به أحد. صعد إلى غرفته من جديد عندما علم أن أحداً لم يتصل به، وشعر بأن قوة الحيوية ذاتها تدفعه إلى الحركة، فالتقط حقيبته على عجل. نزل إلى الأسفل، قال للشاب إنه سيذهب إلى كماه فترة، ويريد تسديد الحساب. خرج من الداخل إداري أكبر منه سناً، واقترب منه، وسأل عمر عن المكان الذي يقصده، وموعد عودته لأنهم يريدون الإبقاء على غرفته فارغة. أخبره عمر بأنه سيذهب إلى الورشة التي عمل لكي يبيع ما تبقى عنده من أدوات وآلات مع اقتراب الموسم الجديد، وأنه سيعود بعد فترة قصيرة. ثم دفع الحساب، واستأجر سيارة أجرة، وذهب إلى المحطة. كان قد سأل صباحاً عن موعد انطلاق القطار، وعلم أنه سينطلق في السابعة. وبعد أن قطع التذكرة، ذهب إلى مطعم بناء المحطة الجديد، وجلس من أجل أن يملأ بطنه. طلب من النادل طبقاً من فتائل لحم العجل.

تناول على طعام الغداء فتائل لحم أيضاً، ولاعتقاده أن هذه الفتائل نعمة، تتوج صباحه الجميل هذا كله، فقد طلبها مرة أخرى. عاد إلى الفندق بعد خروجه من بيت مختار بيك، وقرر أن يترك المشروب، نام واستيقظ. وبعد أن استيقظ من نوم عميق، شعر بنفسه حيوياً كما يشعر الآن، وارتدى ثيابه، وربط ربطة عنقه، وقرر أن يعتذر كما يفعل الجميع في أوقات كهذه، وانطلق في طريق بيت مختار بيك. كان الجو جميلاً في ذلك الصباح إلى حد أنه قرر عدم الذهاب إلى يني شهير بسيارة أجرة بل سيراً على الأقدام. كانت الشمس غير محتجبة خلف أي غيمة، والسماء نظيفة. ولأن الثلج قد ندف ليلاً أيضاً، فقد تراكم على الأغصان، والجدران، والأسطح. كانت الشوارع فارغة لأنه صباح يوم الأحد. ومع سير عمر كان يزداد مرحه. وبدأ التفكير بطريقة اعتذاره من مختار بيك، ومع استمراره بالتفكير وجد تصرفه طبيعياً، وليس خطأ معيناً، أو تصرفاً يفرض اعتذاراً، لهذا فإن الاعتذار هراء. ومع إيمانه بهذا، انتابه الشعور الذي سيطر عليه البارحة في أثناء حديثه مع مختار بيك، وهو الشعور بأنه على حق دائماً. كان هذا الشعور هو الذي كان يسيطر عليه في طفولته، ويفاعته نفسه: ذكي، وسيم، وراجح العقل، وهو على حق لأن الجميع يحبونه دون انتظار شيء منه. وفوق هذا فإنه يجد نفسه محقاً ليس لأنه ذكي، ووسيم وغني فقط، بل لأن الشمس تلمع على الأغصان الثلجية، والنهار جميل إلى هذا الحد ليتمكن من الخروج في هذا المشوار. بعد عبوره ساحة الهلال الأحمر، وانعطافه نحو الأزقة الفرعية، واقترابه من البيت، سيطر عليه شعور بالخوف من أن تُلوّث المتعة التي استمدها من ربطة العنق التي يربطها، والسترة التي يرتديها، وهذه الشمس الساطعة واللامعة، والمسير في هذا البرد، وكونه صحيح الجسم خلال اعتذاره داخل البيت، أو تقديم النائب النصح له كما يتوقع، ولكنه قرر حين كان على طرف مقسم يلعب فيه الأولاد بكرات الثلج أن يعود، ويتصل بناظلي هاتفياً من الفندق. سار بعد ذلك نحو أولص مستمتعاً بالأمور نفسها. وقرر أن ناظلي هي من يجب أن يتصل، وليس هو، ودخل إلى صالة الفندق. وهناك تناول شريحة لحم أفضل من تلك التي وضعت أمامه تواً، وأقل دماً، وفكر بأنه الوقت المناسب بالضبط للذهاب إلى كماه.

تناول عمر شريحة اللحم وهو يشعر من جديد بأنه حيوي، صحيح الجسم، وخرج من المطعم، وفكر بما إن كان سيتصل بناظلي أم لا، ولكنه تراجع عن ذلك بعد تفكيره باحتمال أن مختار بيك قد يفتح الهاتف اشترى جرائد اليوم كلها، ومجلات الأسبوع، والعائلة من بائع الجرائد لكي يتمكن من القراءة في القطار. وبعد انطلاق القطار، بدأ بقراءتها في مقصورته الفارغة براحة ضمير، ودون أن يجد أي جانب مخبول فيها. شعر بعد ذلك من جديد بأن نوماً عميقاً وطافحاً بالطمأنينة قد اقترب، فمد رجليه، وأمال برأسه قليلاً، وأرخى نفسه.

كانت الشمس قد أشرقت عندما استيقظ، وكانت أشعتها تسقط فوقه عبر حافة النافذة. تثاءب عمر، وتمطى. وابتسم للمسن الذي دخل المقصورة فيما كان نائماً، ثم نظر إلى الخارج عبر النافذة. رأى النهر الممتد على طول سكة الحديد يتدفق بعكس اتجاه القطار، وعرف أنه ليس نهر تشاطلي، بل وادي قرة صو، وأنه قد اقترب من كماه. وبعد أن دخلوا نفقاً طويلاً، وخرجوا منه، رأى منحدراً صخرياً حاداً مرتفعاً، انسل من سكرة النوم، وتمتم: "البارحة كنت في أنقرة، واليوم هنا!" كلما تدفقت الأراضي من أمامه في سفرة القطار، سيطر عليه شعور يتأجج في داخله بأنه يجب أن يعيش حياته بكل تفاصيلها، وأن هذا أمر طويل، ومعقد، وغني شاعراً بأنه حيوي من جديد. التفت بعد ذلك إلى المسن المتململ من أجل فتح باب حديث، وابتسم.

قال المسن الذي يبدو من هندامه أنه موظف: "نمت طوال الطريق ما شاء الله!"

نظر عمر إلى ساعته: "نمت ما يقارب الإحدى عشرة ساعة!"

هز المسن رأسه وقال: "طوال الليل!" كأنه يريد أن يعبر عن عدم ثقته بالآلات، ثم أضاف: "أنا لم أستطع النوم. أنا جلست طوال الليل هكذا، وتفرجت عليك، وفكرت." وبدأ يتحدث عن سبب ذهابه إلى أنقرة، فهو يعمل في دائرة السجل العقاري في إرزنجان، وإن سكة الحديد هذه التي يرون أفضالها، سيكون لها مساوئها بقدر هذه الأفضال، وأنه تعاين عند الطبيب في أثناء زيارته لأنقرة بسبب ألم يعاني منه، ولكنه لم يفعل غير كتابة

وصفة دواء. وعندما علم أن عمر يعمل في السكك الحديدية امتدح شبابه، وأشار إلى الحلقة التي بإصبعه، وقال إنه كان خاطباً في يوم ما أيضاً.

عندما أشار المسن إلى الحلقة التي بإصبعه تذكر عمر ناظلي، ولكنه لم ينزعج. فكر: "البارحة كنت هناك، واليوم أنا هنا!" واتخذ موقف المبتسم المتسامح إزاء المسن وهو يصغي إليه، كأنه يريد أن لا يعكر هذا الذهن الشاب بأفكار سيئة. استمع لرؤى الموظف حول سكة الحديد، والزمن، وتقدم البلد، وشكواه التي لا تشبه رؤى وانتقادات الموظفين موافقاً له كأنه لا يريد أن يعارض أي شيء في هذا الصباح الجميل. تثاءب عدة مرات براحة، مثل الناس الذين لا هم لهم، ولا متاعب، مصحوبة في نهايتها بأنين. كان القطار يدخل كثيراً في الأنفاق الطويلة، ويمر بجانب النهر مرة من هذا الطرف، وأخرى من ذاك فوق الجسور، وكان المسن يصمت عند دخول القطار في أي نفق، ويتابع حديثه بعد الخروج من النفق. وعندما لا يهتم به عمر، يتمتم قائلاً لنفسه: "نعم، ها هي الطبيعة... قمم ثلجية، وصخور... حسنٌ أنني أتيت... حسنٌ أن هناك ما يمكن بيعه!"

حين توقف القطار في محطة كماه التف حوله أولاد وفضوليون. نظر عمر إلى البيوت المتطاولة ذات الواجهات البيضاء، والمتكئة إلى الجبل. وفكر: "يا لجمودها!" صرخ ولد، وأطلق صفارة، ثم بدأ المسن بالشرح من جديد بعد تحرك القطار. التقط عمر حقيبته بعد حركة القطار بعشرين دقيقة، تبادل الوداع مع المسن، ووقف أمام باب المقطورة، وانتظر. فيما كان يهتز وسط الرابط الأكروديوني بين المقطورتين، فكر: "البارحة كنت في أنقرة، واليوم هنا!" ثم غضب من عدم توقف القطار، وتمتم: "كنت في أنقرة، في اسطنبول، في انكلترا، كنت أعيش، وأرى..." وتململ: "أنا غني، وطموح... نعم؟ فاتح! اسطنبول!.. ها هو، ها هو! إنه يتوقف!"

لعدم وجود من يصعد إلى القطار، أو ينزل منه، فقد انتابه شعور بأن القطار وقف في المحطة من أجله عندما لامست قدماه الأرض. فيما توجه نحو بناء المحطة، غاب القطار وراء المنعطف، أدرك أنه لا يوجد غير الصمت في هذا المنبسط المغطى بالثلج، والمحصور بين جبلين. لم يكن ثمة أحد أيضاً في غرفة موظفي المحطة. والمكان المسمى غرفة الانتظار كان فارغاً

أيضاً. بعد خروجه من البناء، ودورانه حوله رأى دجاجة، ثم دجاجات أخرى، وقناً، وغسيلاً معلقاً بين الأشجار، وسلة غسيل. توقف، ونظر إلى المشهد بإعجاب. كان الغسيل الملون بين الأغصان المغطاة بالثلج معلقاً دون أي حركة لعدم هبوب أي نسمة. فكر عمر: "ما أجمل هذا، يا لواقعيته! ما أجمل هذا، إنني أعيش، وأرى!" ولحظة أراد أن ينعطف، فُتح باب خلفي يؤدي إلى أمكنة إقامة الموظفين المؤقتة، وخرجت امرأة. دهشت عندما رأت عمر، وامتدت يدها نحو غطاء رأسها تلقائياً، ولكنه لم يكن ثمة غطاء على رأسها. فكر عمر: "نعم، هذه حقيقة أكثر من كل شيء!" وضحك. كأن محيطه ينظم من أجله لكي يستمتع بالحياة بطعم لم يتذوقه أحد، ويفعل أمر ما من أجل ألا يتضايق، وألا يتعكر صفوه، وهكذا لا يبقى أمام عمر إلا أن يعيش من أجل الاستمتاع بالأشياء المقدمة له.

عندما انعطف من جديد نحو السكة الحديدية، رأى موظف الحركة ينعطف من جانب مقصات التحويل. فعرف بنفسه للموظف، وقال له إن لديه هنا عند البراكات آلات وأدوات. وسأل عن الحاج الذي يعمل حارساً للمستودعات، وكان يأمل أن يجد له مكاناً ينام فيه الليلة.

عندما تذكر موظف الحركة الحاج، ابتسم، وقال: "إنه يعرج على المكان هنا! ولكنني يمكن أن أرسل له خبراً مع ولد إن أردت! اجلس هنا!"

جلس عمر. كانت صورة أتاتورك، وعصمت باشا معلقتين على الجدار.

خرج الموظف إلى مكان ما، ثم عاد، وقال: "أرسلت الولد، وهز برأسه لعمر الذي يتمطى براحة. "هل تلعب الطاولة حتى يعود الولد؟ نمضي الوقت..."

"طبعاً، لم لا؟"

أخرج الموظف طاولة من إحدى الزوايا. وجلسا إلى اللعب.

52
فيما يبحث حتى الآن

كان رفيق جالساً وراء الطاولة في غرفة المكتب.

فُتح الباب. وامتد رأس عثمان الفضولي. "هاه! أكنت هنا؟" دخل جذعه بعد ذلك: "جئت في النهاية إلى هنا من جديد، وجلست!"

ابتسم رفيق لأخيه الكبير.

"أخشى أن يظهر في النهاية أمر كذاك أيضاً؟ لا تعاند بالذهاب إلى مكان ما."

"يمكن أن تراني معانداً!"

انزعج عثمان بمشاركة رفيق مزاحه، وقال: "ولكن هذه المرة لن يتسامح معك أحد! حتى زوجتك لن تتسامح معك..."

"هكذا إذاً؟"

"لنر ماذا تقرأ؟" اقترب كأب يراقب تعليم ابنه، ونظر إلى الكتاب الذي على الطاولة: "هولدرلين... هيبريون! من هذا؟"

"ألماني. شاعر..."

"أيهما؟ ماذا يقول؟"

"أمور معقدة... في الحقيقة أنني لم أفهم أيضاً. اليونان، وحضارتهم، وبعد ذلك..."

قال عثمان: "نعم، نعم!" وتثاءب، وتمطى. "كنت سأقول لك هذا. ماذا ستفعل في نهاية هذا الأسبوع؟"

"اليوم أنا في البيت... غداً ظهراً... على كل حال..."

أنا سأذهب إلى النادي بعد ساعة... وستذهب نرمين إلى إحدى صديقاتها..."

فكر رفيق: "لم أتحدث له عن نرمين حتى الآن! هل يقع على عاتقي قول هذا له؟.."

"يمكن أن تتنبه أنت وبريهان لأمي!"

"نتنبه!"

"مضى على هذه الأنفلونزا عشرة أيام، ولم تشف منها. أنا قلق. أخشى أن تكون أنفلونزا تلك... أنفلونزا ماذا يسمونها؟ الأسبانية، أو الآسيوية، أو مهما يكن؟"

"ليست منها..."

تثاءب عثمان مرة أخرى، وقال: "ليست منها، أليس كذلك؟ كنت سأقول لك هذا." ونظر إلى الكتب والأوراق التي على الطاولة وكأنه يحضر نفسه طويلاً من أجل ما سيقوله له. "هل أدفع اشتراكك للنادي بدلاً عنك؟"

قال رفيق منفعلاً: "حقاً، لم افكر بهذا أبداً! لم يكن لدي الوقت لأفكر بهذا!"

نظر عثمان إلى وجه أخيه دون أن يفهم شيئاً. قال متخذاً موقفَ من يخشى على صحة أخيه النفسية: "انتبه لنفسك أنت أيضاً! انا سأمضي بعض الوقت في الأسفل، ثم سأذهب إلى النادي." وخرج من الغرفة وهو غارق بالتفكير.

انكب رفيق على تخطيط بعض الرسوم والمسودات على زاوية الورقة. وفيما كان يداخل بين مثلث ومربع بعد فترة، قال لنفسه: "ماذا أفعل؟ أنا أضيع الوقت... مع أنه لابد لي من قراءة هولدرلين." قرأ فترة في الكتاب الذي لم يثر فيه أي مشاعر، أو انفعال. ثم تمتم: "لماذا لابد لي من قراءته؟ لأنني أدرجته في قائمة الكتب التي يجب أن أقرأها، وأعددتها قبيل القراءة.

كما أن هذا ضروري من أجل الرسالة الجوابية التي سأرسلها للهر رودولف." قرأ قليلاً أيضاً وهو يهز رجليه من الضيق هذه المرة. يتحدث الكتاب عن شعب أثينا، وعن اليونانيين القدماء، وخصوصيات عصرهم الذهبي، وعن تمرد يوناني كان يعتقد رفيق أنه ضد الأتراك. ورغم ضغط رفيق على نفسه، وعثوره على المقاطع التي قرأها له رودولف بالفرنسية، فإنه لم يجد الجاذبية التي كان ينشدها في الكتاب. عندما يُذكر اليونانيون يخطر بباله دائماً أولئك الملتفون بالملاءات، والملتحون، وعريضو الجباه، والذين يفكرون كما يُعتقد بأمور عميقة جداً للذين يظهرون في بعض الأفلام وكتب التاريخ. قرأ فترة أخرى، ثم انتبه إلى أنه قرأ أربع صفحات فقط. تمتم: "ماذا وُجد في هذه الصفحات؟ وهل وجدت نفسي توازنها تحت تأثير ديوتيما؟ أي نفسية هيبريون... هل جاء أحد؟ لا، لم يكن الجرس، بل جرس الترامواي... نعم، ويذكر الكتاب فن أثينا، وفلسفتها، وشكل دولتها، ويقول إنها ليست جذراً، بل ثمرة... هذه الأمور ضرورية لنا أيضاً... الدولة لدينا مختلفة... نعم... لماذا ليس لدينا فلسفة؟ وهذه أيضاً ضرورية! وهنا يُذكر العقل أيضاً. كان ثمة عقل في أثينا، وكل شيء يستند إلى العقل... لم يكن هذا موجوداً في تركيا... كل شيء يستند إلى العقل هناك. وفوق هذا يجب أن يتوحد جمال العقل، والروح، والقلب... عبارة جميلة هذه... أين كانت؟ وجد العبارة التي بحث عنها، وأشر بجانبها. غرز أسنانه في مقبض القلم. انتبه بعد ذلك إلى طعم الخشب في فمه، ففكر: "كم عضضت هذا القلم! كم صارت الساعة؟ ماذا كانت ستفعل بريهان اليوم؟" نهض فجأة، وخرج من الغرفة.

صعد الدرج على عجل، ودخل إلى غرفته. كانت بريهان أمام المرآة. كانت الطفلة تحبو على الأرض، ونظر بفضول إلى قائمة سرير الحداثة الملتوية.

هرب رفيق بعينيه عن عيني بريهان اللتين التقاهما بالمرآة، وقال: "لم أستطع أن أركز على ما أقرؤه!"

قالت بريهان: "تقرؤه، تقرؤه!"

"أنا متضايق من شيء..." وذرع رفيق الغرفة. وقف عند حافة النافذة. قال: "الجو بارد. إنني أتضايق من شيء ما... يدفعني الفضول... قال عثمان كلاماً قبل قليل..." والتفت لأنه لم يلق إجابة. "هل تصغين إلي؟"

كانت بريهان تصبغ شفتيها. أبعدت الصباغ عن فمها لحظة، وقالت: "نعم!" وجعلت فمها بشكل مربع كما كان قبل قليل، واستمرت بدهن الصباغ.

"قال عثمان... إذا ابتعدتُ هكذا عن البيت مرة أخرى، أي إذا ابتعدت كما فعلت في السنة الماضية، فإن أحداً لن يسامحني. حتى أنت لن تسامحيني! ما قولك؟"

قالت بريهان ضاحكة: "هل تنوي الذهاب مرة أخرى؟"

"إنك تفهمين طبعاً أنني أسأل هذا لمجرد الفضول."

"نعم... أحبك كثيراً... وأنا مسرورة جداً لأنني انتظرتك، ولأنني معك الآن. سأنتظرك مرة أخرى..."

قال رفيق منفعلاً: "لن أذهب إلى مكان! أنا أيضاً أحبك كثيراً." اقترب من بريهان، وعانقها، ولكنه خجل فيما كان يفعل هذا لأنه رأى نفسه في المرآة، وذهب إلى طرف النافذة. "لماذا تدهنين شفتيك بالصباغ؟"

"قال لي أبي، ادهني شفتيك لأراك، ولأرى ابنتي بأحمر الشفاه."

"ها، حقا، أنت ذاهبة إلى أمك! نسيت..." خيم صمت. ثم سألها رفيق: "ماذا نفعل غداً؟" اعتقد أن بريهان التي لم ترد مازالت تدهن أحمر الشفاه: "ماذا نفعل غداً، وماذا نفعل بعد غد، وماذا نفعل بعد بعد غد، ماذا نفعل حتى نهاية حياتنا، ماذا نفعل؟"

قالت بريهان: "أنت تذهب إلى العمل يا..."

"أذهب، ولكن سيبقى لدي وقت للتفكير. وهذا يعني أن الذهاب إلى المكتب، والعودة منه لا يعد عملاً كاملاً!"

"يقول عثمان إنك تعمل كثيراً في المكتب... ثم إنك قررت ألا تفكر بأمور كهذه. أما كنت ستلهي نفسك بالعمل؟ قلت إنك ستعمل في

المكتب، وتقرأ في البيت، وستعد برنامجاً، وستعيش بدل أن تفكر بأفكار كهذه..."

"نعم، ها أنا أعيش ياه."

قالت بريهان: "أنا لا أمزح." ولكي تبدو جدية، لم تنظر إلى خيال رفيق في المرآة، بل التفتت لتنظر إلى رفيق الحقيقي. "قلت إنك ستعيد النظر في كل شيء، وستفكر على ضوء تجربتك في كماه وأنقرة، وستفكر بحياتنا نحن الاثنين، وما يجب عمله من أجل حياة شريفة ومستقيمة، وكيف يجب أن يعاش، وستفكر بدءاً من الهدف الأكبر وصولاً إلى أصغر تفصيل من تفاصيل الحياة اليومية، وستخضع نفسك لبرنامج، وستفعل كل هذا دون أن تتجرف بالضيق العبثي، والكسل، والفشل!"

خلال استماع رفيق لبريهان، شعر بالزهو لأنه تذكر كلمات زوجته هذه كلمة كلمة. ثم صار معجباً ببريهان، وخجل من نفسه، وتعرق. ولكي يري أنه توصل إلى قرار حول هذه الأفكار، حتى ولو كان صغيراً، قال: "ما رأيك بالخروج من هذا البيت، والسكن في بيت آخر؟"

قال بريهان: "لا أدري إلى أي مدى هذا الكلام جدي!" ثم نهضت. وأخذت حقيبتها عن السرير. ووضعت مرآة محفوراً على ظهرها رسم غزال، ومنديلاً، ومشطاً في حقيبتها.

قال رفيق بغضب خفيف: "هذا موضوع جدي، نعم! يجب أن يُفكر فيه، ولكن عليك أيضاً أن تقولي شيئاً!"

قالت بريهان: "أنا أريد أن أكون معك! هذا الزحام في هذا البيت يُعكر علاقتنا. غير هذا، بعد رؤيتي نرمين مع رجل آخر، وبعد أن علمت منك ما يفعله عثمان، فإن الحياة في هذا البيت تجبرني أن أكون ذات وجهين. لم أعد أستطيع أن أكون كما أنا أمامهم." كانت تتكلم وهي تبحث عن شيء في الأدراج لتضعه في حقيبتها فوق الكوميدينة. "هل استطعت أن أشرح لك؟ لعل الإنسان غير مضطر لقول كل شيء، ولكن الظلم الأهم في هذا هو معرفتنا بشيء، وعدم استطاعتنا قوله لهم. إذا كنا لن نقول لهم

هذه المرة... آه، أخرجي هذا من فمك!" التقطت بريهان ابنتها التي تحبو على الأرض بحركة حادة، وفتحت فمها، وأخرجت منه زراً. "كنت أبحث عن هذا. كادت أن تبتلعه. يا إلهي!.." وجلست على كرسي الكوميدينة. "يا إلهي!.. يا إلهي!.. إنه الزر الذي طلبته أمي!.."

بدأت الطفلة تبكي لعدم فهمها ما حدث للوهلة الأولى. حملها رفيق بحضنه، وبدأ يهزها. فصمتت الطفلة. قالت بريهان إنها تأخرت، وأخذت الطفلة من رفيق، وأجلستها على حافة السرير، وارتدت على عجل معطفاً أخرجته من الخزانة.

قال رفيق: "أنت محقة، أنا أشعر بهذا أيضاً... ترى هل أخبر عثمان؟"

"هل نخبر عثمان؟ إذا أخبرت عثمان، فإنني يجب أن أخبر نرمين أيضاً..." وحملت بريهان الطفلة بين ذراعيها، وفتحت الباب.

قال رفيق فجأة: "لعل كليهما يعرفان!" وضحك. وشعر بالخجل من مزاحه حين رأى شفتي بريهان المرتجفتين، ووجد نفسه تافهاً. أراد أن يقول شيئاً لبريهان، ولكنه لم يجد ما يقوله. نزلا معاً إلى الأسفل. كان رفيق سيقول شيئاً خطر بباله في البهو ذي المرآة، ولكنه رأى هناك يلماظ، ونسي ما في عقله.

فتحت بريهان الباب.

سألها رفيق: "هل غضبت مني؟"

قالت بريهان: "لا، لا!.. لماذا سأغضب؟" ولكن وجهها يكاد يبكي.

"ماذا يحدث، بماذا تفكرين؟ احكي لطفاً... هل تحبينني؟"

"أحبك كثيراً."

قبل رفيق بريهان دون أن ينظر إلى يمينه وإلى يساره. ثم قبل الطفلة: "بماذا ستذهبان؟ لنحذر أن تبرد هذه؟"

"لن تبرد! لتستنشق الهواء قليلاً. إنها تمضي يومها كله داخل الغرفة! وما أقصر هذا الطريق، سأمشي."

لم يخرجوا الطفلة من الغرفة منذ عشرة أيام لكي لا تُعدى بأنفلونزا نيفان خانم. وعندما تذكر هذا رفيق، فكر: "نعم، كلنا في بيت واحد، هذا غير ممكن!" وانتابه شعور بالذنب. أراد أن يقول شيئاً ما. فأمسك ببريهان التي خطت خطوة نحو الحديقة، واحتضن الطفلة. ثم ركز عينيه على عيني الطفلة الحيويتين، وتمتم: "كل هذه الأمور، وفظاظتي التي تضايقك، وترددي، وحالي السيئة والقبيحة هذه، بسبب شيء واحد: أريد أن... أريد أن لا تعتبرنا ابنتنا في المستقبل مذنبين إذا كانت طبعاً راجحة العقل، ومنتبهة للحياة، ومثقفة وذكية قليلاً... ألا تعتبرنا مذنبين إذا نظرت إلى حياتنا، إلى حياتي، وما فعلناه، وأن لا تعتبرنا أناساً سيئين..."

رأت بريهان أن رفيقاً استطاع النظر إليها في النهاية، فالتفتت إلى الطفلة، وقالت: "ابنتنا، عندما ستغدو ملك خانم، ستكون سيدة مثقفة وذكية بالتأكيد!" وقبلت الطفلة وهي تضحك.

تمتم رفيق: "ليس بالضرورة أن تكون سيدة."

قالت بريهان: "آ، لماذا؟" وكأنها غضبت بدلاً عن الفتاة، وضحكت... "لا أعرف عن ذكائها وثقافتها، ولكن ابنتنا ما شاء الله ستكون ضخمة البنية." والتفتت فجأة، ونزلت الدرجات بخطوات سريعة، وسارت باتجاه باب الحديقة.

تابعهما رفيق بنظره حتى غابا. ودخل إلى الداخل، وعندما كان صاعداً إلى غرفة المكتب، توقف عند أول الدرج، ورأى عثمان يجلس مقابل أمه، فدخل الصالة.

كان عثمان يشرح أموراً ما لأمه التي ارتفعت درجة حرارتها، لا تريد نيفان خانم أن تبدو شاردة، وكانت تنظر عبر النافذة إلى الخارج. وسرت عندما رأت رفيقاً: "هل ذهبت بريهان؟"

"ذهبت!"

"للأسف! كنت سأقول لها أن تسلم لي على أبيها وأمها. لماذا لم تعرج إلى هنا؟" والتفتت إلى عثمان: "إلى أين ذهبت نرمين؟"

"لزيارة صديقة!"

"من؟"

"لا أعرف والله يا أمي العزيزة، هل تجيبيني عما أسألك إياه لطفاً؟"

قطبت نيفان خانم وجهها كأنه تقول: "ليس لدي ما أقوله بعد هذا!" والتفتت إلى رفيق: "اجلس أنت!"

قال عثمان منتظراً تفهماً من رفيق الذي جلس: "أتحدث عن موضوع البناء! أنت تعرف بأنهم يمسحون المقسم المجاور... سأل يلماظ، وأنا سألت، سيبنون بناء طابقياً... وأسرة تاج الدين أيضاً تبني في الطرف المقابل. ونحن إذا لم يكن في هذا العام، ففي العام القادم..."

قالت نيفان خانم: "لا في هذا العام، ولا في عام آخر... هنالك وصية والدكم، لن يهدم هذا البيت..."

قال عثمان: "ولكن هذا هراء! وفوق ذلك فإن أبي لم يقل لنا إنه يرغب بشيء كهذا..."

قالت نيفان خانم: "أقول لكم إنه قال لي هذا يا... كم مرة سأقول لكم إن فكري هو فكره... سيُسكن في هذا البيت بشكل جماعي، ويُعاش بشكل جماعي، ويهتم كل شخص بالآخر... عائلتي سكنت في بيوت كبيرة... وليس في علب إحداها فوق الأخرى. يجب على كل شخص أن يهتم بالآخر، وأن لا يخفي أحد حياته عن الآخر... هذا هو الصحيح! إذا انفرط أحدنا عن الآخر يوماً ما الله لا يرينا، فأنا لن أطلب الانتقال إلى علب منفصلة، بل سأطلب حينئذ أن يهتم أحدنا بالآخر. وهذا هو الصحيح!"

أشار عثمان إلى يلماظ الذي جاء بدلو، وملقط، وشرع يحرك المدفأة الكبيرة: "ولكن هذا البيت لا يدفأ... وهذا هو سبب الأنفلونزا التي أصبت بها."

قالت نيفان خانم: "أنا أصبت بالبرد لأنني لم أنتبه لنفسي، أرجوك يا ابني، لا تفتح هذا الموضوع مرة أخرى..."

خيم صمت. ولم يجدا ما يقوله أحدهما للآخر، ولكن أعصابهما توترت إلى حد أنهما يريدان عمل شيء، كانا ينظران إلى الشاب الذي يحرك المدفأة. نظرا إليه بإمعان إلى حد أن يلماظ كاد يشعر بثقل نظرهما إليه، وفقد ضبطه لحركاته الشبيهة بحركات أبيه، وبدأ يرتبك.

نظر رفيق إلى يلماظ المذكرة حركاته بحركات الطباخ نوري، وفكر: "كم يشبه أباه... مات أبوه. وهو أيضاً سيموت... ما رأينا بأبيه؟ لا شيء! وما أهمية أن نفكر فيه؟ كلنا سنموت. أنا أيضاً سأموت، وسيكون رأيهم بي..." انتبه فجأة إلى أن عثمان يقول كلاماً ما، فالتفت إليه.

"كم مرة أسأل... هل أعطيت قرارك؟"

"أي قرار؟"

قال عثمان: "أقول ياه: اشتراك العضوية..." ونهض. ثم نظر إلى أمه، وإلى أخيه: "هيا، هيا! أنا ذاهب إلى النادي، وإلا فإن أعصابي..."

قالت نيغان خانم: "ماذا يجري لك اليوم يا كبشي؟"

خرج عثمان متخذا هيئة المتكبر الذي يشير إلى أنه صاحب حق بالغضب، وعدم الرد على أحد. ونهض رفيق أيضاً من خلفه.

قالت نيغان خانم: "حسنٌ، من سيهتم بي اليوم؟ آه يا جودت بيك، ذهبتم، وبات كل شيء..."

فكر رفيق أثناء صعوده الدرج: "نعم، كلنا سنموت، كلنا سنموت، ولكن علي أن لا أفكر بأمور كهذه الآن. يجب علي أن أقرأ الكتب التي قررت قراءتها، وأن أفكر بما هو ضروري، وعلي أن أنفذ البرنامج الذي وعدت به بريهان، ونفسي... وبعد ذلك، ستكون حياتي التي انقضت بالخدر، والتردد حياة منتظمة. لن تدينني ابنتي... لن أخجل من حياتي كلما تذكرت أولئك العمال والفلاحين الذين رأيتهم في كماه. ستنقذني تلك الحياة المبرمجة من الخجل. لاشك لدي بأن حياة يومية كتلك هي حياة. وسأكتشفها بواسطة القراءة، والآن سأستمر بالكتاب الذي أقرؤه من حيث انتهيت." جلس خلف الطاولة، وبدأ ينظر إلى الكتاب المفتوح. "يمكن استنتاج هذه النتيجة مما قرأته حتى الآن: كان العصر اليوناني القديم أسعد العصور، ويجب بعثه. وهذه هي الأسباب. بالنسبة للكاتب هي... بالنسبة لي؟ بالنسبة لي فإن هذه أمور جيدة، وسيكون جيداً لو كانت تلك الأمور عندنا. لن يكون خطأ القول إننا نعاني من نقص هذه الأمور: العقل،

والتوازن، والانسجام، نعم، وأمور أخرى... سأكتب هذه الأمور للهر رودولف. وسأرسل له نسخة من كتابي أيضاً... ماذا سيقول يا ترى؟ هل يقول إنه يجدني خيالياً؟ نعم، يلزمنا التنوير... يمكننا القول إن العصر اليوناني القديم هو عصر تنوير. ومن أجل عمل هذا في تركيا، يجب ألا أتقدم بمقترحات اقتصادية كما فعلت سابقاً، بل بمقترحات تتعلق بالثقافة على الأكثر... فهذه الأمور أهم من تلك التي اقترحتها في كتابي. يجب علي أن أجدها، ولكنني الآن لا أبحث عنها، بل البرنامج! علي أن أقرأ!" بدأ يقرأ. بعد فترة، انتبه إلى أنه أسلم نفسه للقراءة، وقرأ ست صفحات، وسر. بعد ذلك، حاول أن يقرأ من جديد، ولكنه لم يستطع أن يركز لأنه كان يفكر بنجاحه السابق. وهاجمته الأفكار الكامنة كلها في لحظة واحدة. "سأقرأ، سأقرأ! ماذا سيحدث؟ كيف يمكنني أن أخرج من هذا البيت؟ ماذا سيقول سليمان آيتشليك إذا رآني على هذا النحو؟ كيف هو مصطفى ذاك زوج صديقة بريهان؟ كان سيقول سليمان آيتشليك: إنكم تلهون بأفكار فارغة بدل أن تعملوا مع الدولة، لأنكم رقيقو القلب! الجرس! هذه المرة، أحدهم..." انتظر وهو يخطط على زاوية الورقة. "لو يأتي أحد ونتكلم بشكل مفيد... من؟ ولكن لا يوجد أحد كهذا..." قرر العودة مجدداً للقراءة، ولكنه نهض فجأة. "ماذا أفعل؟ ماذا أفعل؟" ذرع الغرفة. ثم انتبه إلى أن باب الغرفة قد فُتح، فالتفت.

صرخ قائلاً: "محي الدين!" وفتح يديه على اتساعهما، ثم ضرب بيديه على فخذيه بسرعة، وهرع لعناق صديقه. "الرحمة، حسنٌ أنك أتيت، حسنٌ أنك..."

قال محي الدين: "ولكنني لن أجلس كثيراً... ليس أكثر من عشر دقائق..."

"إيه، كيف حالك؟ كيف حالك؟"

"ها أنا جيد! مررت قريباً من هنا، فقلت لأعرج عليك!" جلس محي الدين على الأريكة المجاورة للنافذة، وتلفت فيما حوله بانتباه كما في كل مرة، وبنظرة تنقب في كل شيء، قال: "أوه، صورة أبيك لائقة تماماً في هذا المكان! لنر متى سيعلق صورتك أولادك؟"

"لا أدري إن كانوا سيعلقون صورتي..."

قال محي الدين: "لا تقلق، سيعلقون صورتك أيضاً! لأنك قد اندمجت بهوس العائلة منذ زمن طويل!"

تذكر رفيق النقاشات القديمة، فابتسم. كان يرغب بالنقاش مع محي الدين هكذا، ولكنه يشعر بأنه هذا لن يحدث. التقى به ثلاث مرات بعد عودته من أنقرة، في اللقاء الأول ظهر أن بينهما خلاف عميق في وجهات النظر، وقد صمتا في اللقاءين الآخرين. أراد رفيق أن ينسى هذا الخلاف، فقال: "كيف حالك إذاً؟ ماذا تفعل؟" ولأنه لم يسأل هذا لمجرد الكلام، بل سأله مفكراً فيه، فكر محي الدين بماذا يفعل، ومع من، فقلق.

"لماذا لا تستطيع الجلوس؟ إلى أين تذهب؟"

"إلى تلك الخمارة في بشك طاش... سألتقي عسكريي..."

"ماذا يفعل ذانك الشابان؟"

"إنهما جيدان! أنت ماذا تفعل أساساً؟ التقيت قبل فترة بنور الدين. صادفك في المباراة. كنت شارداً كثيراً... قلت يبدو أن رجلنا قد انجرف بالأوهام على ما يبدو، لأذهب وأراه!"

انفعل رفيق نتيجة الاهتمام، وقال: "ليس لدي شيء بشكل عام!"

قال محي الدين ساخراً: "هل هنالك ما هو خصوصي؟" ونهض، ونظر إلى الكتاب الذي على الطاولة: "أتقرأ هولدرلين؟ أنا لم أهتم يوماً كشاعر، ولكنه لم يجذبني... روحهم، أرواح الأوربيين بعيدة عنا يا روحي. ثم إن هذا معجب باليونانيين... هم بعيدون عنا، لا يمكنك أن تفعل شيئاً معهم. وفوق هذا، فإن هؤلاء يلخبطون عقل الإنسان..."

انفعل رفيق، وقال: "ولكن هنالك الكثير مما يجب أن نتعلمه منهم!"

"ما الذي يجب أن نتعلمه؟"

رغم عدم شبع رفيق من لقائه وإيمانه به بشكل كامل، فإن نظرة محي الدين المشاكسة أشعرته بضرورة الدفاع عما قرأه، فقال: "ما يعنيه: يجب أن نتعلم اليونان والقديم وعصر النهضة!" وأضاف على عجل خشية خجله من كلماته دون أن ينظر إلى محي الدين: "ثقافة عصر

النهضة... ضوء العقل... نحن نحتاج إلى ضوء العقل الذي سيتغلب على البربرية والطغيان لدينا..."

قال محي الدين: "أوه، أوه! صرت إفرنجياً تماماً يا هذا! وتستخدم كلمة بربرية لتصفنا بها ها؟.."

فكر رفيق: "لا، لم يكن هذا في عقلي... ولكن ماذا أفعل عندما أراه ينظر إلي نظرات عدائية كهذه، أريد أن أقول له هذا..."

"حسنٌ، هل تراني بربرياً؟ أنا أيضاً تركي، وقومي، وأقول إنني قومي، ما رأيك؟"

"لا أدري. لا أستطيع قول شيء... أنا أبحث..."

قال محي الدين: "أنت تفرنجت! أساساً من يبحث عندنا يتحول إلى الفرنجة. اشعر بدل أن تبحث. أنت تعرف بأنني لم أعد محي الدين القديم، تحدثنا بهذا أنت وأنا... ولكنك لو تغيرت قليلاً أيضاً، لأنك مازلت في مكانك الذي كنت فيه قبل خمس سنوات، إنك تنعم بالسذاجة نفسها. دع عنك النقاشات الفارغة بعد الآن!" وأشار إلى الكتب التي على الطاولة، والرفوف. "مازلت تقرأ لاكتشاف ما يجب فعله في الحياة، أليس كذلك؟"

"نعم، هذا ما أفعله..."

قال محي الدين وهو ينظر إلى وجه رفيق المقطب: "تتفرنج، وتقطع رجلك عن الأرض ها؟" ثم نهض واقفاً. "كنت أريد أن أجلس أكثر، وأنفضك قليلاً، ولكن ليس لدي وقت. في زمن آخر..." ولحظة خروجه من الباب، قال: "أنت تعرف وضع العالم. هل فكرت بالنتيجة التي يؤدي إليها الاهتمام بأمور كهذه، أو نشر أفكارك فرضاً، أو لا أفكارك؟"

"أنا لا أنشر هذه الأمور!"

"ولكنك اكتسبت عادة كتابة الكتب... مهما يكن، مهما يكن! لا يعد ذلك الكتاب بالغ الضرر..."

انفعل محي الدين حين عرف أن محي الدين قد قرأ كتابه، أراد أن يسأله عن رأيه، ولكنه تردد عندما رأى وجهه المشاكس.

قال محي الدين لرفيق: "نعم، هذا يعني أنك هكذا دائماً. صباحاً تلهث وراء التجارة في المكتب!" ونظر إلى الأشياء المحيطة به كأنه يعطي قراره الأخير. "تمارس التجارة، وها أنت تقرأ، وتسود عقلك المعكر أساساً، ثم تعيش في هذا البيت، هنا. وهذه الساعة تتكتك بالصوت المثير للأعصاب نفسه منذ سنوات طويلة. كيف حال زوجتك، وابنتك؟"

قال رفيق وهو ينزل وراء محي الدين على الدرج: "جيدتان!"

هز محي الدين رأسه وكأنه يقول: "كيف يمكن أن يكونا غير هذا؟" ثم ودعه رفيق وقد رأى فيه موقفاً شارداً لم يره فيه من قبل، وخرج.

خلال ابتعاد محي الدين لم ينظر إليه رفيق طويلاً لأنه يؤمن أنه لم يكن يفكر فيه. ولم يصعد فوراً إلى الأعلى خشية أن يُخضع نفسه لتكتكة الساعة. جلس قليلاً في الأسفل مع أمه. وقالت أمه إن علاقة عائشة ورمزي صارت جدية، وسألت رفيقاً عن رأيه. قال رفيق يجب أن يُترك الشباب على راحتهم. ثم تحدثا من هنا، وهناك. وعندما أدرك رفيق أنه لن ينتبه لتكتكة الساعة، صعد إلى الأعلى ليقرأ.

53
مع الشباب

دخل محي الدين في المقدمة، وخلفه الشابان الطالبان العسكريان إلى الغرفة الخلفية في البيت الذي في سرانجة بيه دون أن يدعوا فريدة خانم تراهم. دهش الطالبان العسكريان فور دخولهما إلى غرفة محي الدين. كان محي الدين يشعر بأنهما يفكران بهذه الغرفة منذ زمن طويل، ويتوقان لمعرفة ما فيها، وكيف فُرشت. جلس على الكرسي خلف الطاولة، وامتدت يده آلياً إلى علبة السجائر، ولكنه لم يأخذ سيجارة. غضب من الشابين الواقفين على أقدامهما، ينظران إلى ما حولهما بانتباه. وفكر: "أنا لا أحب أن يكتشفني أحد! ولكن ماذا أفعل؟ لم يعد اللقاء بهما في الخمارات مناسباً أيضاً... مازالا ينظران... سيعرفان ما يقرؤه... أريد أن أعرف رأيهم بي، ولكن اكتشافي أمر غير محبب أبداً!"

"لماذا تنظرون هكذا؟ اجلسا يا!"

تمتم بريروس قائلاً: "ها؟ نعم!"

"اجلس أنت هنا يا طورغاي! إيه، لنر ماذا فعلتما هذا الأسبوع؟"

خيم صمت. يبدو أن كلاً منهما ينتظر الآخر أن يقول شيئاً. تمتم بريروس في النهاية قائلاً: "لا شيء!"

"هذا يعني أنكما طوال الأسبوع فعلتما لا شيء ها؟ لماذا تعيشان إذاً؟"

اتخذ بريروس موقف المذنب، ولكنه لم يخجل. فقد تعلم أن محي الدين يبدي لهما المحبة على هذا النحو. أبعد عينيه عن الكتب فجأة كأنه تذكر شيئاً: "لم يرد طورغاي التحية على ملازم أرناؤوطي!"

قال محي الدين منفعلاً: "حقاً؟"

أكد طورغاي الحادث متخذاً موقفَ التواضع.

قال محي الدين: "كيف حدث هذا يا هذا؟.. أحسنت!"

قال بريروس: "والله أنا لم أره! هو حكى لي. الرجل حياه، ولكن هذا لم يرد التحية. احك أنت يا هذا!"

قال طورغاي: "لم أرد التحية هكذا!" وكانت تبدو عليه سذاجة الأحمق الوسيم، ولكن محي الدين عرفه، لم يعد يعتبره مخبولاً.

"كيف لم تردها يعني؟ من هو هذا الرجل؟"

"شخص أرناؤوطي! أساساً لا أحد يحبه! وكان سبباً مباشراً لطرد أحد طلاب الصف الثالث. رأيته على الدرج. حياني، ولم أرد التحية!"

"احك لي عن هذه التحية بتفصيل أكثر قليلاً..."

قال بريروس: "نعم، وأنا لم افهم الأمر كثيراً ياه!"

"لن نحكي إذا كنتما لا تصدقان. حياني. ومررت بجانبه بشكل مستقيم كالجدار... ولم يفعل أي شيء. ولكن وجهه تعكر أيضاً."

سأله محي الدين: "أما حاول أن يعاقبك أو ما شابه ذلك؟"

"لم يحاول..."

"حسنٌ، كيف تجري هذه الأمور؟ ما هي أصول تبادل التحية هذه؟ من يحيي بداية؟ فعل هذا أحدهم في أثناء خدمتي العسكرية، فأحرقوا نفسه... هذا خطير، اليس كذلك؟"

قال طورغاي: "لا يهمني بشيء. أساساً أنا لا أحب العسكرية أبداً. إذا وجدت طريقة لتركها، فسأتركها... هل نحن عبيد يا هو؟"

فجأة، قال محي الدين قلقاً: "أممكن هذا يا روحي، أممكن؟ يجب أن تبقى هناك!.. ثم إن هموماً كهذه موجودة في كل عمل!"

قال بريروس: "لا، لا تقلقوا يا أخي الكبير، لن يحدث شيء! إنه غاضب في هذه الأيام... وإلا..."

قال طورغاي: "سأترك العسكرية... وسأنزوي في زاوية، وأكتب الشعر!" لم يكن يؤمن بهذا على كل حال، ولكنه رغم هذا يجب أن يكون مسروراً من قوله.

قال محي الدين: "في الحقيقة إنك لم تفعل جيداً يا طورغاي! يمكن أن يفتح على رأسك مصيبة أيضاً..."

قال بريروس: "أنا أيضاً أقول هذا!"

"يعني أن ما فعلته كان خطأ؟ لا تقولوا هذا يا أخي الكبير لطفاً. إنه أرناؤوطي! وهذا وطننا نحن! بسببه يطرد أولاد الأتراك من الجيش التركي، وأنتم تعتبرون هذا غير عادل!"

قال محي الدين شاعراً بنفسه معلماً وليس أخاً كبيراً: "ولكن تصرفاً كهذا لا يوصلنا إلى الهدف! وللوصول إلى الهدف يجب أن نتحرك بعقولنا، وليس بعواطفنا، وغضبنا!"

قال طورغاي: "ولكن أما كانت العواطف مهمة؟ أما كان علينا أن نشعر، وليس أن نفهم؟"

قال محي الدين: "العواطف مهمة للإيمان! أما من أجل الوصول إلى الهدف، فعليك أن تستخدم عقلك. العقل ضروري في كل خطوة. انظر، وضعنا على غلاف المجلة تلك الخريطة، فمنعوا نشرها... وبقدر ما نعتبر أن هذا التصرف مؤامرة دنيئة تستهدف المجلة، فإننا نرى أننا ارتكبنا خطأ... فلم تصدر وسيلة النشر الوحيدة لحركة القوميين الأتراك في نهاية هذا الأسبوع."

خيم صمت آخر. اتخذ الشابان موقفاً أكثر جدية لأن الموضوع تحول إلى مجلة أوتوكان التي أوقفت المحافظة نشرها. كان بريروس ينظر نظرة تقول: "اغفر لطورغاي يا أخي الكبير!" وكأن طورغاي قد خجل من حركاته الانفعالية. فكر محي الدين بهذا الصمت المفعم بالاحترام: "حسنٌ، ها هما قد هدآ كما هما دائماً! فعندما رأيا غرفتي وكتبي أدركا كما يبدو أنني فان عادي، فبدأ قلة الاحترام!" استحضر الجملة التي سيقولها بعد قليل إلى عقله، ولكنه لم يستطع قولها. شعر بالمرح مفكراً بما يخطر بباله كلما رأى هذين الشابين منذ فترة: "ماذا لو ترك هذا المصروع الجيش حقيقة... لا يمتلك الجرأة الكافية للترك، ولكن ماذا

لو طردوه من الجيش بسبب فتواته الصغيرة تلك؟" فكر غاضباً: "الجميع قوميون أتراك، ولكن لا أحد منهم لديه عسكريين!" وكان يفكر بأن ينصح طورغاي، ولكنه قال الجملة الأخرى التي أراد قولها شاعراً أنها الأمر الأكثر تأثيراً: "أنا سآخذ رخصة المجلة الجديدة!"

قال بربروس: "أوه، هكذا إذاً؟"

"طبعاً! وهل اعتقدتما أن الحركة ستتوقف؟"

قال طورغاي وكأنه يريد أن يحصل على المغفرة: "لم نفكر بهذا أبداً! ولكن حصولكم أنتم على الترخيص..."

وفجأة فُتح الباب، ودخلت فريدة خانم. لم تُدهش عندما رأت الشابين. قالت مبتسمة: "أهلاً بكم يا أولادي!"

قال طورغاي: "أهلاً بك يا خالة!" ونهض على قدميه. "لم نزعجك قبل قليل!" وانحنى بحركة صادقة، وقبل يد المرأة.

وفعل الأمر نفسه بربروس القادم من خلفه. رأى محي الدين أن وجه أمه قد أشرق. فأشفق عليها. واعتبر أن حركة العسكريين لا ضرورة لها. يبدو أن أحداً لم يقبل يد أمه في الفترة الأخيرة على هذا النحو.

سألتهما فريدة خانم: "كيف تريدان قهوتكما؟" وبدت كأنها لا تعرف أين ستضع يدها التي قبلاها قبل قليل.

قال محي الدين: "وسط! أليست وسط يا شباب؟ نعم!" التفت إلى أمه: "أنا سآتي بعد قليل، وآخذها..."

قال طورغاي: "أمكم يا أخي الكبير خالة ذات وجه منور بكل معنى الكلمة!"

قطب محي الدين وجهه، وقال ناخراً: "كنت أتحدث عن المجلة! سأذهب غداً إلى الفزنجيلر لأزور ماهر الطايلي... عرضوا علي الحصول على رخصة المجلة الجديدة. إنهم يثقون بي، ولكنني لا أثق بهم... لهذا السبب أؤجل حالياً رغبتكما بالتعارف!"

سأل بربروس: "لماذا لا تثقون بهم؟"

"لأنه لم تكن تنفذ في أوتوكان سوى رغبات ماهر الطايلي. لم أستطع نشر بعض قصائدكما التي أعجبتني كثيراً كما تعرفان. مع أنني لا أجد

رايه صحيحاً!" وأضاف موضحاً انه لا ينوي النقاش، أو شرح أي شيء: "لن أستطيع الدخول في التفاصيل حالياً، ولكنني..." ثم مد يده نحو علبة السجائر، وفكر على النحو التالي: "يذكرني بأنني كنت أقرأ بودلير في زمن ما... ويشعرني بأنني كنت مثقفاً، تسممت بالثقافة الغربية... يقول إنني لن أكون متواضعاً لأن شيطان الثقافة قد دخل إلى قلبي...،بما أنه هو الشيطان، فسيقع على عاتقي التواضع... وأنا افعل شيئاً لا يفرض فيه علي شرط التواضع! سأكون الشيخ في المجلة الجديدة!" قلق فجأة. "لا! لأذهب، وأجلب القهوة لكي لا تحضرها أمي!"

نهض، وخرج من الغرفة. اعتقد أن الشابين قد هجما على الكتب فور إغلاقه الباب. "سينظران كيف أنا... الكتب، الكتب... هل تسممت أنا؟ لا، أنا ذكي، ومرتاب أكثر من اللازم فقط!" ودخل إلى المطبخ.

أنهت أمه إعداد القهوة، وشرعت تصبها في الفناجين الموضوعة على صينية. قالت: "آ، هل جئت؟ ما ألطفهما من شابين... ماذا يعملان؟

لم يقرر محي الدين أن يقول لها إنهما طالبان عسكريان. مازال الشابان يتركان بزتيهما العسكريتين عند المصور في بشك طاش بحكم العادة قليلاً، ورغبة محي الدين بإضافة شيء من الغموض لما يجري قليلاً.

"ألن تقول شيئاً؟ تخبئ كل شيء!" أخذ محي الدين الصينية دون أن يقول شيئاً، وخرج من المطبخ. خطر بباله أن يدخل فجأة إلى الغرفة، ويقبض عليهما وهما ينظران إلى الكتب. كان يمشي ببطء شديد كي لا تدلق القهوة. عندما اقترب كثيراً من الباب، سمع الأصوات المنبعثة من الداخل، ووقف يتنصت بفضول.

"انظر، انظر! لديه أبولينير أيضاً!"

"واخ، انظر إلى هذه!.. نحن لم نستطع تعلم هذه الفرنسية..."

"توفيق فكرت!"

"دعني أرَ!"

"آ، وضع خطوطاً تحتها! انظر، إنه يضع خطوطاً تحتها مثلنا..."

"أين وضع الخطوط؟ أقرأ! التاريخ القديم!"

"المنتصر يساوي عشرة مهزومين بالتأكيد/ والساحق محقّ، والمسحوق مهزوم..."

"تحت ماذا وضع خطاً غير هذا؟ اقلب، اقلب..."

"الحكمة الأكثر جلاء: من لا يصل يُسحق!... وفي هذه الصفحة أيضاً. البطولة... الدم الأساسي، الوحشية... فكرت أيضاً سلبي، إنه سلمي يا هذا؟"

"طبعاً! ولكن لماذا وضع خطوطاً تحتها؟"

"لينتقدها!"

"لا تصرخ، سيسمع! أي نقد؟ هيا يا روحي، هل كان على هذا النحو قبل ستة أشهر؟"

"كيف كان؟ انظر، ديستوفسكي. وكتب الفرنسية..."

"هشت!"

"لماذا قلت له إنني لم أرد التحية على الأرناؤوطي؟ غضب."

"إذا صرخت هكذا، سيغضب أيضاً!"

"إيه، سئمت يا هذا!.. الجميع يغضبون منا... ها هو بودلير! أنا لا أريد أن أكتب قصائد البطولة والقضية، بل قصائد كهذه!"

"اصمت، يا مخبول!"

اعتقد محي الدين أن وقت التدخل قد حان، ودخل بسرعة إلى الغرفة لامبالياً بدلق القهوة. "لنر بماذا تتكلمان؟" نظر بحدة إلى طورغاي الذي احمر وجهه، وأمسك كتاباً أمام رف كتب بودلير: "إلى ماذا تنظر؟ إلى بودلير؟ هل يعجبك؟"

احمر وجه طورغاي. وتحرك حركة كأنه يريد أن يخبئ الكتاب الذي بيده. قال: "أنتم يا أخانا الكبير من جعلنا نحبه!" ووضع الكتاب على الرف كأنه شيء مسموم.

قال محي الدين: "إذا كنت قد فعلت شيئاً كهذا، فأنا مخطئ! ولكن إلى أي مدى يمكنك أن تحب بودلير بفرنسيتك تلك؟" أشعل سيجارته المطفأة في المنفضة من جديد. "هيا، خذا قهوتكما، واشرباها... ادعيا ربكما لعدم تسممكما أكثر بالكتب... لو أنني تأخرت قليلاً، ولم أضع يدي، لانقضى كل شيء، وضعتما... هل تفهمان ما يعني هذا؟ سيكون كل منكما عسكري مسكين ضائع مفرنج... حتى إنكما لن تكونا عسكريين حقيقيين... كيف يغدو الإنسان مسمماً بالقراءة أنا لا أعرف."

وأضاف على عجل خشية الوقوع بسوء فهم: "أعرف هذا من رفيق... تعرفتما عليه، أليس كذلك؟ في الخريف قبل الماضي!.. ذهب إلى كماه، وعاد، وقرأ كتباً، وكتب أموراً ما. التقيت به في الأسبوع الماضي. إنه كما هو مثقف تركي معلق في الهواء، بلا هدف، ولا مبدأ، ولا إرادة، والأهم من هذا كله أنه بلا هدف... أو مثقف إفرنجي يعيش في تركيا... هل فهمتما؟" نظر إلى طورغاي بحدة من جديد. وارتاح قليلاً حين رأى أن وجهه قد احمر، ولكنه ألح: "لا تخفيا شيئاً عني. أعرف ما تفكران به أساساً! سيحاول شيطان الثقافة الدخول إلى قلبكما، وأن يسرق عقلكما دائماً... لا تُدخلا عقلكما في خدمة شيطان الثقافة، بل في خدمة العواطف والإيمان... أقول لكما هذا دائماً يا!"

قال بربروس: "أنتم على حق يا أخي الكبير!" كان ينظر إلى صورة حيدر بيك نيشانجي الموضوعة في إحدى فتحات المكتبة.

قال محي الدين: "إنه أبي! عليكما أن تكونا مثله... كان عسكرياً حقيقياً. حارب، وعاش، ومات! ولكنه في الحقيقة لم يكن لديه هدف. لم يشارك في حرب التحرير. أنتما لديكما هدفكما! ليس لديكما وقت تضيعانه! هذا هو الوضع الآن: يجب أن يتم تقييم الوضع جيداً، وأن يجري العمل جيداً حتى صدور المجلة الجديدة. إذا استمر ماهر الطايلي بموقفه الحاد نفسه في المجلة الجديدة، سأبحث عن حلول أخرى... واحدها هو غياث الدين كاغان الذي قرظته، وهو حقيقة إنسان عظيم... وهكذا نكون قد أخرجنا ماهر من الوسط... ثم إن عليكما أن تتخليا عن عنترياتٍ كعدم رد التحية!.. إذا حصلت على الترخيص، فستكون المجلة لنا، وهذا يجعلكما..."

"عفوك يا أخي الكبير، ماذا سيكون اسم المجلة؟"

"آلطن إشق/ الضوء الذهبي! ولكن ما أهمية الشكلانية؟.."

قال طورغاي: "لا، سألت ليكون عندي فكرة فقط!"

54
الزمن والإنسان الحقيقي

نظر عمر إلى ذراعه باعتياد قديم فور استيقاظه، ولكنه لم يعد يلبس الساعة. ولأن غرفة القصر القديم باردة كان ينام بالكنزة. وتمتم قائلاً: "ما الوقت؟" انقلب في السرير، وتمتم من جديد: "في أي زمن أنا؟ في القرن العشرين، على طرف العصور الوسطى... في دار قديمة، قرب إرزنجان." أدار رأسه، ونظر إلى الأعلى. ثمة زخارف خشبية ثقبّها العث في الزوايا. أحد الجدران خزانة من أوله إلى آخره. وتبدو الزخارف الخشبية نفسها على أبواب الخزانة، كما تظهر أيضاً آيات بحرف الواو المتكرر والمتداخل على شكل زورق. نظر عمر إلى الأحرف العربية التي لم يستطع قراءتها، وأكلها العث، وتفسخت، وفكر: "لعلها ليست آية أو ماية، وهي لنامق كمال بالتحديد." تاق مرة أخرى لمعرفة هذا الإنسان الذي نفاه عبد الحميد، ومنحه قائم مقامية. "اشترى أرضاً وهو منفي، وبنى هذا القصر، ثم مُنح عفواً، أو عاد بعد المشروطية. أنا متى سأعود؟" مضى على موعد العرس المقرر في السادس والعشرين من نيسان يومان، وعلى مغادرته أنقرة سبعة أسابيع، ولكنه مازال هنا. إنه يقيم في إحدى غرف القصر الخرب في المزرعة التي كان الحاج في زمن مضى وكيلاً لها. يوم جاء إلى المحطة قال له الحاج إنه لن يستطيع إيجاد مكان يبيت فيه غير هذا، فأصعده إلى الطابق الثاني من القصر.

فكر عمر: "نعم، مازلت هنا... ولكنني سأذهب!" ثم انقلب على السرير. "تتراءى اسطنبول أمام عيني. سأذهب... متى؟ في اقرب فرصة! كم الساعة في اسطنبول الآن؟" نظر إلى الظل الساقط من النافذة على الأرض. يجب أن تكون ثمة شمس براقة في الخارج. تمتم قائلاً: "ربيع!" ولكنه لن ينهض من السرير. فكر: "أأنام قليلاً قبل أن أبدأ العمل؟ نعم، يجب أن أنام، وإلا فإنني لن أعمل!" وترك نفسه لنوم هادئ يقترب منه ببطء.

اعتقد أنه سمع بوق سيارة، ولكنها كانت بقرة تخور.

فكر: "كم نمت يا ترى؟ عشر دقائق، أم ساعة؟ قال لنفسه مستمتعاً بتقسيم الزمن: "ما أهمية هذا؟ نمت وكان هذا جيداً. واستجمعت القوة الضرورية للانهماك بالعمل!" تثاءب. "نعم، العمل... أي عمل؟ سيُشغل المولد... يجب شراء مازوت من أجل المولد... وكتابة الرسائل المتراكمة... أي ما عزمت على كتابته... يجب أن أذهب إلى أرزنجان..." وخارت البقرة مرة أخرى. ثم تحدثت امرأة عجوز. فهم عمر أنها زوجة الحاج، وأن الصوت يأتي من الباب المفتوح للحظيرة الملاصقة لجدار القصر، وأن المرأة غضبت من البقرة المتحركة وهي تحلبها. فكر: "ما أجمل هذا، يُحلب هناك حليب!" ذات مرة حاول أن يفعل هذا من قبيل المرح، والتجديد، وعارضه الحاج وزوجته، وعندما أصر عمر، راقباه من طرف الحظيرة لرؤية سيد كيف يقوم بهذا. ولكنهما ساعداه عندما رأيا أنه غضب من أمر ما، فأمسك أحدهما البقرة، والأخرى الدلو الذي لم يثبت بأي شكل تحت الثدي. وعندما تذكر عمر هذه التجربة الكئيبة، فكر: "إنهما يحبانني، ويحترمانني!" ولكنه لم يؤمن بهذا. ينومه الحاج هنا، ويضع أمامه ثلاث وجبات طعام يومياً لأنه يتقاضى منه مبلغاً كبيراً من النقود. تضايق من هذه الفكرة، فقال لنفسه: "لا يُظهر أنه يفعل هذا من أجل النقود على الأقل. أنا أفكر بهذا لأستنتجه! نعم، بقائي هنا أسابيع وسط الطبيعة لم يكن دون جدوى... أعيش، وأرى!" تمتم مجدداً بعد أن انفعل فجأة: "أعيش، وأرى!" ونهض من السرير الدافئ، وذهب إلى النافذة حافي القدمين. فتح النافذة الجرارة محاولاً أن لا يجعلها تصدر صريراً، واستنشق الهواء بعمق.

كان قد مضى وقت طويل على شروق الشمس، وستدخل أشعتها بعد قليل بين الشجر. تمتم عمر قائلاً: "يا لجمال كل شيء، ويا لصحته! هنا لا يمكن أن يخبأ شيء. هنا كل شيء كما يجب أن يكون!" تأجج في نفسه شعور الرغبة بعمل شيء ما، أو كسر وتحطيم أشياء كما كان يقول لنفسه في زمن ما: "يجب على الإنسان أن يستيقظ هنا كل صباح، ويستنشق الهواء النظيف من هذه النافذة، وأن تدخل المدن بعد ذلك إلى داخله... من أجل أن أكون فاتحاً..." قال لنفسه معتقداً أنه سيجد في نفسه القوة لمحاربة الأفكار المزعجة: "المدن، المدن! لماذا أنا هنا، ولست هناك؟" ثم قال وهو يشعر بنفسه محقاً بكل شيء: "نعم، لقد أحببت المكان هنا! سأذهب إلى هناك طبعاً. اسطنبول تتراءى أمام عيني... ولكن ماذا عن هذا الصباح!.. يحاول هذا الصباح أن يجذبني إلى العمل! ليس هناك كثير من العمل يحتاج إلى إنجاز، ولكنني سأنكب عليه اليوم. المولد بداية!" فرح عندما فكر بما خطط له من أجل المولد. سينظف المولد الذي صدئ لبقائه في المستودع ستة أشهر، ويزيته، ويحدد عطله، ثم يشغله، ويوصل الكهرباء إلى الطابق السفلي، وإلى القصر كله. بعد أن فكر بهذا المخطط قليلاً، تذكر أن هذه ليست فكرته، بل فكرة الحاج. كان لدى الحاج فكرة أخرى أيضاً: طلب من عمر أن يشتري هذا القصر. وإذا اشتروه، يمكنهم أن يزرعوا الأرض الخصبة الممتدة من الطرف الآخر للسكة الحديدية حتى ضفة النهر، ويحصدوها. قال له الحاج بأن الأرض لا تزرع لأن ورثة صاحبها متخاصمون فيما بينهم، وأنه حاول أن يزرعها في إحدى السنين، ولكن أحد الورثة أبلغ الباقين. وفكر عمر بأن أحدهم سيبلغ الورثة بأنه ينومه هنا، ويقبض منه نقوداً، ولكنه لم يهتم لهذه الفكرة لأنه سيذهب إلى اسطنبول في أقرب فرصة. "نعم، سأذهب إلى هناك في أقرب فرصة!" انفعل عندما فكر بهذا. "قلت لهم إنني أنوي شراء مزرعة... ولكن من هم؟" فكر فترة. عندما قال: "هم!" أدرك بعد ذلك أن رفيقاً أول من خطر بباله، ثم ناظلي، ومختار بيك، وكريم بيك أيضاً، ودهش. ثم انتبه إلى أنه برد، فعاد، وبدأ يرتدي ثيابه.

حين خلع كنزته، فكر: "لماذا خطر ببالي كريم بيك؟ أنا لا أحبه! كأنه يفعل كل ما لا أحبه في تركيا. أنا أشمئز منه، ومن نظرته المتكبرة تلك..." خلع كنزته. وبدأ يفك أزرار منامته. "ماذا أقول لهم؟ سيسألونني هناك ماذا فعلت... خالتي تسأل! حسنٌ أنني كتبت لهم رسالة... سأخبرهم بما كتبته لهم في الرسالة مرة أخرى: بيع بعض الآلات الباقية هنا استغرق وقتاً طويلاً... سأكتب هذا أيضاً لناظلي... بماذا تفكر هي؟.. لم يأت الرد بعد... ولكن ماذا أقول إذا اشتريت هنا؟.. صدقوني دائماً، ويعتقدون أنني أعرف شيئاً ما لأنهم يعتبرونني ذكياً، وراجح العقل. هل لدي ما أعرفه حقاً؟" شعر بنفسه أكثر حيوية عندما ارتدى قميصاً غسلته زوجة الحاج، فقال: "طبعاً لدي. سأقول لهم إنني أفهم قيمة العالم الذي لم يخرب بعد هنا... لن يفهموا هذا. ثم إنني لا أؤمن بهذا... لماذا أنا هنا إذاً. لأنني أخشى من تثلم طموحي وعصاميتي!" توقف فجأة. "هل هذا صحيح؟ لا، ليس صحيحاً! لأن لدي طموح قوي إلى حد أنه ليس من السهل أن يهترئ... حسنٌ، لماذا؟" جلس على حافة السرير، وخلع قطعة المنامة السفلية. وعندما بردت ساقاه، ارتدى بنطاله على عجل، وانتابته رغبة بالركض، والقفز، وهي التي تنتابه كلما ارتدى البنطال: لأن التفاهة، والحياة العادية لا تبدو لي جذابة... لأن كل شيء صاف، وحقيقي وسط الطبيعة هنا... لا يوجد تزييف هنا، وهذا هو السبب!.." ركض منفعلاً، وأخذ جزمته التي وضعها جانباً لكي لا يشم رائحتها، وبدأ يرتديها. "أشعر أنني فارس من فرسان العصور الوسطى، أو فارس جباية ضرائب، ملاك أراض كبير، أو إنسان حقيقي. ما أجمل هذه الجزمة... ولكن لم يعد يلبسها أحد!" لبس الجزمة التي اشتراها من إرزنجان. وأدخل البنطال في الجزمة، ونهض.

تمتم قائلاً: "ها هو، ها هو! هذا هو الإنسان الحقيقي!" سار خابطاً على الأرضية الخشبية بجزمته. "إنهم يسمعون في الأسفل، ويحضرون الإفطار! نعم!" وقف وسط الغرفة. "لعلني ارتبكت، ولكن هذا هو الصحيح: لقد خلقت من أجل إصدار الأوامر! شعرت بهذا في داخلي دائماً." وتذكر محي الدين فجأة. "ترى ماذا يفعل؟ واخ من هذا المسكين الضئيل! دخل في سباق ذكاء معي طوال فترة صداقتنا. وفوق هذا، فهو ليس أذكى مني! ثم إن

الـذكـاء لـيس كـل شـيء! هنالـك الإرادة، والأهـم هنالـك الحـظ... أنـا محظوظ، ووسيم، وغني..." وفجأة فكر خجلاً: "إنني أرتبك غالباً..." وتوقف فيما كان يرتدي كنزته التي خلعها. "ماذا أفعل أنا، ماذا كنت أود أن أكون؟" في طفولته أيضاً، كان يدفن رأسه في الكنزة عندما يخلعها، ويفكر أيضاً: "ماذا فعلت أنا؟ جئت إلى هنا! وذهبت يميناً ويساراً من أجل بيع الآلات. حملت الآلات في الشاحنات... أخذتها إلى طريق إرظروم. لم يظهر زبون. عدت، وأمضيت وقتاً. وهكذا مضى موعد العرس أيضاً... ماذا كنت سأفعل؟" تذكر فجأة حفل الخطوبة. تجلى أمام عينيه انفعاله أثناء الحفل، ونظرة الجميع إليه بإعجاب، ومحبة. "هل أفعل الأمور نفسها الآن؟ ذهبنا لطلب الفتاة! تحدثنا! أشياء تافهة... هذه الأمور لا تناسبني! ما يناسبني هو العيش قدر ما أستطيع!" تذكر أنه قال لرفيق ومحي الدين: أنا أقول يا أصدقاء إنه يجب العيش قدر ما يُستطاع! قال لنفسه: "ما أسوأ هذا، ما أسوأه! أريد أن أنسى كل هذه الأمور. أريد أن أنسى تهريجي وازدواجيتي التي أشعر بها في المدن، وأكون نفسي!" ارتدى الكنزة، كان سيرتدي معطفه، ولكنه تراجع عن هذا لأنه وجد النهار صافياً، وجسمه حيوياً. "لا يمكن لروحي أن تشعر بانفعال كهذا إلا في يوم مشمس كهذا، وبحماس، والانهماك للقيام بعمل حقيقي." توقف فجأة. "ولكنني أريد أن أذهب إلى اسطنبول أيضاً، سأذهب! ماذا يفعلون هناك؟ ماذا تفعل تلك الحياة المألوفة لي، والتي مللت منها، وسئمت؟ كيف هو وضع اسطنبول، يدفعني الفضول لمعرفة هذا..." كان خارجاً من الغرفة. فكر: "سأذهب إلى اسطنبول، وأراها، وأقرر، وآتي!" فتح الباب، وبدأ ينزل الدرج مسمعاً صوت جزمته. "ولكنني قررت على الأغلب! هل قررت؟ فاتح! هاه! ماذا ستفتحون يا هر فاتح؟.. وها أنا أنزل الدرج، ولا أريد أن أفكر يا هر فون رودولف! والآن سأتناول الإفطار، وأعيش..."

نزل إلى الأسفل. لم يكن ثمة أحد هناك. خرج. جذبت الشمس عينيه. ورأى كلب الحاج ذي الوبر، ثم رأى الحاج. وبدأ الحاج يتحدث عن المولّد، والإفطار.

55
ختان

قال لاعب الخفة: "قل الآن يا ولد، ما الذي في هذا الكأس؟"

قال الولد: "ماء يا سيدي!" وكان ولده حقيقة.

"من أين ملأنا هذا الماء؟ من البحر الأسود، أم بحر الخزر، أم بحر الهند، أم البئر الذي هناك؟"

قال عثمان: "الحوذيون ينتحون من البئر الذي هناك!"

لم يستطيعوا الضحك من حركات لاعب الخفة، ولكن كل من كان جالساً في الشرفة بدأ يضحك لأنهم كانوا جاهزين للضحك. لم يكن من الممكن تلبية متطلبات الحوذيين الذين يلجون إلى بئر بيت جزيرة هيبلي، ويضعون خيولهم في طرف الحديقة، ويسقونها. بدت نيفان خانم كأنها قطبت وجهها باعتياد لفتح هذا الموضوع، ولكنها انضمت بعد ذلك إلى المرح. يجب أن تكون مرحة اليوم لأن حفيدها جميل قد ختن صباحاً.

قال الولد: "ملأناه من البئر الذي هناك!"

اشتكى لاعب الخفة لأنهم لم يضحكوا لمازحاته، بل لمازحات أخرى فهموها، ولم يستطع ضبطها، وقرع بعصاه الولد على ظهره مرتين، وقال: "لماذا تضحك، لا تضحك، واسمع!" فهم أن الأطفال الذين في الشرفة،

والمختون المتمدد في السرير قد ضحكوا لنهز العصا فقط. نزل بالعصا مرة أخرى على ظهر ابنه، وقال: "يلزمنا مساعد! من يساعدنا يا سادة؟" وقد سأل هذا لجميل.

نظر جميل إلى الضيوف والأقرباء الجالسين على كراسي عادية، كراسي بحر فوق إفريز عريض من البناء أكثر مما هو شرفة.

"العم سعيد بيك!"

قال لاعب الخفة: "غير ممكن!"

"العم فؤاد... حسنٌ، العم رفيق..."

"غير ممكن، غير ممكن... كم لديك أعمام يا صغيري؟ ولكن مستحيل. اختر من بين أصدقائك، من الأولاد!"

أشار جميل إلى أحد أصدقائه من سكان الجزيرة. فأمسك لاعب الخفة الولد من ذراعه، وجذبه إلى الوسط. خيم صمت. كأن أحداً لم يحب لاعب الخفة هذا: إنه لا يشبههم، ولم يكن يبحث عما يبحثون هم ليضحك، ويضحكهم. وخطر ببال رفيق أن يخلق جسر تواصل بين الضيوف ولاعب الخفة الذي أشفق عليه رفيق، ولكنه لم يكن يعرف ما يجب أن يفعله من أجل هذا.

شرب لاعب الخفة رشفة ماء من الكأس. وشرّب ابنه اليافع رشفة، ثم قرّب الكأس من فم الولد الذي يرتدي بنطالاً قصيراً له حمالتين، نظيف الألبسة وقد سحبه إلى الوسط، وقال: "والآن سيتجرع السيد الصغير هذا الكأس، وسيتدفق الماء من بطنه!" وكان يمسح قطرات العرق عن جبينه ورقبته بمنديل أحمر.

قفزت أم الولد الجالسة جانباً، وقالت: "لا ***bois bas*** من ذلك الكأس!"

قالت نرمين: "طبعاً، احذر!" ونادت أمينة خانم التي كانت تتفرج ضاحكة من إحدى الزوايا: "اجلبي كأس ماء نظيف بسرعة." دهش الولد الذي قرب الكأس من فمه، وخاف. فأغلق فمه بقوة، كان ينظر إلى أمه لكي لا يرتكب خطأ.

قال لاعب الخفة غاضباً: "لا حاجة للكأس... حسنٌ، حسنٌ! ها هو قد شرب!" رغم أن الولد لم يشرب. وأخذ لاعب الخفة من ابنه أنبوباً، وأسنده إلى بطن الولد، وفتحه، وقال: "ها هو الماء يتدفق من بطنه!" كان الماء ينسكب من الأنبوب على أرض الشرفة. وأدرك لاعب الخفة أن هذا لن يمر بتسامح، فأغلق فتحة الأنبوب بيده. وبعد ذلك، قرع ابنه بالعصا على ظهره مرة أخرى، ثم أظهر أن قبعته الطويلة تكاد أن تسقط. فقرفص مبدياً أنه يبحث عن قبعته. ولم يستطع إيجادها لأن ابنه يطأ عليها، ويضحك الأولاد.

قالت نرمين: "هذا أسلوب تركي زائد عن الحد يا روحي!"

قال سعيد نديم بيك: "الحقيقة أن تحريك دمى كركوز يمكن أن تقابل بمرح أكبر! ولكنني لا أحب كثيراً حفلات اللهو في رمضان والختان! شاهدت (ناشد) ذات مرة، لم أفهم لماذا كانوا يضحكون. ولكن أبي كان يحبه كثيراً."

بحثت عطية خانم عن زاوية يظهر فيها الأولاد الضاحكون، ولاعب الخفة، وجميل المتمدد في السرير، ووجدتها، والتقطت لهم صورة.

التفتت نرمين إلى عثمان: "من أين وجدت هذا الرجل؟"

قال عثمان: "ماذا في ذلك يا روحي! استدعته أسرة طورغوت بيك أيضاً. وهاهم الأولاد يضحكون أيضاً!"

أراد رفيق أن يقول شيئاً للدفاع عن لاعب خفة اليد، ولكن شيئاً لم يخطر بباله. فقال: "إنه رجل ظريف!" ولكنه خجل من كلامه، وقرر أن يقرأ كتباً عن كركوز، وعن المسرح الشعبي. ثم فكر بعد ذلك أن مهارة الرجل لا تعتمد على الكلمة، بل على الخداع البصري، وأن لاعب الخفة الحقيقي هو مخاتل حقيقي للعين. ولكن الرجل لم يلعب غير لعبة صندوق لم تمر على أحد، ولعبة سكب الماء العبثية هذه.

قال فؤاد بيك: "يبدو أن هؤلاء يعملون شراكة مع الختانين..."

قالت غولار خانم: "إنه رجل مسكين!"

نظر رفيق إلى غولار خانم. دخل بعد ذلك إلى الغرفة متذكراً أن بريهان مع الطفلة فيها. خرجت ملك قبل قليل إلى الشرفة، ورأت لاعب خفة اليد

وابنه، والقبعة التي على رأسه، فخافت، وبدأت تبكي. وضحك الجميع لهذا، ولكن رفيقاً حزيناً لحال لاعب خفة اليد الآن. لم يجد بريهان وملك في الغرفة الخلفية، كانتا أمام النافذة في الغرفة الوسطى. وكانت بريهان تشرب الطفلة شاياً.

"ستأخذ عائشة ورمزي ملكاً إلى البحر."

قال رفيق: "لعلهما يريدان أن يتنزها وحدهما!"

"لا! هما طلبا هذا... ما بك أنت؟ هل تشعر بالضيق مجدداً؟ هل كان من الخطأ مجيؤنا؟"

سيكتب رفيق عما يجب فعله "من أجل حياة كريمة"، ولهذا قرر عدم المجيء إلى جزيرة هيبلي لأنه كان يعتبرها نتيجة أولى للحياة في البيت، وكان هذا بسبب برنامج أعماله الذي لم ينهه بأي شكل. فرحا عندما جاء الجميع إلى هنا في مطلع حزيران لأن البيت بقي لهما، وقد خططا للانتقال من البيت نهائياً في الربيع، ولكن الحر اشتد في نهاية تموز، وعندما ظهر طفح غريب على ساقي وذراعي الفتاة جاؤوا إلى الجزيرة في أسبوع ختان جميل.

قال رفيق: "لا، لماذا سيكون سيئاً؟ حسنٌ فعلنا! انفرجنا قليلاً!"

"ولكنك ستعود غداً..."

"ليس بسبب الضيق يا روحي، أنت تعرفين أنني سأعود للقاء محي الدين وعمر. وسأعود مساء الاثنين مع عثمان!"

"ماذا يقول عمر؟"

"أخبرتك يا... كان بمقدورنا أن نتكلم فترة قصيرة جداً على الهاتف. قال إنه عاد من كماه قبل أربعة أيام... وهو يريد أن يلتقي بي. وقد اتصلت بمحي الدين. حسبت: لم نلتق معاً منذ خطوبة عمر قبل سنتين ونصف."

"هل ترك عمر تلك الفتاة؟"

"لا أعرف. كانا سيتزوجان هذا الربيع. ولكن بما أنه لم يحدث شيء، وقضى عمر أشهراً في كماه دون أن يفعل شيئاً..."

قالت بريهان: "هل أذهب غداً معك؟"

"ماذا ستفعلين أنت هناك؟ نحن سنجلس في البيت، ونتحدث فيما بيننا..."

قالت بريهان: "وأنا أنتظرك في الأعلى مع الطفلة!" وعندما رأت وجه رفيق، أضافت بسرعة: "حسنٌ، حسنٌ! لن أذهب. قلت هذا لمجرد الحديث... ولكنني لا أحب التفكير بلقائك معهما للحديث، ونقاشكم الجدي. ومن عزوبيتهما، وشربهما المشروب، واستخفافهما بكل شيء..."

"أولاً أنت تعرفين أن محي الدين لم يعد يشرب. ثم إنني أعتقد بأن محي الدين لا يستخف بكل شيء. لديه عقيدته حتى وإن كانت عبثية. وعمر أيضاً..." وشرع رفيق يشرح لها. ولكنه ارتعد فجأة، وقال: "لا تفعلي هذا يا بريهان، أرجوك لا تفكري على هذا النحو، إنهما أفضل صديقين لي!" وجلس بجانب زوجته.

قالت بريهان: "سيلقيان الشك في نفسك من جديد... أنا لا أقول شيئاً للقائك بكل منهما على انفراد. ولكن عندما تلتقي بهما معاً..."

قال رفيق: " لطفاً لنغلق هذا الموضوع حالياً!" وأشار إلى الباب. ونهض.

دخلت عائشة، ورمزي وراءها. حملت عائشة الطفلة بين ذراعيها، وقالت: "سنريك البحر!"

كانت بريهان تبتسم. بينما كان رمزي السمين والضخم البنية مسترخياً أكثر من عادته، نظر رفيق إليهما قبل خروجهما من الغرفة، وفكر: "هذان أيضاً يتزوجان، وينهمكان بالأولاد." نزل من الدرج الداخلي إلى الأسفل. فرأى لاعب الخفة وابنه في غرفة مضخة الماء، و الغسيل. كانا يرتبان حقيبتهما. دخل رفيق معتقداً أن عليه أن يرضيهما.

"كان جميلاً جداً يا معلم. مبروك!"

"سلمتم!"

فكر رفيق هذه المرة بأنه يجب أن يقترب من الناس، ويتعلم بعض الأشياء منهم وفق البرنامج الذي أعده، فقال: "كيف حال العمل يا معلم؟"

قال المعلم: "العمل الآن جيد، إنه موسم الختان، ولكنه ينقطع فيما بعد! وهناك عمل في رمضان أيضاً!"

شعر رفيق بأنه يعرف هذا من قبل، ويدرك هموم المعلم حتى النهاية، أو أنه أراد أن يشعر بهذا، فكرر القول: "طبعاً في رمضان، في رمضان! حسنٌ، ماذا تعملون في الأوقات الأخرى؟"

"أنا أعمل أساساً بتنجيد اللحف يا سيدي. والولد يعود إلى القرية شتاء. لا يحب هذا العمل معتبراً أنهم يسخرون منا. ولم أستطع تعليمه تنجيد اللحف. قالوا لي إنه موهوب جداً، أدخله إلى مدرسة ليغدو ممثلاً. أخذته، فقالوا لي هذا غير ممكن من دون شهادة. ماذا أفعل له الآن؟ الشتاء قادم. هل أرسله إلى القرية؟ ليس لدي شيء... ويُعاني من ضيق بالتنفس. إيه، ولا يستطيع أن يعمل في القرية عاملاً مياوماً!"

فكر رفيق بأن على الفتى أن يجد حلاً على وجه السرعة: "يجب أن يوجد عمل لهذا الشاب، أليس كذلك؟"

"لو وجد عمل! ولكن أين العمل؟ أنتم أغنياء، ولديكم إمكانيات!" والتفت إلى الولد: "هيا خذ الحقيبة!"

فكر رفيق للحظة بتدبير عمل للشاب في المستودعات، ولكن عثمان خطر بباله، فتمتم: "والله يا عزيزي المعلم..."

قال لاعب الخفة: "نعم، نعم! نحن ذاهبون إلى بيت طورغوت بيك يا سيدي!"

قال رفيق: "إذا أردنا أن نلتقي بشأن موضوع العمل!" وخجل عندما أدرك أن لسانه قد انحرف حين فكر بالمكتب، والشركة. قال: "سأفتش لكم عن عمل!" وسار حتى الحديقة وراء لاعب الخفة وابنه. وفكر: "بالطبع، من غير الممكن محاولة إنقاذهم فرادى!" ولكن هذا لم يسليه. صعد عبر الدرج الذي في الخارج، وسار على طول السياج الخشبي المغطى بنبات القراص: "حسنٌ، ماذا يمكن أن أفعل من أجل إنقاذهم جماعياً؟" وفكر بالكتاب الذي نشرته وزارة الزراعة. ولم يحصل الكتاب على أي صدى غير مقالة بعنوان: "الحقيقة والخيال" عكست بلغة ساخرة معلومات الكاتب الموسوعية، أكثر مما تحدثت عن الكتاب. قال لنفسه: "الأفكار التي هناك كانت خاطئة... ما يلزمنا أساساً إجراءات من أجل الثقافة. وأنا أبحث

عما يجب أن تكون. أو على الأصح، أحاول إيجاد أسلوب الحياة الذي يوجهنا إليها!" ولكنه لم يسل نفسه أيضاً. وفكر من أجل تهدئة نفسه: "ما أجمل ما سنتحدث به غداً مع محي الدين ورفيق!" وخشية أن يبدو مضحكاً، ولمعرفته أن أفكارهم قد تركزت على نقاط أخرى، شعر بأنه لن يستطيع أن يتحدث معهم كما يريد. ولكن هذه الفكرة أراحته رغم ذلك. جلس في الشرفة على كرسي فارغ بجانب عثمان الذي يجلس بين سعيد نديم بيك، وبين نرمين.

"لقد ذهب لاعب الخفة. يقول بأن ابنه موهوب، ولكنه لا يجد عملاً! أنا أفكر فيما إذا كنا نستطيع إيجاد عمل له!"

سأل عثمان: "هل طلب منك عملاً؟ لقد أعطيته أجرته. يعني أنه يريد عملاً... ولكنك تعرف أنه ليس لدينا عمل غير العتالة والكتابة!"

سأل سعيد نديم بيك: "هل يريد عملاً؟ أنا لا أعرف الابن، ولكن الأب يبدو لاعب خفة جيداً. لدي ملامحه الخاصة. كان عند أبي حوذي، يشبهه تماماً. كنا نناديه بيرم بابا... كان رجلاً حنوناً، لديه طريقة خاصة بالجلوس في العربة..."

التفت عثمان إلى رفيق، وقال: "إنه يشبه ذلك الشيء! في زمن أي سلطان؟.. فهو يقول بعد حفل الختان، ماذا تريدون مني؟ وهم يقولون: انكشارية! وتخرب الانكشارية! هه، هه!"

حينئذ تأوه جميل المتمدد في سريره، وأصدر أصواتَ شكوى. جلست أمه التي كانت تتحدث مع ليلى خانم على حافة السرير المغطى بالهدايا، وسألته. حين رآهما عثمان الذي كان يتحدث مع فؤاد بيك، نادى من حيث كان يجلس: "هل يؤلمك؟"

وخيم صمت. دفع الفضول رفيق لمعرفة ما تفكر فيه ليلى وبقية البنات في الزاوية. وفكر: "إن هذا المسمى ختاناً ليس سوى مراسم غبية جداً، ووحشية، وبدائية أساساً!" وهب واقفاً.

قالت نيغان خانم: "انتظر، إلى أين تذهب مجدداً، اجلس قليلاً، نحن لا نستطيع رؤية وجهك أساساً!"

تمتم رفيق: "نعم بدائية، ووحشية، ومراسم قبيحة مناسبة لنا بالضبط!" ودخل. "إنهم يقطعون قطعة لحم يرون أن لا حاجة لها... ما الضرورة لهذا؟" تذكر بعض الأفكار التي قرأها، أو سمع عنها حول النظافة والصحة في هذا الموضوع. "حسنٌ، لنقل إن كل هذا ضروري... ولكن ما الضرورة للحفل؟.. نعلم الجميع بهذا، يعلم الجميع، ويجلبون هدايا... والولد الخجل من هذا الأمر، يفرح بسبب بالهدايا." تذكر ختانه. أراد إخفاء هذه الحادثة التي خجل منها عن الجميع، ولكن الآخرين قابلوها بفرح، ومرح، وعندما رأى الحب والهدايا التي أغرقوه بها وكأنه قام بمأثرة ما، نسي خجله، وصدق كلمات الآخرين بضرورة أن يباهي بهذه الحادثة، وتباهى. وحين اتجه نحو غرفته، فكر: "من الواضح أساساً أنه لم يكن لي شخصية منذ ذلك التاريخ! والآن تقول بريهان الأمر نفسه بشكل غير مباشر. عندما أكون بجانبهم، أو بجانبهما أغدو لاشيء... أدخل تحت تأثيرهما على الأغلب!" بحث عن بريهان في غرفتهما، ولم يجدها، ألقى بنفسه على ظهره فوق السرير. فكر: "لو أننا جلسنا في البيت. كان من الممكن أن أقدم هدية الولد في مناسبة أخرى!" وفكر بأنه اشترى هدية للولد مثل الآخرين، وأنه تصرف مثل أولئك القبيحين الذين تصرفوا معه بعقل محدود مادحين له يوم ختانه. "حسنٌ، ماذا كنت سأفعل؟ سيغضبون مني إذا لم أشتر هدية أبداً، ويعتقدون أنني لا أحب الولد. والأسوأ من كل هذا، سيعتقد جميل بهذا! لقد اشتريت له كتاباً على الأقل. غير هذا، يقول روسو إن الكتاب أفضل ما يعطى لولد! ولكن بالطبع فإن الكتاب رخيص، ولكي أظهر له مدى حبي له، كان علي أن أتحمل بعض النفقات، فاشتريت له ساعة يد أيضاً. وتصور فرحة الولد عندما يستيقظ صباحاً، ويجد أن الآخرين قد جلبوا له ساعات يد أيضاً، ويلبسها كلها في معصمه. بقيت لاله منزوية لأنهم لم يقيموا حفلاً كهذا لها، وطلبوا منها أن تذهب لتبارك لأخيها. وفكر: "مقرف، كل شيء مقرف! يجب منع مراسم الختان! أي حكومة تستطيع عمل هذا؟.. يجب أن تكون هناك حكومة ثورية، ولكن الثورات أيضاً قد انتهت. حسنٌ، ماذا يمكنهم أن يفعلوا؟.. نعم، يجب أن أخفض مستوى العلاقة معهم إلى أدنى حد... يجب أن نغادر بيت نيشان طاش كما

قررنا أنا وبريهان... يجب أن أجعلهم يقرؤون دانييل ديفو، وأعمال روسو الكاملة." اشترى لجميل النسخة الفرنسية لروبنسون. فكر بأن الطفل سيتردد بقراءة الفرنسية، فخيم عليه اليأس. توجد ترجمة سيئة، ومختصرة لهذا الكتاب الموسوم: "ثمانية وعشرون عاماً في جزيرة قفر". فكر: "حسنٌ، كيف سيقرأ الشعب روبنسون؟" وانفعل بشيء آخر خطر بباله، فنهض من السرير، وبدأ يبحث عن بريهان. رآها في الطابق السفلي، بجانب الثلاجة.

قالت بريهان بعينيها: "ماذا هناك؟" كانت تشرب ماء.

"تعالي، تعالي! لدي ما أقوله لك!" وأمسك بريهان التي تركت الكأس من ذراعها. "هل نمشي قليلاً؟"

أشارت بريهان بعينها إلى الأعلى، نحو الشرفة العلوية.

قال رفيق: "تعالي إذاً لنتكلم هناك!" وابتسم للطباخ يلماظ الذي كان ينظر إليهما بفضول. وسار مع بريهان فترة في الحديقة الخلفية المرتفعة نحو التل الخلفي وكانا يحرصان على عدم الانزلاق على أوراق الصنوبر المتساقطة، والجافة على الأرض.

قالت بريهان: "هيا، قل ما تريد قوله. حالنا هذه مضحكة!"

قال رفيق على عجل: "هل تغضبين مني؟ أرجوك لا تغضبي، وحبيني! لن أذهب إلى المكتب بعد الخريف المقبل..."

"ماذا ستفعل؟"

"سأؤسس داراً للنشر تنشر الكتب التي من المفروض أن يقرأها الجميع! ثم إنني فكرت بهذا: يجب أن يمنع الختان. لا، هذا ليس مهماً. يجب تأسيس دار النشر، سأؤسسها."

"هل فكرت بهذا جيداً؟ أهذا ما يجب عمله؟ أيمكنك أن تكسب منها نقوداً تكفينا؟"

قال رفيق: "أنا أرى بأن النقود والأسرة تأتي بالدرجة الثانية بالنسبة إلى هذا الأمر!" كان ينظر إلى خلية النحل التي تقع على مبعدة لكي لا ينظر إلى وجه بريهان. وكان جدجد يصفر في مكان ما في الأعلى.

قالت بريهان: "أريد أن أبكي... إذا وقفنا هنا سأبكي... هيا، لنذهب إلى هناك!"

"ماذا يوجد هناك؟ لهو تافه وضيع. حفل ختان. ما أقبح هذا، وما أقرفه، ألا تستطيعين التفكير؟ ثم إنهم يلبسون الولد المسكين على مرأى من البنات الصغار، ويضعون على رأسه تلك القبعة المضحكة... ويجتمعون حوله، ويثرثرون ثرثرتهم التافهة... أو سخريتهم من لاعب الخفة... انتظري، ستسقطين... لنذهب إلى غرفتنا. لاعب الخفة ذاك شخص محترم أكثر منهم ألف مرة... وتلك المرأة المدعوة غولار. أتعتقدين أنني سأذهب، وأجلس بجانبها؟"

"لا أعتقد شيئاً، ولا أفكر..."

"حسنٌ، سأفعل أنا أيضاً ذلك إن أردت. ولكن إلى متى يمكن أن يستمر هذا باعتقادك؟ لم تغضبي مني يا؟"

التفت بريهان، وضحكت: "لم أغضب!"

قال رفيق مرحاً: "أنا أيضاً أدهش عندما أذكر غولار خانم تلك! أنت لا تعتقدين بأنني سأبدأ النقاش ذاته إن شاء الله..ها، نعم، أنت لا تعتقدين شيئاً... عمر أيضاً يتوتر من تلك المرأة... أديري وجهك، هل تضحكين؟" ارتاح عندما رأى أن بريهان لم تقطب وجهها: "عمر أو محي الدين على الأغلب، هل تعرفين ماذا قال عن تلك المرأة، والعائلة؟"

"ستذهب غداً، أليس كذلك؟"

"نعم. إلى أين نذهب الآن؟" وسار خلف بريهان المتجهة نحو الشرفة. "حسنٌ، حسنٌ! لنجلس معهم. سيكون معيباً ألا نجلس معهم. نعم، ولكنني لأكرر لك بأن كلامي جدي..." وفيما كانا يذهبان إلى الشرفة رأى المحامي جناب بيك يقبل يد أمه، فغضب، وقال: "ها هو مهرج آخر!"

قالت بريهان: "هذا إنسان هادئ، عديم الضرر على الأقل!"

56
تحقيق

تمتم عمر: "نيشان طاشٍ". كان قد نزل من سيارة الأجرة. "وهذا حجر التهديف نفسه... ماذا كتب عليه، لم أفكر بهذا..." نظر إلى بيت أسرة رفيق، وانتقل إلى الطرف الآخر. "النوافذ، والستائر والأباجورات مغلقة! هل رفيق غير موجود؟ لا يا روحي، إنه في البيت بالتأكيد... حسنٌ، ما هو الشعور الذي يتأجج في داخلي عندما أرى هذا البيت؟ بماذا أفكر؟ أفكر أنني عبرت الآن من طرف إلى آخر. أفكر أن أصباح أيام الأحد جميلة. كم الساعة؟ الحادية عشرة وخمس..." سار على طول الجدار، ووقف أمام باب الحديقة. "الآن سيقرع الجرس، وسيقفز رفيق المصغي إلى الجرس، والمتعلق بالصحبة والحديث." فتح الباب، وقرع الجرس، ولكن رفيقاً لم يظهر. تمتم عمر مجدداً: "نعم، بماذا أفكر؟ سيوجه إلي أسئلة. ماذا سأقول له؟ سأقول له بحزن: إن ذلك الأمر لم يتم مع ناظلي يا أخي! سيدهش، ويسأل." وخلال صعوده الدرجتين أمام باب البيت خطر بباله أنه لم يأت إلى هذا البيت سابقاً في هذا الوقت، وهذا الضوء. "كنت آتي دائماً بعد الظهر، ومساء، ونلعب البوكر، و..."

فتح الباب. وقال رفيق: "إيه، كيف حالك؟ كيف حالك؟" وعانقه.

"جيد، ألا يوجد أحد؟"

"لا! أخبرت محي الدين، ولكنه لم يأتِ!"

وحين دخل عمر رأى نفسه في المرآة الطويلة ذات الإطار العريض. كلما جاء إلى هذا البيت وجد نفسه أكثر وسامة مما هو عليه، ولكن هذا لا يبدو له الآن. فكر: "لعل هذا بسبب أن البيت فارغ، وليس فيه من ينظر الي بإعجاب..."

"تعال... ها، أتنظر إلى المرآة؟"

"أنظر كيف يبدو صاحب مزرعة، وآغا زراعي كبير..."

"هاه، ها! أتشبه نفسك الآن بالآغا؟.. هذا آخر ما وصلت إليه ها؟.. حسنٌ، ماذا حصل للفاتح؟"

"لا أشبه نفسي. لقد صرت آغا... قبل ثلاثة أيام، صففت ورثة المزرعة أحدهم بجانب الآخر، وذهبنا إلى كاتب العدل، وانتهى."

صرخ رفيق: "حقاً؟ مبروك! لماذا نقف هنا؟ لندخل إلى الداخل! ولكن لا يمكن أن تغدو آغا... فهذا الاصطلاح بقدر ما يتعلق بعلاقة ملكية، يتعلق بثقافة... نعم... أعتقد أن الظواهر الثقافية أهم من كل شيء! هذه آخر أفكاري طبعاً، يمكنك أن تستمع إليها إذا لم تجدها مضحكة، وتافهة..."

قال عمر متمتماً: "لا يا روحي، لماذا..." ودخل إلى غرفة الجلوس خلف رفيق. دهش عندما رأى الأرائك كلها مغطاة بأغطية بيض، وقد رفعت السجادة عن الأرض: "ألا تقضيان الصيف أنت وبريهان هنا؟"

"نقضيه... ها، نعم، اعتقدت أمي أن الأشياء ستتغير أيضاً. اجلس... حضرت شاياً..."

"ألا يوجد مشروب؟"

"في هذه الساعة؟ هل كنت تشرب هناك؟ هيا، قل لي، ماذا فعلت هناك طوال أشهر؟"

"لا شيء! سأحكي لك. أوه، علقتم صورة والدكم..."

"طبعاً أنت لم تأت منذ ذلك التاريخ حتى الآن، أليس كذلك؟ عُلقت صور أبي في كل مكان... هنالك منها في الغرف الأخرى. هل الجو مظلم؟ أفتح الأباجورات؟"

"لا، لا هكذا أفضل.. هذا يثير انطباع نهاية اليوم لدى الإنسان.. نتحدث هكذا براحة أكبر.."

كرر رفيق بانفعال لم يخفه: "نتحدث!" وخرج من الغرفة ليجلب الشاي.

نهض عمر، وذرع الغرفة رواحاً ومجيئاً. فكر: "نعم، سنتحدث! سيعرف ما فعلته، وما أفكر فيه، وسيقارنه مع ما فعله هو، وسيفرح إذا وجد شيئاً ممتعاً... كما هو دائماً... وأنا أيضاً اتخذ موقف المستخف بأمور كهذه كما أفعل دائماً... لو أننا شربنا مشروباً!" عندما رأى رفيقاً يحمل الصينية وعليها السماور، قال: "هل يوجد ما يؤكل؟" ونزل رفيق إلى الأسفل بحسن نيته المألوفة، وفكر: "كأنني أحاول تأخير أمر ما! كنت أفعل هذا أيام الثانوية أيضاً... أنا لا أحب طرحهم الأسئلة... لا، هذا ليس صحيحاً!" وقف وسط الغرفة فجأة. وفكر: "لو أنني أستطيع إسكات ثرثرة عقلي هذه التي لا تصمت بأي شكل! ما أنا، حسنٌ، أنا؟.. أوه، أوه، صرت هكذا قبل أن أشرب!" جلس على الأريكة التي كان يجلس عليها في السابق جودت بيك، وبدأ ينظر بتوتر.

جلب رفيق مع الشاي جبناً وبسكويتاً. انتبه إلى أن عمر يأكل البسكويت لمجرد أن يبدو أنه يعمل شيئاً، قال: "سيأتي محي الدين على كل حال!"

"ماذا يفعل هو؟"

"تعرف أنه يصدر مجلة. وحصل على رخصتها..."

قال عمر: "أعرف، أعرف. مجلة هراء طورانية... اشتريت عددها الأخير. شيء مقرف! قل لي ماذا يعمل غير هذا!"

قال رفيق: "لا أعرف غير هذا!" وبدا كأنه مضطر لتسلية عمر. "لأتحدث لك عن نفسي إن أردت. أذهب إلى المكتب. وأنفذ برنامجاً سيكون مفيداً حقيقة هذه المرة... علاقتنا بريهان وأنا جيدة... هل دهشت لقولي هذا؟ لأنني أعتقد أنها تكون في بعض الأحيان سيئة. أنت تعرف أنني لست من النوع الذي يستطيع العيش وحده... الطفلة تكبر. لعل الطفلة تبث المرح، ولكن سيكون صعباً! سيكون سيئاً إذا صار لدي طفل آخر. أقرأ الكتب. ماذا أفعل غير هذا؟"

قال عمر: "تتنفس، وتأكل على كل حال... هل كتبت لك أنني رأيت صميماً في أنقرة. حتى إننا ذهبنا لتناول الطعام عنده ذات مرة أنا وناظلي. تزوج!"

"يا!!!!"

"ها هو ذا لديه بيت. ولديه مفروشات في بيته. وهما يريدان شراء مفروشات جديدة وجيدة، ويتعرفان على أناس جدد جيدين!"

كان عمر ينظر إلى رفيق بابتسامة تقول: "لا أستطيع أن أجد أي دعابات مرحة، وكلمات جميلة كهذه مع الأسف!" ويضع بسكويته في الشاي لكي يلينه.

"هو أيضاً يعيش، ويتنفس. ها، لقد قال شيئاً عنا... أي عنا نحن الثلاثة. كان يخاف منا... هل قرع الجرس؟"

"إنه محي الدين... يعني أنه يخاف؟ ماذا يعني هذا؟" قال هذا رفيق فيما كان يمد رأسه من النافذة. قال: "محي الدين. إنه محي الدين!" وخرج من الغرفة ليفتح الباب.

نهض عمر، وذهب إلى جوار النافذة، وعندما وارب الأباجور، رأى محي الدين. وبدا كأن حباً سيتأجج بداخله فجأة، ولكنه قلق عندما رأى نظرة محي الدين الغاضبة تلك التي تدقق بالأشياء. فكر: "نعم، سنتحدث عن حياتنا من جديد، ونكتشف من يفعل أفضل! كل منا سيقول إنه على حق. لو أنني حكيت لرفيق عن قضية ناظلي قبل مجيء محي الدين! لو شربنا مشروباً. سيجدان هذا الأمر غريباً في هذا اليوم الدافئ طبعاً. لماذا يعيشان؟" سمع صوت محي الدين، ونهض. وفكر فجأة بأنه جاء إلى اسطنبول للاشيء عندما سمع صوت محي الدين.

- تمتم محي الدين قائلاً: "ها هو الأمر كما توقعت... هم م م... كيف حالك؟" واندس بعمر. مد يده، وقال: "هيا لنر، لنتصافح!" أمسك يد عمر لحظة، وتركها. "بماذا تفكر؟ كيف وجدتني؟"

"أراك بصحة جيدة!"

"هكذا إذاً؟" كان محي الدين ينظر إلى الأشياء حوله. والتفت إلى رفيق فجأة: "لماذا لفت هذه الأشياء بالأكفان؟" يبدو انه لم يُعجب بمزاحه، فكشر، وجلس.

قال رفيق: "هل تشرب شاياً؟"

"أشرب... الأمور نفسها دائماً..."

قال عمر: "هل يؤثر ضوء الشمس على عينيك؟"

"لا، لا تسوء عيني خزي الشيطان! هيا، لنتحدث..."

قال عمر: "بماذا أتحدث؟ ها أنا أعيش!" ولأنه خشي أن يبدو غير مرتاح، أضاف: "أعيش مرتاحاً في قصر جميل في الب..."

قال محي الدين: "حسنٌ، التصورات، والأحلام، والطموحات، والرغبات..."

نظر عمر إلى محي الدين كأنه ينظر إلى من يتكلم لغة أجنبية. ثم التفت إلى رفيق، وابتسم. وارتاح معتقداً بأن ابتسامته تشبه ابتسامة أحد وقال: "يبدو أن هذا الصديق يقصد الأمور الفارغة، ولكنني لم أستطع الفهم!" كما أراد بالضبط.

أعاد محي الدين: "أين التصورات، والطموحات... ماذا جرى لها؟"

قال عمر: "مازالت موجودة!" وأدرك أنه لن يستطيع إخفاء انزعاجه. "مازالت، إنها كما هي... نعم، أنا انجز أموراً... أوصلت الكهرباء إلى تلك القرية التي في رأس ذلك الجبل مثلاً... أي إلى ذلك القصر..."

قفز رفيق: "حقاً؟ هذا يعني أنك أوصلت النور إلى هناك!"

قال عمر معتقداً أن هذه السذاجة ستبدو مضحكة أكثر لمحي الدين: "ولكن ليس النور الفلسفي، بل نور المصباح!"

بدا رفيق خجلاً من انفعاله. وقال: "كل منهما يكمل الآخر! ولكنني أعتقد أن الفلسفي أهم..."

"ألا يوجد مشروب يا هو، مشروب؟"

قال محي الدين: "أتيتُ إلى المكان الخطأ على الأغلب! أنتما معتما تماماً يا هو!"

قال رفيق: "هل أذهب، واشتري مشروباً. ماذا سنفعل بالشاي؟"

قال عمر: "اشتر، لماذا تنتظر! هل تشرب أنت؟ لا تشرب، أليس كذلك؟ أنت عزلت نفسك في دير التفاحة الحمراء في جبل الطاي!.. ولكنك تعرف أن الخوارنة يشربون!"

قال محي الدين: "لم أحب مزاحك أبداً!" كان يحاول أن يبدو بارد الأعصاب، وجدياً على الأغلب.

قال عمر: "أحبه إن أردت، أو لا تحبه!" والتفت إلى رفيق: "ماذا ستشتري؟ اشتر عرقاً، وليكن محلياً، هذا ما يريده صديقنا... اشتر مخمر حليب المهر إن أردت!" هو أيضاً لم يكن مسروراً لمزاحه الأخير هذا، ولكنه التفت إلى محي الدين باسماً ليكوي قلب صديقه.

قال محي الدين: "أنت تحب نفسك كثيراً على ما يبدو!"

قال عمر: "لا، أنا لا أحب أحداً! أنا مثلك." وأشار إلى رفيق: "هو يحب بعضهم على كل حال!.. لهذا السبب يعيش على هذا النحو يا... أي أنه يعيش..."

بدا رفيق مسروراً لأن الحديث الذي يرغب فيه، ويبحث عنه قد وجده. أراد أن يرد على عمر على الأغلب، ولكنه لم يجد شيئاً. قال: "لأشتر مقبلات أيضاً، أليس كذلك؟ محي الدين، يمكنك أن تأخذ شاياً من هناك إن أردت..."

قال عمر: "اشتر مقبلات أيضاً. لولاك لما وقع أحدنا بجانب الآخر!"

قال رفيق: "صداقتنا مختلفة يا روحي!" وخرج.

قال محي الدين بموقف بارد: "انظر، لأقل لك مرة أخرى إنني لم أحب مزاحك قبل قليل! أرجوك، لا تجعلني نادماً على مجيئي إلى هنا، ممكن هذا؟ أساساً أنا لم أكن أرغب بالمجيء، ولكنني جئت في اللحظة الأخيرة!"

قال عمر: "ياه، يعني إنك لم تكن تريد أن تأتي! ماذا كنت ستفعل إذاً؟ اشتريت عدداً من المجلة، وقرأته."

قال محي الدين: "لا تفتح هذا الموضوع يا هذا!" ونهض، وبدأ يمشي داخل الغرفة: "لم أكن آتي طبعاً... لولا أن دعاني رفيق..."

"لا تقابل رفيقاً كثيراً أيضاً... لماذا لا تتقابلان؟"

"لا يوجد ما نتكلم فيه على كل حال! ثم إنني لا أجد وقتاً. وفوق هذا فقد غدا رفيق غريباً..."

"كيف؟"

"لا أدري والله، ولكنك إذا أضفت حسن نيته الواصلة إلى درجة الخبل، ونوبات: ماذا أفعل في الحياة! فستفهم ما قصدته... كان قديماً واحداً منا على الأغلب، ولكنه الآن يشبه أجنبياً... قلت له إنك تتفرنج..." والتفت فجأة. "يشبه بهذا الجانب...!"

قال عمر مرتاحاً: "لم تتغير يا عزيزي محي الدين!"

"هذه واحدة أخرى من ملاحظاتك السطحية... أنا تغيرت كثيراً! أنا رجل قضية!"

قال عمر متوتراً: "هذا ما تعتقده! ثم إنك لم تكن تحب قول العبارات الفضفاضة كهذه! حقاً، هل تؤمن بما تؤمن؟"

قال محي الدين: "دع عنك هذا الظُرف! ما أهمية أن أؤمن أو لا أؤمن؟ أفعل شيئاً ما في ذلك الطريق. هناك فائدة لي في تلك القضية!.. أفعل هذا بصدق، وما أهمية الا أفعل؟.. أفعل شيئاً ما، وهو يفيد بشيء..."

قال عمر: "هل يمكننا أن نعتبر هذا اعترافاً؟"

"قلت لك دع عنك هذه الظُرف. ليس هناك شيء هام من ذكائك كما ترى، أليس كذلك؟" دس يديه في جيبيه، وكان ينظر إلى الأشياء وليس إلى عمر.

فهم عمر أنه انزعج. وفكر: "أحب كل ما يشبهني! ما عملي هنا؟" كانت لي هناك حياتي الهادئة، الفنية، المتوازنة! لا! أو أنني لا أعرف... أين يجب أن يُعاش؟"

كان محي الدين يمشي دون أن يخرج يديه من جيبيه. دخل إلى الصالة، وإلى الغرفة المجاورة، ونادى من هناك: "بماذا تفكر حول هذا البيت؟ على مدى كم سنة جئنا إليه، وذهبنا، ولكننا لم نجده مرة واحدة فارغاً على هذا النحو! كأنه الآن..."

كان عمر أيضاً ينظر إلى الأشياء. وفجأة انبعث صوت بيانو من الغرفة الأخرى. كان محي الدين ينقر على الأصابع بشكل عشوائي. بعد أن نقر على البيانو فترة، أغلق غطاءه مصدراً صخباً.

"ماذا حدث بينك وبين تلك الفتاة؟"

قال عمر: "لم يعد ثمة شيء بيننا!"

"هل كانت تعزف على البيانو؟ يعني أنها لم تكن تعزف... أنا فكرت دائماً أنك ستتزوج واحدة تعزف على البيانو... في الحقيقة أن أخت رفيق تناسبك!" وضحك. "سيفرحون كثيراً ها... كنت تقبل يد جودت بيك. واليوم تنظر باحترام إلى صورته. جودت بيك رجل عظيم، مؤسس بيتنا، إنسان لا مثيل له، عائلتنا ممتنة لك!" ودخل إلى الغرفة.

"تمرح وحدك جيداً..."

خيم صمت. وأشعل عمر سيجارة.

كان محي الدين يذرع الغرفة من جديد. سأل: "أين تأخر هذا؟"

قال عمر: "اليوم أحد. لم يجد دكاناً مفتوحاً!" فكر أنه تكلم لمجرد أن يتكلم، وأن يهدأ.

قال محي الدين: "أوه، تطورت نيشان طاش كثيراً منذ ذهابك!"

سُمع الجرس. بعد قليل، وفتح رفيق الباب، ودخل. كان يحمل بيديه صرراً، ويبدو منفعلاً.

"إيه، بماذا تحدثتما، بماذا تحدثتما؟"

قال محي الدين: "لا شيء!"

قال رفيق: "سآتي حالاً، سآتي حالاً!" وهرع إلى المطبخ. وخلال نزوله الدرج حكى لهما عما جلبه، وما لم يجده. ثم جاء حاملاً صحوناً، وشوكات، وسكاكين، وقال: "يجب أن نجلس إلى الطاولة، لنأكل هناك، على تلك الطاولة الصغيرة!"

قال محي الدين: "احذر أن تلوث الطاولة الصغيرة!"

قال رفيق: "لا، لن تلوث!" ثم التفت، ونظر إلى محي الدين، وفهم أنه يسخر، ولكنه لم يغضب. لابد أنه فرح لأنهما قريبان إلى حد أن أحدهما يسخر من الآخر. هرع، وجلب زجاجة العرق، والكؤوس.

قال عمر: "انظر ما جلبه لك يا محي الدين!"

قال محي الدين: "أنا لن أشرب... سأذهب بعد الظهر أساساً إلى مكان!"

قال رفيق: "لا تفعلها يا هذا، ما أجمل أن نجلس، ونتكلم!"

"سنتكلم بما نريد خلال ساعتين!"

قال عمر: "نعم، لنبدأ إذاً أيها السادة!" وفتح زجاجة العرق. وملأ الكأس بسرعة، ونهض: "هو ذا يوم التحقيق الكبير قد حل. ذانك الملكان على كتفينا يكتبان كل ما فعلناه... هل كانا ملكين؟.. مهما كانا... من فعل، وماذا فعل في الحياة، من على حق في الحياة، سيظهر كل شيء الآن." وفجأة قلب كأسه دون إضافة ماء. وفكر: "لماذا أفعل هكذا؟ لا ضرورة لهذا!"

قال رفيق: "قف يا هذا، ستحرق جوفك!"

محي الدين لم يكن ينبس بكلمة، و كان ينظر إلى ما يحدث بانتباه. كأنه يريد أن يسحب نفسه خارجاً.

قال عمر: "نعم، بدأنا! ما نحن؟ نحن... ها، نعم! رأيت صميماً في أنقرة. قال لي إنه خاف منا. هل تسمع يا محي الدين؟ إنه شاب هادئ بحاله. يقول إنه كان يخاف منا في كلية الهندسة... لماذا يا ترى؟"

قال محي الدين: "لابد أنه كان يخشى من هندامك! كنت تأتي إلى الكلية أنيقاً دائماً... لا يمكن أن يكون هنالك أكثر طبيعية من شعور ذلك الشاب بالانسحاق أمام غليونك، وهندامك المبالغ فيه ذاك!"

"هيا اخرج من هنا! لم يخف مني، بل منا. ومنك على الأغلب. قرأت مجلتك، تصببت عرقاً. شعرت بأن السخونة داهمتني. أطلقت بعد ذلك قهقهة بالطبع! كان يخاف من ذلك الشيء الذي فيك، لا، فينا... حسنٌ! لا تقطب وجهك! أؤجل هذا الموضوع."

قال محي الدين: "سيكون أفضل!"

صرخ عمر: "لا لن أؤجله! سأقول كل ما يخطر ببالي... أنتما تواقان لمعرفة ما أعمله، أليس كذلك؟ سآتي إليك، ولكنني سأفتح دفتري أولاً... تتوقان لمعرفة ما فعلته... أنا..."

قال محي الدين: "لا تعتبر نفسك مهماً إلى هذا لحد يا هذا!" كان يبدو مستمتعاً.

"أنا صرت آغا ملاك أراض. رفيق لا يجد هذا التعبير صحيحاً. صرت شبيهاً به... ذهبنا إلى الكاتب بالعدل، وانتهى... وانفصلت عن خطيبتي أيضاً."

قال محي الدين: "هل انفصلت عن خطيبتك عن طريق الكاتب بالعدل؟"

قال رفيق: "افهم يا روحي، اشترى الأرض عن طريق الكاتب بالعدل..." ثم التفت إلى عمر: "ألا ينجز ذلك العمل في دائرة السجل العقاري؟"

قال محي الدين: "أنت شربت، وأنا لم أشرب، ولكننا من الواضح أننا سكرانان!"

قال عمر: "أنت اشرب شاياً. المشروب ممنوع عليك! أبلغت أنني انفصلت عن خطيبتي.. كيف حدث هذا؟ كان الصهر يتجول في مكان ما حتى تاريخ العرس، ولا يظهر، ماذا يعني هذا؟ كتبوا رسالة... نعم، زوج خالتي كتب تلك الرسالة إلى مختار بيك. لو رأيت هذا يا محي الدين ستدوخ إعجاباً. طبعاً، ستقابل هذا الآن بجد. مهما يكن! الحمد لله أنهم لم يتصرفوا التصرف الدنيء بإعادة خاتم الخطوبة! ها أنا حكيت لكم!"

قال محي الدين: "حسنٌ، ماذا تفعل هناك؟"

"ستتحدث أنت أيضاً بعد ذلك ها... كنت أنهض هناك صباحاً، وأجد لنفسي عملاً. مولد الكهرباء، إصلاح الشاحنة، تزييت مضخة الماء، أو عملاً مشابهاً... لم أتدخل بعمل آخر لأنني مازلت حتى الآن ضيفاً. والآن فإن الدور على الأرض. كنت أذهب إلى كماه لشراء الحاجيات، وإلى إرزنجان من أجل صحبة. يا، لدي أصدقائي هناك. المحافظ، والطبيب... نلعب البوكر. ونثرثر. نحتسي مشروباً. هذا كل شيء... حسنٌ؟ احك أنت الآن لكي نرى. أو احك أنت يا رفيق."

قال رفيق: "حكيت لك قبل قليل، ولكنني لأعد من أجل محي الدين!" وحكى لمحي الدين ما حكاه لعمر. ثم التفت فجأة إلى عمر، وقال: "ماذا يقول مختار بيك عني؟"

قال محي الدين: "يا هذا، لم يكن يخطر ببالي أنك ستواجه إزعاجات كهذه أبداً!"

"لم يقل شيئاً. لابد أنه معجب بك. ولكنه لم يكن يحبني أبداً، أعرف هذا!"

قال رفيق: "هل حدث شيء بينكما؟"

قال عمر غاضباً من شيء: "كان الدور دور محي الدين! لم يكن مختار بيك يحبني، أعرف هذا. كان كلما رآني، يدرك عبثية حياته!"

قال محي الدين: "إنك تعتبر نفسك مهماً من جديد!" غدا بعد ذلك كأنه خجل: "لا تغضب يا روحي... نحن نعرف من أنت طبعاً..." بدأ يأكل المقانق التي مد إليها يده، وأخذها من الصحن.

قال عمر: "إيه، هيا احك أنت!.. ألن تحكي؟ عن ماذا تتحدث، وماذا تشرب؟ لو أنك لم تأت بهذه الحال..."

قال محي الدين: "حسنٌ، سأشرب أنا أيضاً!" ونهض فجأة.

صرخ عمر: "ها، هكذا! عشت يا هذا! هذه هي الصداقة! هذه هي الصداقة..."

57
قناديل البحر

"يظهر هذا في أزمنة..."

فكر محي الدين: "لماذا قلت إنني سأشرب!" كان قد منع نفسه عن المشروب، ولكنه لا يعتقد أن هذا سيكون سيئاً. كان خائفاً من أن يجد عقيدته التي امتنع عن المشروب بسببها عبثية.

"هيا، هيا! أعطيت قرارك... خذ هذه الكأس..."

تناول محي الدين الكأس التي قدمها عمر. قال: "ولكنك لا تعتقد بأنني أشرب لأنك خدعتني!"

"أعرف أنك لا تُخدع، بل تَخدع. أنت شيطان! نعرف هذه الأمور... ولكننا لا نعرف هذا: أي شيطان جعلك قومياً تركياً؟" وأطلق عمر قهقهة، وقلب كأسه.

صرخ محي الدين: "تسممت أنت. تسممت بالثقافة أنت، أنت... أنت... قنديل بحر، هل فهمت؟"

قال عمر: "لماذا قنديل بحر؟ هل برزت شاعريتك؟"

قال رفيق: "آ، أنا أيضاً لا أحب قناديل البحر أبداً!"

ضحك محي الدين فجأة، وقال: "من أين لي أن أعرف، انزلقت عن طرف لساني!"

صرخ عمر قائلاً: "عشت!" ونهض. "انظر ماذا سأفعل الآن... سأقبلك... بما أنني لم أسكر بعد، فإن أحداً لا يمكنه القول بأنه سكر، فقبله". وقام بحركات حازمة. واقترب من محي الدين، وانحنى، وقبله من خده.

قال رفيق: "حسنٌ، لم يعد الآن ثمة جفاء، أليس كذلك؟"

كان محي الدين يشعر كأنه قد وقع في فخ، ولكنه لم يكن مهتماً كثيراً. وفكر: "لتمر علي أحداث مختلفة قليلاً يا روحي!" وهدأ نفسه. ثم أخذ رشفة من الكأس الذي ملأه له عمر، وفكر: "بعد أن شربت، فإن الرشفة، أو البرميل كلاهما واحد!" وشرب الكأس كلها.

قال عمر مستمتعاً: "ها نحن نبدأ البداية الحقيقية الآن! اشرب أنت أيضاً يا رفيق... ولكن لا ضرورة لشريك أنت..."

قال محي الدين: "نعم، إنه جيد دائماً... أو أنه يستطيع رؤية كل شيء كما هو... كنت أريد أن أقول إنه سعيد!.."

قال رفيق: "يا صديقي، لا تعتقدا أنني سعيد جداً..."

قال عمر: "فضفض همومك لنستمع إذاً!"

"حكيت، وأحكي... أنا قلق في هذا البيت... ثم إنني لست سعيداً في عملي... حياة جديدة..."

تدخل محي الدين: "تبحث عن حياة جديدة، ولا تستطيع إيجادها!" وأضاف غاضباً: "أنا لا أصدق هذه الأمور يا رفيق، لا أصدقها! هذا الذي تسميه بحثاً، لا يؤدي بك إلا إلى العودة إلى حياتك السابقة... وما قلته في هذه الأثناء نعم، أنا الذي استخدمت كلمة: بحثت!... مهما يكن، فإنك تفعل هذا أنت من أجل إراحة ضميرك! ماذا لديك من هم لتبحث!"

"كل شيء يبدو لي تافهاً! لم أعد أستطيع القيام بما كنت أقوم به سابقاً!"

"يا هذا، كم مرة قلت لي ذلك!"

قال رفيق: "نعم، صحيح!" ولوى رقبته كمذنب.

قال عمر: "ليس هكذا يا شباب، لم نستطع أن نبدأ! إننا نكرر الأمور نفسها. لقد تضايقت!"

قال محي الدين فجأة: "أنتما دون عقيدة! وهذا ما يجعلكما قبيحين!"

قال رفيق: "هذا يعني أنك تجدنا قبيحين!"

قال محي الدين: "نعم من الناحية النظرية! الأكثر من هذا أنني بدأت أراكما هكذا تدريجياً كصديقين."

قال عمر: "تعد صداقتنا قد انتهت أساساً!"

قال محي الدين: " تقول هذا بسبب كبريائك! انزعجت لأنك لم تكن أول من قال هذا..."

"لا... حسنٌ، لنقل بأن هذا صحيح... ولكن المهم أساساً هو هروبك منا! لماذا تهرب؟ وحتى عندما تأتي إلى هنا، تقول إنك ستذهب إلى مكان آخر، وليس لديك وقت. هل وقتك مهم إلى هذا الحد؟ لا أعتقد أبداً! أنت تخشى أن نسخر منك. بقدر ما أشعارك الطورانية مخيفة، بقدر ما هي مضحكة يا أخي!"

صرخ محي الدين: "نعم، كان علي ألا آتي إلى هنا!"

قال عمر: "مضحكة يا عزيزي محي الدين، ماذا أفعل، إنها مضحكة!"

أنهى محي الدين كأساً آخر.

"ماذا تقول أنت يا رفيق؟ هل تقرأ مجلة هذا؟"

"أقرؤها!"

صرخ محي الدين فجأة: "أنت من الذين لا يستطيعون عمل شيء خشية أن يكونوا مضحكين! تتقطع مرارتك خوفاً من عمل شيء، ومن أن يعتبر هذا الشيء الذي تفعله مضحكاً، تافهاً، وسطحياً! لهذا السبب لا تستطيع فعل شيء. لا تريد أن يكون لدى أحد فكرة عنك. تخاف من أن تكون تافهاً، ولكنك لا تخاف أن تكون قبيحاً! لماذا؟ هل فكرت بهذا؟"

قال عمر بابتسامة ساخرة: "حقاً، لم افكر بهذا أبداً!"

ولكن محي الدين أدرك أنه جرحه. وقال شاعراً أنه على حق: "لماذا تخاف إلى هذه الدرجة أن تكون مضحكاً، ولا تخاف أن تكون قبيحاً وظالماً؟ نعم، لعل الأهم بالنسبة لك هو الذكاء كما كنت أفكر في زمن ما... ولكن لماذا سيبديك قيامك بعمل ما مخبولاً؟.. مهما يكن، لماذا الإيمان بشيء سيظهر صاحبه مخبولاً؟"

قال عمر: "أنا مؤمن بنفسي." وكان يحاول أن يتظاهر بالمرح.

"كنت مؤمناً... كنت ستغدو فاتحاً، وتكسب نقوداً كثيرة، وتفتح اسطنبول، وتركيا... أنا أدع قباحة هذه الأمور جانباً. أنت لم تفعل هذه الأمور؟.. لم تتزوج خشية أن يسخر الآخرون من زواجك. لا تفعل شيئاً. لأنك تريد أن تعطي ذكاءك حقه دائماً. أنت تعتقد أنك إذا فعلت شيئاً فإن حق النقد، لا، حق السخرية سيسحب من بين يديك. لا تتزوج، لأنك إذا تزوجت فلن تجد في نفسك الحق لرؤية زواج الآخرين بسيطاً، وقبيحاً، وعادياً، وسطحياً. هربت من اسطنبول. ولكنك التجأت. حسنٌ، لماذا تأتي إلى هنا؟ لأنك تريد أن ترى ما فعله كل شخص. سترى كل شخص تافهاً، وتستمتع. بذلك أنت تقول لنفسك إنك جئت إلى هنا بدافع الشوق، أليس كذلك؟ لم تأت إلى هنا نتيجة شوق، بل جئت من أجل هذا، من أجل ألا يعجبك شيء. أستطيع أن أفكر بانفعالك لحظة إمساكك مجلتي: من يعلم أي أمور مضحكة فيها، ودعوت بينك وبين نفسك بأن يكون فيها هذا..."

قال عمر: "وهل أنا إنسان بسيط إلى هذا الحد يا محي الدين؟"

قال محي الدين: "لعلك مركب، ولكن وضعك بالنسبة إلي بسيط إلى هذا الحد!"

قال عمر: "حسنٌ، قل هذا إذاً، هل يمكن للإنسان أن يعيش، وأن يسخر في آن واحد؟ هل يمكن للإنسان أن يكون سعيداً، وأن يفسر كل شيء كما هو عليه في هذا الواقع قبيح؟.." ثم أجاب بنفسه: "لا يمكن أن يحدث شيء كهذا!"

قال محي الدين: "ممكن! ممكن، ممكن! إذا آمنت يغدو ممكناً!"

"ولكن ما تؤمن به أساساً هو مضحك! وفوق هذا، لا أعتقد أنني مؤمن!"

"إنك تنزعج، وتخاف من ارتباطي بشيء ما، أليس كذلك؟"

"لا، أقول إنني أجده مضحكاً فقط! ولأنني أعرفك، فأنا أتوق في الحقيقة لمعرفة كيف تتصرف وسط أولئك الناس..."

سأل رفيق: "أي أناس؟" كان هو أيضاً يشرب ببطء.

"القوميون الأتراك، الطورانيون يا روحي!"

قال محي الدين: "لا تذكرهم مرة أخرى بهذه النبرة القبيحة الساخرة، ممكن؟"

قال عمر: "لا أحد يستطيع أن يأخذ من يدي حق التحدث عن أي شيء كما أريد!"

قال محي الدين: "قبيح جداً، وتافه جداً... أنت محب لنفسك جداً، جداً. تقول أن من حقك أن تتحدث عن كل شيء... وتسخر. اعتماداً على ماذا تفعل ذلك؟ ما هي الحقيقة بالنسبة لك؟ من أنت؟ لا شيء أبداً! ولكنني رأيتك يوم خطوبتك أيضاً. كنت تبتسم للجميع. كان الجميع يحبونك. كان في عينيك تعبير يقول: لا تسخر مني يا محي الدين! كنت أود أن أذهب لأراك هناك في كماه، أو في ألب أو لا أعرف ما اسمها وسط الحياة اليومية."

قال رفيق: "يا شباب، أرجوكما لا تفعلا هذا لطفاً، بدأتما تخيفانني. الأفضل أن أحكي لكما طرفة كي تمرحا قليلاً. ماذا أحكي لكما؟" فكر قليلاً، ولكنه لم يجد ما يبحث عنه. "الحقيقة أنني أخشى أن تتفقا معاً، وتهاجمانني... كان هذا ما يحدث قديماً، أو هذا ما كان يبدو لي. ولكنكما نسيتما منذ كم سنة وأنتما صديقان ما شاء الله..."

قال محي الدين: "لكل شيء حدود يا روحي!"

قال عمر: "انظر، انظر! إنه يلطف الجو! لا تلطفا الجو، لكي لا أقول رأيي فيه، وأستخدم كلمات رقيقة إذا قلت ذلك. هذا ما يريده. هذا هو سبب الجملة المسرحية التي ألقاها قبل قليل. يقول: إيه أيها المهندسان، سامحاني،

أنا مؤمن! ولكنني مضطر للسخرية، وإعطاء ذكائي حقه. لأن هناك عقلاً فوق كل شيء، نعم، كما قلت يا عزيزي محي الدين... عاش العقل!" وفجأة تذكر شيئاً، فالتفت إلى رفيق: "إيه، هل هناك خبر من الهر رودولف؟"

"نعم، نحن نتبادل الرسائل..."

سأل محي الدين: "من هذا؟"

"ألماني. ولكنه ليس من جماعتكم! إنسان محترم!"

اتخذ رفيق موقف المنزعج، وقال: "هل تسخر، أم أنك جاد، لم أفهم!"

صرخ عمر: "إيه، كيف أعرف يا روحي! جدية بالنسبة إلى ماذا، وسخرية بالنسبة إلى ماذا؟ لا أعرف. ها، كنت تقول العقل، أليس كذلك؟ انظر إلى هذا الرجل..." التفت إلى رفيق فجأة. "ماذا يكتب أحدكما للآخر؟ هل هي الأمور نفسها، والعبارات نفسها؟" وأشار بيده بحركة مستخفة: "التنوير، والظلمات، والنفوس، والأفكار، والعبودية... غير هذا؟ أما زلتما عند هذا؟"

قال رفيق: "نعم، هذا!"

قال محي الدين: "ما هذا التنوير، والظلمات؟"

قال عمر: "إنها عبارات بريئة ونظيفة، وخفيفة كالروح لن يستطيع فهمها أمثالك وأمثالي ممن غاصوا في وحل العصامية والعقد. لأن تركيا، أو الشرق هو بلد الحمقى والقدر..."

تدخل رفيق: "لا ليس كذلك، ليس كذلك أبداً!"

قال محي الدين: "إيه، احك، احك!" ونهض على قدميه انفعالاً. وأدرك أنه غير مخطئ عندما رآه خجلاً، وقال: "لم أكن أعتقد أن سذاجتك ستوصلك إلى هذا القبح. ذكرت لي البربرية التي لدينا، وشعاع العقل، ولكنني في الحقيقة لم أكن أتوقع منك هذا... أنت تتراسل مع مسيحي، و..." وأضاف عندما وجد رفيقاً خجلاً: "كنت أشبهك بالمسيحي دائماً! قلت لك: أنت تفرنجت!"

قال عمر: "ماذا حدث يا هذا؟ هل تقول هذا بجد؟.."

فكر محي الدين: "تماديت أكثر من اللازم على الأغلب!" ودهش لعدم إجابة رفيق، وفكر: "لابد أن يكون سعيداً حقيقة! فهو ليس محباً للشجار، ولا عدوانياً! لابد أنه الآن يخطر بباله ان الأفكار المطروحة صحيحة، ويحزن لأنه لم يرد علي. بعد قليل سيحزن من أجلي أيضاً!" أدار ظهره لهما، كان يمشي في الغرفة. التفت فجأة، وقال: "أنت لم تنزعج يا رفيق! مزحت معك." ولكنه ندم فوراً لأنه قال هذا.

قال رفيق: "أعرف يا محي الدين، في الحقيقة أنت إنسان طيب!"

قال محي الدين: "أتريد القول بأن أفكاري يدافع عنها الناس السيئون؟" وكانت هذه المرة الأولى التي يدفعه الفضول لمعرفة ما يدور في عقل رفيق حقيقة، وتذكر مندهشاً أنه رآه ذات مرة يقرأ هولدرلين. "أمازلت تقرأ هولدرلين؟"

قال عمر: "هل ذكره لك أيضاً! كان ذلك الألماني يقرؤه!"

"لم يذكره لي، بل رأيته! هذا يعني أنك تعلمت من الألماني. ماذا تعلمت منه غير هذا؟"

قال رفيق: "يشبه ما تعلمته أنت من بودلير..."

قال عمر: "هل تلقيت الجواب!" وأطلق قهقهة. "هذا ما يسمونه وضع الحجر في مكانه!"

قال رفيق: "لا، ليس كذلك! أحدهما لا يشبه الآخر. هولدرلين يبحث على كل حال عن أمور سليمة. ولكن ماذا عن ذاك..."

قال عمر: "سليم؟ انظر هذه كلمة جديدة!"

قال محي الدين: "لم أعد أهتم بهذه المواضيع. ولكنني أرى بأنه لا فرق بينهما!"

"نعم، انا أيضاً لا أعرف! لا أعرف. ونحن لا نعرف شيئاً أبداً. يجب أن نقرأ أكثر. على الجميع أن يقرؤوا. نعم، لأقل هذا بالجرأة المستمدة من

المشروب: أنا أفكر بتأسيس دار للنشر. أريد نشر الكتب الرخيصة الثمن، والجيدة التي يستطيع قراءتها الجميع مثل كتب روسو، وديفوي." ونظر إلى صديقيه خجلاً، وسألهما: "ما رأيكما؟"

تثاءب عمر، وقال: "ستفلس!"

قال رفيق: "النقود ليست مهمة! ثم لماذا سأفلس؟ الناس تقرأ الكتاب الجيد دائماً..." نظر إلى محي الدين. "هل تجدانني خيالياً؟"

تمتم محي الدين: "ثقافة النهضة... الكلاسيكيات اليونانية!" ثم غضب من نفسه لأن المشروب أثر عليه.

انفعل رفيق، وقال: "نعم، هي!" ثم رأى وجه محي الدين المشاكس، فالتفت إلى عمر: "أنا محق، نعم، هذا ما يلزمنا. كنا البارحة في جزيرة هيبلي. خُتن ابن أخي. هذه مراسم مقرفة! قبيحة جداً. تجتمع النساء والفتيات حول المختون، ويأتي بعد ذلك لاعب الخفة..."

وفكر محي الدين: "ماذا يقول هذا؟ أنا سكرت! لأذهب، وأجلس! كم كأساً شربت؟ لم أنتبه! لآكل شيئاً على الأقل!" وضع في صحن قليلاً من المقانق، ومقلي الباذنجان. وجلس على الكرسي المقابل لعمر وهو يتمايل.

قال رفيق: "إيه، إنكما لا تصغيان إلي!"

قال عمر: "نعم، لا أحد يستمع لأحد! سكرنا مثل المخبولين. لا، هذا ليس السبب. يبدو أننا لم يعد أحدنا جذاباً للآخر! كل منا يفكر بنفسه. وكل منا مشغول بحياته! الحياة! ماذا فعلنا نحن؟ لا شيء أبداً!" وملأ كأسه من جديد.

وجد محي الدين عمر مقرفاً، فقال: "أنت تتحدث عن نفسك، وليس عنا، أو عني!"

قال عمر: "حسنٌ، حسنٌ! انتظر، انتظر... أما كنت ستقتل نفسك إذا لم تغد شاعراً جيداً؟"

قال محي الدين: "أقول لكما يا... أنا تغيرت من رأسي إلى قدمي! تركت ذلك النوع من الشاعرية، وذلك النوع من التشاؤم. ما أكتبه الآن

أساساً لا يُعد شعراً بكل معنى الكلمة..."

تمتم عمر: "نعم، نظم..."

قال محي الدين: "تركت الشعر للأقزام! تركت الشعر لصغار الرجال، وبسطاء النفوس!"

"أرايت، أرايت؟ ها إنك لن تقتل نفسك! أما قلتُ هذا؟ قلت لك إنك ستجد ذريعة..."

قال محي الدين: "لا أدري لماذا أتكلم مع شخص يقول إنه لا يريد أن يكون تركياً جرياناً؟"

قال عمر: "لا تخف! ستنسى هذا اليوم بسرعة يا روحي!"

تمتم محي الدين: "فاتح ها... انظر إلى هذا الفاتح! لم أفكر يوماً أن فاتحاً يمكن أن يكون بائساً، وعديم الإيمان، ومسكيناً، ومهزوماً إلى هذا الحد. على كل حال يجب أن يكون هذا فاتحاً معاصراً... إنه فاتح معاصر! الفاتح المسكين معاصرٌ، ولكن بلده ليست معاصرة... ما كان ذاك يا رفيق، أنت تعرف هذا أفضل؟ يجب القول إن البلد الذي يعيش فيه عمر ليس منوراً، أليس كذلك؟ إيه، ماذا سيفعل الفاتح حينئذ؟ لن يغدو فاتحاً، سيقاطع! سينمي عقده، وطموحاته في داخله... ويعود إلى نفسه، وينغلق عليها: الحياة، ما أرفعني أنا! ولكن الحياة غير ممكنة! وفكر: ماذا أفعل إذا لم أسخر، أليس كذلك يا فاتح؟"

"حسنٌ، ماذا عنك؟ قررت أن تلج إلى الزحام! إما لأنك شاعر رديء بكل ما للكلمة من معنى... فتحاول أن تنسى عقلك، ولكنه يلاحقك. لأنك كما قلت لي، تسممت بالثقافة، أنت أيضاً، أنت أيضاً!.. لا تستطيع نسيان عقلك بأي شكل... ولا أصدق أنك مؤمن بالقومية التركية... يجب أن تكون على دراية بهذا، ولكنك تسلي نفسك بأنك تفعل شيئاً... نحن كلانا لا نؤمن بأي شيء. أعرف هذا! ولكنني لا أعرف وضع رفيق!"

قال محي الدين: "هيا اخرج من هذا يا راستياك! أنا تركي! وأدركت أنني ارتكبت خطأ بمجيئي إلى هنا! عالمكم القذر، والبائس هذا بعيد

عني جداً... أنا مع أصدقائي المبدئيين، والمضحين، والمترابطين بمشاعر الأخوة الحقيقية..."

قال رفيق: "آ، أمازلت تلتقي ذانك العسكريين؟ إنهما شابان طيبان!"

قال عمر: "عسكريان؟ حقاً العسكر، العسكريان..." ثم قال لنفسه: "هل لعبت بهما؟"

تمتم محي الدين: "لماذا جئت، لماذا جئت إلى هنا يا إلهي؟ المكان هنا قبيح... هذا الشخص بائس... لماذا جئت، لماذا شربت إلى هذا الحد؟... لماذا أنا هكذا الآن؟ لماذا هكذا..."

كان عمر يقول: "هل لعبت بهما؟ هذا يعني العسكريين... هيا، الق علينا واحدة من منظوماتك: الق علينا إحدى منظوماتك من نوع التفاحة الحمراء، أو الذئاب الغبر... ها، هاه... إنه يكتب، ولابد أن يضحك على نفسه قبل الجميع... لأنه قنديل بحر أيضاً..." أسند عمر رأسه على مسند الأريكة، كان يتكلم وهو ينظر إلى السقف. "قنديل البحر، قنديل البحر... آ، الملائكة تتطاير في السقف يا هو!"

قال رفيق باسماً: "أهذه المرة الأولى التي تراها فيها؟"

قال محي الدين: "أين كانت دورة المياه؟"

قال رفيق: "بهذه السرعة نسيتها، في الأعلى!"

صرخ عمر: "دورة المياه التركية في الأسفل!"

خرج محي الدين من البهو وهو يفكر: "سأرشق وجهي بالماء!" بدأ يصعد الدرج. وارتاح عندما لم يستطع سماع أصواتهما. ولتهدئة نفسه، تمتم قائلاً: "نعم يا محي الدين، المجيء إلى هنا خطأ، ولكنك تستطيع أن تصحح هذا! سأعد قهوة بعد ذلك... وأمشي. كم الساعة؟.. الثانية... إنها الساعة الأكثر حرارة في اليوم... سأذهب إلى البيت، وأنام..." سمع تكتكة ساعة في الطابق المتوسط. "من ربط هذه؟ رفيق... أو أن عثمان يأتي خلال الأسبوع، ويربطها. يريدون ألا تتوقف تكتكة الساعة!" عبر من جانب الساعة ذات البندول بانتباه خائفاً أن يلمس شيئاً. أثناء فتحه دورة المياه، فكر: "لماذا

أخاف من تلك الساعة، يمكنني أن أكسرها أيضاً!" وفيما كان يغسل يديه ووجهه تذكر أولى سنوات صداقته معهما، وتمتم: "كانت سنوات الكلية أفضل السنوات!" وعند خروجه سمع الساعة من جديد، فغضب. وفكر: "سأكسر الساعة، وسيندهشون لهذا كثيراً! ولن يستطيع المسكين عثمان أن يربط أي شيء، أو يضع أي شيئين أحدهما إلى جانب الآخر!" كانت هناك منفضة سجائر على طاولة صغيرة بجانب الساعة. التقطها. رفع يده، وقذف بها الساعة. ولكن شيئاً لم يحدث، لأنه ضبط نفسه في اللحظة الأخيرة، وأرخى يده. وفكر: "لم تتكسر! لم أكسرها!" ترك المنفضة. وولج من الباب المجاور، إلى المكتبة دون أن يفكر بأي شيء. فكر: "لعبنا هنا بوكر على مدى سنوات! بأي حال نحن الآن؟.. لا، لا! أنا... سأذهب إلى غياث الدين كاغان... وإلى الآخرين، سأقول إنهم خانوا ماهر الطايلي... لنعمل معك... المجلة مجلتكم..." وفجأة رأى صورة جودت بيك. تمتم قائلاً: "جودت بيك... حياة جودت بيك! أشياء، أشياء! عائلة، زحام، مرح وسعادة!" كان جودت بيك ينظر إلى محي الدين كأنه يقول له: "احذر هه! انتبه!" خرج من الغرفة. وحين كان ينزل إلى الأسفل سيطر عليه الفضول. وتمتم قائلاً: "ماذا يوجد في الغرف الأخرى؟" فتح أول باب صادفه أمامه. يجب أن تكون هذه غرفة نرمين وعثمان... كانت الغرفة مظلمة مثل الغرف الأخرى، لأن الأباجورات مغلقة. "سرير عريض... التاجر وزوجته... رائحة صابون وعطر... المخمل والأرائك... يعيشان هنا..." رغب بأن يقلب كل شيء، ويحطمه. يريد أن يضحك أيضاً، ولكن لا يبدو عليه أنه يستطيع القيام بهذا. رفع غطاء السرير، وأخرج من تحت المخدة منامة عثمان، وفتحها، ونظر إليها... كانت بيضاء مخططة بالأزرق، ولكنها تبدو من ياقتها أنها منامة رجل غني... فكر: "لا أرتدي منامة بعد الآن!" حاول تخيل عثمان بمنامته وهو يفكر بالتجارة، أو وهو يتحدث مع نرمين بصوته الذي تفوح منه رائحة الصابون. وضع بعد ذلك كل شيء مكانه، ودخل إلى الغرفة التي في الطرف الآخر. "غرفة جودت بيك، وسريره!" كان على الجدار أيضاً صورة جودت بيك، وهو ينظر على ما يبدو نظرة: "احذر،

احترس!" نظر محي الدين إلى السرير مفكراً بأن جودت بيك قد نام على هذا السرير سنوات طويلة. تمتم قائلاً: "جودت بيك، جودت بيك!" بدا كأنه شعر بمرح العيد. كأن الأبواب تُفتح، تُغلق، ويأتي عدد كبير من الضيوف، ويخرج عدد كبير آخر، ويتحدثون، ويضحكون، ويروون الطرائف، ويعيشون، ويبقى محي الدين مستمعاً للأصوات من بعيد. فكر: "أنا سكران!" رأى خزانة في زاوية بقيت مظلمة من الغرفة. هرع، وفتحها بسرعة. كانت ألبسة ناظلي خانم معلقة. لم يجذبه الاهتمام بها. بدأ يسحب الأدراج التي في الجزء الآخر. مناشف، أغطية طاولات، أقمشة حريرية، عدة فناجين خزفية... وفجأة شعر بدوار. "إنهم يستخدمون هذه... يعيشون حياتهم وهم يستخدمون هذه، وواثقين بالحياة!" وفكر وهو يخشى السقوط على الأرض: "لأنم قليلاً هنا!" وألقى بنفسه على السرير. "سأنهض إذا أتى أحدهم! ثم أذهب إلى غياث الدين كاغان، وأقول له إن الآخرين قد تركوا العرقية! ماذا يقول لي؟ أقرأ مقالاتك! السرير ناعم... أسمع الساعة! ماهر وحيدر! هل أسمع وقع أقدام؟ أنا سأنهض الآن أساساً. لأنهض، لكي لا يعتقدوا أنني سكران... لأنهض، وأقول لرفيق إنني جيد... جاء! نمت قليلاً. هذه حال الإنسان، طبعاً عندما يشرب قليلاً. لعدة سنوات..."

"هاه، أنت هنا؟ ماذا تفعل يا هذا؟ تنام!" كان هذا عمر. "هل وضعك سيئ؟ لو تقيأت!"

نهض محي الدين وهو يقول: "لا أعاني شيئاً!"

"آ، فتحت الخزائن. نظرت، أليس كذلك؟"

حاول محي الدين أن يبتسم وهو يقول: "قلت لنفسي لألق نظرة. لألق نظرة، وأرى ما هنالك؟ وكيف تكون تلك الأشياء؟"

"أنت حزين جداً، أليس كذلك؟ هذه الأشياء! أغراض نيغان خانم؟.."

قال محي الدين: "أغلقها، أغلقها! رفيق قادم على الأغلب!"

ترك عمر الأدراج، والأغراض، والغرفة النظيفة جداً، وقال: "أنت لا تعرف ماذا ستفعل بهذه الثقافة، أليس كذلك؟"

قال محي الدين وهو يئن: "جودت بيك جيد أيضاً! الغرفة الأخرى، غرفة عثمان أسوأ."

هز عمر رأسه بتفهم، وقال: "أنت لا تستطيع أن تكون مع هذه الثقافة، ولا مع تلك الأشياء، ولا من دونها!.. هل تغضب من هذه الثقافة، أم من نفسك؟ هل تغضب من هذه الأشياء، أم من ترددك؟"

قال محي الدين: "لو أننا استطعنا أن نكون مثل رفيق!"

فيما كان عمر يغلق الأدراج، قال: "الأطعمة، والضحكات، والملاهي... أنت أيضاً..."

قال محي الدين: "أغلقها بسرعة... نعم، ماذا هناك؟ كنت أمزح، ألم تفهمني؟ هذا يعني أنك فهمت مزاحي؟"

دخل رفيق فيما كان عمر يغلق الخزانة، وقال: "ماذا حدث يا شباب؟ كم المكان هنا خانق!"

قال محي الدين: "كنت أبحث عن منشفة!"

"قلقنا عليك! أنت بخير، أليس كذلك؟ الذنب ذنبنا، وهل يُشرب في هذا الحر؟ يجب تهوية هذه الغرفة! سأعد القهوة." فتح رفيق الستائر، والنافذة، والأباجور. وانتشر فجأة نور لامع في الداخل.

قال رفيق: "ما أجمل الجو في الخارج! ما أجمل هذه الحديقة! ثمة نسمة لطيفة! لنشرب القهوة في الحديقة. فقد اعتدل الجو تحت الشجرة. هل تسمعان الجداجد؟"

قال محي الدين: "لن أستطيع رؤيتكما بعد الآن!"

58
يوم أحد

قالت نيغان خانم: "ولكن قد السيارة بتمهل يا عزيزي عثمان!"

قال عثمان: "كيف أسير أقل من ذلك يا أمي العزيزة، أنا لا أتجاوز الخمسين!"

قالت نيغان خانم: "لا تنظر إلي، لا تنظر إلي، بل إلى الطريق!"

قال عثمان: "أنا أنظر إلى الطريق، ولكنك..." واتخذ موقفاً كما لو أنه لم يستطع إكمال العبارة الحادة، ولكنه لم يكن غاضباً. فكر مهدئاً نفسه: "كريمان! سألتقي كريمان بعد الظهر!" كانا يلتقيان في الشقة التي استأجرها لها عثمان بعد ظهر كل يوم أحد.

قالت نيغان خانم: "دعوا تلك اللعبة. وشاهدوا ما حولنا!"

كان جميل ولالة يلعبان "الغميضة" كما في نزهات السيارة كلها. لم يكن عثمان يعرف قواعد اللعبة، ولكنه يعرف أن الولدين يغمضان عينيهما، ولا ينظران عبر النافذة.

قالت نرمين: "يا أولاد، اتركا اللعب، وانظرا، هاهي سفينة قادمة! إنكما تغضبان جدتكما. هذه النزهة من أجلكما، وأنتما تغمضان أعينكما!"

قال جميل: "رأينا كل شيء ونحن قادمون!"

أطلقت نيفان خانم قهقهة. نرمين أيضاً ضحكت. كانوا عائدين من نزهة صباح يوم الأحد. كان مطلع أيلول، ولكن الجو مايزال حاراً. عادوا هذه السنة من الجزيرة باكراً. فقد نشبت الحرب، وقالت نيفان خانم إنها تريد أن تكون في بيتها، وإنها قلقة على البيت. وإذا قيل لها إننا لن ندخل الحرب، وإن الجزر ستكون أكثر أمناً حتى إذا دخلناها، فإنها تقول إنها ستعد التحضيرات من أجل خطوبة عائشة. هنالك ثلاثة أشهر على الأقل حتى موعد خطوبة عائشة، والحرب بعيدة جداً، ولأن عبوس نيفان خانم أهم من كل هذا، انتقلوا إلى نيشان طاش. وفكر عثمان: "هو ذا عام جديد أيضاً! سنذهب بالسيارة إلى البوسفور مرة أخرى أصباح أيام الأحد، وسنشتري سمكاً من جديد، وأعمال الشركة من جديد!.." وفجأة سيطر عليه ارتباك لم يكن يفارقه في الأيام الماضية مفكراً بأن الحرب ستعوق التجارة مع ألمانيا.

قالت نيفان خانم: "أخشى أن تفوح رائحة السمك هناك من الحر!"

قالت نرمين: "كان طازجاً جداً!"

قالت نيفان خانم: "خذي هذه الصرة ضعيها في حضنك يا ابنتي عائشة! لنقم بإعداده شيئاً..، أليس كذلك؟ لو أن رفيق وزوجته لا يتأخران على الطعام على الأقل."

قال عثمان: "لا يتأخران، لا يتأخران!"

وخيم صمت. قبل ثلاثة أيام أعلن رفيق على الغداء أنه يريد أن يسكن مع بريهان في بيت مستقل، وغضبت نيفان خانم بداية، ثم بكت، ولأنها لم تسمع تفسيراً مقنعاً من ابنها، ربطت المساوئ كلها بغياب جودت بيك. ولكنها كانت تبحث عن أسباب أخرى على الأغلب.

"لماذا ينفصلون عنا؟ قل يا عثمان، لماذا؟"

قال عثمان: "علينا ألا نتكلم في هذا الموضوع الآن يا أمي العزيزة! هو الذي قال... الغرفة ضيقة بالنسبة لهم... والطفلة تكبر!"

قالت نيفان خانم: "لنعطهم الغرفة التي يريدونها من أجل الطفلة يا روحي!" ثم التفتت فجأة إلى عائشة: "اخبريني أنت... ماذا تقول بريهان؟ أنت وهي صديقتان حميمتان... لابد أنها قالت لك شيئاً..."

"تقول إن الغرفة ضيقة... ولا تقول شيئاً آخر!"

قالت نيفان خانم: "لماذا، لماذا! أنت أيضاً ستتزوجين، وتذهبين!"

لم يستطع عثمان ضبط نفسه، فقال: "حينئذ نبني عمارة مثلما يفعل الجميع!"

قالت نيفان خانم: "تبنونه بعد أن ترسلوني إلى جوار جودت بيك." كانت ستبكي على الأغلب، وبدأت تردد: "آه يا جودت بيك، أنتم..."

فكر عثمان من جديد: "كريمان! بعد الغداء... ماذا أفعل إذا لم أذهب إليها؟ كريمان... إشارب!" كان قد اشترى إشارباً لخليلته. بدأ يفكر كيف سيعطيها الإشارب... فجأة تجلت أمام عينيه أولى أيام زواجه من نرمين. وتمتم لنفسه: "تقدمت بالسن!" ونظر بطرف عينه إلى نرمين الجالسة بجواره. هي أيضاً انطوت على نفسها، تفكر بأمور ما. وفكر: "لم يعد أحد مع أحد، ولكن هذا ليس ذنبي! ذنب من هذا؟ هذا ما حدث! ولكن الشركة جيدة جداً." تضاعفت المبيعات فور نشوب الحرب. وفكر: "زواج عائشة من رمزي جيد جداً! لم أعد أخشى من تفتت الشركة. وفوق هذا، فنحن نقوى أكثر." بدأ يعزي نفسه بخيالات ممتعة أخرى مع تفكيره بنمو الشركة: "لماذا لا يُؤسس لدينا معمل مصابيح؟.. أو أدوات كهربائية... وهناك وصية لأبي أصلاً في هذا الموضوع... مع سيمنس..."

قالت نيفان خانم: "لقد حولوا المكان هنا إلى مكان محروق أيضاً!"

كانوا يمرون في بشك طاش. قرأ عثمان في الجرائد بأنهم سينقلون المقبرة من هنا، لكشفها، وستهدم البيوت القديمة، وستقام حديقة.

قالت نيفان خانم: "كان يسكن هنا أحد أصدقاء رفيق. أين هو؟ لم يعد يظهر؟.."

"محي الدين؟"

"كان وجهه عبوساً على الأغلب. هل يلعب بعقل عزيزي رفيق؟"

"لا تبدئي يا أمي من جديد، لطفاً!"

"حسنٌ، بماذا سنتكلم فيما بيننا... لم يعد يُحكى بشيء!"

قالت نرمين: "سنخرج معكم إلى بيه أوغلو غدا يا سيدتي!"

بدأت نيفان خانم بالضحك. وشاركتها عائشة أيضاً. ارتاح عثمان، وسأل كيف سيطهون السمك. وبدأت عائشة تتحدث عن سمك أكلته في بيت فؤاد بيك. تكدرت نيفان خانم عندما مروا من ماتشكا فقد تذكرت قدسية خانم التي توفيت هذا الصيف، ولكنها عندما مرت من أمام جامع التشويكية خطرت ببالها طفولتها، وشبابها، وتذكرت أمها بمرح. وشاكست عثمان لأنه لم يتصل بخالاته أبداً. وحين رأت دكان الخضري عزيز قالت إن الحديقة لن تغدو جيدة، وعندما رأت البيت من بعيد، والبناء الذي يبنى بجانبه، قالت لم يعد الخروج إلى الحديقة ممكناً، ولكنها خرجت في مشوار قصير في الحديقة لرؤية ما يحدث في المقسم بعد نزولها من السيارة.

عندما رأى عثمان نفسه في مرآة البهو تذكر كريمان بداية، ثم رأى أنه تقدم بالسن. صعد الدرج على عجل مقرراً أن يخفف من التدخين، وأن هذا سيكون تجديداً لنظام حياته، وعندما وصل إلى الدرجة الأخيرة فكر بأنه لم يتقدم بالسن أبداً، ودخل إلى غرفته ليرى ما إن كان الإشارب مايزال حيث خبأه أم لا. مازال. خرج من الغرفة مرحاً، ودخل إلى دورة المياه عندما رأى نرمين تصعد الدرج، غسل يديه بمتعة. وقدّر الوقت الذي يفصل بينهما، ثم نزل إلى الأسفل، وأخذ الجرائد، وبدأ يقرؤها. كانت الجرائد مليئة بأخبار الحرب من أولها إلى آخرها: "الفرنسيون يتقدمون على خط سيغفريد... الألمان يخوضون هجوماً معاكساً..." فكر عثمان ببعض الأفلام التي شاهدها، وسنوات خدمته العسكرية محاولاً تصور الوسط الذي يعيشه الناس خلال الحرب أمام عينيه، ومشاركتهم مشاعرهم، ولكن الأخبار لم تثر فيه غير الشعور بالكارثة، ورغبته بالاختباء. الشعور بالكارثة يجعله يتخيل أن اسطنبول قصفت، واحترقت المستودعات في قرة كوي، وسيركجي، ضاعت دفاتر الصادر والوارد كلها، والقسائم، والزبائن، والمخزون، وهو لا يريد الخروج من حيث يختبئ، بل النوم حتى

انتهاء كل شيء. وفجأة وجد نفسه يتثاءب للمرة الثانية، وفكر بأن المسير الذي قام به في منطقة ببك قد أفاده. عندما شعر بأنه صحيح الجسم فكر بكريمان، وبما سيفعله معها بعد الظهر، وأشياء تثير انفعالاً أكبر، ولشعوره بدافع الحركة، وجد نفسه ينهض على قدميه، ترك نفسه يهبط الدرج المؤدي إلى المطبخ مثل طفل نافد الصبر.

كان الطباخ يلماظ ينظف السمك مع أمينة خانم في المطبخ.

سأل عثمان: "متى نأكل؟" وبعد ذلك فكر أن الاثنين لا يقيسان الزمن بالدقائق، بل بالكلمات دائماً، وتمتم بمتعة كأنه يردد أغنية: "الوقت نقد!"

قالت آمنة خانم: "هل جاء السيد رفيق وزوجته؟"

قال عثمان: "أما جاءا؟ كانا سيأتيان إلى البيت في الساعة الواحدة. ضعا أنتما السمك على النار بسرعة!" ورأى أمه التي تتجول في الحديقة عبر نافذة المطبخ.

كانت نيفان خانم تمشي في الحديقة ببطء، والحفيدان يمشيان خلفها، ويقفان عندما تتوقف أحياناً، وينظر الجميع إلى المقسم المجاور. كانت نظرات نيفان خانم عدائية، أما الولدان فكانا ينظران محاولين الفهم.

خرج عثمان من المطبخ. وصعد الدرج بسرعة متقافزاً، وهو يعد: "واحدة، اثنتان، ثلاث، أربع، وست!" كما كان يفعل في صغره، ودخل إلى الصالة. تمتم قائلاً: "كنت طفلاً... وولدت هنا! قبل ثلاث وثلاثين سنة!" وفكر أنه يصعد هذا الدرج منذ ثلاث وثلاثين سنة، ولم يغادر هذا البيت إلا في رحلات العمل القصيرة، وفترة الجندية. وعندما رأى نرمين وعائشة تجلسان في الزاوية، انتابه من جديد شعور القبض على الآخرين متلبسين، وصرخ: "بماذا كنتما تتكلمان؟ ماذا هناك؟ قولا لكي نرى، قولا!" ولكنه تذكر سبب مرحه، فاندهش، وجلس على الأريكة، وأخفى وجهه وراء جريدة فتحها.

قالت نرمين: "كنا نتحدث بموضوع خطبة عائشة!"

قالت عائشة: "نفكر بما سألبسه."

قالت نرمين: "ولكن هنالك وقت طويل..." وضحكت.

أنزل عثمان الجريدة عن وجهه، وابتسم. وفرح لأنه أراد لابتسامته أن تعني: "أستمع إليكما، وأقرأ الجريدة، وأعيش في آن واحد!" وعنت هذا. ولكن مرحه تعكر بعد ذلك، عندما وقعت عينه على صورة أبيه على الجدار. وفكر: "لدي خليلة، وهذا أمر قبيح! ولكن ماذا افعل، كيف كنت سأعيش لولا وجودها. لا أدري ماذا سأنتظر وأنا أعيش!" كان ينظر إلى صفحة المنوعات في الجريدة: جوني وييسمولر ينفصل عن زوجته!" لم يفكر هو بشيء من هذا القبيل. تمتم قائلاً: "نرمين لا مثيل لها كربة منزل، وكأم لأطفالي!" ولكنه أراد أن يغضب منها، فصحح: "إنها غير متفهمة!" مازال الحديث الدائر في الغرفة مستمراً. قلب صفحة الجريدة. "حسنٌ، كيف كان أبي وأمي؟ لم يعرف أبي طوال عمره امرأة أخرى غيرها! نعم، لأن أمي متفهمة! هي الآن عصبية، ولكنها كانت متفهمة!" ولأنه لم يجد هذا التصريح كافياً، قال لنفسه: "إنهما من الناس القدماء!" ولم يخطر بباله أن يفكر بما يعنيه هذا. قال: "لماذا تأخر هذا الطعام؟" ورمى الجريدة، ونهض، ومن أجل تهدئة القلق الذي في داخله تمتم: "كان لصلاح الدين، ولمصطفى الحداد، وحتى لفؤاد بيك في زمن ما! فوق هذا، كانت زوجة مصطفى تعرف تلك التي له، ولا تنبس بكلمة!"

قالت نرمين فجأة: "بماذا تفكر؟"

"أين تأخر رفيق وزوجته؟"

قالت عائشة: "الآن يأتيان!"

"قال عثمان: "هذا ليس صحيحاً يا روحي!" ثم شعر بضرورة التوضيح بما هو خطأ، فأضاف: "من الخطأ أن يفكروا بأنفسهم إلى هذا الحد!" ولكن نرمين، وعائشة كانتا تتكلمان فيما بينهما، ولم تردا عليه. فبدأ عثمان يجوب المكان بين الدرج النازل إلى المطبخ وغرفة المفروشات الصدفية.

قالت نرمين: "كم أنت متوتر! اجلس! ماذا ستفعل بعد الظهر؟"

قال عثمان: "سأذهب إلى النادي!" وجلس، وفتح الجرائد من جديد، وبدأ يقرأ، ولكنه غاضب الآن لاضطراره إلى الذهاب إلى النادي للاشيء.

وفكر: "لن أجلس طويلاً! ادخل، وأخرج بسرعة! اظهر نفسي للجميع! ها هو الطعام جاهز."

ولكن نيغان خانم هي التي كانت تلج إلى الداخل. اقتربت ببطء، وسألت: "إيه، أين رفيق؟"

قال عثمان: "لم يأتيا!"

"وضعا السمك! وهل سنبدأ بتناول الطعام كل على حدة؟ هذا ما كان ينقصنا!"

قال عثمان: "سيأتيان حالاً، سيأتيان حالاً!" ونهض.

قالت نيغان خانم: "من قال لهما أن يضعا السمك؟"

"أنا قلت لهما، سيأتيان حالاً!"

قالت نيغان خانم: "ولكن أهذا ممكن؟ لنكن على المائدة معاً على الأقل... ستفسدون هذا أيضاً..."

قال عثمان: "يا أمي العزيزة أقول إنهما سيأتيان، سيأتيان حالاً!" وأدرك أن يده قد امتدت إلى علبة السجائر، فغضب. وفكر: "إذا لم يشرب الإنسان سيجارة، ويهتم بامرأة أخرى، فماذا يفعل؟" وشعر بالنشوة قليلاً لاعتقاده أنه تعرض لظلم.

قالت نيغان خانم: "ألقيت نظرة إلى المقسم المجاور. كدت أبكي!" هز عثمان رأسه، وعاد للجلوس. وأضافت بعد لحظة صمت: "جعلوا نيشان طاش قبيحة جداً!... ما أحر الجو!"

قالت نرمين: "نعم يا سيدتي، حر!"

"أين الولدان؟"

"أما كانا معك في الحديقة يا سيدتي؟"

"كانا في الحديقة، ولكن..."

"ها هما قادمان..."

"والطعام قادم أيضاً!" كاد عثمان أن يصرخ. وفكر أنهم ينظرون إليه بغرابة، فقال: "أنا جائع كالدود! أوه، رائحة ذكية أيضاً. أين دفاع

هذا؟" وجلس إلى المائدة مرحاً من نظرة أمينة خانم الباسمة إليه، ولكنه رأى أن أمه لم تنهض.

نرمين وعائشة أيضاً لم تنهضا لأن نيفان خانم لم تجلس إلى المائدة. ناداهن عثمان. وقال لهن إن أسرة رفيق ستأتي حالاً، ومازحهم، ولكن نيفان خانم لم تجلس إلى المائدة إلا بعد أن تحدثت معها نرمين طويلاً. وفسر هذا السوء الذي حل بهم أيضاً بغياب جودت بيك. وفي هذه الأثناء قرع جرس الباب الخارجي.

قال عثمان: "جاءا!"

قالت نيفان خانم: "جاءا، ولكننا جلسنا!"

دخل رفيق وبريهان بعد قليل. كانا مازالا يتكلمان فيما بينهما. رأت بريهان الجمع على المائدة، فابتسمت.

قال رفيق: "لم تنتظرونا، حسنٌ فعلتم!"

تمتمت نيفان خانم: "لم نفعل حسناً، لم نفعل حسناً أبداً!"

قال رفيق: "رأينا بيتاً!"

قالت نيفان خانم: "من أجل أن تهربوا منا، أليس كذلك؟"

داعب رفيق يد أمه التي على الطاولة، وقال: "كيف تفكرون بشيء كهذا؟ أنا مندهش!" خرجا بعد ذلك من أجل تبديل ألبستهما، وتنظيف نفسيهما.

قالت نيفان خانم: "كيف صار هذا الولد هكذا؟"

قال عثمان: "نحن بخير يا أمي، نحن بخير والحمد لله! كل شيء جيد، كلنا بصحة جيدة، والشركة جيدة أيضاً، لماذا تشتكون؟" وانتبه إلى أنه يحرك رجليه بعصبية، فغضب. ولمجرد أن يقول شيئاً، بدأ يحكي عن حادث مضحك حدث معه في المكتب، ولكنه تذكر فوراً أنه حكاه من قبل، فقال إن السمك جيد جداً.

قالت نيفان خانم: "متى يبدأ رمضان؟"

قال عثمان: "في الخامس عشر من تشرين الأول!"

قالت نيفان خانم: "الخامس عشر من تشرين الأول!" والتفتت إلى عائشة: "هل ستخطبين بين العيدين؟" ثم تذكرت شيئاً، فقالت: "لو كان هناك برتقال، وحضر لنا يلماظ خبزاً بالبرتقال! هل يُحضر بالمندلينا أيضاً؟ إيه، أين تأخرتما، أين؟ برد السمك!" كانت تنظر إلى رفيق وبريهان الداخلين من الباب.

قالت بريهان: "هذه الصغيرة بكت!" وكانت الطفلة في حضنها. قالت للطفلة: "اجلسي لنرى!" وأجلست الجسم الضخم على الكرسي المرتفع المرتفع في الزاوية، وجلست بجانبها.

قال رفيق: "وجدنا بيتاً جيداً جداً في جيهان غير! قررنا أن نستأجره في مطلع تشرين الأول."

قالت نيفان خانم: "ذاك حي الأغنياء الجدد!"

قال رفيق: "إنه يطل على البحر! وفوق هذا، فيه تدفئة مركزية. ويطل على البحر، أي أنه طابق جيد جداً في بناء. وفيه نوافذ كبيرة، وعريضة. يتلقى الضوء بشكل جيد. جدرانه ناصعة البياض..."

قال عثمان فجأة: "انتهت سمكتي. ماذا يوجد من الحلويات؟"

قالت نيفان خانم: "وهذا أيضاً ولد... والله هذا أيضاً ولد!" وبدأت تضحك.

قال عثمان: "نعم، نعم! كنت جائعاً جداً!" وانضم للمرح. وفكر: "ما أجملنا ونحن نعيش هكذا! أنا أحب أيام الأحد... كم الساعة؟ الواحدة والثلث... آه، والآن أنا مضطر للذهاب إلى النادي، وإظهار نفسي هناك!"

قالت نيفان خانم: "ستأتون لزيارتنا كثيراً، أليس كذلك؟ أريد أن أرى ملاكي الصغيرة! جاءت تلك بعد رحيل جودت بيك بأسبوع لكي تسليني!"

59
انهيار؟

قال غياث الدين كاغان: "كونكم مهندساً أمر غريب جداً بالطبع!"

"لماذا يا سيدي؟"

أعاد البروفيسور المسن القول: "مهندس يفكر بأمته، ويفكر بأمته قبل كل شيء!" كان يفكر بنفسه على الأغلب.

قال محي الدين: "أتريدون القول إن المهندسين لا يهتمون بالمواضيع غير المحسومة؟"

تمتم غياث الدين كاغان: "نعم، الحسم، الحسم!" وبدا كأنه خجل: "إنهم يجدون نظريتي حول العرق انحرافاً عن الحسم والعلم على الأغلب؟"

"من؟"

"هم يا عزيزي... أصدقاؤكم القدامى... ماهر الطايلي وأوساطه. الذين ميعوا العرقية بثرثرة نفسية رايسن."

قال محي الدين: "آ، نعم!" وهز برأسه. ورفع حاجبيه كأنه يسمع شيئاً مدهشاً للمرة الأولى. جاء قبل قليل إلى بيت غياث الدين كاغان في أسكودار، وأعاد عليه ما قاله على الهاتف بشكل مبهم: أدرك أنه لن يستطيع أن يكون مع ماهر الطايلي وأوساطه، وهو يريد أن يستمر بنشر مجلته "الضوء الذهبي" بمساعدة بروفيسور صاحب تجربة...

قال غياث الدين بيك: "نسيتم أصدقاءكم القدامى بسرعة!"

قال محي الدين: "لا يا سيدي، لم أنسهم!" ونهض. وسار نحو نافذة الغرفة المغطاة جدرانها بالكتب.

"هم أيضاً لن ينسوكم بسهولة... وبالطبع سيغضبون منكم كثيراً، يمكنكم أن تتوقعوا هذا!" كان يبدو عليه أنه يعرف أموراً ما.

قال محي الدين: "تباً!" كان ينظر إلى الحديقة من النافذة. كانت الحديقة الخلفية للدار القديمة معتنى بها. ويظهر قن دجاج بين أوراق أشجار الفواكه من بعيد.

"أنتم متحمسون جداً لنفسية رايسن!... ترى من بينهم يلفظها بشكل صحيح؟"

قال محي الدين: "ماهر يعرف الألمانية!"

"الألمانية... يأخذ كل شيء من الألمان. لهذا السبب يقولون عنا فاشيين. نحن لسنا فاشيين، نحن قوميون أتراك!" وأضاف صارخاً: قلت له هذا، لم يفهمه. اعتقد أنني ألعب عليه لعبة. ما الفرق بين الفكرة الحقيقية، والفكرة المتداولة، والمطبقة؟ ما فعلته هو حقيقة! هل تسمعونني؟"

انسحب محي الدين من أمام النافذة: "أسمعكم!"

"اسمعوا. ما الفرق بينهما؟ أقول لسنا فاشيين، لأننا أتراك. وينزعج مني لأنني لست شفافاً بما يكفي. هذا ليس سبب انزعاجه يا! هل تتابعونني، وتفهمون كلماتي!.."

فكر محي الدين غاضباً: "ماذا يعتقد نفسه هذا الرجل؟"

"ولكن ماهر ذكي. نعم، ذكي. أنا أقدر الإنسان الذكي والناجح حتى ولو كان عدوي. حسنٌ، نحن لا نعد أعداء بكل معنى الكلمة. اذهبوا إليه، وقولوا له هذا!"

قال محي الدين: "لا أعتقد أنني سأراه مرة أخرى!"

"سترونه، سترونه! لابد للمتخاصمين أن يتصالحوا! كلنا هنا لا نتجاوز بضعة أشخاص. هذه الخصومات مؤقتة!"

"لا أعتقد أنها مؤقتة! لو كنت قد فكرت بهذا لما جئت إليكم!"

رف غياث الدين كاغان بعينيه المسنتين الصغيرتين. وبدا بحال محببة. نهض بسرعة على قدميه ليس كمسن، بل كطفل. سار ببطء، وتمتم: "نعم، نعم!" واتخذ تعبيراً كأنه يقول: "أتظاهر بأنني مصدق ما تقوله!"

قال محي الدين: "أقول لكم مرة أخرى إنني لا أنوي بناء علاقة معهم من جديد!"

قال غياث الدين: "حسنٌ، حسنٌ!" وابتسم. "لن تراهم من جديد، صدقتك!" ووقف وسط الغرفة. وتمتم: "ألن تراهم؟ لن ترى ماهر!" وقف دون حركة قليلاً، ثم سأل فجأة: "حسنٌ، ماذا يقولون عني؟"

فهم محي الدين ما يتوق المسن القومي التركي لمعرفته، ولكنه قال: "من تقصد، وماذا؟" وفرح لأنه قابل سؤالاً كهذا، ونظر بانتباه إلى وجه غياث الدين.

"هم، هم يا روحي، ماهر وأوساطه!"

"يقولون أشياء جيدة يا سيدي!"

"قولوا، ماذا يقولون، قولوا!"

اتخذ موقفاً يوحي بأنه لا يريد قول أمور غير لائقة. وفكر: "كبرت هذا بعيني أكثر من اللازم!"

"هيا يا ابني، احكوا، ماذا يقولون عني!"

"يقولون إنكم جمجمي!"

"هاه! نحن نعرف هذا. أنا لا أخفي هذا! وغير هذا؟"

"لا يعتبرون أفكاركم صحيحة..."

"تجاوز، تجاوز هذا! لا أريد هذه الأمور! ماذا يقولون حول شخصيتي، حول شخصيتي؟"

"يا سيدي، لأننا سنعمل معاً في المجلة فإن نميمة كهذه لا قيمة لها. قطعنا علاقتنا بهم!"

نظر غياث الدين كاغان بحدة كأنه يقول: "آه، يا ماكر!" وهز برأسه نحو اليمين ونحو اليسار. وأدار ظهره لمحي الدين. أخذ سيجارة عن الطاولة، وأشعلها. فجأة قال كأنه يهمس: "الشباب، الشباب! هل يحترمونني؟"

قال محي الدين: "يقولون إنكم تربون دجاجاً في حديقتكم يا سيدي!"

تخبط وجه غياث الدين كاغان. وغار خداه كأن يداً سرية تسحبهما نحو جبهته. وارتخت ذقنه.

فكر محي الدين: "نعم، أعرف أنني طرت فرحاً، ولكن هذا سيئ هذه المرة! ما الضرورة لقولي هذا؟ أنا أحفر قبري بنفسي!"

"ماذا يقصدون بهذا؟ الدجاج؟ شخت! لم يبق لدي حماس! هكذا إذاً؟" وبدا كأنه لم يغضب من الذين يشيعون الشائعات، بل من محي الدين.

قال محي الدين: "لا تهتموا لهم أنتم يا سيدي!" وفكر أنه "أخمد العبارة بسرعة!"

"من يقول هذا؟ ماهر؟ أنا الذي ربيته يا!"

قال محي الدين: "أنتم ربيتمونا جميعنا يا سيدي!" وجلس حيث كان يجلس قبل قليل. ولكنه قلق لأن المسن لم يجلس. "وقلت هذا في المقالة التي كتبتها عنكم!"

"قولوا إذا كانوا يأخذون التاريخ أساساً للقومية التركية فما الفرق بينهم وبين المراكز الشعبية، وحزب الشعب؟"

"أنا أيضاً أفكر على هذا النحو!"

"وفوق هذا، فقد بدأت الحرب! إذا كان ثمة عالم جديد سينتج عن هذه الحرب، فإننا يجب أن نقول أشياء جديدة. ما معنى تكرار التيار القومي ما تطرحه المراكز الشعبية؟ اشرحوا لهم هذا!"

"يا سيدي، أنا..."

قال غياث الدين بيك: "حقاً! قلتم!" وجلس خلف طاولته، كانت ثمة ابتسامة على وجهه لم يفهمها محي الدين. نظر إلى الأوراق والكتب التي

على الطاولة، ثم إلى ساعته. وتمتم قائلا: "نعم ياسيدي. هكذا إذاً تلخصون سبب زيارتكم؟ كيف تلخصونها؟"

قال محي الدين مندهشاً من الموقف الرسمي غير المتوقع كأنه يشرح مرضه لطبيب بانتباه: "لا أريد بعد الآن أن أعمل مع ماهر وأصدقائه في مجلة الشعاع الذهبي! سنؤسس المجلة معاً.."

"كم عمركم أنتم؟"

"تسعة وعشرون!"

"يا لشبابكم! حضرتكم مهندس، أليس كذلك؟ ماذا تفعلون غير هذا؟"

"غير هذا؟ أعمل في المجلة يا سيدي!"

"قديماً ماذا كنتم تفعلون؟"

قال محي الدين: "مهندس..." وفكر: "ماذا يوجد في عقله؟"

"لا! غير هذا... أعرف أنكم تكتبون الشعر!"

قال محي الدين: "نعم، لدي مجموعة شعرية سيئة!" وفكر أن زمام الحديث أفلت منه، ولم يعد يستطيع استشعار ما يدور في رأس القومي التركي المسن.

"لماذا سيئة؟"

"لأنه لم يكن لدي عقيدة يا سيدي!"

تمتم غياث الدين كاغان: "عقيدة ها!؟ عقيدة من بين العقائد كلها؟"

قال محي الدين: "لا! رؤية صحيحة!" وفكر: "هل هو أذكى مني؟"

أشار غياث الدين بيك إلى الجريدة التي أمامه، وقال: "مات فرويد! ما رأيكم؟"

"كيف؟"

"هل قرأتموه؟ كيف تعتبرونه؟"

لم يستطع محي الدين أن يقرر بين أن يبدو ذكياً، أو مؤمناً: "قرأته!"

اتخذ غياث الدين بيك موقف المفكر، وابتسم: "تعرفت إليه في فيينا مصادفة. كنت قد استأجرت غرفة في بيرغاسة - 9 لأكون قريباً من مؤتمر الاستشراق. كنت أعرف أن معهداً يوجد في الأسفل، ولكنني لم أعرف ما هو! قالت لي صاحبة البيت ذات مساء إن البروفيسور يطلبني. الرجل هو فرويد. قال لي إن هنالك آلات حساسة في المعهد، فولو أنني ألبس نعالاً بيتية في البيت إن أمكن. كنت قد قرأت كتاباً له، ولم يعجبني. قلت له إن تعلق الفتاة في السادسة أو السابعة من عمرها بأبيها بدافع الشهوة الجنسية، وتعلق الولد بأمه بدافع الشهوة الجنسية لا ينطبق على الأتراك! ضحك مني." وطرح القومي التركي على محي الدين السؤال فجأة كأنه يريد أن يقبض عليه متلبساً بالذنب: "أنتم كيف تجدون فلسفته؟"

قال محي الدين: "أجدها صحيحة من بعض جوانبها..."

قال غياث الدين كاغان: "ها هي، ها هي! لا أعتقد أن حضرتك يمكن أن تكون قومياً تركياً! كنت أعرف هذا من الأساس!" ونهض.

"لم افهم؟"

"أنتم لا تؤمنون بالقومية التركية!"

نهض محي الدين على قدميه، وقال كأنه يئن: "ماذا تقولون؟"

"لا أعتقد أنكم ستؤمنون بشيء. أنتم معجبون جداً بأنفسكم، ووقحون. وتحاولون إثبات ذكائكم." خطا القومي التركي عدة خطوات باتجاه محي الدين: "ولكن عليكم أن تفهموا أن هذه اهانة لإنسان مثلي. ولقد فقدتم صوابكم. يجب ألا يدخل شخص متعلق بشخصيته وكرامته إلى حركة كهذه..." قطب وجهه: "هناك أهان ماهر كرامتك، فجئت إلي، أليس كذلك؟ وغدا ستذهب إلى آخر. هيا، هيا! اخرج من هنا... أنا أعرف ماهر أيضاً. ونلتقي أيضاً... كيف تنظر إلى ابنته؟" وبدأ يسير باتجاه الباب.

خطا محي الدين خطوة نحو الباب، وقال: "لن أقول إن في الأمر خطأ!"

قال غياث الدين بيك: "مازلت مشغولاً بنفسك!" أمسك مقبض الباب. "إنك تجد بعض جوانب فرويد صحيحة! هل ستريني كم أنك متفهم؟ لا يمكن أن تكون أنت محارباً ابن أمة يحمل السيف!" وبدا وجهه للحظة أنه قد أشرق: "سحبت كل العبارات من لسانك. أنا أعرف كل شيء. يعني الدجاج ها؟ لماذا قلت هذا؟ أنت معجب بنفسك، ولكنني وضعتك في راحة يدي!" فتح الباب. "تائه!"

تمتم محي الدين وهو يعبر عتبة الباب: "حسنٌ، حسنٌ!"

"ما اسم أبيك أنت؟"

فكر محي الدين: "ماذا ستعمل بأبي. أبي عسكري!" وسار نحو الباب الخارجي.

"ما اسمه؟ حيدر! علوي!" وكان غياث الدين كاغان يخطو خطوة وراء محي الدين. "ماهر يعرف هذا، أخبرني به. يعرف أباك من الجيش. يقول إنه لا يعد إنساناً صاحب شرف!.. دهشت، أليس كذلك؟ حكى لي ماهر كيف أوقع بك أيضاً. انفعلت عندما قال لك إن أباك رجل عظيم. ياه! أنت طفل!"

فكر محي الدين: "إنه يأتي من خلفي، وينظر إلى رقبتي من الخلف، ويتحدث!"

وفُتح باب. وخرج من الداخل شاب يحمل صينية شاي.

قال صاحب البيت: "لا ضرورة للشاي، الضيف ذاهب!"

التفت محي الدين إلى الخلف، وتمتم: "أخطأتم! إنكم مخطئون! أبي إنسان نموذجي!"

فتح القومي التركي الباب لمحي الدين. وبموقف راقٍ قال: "لعلني مخطئ بحق أبيك، ولكنني لست مخطئاً بحقك! أنا أعرف أمثالك. يفعلون كل شيء من أجل إثبات ذكائهم وكرامتهم!"

قال محي الدين محاولاً اتخاذ موقف ساخر: "يا لكثرة معرفتكم!"

"أعرف يا! أعرف على الأقل أنه لا يمكن العمل مع أمثالك!" ودس يديه بجيبيه.

قال محي الدين: "حسنٌ، حسنٌ! كفى!" وأدار ظهره. عبر الحديقة الأمامية التي تبلغ عدة خطوات. فكر: "إنه ينظر إليّ من الخلف! هل ألتفت، وأنظر إليه؟ لماذا؟" لم يلتفت. وخرج إلى الزقاق. وبدأ يمشي.

كان الجو مظلماً، وشوارع أسكودار المبلطة بالحجارة مزدحمة. كانت هناك سماء نظيفة صافية. ورأى محي الدين عدة نوارس. فكر: "ماذا حدث؟ قبل قليل كنت في الجنة، والآن في جهنم." هكذا طردت من الجنة! "عتقت أوراقي! كم هذا مضحك!" كان يشعر بأنه سيضحك: "علي أن أحصل على وثيقة من البلدية تفيد بأنني لست ذكياً" انخفض نورس مقترباً، وصاح، ثم ابتعد. تمتم محي الدين: "المطر قادم! المطر... الدنيا... نعم، طردت من الجنة... لماذا؟" شعر بأنه لن يستطيع أن يمرح، ولكنه ضغط على نفسه. "ولكن ختيار الجن قد غضب تماماً! كم هو مضحك! لماذا؟ ماذا حدث؟" كان يسير نحو المرسى. وكرر لنفسه: "ماذا حدث؟ ماذا حدث؟ ماذا حدث؟ غضب! لماذا؟ غضب من قصة تربيته الدجاج! أم فضولي لقضية عدم احترام الشباب له! هل غضب من هذا؟ لا! غضب من تلك المدائحية التي كتبتها عنه قبل أشهر. لعله فهم أننا نسخر منه. لماذا لم يذكر تلك المقالة؟" توقف فجأة، وتمتم: "إنه يعرف كل شيء! أخبره ماهر بكل شيء عني! ولكنهما متخاصمان!" تمتم: "ترى هل ذلك الخصام هو خصام ستارة فقط؟ ولكن لا يمكن أن تكون كلمات ماهر تلك كلها اختراعاً! إذا كان الأمر على هذا النحو، فلماذا مدحناه؟ لم نمدحه، مدحته! جعلوني أمدحه! استخدموني مثل بيدق شطرنج!" كان تائهاً. "ماذا يحدث؟ لماذا؟" تمتم فجأة: "كل شيء بسبب فرويد هذا! نعم، بسبب فرويد! ولكنني لم أمسك بلساني أيضاً! لا، كلها لعبة! ماذا يحدث؟ إنهما يلتقيان. وأنا في الوسط!" وسيطرت عليه الخيبة فجأة، ففكر: "ابتلعوني بينهما! لعل ماهر كان يجربني. ولم أنجح بالتجربة، ورسبت. آه!" اشترى تذكرة من الشباك راغباً بعدم التفكير أكثر، ولكن الأفكار لم تبارحه. "طردني بشكل سافر، قلّعني ختيار الجن خارج الباب! وهو على حق بأن يغضب. لأنني حاولت أن

أثقل دمي عليه، وأن أسخر منه. تربية الدجاج! ولكن وجهه انقلب. وها أنا الآن في الخارج لماذا؟ بسبب فظاظتي، وعقدتي بذكائي!" وتذكر ذلك اليوم الصيفي في بيت رفيق، والنقاش. وتمتم: "لم أستطع فعل شيء مما قلته لعمر. طردوني. سيخبر ماهر أيضاً! يا إلهي ماذا أفعل الآن؟ وقف متوتراً. "الحياة؟ ماذا أفعل بعد الآن؟ سيحكون كل شيء للجميع. كيف نظرت إلى ابنة ماهر!" كان قد فعل هذا ليُظهر لهم أنه غير مسحوق في بيت ماهر الطايلي. "أبي علوي. كذب! كل حيدر... وأنا قلت إنه إنسان نموذجي! كنت أقسم الأيمان أنني لن أكون مثله! ماذا جرى لك يا محي الدين؟" أشعل سيجارة. اقترب شاب، وأشعل سيجارته من سيجارة محي الدين. "كم عمره؟ ثمانية عشر! إنه تواق. أنا أيضاً كنت أستمتع بإشعال سيجارتي من سجائر الآخرين. كبرت بالسن، كبرت الآن. تسعة وعشرون! سألني كم عمرك. يعرف كل شيء. هنالك أربعة أشهر لأبلغ الثلاثين." السفينة ترسو على الرصيف، وتفرغ ركابها. فكر محي الدين فجأة: "حسنٌ، سأقتل نفسي!" وبدا كأنه قد ارتاح. "كنت أعتمد على هذا دائماً. لا يوجد شيء بعد الموت يا!" فتحت الأبواب. ومشى نحو السفينة ببطء. هواء بارد شعث شعره. كان جو السفينة دافئاً. ولكنه تمتم قائلاً: "هنالك ما يجب أن أعمله!" وجلس. "ماذا يمكنني أن أفعل؟ كيف أستطيع الخروج من هذه القضية؟ مقالة في الشعاع الذهبي على النحو التالي: مؤامرات ماهر الطايلي وغياث الدين كاغان! تافهة جداً! حسنٌ، هكذا: الجمجميون القوميون الأتراك مع القوميين التاريخين يداً بيد. ماذا أفعل بعد ذلك بكل هذا العدد من الأعداء؟" نظر من النافذة إلى الخارج. "يجب أن أفكر مرة أخرى: لم تكن العلاقة بين ماهر وغياث الدين جيدة، ولكنهما يلتقيان. ماهر يعطي أهمية للتاريخ، وينتقد الاعتماد على الجمجمة. لماذا؟ أخشى أن يكون له أصل جيورجي، أو شركسي؟ ولكنه هو الذي ذهب وأخبره عن حيدر؟ حسنٌ، لماذا جعلني أحصل على ترخيص المجلة باسمي؟ ماذا كان يمكنه أن يفعل؟ أكتب قصائد كما كنت سابقاً. قصائد حقيقية.

سيكرهونني!" نهض، وخرج إلى الهواء الطلق. قرر أن يشرب شاياً، وسلى نفسه وهو ينتظر لدفع ثمنها. شرب شايه ببطء. وظهر مرسى بشك طاش بعيداً. وفكر: "ألقي بنفسي بين السفينة والرصيف!" كان يخاف منذ صغره من السقوط بين السفينة والرصيف. "ستنشر الخبر الجرائد. وسيهتم النقاد بكتابي! وسيكتبون أنه كان هنالك جو موت في قصائدي. وبهذا أكون قد وفيت بوعدي! نعم، هذا أفضل شيء!" انفعل فجأة. وفكر: "ثمة دقيقة!" وتلفت فيما حوله. كان ثمة رجل طويل القامة، نحيل، يدخن سيجارة. وفكر: "حسنٌ، لن أنسى بعد الآن وجه هذا الرجل! ولكن لو أنني أكتب رسالة. رسالة انتحار طويلة، ومرعبة! لعلني قرأت شيئاً كهذا في مكان ما. لمن يجب أن أكتب؟ لرفيق. لا، لا! ماذا يمكنه أن يفعل؟ الذكاء!" فكر من جديد كيف يمكنه أن يخرج من هذه الورطة. "كل شيء بسبب أنني ذكي أكثر من اللازم. هذا ليس ذنبي! لا ضرورة للرسالة أيضاً. الشاعر الذي وفى بوعده!" كانت السفينة ترسو بجانب الرصيف. "سألقي بنفسي، وتنتهي هذه الثرثرة! سألقي بنفسي عند الرقم عشرة، تسعة. عند الرقم اثنان." تداخلت الأرقام. ألقي حبل إلى الشاطئ. "الآن، الآن!" دفعت قدماه السفينة... "هوب... الرحمة!" وطأ على اليابسة، خاف...

"الرحمة يا ابني، ستسقط، ما هذه العجلة؟"

نظر محي الدين إلى الموظف المسن نظرة حادة. وفكر: "غير ممكن من دون رسالة!"

60
دفتر المذكرات III

الثلاثاء 26 أيلول 1939

لماذا قررت أن أكتب على الدفتر وسط هذه الفوضى؟ يبدو أن السبب هو أن شعوراً بسرعة تدفق الزمن قد سيطر علي! كنت أجمع كتبي، وأوراقي، وملفاتي، فرأيت الدفتر. بعد أربعة أيام ننتقل، بريهان وأنا، إلى جيهان غير. أنا الآن في المكتبة، أو في غرفة المكتب، أو تلك الغرفة التي كنا نلعب فيها بوكر أستمع للصخب الذي يملأ البيت. ألقيت نظرة على صفحات هذا الدفتر الأخرى. آخر مرة كتبت فيها كانت قبل سنة ونصف. تحدثت عن كماه، وعن الهر رودولف، وعن دراستي. ذلك الهراء الذي غدا كتاباً صدر عن وزارة الزراعة، ولم يقرؤه أحد فعلاً. الآن أجد دافعاً مفاجئاً لكتابة كل شيء. ولكن الإنسان يجب أن يكون منتظماً. سأكتب فيما بعد. إنهم ينادونني إلى العشاء في الأسفل.

بعد ساعة ونصف! الساعة التاسعة والنصف. تناولنا الطعام: كفتة، وفاصولياء. كلما رأيت هذا الدفتر أجد أنني مندفع إلى الكتابة على هذا النحو، ثم أدع هذا. ثم ماذا كنت سأكتب غير هذا؟ وجدت مذكرات أبي في الخزانة. كتب عنواناً: "حياتي التجارية لنصف قرن". ثم هنالك عبارات قصيرة، ومسودات.

سنموت كلنا!..

قرأت ما كتبه. كانت المسافة بين الكلمات، وما يجري بعيدة جداً.

الأربعاء 27 أيلول

وضعت كتبي في صناديق. كنت أقلبها في أثناء ترتيبها، وأضيع وقتاً طويلاً. قبل قليل تصفحت: نجدت المسكين! يا لتفاهته! أتذكر أنني قرأته عندما كنت في السادسة عشرة من عمري، وتأثرت به كثيراً، ولكنني خجلت من انفعالي في اليوم الثاني وأنا ألعب كرة القدم مع زملائي! ثمة كتب أيضاً نسيت ما في داخلها. وقع نظري على كتاب لحسين رحمي. لم يحب نساء الحي قط، والحقيقة أنه قد اشمئز منهن. ولكن ماذا عن روسو الحبيب! ألقيت نظرة على الاعترافات من جديد، ولكنه لم يكن كتاباً يمكن تصفحه على الواقف. الصناديق...

جاءت بريهان الآن، ثم ذهبت، سألت ما إن كنا سنأخذ الخزانات المركونة عند باب غرفتنا، وعلى طرف الدرج. ارتبكت. غالبية قطع الأثاث لم تكن لأحد سابقاً. كانت للبيت. يستخدمها أحدهم، أو الجميع. والآن تُقسم الأغراض إلى ما لنا، وما لهم. تلك الخزانة مثلاً!.. لم تُشتر عندما تزوجنا، ولكننا نستخدمها منذ سنوات طويلة. ليس لدينا طقم سفرة أيضاً. تفور أمي غضباً، وتقطب وجهها كأنها تشمئز منا عندما تسمع أن الأشياء تُقسم على هذا النحو. أنا على حق. يجب أن أكتب مطولاً عن سبب تركنا البيت!

30 أيلول

انتقلنا. الساعة الثالثة بعد منتصف الليل. ذهبت بريهان إلى الغرفة، ونامت. وأنا متعب جداً. وأشرب مشروباً خشية عدم استطاعتي النوم، وأكتب هذه الكلمات. نقلنا الحاجيات طوال اليوم... أنا أعتاد على البيت!

الأحد 1 تشرين الأول

أنا أرتب الحاجيات، جاء الطباخ يلماظ. وحمل رسالتين من عثمان، إحداهما أرسلها محي الدين، والأخرى منه. وصلت هذه الرسالة منذ يومين، وبقيت في إحدى الزوايا. (أي رسالة محي الدين.) جاء محي الدين هذا الصباح إلى بيت نيشان طاشِ، وسأل عني. طلب أن يستعيد الرسالة عندما علم بانتقالي. لابد أن عثمان قد دهش (لم يكتب أنه دهش)، ولكنه لم يعطه الرسالة. قال إن الرسالة غدت ملكي بعد إرسالها ووصولها إلى البيت! لم يعطه عثمان

عنواني أيضاً! قال محي الدين إنه يريد أن يتحدث معي، وطلب عنواني! وبقدر ما بدا أنه بهذا العمل حاول حمايتي من صديق سيئ، بقدر ما كان يكره محي الدين. وفور ذهاب محي الدين أرسل الرسالة مع يلماظ. شرح مطولاً سبب عدم إعطائه العنوان لمحي الدين. كتب بالتفصيل عن قلة احترامه لأبي قديماً، وعن المشاكسات، والفظاظات التي أقدم عليها في البيت...

بعد أن قرأت رسالة عثمان، قرأت رسالة محي الدين فوراً. كانت رسالة مريعة. ولأن محي الدين جاء مساء، وأخذ الرسالة مني (رأى يلماظ في الطريق، وعرف منه العنوان)، فأنا أحاول تلخيص ما جاء في الرسالة. كتب التالي:

"قررت أن أقتل نفسي يا رفيق. قلت إنني يجب أن أبلّغ أحدهم، وخطرتَ ببالي! سأقتل نفسي لأنني بلغت الثلاثين (لم يبلغ الثلاثين بالضبط) ولم أغدُ شاعراً جيداً. اقتل نفسي لأنني لست سعيداً، ولا أستطيع أن أكون سعيداً، ولا يمكن أن أكون سعيداً في أي وقت. لدي ذكاء زائد عن الحد لذا فلا يمكنني أن أكون سعيداً." هذا كل شيء! كانت الرسالة أطول من هذا على الأغلب، وتحدث في نهايتها عن صداقتنا، وتمنى لي حياة جيدة. وبما أن محي الدين لم يمت، فقد اعتقدت أن هذا مزاح. استنتجت أنه ندم بعد إرساله الرسالة. وقال محي الدين إن هذا مزاح.

جاء إلى البيت (أي محي الدين)، وقال لي بأنه كتب رسالة أرسلها إلي في نيشان طاشِ. وعندما أخبرته أن الرسالة معي، وأنني قرأتها، سألني كيف وجدت مزاحه، وضحك. وسأل عما يشعر به عثمان لأنه أرسل لي الرسالة فوراً، ولم يعطه العنوان. وعندما قلت إنني مندهش من مزاحه، وأنني قلق من إقدامه على شيء من هذا القبيل، قال إنني ساذج جداً. تحدثنا بهذا كله وقوفاً أمام الباب. لم يكن راغباً بالدخول. ولكنه كان ينظر بفضول إلى الداخل. إنه محي الدين المعهود. ألح على أن الأمر مزاح إلى حد أنني سأصدق بأنه مزاح، ولكنه كان جاداً على الأرجح. اتخذ محي الدين قراراً كهذا، ولكنه ندم بعد ذلك. ولكن لماذا كتب رسالة؟..

حكيت الأمر لبريهان فوراً، واستمعت إلي. وقالت لي إنها تشفق على محي الدين.

قال محي الدين إنه لن يستطيع رؤيتي بعد الآن. وهذا مؤكد! وقال هذا يوم شربنا المشروب في الصيف. حاولت أن أكلمه لكي لا يقدم على مزاح من هذا النوع مرة أخرى، ولكنه لم يستمع إلي. نظر إلى داخل البيت متوتراً. ولحظة ذهابه، وإشعاله مصباح الدرج، قلت له: "تزوج يا محي الدين!" فأطلق قهقهة، وذهب.

قرأت ما كتبته! إنه لا يعكس ما حدث جيداً.

الثلاثاء 3 تشرين الأول

عدت من المكتب. أنا أذهب صباحاً سيراً على الأقدام، وفي العودة أركب سيارة أجرة، أو أذهب إلى تقسيم بالتراموای كما فعلت اليوم، وأكمل سيراً على الأقدام كما فعلت الآن. الساعة السادسة. تحدثنا قليلاً بريهان وأنا. أخبرتني بما فعلته اليوم. أخذت الطفلة إلى الحديقة صباحاً. وبقيت في البيت بعد الظهر. ستذهب غداً إلى سما. دخلتُ هذه الغرفة بعد أن تحدثنا، وأخذت فنجاناً من الشاي. ماذا سأفعل بعد ذلك؟ الدراسات؟ البرنامج؟

الخميس 5 تشرين الأول

عدت من المكتب. ألم أقرر عدم الذهاب إلى المكتب اعتباراً من الخريف؟ لقد غادرت البيت. الحقيقة أنني أريد ترك المكتب بعد أن أخطط لمشروع النشر. سأذهب مع بريهان إلى السينما الآن. وهكذا سنترك الطفلة في البيت بعد أن ننومها. أريد أن أكتب بانتظام، وبالتزام أكبر بالقواعد.

الأحد 15 تشرين الأول

مضى عشرون يوماً على انتقالنا إلى جيهان غير، ومازلنا نفرش بيتنا! اشترت بريهان قماشاً لغطاء السرير، وعرضته علي. انفجر شجار بيننا. كانت تريني القماش، وأنا أنظر إلى الكتاب الذي أقرؤه. أي أنني كنت أرفع راسي عن الكتاب، ولكن إحدى عيني عليه. (حكم شوبنهاور) سألتني بريهان عن رأيي، فقلت لها: "جيد، جيد!" قالت إنني لا أهتم بالبيت، وبها، وإنني أدخل إلى هذه الغرفة فوراً. وقلت لها إنني لن أمضي عمري مع أقمشة أغطية الأسرة، والستائر! صرخ أحدنا بالآخر، ثم بكت. دموع، ومصالحة، وتبادل قبل! تناولت شايي، وجئت إلى هنا. أشعر أنني مسكين، ويائس أكثر مما مضى.

الجمعة 20 تشرين الأول

سأنجز هذا البرنامج الذي أعمل عليه، أو أتظاهر بأنني أعمل عليه قارئاً الكتب طوال الربيع والصيف... الحقيقة أنه ثمة ضرورة لحركة ثقافية في تركيا... أعرف أن الجميع سيجدون فكرتي هذه خيالية كما هي دراستي الأخرى. ولكن خيال نهضة الريف كان بعيداً عن الواقع لأنه لن ينفذ. ولكن هذا المشروع سأنفذه بنفسي، وبنقودي. كنت أدون دائماً على أوراق ما ينبغي أن يقرأه الجميع، وأشطب بعضها، وأضيف أخرى جديدة.

الجمعة 27 تشرين الأول

تلقيت رسالة من سليمان أيتشليك. يسألني أين أنا، وعن الأفكار التي أنشغل بها. ثمة سخرية خفيفة، ما يشي بأنه يعتبرني ساذجاً في أسلوب رسالته، وهذا ما وترني كثيراً. قررت ألا أكتب له رداً.

السبت 28 تشرين الأول

رسالة من عمر. يكتب فيها عن حياته اليومية. يقول إنه سيمضي الشتاء هناك، وهو يدعونا... قال لي هذا بشكل عابر في الصيف حين تقابلنا. والآن يكتب هذا من جديد. لِمَ لا؟

بعد ساعة! أخبرت بريهان بهذا. قالت: "لنذهب بالطبع!" ودُهشت. قالت: "حسنٌ إذاً، سنذهب!" سنذهب! وقالت: "بهذا نأخذ إجازة من عملية فرش البيت!" كنت منفعلاً جداً! أعرف أنني أغدو كالأطفال أحياناً. والآن سنذهب كلنا إلى الطعام عند أمي في نيشان طاشِ. لن أتخلص من هذا الجنون مهما حصل.

مساء! عدنا من تناول الطعام. نتحدث، بريهان وأنا، دائماً عن تلك الرحلة. سنذهب. أخبرت الذين في نيشان طاش في أثناء الطعام. لم يطيلوا الكلام عندما علموا أن بريهان ستذهب معي أيضاً. سنذهب في الأسبوع القادم. قالت أمي: ماذا سنفعل هناك في هذا البرد؟ لو أننا كذبنا عليهم كذبة صغيرة. ولكننا سنترك ابنتنا ملك عندهم.

الأحد 29 تشرين الأول

ذهبت، وقطعت تذكرتين! سأذهب بالتأكيد. بريهان تخرج الألبسة الثقيلة من الخزانة. غداً، بعد الظهر، سنأخذ الطفلة إلى البيت. أرسلت

رسالة إلى عمر. كتبت له إنني سأنطلق مع بريهان غداً، وعليه ألا يُدهش إذا رآنا.

الاثنين 30 تشرين الأول

نحن الآن في القطار... أكتب هذا من داخل المقصورة ونحن نهتز. أعددت لنفسي طاولة بحقيبة صغيرة! آوه! سنبقى في القطار يومين! قررت أن أقرأ، وأكتب كثيراً هنا. بريهان أيضاً تقرأ كتاباً. إنها تقرأ جورج ساند، ولكنه لا يعجبها على الأرجح، لأنها تتثاءب كثيراً، وتغلقه، وتنظر إلى الخارج شاردة. أنظر إليها أحياناً بطرف عيني. المقصورة دافئة جداً، ولكن الزجاج كالجليد. أنا مستمتع، وأدخن. قالت بريهان: "لننهوها، لا تدخن قبل النوم!" ماذا كنت سأكتب؟هذا ما خطر ببالي الآن: لم أستطع إخبار عثمان، ولم تستطع بريهان إخبار نرمين بعلاقة كل منهما. كانت الحياة تسوء في نيشان طاش تدريجياً. سكننا في جيهان غير جيد...

لماذا نذهب إلى عمر؟ لعلنا نذهب لمجرد التغيير. لكي ترى بريهان البلد. لعل السبب هو رغبتها برؤية البلد، كي تعطيني الحق بنوبات اليأس تلك التي لم تفهمها. كان محي الدين أول من استخدم تعبير: "نوبات اليأس". ترى ماذا يفعل محي الدين؟ لم يتصل بي بعد رسالته الغريبة تلك. اتصلتُ به مرتين، إما أنه لم يكن موجوداً في مكتبه، أو جعلهم يقولون إنه غير موجود.

نعبر إزميت... حسنٌ أنني فكرت باصطحاب الدفتر معي... ثمة أعلام في المحطة، وعلى النوافذ... كنت في أنقرة في العيد الماضي.

الثلاثاء 31 تشرين الأول

الظهر: ننتظر انطلاق القطار. ينظر العابرون إلى ما أكتبه على الدفتر. بريهان تشرب شاياً. قلت لها إنها وضعت كثيراً من السكر في الشاي، وإنها لم تكبر. نتمازح... قالت: "ماذا تكتب هكذا باستمرار!" طلبتُ شاياً آخر. أوه، حسنٌ أنني أعيش!

خرجنا من أنقرة: الساعة الثانية عشرة والنصف. اشتريت جريدة أولص. أخبار الحرب.

مساء: أشعر أنني كالمخلل.

الأربعاء 1 كانون الثاني

صباحاً: علمت قبل قليل من الموظف أننا عبرنا سيواس. أنهت بريهان جورج ساند. أنا أقرأ أناتولي فرانس: ديفريك! نزلت من القطار. أطلقت الصفارات، صعدت فوراً. أشعر بالانفعال كلما رأيت هذه الجبال. كنت أتحدث مع بريهان. تسألني مرة أخرى: "ماذا تكتب؟" الساعة الحادية عشرة... ها نحن ندخل الأنفاق، ونخرج منها... الساعة الثانية عشرة... إننا نقترب... توقفنا في كماه. قلعة على القمة في البعيد تشبه قبة! مايزال هناك نصف ساعة على الأكثر حتى ألب. خرجت، وعدت. قرأت الإعلان نفسه الذي أقرؤه في الممر دائماً: لا تبصقوا داخل المقطورات. انطلق القطار. كنا نجمع أشياءنا... نحن مرحان.

مساء: ماذا أكتب الآن؟ رأيت عمر.. أنا أفكر مع بريهان: "لو أننا لم نأت!". من أين يجب البدء بالشرح؟ المولد لا يعمل. نحن في غرفة ينيرها مصباح كاز، ونشعر بالبرد.

نزلنا من القطار في ألب، ومشينا خمس عشرة دقيقة تقريباً في طريق طيني خفيف الثلج. جئت إلى القصر من قبل. بداية رأينا الحاج، فدهش. ونادى عمر، ودخلنا... كان عمر في غرفة واسعة تُشعل فيها مدفأة ضخمة يحل فيها مسألة شطرنج. عندما رآنا تجمد دهشة. لم يتلق رسالتنا. تحدثنا من هنا وهناك... جلسنا... حكيت له عن رسالة محي الدين، وعما فعلته في اسطنبول، وعن انتقالنا، وكل شيء. قال إنه لا يعمل شيئاً هنا، يذهب إلى إرظروم أحياناً، ويلعب البوكر. ويلعب الشطرنج مع نفسه، ويلعب الطاولة مع موظفي محطة القطار... انتهى الكلام. وأمر بتحضير الغرفة لنا. أخرجنا أشياءنا، ونزلنا إلى الأسفل. إيه، ماذا سنفعل؟ خيم الصمت، والبرود... بدأنا نتحدث عن أيام الجامعة، وعن الذكريات. كان عمر يلف ويدور، ويحكي لبريهان. كأننا زملاء كلية التقينا مصادفة، واضطررنا لقضاء عدة ساعات معاً. تحدثنا عما يفعل هذا، وما يفعل ذاك. وضع الحاج الطعام أمامنا، وأكلنا. وصعدنا إلى هنا قبل نصف ساعة... "لماذا أتينا إلى هنا؟"

2 تشرين الثاني

ذهبنا بالقطار إلى كماه، وتجولنا. الجميع كان ينظر إلينا، وإلى بريهان. تجمّع الأطفال خلفنا. صعدنا إلى القلعة وهم خلفنا. كان بابها مغلقاً. دلّنا ولد

على فتحة بين الأحجار، ولكننا عدنا لأن بريهان لا تستطيع الدخول من هناك... نزلنا إلى المحطة من بين الأدراج والأزقة. الجميع وقفوا أمام دكاكينهم وبيوتهم، ينظرون إلينا. وبريهان تقول: "لنذهب إلى هناك، ولنذهب إلى هنا، وماذا يوجد هنا؟" انتظرنا القطار في المحطة أربع ساعات. كان الموظف يقول: "لا تذهبوا، يمكن أن يأتي في أي لحظة، ولن تستطيعوا اللحاق به!" كان الجو جميلاً في الصباح. ومازال الجليد متجمداً. جلسنا داخل المحطة كأن أحدنا يقاطع الآخر. سنعود، ولكن ليس غداً، بل بعد غد. قطعنا تذكرتين. أكتب هذا في ضوء مصباح الكاز مساء. قال عمر: "لنذهب غداً إلى إرظروم لأعرفك على أصدقائي الجدد!" قلت له: "لا، دعك من هذا!" ماذا سنفعل هناك؟ ولكنني قلق على ما سنفعله هنا غداً. لعلنا نتحدث بهذا مع عمر. ماذا سيفعل هنا، وماذا ينوي، وأمور أخرى... الحياة؟

4 تشرين الثاني: بعد الظهر

نحن في القطار. قبل نصف ساعة انتابت بريهان موجة بكاء. قلت لها: "لماذا تبكين؟" ولكنها لا تجيبني، غير أنني أعرف، لأنني أجد نفسي أكاد أبكي أيضاً. عانقتها، وروحت عنها... خرجتُ من المقصورة. ووجدت طاولة فارغة في مقطورة المطعم...

مكثنا البارحة في قصر عمر طوال اليوم... كان عمر يريد أن يتحدث معي، وشعرت بهذا، ولكنه كان يخشى بريهان. لعبنا الشطرنج ساعات... كنت أسأله أحياناً: "متى ستذهب إلى اسطنبول، وماذا ستفعل؟" كان يلف، ويدور متجاهلاً. قال إنه مسرور من حياته هنا حالياً. مازحنا، وتظاهرنا بأننا نضحك. جلب الحاج طعامنا من جديد، ووضعه أمامنا. والأمر نفسه بعد الظهر أيضاً... أخرج هذه المرة مشروباً من مكان ما. كونياك. بدأنا نشرب، ونلعب الشطرنج! كان ثلج خفيف بدأ يهطل مساء. لعبنا الشطرنج طوال فترة بعد الظهر. الطعام مرة أخرى مساء! شطرنج مرة أخرى! صعدت بريهان إلى الأعلى. وأفرط عمر قليلاً بالمشروب. قال: "أريد أن ألعب دون النظر إلى الرقعة!" جرب هذا ذات مرة قديماً. وضع الرقعة خلف ظهره. لعبنا عدة مرات. وكسب إحداها. وشرب دون توقف. وأنا أيضاً شربت، وسكرت. سألته بشكل صريح عما يفعله هنا (هناك). فسخر

مني. ودارت بيننا محادثة على النحو التالي: سأل: "هل تعرف ماذا تفعل ناظلي، ومختار بيك؟"، "لا أعرف!"، "هل تذكر عمتي تلك التي كانت في حفل الخطوبة؟"، "نعم!"، "أرجوك، انس هذا، انس! أنا نسيت طلب يد الفتاة، وحفلة الخطوبة، وحتى سكة الحديد... لا تذكرني بعد الآن بسنوات الكلية!.." ثم ضحك. في هذا الصباح أيضاً، وفي أثناء انتظار القطار، ذكّرني بسنوات الكلية بشكل عابر! وفيما بعد، لعبنا الشطرنج مرة أخرى... قال إن هناك أمريكي يلاعب ستة لاعبين في آن واحد وهو ملتفت إلى الخلف دون النظر إلى الرقع أبداً. في النهاية يحملونه إلى المستشفى... قال عمر: "يا لها من متعة... يجب أن تكون متعته الكبرى في الحياة ذلك التركيز الفكري." (أو شيئاً من هذا القبيل) بعد أن انتهى الشطرنج، صعدت إلى الأعلى... وجاء معنا عمر إلى المحطة صباحاً. تأخر القطار... ولم نجد ما نتحدث به أيضاً. حكيت له عن محي الدين مرة أخرى، وعن جيهان غير أيضاً. هز رأسه... قال لابد إنه سيذهب إلى اسطنبول، وسيكتب لي... جاء القطار، وركبنا، ورتبنا أغراضنا... مضت عدة ساعات، وبدأت بريهان تبكي فجأة.

لماذا تبكي؟ هل مازالت تبكي؟ أاذهب لأسليها؟ كنت أنظر إلى الخارج عبر النافذة... جبال، وسهول، وصخور، وأشجار. ماذا يوجد في هذه الأشياء؟ ما الذي يجب عمله في الحياة؟

الاثنين 6 تشرين الثاني

نحن في البيت. ذهبنا إلى نيشان طاش، وجلبنا الطفلة. تناولنا طعاماً، وجلسنا مع الجميع، وحكينا لهم، وعدنا.

الثلاثاء 7 تشرين الثاني

ماذا فعلت اليوم؟ المكتب. ذهبت مع بريهان إلى صديقتها سما. زوجها إنسان غريب. درس الاقتصاد في فرنسا. أعطاني كتبَ ماركس لكي أقرأها. لدي فضول نحوها.

الثلاثاء 14 تشرين الثاني 1939

عيد الفطر. الغداء في بيت نيشان طاشٍ. عدنا إلى بيتنا بعد الظهر. نمت قليلاً! لم أجد ما أبغيه لدى ماركس. لم يجذبني.

الاثنين 27 تشرين الثاني

البيت، والمكتب، والطفلة، وبريهان، ونيشان طاش، وعدة كتب، ودراسات، ثم دراسات، والمكتب، ثم المكتب!

الثلاثاء 28 تشرين الثاني

أين البرنامج من أجل حياة جيدة وصحيحة؟.. أو أين تطبيق هذا البرنامج؟ ولكنني سأعمل بالنشر بالتأكيد!

الجمعة 1 كانون الأول

رسالة من الهر رودولف من أمريكا... يتحدث عن الحرب... كتب عن التنوير والظلام وما شابه ذلك من جديد... أعرف أن كل شيء ساذج، وأعيش رغم هذا.

الجمعة 2 كانون الأول

قالت بريهان إنها حامل. لم أستطع التصديق! كنا ننتبه كثيراً! ماذا سيحدث في حياتي بعد الآن؟ هل تقدمت في السن؟

الأحد 10 كانون الأول

أكتب رسالة للهر رودولف. تركتها تواً. أنا ذاهب إلى خطبة عائشة في نيشان طاش. أصيبت بريهان بنزلة برد، وهي مريضة جداً، ولا تستطيع الذهاب... لابد أن يكون لحياتي هدف، وأن أعيش بشرف. كتبت لرودولف عن الثنائية ذاتها: النور والظلام؟ أنا سعيد رغم كل شيء. أشعر بالامتنان للطبيعة لأنني أعيش!

بعد عشر دقائق: لا! كل شيء فيه خبل. لن أكتب رسالة لأحد. أريد أن أصمت حتى النهاية، ولكنني أعرف أنني لا أستطيع فعل هذا. لأنني شخص أحمق.

61
صخب

فتحت عائشة الباب، ودخلت إلى المطبخ، وقالت لنفسها: "أرى جماعتي الأحبة على رأس عملهم كما هم دائماً، وابتسم!"

قالت أمينة خانم: "لا تدخلوا اليوم إلى المطبخ أبداً يا عائشة خانم!"

"لماذا؟ لعلني أساعدكم. هل أقشر لكم برتقالاً؟ من أجل القطائف!"

"لا تتدخلوا اليوم بشكل خاص! آه، لو كانت خطبتي!... يتسخ ثوبي! كم هو لائق عليك!.." والتفتت أمينة خانم إلى الطباخ يلماظ، وقالت: "انظر إلى هذه، انظر!"

نظر يلماظ لحظة إلى عائشة كأنه يخشى أن تعلق عينه بمكان، وأطرق أمامه.

لعل عائشة قالت بداخلها: "انظر، انظر! يمكنك أن تنظر اليوم!" ولكن يلماظ ابتسم. وفكرت: "إنهم يحبونني، الجميع يحبونني! إنهم يعملون في مطبخنا. يحضرون أطعمة جيدة للضيوف. مطبخنا دافئ... تُرى الحديقة من نافذته: حديقتنا... أنا أدعهم هنا، وأخرج!" صعدت الدرج، ودخلت إلى البهو. تمتمت: "يا للزحام، ويا للاحتفال، ويا للصخب، ويا للجمال، ويا للمرح! إلى أين أذهب؟ يمكنني أن أذهب إلى أي مكان، وأن أتكلم مع أي منهم عبارتين، وأضحك... ها هي الصور تلتقط هناك. فلأقف إلى جانب عطية خانم..."

نـادت غـولار خـانم: "انتظـروا، انتظـروا! هـي أيضـاً قادمـة!" وأفسـحت بجانبها مكاناً لعائشة.

وفيمـا ذهـاب عائشـة إلـيهم، فكــرت: "تُلـتقط صـورة. سـنكون علـى الأريكة ثلاثة أشخاص: ليلى خانم، وغولار خـانم، وأنـا! وفي الخلف أخي الكـبير عثمـان، وفـؤاد بيـك، والعـم سـعيد. سـأنظر إلى تلـك الصـورة بعـد سنوات طويلة!"

لـمع الفـلاش. قالـت عطيـة خـانم: "مـرة أخـرى! ادخلـوا أنـتم أيضـاً يـا سيد رمزي..."

فكـرت عائشة: "نعم، نعم! إنه سيد بكل معنى الكلمة!"

نهضت عائشة بعد التقاط صورة أخرى. كان فؤاد بيـك يتحـدث مـع صديقه المقرب سميح بيك أمام غرفة المفروشـات الصدفية. عبرت عائشة بجانبهمـا، وهـي تقـول لهمـا بعينيهـا: "إذا أردتمـا أن تقـولا لـي شـيئاً، أو تعلقا، وتمزحا، فافعلا!" وقد رأياها، وفرحا برؤيتها، وابتسما على نحو يظهر أنهما فرحين. فكـرت عائشة: "فؤاد بيك حمـو المسـتقبل، وسـميح بيك تاجر الصابون!"

"هل اعتدت على الخاتم؟" كانت تلك الخالة شـكران. كانـت جالسـة على كرسي بجانب البيانو.

"اعتدت يا خالتي العزيزة!"

التفتت الخالة شـكران إلى زوجة سميح بيك: "يا روحي! كم هي حلوة، أليس كذلك؟" وابتسمت.

فكـرت عائشة: "آ، هذا يعني أنهما يعرفان إحداهمـا الأخـرى مـن قبـل! الكل يعرف الكل! الجميع يضحكون. الجميع يتحدثون مع بعضهم بعضاً. وأنا سأكون مثلهم، وسأعيش!"

"أمازلت تعزفين على البيانو؟"

"عندما أرغب!"

"احذري أن تتركيه بعد الزواج! هل يحب رمزي البيانو؟"

ابتسمت عائشة جواباً على هذا، واقتربت من البيـانو، وفتحـت غطـاءه، ومرت بأصابعها على مفاتيحه، ولكنها لم تعزف. وفكـرت: "حبيبي البيانو!

في غرفته الصدفية." ونهضت باسمة من جديد، ونظرت إلى المفروشات. "مجموعات صدفية... أرائك... عندما كنت صغيرة كان تذهيب الأغطية يُغرز في فخذي، فلا أستطيع الجلوس عليها. ورغم هذا، فأنا أحب تلك الأرائك." انتبهت إلى النساء قد فتحن حديثاً فيما بينهن، فخرجت من الغرفة. "أنظر إلى حبيبتي الغرفة الكبيرة، الكبيرة جداً... ثريتنا... والأسقف العالية، وتلك الملائكة التي كانت تخيفني عندما كنت صغيرة... والأريكة التي كان أبي يحبها... والأرائك المغطاة بالمخمل... وأفاريز المصباح ذي القوائم... وحبيبي خزف أمي الحبيبة في البوفيه... أي طقم أخرجت اليوم؟ هل المزهر بالأزرق؟ ولكنها نقصت لكثرة ما انكسر منها." ابتسمت لعطية خانم، ثم للمحامي جناب بيك، وسارت نحو البوفيه لتشبع فضولها. "الحمراء طبعاً!" ثم ذهبت إلى جانب أمها الجالسة على أريكتها التي اعتادت الجلوس عليها.

قالت نيغان خانم: "إيه، كيف حالك يا ابنتي، هل أنت مسرورة؟"

"نعم!"

قال عثمان: "كلنا مسرورون!" وكان جالساً على أريكة جودت بيك، يدخن سيجارة.

قالت بريهان خانم: "بريهان غير موجودة مع الأسف!"

قال رفيق: "يا أمي، تعرفون أنها مريضة جداً. كانت حرارتها بعد الظهر ثماني وثلاثين." والتفت إلى عائشة: "لا أدري إن كان ثمة ضرورة لأشرح لك كم كانت تريد أن تأتي؟"

قالت عائشة: "طبعاً، طبعاً... ثم إنها..." وابتسمت. فكرت: "سيكون عندها ولد!" ونهضت: "وأنا أيضاً سيكون لدي ولد. إلى أين أذهب الآن؟ إلى جانب خطيبي! سيكون لدي ولدي، ومجموعتي الصدفية، ومفروشاتي..."

كان رمزي يتكلم مع صديقه. ولأن صديقه طويل القامة، ونحيل رفع رمزي رأسه كما يفعل كلما أراد أن يكلمه، وأبرز صديقه حدبته. فكرت عائشة: "نعم، إنه سمين قليلاً، ولكنه كالجميع!" واندست برمزي. كان رمزي يتحدث عن حاكي وأسطوانات جديدة اشتراها. لم يعودوا يتحدثون عن ميزات ما اشتروه، بل عن ثمنه أيضاً. كان رمزي قد بدأ يذهب إلى المكتب مع

فؤاد بيك. وصديقه محام متدرب، سيخطب قريباً. وفكر: "سنتبادل الزيارات فيما بعد، ونتناول الأطعمة، وتضحك!.." وانفصلت عنهما. "إنهما يتحدثان" سمعت ضحكة. "إلى أين اذهب؟ آه، المحاسب السيد صادق! لماذا ظلوا في الزاوية؟" نظرت إليهم، مظهرة أنها تحبهم، واقتربت من طفل تراه أول مرة بالابتسامة نفسها ناظرة إليه بحب. اندست بالطفل، وانحنت نحوه. رفعت رأسها عندما سمعت حفيف ثياب وهي تتحني.

"آه، هل هذا لك يا قدرية خانم؟"

"يا، كبر، أليس كذلك؟"

قالت عائشة: "ولكنه يبدو متضايقاً؟"

"لا يتضايق يا روحي. إنه يخاف من الضجيج. اسمعي، سأقول لك شيئاً. أنت تشبهين أمك مع الزمن!"

"حقاً؟"

"نعم! كنت أعتقد أنك ستشبهين أباك، ولكن... أنت ترفين بجفنيك! كم عمرك الآن؟"

قالت عائشة: "تسع عشرة!" وسارت بسرعة مبتسمة كأنها تريد أن تلتحق بموعد معين.

شعرت لحظة أن قدرية خانم تنظر إليها من الخلف، ففكرت: "قدرية خانم!" إنها زوجة السيد آغاه طبيب النسائية الشهير. كانت تعرف أبناء السيد آغاه أيضاً. تصورت تلك العائلة كلها أمام عينيها، وفكرت: "سنكون مثلهم أيضاً! وغير هذا، سيكون لدينا قوة تمكننا من القيام بأشياء أكثر منهم!" قال عثمان ذات مرة إن هذا الزواج حظ حسن للشركة أيضاً. وفكرت: "بيتنا!" وتجلت أمام عينيها شقة بناء. كانت تلك الشقة تتجلى أمام عينيها بشكل دائم: كانت غرف البيوت المتنوعة التي تحبها تقترن بالسعادة التي في داخلها. اقتربت من سعيد نديم بيك الذي كان يحادث نرمين في إحدى الزوايا. وكانت عطية خانم أيضاً هناك. كان سعيد بيك يتحدث عن كلبه. صمتوا لحظة حين رأوا عائشة، ولكنهم عادوا إلى الحديث عن الكلب عندما امتدحت عطية خانم ثوب عائشة. فكرت عائشة: "ترى هل أُدخل إلى بيتي كلباً؟" ولكنها لم تر شيئاً كهذا

لائقاً بها. وفكرت بأن رمزي أيضاً لا يحب تجوّل الكلاب، أو أي حيوان فظ داخل البيت. تمتمت: "إي إنسان هو؟" وأجابت بالجواب التالي من دون تفكير: "جيد، وكريم، وطيب القلب، وجنتلمان..." كان ثمة كلمات أخرى على الأغلب، ولكنها لا تخرج عن رأس لسانها. وابتعدت من هناك لأن سعيد بيك بدأ يتحدث عن الحرب.

وحين فكرت: "إلى أين؟" رأت أخاها الكبير رفيق، وتكدرت. تمتمت: "لماذا صار هكذا؟ لماذا غدا أخي الكبير هكذا صامتاً، مفكراً، حزيناً؟" وفي أثناء سيرها نحو رفيق، فكرت: "كم كان مرحاً فيما مضى! أنا كنت مكتئبة، وعابسة، وهو كان مرحاً. كان يعلق علي، ويداعب شعري المجدول، ويسخر مني دون أن يؤلمني!" ذهبت مقابل رفيق، وجلست.

"كيف حال بريهان؟"

قال رفيق: "حرارتها مرتفعة، وهي متعبة. أنفلونزا..."

قالت نيفان خانم: "لو أنك جلبت الطفلة على الأقل!"

"فكرنا بأنها يمكن أن تبرد!"

قالت نيفان خانم: "لا يحدث شيء أبداً!" ونظرت إلى أولادها الثلاثة واحداً واحداً: "أنا كنت أخرج بكم في شهركم السادس في أبرد الأجواء!"

"أوه، هل اجتمع المجلس العائلي؟" كان سعيد نديم بيك يبتسم مرحاً. وانتهى كلامه عن الحرب.

تمتمت نيفان خانم: "آه، يا جودت بيك!" كانت تنظر إلى الصورة المعلقة على الجدار. هزت رأسها يميناً ويساراً فترة، ثم التفتت، وقالت: "اجلسوا هنا يا سعيد بيك! أنتم تعرفون جودت بيك جيداً، في داركم، دار نديم باشا، نحن..."

نهض سعيد بيك وهو يقول: "فؤاد بيك أكثر من يعرفه. ليتحدث لكم عنه هو!" وسار نحو فؤاد بيك الذي يتحدث مع سميح بيك. قال له أموراً ما. ابتسم فؤاد بيك، وجاء إلى جوارهم ببطء، وجلس.

رجت نيفان خانم فؤاد بيك أن يتحدث عن المرحوم. كان ثمة صخب لا يهدأ في البيت والغرف، يتأجج باستمرار، ويبرق، ويتماوج. قال فؤاد بيك إنه

عرف جودت بيك أول مجيئه من سالونيك إلى اسطنبول لفتح دكان، ونخر بصوت صاخب محاولاً حساب في أي سنة حدث هذا.

نهضت عائشة بصمت. وسارت باتجاه رمزي الذي كان مازال يتحدث مع أصدقائه، وقالت فجأة: "أخبروني لأرى، بماذا تتكلمون؟"

ابتسموا لها. قال الشاب المبرز حديثه بعض الكلمات. فضحكت عائشة. وسارت باتجاه البوفيه. وفكرت: "الخزف! خالاتي، والدار القديمة! اليوم خُطبت. وأنا الآن أمشي في بهونا الكبير. أنا في التاسعة عشرة من عمري. وأسمع هذا الصخب الحلو المتموج. إلى أين أذهب؟ إلى المطبخ. هناك جماعتي... ولكن ما أثقل الصمت هناك!"

قالت أمينة خانم: "انظري، ها قد جئت مرة أخرى!

"قلت لنفسي سأرى ما تفعلون."

قال يلماظ: "وضعنا الحلوى في الفرن الآن!"

فكرت عائشة: "آ، حكي!" تذكرت الطباخ نوري. تذكرت أباه. تذكرت جزمي. فتحت الثلاجة، وشربت ماء لمجرد أن تفعل شيئاً. وفي أثناء شربها قرأت جريدة كانت على الثلاجة. تركت الكأس بجانب الجرة. خرجت من المطبخ، ولكنها لم تتجه نحو الدرج، بل نحو الدهليز الضيق المظلم. كان الدهليز يعبق على الدوام بالروائح التي تذكرها بطفولتها، والتي تنبعث من غرفة الغسيل، ومن غرفة الخادمة، ومن دورة المياه التركية. سحبت الرائحة إلى داخلها، وتمتمت: "بذرة! لقالق، لقالق، لقلقة... رحلات، ونزهات أوربية، ولهو..." ثم سارت باتجاه الدرج. راحت تصعد الدرجات. "بيوت، أشياء، غرف، أطفال، سنوات، صور، سجاد، ستائر، هدير. ما أجمل هذا! ماتزال كما تركتها بالضبط. أي صخب، وأي فوضى، وأي مرح! حياة! إلى أين أذهب؟"

62
كل شيء جيد

تحدث فؤاد بيك عن سنة تعارفه إلى جودت بيك، وانتقل إلى السنوات الأخرى. كان يتحدث عن المشروطية، وعن الحيوية في حياة العمل بعدها، كم عمل المرحوم جودت بيك في تلك السنوات. كان رفيق يستمع إلى هذه القصص التي سمعها من فؤاد بيك في حياة والده أيضاً بانتباه، ويستنبط العبر منها أحياناً. يدرك أنه في الفترة الأخيرة كان يقارن حياته بحيوات الآخرين مثل من يشعر بالذنب، ويستخلص العبر من حيوات الآخرين التي يتخذها نموذجاً يحتذى به ليجد أين وقع بالخطأ، أو يتجنب الوقوع به. عندما قال فؤاد بيك إن جودت بيك واحد من بضعة أشخاص استطاعوا أن يقيموا علاقة جيدة بالاتحاد والترقي دون أن يكون ماسونياً، فكر بداية بأن أباه أكثر حزماً منه بكثير، مدرك لما يفعله، ثم غضب من نفسه شاعراً أنه يجمع نماذج حيوات من جديد، أراد أن يعود إلى البيت، وفكر بيريهان. ولكنه لم يستطع أن يتحرك لأن فؤاد بيك أدرك أن رفيقاً يصغي إليه أكثر من نيفان خانم، وينظر إلى وجهه في أثناء حديثه.

تقطعت قصص فؤاد بيك بتدخل عطية خانم لالتقاط الصور. واجتمع الجميع حول نيفان خانم. خرج رفيق من البهو بعد أن لمع الفلاش عدة مرات، وصعد الدرج، ودخل إلى المكتبة على عجل. تأجج في داخله شعور كما لو

أن هناك كتاباً قد نسيه قبل ذهابه إلى جيهان غير، وأن معلومات هامة جداً تفسر ما يبحث عنه في هذا الكتاب. ولكن شعوراً بالندم والذنب حل محل ذلك الشعور بعد دخوله إلى المكتبة فوراً. وفكر: "لم أقرر بعد!" أدرك أنه لن يجد ضالته على رفوف المكتبة الفارغة. كان هنالك صنارة صوف، وحبكة في إحدى فتحات المكتبة التي كانت مملوءة بالكتب قديماً. وعلى الطاولة كتاب الحساب لجميل، وكتاب قراءة اللغة التركية أيضاً. وعلى الرفوف الأخرى صُفت أربعة مطربانات مملوءة بالمربى. فكر: "هذا معيب بحق بريهان!" ولكن بريهان قالت له تأخر. تمتم: "لأعد إلى البيت! علي ألا أمضي وقتاً فارغاً!" خرج على عجل خشية أن يتذكر السنوات التي درس فيها في هذه الغرفة، وقرأ، ولعب البوكر مع أصدقائه مطولاً، وسمع تكتكة الساعة. نزل الدرج، ثم دخل إلى البهو الصاخب. وتمتم: "إن شاء الله لن تحزن عائشة!" وفيما كان يبحث عن عائشة تبادل التحية مع وجه لا يعرفه، ثم غضبت غولار خانم ضاحكة، وتمتم: "هذا معيب بحق بريهان!" وغضب من أمور ما. نظر بطرف عينه، ورأى: كانت غولار تنظر إليه نظرة متفهمة. فيما كان يفكر: "أنا ذاهب إلى البيت. أين عائشة هذه؟" رأى سعيد نديم بيك يترك أخته، ويقترب منه. وفهم من موقف سعيد بيك أنه يريد أن يطرح عليه سؤالاً، وانتظر.

تأبط سعيد بيك ذراع رفيق، وقال: "ذهبتم إلى راستياكنا. أخبرني عثمان."

ارتبك رفيق لحظة، وقال: "من؟"

"راستياك! السيد عمر! عطية خانم أطلقت عليه هذا الاسم. صادفناه في القطار!"

قال رفيق: "نعم! طبعاً، طبعاً! حكى لنا."

"إيه، ماذا يفعل؟"

لم يقرر رفيق. ثم قال فجأة: "مزرعة!"

قال سعيد بيك: "مزرعة؟ حقاً؟ ما أجمل هذا!" وأعاد الكلمة عدة مرات مستمتعاً بمعناها. ثم قال مبتسماً: "لماذا؟ الا يوجد عمل آخر؟" وأجاب بنفسه: "ضاقت عليه الدنيا، أليس كذلك؟" وأعجب بهذه العبارة، فأطلق قهقهة، ثم قطب حاجبيه. "يا للأسف، يا للأسف! كان شاباً نارياً جداً. كان يقول إنه عصامي طموح. هكذا كان." ثم رأى زوجته، وناداها. "انظري يا عطية، عمن نتكلم. عن راستياككر!"

قالت عطية خانم: "حقاً ماذا يفعل؟ لدينا صوره. كنا نريد أن نراه!" وداعبت رأس طفل اقترب منها، وقالت: "ماذا هنالك يا روحي؟" واستمعت للطفل عابسة. قالت: "آه، حسنٌ، حسنٌ!" وهمست بموقف خجول. وكانت تحذر الطفل بغضب هازة سبابتها.

قال سعيد نديم بيك: "أترون، لا أحد يهتم براستياكات اليوم!" وأطلق قهقهة، ثم تمتم: "الفاتحون... الشباب... الحياة!.." ووضع يده على كتف رفيق بحركة غير متوقعة: "ولكنني لا أراكم على ما يرام! أنتم عابسون، ولا تتحدثون، ولا تضحكون... يبدو أنكم تفكرون دائماً... بماذا تفكرون؟"

قال رفيق: "لا أدري! هل أبدو هكذا؟"

قال سعيد بيك باسماً: "غادرتم هذا البيت!"

قال: "فكرنا بأن هذا سيكون جيداً من أجل الطفلة!"

كرر سعيد بيك كلامه: "من أجل الطفله!" ولكن أمراً آخر كان في عقله. وابتسم لامرأة مرت بجانبه، كان سيتحرك بحركة دقيقة نحوه على الأرجح، ثم عدل عن قراره. ولكنه سحب يده عن كتف رفيق. وقال: "امرح يا سيد رفيق، امرح!" وبدا كأنه يحاول تذكر شيء ما. "امرحوا، وانفعلوا، وادخلوا إلى وسط الحياة. عيشوا! وكما قال المرحوم والدكم، تصالحوا مع محيطكم! وإلا فستكونون تعساء جداً! عندما ستتقدمون بالسن ستعرفون أنه لم يكن ثمة معنى لهذه المشاكسة. وهل صحيح ما يفعله راستياكنا هذا؟"

تمتم رفيق: "لا، الأمر ليس كما تعتقدون! وغير هذا فإن عمراً سيأتي إلى اسطنبول..."

وبدا أن سعيد بيك لم يسمع هذا، كان يقول: "عيشوا، عيشوا! وانجرفوا بهذا الدفق العظيم! من نحن؟.. نحن لسنا حتى قطرة ماء بجانب هذا التاريخ الهائل، وهذا النهر المتدفق... دعوا أنفسكم..."

ولأن رفيقاً خشي من استنباط عبرة حياتية من كلمات سعيد بيك أيضاً، قال: "ولكن هذه ليست أفكاراً جديدة!"

قال سعيد بيك: "نعم، المرحوم والدي أيضاً قال هذا! ليست جديدة طبعاً! لا أدري إن كنت قد شرحت لكم هذا وقدمت دارنا نموذجاً. مكان دارنا القديمة..."

قال رفيق بتذمر: "نعم، شرحتم!"

"شرحت... ووالدكم كان أجمل نموذج في هذا! حينئذ ماذا يجب أن يُفعل؟ لا فائدة من هذه المشاكسة أبداً. هذه مشاكسة لا تعطي أي ثمرة. هذا يمنح الإنسان..."

خطر ببال رفيق أن يقول لسعيد بيك إنه يفكر بترجمة روسو، وإيفوي، ونشرهما، ولكنه تراجع. كان قد رأى عائشة بجانب أمه.

"ماذا تشرح من جديد يا سعيد؟" كانت هذه غولار. "هل ألقى القبض عليكم، ويروي لكم قصة حياة أبي؟"

قال رفيق ناخراً: "نعم، نعم!" وضحك لأنه أراد أن يقول بأي حركة، أو يفعل شيئاً، وتمم مشيراً نحو نيغان خانم، وسار نحو الزاوية التي كانوا يجلسون فيها.

قالت نيغان خانم: "اجلس، أين ذهبت!" وفهم أنها كانت تشتكي بحكم العادة، فابتسم.

قالت عائشة: "طبعاً، طبعاً!"

قالت نيفان خانم: "إننا ننتظرها فور تحسنها! احضر مليكتي الصغيرة أيضاً!" ثم التفتت إلى ليلى خانم الجالسة بجانبها، وبدأت تحكي لها عن حفيدتها الصغرى.

ودعت عائشة رفيقاً حتى الباب. وقبلها رفيق، وطفح قلبه بالعاطفة، ثم خرج. استنشق الصمت. قرع الجرس. ثمة سماء صافية كحلية فوق نيشان طاش. طيرت نسمة أطراف معطفه. فكر رفيق: "كسماء صيف دون نجوم!" الصقت ملصقات على أخشاب سياج المبنى المجاور. ثمة لوحة على جدار: "يؤدي إلى الملجأ!" نظر إلى ساعته: تقترب من السابعة. "عندما تراني بريهان ستندهش. كيف يا ترى؟" لم تكن زاوية نيشان طاش مزدحمة. كان هناك أناس يمرون فرادى مسرعين، يرتدون معاطف. سار رفيق نحو الموقف. افتُتح محل مقبلات في طابق سفلي لبناء جديد. لم يكن مغلقاً رغم أنه مساء الأحد. فكر: "لآخذ شيئاً لبريهان! ولكن هل تأكل شيئاً الآن؟ لأشتر شيئاً للطفلة!" مر من أمام الدكان. وفكر: "طفلة... سيأتي طفل ثانٍ! ماذا سأفعل أنا؟.. سأفعل ما افكر به بالتأكيد، ولكن..روسو. كنت سأحكي عن هذا لسعيد بيك... رجل مقرف... غولار!" بدأ الانتظار في الموقف، ولكنه بدا نافد الصبر لعدم وجود أحد غيره ينتظر. وفكر: "لأبتعد من هذا الحي القذر! انقضت طفولتي وشبابي هنا! ولكنني مازلت أحب هواءه وأشجاره!" وجد سيارة أجرة فارغة، فصعد إليها. وفكر: "ماذا سأفعل في البيت؟ أحضر حساء لبريهان. وأعطي أشياء للطفلة. ثم أجلس وراء طاولتي... أجلس فماذا سأفعل؟ نعم، ترى ماذا يجب أن يُفعل؟" بدأ يغضب من نفسه. "ليس لدي فكرة واحدة! لو كان عقلي متوقداً بقدر عشر ما لدى شوبنهاور، فماذا سيحدث؟ وغير هذا، فهو موجود! حركة ثقافية... ترجمات... أحب الحياة! ترى بماذا يفكر هذا السائق؟ يجب علي أن أفعل أشياء تترك أثراً ولو صغيراً، حتى في حياة هذا السائق... نعم، دراستي لتنمية الريف، أعترف أنها كانت خيالية. ماركس! لم أجد ضالتي عنده أيضاً! اعجبني لوجود أفكار براقة عنده أيضاً، ولكن ماذا يجب أن يُفعل، ماذا افعل؟ لم أجد جواباً لهذا.

كلما قرأت أتهمه، وأشعر بضرورة أن أتهم نفسي... نعم، يجب أن أتخلص من أملاكي، و من هذا المكتب! يجب أن أؤسس داراً للنشر.. وأن أعد أفضل الترجمات. وعلى الجميع أن يقرأ هذه الكتب.. ترى ماذا يفعل عمر؟.. ومختار بيك.." تثاءب فجأة. "ما ذلك الصخب الذي هناك... في البيت، كيف سكنت وسط ذلك الصخب طوال سنوات؟.. لعل عمر على حق... الطبيعة، والهدوء أفضل شيء... الجو المفتوح، والنظيف... أنا بحاجة لأمور كهذه... ماذا يجب أن أفعل لأحصل على هواء نظيف؟ يجب أن أذهب إلى المباريات أيام الأحد... ولكن بريهان تقول عن هذا..." سأله السائق إلى أين سأذهب في جيهان غير. فدله رفيق على الطريق. وحين اقترب من البيت، بدأ يفكر بماذا يفعل، وبما يجب أن يُفعل. "قرأت قليلاً في الصباح. وفي هذه الأثناء مررنا قضية الخطوبة... عائشة أيضاً ستتزوج... الأطفال... طفلي الثاني... أريد أن يكون ولداً... يجب ألا يكون مثلي، بل مثل الجميع... ونسميه اسماً كأسماء الجميع: أحمد! ترى سيحدث؟" كان يقترب من البيت. "انتهت الخطوبة.. آه، لم أبارك لرمزي، ونسيت أن أودعه عندما خرجت من البيت... غير مهم!" دفع النقود، ونزل من السيارة. استمع إلى دقات قلبه وهو يصعد درج البناء الذي لم يكن له مصعد. وفكر: "تقدمت بالسن!" كان فضولياً لمعرفة الحياة داخل البيوت التي يمر من أمامها، ولكنه لم يجد أي دليل عليها كما يحدث دائماً، لأن أكثر الشقق تتحدث الرومية.

حين فتح الباب بالمفتاح، ودخل، نادت بريهان: "هل جئت؟"

"جئت، جئت! كيف حالك؟"

قالت بريهان منادية: "جيدة!" وكان صوتها جيداً أيضاً.

نفد صبر رفيق وهو يخلع معطفه، وذهب إلى بريهان دون أن يخلع حذاءه: "هل أنت جيدة حقيقة؟" وجلس على حافة السرير.

"لم أفهم أنا أيضاً! انخفضت حرارتي على الأغلب!"

قبلها رفيق، وقال: "أين ميزان الحرارة؟ قيسيها مرة أخرى!" وجده، ومده إليها.

وضعت بريهان ميزان الحرارة تحت إبطها: "كيف كانت الخطوبة؟"

تمتم رفيق: "كيف ستكون؟ كانت جيدة! حسنٌ أننا انتقلنا إلى هنا. ماذا تفعل الطفلة؟"

"كانت تلعب وحدها قبل قليل! من كان هناك؟"

"الجميع! وكانت غولار خانمك أيضاً!"

قالت بريهان: "لماذا هي لي؟"

ضغط رفيق بيده بشكل خفيف على وسط اللحاف، وقال: "إذا كان ولداً فليكن اسمه أحمد! بماذا فكرت؟ أتعرفين؟.."

قالت بريهان: "احك لي عن الخطوبة أولاً! ماذا ارتدت عائشة؟"

خشي رفيق أن يتعكر مزحه، فقال: "ثوب!" وابتسم. "أخضر على الأغلب..." ووقف.

قالت بريهان: "آ، دخلت بحذائك الطيني! هيا، اذهب، والبس النعال البيتية!"

خرج رفيق من الغرفة، وتمتم: "نعال بيتية، نعال!" وبدا كأنه تذكر عبارة لعمر، ولكنه لم يتوقف عندها كثيراً. قال لنفسه: "لم أكن ألبس نعالاً بيتية قديماً، لأننا كنا نسكن في نيشان طاش. لم يكن ثمة ضرورة للبس النعال هناك!" لبس نعليه. ودخل فجأة إلى غرفة المكتب. كان دفتر المذكرات مفتوحاً على الطاولة. قرأ ما كتبه، وخجل، ثم قرأ الرسالة التي كتبها للهر رودولف، فشعر بالضيق أيضاً. وفكر: "لأنهمك بالعمل فوراً. لأبدأ بالترجمات!" رفع الرسالة. وأغلق الدفتر. وجلس خلف الطاولة.

نادت بريهان من الداخل: "حرارتي جيدة، جيدة جداً! كل شيء جيد جداً، طبيعي، جيد..." وكانت تبدو كما لو أنها تضحك لنفسها.

القسم الثالث
الكلمة الأخيرة

1
يبدأ يوم جديد

فور نهوض أحمد، نظر إلى ساعته: الثانية عشرة والنصف. فكر: "نمت في الخامسة، وهذا يعني أنني نمت سبع ساعات ونصف. كل هذا النوم زائد عن الحد. نهض من السرير بسرعة، وخلع منامته، وتمطى. فكر في أثناء ارتدائه ملابسه: "نسيت الباب مفتوحاً مرة أخرى!" كانت الغرفة تفوح برائحة النفط وزيت بذر الكتان. قرأ في مكان ما أن زيت بذر الكتان يسبب السرطان. صار ينتبه إلى أمور من هذا النوع منذ وفاة أبيه بالسرطان قبل خمس سنوات. وفيما كان يرتدي ثيابه، فكر: "لأكتب في مكان ما كي لا أنسى إغلاق الباب عندما أنام!" ثم وجد أنه محتاط أكثر من اللازم. وتمتم: "لا أحب المحتاطين، وكنت أول من هرع إلى المستشفى حين حلت جائحة الكوليرا! ولكنني أريد أن أعيش طويلاً أيضاً، فلا أستطيع إنجاز اللوحات التي أريدها إلا بعد الخمسين من العمر. عاش غويا اثنان وثمانين سنة. ومايزال بيكاسو يرسم. ومات راسل هذا العام. شو أيضاً يقدم النصح بالعيش طويلاً." كان ثمة أمور أخرى في عقله حول طول حياة الفنان، ومزايا طول عمر الفنان، وما قراه، وما سمعه حول هذا، ولكنه لم يكررها. خرج من الغرفة. توقف في أثناء سيره إلى دورة المياه، واقترب من لوحة كبيرة مسنودة إلى جدار الغرفة الكبيرة. كان يعمل عليها أول

البارحة. ويريد أن يتابع العمل عليها اليوم أيضاً. لمس اللوحة بإصبعه، وفرح حين وجد أن اللون قد جف بقدر ما أراد تماماً، وذهب إلى دورة المياه.

غضب من نفسه عندما انتبه إلى أنه دخل إلى دورة المياه حافي القدمين كما يفعل كل صباح، ثم بدأ يعيد النظر ببرنامج اليوم. لأن أحد لا يريد أن يأخذ درساً بالفرنسية والرسم فإن الوقت ملكه بمعظمه. لعل إلكنور تأتي مساء. "ترى كيف حال جدتي لأبي؟" كان وضع جدته الصحي سيئاً، حتى إن الأطباء تحدثوا عن الموت. إنها طريحة الفراش طوال اليوم، تتمتم بأمور غريبة، وتتاوب عندها ممرضة. وفكر: "حقاً، كنت سأرسم جدي!" شرع يحلق ذقنه كما يفعل كل صباح لكي لا يبدو كالفنانين الملتحين، والشعث، البوهيميين. تمتم: "هل يشبه وجهك وجه غويا؟" وبدا كأنه يغضب من نفسه: "اخترعت التعلق بغويا حديثاً!" غسل وجهه، وخرج من الحمام، وأخذ الجريدة الملقاة من تحت الباب. رأى مظروفاً بجانب الجريدة أيضاً: كانت دعوة لمعرض. فتحه، وألقى نظرة! "طبع غنجاي بطاقة دعوة لمعرضه! وأرسلها رغم أنه ناقش هذا معي، وتحدثنا به عدة مرات. أي شخص هذا!" نظر إلى بطاقة الدعوة مرة أخرى. إنها تشبه دعوة العرس. كان سيقول: "بورجوازي صغير بكل معنى الكلمة" ولكنه تراجع، وتذكر أنه يحب غنجاي، أخذ الجريدة، وجلس في زاوية.

لم تكن الجريدة تفتح النفس: "شيعت الجنازة بمراسم كبيرة. خمسة آلاف شاب أقسموا قسم الاستقلال... 12 كانون الأول 1970" هناك صورة امرأة ملتحفة بغطاء تبكي وهي تحتضن التابوت. "أم حسين أصلان طاش!" نظر إلى أسفل الصورة. "الأم البائسة تنكب على تابوت ابنها، وتجهش بالبكاء!" ارتعد فجأة: "أكثر الأمور جدية تقدم بلغة الأفلام المحلية..." وقعت عينه على مكان آخر: "قدّم باطور إنذاراً لصوناي!" ثم قرأ منفعلاً: "زار الفريق محسن باطور قائد القوات الجوية رئيس الجمهورية بتاريخ 15 تشرين الثاني، وأبلغه امتعاض القوات المسلحة الواضح جداً بمختلف مراتبها..." رفع رأسه عن الجريدة. وفكر: "السيد ضياء على حق إذاً!" جاء

بالأمس ابن عم أبيه العقيد المتقاعد ضياء لزيارة نيفان خانم، وعندما رأى أحمد، صعد إلى الأعلى، وقال إن الجيش سيفعل شيئاً ما. بموقفه الغامض دائماً الذي يشي بأنه يعرف أموراً كثيرة، ولكنه مضطر لإخفائها، قال إنه سيحدث أمر ما اليوم أو غداً. ثم انزلقت عن لسانه عبارات مثل كتيبة الحرس، والكلية الحربية، أو أظهر كأنها انزلقت عن لسانه. كان ينظر نظرة تعني: "ياه، الجيش يقوم بمهمته، ويحصل حقه!" وقرأ أحمد الجزء المتبقي من الخبر: "قدم باطور نسخة من رسالته إلى طاغماتش. ولكن رئيس هيئة الأركان طاغماتش... وعندما طال اللقاء عُلم أن طاغماتش يؤيد آراء باطور!"، "حسنٌ، أوقع به باطور! سيعملون انقلاباً!" وفجأة تمتم مستذكراً ما قرأه حول هذا الموضوع: "هل يمكن حدوث شيء من هذا القبيل يا روحي؟" ثم اندهش: "ماذا لو حصل!" انفعل، ونهض. ذرع الغرفة. ثم جلس، وقرأ الخبر متوقفاً عند كل كلمة من كلماته. كُتب الخبر بلغة دقيقة جداً. "ترى من سرّب الخبر إلى الصحافة؟ وماذا يعني: امتعاض واضح جداً؟ لماذا يمتعضون؟ من جعلهم يمتعضون؟ إنهم يقلقون من أجل الوطن طبعاً. قضايا البلد، وقضايانا الاجتماعية!" قرأ الخبر مرة أخرى: "صوناي أبلغ ديمريل بالرسالة خلال هذا الأسبوع!" نهض من حيث يجلس: "ترى ماذا فعل هو؟" تأجج الانفعال في داخله، وخرج إلى الشرفة لأنه يريد أن يفعل شيئاً. وسار حتى حامية الشرفة، واستند إليها، ونظر إلى نيشان طاش.

كانت ساحة نيشان طاش متلألئة نحو الساعة الواحدة. ثمة اختناق مروري. كان شرطي وسط الشارع يحرك يديه، وذراعيه، ويطلق صفارته. انفلت ذراع حافلة كهربائية من سلكه، وانحنى نحو الإسفلت. وخرج السائق من الباب المفتوح، ونظر إليه طالبا ثانوية ببزتيهما. يبيع الفجر أزهاراً بسلال صفوها على الرصيف المقابل. دلال موقف سيارات الخدمة ينادي بصوت رفيع. ماسحو الأحذية الثلاثة وجدوا زبائن. يبدو أن هنالك زبوناً ينتظر. امرأة أنيقة تعود من تسوق يوم السبت. صبية تلبس تنورة قصيرة، وتنظر إلى واجهة محل "بوتيك". "بائع خبز مهرب" يبيع خبزاً للنيشان طاشيين

أنصع بياضاً من المحدد في لوائح البلدية غطى سلته بغطاء أبيض، وكان ينظر إلى ذراع الحافلة الكهربائية. ثمة ملعّب قمار بجانبه. وامرأة تسحب كلباً مرت من أمامهم. تلميذا مرحلة ابتدائية يتدافعان أمام بنك العمل. بواب بناء الضوئي نوزت يدخل إلى البقالية المقابلة. فُتح المرور، واقتربت امرأة مغطاة الرأس من بائع اليانصيب الوطني عند الزاوية الأخرى. دخل سيد يرتدي سترة مخملية إلى بائع البن. وفكر أحمد: "انقلاب! انقلاب يقلب كل هذا رأساً على عقب، ويهز نيشان طاش، والبورجوازية كلها!" فجأة تثاءب وهو يتمطى. وفكر: "لن يحدث شيء! يبدو أن تلك الفوضى التي في الأسفل ستستمر سنوات" ولكنه رغم هذا فكر: "ماذا لو حدث!" وضحك. "إذا نفذ انقلاب ذات يوم فإن أحداً لن يستطيع الخروج إلى الأزقة!" فكر بالسيد ضياء، وتمتم: "كلانا نكره نيشان طاش!" رفع رأسه، ونظر إلى الأعلى. كانت هناك شمس شاحبة، مبهمة، لا تثبت على قرار. كأن أغصان شجرة الزيزفون العارية التي لا تريد جدته من أحد أن يمسها تمتد نحو السماء، ولكن كان خلف الأغصان أبنية أعلى منها. أدار أحمد ظهره لنيشان طاش، ونظر إلى الطابق الملحق. وفكر: "من أنا؟"

إنه يعيش هنا، في هذا الطابق الملحق ببناء في نيشان طاش منذ أربع سنوات. عاد من باريس بعد أن ذهب إليها "لدراسة الرسم" قبل أربع سنوات، وبعد حسابات طويلة أُعلن أن كل ما تبقى لأحمد وملك من أبيهما رفيق يساوي قيمة هذا الطابق الملحق، وحتى أقل منه، وسكن في هذه الشقة ذات الغرفتين لأن أخته ليست بحاجة إليها. ولم يكن بحاجة إلى كثير من النقود لأنه لا يدفع أجرة بيت، ولا يشارك بنفقات التدفئة المركزية، وهو يتناول طعامه في الأسفل عند جدته. وكان أحياناً يبيع لوحة، وفوق هذا فهو يدرس ثلاثة تلاميذ الفرنسية، وواحداً الرسم وجدهم عن طريق إعلان في الجريدة. وتمتم مرة أخرى: "من أنا؟"، ولكن الحزن لم يسيطر عليه. "أنا مدرك لما أفعله! أقدم حياتي من أجل قطف ثمرة من شجرة الفن!" قرأ شيئاً كهذا في مكان ما على الأغلب،

ولكنه لم يغضب من نفسه، ولم يتخذ موقفاً ساخراً أيضاً. قرر النزول إلى الأسفل لرؤية جدته، وملء بطنه. أخذ مفتاحه، ونزل.

فسر الأطباء مرض نيفان خانم "بالشيخوخة عموماً" وبتصلب الشرايين بشكل خاص، أو بشيء شبيه بهذا على الأغلب. انتبه أحمد فيما كان ينزل الدرج إلى أنه لا يهتم بهذا الأمر. ولكن ثمة أمراً يدركه بشكل حازم: لا يصل الدم إلى مخ نيفان خانم بالقدر الكافي بسبب قصور في شرايينها. لهذا السبب فإن جدته كانت تخلط كثيراً بالزمان والمكان والأشخاص، فيخلق هذا حزناً أحياناً، ومرحاً أحياناً. ولأن أحفاد نيفان خانم وأولادهم الساكنين في الطابق السفلي يجدون في مرض جدتهم أمراً مسلياً فقد منعوا في الأسابيع الأخيرة من الصعود إلى الأعلى. فتح أحمد باب الشقة بمفتاحه قلقاً على صحة جدته، ودخل.

سمع تكتكة الساعة ذات البندول المعلقة في الطرف الآخر من الدهليز فور دخوله. دخل إلى المطبخ فوراً ليبلغ الطباخ يلماظ أنه أتى، وأنه يريد أن يتناول طعاماً ما، ولكن المطبخ كان خاوياً. فيما كان يسير باتجاه باب المطبخ المفتوح على البهو سمع قهقهة، فتوقف. وحين سمع قهقهة الطباخ يلماظ بعد تلك، نظر من فرجة الباب، وكاد أن يخاف: ثمة شيء غريب فوق شعر جدته. وعندما نظر بإمعان، عرف أنه أحد الأغطية المحبوكة يدوياً التي توضع على الطاولات الصغيرة.

صرخت الممرضة: "لا تتخيلين كم هي لائقة بك يا نيفان خانم!" وأطلقت قهقهة. "والله صرتم كالعرائس!"

تمتمت أمينة خانم: "آه، لا تفعلوا هذا لطفاً! حرام، حرام!"

قال الطباخ يلماظ: "يا نيفان خانم، يا نيفان خانم! ما رأيك بي؟ أعد أبي لكم طعامكم على مدى ثلاثين سنة. وأنا أعده منذ ثلاثين سنة، هل أنتم راضون عني؟"

قالت نيفان خانم وكأنها شاردة في مكان بعيد جداً، وتتحدث مع أشخاص غامضين: "نعم، أنا مسرورة منك!"

قالت أمينة خانم: "كفى، لا تفعلا هذا بعد الآن! انظروا، هل ترون؟"

قالت المرضة: "هل تدخنين؟" وعندما هزت نيفان خانم رأسها، أشعلت سيجارة، وقدمتها لها.

حاولت نيفان خانم أن تسحب دخان السيجارة، ولكنها انطفأت. نفختها عدة مرات. قالت كلمات ما بصوت متذمر. أطلق الطباخ يلماظ قهقهة. أشعلت المرضة السيجارة من جديد، وقدمتها. نهضت أمينة خانم وهي تتحدث بكلمات ما، وحاولت أخذ الغطاء عن رأس المريضة، والسيجارة من يدها، ولكن نيفان خانم لم ترد إعطاءها السيجارة.

سحب أحمد باب المطبخ الآخر بكل ما أوتي من قوة، وسعل بصخب، وأعطاهم فرصة للململة أنفسهم، ودخل. كان يشعر بغضب خفيف، ويعتقد أنه لاضرورة بأن يشعر به.

قالت المرضة مشيرة إلى السيجارة: "إنها جيدة لأعصابها!"

قال أحمد: "ألا تضرها؟ كيف حال جدتي؟"

قالت المرضة: "جيدة منذ البارحة!"

قال يلماظ: "هل أحضر لكم شيئاً يا سيد أحمد؟" ثم ضحك حين رأى أن نيفان خانم مازالت تسحب من السيجارة، وقال: "آه، ما أسوأ هذا، ما أسوأه، حرام، حرام! أنا أضحك الآن يا سيد أحمد، ولكن لا تنظروا إلى هذا! وهل أعرف ما أفعله حزناً عليها؟ لو تعرف مشاعري! ماذا أحضر لكم؟ هل أسلق لكم بيضاً؟ لدينا كفتة جافة..."

قال أحمد: "نعم، اعمل بيضاً. وضع لبناً في الصينية. اجلب لي ما هو موجود!" وجلس مقابل جدته.

قالت أمينة خانم: "اليوم أفضل ولله الشكر!" وكانت تضع الغطاء اليدوي الصنع بدقة على الطاولة الصغيرة.

قال أحمد فجأة: "صباح الخير يا جدتي!"

تمتمت نيفان خانم: "هذا أنت؟ أين كنت؟"

قال أحمد منفعلاً مثل طفل مخبول: "كنت في الأعلى، ونزلت إلى الأسفل."

قالت نيفان خانم: "أين أبوك؟"

"أبي غير موجود ياه!.."

خيم صمت. بدأت نيفان خانم بالتفكير. كانت تنظر بتشكك إلى أحمد من وراء نظارتها السميكة. وتعتقد بأنه يخفي عنها شيئاً، وتبحث عما هو على الأغلب. قالت: "هيا، ناد أباك لكي يأتي!"

قالت الممرضة بفظاظة: "مات أبوه ياه!" والتقطت السيجارة، وأخذتها.

قالت نيفان خانم: "نعم، مات! ماذا أفعل، هل هذا ذنبي؟ كان يجب ألا يتزوج من تلك المرأة!"

فرح أحمد مدركاً أن عقل جدته يعمل جيداً: "كيف تشعرين بنفسك اليوم؟"

قالت نيفان خانم: "تطن أغنيات في أذني دائماً!" ومما تعانيه أيضاً أنها تسمع في قعر أذنها بعض الأغنيات التي تعود إلى فترتي طفولتها، وشبابها.

"هل هي الأغنيات نفسها؟"

"الأغنيات نفسها!"

قالت الممرضة: "غني إحداها لنسمعها!" وعندما رأت أن أحمد ينظر إليها بحدة، نهضت، وذهبت إلى المطبخ.

أشارت نيفان خانم إلى الممرضة، وقالت: "من هذه؟"

قالت أمينة خانم: "إنها السيدة زحل! الطبيبة ياه!" وأمسكت يد نيفان خانم التي كانت تشد أحد أطراف البطانية، ووضعتها جانباً. بدأت اليد المثقبة، والمزرقة لكثرة غرز حقن المصل بالحركة وهي ممددة جانباً.

قال أحمد براحة لمعرفته أن جدته لن تسمعه: "أمازالت لا تأكل؟ متى ستتركون المصل؟"

قالت أمينة خانم: "السيدة الممرضة تعرف!"

جلب الطباخ يلماظ طعام أحمد في صينية. وضع الصينية على طاولة صغيرة. وقال: "لأحضر لك معقود الفواكه. هل تريد؟"

قال أحمد: "لا، لا!" وكان في الصينية بيض، ولبن، وكفتة جافة.

قالت نيفان خانم: "بماذا تتحدثون؟"

قال أحمد: "أنا أتناول الطعام!"

"أين كنت أنت؟"

"كنت في الأعلى يا جدتي العزيزة. أنا أرسم في الأعلى ياه!"

بدت نيفان خانم كأنها انفعلت، وقالت: "آه، يا لتلك الموهبة التي عندك! الموهبة التي عندك! إنها عطاء من الله... اعرف قيمتها!"

قال أحمد فرحاً: "أعرف... أرسم!"

قالت نيفان خانم بشك: "أترسم دائماً؟"

"نعم!"

"والنقود؟ ألن تتزوج؟ استجلس دائماً في البيت؟"

قال أحمد مبتسماً: "أخرج أحياناً إلى الزقاق!"

"أقول لنفسي، لأذهب إلى المصرف، وأنظر إلى خزنتي!"

هز أحمد رأسه. كانت الممرضة قد جاءت من الداخل. فيما كان يلماظ يستند إلى البوفيه، وينظر إلى نيفان خانم. يبدو أن الجميع ينتظرون حدوث مرح، أو شيء جيد أو سيئ يتحدثون عنه فيما بعد. يسأل يلماظ أحياناً أحمد عن نضج الكفتة، وما إن كان يريد معقود الفاكهة أم لا. وحين فتح الباب الخارجي فجأة، سمع وقع أقدام، فتفرق الجمع من حول نيفان خانم. وفهم أحمد من وقع الأقدام أن القادمين هما نرمين وعثمان.

2
بناء في نيشان طاش

فور دخول عثمان إلى جانب أمه، قال صارخاً: "كيف حالك يا أمي؟" وبقدر ما كان سمع أمه ثقيلاً، كان يشكو هو من ثقل السمع أيضاً.

قالت نيغان خانم: "أين كنت؟"

قال عثمان: "كنت في المصنع!" ولكنه أدرك أن أمه لم تسمع: "أقول إنني كنت في المصنع. ذهبت مع جميل إلى المصنع اليوم!.."

عبست نيغان خانم. ثم نظرت إلى نرمين المقتربة منها بقلق.

قالت نرمين: "أنا يا سيدتي، أنا، أما عرفتني؟"

التفتت نيغان خانم إلى أحمد، وقالت: "من هذه؟"

"إنها زوجة العم نرمين يا جدتي، زوجة العم نرمين!"

قالت نرمين: "لم تستطع معرفتي أيضاً!" لم تعد نيغان خانم خلال الأسابيع الأحد عشر التي تطور فيها مرضها تعرف البعض. ويبدو أن نرمين كانت تشعر بالظلم لدى وجودها بين أناس لا يعرفونها.

تمتمت نيغان خانم بشك: "هل هي بريهان؟"

صرخت نرمين: "أما تزوجت بريهان من شخص آخر! أنا كنتكم. أما عرفتموني يا سيدتي؟" والتفتت إلى عثمان، وأضافت غاضبة: "والله إنها تفعل هذا عن قصد!"

قال عثمان: "لماذا ستفعل هذا عن قصد؟ إنها لا تستطيع معرفتك. إنها مريضة، ماذا نفعل!"

جلست نرمين في زاوية وهي تكلم نفسها. وخشي أحمد من نشوب شجار جديد بين عمه وزوجته. أشعل عثمان سيجارة. وطلبت منه نرمين ألا يدخن. نخر عثمان. خيم صمت.

قالت نيفان خانم فجأة: "ماذا فعلتم في المصنع؟"

صرخ عثمان متوتراً: "ماذا يفعل الناس في المصنع؟ ألقينا نظرة! نظرنا لمعرفة ما إن كان العمل جيداً، أم لا! لا يوجد شيء، لا يوجد شيء، كل شيء جيد. إنهم يعملون. يعملون جيداً!"

"ماذا يعملون؟"

"يعملون مصابيح يا أمي العزيزة! مصابيح!"

تمتمت نيفان خانم: "آه، أهذا ما كانت ستؤول إليه أوضاعنا!" يبدو أن الإضراب الذي حصل في المصنع قبل سنتين قد خطر ببالها. صارت نيفان خانم بعد ذلك الإضراب تتذكر المصنع دائماً كأنها تتذكر كارثة. وتؤمن بأن لهذا علاقة "بالاتجاه السيئ" الذي كتبت عنه الجرائد، إذ لم تعد الأخبار السياسية فقط، بل كل ما تسمعه من أخبار سيئة يبدي لها أن الأعمال لا تسير جيداً.

قال عثمان: "لا يوجد شيء، لا تقلقوا!"

تمتمت نيفان خانم مرة أخرى: "لماذا لا أقلق؟ بأي أحوال سقطنا. أهذا ما سنكون عليه؟ أهكذا سيغدو ما أسسه جودت بيك؟ أهذا ما أراد؟ لم يعد أحد يعرف أحداً. أتعرف ما قاله ضياء البارحة؟"

سأل عثمان: "ماذا قال ضياء؟"

تمتمت نيفان خانم: "عديم تربية، وقليل احترام، وفظ!"

التفت عثمان إلى أمينة خانم، وقال: إذا جاء مرة أخرى فلا تدخلوه! أرسلوه إلينا في الأسفل. لنفهم ما يريده!"

قالت الخادمة: "تحدث مع السيد أحمد!"

قال عثمان: "حقاً، بماذا تكلمتما؟"

قال أحمد مرحاً، ومنتبهاً إلى أن عثمان قد قلق: "لا يوجد شيء!" و فكر: "أأخبره!" ثم فكر في لحظة إنه يرغب بقيام الانقلاب: "سيحدث انقلاب. انقلاب يساري! ستهدم نيشان طاشِ..."

"ماذا قال لك، وماذا شرح مرة أخرى؟ ماذا كذب؟ إنه في الخامسة والسبعين، ولكنه لم يمل من الكذب، والتهديد! ماذا يقول؟"

لم يستطع أحمد ضبط نفسه: "يقول إن الجيش سيعمل ما يشبه الذي جرى في 27 أيار."

"من أين يعلم هو أموراً كهذه؟ ثم ما علاقتنا نحن؟"

قال أحمد مستمتعاً أكثر: "سيكون الانقلاب ضد صناعة التجميع! هذا ما يقوله! إنه انقلاب يساري ضد ديمريل وصناعيي التجميع!"

تقطب وجه عثمان. ورغب أحمد بالضحك من قلبه.

كان لدى الرأي العام حركة قوية ضد صناعيي التجميع بقدر ما هي ضد ديمريل. وهذا موضوع يغضب عثمان كثيراً. فلا يقول إن مصنعه للمصابيح مصنع تجميع، بل إنه يصنع مصابيح، ويثبت هذا بالأرقام.

قال عثمان قلقاً: "إيه، لو أنك قلت له إن مصنعي ليس تجميعياً!" يبدو أنه خجل من قلقه.

قال أحمد: "لم يكن يحكي عن مصنع المصابيح يا روحي!" وأضاف ضاحكاً: "ثم إنني لا أعرف الأرقام الأخيرة. كم بلغت النسبة؟"

قال عثمان: "تسع وثمانون بالمائة!"

قال أحمد: "إيه، لا تعد نسبة أربع وثمانون بالمائة تجميعاً."

توتر عثمان: "ماذا قال غير هذا؟ غير هذا؟"

"تحدث عن أبي، وعن جدي."

"من أين يعرف رفيقاً هو؟"

"في الحقيقة أنه تحدث عن أبيه... وأنا سألته، يبدو أنه كان إنساناً غريباً جداً... كان يعمل بالسياسة..."

"والله كان أبي يقول إنه واحد سكير."

غضب أحمد، وقال الكلمة التي لم يقلها قبل قليل: "كان ثورياً على الأغلب."

ضحك عثمان، وقال: "نعم، ذكر أبي خيالية عمي نصرت!"

تمتم أحمد: "حدثت أمور غريبة جداً!" ثم ندم لأنه تمادى إلى هذا الحد.

قال عثمان: "ماذا حدث؟ ما الذي لفقه مرة أخرى!" ونهض واقفاً حين رأى أحمد مرحاً. كانت نظراته تقول: "أنت أيضاً منهم! أي إنسان أنت؟" وبدا كأنه تذكر شيئاً عندما جاء الطباخ لأخذ الصينية من أمام أحمد، فابتسم ابتسامة غائمة، وقال: "يا عزيزي أحمد، تعال إلينا على العشاء!" والتفت إلى نرمين: "ليتناول الطعام عندنا هذا المساء، أليس كذلك؟"

قالت نرمين: "طبعاً، طبعاً! ستكون لدينا زحمة هذا المساء. الجميع عندنا."

بدأ عثمان يذرع الغرفة، وقال: "يعني إنه يقول عنا تجميعيين ها! وأنت لم ترد عليه!"

قالت نرمين: "لا تتوتر، أرجوك!"

قال عثمان متوتراً: "أنا في الرابعة والستين! ولم أتعلم حتى اليوم ألا أغضب عندما يفتح حديث العمل. ولن أستطيع تعلم هذا بعد الآن!"

قالت نيغان خانم: "إلى أين يذهب هو؟"

"لا أذهب إلى أي مكان. حباً بالله يا أمي، ها أنا هنا!"

نهضت نرمين فجأة. وقربت وجهها من نيغان خانم بمكر، يكاد يكون خبثاً، وسألتها بسرعة: "من أنا يا سيدتي، هل عرفتموني؟ هيا قولوا، من أنا؟"

قالت نيغان خانم: "أنت بريهان، تزوجت باكراً!"

أطلق عثمان قهقهة، وجلست نرمين مكانها منزعجة. سأل الطبخ يلماظ من يريد أن يشرب القهوة. قالت نرمين غاضبة إنها ستنزل إلى الأسفل.

اقترب أحمد من عثمان، وقال: "أنا سأدخل إلى الداخل، سألقي نظرة على كتب أبي! رأيت كتباً قديمة البارحة."

تمتم عثمان: "كتب... يعني إنك لم ترد عليه ها! إذا جاء مرة أخرى، فأرسلوه إلى الأسفل. ولا تنس أنه لابد من الصناعة التجميعية من أجل تأسيس الصناعة المحلية!"

قال أحمد: "والله يا عمي العزيز، إذا كنتم تريدون رأيي فإنني أعارض هذا الانقلاب!" وسار نحو الداخل. وفكر: "هذا صحيح، ولكن كان علي ألا أقول له هذا! الرحمة، سئمنا من هذه الأخلاقيات أيضاً!" سار عبر الدهليز مستمعاً لتكتكة الساعة. عاش أبوه عشر سنوات في الغرفة الداخلية بعد انفصاله عن أمه، وحتى موته. وعندما اشتد مرض نيغان خانم قبل أسبوع ظهر في البناء اهتمام مفاجئ بالأشياء القديمة لسبب ما، وبدأ أحمد يقلب كتب أبيه، وخزائنه. وقد استعرضها من قبل، وأخذ منها ما أراد، ولكنه وجد الآن بعض الأشياء. قبل أسبوع، وجد دفتراً. وأدرك أن هذا الدفتر دفتر مذكرات كان أبوه يكتب عليه مذكراته ذات يوم. ولأنه لا يستطيع قراءة الأحرف القديمة أعطاه لإلكنور. إلكنور تعد الدكتوراه في تاريخ الفن، وتقول إنها تقرأ الحروف القديمة. سيعلم أحمد ما يوجد في الدفتر، وإلى أي مدى تقرأ الفتاة الحروف القديمة. عند اقترابه من الباب، فكر بأن المرضة يجب أن تكون في الداخل. فهي ترتاح هنا عندما تنام نيغان خانم، ولا تضطر للبقاء بجانبها. نقر أحمد الباب، ودخل. كانت المرأة جالسة على حافة السرير، تدخن سيجارة.

قال أحمد: "لا تواخذيني! أقلقتكم. سأنظر إلى بعض الكتب التي هنا!" ابتسم، وفكر: "ولكنني راق ها!"

قالت المرضة: "أرجوكم، هذا بيتكم!"

سار أحمد نحو المكتبة. بدأ ينظر إلى كمبيات الكتب. وشعر بالضيق لأن الكتب لم تكن لافتة للنظر، ولأن الممرضة كانت تنظر إليه وهي تدخن. فتح الخزانة السفلية بحركة واثقة كأن ما يبحث عنه كان هنالك. بحث حيث وجد الدفتر في الأسبوع الماضي، ولكنه لم يجد شيئاً.

قالت الممرضة: "أما غضبتم مني قبل قليل؟"

"لماذا؟"

"لا تفكرون أنني قلت احتراماً لجدتكم، أليس كذلك؟"

انحنى أحمد نحو الخزانة، وقال: "من أين استنتجتم هذا؟"

قالت الممرضة: "كنا نمزح! إن الرعاية الخاصة هذه صعبة إلى حد أنها تجعل الإنسان يشعر بالسأم، ويكل، ويمل. عفوكم، إن جدتكم لا تفعل هذا، ولكن الآخرين يعملونه، ويضطر الإنسان لتنظيف قذر الآخرين."

تمتم أحمد: "نعم، طبعاً، سيئ!"

"كنا نمزح. وتتوتر أعصاب الإنسان أيضاً."

بحث أحمد بسرعة، ولكنه لا يجد شيئاً.

"أنا أعمل دائماً مع عائلات جيدة مثل عائلتكم. هل تعرفون عائلة غولمان؟ كنت أخرج في نزهة إلى البوسفور مع المرأة بعد الظهر!"

وجد أحمد دفتراً، وفتحه بانفعال. كان مكتوباً على صفحاته الأولى أشياء ما بأحرف قديمة. أغلق الخزانة، ونهض.

قالت الممرضة: "يشعر الإنسان بالضيق! إذا كانت هنالك رواية جيدة، فأعطوني إياها لأقرأها. أنا أستغرق بالقراءة، وأنسى كل شيء. هل كانت هذه الكتب لأبيكم؟ هل كان بروفسوراً؟"

قال أحمد: "والله لا أعرف!" وخرج من الغرفة. سار في البهو. عبر وسط الأشياء المراكمة في كل مكان، واقترب من صورة جودت بيك المعلقة على الجدار. كان يفكر برسم صورة جودت بيك. ولكنه عندما اقترب من الصورة، فكر أن هذا التصور ساذج جداً، وقرر تأجيل هذا

الأمر. نظر مرة أخرى إلى جودت بيك عن قرب، وفكر أنه ليس من السهولة أن يلتقط عالمه الداخلي.

سألت نرمين: "ماذا تفعل هناك؟"

قال عثمان: "ألا ترين، إنه ينظر إلى الصورة! حقاً، ارسم صورة أبي!"

التفت أحمد إليهما مبتسماً. نظر إلى جدته. قالت له نرمين مرة أخرى إنهم ينتظرونه على العشاء. كان ينظر إلى اللوحات التي رسمها في الفترة الأخيرة على عجل. بعد استيقاظه كل صباح، وبعد تناوله الطعام بنصف ساعة كان يلقي نظرة إلى ما رسمه في الأيام الأخيرة معتقداً بأن أحكامه التي يطلقها في أثناء إعادة النظر هذه تكون سليمة أكثر من تلك الأحكام التي يطلقها خلال ساعات النهار. نظر إلى اللوحات المصفوفة على طول الجدار مرة أخرى: "نعم، في هذه عناية واضحة... أمور غير ضرورية. هذه جيدة. لا أدري لماذا رسمت هذه، إنها تضييع للوقت. ولوحة متناولي الطعام هذه تشير إلى الطريق الذي يجب أن أتقدم فيه. من الواضح أنني رسمتها لكي يُعجب بي الآخرون. وهذه رسمتها بقلق أن أكون رساماً محلياً، أتناول قضايا الوطن، ولكنني معجب بها. لأرسم هؤلاء المسنين مرة أخرى. لأزل ذلك القط من هناك، وأضع مكانه مزهرية. يجب ألا تتداخل ملاهيٌّ الصغيرة بالرسم! وفي هذه تأثر واضح بغويا! أحب لوحة الجالسين هذه! وأحب سلسلة مباريات كرة القدم أيضاً!" أعاد النظر باللوحات من جديد، ولكنه هذه المرة لم يقيم اللوحات واحدة واحدة، بل كان يقيّم إمكانيته بالرسم عموماً. تناول اللوحة التي تفحص جفافها فور استيقاظه، وبدأ يعمل عليها. نظر إلى ساعته: الثانية. وفرح لأنه بدأ يعمل دون شعوره بالحاجة إلى تقليب النظر في كتاب صور لوحات غويا.

3
الأخت الكبرى

نظر أحمد إلى ساعته حين قُرع الجرس: كانت تقترب من الثالثة والنصف. فكر فجأة: "إلكنورا"، ولكن حتى وصل إلى الباب أدرك أنها ليست هي. لأن الجرس قرع عدة مرات كأن هنالك ممازحة بترديد أغنية. عندما فتح الباب اندفع جسم ضخم كالمدفع نحو الظلمة الخفيفة. بعد ذلك، لامس خده بشرة امرأة ناعمة تفوح منهما رائحة عطرة. فكر أحمد: أختي الكبرى!" ومد لها خده الثاني.

قالت ملك: "ما أخبارك؟ كيف حالك لنرى؟ أنت لا تبدو مرحاً!" ودخلت إلى الغرفة كالعاصفة، ورسمت دائرة، بعد أن ألقت نظرة.

"لا يا روحي، أنا جيد..."

"هكذا إذاً؟ آ، ما أجمل هذا القميص الذي تلبسه! من أين اشتريته؟"

"إنه قديم ألبسه دائماً..."

"كيف تجد بوطي هذا؟"

"هل هو جديد؟"

"نعم! جلبه صهرك..."

"هل كان في الخارج؟"

قالت ملك: "يا لسرعة نسيانك يا عزيزي أحمد!" وأدارت ظهرها له، كانت تنظر إلى اللوحات. "كان سيجلب لك ألواناً، ولم ترغب ياه..."

قال أحمد: "حقاً، يا لسرعة ذهابه، وعودته!"

"وأنت قطّع وقتك هنا... آ، ما أجمل هذه!"

نظر أحمد بفضول: كانت تلك لوحة لم تعجب أحمد أبداً، وسيكشطها، ليرسم فوقها. وفكر: "ما الذي أعجبها فيها؟" ولكنه لم يتوقف عند هذا، لأنه اعتاد التفكير على هذا النحو.

"ما أجمل الألوان التي وجدتها! ارسم من تلك اللوحات العجيبة أيضاً... ما اسمها بالتركية؟ اللاشكلانية: ليست كالرسم..."

قال أحمد: "تجريدية!"

"هاه، تجريدية! أنا لم أستطع تعلم الكلمات الجديدة، لا تؤاخذني! هوستس: امرأة الاستضافة الجوية." ضحكت. "تجريدية! حقاً، ارسم رسماً تجريدياً قليلاً! يقول صهرك: في أوربا يرسم الجميع رسوماً تجريدة... ماذا تفعل غير هذا؟.. هذا ما ترسمه الآن؟.."

"نعم!"

وباعتياد ملك على ملامسة الأشياء كلها دون تردد، رفعت اللوحة عن الطاولة، وقربتها من وجهها، ثم شمتها كما تفعل دائماً، ووزنتها بيدها كأنها تريد تقدير وزنها، وأدارتها نحو اليمين واليسار، ونحو الضوء.

كان أحمد يفكر بأن أخته تفهم بغريزتها أكثر من الجميع بأن اللوحة مادة. وكان ينظر إلى جسم أخته الضخم إلى حد أنه يثير الفزع.

قالت ملك: "نعم! لم أفهم هذا بالضبط. ليس تجريداً، ولكنني لم أفهمه أيضاً. أي ماذا تقصد بها؟"

"لم تنته بعد!"

"كيف ستكون عندما تنتهي، لا أدري!"

ضحكت ملك كطفلة مدللة تحل لغزاً مع أبيها، وقالت: "الرحمة!" ثم أشارت إلى لوحة أخرى منفعلة: "حسنٌ! هذه منتهية. ماذا تقصد بهذه، قل لي! رجل أنيق بربطة عنق يجلس مع امرأة لها نظارة... ماذا تعني هذه؟ ماذا تقصد بها؟"

"أقول ما تقوله اللوحة!"

قالت ملك: "أنت تهرب هكذا دائماً!" ثم تلفتت فيما حولها كأنها تفكر بأنها انطلقت، وهي على وشك إعطائها حكمها الأول، ونظرت بفضول، وقطبت حاجبيها، وقالت: "يبدو أن وضع جدتي سيئ..."

"نعم."

"أنا قلقة في الحقيقة!"

"ماذا؟"

"كيف لي أن أعرف! حزنت. والله أنا طوال الليلة الماضية..." كانت تجلس على كرسي صغير دوار، وفجأة انتفضت متوجسة.

قال أحمد: "اجلسي، اجلسي! هذا جاف، لا يُبقّع!"

"خفت! المكان هنا فوضوي جداً!"

قال أحمد: "انظري، لقد انزعجت من هذا! أنا أرتب المكان هنا كل يومين!"

"هكذا إذاً؟ من يكنس الأرض؟ أمينة خانم؟"

قال أحمد متضايقاً: "تأتي فاطمة مرة كل خمسة عشر يوماً!"

"من هذه؟ هل هي خادمة أسرة جميل؟ أتعرف، لقد هربت خادمتنا. لم أفهم لماذا هربت؟ قبل ثلاثة أيام..." صمتت فجأة، ونظرت إلى وجه أحمد بضيق: "أنا حزينة جداً من أجل جدتي!"

"نعم!"

"هل أضايقك؟ لأدخن سيجارة، وأذهب! لن أشعلها إذا كانت تضايقك. أنا أعتبرك مثالاً أمام صهرك. أقول إن الشاب قال قبل أربع سنوات لن

أدخن، وتركها فوراً!" أشعلت الثقاب الذي أخرجته من حقيبتها. "ماذا يقول هو، أتعرف؟ يقول إنه فنان! مع أن الفنانين يتعاطون السجائر والكحول كثيراً، أليس كذلك؟ حقاً، أطلق لحية أنت أيضاً!"

قال أحمد: "ستحترق يدك!"

"عفواً! التكلم كثيراً؟"

أشعلت ملك سيجارتها. وجلس أحمد على كرسي: "نعم، أحزن على جدتي!"

"هل رأيتها؟"

"طبعاً... تركت معطفي، وصرري هناك..."

"هل تكلمتما؟"

"إنها تتحدث معي دائماً ياه! تكلمنا! عرفتني فوراً، وفرحت. ثم سألتني كم عمرك. عندما قلت ثلاثاً وثلاثين، قالت مرة أخرى إن جودت بيك ذهب، وجئت بعد أسبوع لتسليني، مكانتك عندي مختلفة. سألت عن صهرك. ثم تكلمت أنا. يبدو عقلها جيداً، إنها كالجان."

"لا يا هذه؟ أنا عندما رأيتها..."

"الممرضة أيضاً دهشت. إيه، إنها تفرح عندما تراني. لقد طلبت مني الممرضة أن أذهب لكي لا تتعب كثيراً... أنا حزينة..."

"نعم!"

وساد صمت. فكر أحمد: "ستمل بعد قليل، وتذهب!" ولكن ملكاً لا تتضايق بسهولة. نهضت مرة أخرى. وبدأت تنظر إلى اللوحات. كان أحمد ينظر إلى جسم أخته الكبرى الضخم، ووركها العريض، وساقيها الطويلتين. كلما نظر إلى هذا الجسم الضخم من الخلف، يفكر بصهره، ويتوق لمعرفة ما يتحدثان به على العشاء. كان صهره محامياً شهيراً.

التفتت ملك مبتسمة: "ماذا تفعل غير هذا؟ من ترى؟ إلى أين تذهب؟"

فكر أحمد: "إنها تفكر بشيء!"

"هاه، رآك صهرك مع تلك الفتاة عند زاوية المخفر!"

"هكذا إذاً؟"

"أعجبته كثيراً. مررتما بجانبه. نظر إليكما. قل لي من تلك الفتاة؟ ماذا تعمل؟ أرجوك يا أحمد، ألن نستطيع أن نتكلم معك؟ يقول صهرك، من الواضح أنها راجحة العقل. من هذه حقاً؟" وعندما أدركت أن أحمد لن يجيب، أضافت: "تزوج، تزوج!"

"من أين خرجت لنا بهذا الآن؟"

وجلست ملك: "يقول صهرك إذا تزوج هذا الولد، فإنه سيُنجز شيئاً كثيراً. واضح أن تلك الفتاة راجحة العقل، وستنظم حياته!"

قال أحمد ناخراً: "جيد، جيد!"

"انظر، أنت تعرف بأن صهرك يحبك كثيراً! قال: كنت في صباي مثله لا يعجبني شيء، ولكنني عندما عرفتك وضعت عقلي برأسي."

قال أحمد: "أنا في الثلاثين من عمري!"

قفزت ملك قائلة: "هو ذا، هو ذا تمام! كان صهرك عندما عرفني في الثامنة والعشرين. قال صهرك إنه كان مثلك، ولكن هذا لم يمنعه من أن يكون محامياً ناجحاً. من هي تلك الفتاة حقاً؟"

قال أحمد: "أغلقي هذا الموضوع العبثي!"

"حسن. بماذا سأتحدث معك؟ أنا ذاهبة أساساً!"

قال أحمد معتقداً أن أخته الكبرى قد انزعجت: "اجلسي، اجلسي قليلاً!" ثم قال مسيطراً عليه شعور الخشية من إضاعة الوقت: "لم تنه سيجارتك بعد!"

"تريدني أن أذهب عندما تنتهي سيجارتي، أليس كذلك؟ إنه خوفك من إضاعة الوقت، ولكن لا تغضب، فالغضب لا يعد أمراً ذكياً. ارتح قليلاً، وتجول، واخرج في نزهة... ألا يوجد لك أصدقاء فنانين؟ وهل جميعهم هكذا؟ ليسوا هكذا... لابد من الراحة. صهرك يعرف قيمة النزهة. يقول

إن العمل الذي أنجزه في أحد عشر شهراً لا أستطيع أن أنجزه في اثني عشر شهراً. هل تفهم هذا؟ لو تعرف كيف يلهو الناس، ويرتاحون! آ، انظر لقبل فترة كنا في مطعم مع أحد زملائك من غلاطة سراي. تونجار..."

"ماذا كان يفعل ذلك الفظ؟"

"لماذا؟ إنه شاب جيد. محام! لديه زوجة حلوة جداً. يقول صهرك إن مستقبله جيد!"

"ما لي أنا يا هذه!"

"ها نحن نتحدث يا روحي!" وبدت ملك كأنها تكدرت. "ماذا حصل لك يا عزيزي أحمد؟ أنت متوتر جداً. لم أرك جيداً. ارتح قليلاً. تعال إلينا ذات يوم، وتناول طعاماً! صهرك يرغب جداً برؤيتك! أو نذهب معاً إلى مطعم. هذا إذا لم تعتبرنا وسطاء طبعاً!.."

قال أحمد: "أنا لا أفكر بهذه الكلمات التي على الموضة!"

قالت ملك بصوت موسيقي، محمل بسخرية خفيفة: "أحسنت، أحسنت، أحسنت!" وضحكت. "أيّ أخ ذكي لدي، ما شاء الله. أنا فخورة بك! إنك أذكى من الجميع!"

انزعج أحمد، وفكر: "لو أنها تذهب، وأعمل بعد هذا!"

"حسنٌ، عدني أن نذهب يوماً إلى مطعم. إلى أين تريد أن نذهب؟"

قال أحمد: "إلى عبد الله!" رافقته أخته وصهره إلى ذلك المطعم قبل سنتين، ورأى جلال باير على مبعدة طاولتين، ولم يستطع تناول طعامه لكثرة النظر إليه.

قالت ملك: "إنك تحب مطعم عبد الله ها!"

قال أحمد: "سيكون ممتعاً وجود رئيس جمهورية سابق على بعد طاولتين، يأكل وهو يطقطق بطقم أسنانه! ولكن كيف كان يأكل؟ لا يعيش الإنسان مائة سنة بذلك الطعام، بل مائتي سنة!"

ابتسمت ملك بداية، ولكنها اتخذت ذلك الموقف الحزين بعد ذلك: "كم انت مشاكس! لماذا صرت مشاكساً هكذا؟ هل كنت هكذا قديماً؟ كم كنت مرحاً، ومحبباً في صغرك! كان الجميع يحبونك. كم كنت ألهو معك."

قال أحمد: "هل ترين أمي؟"

"ذهبت إليها بعد الظهر قبل ثلاثة أيام... لا أريد أن أذهب مساء، وأرى ذلك الرجل!"

قال أحمد ضاحكاً: "لماذا؟ هو أيضاً محام! ومشهور جداً على الأغلب. المحامي جناب صورار! عندما أذكر اسمه أشعر بأنني أقرأ جريدة، أو على الأصح، أقلب صفحات القانون المدني."

"قلت لك، أليس كذلك؟ إنه ينكش أنفه! لماذا تركت أمي أبي، وتزوجت من هذا الرجل برأيك؟"

قال أحمد: "أمي على حق، أمي على حق..."

قالت ملك: "نعم، أنت إلى جانب بريهان، وأنا إلى جانب رفيق في هذا الموضوع!" كانت أحياناً تذكر اباها وأمها باسميهما، وتشعر بمتعة غريبة من ذلك على الأغلب.

"ماذا تفعل أمي، ماذا تقول؟"

"مصابة بالروماتيزم! تشكو من الروماتيزم."

"كيف تمضي أيامها؟"

قالت ملك: "كيف تمضي؟" فكرت، وابتسمت: "لديها عدة صديقات، يذهبن إلى السينما. كيف يمضي اليوم؟" تمطت فجأة، وقالت: "انتهت سيجارتي أيضاً. هيا، لأنهض." ونهضت. "لدينا ضيوف على العشاء. إذا ساءت حال جدتي، الله يحمينا، اتصلوا بي..." وسارت نحو الباب.

فجأة خطر ببال أحمد شيء، قال: "هل تذكرين العم ضياء؟ العم ضياء ابن عم أبي؟"

"رأيته مرة على الأغلب!"

"جاء البارحة، وتحدثنا!"

قالت ملك: "كيف صعد الدرج؟"

قال أحمد: "لا يا روحي، إنه كالفجل!" كان يريد أن يشرح بعض الأمور، ولكنه خشي أن يبدو ماكراً: "قال أموراً غريبة جداً. كان أبوه نصرت، أي عم أبي ثورياً على الأغلب!"

"هل كانت هنالك أمور كهذه في ذلك الوقت؟"

فكر أحمد: "لا، لا! لن تستطيع فهم ذلك! لن تفهم. سأحكي هذا لإلكنور!"

قالت ملك: "آ، إنك دهنت الغرفة! فكرة جيدة، صار المكان جميلاً!"

قال أحمد: "كان السقف يدلف."

"السقف يدلف ها! كما يحدث في مراسم الفنانين بالضبط!" وضحكت ملك محاولة أن تبدو لطيفة. ثم جالت بعينيها على عجل في الغرفة لإصدار حكمها. التفتت إلى أحمد، وقالت: "انظر، انتبه لنفسك، ممكن؟" وقد انفعلت على الأغلب. "ارتح قليلاً، اخرج، تنزه، ستعمل حينئذ بعطاء أكبر... يقول صهرك، ما أعمله في الأحد عشر شهراً..."

لم يستطع أحمد ضبط نفسه، فقال: "سيقوم العسكر بانقلاب!" وأضاف منفعلاً: "إنه انقلاب يساري!"

"سينفذون انقلاباً؟"

"أخبرني السيد ضياء!" وكان أحمد ينظر إلى وجه ملك بانتباه.

"متى؟"

"قريباً!"

قالت ملك: "سيمنع التجول حينئذ، أليس كذلك؟ الرحمة، لئلا ينفذونه هذا المساء، لينفذوه متى شاءوا. غداً سأذهب مع صهرك إلى السينما، قطعت التذاكر" ضحكت، ثم نظرت إلى وجه أحمد الجدي بتفهم،

وقالت: "ليذهب ديمريل هذا، أليس كذلك؟" وفكرت قليلاً: "إنه سمين جداً!" وضحكت مرة أخرى. وقالت بنظرة مفكرة، ومسؤولة هذه المرة: "صار كل شيء سيئ! ووضع البلد كارثي! بينما كنت ذاهبة إلى أمي قبل فترة، أسمعوني كلاماً وسط نيشان طاش! العدل! في وسط نيشان طاشِ!"

قال أحمد: "ماذا قالوا؟"

فتحت ملك الباب: "قالوا يا صغيرتي، وما صغيرتي. ولا ألبس تنورة قصيرة جداً، ولكن... وطلب مني صهرك أن أنتبه لنفسي."

قال أحمد بمتعة: "اخبري صهري بأن انقلاباً يسارياً سيحدث! لنر ماذا سيقول؟" كان فضولياً لرؤية كيف سيغدو وجه صهره عندما يتلقى هذا الخبر. حاول أن يتصور وجهه مستمتعاً. "قولي له إنني تلقيت الخبر من مصدر موثوق!"

قالت ملك: سيفرح صهرك كثيراً لأنك تهتم بنا!" وقبلت أحمد من خديه، وغابت فجأة.

خجل أحمد من عصاميته، وتمتم: "صهرنا محام، بورجوازي صغير! لن يكون الانقلاب ضده!" ولكنه انفعل أيضاً ليس لأن هذا الحكم مقتبس من كتاب، بل لأنه وجد أن وجه صهره أكثر واقعية. ثم توتر من انفعاله، وفكر: "لا تهتم!" وخرج إلى الشرفة. نظر إلى نيشان طاشِ. الزحام نفسه في الساحة، والحركة ذاتها انحصرت بين الأبنية. وقفت حمامتان على الطرف الآخر من الشرفة تنظران إليه بتوجس. تمتم: "كم الساعة؟ متى تأتي إلكنور؟ الرابعة! الزمن يمضي!" دخل إلى الداخل راكضاً. كانت الغرفة تفوح برائحة أخته الكبرى. وبدأ يعمل.

4
صديق

قـرع الجـرس مـرة واحـدة. نظـر أحمـد إلى سـاعته. تمـتم: "السادسـة! الكنور! صارت السادسة!" وهرع. فتح الباب وهو يقول: "أين أنت يا حشرة، أين أنت!" وتجمد. كان حسن مقابله.

قال حسن: "من هذه الحشرة يا هذا؟ مرحباً!" وعانق أحمد، وقبله من خديه.

"كنت ماراً، فقلت لنفسي لأعرج عليه!" وتوقف فجاة، وقال: "ثمة أمور أخرى في عقلي أيضاً!" وابتسم.

فكر أحمد: "إنه شاب شريف! مهما يكن فهو ثوري."

"اجلس، اجلس!"

"إذا كنت تنتظر أحداً، أو لديك عمل فلن أجلس!"

قال أحمد: "لا، لا! اجلس! لنتحدث قليلاً. كنت غائباً عن الوسط!"

"كنت سأقول الأمر نفسه بالضبط!"

"هل تشرب شاياً؟"

قال حسن: "حضره لنرى!" ثم نزل بقبضته على ظهر أحمد بقوة. "هل أنت بخير ولاه؟"

ترنح أحمد، ولكنه حاول ألا يظهر هذا. شعر أن ظهره قد تخدر وهو يشعل موقد الغاز.

نادى حسن من الداخل: "أمازلت ترسم؟ الرسم دائماً؟"

"ياه!"

"واخ، واخ، واخ! حضر الشاي بسرعة!"

أشعل أحمد الموقد، ووضع الماء، ودخل. كان حسن قد جلس على الكرسي الدوار الصغير في وسط الغرفة، ومد قدميه اللذين يرتديا البوط، يدخن سيجارة، وينظر إلى اللوحات. فجأة خطر ببال أحمد أن يؤلمه بشدة.

"يا ابني، اقتربت من الثلاثين من عمرك، ومازلت ترتدي الفلد والبوط، وتفتل شاربيك كالثوريين الذين هم في الثامنة عشرة من أعمارهم. هل تليق هذه الأمور بخريج غلاطة سراي؟"

قال حسن: "أنا خريج غلاطة سراي، ولكنني ابن الشعب! مثلك..." وصمت فترة، ثم قال: "كلما جئت إلى نيشان طاش يشحذ حقدي! عندما أرى هذه الدكاكين، والبوتيكات، والنساء يُشحذ حقدي على البورجوازية!"

قال أحمد: "إذا تعال كثيراً، فسيكون هذا مفيداً!"

"أنا لا حاجة لي بهذا! أنت بحاجته، ولكن قلبك مصاب بالتقرن!"

تضاحكا. وفكر أحمد: "حسنٌ، نحن كما نحن دائماً! لا يجدني حيوياً كفاية، ولكنه يحبني! هكذا كنا قديماً أيضاً... قديماً!" وبدا كأنه سيحزن. إنه يعرف حسن من غلاطة سراي، ولكن صداقتهما تقدمت فيما بعد، بعد عودة أحمد من فرنسا. كان حسن أصغر من أحمد بثلاث سنوات. ولحظة تفكير أحمد: "أي سنوات كانت تلك السنوات!" غضب من نفسه. ونظر إلى حسن محاولاً إشباع نظره، وفكر: "إنه لا يخدعني بالفلد، والبوط، فقد تقدم بالسن أيضاً!"

قال أحمد: "إيه، ماذا تفعل أنت الآن؟"

"أجلس في البيت مع رجلنا المسن. تعرف أن أمي ماتت قبل ستة أشهر."

"أعرف! تعمل في الترجمة؟"

"نعم، نتدبر أمورنا."

"هل ستتهي من الكلية؟"

"لا أستطيع الذهاب! لا أدري إن كنت ستنتهي منها أم لا!"

"ألا يطردونك؟"

"لدي مدة مفتوحة. ها، طبعاً! أنت لا تعرف تقاليدنا هنا لأنك درست الجامعة في باريس!"

تظاهر أحمد بالانزعاج، ولكنه لم ينزعج. وإذا انزعج، فلأنه درس الرسم، وليس لأنه درس الرسم في باريس. سحب كرسياً، وجلس مقابل حسن، وبدأ ينظر إلى وجهه. يبدو أن حسناً قد شعر بأحمد ينظر إليه، ولكن عينه لم تبتعد عن اللوحات. كان ينظر إليها بانتباه، كأنه يقرأ شيئاً بجد. ثم التفت، وابتسم لأحمد.

قال أحمد: "كيف وجدتها؟"

قال حسن: "والله أنا لا أفهم بالرسم!"

"أنت حذر جداً!"

قال حسن: "أنا لا أستطيع أن أكون حذراً بقدرك يا اشتراكي مستقل!" ونهض واقفاً: "أمازلت اشتراكياً مستقلاً؟" كان حسن عضواً في حزب العمال. ويفاخر بأنه عضو في حزب العمال، وبأن أباه كان معلماً.

قال أحمد: "يوجد الآن كثير من الاشتراكيين غير المنتسبين إلى حزب العمال. غير هذا، فإن الصخب، والضجيج كله يصدر من أولئك!"

قال حسن: "الصخب، والضجيج فقط، ولكن ليس ما هو ضروري!" ثم أضاف بانتباه: "لأقل لك هذا: لا تعتبرني حزبياً بكل معنى الكلمة. هنالك عدد كبير من الأصدقاء مثلي يبحثون عن طريق وسط بين رؤية الحزب، والثورة الديمقراطية القومية. ومع هؤلاء الأصدقاء..."

قال أحمد: "كان لك رأيك دائماً! وحين تحاصر تبدأ بالدفاع عن نفسك لا عن الحزب!"

"صرت حاداً لكثرة جلوسك في البيت يا هذا!"

قال أحمد: "أنت تعتقد أنك ستجلب الاشتراكية إلى تركيا بالانتخابات! وقد رأينا ما حل بكم في الانتخابات!"

قال حسن: "أما تحدثنا بهذا من قبل يا هذا؟ تكفي مرة واحدة..."

"أنت تسخر مني بعبارة الاشتراكية المستقلة. دعني أيضاً أستمتع بطعم الاستقلالية..."

قال حسن: "يا أخي، أنت تستمتع بطعمها منذ ولادتك. ومازلت تجد لهذا طعماً. من أجل تذوق الشيء يجب إنجازه بين حين وحين، أليس كذلك؟" لم يقل هذا ليجرح أحمد، ولكنه قاله بمودة.

انفعل أحمد، ولكنه قال: "إيه، ماذا سيحدث إذا لم أفعل شيئاً؟ لا يعجبني أي طرف! هل يوجد أكثر من هذا؟ لا تعجبني!"

"إذا كانت لا تعجبك، فهات نقدك، ولنناقشه!"

فكر أحمد: "هذا صحيح!" بحث عن إجابة، فخطر بباله أمور عجيبة، ثم نخر فجأة: "ها نحن نرسم!" وأشار بيده إلى اللوحات. ثم ضحك شاعراً بالذنب. وهرع إلى الداخل لتخمير الشاي. وفكر: "لابد أن حالي يائسة، ولكن حسناً شاب جيد! لا يفكر بسوء نحوي!" وخرج من المطبخ.

جلس حسن، وهو ينظر إلى اللوحات من جديد.

"إيه، ما رأيك؟"

"بماذا؟"

"باللوحات يا روحي! تنظر، وتنظر، ولا تقول شيئاً!"

قال حسن: "والله إنك تفعل شيئاً ما، لابد أن لديك ما تعرفه، ولكنني لا أفهم!"

غضب أحمد بداية، ولكنه لان بعد ذلك. وفكر: "حسن شاب جيد! لو كان متين أو ساجد لوقع باليأس، وعدم الثقة بالجماهير، والاستسلام!"

"احك شيئاً يا روحي. ماذا يخطر ببالك؟"

قال حسن: "من أين لي أن أعرف؟ لابد أن لديك ما تعرفه! أنا لا أفهم هذه الخصوصيات." عندما رأى وجه أحمد شعر بضرورة قول شيء، فقال: "والله لا أدري إن كنت ترسم هذه اللوحات بجد، أم إنك تسخر، لا أفهم؟"

انفعل أحمد: "تقول هذا بجد؟"

بدا حسن كأنه قد ارتبك: "كيف يعني بجد؟"

قال أحمد: "أي أنه لا يعرف ما إن كانت جدية أم ساخرة!" وكاد يصرخ من انفعاله: "عشت يا هذا! غويا أيضاً كان يقول هذا، هل كنت تعرف هذا؟ هل كان يسخر من الارستقراطيين أم كان معجباً بهم، ويتوق إليهم!"

"لابد أنك لست معجباً بهؤلاء الناس!" وأشار حسن بيده إلى اللوحات.

قال أحمد: "لست كذلك بالطبع! ولكنني أحاول فهمهم قليلاً، أو إدراكهم، وتركيا..."

قال حسن: "لقد انفعلت كثيراً!"

انزعج أحمد، وهرع لجلب صور أعمال غويا. وبدأ يقلب صفحات الكتاب السميك، ويريها لحسن، ويقول بين الحين والحين: "انظر إلى هذه، انظر! انا افهم غويا حديثاً..."

قال حسن: "هل تقلد هذه الآن؟" ثم أضاف فوراً: "ما ترسمه لا يشبه هذه أبداً. آ، أليست هذه مايا العارية؟ حسنٌ، نحن نعرف هذه. عرض فيلم عنها، هل رأيته؟ هل يسخر الرسام من العري؟"

يقف أحمد بجانب حسن، يقلب صفحات الكتاب في حضنه بسرعة. وفي النهاية وجد ما يبحث عنه: الحكم بالإعدام: "حسنٌ، ما رأيك بهذه؟.."

"واخ من روحه!.. جميلة جداً!.. أنا أعرف هذه اللوحة من قبل."

قال أحمد: "ياه! أرأيت؟" ثم ارتعد. لم يعد يفرق بين مديح نفسه، ومديح غويا. وحين بدا أنه هدأ قليلاً، فكر: "لماذا أريه هذه؟ ليفهمني... هل يجب أن يفهم غويا من أجل أن يفهمني؟" وغضب، وخطر بباله أن يقول أشياء سيئة لحسن.

قال: "هيا أغلق هذا! أنت لا تفهمها، ولا تحبها!"

قال حسن: "نعم، إنها أشياء ممتعة حقاً." ثم أضاف دون أن يفكر: "نحن أهملنا الفن في الفترة الأخيرة..." كانت لديه عبارات كثيرة الاستخدام، ومحفوظة كهذه. كان أحمد قد ابتعد، أما هو فمازال يقلب الصفحات. "انظر، انظر! إنه رسم قطاً مثلك! طفل، وطائر، وقطط..." واتخذ موقفاً طفولياً. "وهذه أيضاً، نعم إنها مضحكة. ملوك، نساء راقيات... هاه ها. أحببت غويا. أحسن الرجل!" أغلق الكتاب فجأة، ووقف، وتمطى، وابتسم بشكل خفيف. كانت ابتسامته تقول: "عشت يا، جعلتني أعيش عدة دقائق مرحة!"

قال أحمد: "لأجلب الشاي" كان ينظر إلى وجه حسن بانتباه. وتجول في خاطره أفكار غائمة حول الثورة، والفن، والثوريين.

نظر حسن إلى لوحات أحمد لحظة. ثم انكمشت عضلات وجهه خلال الانتقال من الحلم إلى الحقيقة: "انظر، انت أيضاً رسمت قططاً... رسمت هؤلاء البورجوازيين أو لا أدري من هم، الآن أشعر بشيء ما عندما أنظر إليها!" وبدا كأنه خجل: "إنني أشعر ببعض الأمور حقيقة، ولكن... ولكنك يا صديقي كما تعرف، لا يمكن أن تشعل الثورة بهذه!" وانكمش كأنه هو المذنب في هذا الأمر.

تمتم أحمد: "من هذه الناحية، صحيح... ولكن هذا لا يعني أن هذه اللوحات ليست شيئاً أبداً!"

قال حسن مرتاحاً: "نعم، ليس كذلك طبعاً!" وتثاءب.

فكر أحمد: "كيف ابتلعت هذه العبارة؟" وصرخ متوتراً: "وفوق هذا فحين أقول إن هذه ليس لها تأثير على الثورة، فهذا موضوع قابل للنقاش!"

تثاءب حسن مرة أخرى، وقال: "نعم، ولكن علينا الا نناقش هذا الآن!" وأشعل سيجارة. "كنت أتحدث مع الأصدقاء قبل فترة، فخطرت على بالي!"

قال أحمد: "انتظر، لأجلب الشاي!" ودخل. وفكر: "سيشرح الآن سبب مجيئه!" ملأ الكؤوس بالشاي، ودخل الغرفة.

كان حسن يمشي في الغرفة: "نعم، خطرت ببالي..."

"لماذا؟ كم واحدة سكر؟"

"أنا آخذ... نحن نصدر مجلة..."

قال أحمد: "أوه!" ورغم معرفته تماماً أنها ليست فنية، سأله: "هل هي مجلة فنية؟"

قال حسن بجد: "لا، مجلة سياسية!"

"كان يمكنكم القول إنها مجلة سياسية وفنية. صاروا يفعلون هذا الآن يا."

"اسمع يا عزيزي أحمد، أنا جاد. كنت أتحدث قبل قليل، ولم تدعني ألفظ الكلمات من فمي. كما تعرف، هناك عدد من الأصدقاء يتأرجحون

بين حزب العمال التركي، والثورة الديمقراطية القومية، أو يجدون جوانب صحيحة في الاتجاهين. يمكنك أن تستمتع بطعم استقلاليتك بالسخرية منهم قائلاً: (المترددون)، ولكنهم ليسوا على هذا النحو. ورغم أنني من حزب العمال التركي فأنا واحد منهم. إنهم لا يؤمنون ببرلمانية حزب العمال التركي، ولا بضجيج وصخب الآخرين. ومن أجل جمع الطرفين يجب إخضاعهما لنقد دقيق، وطرح أفكارنا. ولابد من مجلة لاستجماع أنفسنا. ما أريده منك الآن هو: هل تساعدنا بتصميم الغلاف، والإخراج، وبقية الأمور الفنية؟ انتظر، اسمعني ثانية! الأمر الثاني هو المساعدة المادية، هل تستطيع أن تقدم لنا مساعدة مالية بشكل مباشر يا روحي؟"

قال أحمد دون تفكير: "طبعاً، طبعاً! سأفعل."

"انتظر يا هذا، فكر قليلاً! إنك تعطي قرارك بسرعة!"

قال أحمد: "هل تريد أنت مساعدتي، أم لا؟"

قال حسن: "لو كنت لا أريد، لما جئت إلى هنا!" ثم لخص بسرعة: "لولا أنني أريد ذلك لما فتحت هذا الموضوع! ولكنني أريدك أن تفكر، وتعطي قراراً سليماً!"

"حسنٌ، فكرت. ولكن لأخبرك بهذا: ليس لدي نقود كثيرة!.. حتى إنني لا أملك نقوداً أبداً." وأضاف بمتعة: "أبي أكل كل ما يوجد، وما لا يوجد. أنا على الحديدة!" انفعل مستمتعاً أكثر: "يعد نصف هذا الطابق لي، ولكن هذا الطابق المخالف يزول إذا لم يصدر عفو عمران. لدى أبوك طابق، أين كان؟ في يالوفا؟ ولديه أرض، حتى ولو كانت صغيرة، أليس كذلك؟" ونظر إلى وجه حسن، وهو يضحك. ثم قال فجأة: "سأفعل ما بوسعي! أنا أعطي دروساً!"

وبدا أن حسناً يريد أن يجد له سلواناً، فقال: "يا روحي النقود ليست مهمة! أنت تقرر بسرعة. أنا أريد أن أقول هذا: هل نحن على الخط الأيديولوجي ذاته؟"

"لماذا تكبر الخلافات التي بيننا؟"

"لا أكبرها! أريد لهذا أن يكون اجتماعاً سليماً. الاجتماع الخالي من المبدأ، والنقد محكوم بالانفراط فوراً!"

"أنت مثل الكتاب يا هذا!"

نهض حسن متوتراً. وسار نحو النافذة. ونظر إلى الخلف مديراً ظهره لأحمد. ولأن الجو قد أظلم، وانعكس ضوء الداخل على الزجاج فلابد أنه لم يكن يرى شيئاً، ولكنه رغم هذا كان ينظر.

قال أحمد: "هل انزعجت؟ لا تؤاخذني، فكري اليوم متخبط!"

التفت حسن: "يا أخي، لا يمكن الحديث معك عبارتين! تبدأ الوخز، والمزاح، والسخرية، والهجوم فوراً."

قال أحمد: "لا تؤاخذني!" ثم فكر فوراً: "سيحدث انقلاب، ويحل كل شيء... ليحدث ذلك الانقلاب إذا كان سيحدث!"

قال حسن: "أنا أفهمك أيضاً! أنت غاضب، ومتوتر..." وصمت فجأة.

قُرع جرس الباب.

فكر أحمد: "واخ، إلكنور!" لم يكن يرغب أن يراها حسن أبداً. وضع جسمه مقابل عتبة الباب، وفتحه.

صوت موسيقي قال: "جئت من جديد!" كانت أخته الكبرى.

قالت ملك: "جاءت عمتي عائشة. وكانت هنا مينة أيضاً. غصنا بالثرثرة في الأسفل. سأذهب إلى البيت، لدينا ضيوف. كنت سأقول لك شيئاً." يبدو أن وقوف أحمد بعتبة الباب، وإمساكه به أشعرها بأن أحداً ما في البيت. تمتمت مرة أخرى: "كنت سأقول لك شيئاً!" وبحركة مفاجئة دخلت بجسدها الضخم إلى الداخل. اندهشت حين خطت خطوتين، ورأت حسناً.

فكر أحمد: "اعتقدت أن إلكنور في الداخل!"

قالت ملك: "آه، مرحباً يا سيد حسن! كدت لا أعرفك!"

وقف حسن جاعلاً بوطه الضخم يئز: "مرحباً!"

تصافحا. كان الوضع يبدو لأحمد مضحكاً جداً. بدا كل منها قلقاً من الآخر، ولكن أحدهما كان يدقق النظر بالآخر بفضول. فكر أحمد: "لنر من سيكون أكثر تحملاً" ورأى حسناً يهرب بعينيه. كان أحمد حزيناً من أجله ومن أجل حسن، والتفتت أخته الكبرى إلى الباب.

قالت ملك: "كنت سأسألك متى نذهب إلى الطعام!"

فرح أحمد لأن أخته سألت هذا بصوت خفيض. ولكنه قال صارخاً: "نذهب يوماً ما إلى مطعم. يمكن أن نذهب مساء الأربعاء؟ أنا سآتي إليكم!"

قالت ملك مندهشة من الصوت المرتفع: "ممكن!" وكأنما خافت من شيء ما. واختفت دون أن تقبل أحمد.

أغلق أحمد الباب، والتفت إلى حسن.

قال حسن: "أليست هذه أختك الكبرى؟"

قال أحمد مقلداً: "نعم يا سيد حسن! كدتم لا تعرفونها على الأغلب؟"

"تغيرت يا هذا، صارت لا أدري..."

قال أحمد: "احك، احك!" ورأى أن حسناً غدا جدياً: "ولكنك لا تستطيع أن تتكلم. أنت خريج غلاطة سراي، ولكن تصنيف أختي بالنسبة لك قوي!"

ضحك حسن أيضاً، وقال: "دع عنك عبارة غلاطة سراي هذه!" ووقف. "لأذهب أنا أيضاً! لقد تفاهمنا، ولو بشكل غير تام، أليس كذلك؟ نحن مازلنا في بداية الأمر أساساً. ولكن إذا حدث تجمع حول هذه المجلة، وسيحدث بالتأكيد، فإن أموراً كثيرة ستتغير في تركيا."

هز أحمد رأسه، وفكر: "سيحدث انقلاب، انقلاب! هيا لأخبره بعد كل هذا!"

"أنت تفهم هذا على كل حال. هنالك جماهير واسعة تنتقد الفريقين، وتبحث عن حركة جديدة. يجب أن يكون هذا هو النهج الصحيح. مجلة جيدة تحيط بكل شيء. كما شرح لينين في موضوع: ما العمل؟..."

شعر أحمد بدافع ليقول: "ما العمل، ما العمل؟" ولكنه ضبط نفسه لكي لا يوتر حسناً.

"ولكننا بالطبع في البداية. إذا بدأنا هذا الأمر، فإننا سننهيه. وكما في: ما العمل؟ فإن نهاية هذا الأمر تشكيل حزب... ولكننا مازلنا في مرحلة التحضير.. قلت لأخبرك ونحن في بداية الطريق، وليس بعد أن ننجز كل شيء!"

قال أحمد: "من هنالك من معارفي يا هذا؟"

قال حسن بموقف المسؤول الراجح العقل: "لماذا يدفعك الفضول يا هذا؟" ثم أضاف بما يجب أن يكون: "لا تؤاخذنا! أنا في الداخل مباشرة من جهة، وعلى الأطرافه من جهة أخرى، ليس في قلب الحركة تماماً!"

انزعج أحمد، ولكنه حاول عدم إظهار ذلك: "هل متين موجود؟ المهم ليس بدافع الفضول، بل خطر ببالي ذلك. قبل فترة كتب مقالة. يقول فيها: هؤلاء السادة... هؤلاء السادة! دائماً تحت تأثير أوساط لينين. إذا رأيته، فقل له: السادة دائماً أكثر تأثيراً."

قال حسن بموقف المسؤول نفسه: "إذا رأيته..." ثم أضاف وهو ينظر إلى مكان آخر: "لا أدري إن كان هنالك ضرورة لتذكيرك بألا تفتح الموضوع لأحد؟"

غضب أحمد، وشعر بأنه سيقول كلاماً سيئاً، ولكن شعوراً بالذنب سيطر عليه، فقال: "أنا لا أرى أحداً أساساً!"

كان حسن يسير باتجاه الباب: "وهذا سيئ جداً في الحقيقة. اخرج قليلاً يا روحي. انظر إذا تمت قضية المجلة، فإنك ستدخل بين الناس، اعتد منذ الآن! ماذا يقول ناظم؟"

لم يجب أحمد. كان ينظر غاضباً لأن عبارة سيئة لم تخطر بباله.

"يقول ناظم: من تبحث عنهم ليسوا في غرفتك، بل في الخارج!"

قال أحمد: "المكان هنا ليس غرفة، بل مرسماً!" ولكنه لم يجد هذا كافياً. دس يديه بجيبه متوتراً، وقال: "الانقلاب قادم! تلقيت خبراً من مصدر موثوق جداً."

قال حسن: "ممن؟ من تشكيلات المخابرات القومية؟" وابتسم. "أمزح معك! ممن؟"

كان أحمد سيقول: "من ابن عم أبي"، ولأنه وجد هذا مضحكاً، قال: "من قريب بعيد! إنه عقيد متقاعد! رجل غريب." ثم انفعل كثيراً: "اخبر الشباب أيضاً!"

قال حسن: "نحن سنفتتح أسبوعاً لمناهضة الفاشية!" وضحك: "ولكنه انقلاب يساري، أليس كذلك؟"

"ياه... كما فعل توريز في بوليفيا! هل قرأت الجريدة اليوم؟"

هز حسن رأسه. وتبادلا النظر، وابتسم أحدهما للآخر. حزن أحمد شاعراً نحوه بحب طافح.

قال حسن: "انهض، لنذهب إلى السينما!"

قال أحمد: "دع عنك هذا! ليس لدي وقت!" وخطرت بباله إلكنور، ففكر: "لماذا تأخرت؟"

قال حسن: "ولكن البيت لك! سأقول لك شيئاً: أنت تباهي على الأغلب بعدم زواجك، وعدم عيشك حياة منتظمة، وعدم وجود عمل منتظم لديك، ولكن هذا لا علاقة له لا من بعيد، ولا من قريب بمصالح البروليتاريا!"

قال أحمد: "أعرف!" ثم صحح: "أليس له علاقة حقاً؟ وماذا عن الرسم؟"

"أنا لا أفهم بالرسم!"

"حسنٌ!"

فتح حسن الباب، وخرج قائلاً: "سأهرب بسرعة قبل أن أُلوث بقذر نيشان طاش هذه!"

قال أحمد: "ما رأيك في موضوع الانقلاب؟" ثم تمتم بصوت يدعو إلى الإقناع: "لن يحدث شيء، أليس كذلك؟ هذه تركيا. إذا فعلوا شيئاً، فإنهم يقرقعون بصخب على مدى أسبوع، ثم يميعون الأمور، ويعود كل شيء كما كان. أليس كذلك؟"

قال حسن: "لا أدري..." كان هو أيضاً طافحاً بالمشاعر على الأغلب... "هيا، عن إذنك!" وعانق أحمد، وقبله من خديه.

"تعال عندما لا تريد شيئاً أيضاً!"

قال حسن: "أنا طلبت منك هذا العمل من أجلك أيضاً!" طفح بالمشاعر مرة أخرى على الأغلب، ولأن هذا قريبه منه، فقد ضرب أحمد بنعومة أكثر هذه المرة، ونزل الدرج.

5
هاتف

ذرع أحمد الغرفة. نظر إلى اللوحات. وتمتم: "يقول إنه لا يمكن القيام بثورة بهذه!" وغضب من حسن: "كيف لم أرد عليه! بهذه." كان ينظر إلى لوحاته التي يظهر فيها تجار مسنون، وربات بيوت، وفتيات راقيات، وشبان، وسادة، وخدم، وسط الأشياء نفسها دائماً، والضوء الخافت المتفسخ ذاته، وسط حدائق باهتة، وعلى الأدراج، وفي الصالونات، يتحدثون فيما بينهم، كأنهم ينتظرون شيئاً ما، ولكن ما سيأتي لم يأتِ، وهم مترددون، شبه مرتبكين، شبه خمولين، نافدو الصبر قليلاً كأنهم يريدون أن يعودوا إلى أعمالهم، ويكررون الأمور نفسها دائماً. فكر أحمد: "ليس ثمة تأثير في أي منها! إذا كان كل ما أرسمه لا يوحي بشيء لحسن، فماذا أعمل كل هذا الوقت؟" نظر إلى سلسلة لوحات كرة القدم للبحث عن عزاء. كان قد رسم الواقفين بالدور للدخول إلى المباراة، وبائعي الكفتة، والمشجعين الناريين، والصارخين، واللاعبين جامدي الوجوه. ثم سيطر عليه يأس مفاجئ، وفكر: "ليس ثمة معنى لهذه أيضاً! ماذا تعني هذه الآن؟ بماذا تفيد؟ لأجل من أرسمها؟ كلها سيئة!" كلها غير ناضجة، سطحية، مزيفة، غير صادقة، تافهة! كل ما فعله الانطباعيون بعد غويا وبونارد فات أوانه،

ومكرر." شعر بالخوف. حاول استذكار الحكم الذي أصدره قبل أن يبدأ العمل كما يفعل في لحظات اليأس هذه: "نعم، أعجبتني حينئذ! لم أكن أعتبرها سيئة كلها، رأيت نواقصها، ونجاحاتها! والآن علي أن أراها بالشكل نفسه!" نظر إلى اللوحات مرة أخرى على أمل الوصول إلى الحكم الذي أصدره بعد الظهر بصدق، ولكنه وجدها كلها تافهة، وأعطى الحق لحسن بعدم اهتمامه. خاف من أن يندم على الوقت والحياة التي كرسها لهذه اللوحات. كان قليلاً ما يسيطر عليه هذا الندم، ولكنه شعر بالخجل، وقرر التفكير بأمور أخرى، وفجأة تمتم: "أين تأخرت إلكنور؟" نظر إلى ساعته: تجاوزت السابعة. وفكر: "لن تأتي!" ونزل إلى الأسفل غاضباً يريد أن يتصل بها قائلاً لنفسه: "ولكنني أريد أن أراها اليوم!"

فتح الباب بمفتاحه أيضاً، ودخل إلى البهو. كانت الممرضة وعثمان بجوار نيغان خانم. كان عثمان يقرأ جريدة، وتشرح الممرضة أموراً ما لنيغان خانم بصوت مرح، وأحياناً ترفع يدها التي تشد البطانية، وتضعها جانباً.

عندما رأى عثمان أحمدَ، قال: "الجريدة كتبت هذا أيضاً!"

"نعم يا سيدي؟"

"أقول الجيش. هذا يعني أن ضياء قرأ الخبر من هنا!"

قال أحمد: "ولكن ضياء قال هذا البارحة!" وسار نحو الزاوية التي وُضع فيها الهاتف.

تململ عثمان في الأريكة التي يجلس عليها، وقال ناخراً: "لن يحدث شيء يا روحي!"

سألت الممرضة: "ماذا يحدث؟ هل سيأتي العسكر إلى رأس السلطة؟"

جلس أحمد بجانب الهاتف. وشعر بالقلق فجأة مفكراً بأن عثمان والممرضة سيستمعان للمكالمة. نظر إلى السماعة شارداً. ما يزعجه حقيقة هم الذين في بيت إلكنور. ذهب إلى ذلك البيت مرة، ورأى أنه غير مرحب به هناك، وخفف اتصالاته بإلكنور بقدر ما يستطيع. إذا أراد أن يتصل، يخبر

مسبقاً إلكنور لتكون هي من يفتح الهاتف. وفيما كان ينظر شارداً إلى السماعة، فتح الباب فجأة، ودخل أحدهم. عرف أحمد وقع الأقدام التي دخلت إلى البهو من الباب الآخر: كانت نرمين. وفكر: "لم أعد أستطيع الاتصال أبداً!" كانت نرمين فضولية جداً لمعرفة تفاصيل حياة أحمد. وتمتم: "ماذا أفعل؟ لأصعد، وأعمل! لا ضرورة للغضب العبثي، ونوبات التخوف من عدم الفهم! ليس لدي الحق في هذا أيضاً!" ثم سمع صوت نرمين.

"الطعام ليس في بيتنا. سننزل إلى الأسفل عند جميل!"

قال عثمان: "هكذا إذاً؟"

"قلت لأنادر أحمد أيضاً! سينزعج الولد، ولا يأتي، ويبقى جائعاً! تفقدته، فلم أجده في الأعلى!" ويبدو أن عثمان أشار إليها بيده، فصرخت نرمين: "آ، هل هو هنا؟" والتفتت، وابتسمت لأحمد الواقف في الزاوية.

أراد أحمد أن يتخذ موقف اللامبالاة، ولكنه شعر بأن تظاهره بعدم السمع سيكون أسوأ، قال: "أنا آكل هنا أيضاً! يلماظ يعد لي شيئاً ما!"

"يلماظ في إجازة هذا المساء. ثم إنهم يريدون أن يروك أيضاً."

قالت أمينة خانم: "أنا أكسر لك بيضتين إن أردت!"

نظر أحمد إلى الخادمة الداخلة إلى الغرفة بحب: "أنا سأتناول الطعام هنا إذاً!"

قالت نرمين بموقف المنزعجة: "أرجوك بحرارة. سيكون الجميع في الأسفل! مينة أيضاً طلبت مجيئك. يقولون إنك لا تعرج عليهم! ماذا يحدث لك يا كبشي؟"

قال أحمد: "حسنٌ، حسنٌ! متى؟"

قالت نرمين: "انزل بعد نصف ساعة!" ونظرت إلى السماعة: "هل كنت ستتصل؟"

قال أحمد: "عدلت!" ووقف مقرراً الانتظار قليلاً أملاً بذهاب نرمين، وتثاءب.

كانت نرمين خارجة وهي تمر من أمام عثمان.

نادى عثمان: "لعل أمي تعرفك هذه المرة. اسأليها!" وأطلق قهقهة.

قالت نرمين: "كم بلغت من العمر، ولكنك مازالت طفلاً!" وخرجت.

جلس أحمد بجانب الهاتف، وبدأ يدور الرقم بسرعة. فكر: "إيه، ماذا أقول لها؟" وانتبه إلى أن قلبه بدأ يخفق بسرعة. فتحت الهاتف امرأة. يجب أن تكون أم إلكنور.

قال أحمد: "أريد أن أكلم إلكنور يا سيدتي!" وغضب من ظرافته. نظر إلى عثمان بطرف عينه: كان يقرأ الجريدة.

"من أنتم؟"

"صديق!"

خيم صمت قصير جداً. كانت المرأة ستقول شيئاً ما، ولكنها تراجعت على الأغلب. قالت: "انتظروا دقيقة!"

أسند أحمد السماعة إلى أذنه جيداً، وبدأ ينتظر. استمع إلى أصوات من في البيت بانتباه. سمع قهقهات مرحة، وصياحاً، وموسيقى تركية. إحداهن صرخت: "حباً لله يا نعمت خانم!" رأى أحمد صورة جودت بيك على الجدار. كأن جودت بيك يبتسم، ولكن يبدو عليه أنه يقدم النصح أيضاً. كأنه كان يقول: "نعم، يجب أن يكون المرء منتبهاً، ودقيقاً، وحازماً على هذا النحو!" أُطلقت قهقهة أخرى. ثم سمع وقع أقدام مقتربة. انتبه أحمد إلى أن دقات قلبه تسارعت.

"ألو؟"

"أنا! لماذا لم تأتِ؟"

"ها! هذا أنت؟ لم أستطع المجيء... لا تؤاخذني، لدينا ضيوف..."

"قلت إنك ستأتين!"

"لا، قلت قد آتي!"

"ما علاقتك أنت بأولئك الضيوف يا هذه؟"

"هنالك صديقة لم أرها منذ طفولتي!"

"من هي؟ حسنٌ، ألن أراك اليوم؟"

"يمكن أن نخرج مساء اليوم!"

قال أحمد بنبرة ساخرة: "صار المساء!" وأضاف بسرعة: "متى أعرج عليك لأصطحبك؟"

"كم الساعة؟ السابعة والنصف! حسنٌ، تعال إلى الأسفل في التاسعة!"

"في الثامنة؟"

قالت إلكنور: "في التاسعة! ماذا جرى لك اليوم؟"

"لا شيء! أنا متوتر. ماذا تفعلين اليوم؟"

"عندنا ضيوف! في التاسعة، اتفقنا؟ أو انتظر، لا تأت أنت، أنا سآتي!"

قال أحمد: "أيمكنك في ذلك الوقت يا روحي؟ وكل هذا الطريق." كانت إلكنور تسكن في التشويكية على بعد عشر دقائق. بحث أحمد عن ذريعة أخرى، وخطر بباله أمراً مضحكاً: "أممكن في ذلك الوقت، سيقع انقلاب!" وأطلق قهقهة. نظر إلى عثمان: كان يقرأ الجريدة.

"هل سيقع انقلاب؟ لا يا روحي!"

"إنها دعابة! سنتكلم، سنتكلم! سأنزل في التاسعة!" طفح أحمد بالمشاعر. وخطر بباله أن يقول أموراً ما، ولكنه لم يقل شيئاً عندما رأى عثمان يقرأ الجريدة. خطر له أمر في اللحظة الأخيرة: "ها! اجلبي معك الدفتر أيضاً!"

"أي دفتر؟"

"أما قرأته؟ كتابة أبي القديمة تلك..."

قالت إلكنور بصوت مرح: "قرأتها، قرأتها! ممتع جداً... أبوك إنسان غريب جداً!"

"حسنٌ إذاً. اجلبي الدفتر أيضاً."

أعادت إلكنور: "ممتع جداً!"

"أنت تستمتعين هناك جيداً أساساً!.."

"حسن، حسنٌ!"

أغلق أحمد الهاتف، وبدأ ينقر بأصابعه على الطاولة متوتراً فيما كان يتأمل صورة جودت بيك، ثم عثمان. فكر: "نعم، يجب أن أرسم صورة جودت بيك! كيف يمكن أن تُرسم؟ مع بضائعه التي في المستودعات، والعمال، وأثاث البيت، وعائلته..." وقف مبتسماً، وفكر: "نعم، الأثاث!" نظر إلى الأثاث الموجود في الغرفة. كان المكان مليئاً بالأشياء. روت نيغان خانم أنها أمرت بنقل أشياء البيت كلها إلى شقتها عندما انتقلت إلى البناء الذي أنشئ مكان بيتها. كان على الجدران رفوف قبعات، وسبحات، وتماثيل، وصور جودت بيك. ولم تبق سوى فسحة صغيرة للإنسان ليسير بين المفروشات الصدفية، والكراسي، والأرائك المذهبة، والطاولات الصغيرة والكبيرة. أما البيانو الذي لا يُستعمل أبداً فيقوم مقام طاولة يوضع فوقه تحف تزيينية. وفوقه أيضاً ما تعتبره نيغان خانم قيماً من خزف، ومزهريات خزفية، وفناجين شاي، وصحون. ولأن نيغان خانم لا تسمح لأحد بلمسها خشية كسرها، ولعدم استطاعتها لمسها، ومسح غبارها منذ أشهر، فقد تغطت بغبار سمكه نصف إصبع. وفكر أحمد فجأة: "ما قيمة هذه؟" وارتعد. "إذا سرقت عدة قطع منها، نستطيع إصدار المجلة لستة أشهر!" يبدو أن الأغلى ثمناً موجودة في البوفيه. "كيف يمكن أن تُسرق؟" وتذكر مجموعة مفاتيح جدته التي تخشخش بها منذ طفولته. اقترب من البوفيه. وتمتم: "المفاتيح!" وفكر بأنها المرة الأولى التي يقترب من زجاج البوفيه إلى هذا الحد. ولكنه لم يرَ في الأيام الأخيرة رزمة المفاتيح، ولم يسمع خشخشتها. وفكر فجأة: "سينتبهون! وسيلقون التهمة على الخادمة أو شخص آخر!" فتراجع.

قالت نيغان خانم: "ماذا يفعل هذا هناك أمام البوفية؟"

التفت أحمد، وقال: "لا شيء، أنا أنظر فقط!" ثم فكر: "لاشك أنه يبدو علي أنني مذنب!" ونظر إلى عثمان.

قالت نيفان خانم: "أبوك، كان أبوك إنسان عظيم!"

قال أحمد بتشكك: "من؟"

قالت نيفان خانم: "أبوك! أبوك جودت بيك! هو أسس كل شيء!" ورفت بعينيها.

كان عثمان يبتسم. وبدأت الممرضة تشرح لها بأن أحمد حفيد، وليس ابناً. وتمتمت نيفان خانم بأمور ما.

سار أحمد نحو الدهليز مقرراً أن ينظر إلى الكتب، وإلى الخزانة التي لم يستطع النظر إليها جيداً صباحاً. مر بجوار الساعة المتكتكة، ودخل الغرفة. وبدأ ينظر إلى الكتب مفكراً أن أباه قضى عشر سنوات من عمره، ومات هنا، ولكنه لم يجد شيئاً أيضاً. لم يكن ثمة شيء في درفة الخزانة أيضاً. أخذ كتاب أبيه الذي أصدرته وزارة الزراعة، ومجموعة محي الدين نيشانجي الشعرية، وخرج. وضع الكتابين في الأعلى لأنه لم يرغب بإنزالهما إلى الأسفل.

٨

6
طعـام

في الساعة الثامنة إلا ربعاً نزل أحمد ثلاث دورات الدرج. قرع جرس باب بيت جميل. لم تهرع الخادمة الصبية التي فتحت باب المطبخ نحو الباب الرئيس لفتحه كما تفعل عندما يأتي الآخرون، وأدخلته من باب المطبخ مبتسمة، ومرحة، كأنها رأت شيئاً ممتعاً. شرب أحمد كأس ماء كي يشم رائحة المطبخ، ويرى الانهماك، ويعرف ما يُعد، ويُهيئ نفسه للزحام في الداخل. وفيما كان يُغلق باب الثلاجة التي تذكر بدعايات الجرائد، فكر: "نعم، أنا رسام. سأرسم دائماً!" ودخل إلى البهو.

قابل عمته عائشة فور دخوله. وعندما رأته، أرجعت رأسها إلى الخلف كأنها ترى شيئاً نسيته، وقالت: "هه! كنت سأزورك في الأعلى! ابنة أحد أصدقائنا ستتزوج. كنا نقول لنشتر إحدى لوحاتك هدية لهم."

قال أحمد: "وهل هذا ممكن يا عمتي العزيزة؟ تعالوا لأهديكم واحدة!"

قالت العمة عائشة: "لا، بثمنها!" وعندما رأت وجه أحمد، قالت: "لن نأخذها إذاً!" ثم نادت زوجها الذي يتناول مشروباً: "يا رمزي، إنه يريد أن يهدينا إياها!"

كان هناك ثلاثة رجال في الزاوية يحتسون مشروباً، هم رمزي، وصاحب البيت جميل، ونجدت زوج لالة. وعندما رأوا أحمد نادوه. فذهب أحمد إليهم. كان ثمة دخان كثيف في الغرفة. وثمة كؤوس مشروب على

طاولة صغيرة، وطاسات فيها بندق وفستق. نظر الرجال الثلاثة إلى أحمد مفكرين. وأفسح نجدت مكاناً بجانبه له.

قال جميل: "هل تريد مشروباً؟ وسكي، جين تونيك؟"

قال جميل بنظرة توحي بضرورة الشرب قبل الطعام: "حسنٌ، نبيذ، عرق؟ عصير برتقال؟ حسنٌ، عصير برتقال." نادى نحو الداخل. ثم التفت إلى أحمد، وقال: "كيف حالك يا ابن العم، إنك لا تعرج علينا أبداً!" مذكراً بذريعة القرب بينهما.

تمتم أحمد ببعض الكلمات، ثم التفت، وبدأ يستمع إليه: نجدت يتحدث عن مجموعة ستيريو اشتراها حديثاً، وعن الأمكنة التي وضع فيها مكبرات صوته في البهو. ويسأل رمزي ما إن كانت تلك الأمكنة مناسبة أم لا، ولكن رمزي لم يستطع تحديد المكان المناسب لوضع هذا الشيء الجديد بأي شكل. وقرر رمزي زيارتهم خلال الأسبوع، وأغلقوا الموضوع. ثم سأل نجدت سؤالاً لجميل حول التأمين. وقال رمزي شيئاً حول هذا الموضوع. ادعى جميل أن محطات الوقود كلها تخلط البنزين بالماء. وسأل نجدت ما إن كان جميل مسروراً من مذياع الترانزيستور الجديد الذي اشتراه. وقال رمزي إنه ذهب قبل فترة إلى أنقرة، وشاهد التلفزيون في الفندق، وأن جماعتنا لم يستطيعوا بأي شكل فهم هذا الموضوع. في تلك الأثناء شرب أحمد عصير البرتقال الذي أحضرته لالة. وعلم أن تامر بن نجدت ولالة قد أنهى جنديته تواً، وهرع فور مجيئه إلى أصدقائه الذين لم يرهم منذ فترة طويلة، لهذا لم يأت لزيارة جدته المريضة. سأل عما تعمله أخت تامر فسون. وتذكر أنها تدرس اللغة في فرنسا. ثم خيم الصمت، والتفت نجدت إلى أحمد، وسأل: "إيه، كيف حالك لنرى، احك لنا. هل ترسم؟" كانت نظراته تقول: "أنت فنان، من يعلم أي أمور مسلية، وممتعة، وغريبة، ولذات تتذوق! ذوقنا منها قليلاً!"

قال أحمد: "نعم، أرسم!" ثم فكر أن عليه أن يحكي لهم بعض الأمور المسلية، فقال: "أرسم بعض اللوحات حول مباريات كرة القدم!"

قال نجدت: "غريب جداً. لم يخطر موضوع كهذا ببال أحد! هل تذهب إلى المباريات من أجل جمع المعطيات؟"

حكى أحمد عدة عبارات حول اللوحات، ولكنه أدرك أن الموضوع غير جذاب لأنه اضطر لفتح حديث قضايا الرسم ولو بشكل عام.

كان نجدت ينظر نظرة تقول: "نعم، مع الأسف، فإن ما تفعله أنت أيضاً له مشاكله الخاصة به!" ثم فتح ذراعيه، وقال: "كم ثمن لوحة جديدة بهذا القدر تقريباً الآن؟" ورأى أحمدَ ينظر متردداً، فأعاد مؤكداً: "أقول تقريباً!"

قال أحمد: "ثلاثة، أو أربعة آلاف!"

قالت مينة: "أوه، هل تتحدثون عن الفن؟" وجلست. "الطعام سيجهز بعد قليل!"

فكر أحمد بضرورة أن يحكي لهم عن أشياء مسلية، ففتح حديثاً حول أسعار اللوحات. بداية، فوجدوا الأسعار باهظة، ولكنهم اعتبروا بعد ذلك أن أسعارها رخيصة لأن الفنان لا يبيع في السنة إلا بضع لوحات، وذكروا أن الفنان لا يُعطى قدره حقيقة في بلدنا. وروى أحمد لهم قصة كان يأمل أن يجدوها ممتعة. تحدث باختصار عن فنان فرنسي لم يلتفت أحد إليه سابقاً، ولكنه غدا مليونيراً الآن. ثم حكى عن مغامرة مقلد مشهور ينام في سجون ألمانيا. وعندما سأل رمزي عن طريقة تزوير الرجل لبعض التوقيعات، قال أحمد إن هذا الأمر هو أسهل ما في الموضوع، وإن الجانب الأصعب فيه هو إيجاد لوحة معدة للرسم، وإطار قديم، وتجفيف الألوان، وفكر فجأة: "ليتني أكلت البيض الذي كانت ستكسره لي أمينة خانم!" وعندما قال جميل إنه رأى فيلماً يتناول قصة مزور كهذا، دخل عثمان، ونهض الجميع، وانتقلوا إلى المائدة لتناول الطعام. نظر أحمد إلى ساعته: الثامنة وعشر دقائق.

قالت مينة: "أنت تنظر إلى ساعتك. هذا يعني أنك مللت منذ الآن!"

قال أحمد: "لا!"

"لماذا لا تعرج علينا أبداً؟"

كان أحمد يعرج عليها، ويثرثر معها، ولكنه لم يعد يجد وقتاً الآن. تمتم بشيء ما، وابتسم.

جلس أحمد بين جميل وعثمان. كانت أطباق الطعام تُنقل إلى المائدة. كان أحمد قد اطلع عليه حين دخل إلى المطبخ، ولكنه نظر بانتباه مرة

أخرى. فتائل لحم وبطاطس مقلية. ضغط على الأفكار المزعجة مفكراً: "حسنٌ أنني لم آكل بيضاً. يجب أن أنتبه إلى غذائي!" ومد صحنه.

قال جميل: "إيه، ما رأيك، ماذا سيحدث؟" كان على وجهه تعبير حزن يتخذه عندما يريد أن يتحدث عن قضايا الوطن. فعندما يرى أحمد يتذكره بقايا الوطن.

قال أحمد: "ماذا سيحدث؟" ثم أضاف: "ستحدث أمور ما على الأغلب!"

"كيف؟"

قال عثمان: "يقول إن انقلاباً عسكرياً سيحدث!" قال هذا بموقف المعلم المربي. كأن حاجبيه يقولان: "أنت لا يمكنك أن تفكر بغير المصنع، وبيتك!"

"كان هناك أمور في الجريدة!"

قال عثمان: "ضياء قال هذا، ضياء! جاء مساء البارحة، وقال إن الجيش سيستولي على كل شيء!"

قال جميل: "آ، أنا لم أره منذ سنوات!"

"ولكنني تحدثت مع أحمد، وفكرنا بأنه لن يحدث شيء! أليس كذلك يا أحمد؟"

تمتم أحمد: "وهل قلنا شيئاً كهذا؟" كان يقطع شريحة اللحم بسرعة.

قال جميل: "كنت أريد أن أرى العم ضياء هذا!" والتفت إلى نجدت: إنه ابن عم أبي... عقيد متقاعد، ولكنه إنسان غريب جداً على الأغلب!"

قال عثمان: "انتظرته في الأعلى لعله يأتي اليوم، ولكنه لم يأت! لن يأتي بعد الآن. سيظهر بعد أشهر، وسنوات فجأة! هذا إن عاش طويلاً بالطبع!" ثم خجل فجأة، وقال: "سيأتي، إنه يأتي! سيأتي مرة أخرى. مثل... مثل الشبح... الشبح!"

كرر جميل قائلاً: "شبح ها!"

قال نجدت: "ذهبنا قبل مدة إلى بيت طارق. أصرت زوجته قائلة: لنستحضر الأرواح!" وضحك. "أنا لا أؤمن، ولالة أيضاً لا تؤمن أيضاً. ولكنه ألحوا، وجلسنا حول الطاولة. خفت يا روحي! زوجته تؤمن بهذا جيداً. غابت عن الوعي... أتعرف أنني حزنت من أجل طارق. بيتهم مليء بمجلات الروح والمادة!"

قالت مينة: "أصيبت زوجته مرة بالاكتئاب، أليس كذلك؟ هل يمكنني أخذ قليل من السلطة؟"

قال جميل: "نعم، نعم، إنها مصابة قليلاً بعقلها..." وأطلق قهقهة.

قالت لالة: "لطارق علاقة ما مع امرأة أخرى على الأغلب!"

قالت مينة: "لا نميمة أمام الأولاد!" وابتسمت لابنة حميها.

قال جميل: "أي أولاد حباً بالله! هل يكونون أولاداً عندما يطلبون سيارة؟"

التفت الجميع، ونظروا إلى جودت وقايا.

قال رمزي: "إيه جودت، إنك تنهي الثانوية، ماذا ستدرس؟"

قال جميل: "سأرسله إلى الخارج! الدراسة غير ممكنة هنا!" ونظر إلى عثمان بطرف عينه لمعرفة ما إن كان يوافقه على رأيه أم لا. ثم أضاف: "جده يريد هذا أيضاً."

قال رمزي: "نعم، وضع الجامعات عندنا كارثي! الحمد لله أن أولادنا أنهوها!"

قال نجدت: "الجامعات فقط؟ كل شيء كارثي! ذيل السمكة متفسخ، فماذا عن الرأس؟"

انطلق تضاحك، ولكن صمتاً حل بعده.

قالت لالة: "لا تشرب بعد هذا يا نجدت!"

قال جميل: "لا يا ناس، إنه على حق! الرجل يخلط البنزين بالماء! قلت لكم هذا، أليس كذلك؟ لمَ لا يخلط إذا كان أحد لا يراقبه، ولا يخالفه؟ ينظر، فيجد أن الآخرين يخلطون، فيقول لماذا لا أخلط أنا، وهل المخبول الوحيد هو أنا... انظر الآن، وأنا ماذا أفكر من أجل سلك المصابيح في مصنعنا..."

قلق عثمان، فقال: "وأنت أيضاً تشرب كثيراً!"

نظر جميل نظرة مليئة بالغضب إلى أبيه. ولأن أحمد كان يجلس بينهما، فكر أن من الضروري أن يقول شيئاً ما يهدئ الجو بينهما، ولم يخطر شيء بباله. ولكن الغالبية لم يكونوا على علم بالانزعاج الحاصل على هذا الطرف من المائدة.

قالت لالة: "ذهبت قبل فترة إلى الخضري عزيز. كم ساعده جدي يوماً ما، وبعث سلاماً لأبي وأمي، وقدم لهما احترامه، ولكنه في النهاية أعطاني أسوأ فاكهة!"

قال نجدت: "خذوا هذا! لماذا يفعل هكذا؟"

قال رمزي وهو يمد صحنه: "نتيجة الاعتياد!"

قالت عائشة: "أنت أكلت كثيراً!"

قالت مينة: "ليس الاعتياد، بل بسبب النظام الفاسد!" ثم التفتت، ونظرت إلى أحمد.

قال جميل: "آ، نعم، النظام الفاسد! نظام الوسطاء الفاسد. يجب القيام بعمل ما! ها، ها، ها..." وكان ينظر إلى أحمد أيضاً: "هل يُعد ذلك الخضري وسيطاً؟"

قال أحمد منزعجاً: "لا، المصدرون والمستوردون يعتبرون هكذا." ثم أضاف ليزعجه: "وأصحاب الصناعات التجميعية أيضاً."

قال عثمان: "انظر، انظر الآن!" ولكنه لم يكن منزعجاً هذه المرة.

قال نجدت: "نعم، الجميع يشتكون من النظام الفاسد، ولكن أحداً لا يفعل شيئاً!" وأضاف وهو ينظر إلى أحمد: "هنالك الشباب..."

قال جميل: "هل تعرفون طرفة رئيس الجمهورية الأخيرة؟" وبدأ يروي طرفة.

قال نجدت: "هذه نعرفها!" وشرع يروي طرفة أخرى.

ضحك الجميع. كان قد جلب إلى المائدة نوع آخر من الطعام هو سبانخ بزيت الزيتون.

قالت مينة: "ما أجمل هذا، لماذا لا نكون معاً هكذا أكثر!" ثم قلقت لأنها تذكرت على الأغلب سبب مجيء الجميع إلى هنا هذا اليوم.

قالت عائشة: "ترى كيف حال أمي؟"

قال رمزي بصوت مهدئ: "سنصعد إليها بعد الطعام!"

قالت لالة: "لنصعد كلنا بعد الطعام!"

سأل جميل: "هل سيأتي الطبيب هذا المساء أيضاً؟"

قالت مينة: "نعم، لنصعد كلنا بعد الطعام!" وأضافت مترددة: "حقاً، لماذا لا نكون معاً؟"

قالت لالة: "متى يحل العيد؟"

قال نجدت: "أما كان العيد قبل أسبوعين يا هذه؟"

قالت مينة: "أقول إن علينا ألا ننتظر الأعياد، يمكننا أن نكون معاً في بعض الأحيان!" والتفتت إلى أحمد: "وندعو أسرة أختك الكبيرة أيضاً."

قال نجدت: "سنكون في الخارج في رأس السنة!"

قالت مينة: "حقاً!" وتنهدت وهي تنظر إلى جميل.

قالت لالة: "إننا لا نلتقي بأسرة ملك أبداً! وبأسرة فروح أيضاً! أما كانوا سيدعوننا ذات مرة إلى جنة حصار!"

"إيه، ونحن لم ندعوهم إلى الجزيرة!"

سأل جميل: "كيف تتدفؤون هناك؟ وأسرة فروح..."

"والله نحن نشعل موقد الشمينيه، ولدينا موقد غاز. المحيط هادئ. بدا لي الجو هادئ جداً." والتفت إلى زوجته: "أليس كذلك؟ إنه مكان مناسب للهرب في نهاية الأسبوع! سأجعلهم يصنعون لي مدفأة كهربائية بشكل خاص في المصنع."

سألت مينة: "كيف وضع زوجة فروح؟ كان في ثديها..."

"نعم، ورم صغير. اكتشفوه باكراً والحمد لله. امرأة ذكية، إنها تجري فحصاً عاماً كل سنة!"

"كيف سيكون الإنسان وسط كل هذه القضايا؟ لابد للإنسان أن يعتاد على عادات معينة بعد أن يعيش حياته بانتظام، ويكون كل ما له جيداً، وفي نصابه مثلما في أوربا، ويذهب إلى الطبيب للمعاينة في أوقات معينة، ولكن الأمر هنا ليس على هذا النحو؟"

قال نجدت: "كل شيء سيئ هنا يا أخي. أنت محق! من أين ستبدأ!"

تناول أحمد سبانخه. ونهض بهدوء. اقترب من مينة. وقال كأنه يهمس: "أنا مضطر للذهاب، لدي موعد..."

قالت مينة: "هل أنت ذاهب؟ ها أنت قد تضايقت من جديد! والحلويات..." وأضافت: "جعلتهم يحضرون قطائف البرتقال التي تحبها أنت. تذوقها على الأقل قبل أن تخرج!" والتفتت إلى الخادمة، ونادتها.

اعتذر أحمد مرة أخرى، ودخل إلى المطبخ. قطع قطعة كبيرة من القطائف، ودسها في فمه. وخرج من باب المطبخ. وخلال نزوله على عجل وفمه ملآن تذكر سنوات ذهابه إلى المدرسة الابتدائية. وخرج إلى الشارع.

كانت ساحة نيشان طاش مزدحمة في نحو الثامنة من مساء يوم السبت. غالبية الدكاكين قد أغلقت. ولكن مازال هنالك من يتردد على محلات المعجنات، وباعة المقبلات، والأزهار. ثمة بائع بن فتح باب دكانه، وكان يحمص حمصاً. مازال ملعّب القمار في الزاوية نفسها. كان المرور قد فُتح، ولكن السيارات كانت تسير ببطء أيضاً. فرش بائع الجرائد أمام المصرف. ثمة ماء قذر يسيل من دكان حلاق على الرصيف. وكان ثمة زحام على موقف الحافلات. ركنت سيارات أمام المدارس. واختنق المرور أمام المخفر. ضوء سيارة جيب للشرطة ينطفئ وينار منتظراً منتصف الليل. بعد أن مشى أحمد قليلاً، واستنشق هواء نظيفاً، شعر أنه تخلص من القذر، وأنه في غاية النظافة. وفكر: "لماذا أنزل إلى الأسفل؟" تمتم: "لرؤية الحياة! لرؤية حياة الناس اليومية، وعيشها!" ثم صحح: "ولكن ليس من أجل العيش. فأنا لا أنضم إليهم. وأتضايق أحياناً لأنني لا أنضم إليهم. يجب أن أكون معجباً بنفسي. أنا أغار منهم لأنني لا أشارك في ذلك المرح." كان يمر من أمام الجامع، قال لنفسه: "لا يا روحي، ليس إلى هذا الحد! دعوني، والحوا علي، وذهبت. وفتائل اللحم أيضاً جيدة!" انعطف نحو اليسار عند زاوية التشويكية. تمتم: "إلكنور!" وارتاح لأنه يستطيع أن يتحدث معها بكل شيء. في الساعة التاسعة إلا دقيقتين بدأ ينتظر على مبعدة من البناء.

7
معاً

بعد قليل أنير مصباح وراء باب البناء الرئيس، وظهرت إلكنور فوراً. عبر أحمد إلى الطرف المقابل.

"مرحباً، هل جعلتك تنتظر؟"

قال أحمد: "لا، الآن جئت!" وأراد أن يمزح معها. "أنت لا تستطيعين الخروج دون خرج! مثلما يلبسون الفلد، أنت تستخدمين الخرج..."

قالت إلكنور: "ألم تقل لي اجلبي الدفتر؟"

اندهش أحمد، وتمتم: "حقاً، أنا أعتذر!"

بدأا بالسير. وفكر أحمد: "إنها غاضبة!" لم يتحدثا بشيء. "ألم أكن سأحدثها بكل شيء!" وبدا كأنه حزين، وفكر: "ليس ثمة شيء لدي غير العمل، والرسم! اللقاءات العابرة، الثرثرة لا تخلق سلواناً. أنتظر هذه الأمور لأجد دافعاً للعمل خادعاً نفسي!" فكر فجأة، وتوجس خيفة: "في كل مرة أرغب بانصرافها، والاستغراق بالعمل!" تمتم بقلق: "لا، لا! كم أشتاق إليها!" ونظر إلى إلكنور بطرف عينه، وخطر له: "ليست جميلة، ولكنها محببة! لن أستطيع العيش أبداً لولا وجودها! إيه، لماذا تصمت حتى الآن إذاً؟" كانا يمران من أمام الجامع.. بحث أحمد عما يتحدث به، ولكن فقدمرحه قد. رأيا قطاً، ونظرا إليه في أثناء مروره بجانبهما، ولكنهما لم يقولا كلمة واحدة.

قالت إلكنور فجأة عندما مرا أمام الجامع: "تشاجرت مع أهل البيت!" واتخذت موقفاً كأنه يفسر الصمت. مازال ضوء جيب الشرطة ينطفئ، ويشعل.

فكر أحمد: "هذا هو السبب إذاً!" وسأل بعد أن هدأ: "ماذا حدث؟"

"سألوني إلى أين أذهب في هذه الساعة. وقلت لهم إنني ذاهبة إليك. والأمور ذاتها!"

"نعم، إنهم لا يحبونني أبداً، أليس كذلك؟"

قالت إلكنور: "أنت تعرف!"

قال أحمد: "أنا لست من النوع الذي يحب، فماذا أفعل!" وحاول أن يبتسم.

خيم الصمت من جديد، ولكن أحمد شعر بالراحة، ولم يعد قلقاً، وفكر: "سيتراخى كل شيء بعد قليل، وننشرح كلانا!" وقفا معاً أمام المكتبة المجاورة للمدرسة بنحو تلقائي، ونظرا إلى الواجهة. عرضت كتب بوليسية تافهة، وروايات حب رخيصة، وتقويمات، وهدايا رأس السنة، وكتب فخمة. قبل يومين رأى أحمد بين الكتب الباهظة الثمن كتاباً عن موديلياني، ودخل ليتصفحه، وليس ليشتريه، ولكن بائع الكتب رفض فتح الكتاب الملفوف بورق السيلوفان والشرائط ليذكر الزبائن أنه يصلح لهدية، وقال له: "أفتحه لكم إذا كنتم ستشترونه!" وعندما نظر أحمد إلى الكتاب الموضوع في الواجهة أراد أن يروي هذا لإلكنور، ولكنه عدل عن هذا. ولدى مغادرتهما من أمام الدكان، بدأت إلكنور تروي له قصة حول تقويم المعارف ذي المؤقت: كانت أمها تقرأ تعريف طبق اليوم، وإذا لم يعجب أباها، يقطع ورقة أخرى، فإذا لم يعجبه الطبق مرة أخرى، فيقطع ورقة أخرى. وهكذا فإن التقويم الذي يُقتنى كل سنة ينتهي قبل نهاية شباط. ولكن أمها كانت تستفيد من طبق اليوم لأنها تحتفظ بأوراق التقويم. ضحك أحمد لأنه وجد القصة ممتعة، ثم فكر أنه يكن المحبة لأبي إلكنور وأمها، وكاد يحزن لأنهما لا يحبانه. وعندما وصلا إلى زاوية نيشان طاش، بدأ يروي قصته. وتمكنت إلكنور من الضحك طويلاً،

واستمتعت لأن أحمد رواها جيداً، وانتبه للتأكيدات، وطبقات الصوت. وفكر: "نعم، كل شيء في نصابه!" وحين انعطفا من الزاوية، رأى مصابيح الطابق الرابع من البناء منارة.

"الجميع اليوم في بيت جميل! لأن وضع جدتي ساء من جديد، وأسوأ من السابق."

صعدا الدرج ببطء، وصمت دون أن يتكلما بشيء. المصعد قد تعطل منذ أسبوعين. سمعا الصخب المنبعث من الطابق الرابع حينما كانا صاعدين من أمامه. كان الطابق الذي تنام فيه نيفان خانم صامتاً. بدا أحمد كأنه غاضب من إلكنور لأنها تدخن كثيراً عندما رآها تلهث أمام باب شقته. فتح الباب، وأشعل الضوء.

دخلت إلكنور، وقالت: "أوه، ما أجمل هذا! اشتقت إلى هذه الرائحة."

قال أحمد: "للرائحة، أم لي؟" ودخل ليضع ماء الشاي على النار. في أثناء إشعاله الموقد فكر بأن إلكنور تنظر إلى اللوحات، فنفد صبره. وضع الماء على الموقد، وأشعل تحته، وخرج على عَجل."

"إيه كيف وجدتها، لنرَ؟"

"هذه آخر ما رسمت على الأغلب. جيدة! ولكنك شوهت هذا التاجر المسن!"

قال أحمد منفعلاً: "شوهته؟ أين؟"

"انظر إلى هذه. تفاصيل الألبسة، والمربعات، وتجعد المنديل. لماذا تقف عند هذه التفاصيل التافهة؟"

بدا أحمد كأنه انزعج. كان يريد أن يؤمن بأن إلكنور ناقدته الأفضل.

"تبدأ بشيء. الفكرة أو ما تريد أن تقوله جيد. وتقدمه بشكل لائق. ولكنك بعد ذلك، لا أدري لماذا، تبدأ باللعب بالتفاصيل. تجعيد المنديل... إنك تحاول إظهار المهارة كشاب تعلم التظليل تواً. خذ على سبيل المثال هذه البقع على يد المسن، والشامات! لعلها كانت مبهمة سابقاً، فلم نفكر بها، ولكنها تثير في نفسي الإحساس بوجود بقع هناك. ولكنك الآن تدسها بعيني، وتريد أن تقول إنك تفكر بها. لماذا؟"

قال أحمد بخجل: "لعل ذلك بسبب عدم الثقة بالنفس!"

"ولعله بسبب عدم الثقة بالمتفرج. أو الخوف من عدم فهمه لك! هل ابدو متذاكية؟"

قال أحمد: "جاء حسن اليوم! قال إن لوحاتي لا تقدم له أي شيء."

"وانت انزعجت بالطبع..."

"قليلاً! ولكنه قال ما يشبه هذا: إنه لا يُفهم ما إن كنت جدياً، أو ساخراً!"

"ودخت إعجاباً بهذه العبارة طبعاً! اعتقدت انك غويا. انا ارى أن هذا انحراف خاطئ."

قال أحمد مبتسماً: "نعم، إنك متذاكية!"

ضحكت إلكنور أيضاً. أخرجت علبة سجائر من خرجها. وجلست على الكرسي الذي تجلس عليه دائماً، وترى منه اللوحات واحمد في آن واحد، واشعلت سيجارتها. تلفتت فيما حولها كأنها تحضر نفسها للمرح. ثم سألت: "نعم، ماذا فعلت بهذه الفترة التي لم نلتق خلالها؟ مضت خمسة أيام، أليس كذلك؟ ماذا يفعل حسن؟"

"هل كنت تعرفين حسناً؟"

"أنا أعرفه كالآخرين لأنك تتحدث عنهم."

قال أحمد: "لأبدأ من البداية إذاً، قابلتك بعد ظهر يوم الاثنين. عملت مساء. ذهبت بعد ظهر يوم الثلاثاء إلى درسي الفرنسية. لم يكن ثمة شيء يمكن السخرية منه يستحق روايته. كان لدي درس رسم لذلك الطفل الرائع. كان الأمر على هذا النحو: خلال أعطائي الدرس للولد جاءت أمه وبعض الضيوف. يريدون أن يتفرجوا علينا. ولون ذلك لولد أوراق شجرة تحت أنظارهم، وتلبية لأوامري. ولم يُسيّل اللون من أطراف الرسم."

قالت إلكنور وهي تضحك: "كان يسيل معي دائماً في المدرسة! وقد كان عندي كتاب تلوين، وكانت تسيل فيه أيضاً."

قال أحمد: "أنت تقولين دائماً إنك فوضوية!" وجلس، وبدأ يتحدث: "لا تقاطعيني: أنا أتابع تقديم الأخبار... ذهبت يوم الخميس إلى تلك العجوز لإعطائها درس محادثة فرنسية. قدمت لي سكريات الكستناء، أكلت. ثم ذهبت إلى أوزار لتناول طعام العشاء. دعاني هو وزوجته. دخلت في نقاش فني في أثناء إعداد زوجته الطعام، وجلبه إلى المائدة، ثم جمعه. تعرفين أن أوزار يعمل مصمماً غرافيكياً في شركة للإعلان، وقد اشتكى من عمله، وقال إنه يحسدني على عملي. وبعد هذا المدخل الصغير اتهمني بأنني واقع في عقدة تقليد الفن الكلاسيكي المتخلف. ثم أراني قطع البقلاوة التي يرسمها. أما رأيت رسوم أوزار؟ فيها تأثر بالتكعيبية: إنه يختزل الأشكال كلها إلى متوازيات أضلاع، ومربعات. يبدو أنه لم يشبع البقلاوة في صغره! أتعرفين؟ إنه ابن عائلة فقيرة. أحياناً أفكر بسبب رسمه قطع البقلاوة تلك، وليس الفلاحين..."

"أنت أيضاً رسمت الفلاحين يا هذا."

قال أحمد: "مازلنا نقدم الأخبار! هل أحكي لك عن الحوار الأساسي الذي دار بيني وبين أوزار؟ حسن... سأختصر. عملت في تلك الليلة إلى الخامسة كما في الليالي الأخرى. ذهبت بعد ظهر البارحة إلى الدرس أيضاً. مساء، قلت لنفسي لأر جدتي التي ساء وضعها نتيجة المرض. صادفت ابن عم أبي ضياء. هو عقيد متقاعد وصل إلى حدود الثمانين من عمره... شخص غريب جداً. كان أبوه ثورياً على الأغلب..."

قالت إلكنور: "أي ثوري بورجوازي."

قال أحمد: "مبروك لك، معلوماتك التاريخية والماركسية قوية جداً!" وأضاف لإغضاب إلكنور: "إنه مزاح يا روحي! اسمعي، إننا قادمون إلى الخبر الأساسي. قلت لك ذلك على الهاتف ياه، قال السيد ضياء: سيقوم الجيش بانقلاب!"

قالت إلكنور: "هذا ما يقوله الجميع يا روحي!"

"ولكنه قال هذا قبل أن يُسرب الخبر إلى الصحف."

قالت إلكنور: "أرجوك يا أحمد! هذه تركيا. كل شهرين تظهر شائعة كهذه."

قال أحمد: "أي أنك تعتبرين أن التوقف عند هذا أمر لا يستحق الاهتمام؟" وشعر كأنه قد غُبن. هب بعد ذلك واقفاً وهو يستذكر كلمات السيد ضياء، ومواقفه: "قال لي بأن كتيبة الحرس في راحة يدنا. فتح راحة يده هكذا. كأن تركيا كلها في راحة يده... لماذا يقول هذا دون أصل؟ لماذا؟" وفكر قلقاً. تذكر قلق عثمان، وغضب جدته، وقال: "لا أفهم، لا أفهم! لا أدري ماذا حصل في عائلتنا، أنا أتوق لمعرفة هذا. قرأت الدفتر، أليس كذلك؟ أفكر بأن أرسم صورة لجدي."

قالت إلكنور: "انظر، لديك فضول لما هو متفسخ، ومنهار. ولا تتوق لعائلتك!"

"أنت محقة. حسن أيضاً أراد أن يقول لي هذا على الأغلب ولكنني أرى الحياة والزمن..."

"ماذا يقول حسن غير هذا؟"

تردد أحمد لحظة: "غير هذا؟" أضاف غاضباً من تردده: "سيصدر مجلة، طلب مساعدتي."

"كيف ستكون المجلة؟"

تمتم أحمد بخجل: "لا تفتحي الموضوع لأحد، هل هذا ممكن؟"

"حسنٌ، مجلة ماذا؟"

"سيجمعون الشباب الذين هم في الوسط بين الثورة الديمقراطية القومية، وحزب العمال التركي على ما يبدو. ولكنهم مازالوا في بداية الطريق. لا أدري إن كان سيتم هذا أم لا." وخطر الانقلاب بباله من جديد، ولكنه أضاف على عجل: "قلت له إنني سأعمل ما بوسعي. وأنا فرح لأن ملحي سيكون في ذلك الحساء."

"هل هو حساء حقيقة؟"

"لا، هذه ليست مناسبة لألعابك اللفظية."

قالت إلكنور وهي تشعل سيجارة جديدة: "وغير هذا؟"

"غير هذا، رأيت أختي الكبيرة أيضاً، جاءت إلى هنا."

"ماذا تفعل أختك الكبيرة؟ ماذا تفعل؟"

"كما هي دائماً. كررت قول: يقول صهرك! ولكنني رغم هذا أحب أختي الكبيرة..."

قالت إلكنور: "أنت تقول دائماً: رغم هذا أحب! وتتصالح!"

قال أحمد: "هل تقولين هذا بصدق؟"

"حسنٌ، مزاح!"

"صهري رآنا في نيشان طاش. لست مسروراً من ذلك. وقد نظر إليك بإمعان."

يبدو أن إلكنور شعرت بالقلق، ولكنها سألت: "لماذا لست مسروراً؟"

"من أين لي أن أعرف، كأن كل شيء قد تدنس. حاولوا فوراً فهمنا وفق مقاييسهم، ومفاهيمهم. أنت تفهميني، أليس كذلك؟"

قالت إلكنور: "قليلاً!"

قال أحمد بتوتر: "افهمي هذا يا روحي!" ثم تمتم بضيق: "الفضوليون مثل صهري: درجة التواصل الجنسي، والزواج، والوضع الاقتصادي، والعائلة..." كان خجلاً من كلماته. "يقشعر بدني من مجرد أن يراني شخص كهذا."

قالت إلكنور: "لنقلع عن الخروج إلى الشارع إذاً!"

قال أحمد لمجرد العناد: "نعم، يجب ألا نخرج! لماذا نخرج، لا أعرف. أنشد حسن بيتاً لناظم: ما تبحث عنه ليس في غرفتك، بل في الخارج."

قالت إلكنور: "أحسنت يا حسن! لقد أحببته."

"ليس حسن، بل أعطي ناظماً حقه! إيه، ماذا فعلت أنت؟"

"لا شيء، ذهبت إلى الكلية، وعدت منها."

"ماذا هنالك في الكلية؟"

"ماذا سيكون هنالك؟ ثرثرة، وفعاليات خلفية، ونميمة القسم."

"هل سيعينونك معيدة؟"

"أنت تعرف، الملاك."

قال أحمد: "مازال الأمر نفسه! ثوري ضد هؤلاء يا هذه!"

"سأثور! قلت لهم إنني سأذهب إلى النمسا لإعداد الدكتوراه!"

"ماذا؟"

"كنت سأذهب إلى النمسا يا. تقدمت بطلب. ووافقوا."

قال أحمد مرتبكاً: "هل ستذهبين؟" وخاف من نبرة صوته.

قالت إلكنور: "لن أحصل على شيء من هؤلاء. ربما أذهب."

تمتم أحمد: "لابد أن يصدر توسيع في الملاك." أراد أن يخفي وجهه، فتمتم: "الشاي!". وذهب إلى الموقد. أخذ إبريق التخمير. ولم يجد علبة الشاي. فكر: "هي أيضاً تذهب! ماذا سأفعل أنا؟" غضب من نفسه فجأة. "سأعمل، وسأرسم لوحات أكثر. ثم أعمل مع جماعة حسن. فالانعزال هنا على هذا النحو، والشعور بالضيق بحجة الرسم ليس صحيحاً!" تصور نفسه يعمل مع حسن ورفاقه، فانفعل. تمتم: "يمكن عمل الكثير، الكثير!" ولكنه بعد أن خمر الشاي، ودخل إلى الغرفة، ورأى إلكنور، توترت أعصابه.

"حسنٌ، ماذا سيحصل للدكتوراه التي بدأت بتحضيرها هنا؟"

"ها، تلك؟ لم تعجبك أنت أيضاً!" كان موضوع إلكنور للدكتوراه: هاجس التكامل في العمارة العثمانية.

تذكر أحمد أنه علق على إلكنور قائلاً: "لم يكن هنالك هاجس، وقلق!" فتمتم: "كنت أمزح. بشأن ذلك الهاجس..."

"أعرف. ليس من المؤكد تماماً أنني سأذهب!"

قال أحمد: "ولكن الموضوع مؤكد إلى حد البحث عن تأكيد له!"

نظرت إلكنور إليه نظرة تقول: "أرجوك، لا تقف الآن عند هذا!"

قال أحمد: "ماذا فعلت غير هذا؟"

"لا شيء! هذا كل شيء!"

قال أحمد: "كيف يحدث أنني أنا المسجون هنا أجد دائماً المزيد مما يمكن شرحه؟ احكي لنرى!" ثم أضاف مباهياً: "لأن الانغلاق على النفس هنا يخلق عندكم، وعندك نوعاً من خداع البصر. أنا أعيش بعمق وغنى. يمكن للإنسان أن يقيم علاقة مع مائة شخص، وأن يصادمهم، ولكنه لا

يتجاوز السطح. بينما أنا أغوص في العمق." انفعل. "نعم، أغوص إلى الأعماق من أجل المجتمع كله. ما هو الأكثر طبيعية من عيشي بعمق وغنى؟" ثم نظر إلى إلكنور، وابتسم، وخطر له: "صرت قبيحاً، فقدت وعيي!"

قالت إلكنور: "عبارة الحياة الغنية، أو أشياء شبيهة بهذا واردة في دفتر ابيك أيضاً!"

قال أحمد: "حقاً، كنا سننظر فيها! لنر ماذا فعلوا؟ هل استطعت قراءتها؟ أنا وجدت دفتراً جديداً." وسار نحو المكان الذي ترك فيه الدفتر، وقال: "نعم، انتهت الأخبار! ونحن الآن نستمع للتعليق اليومي!" قدم الدفتر لإلكنور بانفعال. تذكر مزاحاً قديماً، وصرخ: "ما العمل في الحياة يا كاتيا ميخائلوفنا؟ ما طعم الحياة؟"

قالت إلكنور: "يا عزيزي سيفان سيبانوفيتش!" وكانت تضحك. "أخطأتم من جديد. لم يعد هنالك من يسأل ماذا يجب أن يُفعل في الحياة. تأخرتم. صار الناس لا يسألون عن معنى الحياة، بل عن تحرر الوطن!" كان هذا مزاحاً يرددانه فيما بينهما أحياناً. قال أحمد ذات مرة إن الأدب الروسي كله يدور ضمن هذا الإطار البسيط.

قالت إلكنور: "لو أن هنالك سماور، أو مدفأة يوضع فوقها!"

قال أحمد بمتعة: "هنا تركيا يا روحي! نحن لسنا أمام الواقع، بل أمام نسخة رديئة له!"

قالت إلكنور: "هذا برأيك!"

"حسنٌ، حسنٌ! هيا، لننظر إلى هذه الدفاتر. لنر ماذا فعلوا!"

8
دفاتر قديمة

قال أحمد: "انظري، وجدت هذا الدفتر اليوم أيضاً. اقرئي لنعرف ما فيه!"

أخذت إلكنور الدفتر، وفتحته، فلم تجد شيئاً، نظرت إليه من الخلف، فلم تجد شيئاً أيضاً.

قال أحمد: "هناك عدة صفحات مكتوبة في أوله على الأغلب!"

قالت إلكنور: "أبوك فعل هكذا! الكتابة تبدأ من اليمين إلى اليسار، ولكن هذه الدفاتر تبدأ من اليسار إلى اليمين على الطريقة الإفرنجية!"

قال أحمد: "الذهنية إفرنجية يا سيدتي!" وضحك.

قالت إلكنور: "ولكن هذه حقيقة... كنت أعتقد أننا أكثر فرنجة. كان أبوك بعيداً عنا، وعن هذا الشعب."

قال أحمد: "الاعتقاد بأن القدماء كلهم متطابقون، خطأ قديم قدم القدماء! هذا رأي من يعتقد أن الماضي جنة!" وأضاف متردداً: "نحن قرأنا الماركسية!"

"أتعرف، أبوك أيضاً قرأها!"

"حقاً؟ إيه، لا يوجد في مكتبته كتاب واحد عنها."

"كتب أنه استعارها من صديق!"

"حسنٌ، لماذا لم يشترها عندما كان في أوربا؟ عندما كان في فرنسا..."

سألت منفعلة: "هل قيل إنه ذهب إلى فرنسا فيما بعد؟ متى ذهب؟"

"لم يُقل إنه ذهب. لأنني شهدت ذهابه شخصياً." وأشار أحمد إلى الدفاتر، وقال: "يا، إن بطل هذه الحكايات التي قرأتها هو أنا! لم تنظري إلى هذا الدفتر حتى الآن."

قلبت إلكنور عدة صفحات، وضحكت لرؤيتها بضع كلمات: "حياتي التجارية في نصف قرن!"

"اقرئي أكثر! إنه لجدي!"

"لا يوجد الكثير! كُتبت الجملة نفسها عشر مرات. وهي لا تقرأ أيضاً! كتابة أبيك أقرب إلى كتابة الكتب. كتبت باليد. قراءة الحروف العربية صعب جداً."

"الظاهر أنك ستعدين أطروحة الدكتوراه في الخارج."

قالت إلكنور: "إيه! لا تفتح هذا الموضع. ثم قرأت ببطء شديد وهي تنظر إلى الدفتر: "هنا أنا ونيفان... برلين... كانت الرحلة تعليمية... الصورة شيء جميل... لا يوجد شيء هنا. إذا كنا سننظر، فلننظر في الآخر... لماذا ذهب أبوك إلى فرنسا؟"

"لا أدري؟ خطر بباله، فذهب على ما يبدو. ماذا يوجد غير هذا في الدفتر، تابعي!"

"كتب عن أفكاره، وهمومه. أبوك مخبول قليلاً، ومسلٍ قليلاً أيضاً!"

"يا هذه، دعي الرؤية، واشرحي! اقرئي!"

بدأت إلكنور تقرأ: "الاثنين 13 أيلول 1937. ذهبت البارحة إلى بشك طاش. قابلت محي الدين. جلسنا في خمارة، وتحدثنا. لم يقل لي شيئاً. بعد حديثي معه بدت لي الحياة اليومية كأنها محظورة علي، كأنها أيضاً حرام يرتكب كل ثانية. أول السطر. ذهبت اليوم إلى المكتب. جلست هناك طوال اليوم." بدأت إلكنور تضحك بصوت خفيف.

قال أحمد بتوتر: "أرجوك، ما الذي يضحك هنا إلى هذا الحد يا هذه؟ كل من يشعر بالضيق، ولديه الوقت يكتب هراء كهذا."

قالت إلكنور: "هل تتكلم بجد؟" وبدت كأنها أحبطت. ولكنها بحثت عما يفرح أحمد، ووعادت تقرأ: "لماذا هم هكذا، ونحن هكذا؟ لماذا

أستمتع بقراءة روسو أو فولتير، ولا أستمتع بقراءة توفيق فكرت، أو نامق كمال؟ ورفعت رأسها: "ما قولك بهذا؟"

قال أحمد: "هل كلها على هذا النحو؟"

"نعم، مثل هذا. وهنالك أحداث طبعاً."

"ماذا يحدث؟ هل يكتب أنه ذهب إلى البقال، وتسوق بعض الحاجيات؟"

قالت إلكنور: "طالما أنك غير مهتم إلى هذا الحد، فلماذا أعطيتني الدفاتر؟"

"لا أعرف؟ فكرت بأن من الممكن أن يكون فيها ما هو غريب."

بدأت إلكنور تقرأ من جديد: "أقرأ الجرائد كل يوم على أمل أن أجد ما يؤثر على حياتي، أو يغيرها." قلبت صفحة. "أقرأ كثيراً. قرأت بعض كتب الاقتصاد والفلسفة." قلبت صفحة أخرى. "قرأت ما كتبته هذا. إنه لا يعكس حياتي اليومية بشكل صحيح. يمضي يومي بمعظمه بالثرثرة مع بريهان، ومع ولدي أخي، وعائشة، وأمي، وبأعمال بسيطة وصغيرة."

قال أحمد: "انظري، هذا صحيح! هذه هي الحياة العادية التي تشبه حياة الجميع. هذا إنسان لم يستطع تجاوز العصور."

قالت إلكنور: "نعم، أنت محق على الأغلب. ولكن لماذا استمتعتُ في أثناء قراءته؟"

"دفاتر مذكرات الآخرين تجذب الاهتمام دائماً!"

"نعم. خلال قراءتي أيضاً كنت أفكر ما إن كنت أستمتع بها أيضاً. ولكن ثمة جهل ممزوج بالسذاجة لدى والدك. شرحت لي هذا. سأطلب منك أن تتحدث لي أكثر بالطبع. ولكنني أسألك عن هذا: أين شوهد تاجر غني يعيش مع زوجته وطفليه حياة مريحة جداً قد فعل مثل هذا؟"

قال أحمد: تحدث أمور كهذه في تركيا! وكثيراً أيضاً!"

"من؟ أرني مثالاً... لا تقدم لي مثالاً عن متقاعد يكتب مذكراته، أو مهووس بالفن. انظر، إنه تاجر ويفقد كل ما له... وحتى زوجته!"

قال أحمد: "الرحمة، إنها على حق!"

قالت إلكنور بصوت ناعم: "هل سنناقش هذا الآن يا روحي! انظر، لأقرأ لك هذا أيضاً، وستعطيني الحق!"

"اقرئي إذا كنت ترغبين كل هذه الرغبة."

"الاثنين 14 آذار 1938. ذهبنا مساء البارحة إلى الهر رودولف مرة أخرى."

"من هذا الرجل؟"

قالت إلكنور: "ألماني! يجب أن تكون رسائله لدى أبيك. لعلك تجدها بين الأشياء القديمة. اذهب، وابحث عنها! ثم إنه تبادل الرسائل مع سليمان آيتشليك."

"ماذا حدث؟ كنت أكثر فضولاً للبحث والتنقيب في الأشياء القديمة، والمتعفنة؟"

هزت إلكنور رأسها بمعنى: "ها نحن نمرح يا روحي!" وضحكت، وبدأت تقرأ: "قرأ رودولف مقطعاً من هولدرلين غيباً. وتحدث عن نفسية الشرق، ورأيه حول ما يفعله عمر. كما قدم رأيه بي. نصحني بالابتعاد عن، بين قوسين، العقلانية!" هزت إلكنور رأسها مرة أخرى: "حسنٌ، ما رأيك بهذا؟"

"لا شيء! اقرئي الأحداث، أو ما اعتقدت أنه أحداث."

"ربطت كل شيء، وحياتي كلها بهذه الكتابات التي أكتبها هنا، والدراسات حول تنمية الريف وتركيا!"

"كتب هذه في كماه على الأغلب."

"نعم! هل كنت تعرف هذا؟"

"حكت لي أمي. وقد نشرت تلك الدراسة، والكتاب هناك!"

نهضت إلكنور، وأخذت الكتاب عن الطاولة. فتحته، وقلبت صفحاته، وخرج من بين صفحاته قصاصة جريدة. قرأتها بصوت مرتفع: "حقائقنا والخيال المثالي! أحدهم انتقد أباك."

"نعم، حتى العنوان يظهر كم أن الرجل محق. حقائقنا! أين حقائقنا؟ لم يقترب أبي منها."

"صحيح! أنا لا أقول إن أباك قد وجد حقيقة ما. ولكنه هو نفسه حقيقة! هل استطعت أن أوضح لك؟ إنه حقيقة لأنه بحث في الخيال المثالي!"

قال أحمد: "نعم، نعم! أفهم ما قلته! ولكن هذا لا يبدو لي مهماً. كما قلت أنت، فهذا ناجم عن الفرنجة!"

"هكذا إذن؟"

"حسن، ماذا؟ ماذا تجدين في كل هذه الكتابات؟"

"لا أعرف. لعلني لا أجد الكثير. أنا أهتم بها فقط."

بدت إلكنور كأن الأمل قد عاد إليها. وعادت تقرأ: "الثلاثاء 26 أيلول 1939. لماذا قررت أن أكتب وسط هذا الصخب؟ يبدو أنني انجرفت بشعور تدفق الزمن بشكل مفاجئ، وهذا هو السبب!" ولم يعجب هو بما قرأته هذا. فصمتت فجأة. ثم قرأت وهي تضحك: "الساعة التاسعة والنصف. تناولنا الطعام. كفتة وفاصولياء!"

نهض أحمد من حيث يجلس: "لماذا تقرئين علي هذه؟ ما المضحك في هذا! مسكين! كتب تلك الأمور بجد! الأكثر من هذا أنه لم يخجل منها، فاحتفظ بها. كفتة وفاصولياء... لعلك تشبهينها بالقصص الشائعة هذه الأيام. لنعطها لحسن، وليصدر مجلة فنية بها... هل قرأت أنت: الدور المحروقة؟ كفتة وفاصولياء... ماذا يوجد في هذا؟ دعي عنك هذا بعد الآن. لا تقرئي، لأنك توترين أعصابي."

"حسن، ما الذي كنت تتوقعه أنت؟"

"أنا كما تعلمين، كنت أفكر برسم صورة جدي. اعتقدت أنك إذا قرأت لي ما كتب في هذه الدفاتر، يمكنني الدخول في حال هوس لرسمه. ولكنني أخطأت. إذا اهتممت بها، فسأقع بالخطأ الذي ذكرته قبل قليل. قصة ظل المنديل... نعم، أنت على حق، أنا فضولي لإظهار التفاصيل. ولإظهار مهاراتي أيضاً! هذه توجهات سيئة. وما قرأته الآن يغذي هذه التوجهات. إذا كنت سأرسم جدي، فلن أنطلق من هذه الأمور، بل من التخيل، ومن التلفيق. وحينئذ سيكون الرسم أكثر واقعية! فهذه التفاصيل الغبية تخدع الإنسان. أين الكلي؟ أنا مضطر لتأسيس الكلي. هل استطعت أن أوضّح لك؟ لهذا السبب شعرت بالضيق. اعتقدت أنني بهذه الدفاتر سألقي القبض على الحياة، على الحياة الملموسة. ولكنني مرة أخرى، ومن يدري أي مرة هذه، أرى بيأس وندم وحزن أن الطريق للقبض على الحياة، وفهم الحياة الملموسة مختلف بالنسبة إلي. على أن أقدم الفن بالتلفيق، والتخيل، والعمل، والعمل، والعمل."

"أتقول إنك فهمت الواقع بنحو أعمق رغم عدم خروجك من الغرفة؟"

"نعم. ألست على حق بهذا الاعتقاد على الأقل؟"

"أي أن كل شيء، وكل دفق، وكل تعقيد الحياة، والتاريخ، والعالم الخارجي، وكل شيء من أجل لوحاتك؟"

"بالنسبة إلي هكذا. لن أستطيع أن أرسم إذا لم أعتقد بهذا!"

قالت إلكنور بشيء من الخجل، ولكن بحزم: "هذه فردية مغالية، ونظرية تجعلك تضع نفسك في مركز كل شيء! لقد دهشت في الحقيقة! لم تكن تقول أشياء كهذه!"

قال أحمد: "أعرف! وأعرف أن هذا سيئ أيضاً، ولكنني أرجوك، لا تصدري علي حكماً نابعاً من الكتب، ومما قرأته. قيميني بما ينبع من داخلك. ستقولين إن الاثنين سيأتيان معاً، وأنت محقة. ولكن حاولي أن تفصلي بينهما هذا المساء فقط! أنا أيضاً أعرف ما في الكتب، وما يكتب، فقد قرأتها. وأعتبرها صحيحة أيضاً. وما قلته خطأ أيضاً."

قالت إلكنور: "حسنٌ، حسنٌ!" كانت تنظر إلى أحمد قلقة. واتخذت هيئة طفولية.

"علي ألا أقرأ هذه الآن؟ حسنٌ! ماذا أفعل؟ لأحكِ لك عن الأحداث. نعم، بحسب ما يرد في الدفتر، فإن أباك فيما كان يعيش كالجميع في البيت الذي كان في مكان هذا البناء، كان يغدو فجأة غير قادر على العيش كالجميع. فذهب إلى كماه. أنت أيضاً تعرف هذا. كان هناك صديق له اسمه عمر. من عمر؟"

قال أحمد: "ولكنك فضولية كثيراً يا هذه! عمر، أو العم عمر بحسب طفولتي، كان شخصاً وسيماً ضخم البنية. هو زميل أبي في الدراسة على الأغلب. ضخم البنية. لابد أنه مازال على قيد الحياة. كان يتردد على بيتنا في جيهان غير. وفي كل مرة يزورنا يكون فيها أضخم وأسمن. كان يملك أرضاً في كماه على الأغلب... وغير هذا؟ كان هناك أثران يشبهان أثري طعنتي سكين في جبينه، ووجهه. كنت أخاف منه في صغري، أصيب بهما في زلزال إرزنجان."

"حسنٌ، هل كان متزوجاً؟ ماذا كان يعمل؟"

"متزوج، متزوج! كانت زوجته تزورنا أيضاً. أعرف أن زوجته غبية جداً. كانا غنيان على الأغلب بقدر غبائهما، لأن أمي كانت تذكر عقد اللؤلؤ، أو الخاتم الذي تلبسه المرأة."

"أمك بورجوازية صغيرة جداً أيضاً!"

"ابنة طبيب. إيه، هل ستصغي إلي؟"

قالت إلكنور شاردة: "لا أفهم!"

"ما الذي تريدين فهمه؟"

"ماذا فعلوا؟ لعلها حياتهم. لماذا كانت هكذا؟ عمر ذهب إلى كماه، وأغلق على نفسه في قصر غريب، يلعب الشطرنج مع نفسه دون أن يظهر أمام أحد. لماذا؟"

قال أحمد: "الضيق، الضيق! لابد أنه أراد أن تكون له شخصيته. لم أحبه. كان يمازحني. ولكن ممازحاته لم تكن من أجل إمتاعي، وحبي على الأغلب، بل لوخز أبي وأمي. أختي الكبرى تعرفه بشكل أفضل مني."

قالت إلكنور وهي تتثاءب: "حسنٌ، احك لي عن محي الدين إذن!"

"هل تعرفين كنيته؟"

"لا!"

"نيشانجي. ياه، إنه محي الدين نيشانجي النائب عن حزب العدالة.

قالت إلكنور: "يااااه!"

"يااااه! انظري، يوجد هنا مجموعة شعرية له!"

ضحكا بالتبادل. وأعطى أحمد المجموعة الشعرية لإلكنور. قلبتها قليلاً. فتحت صفحتها الأولى، وقرأت: "إلى صديقي التاجر الشاب رفيق الذي تابعت حياته..."

قال أحمد: "أرجوك أغلقي هذا! لماذا نهتم بأمور من هذا النوع؟ هيا، أنا اهتممت بها، ماذا عنك أنت؟"

"حسنٌ، كيف انفصل أبوك وأمك؟"

"سكر أبي ذات يوم أيضاً. كنت أدرس في القسم الداخلي في غلاطة سراي. ألقى إحدى خطبه الشهيرة تلك. قال إن عدم القيام بشيء فيما يعيش

تسعون بالمائة من البلد جائعين، وبائسين هو جريمة..."

"تعبير سكران، وألقى خطبة هي رؤية أمك بالطبع."

"المهم أنه ألقى خطبة، أو روى أموراً أخرى، ثم شرح، وشرح، وفي النهاية قال: إنه الزمن المناسب لعمل شيء ما، أي عملية، عملية!"

"صحيح!"

"وتقول أمي، الشيء الوحيد الذي يمكنني أن أعمله هو جمع حقائبي! وجمعت حقائبها."

"أمر محزن جداً!"

"ولكن هذا لا يقدم عليه الجميع... أمي تباهي بمعارضتها تلك منذ سنوات طويلة!"

"كيف كان وضع أبيك المالي حينئذ؟"

"قريب من الصفر! باع حصته من الشركة، وأسس داراً للنشر، واستهلك النقود. وذهب إلى باريس أيضاً."

"ماذا فعل في باريس؟ متى ذهب؟"

"لا أدري! لعله بحث عن معنى الحياة. ذهب عام **1951** على الأغلب."

"لا، كان أبوك يبحث عن تحرر الوطن بقدر ما كان يبحث عن معنى الحياة. من يترك عمله، وينشر كتباً لن تباع أبداً..."

"نعم، إنه روبنسون باحث عن تحرر وطنه في غرفته... أو في غرفة فندق في باريس. ها، هذا شيء آخر يثير فيك الفضول: رأى سارتر في أحد مقاهي باريس."

قالت إلكنور بانفعال: "حقا؟ ماذا كان يفعل سارتر؟"

"كان يجلس! على كرسي كالجميع!.. وفوق هذا، كان يشرب فنجاناً من الشاي كالجميع أيضاً! انظري، كانت قهوة على الأغلب!"

"ماذا فعل أبوك؟"

"لا شيء! نظر، ولابد أنه فكر: ها أنا الآن أرى سارتر. يا هذه، لماذا تتوقين لمعرفة هذا؟"

قالت إلكنور خجلة: "نحن نتكلم يا روحي!"

"حسنٌ، لأحك لك إذاً. قال أبي لسارتر: ما معنى الحياة يا مسيو سارتر؟ ترى كيف يتحرر الوطن؟"

"لم يسأله هذا. سأله: كيف يأتي التنوير إلى تركيا؟"

"لابد أن المسيو سارتر قال له: يا مسيو لو كنت مثقف دولة نامية مكانكم، لما جلست هنا لأشرب قهوة بالحليب، بل عملت معلماً في بلدي. ثم بدأ سارتر بارتشاف قهوته بالحليب!"

قالت إلكنور: "كم هذا مضحك! لأضحك إذاً" ثم نظرت إلى الدفتر الذي بين يديها لتبدي لأحمد أنها غاضبة، وغير مهتمة بممازحاته.

قال أحمد بقلق: "ما كلمة التنوير هذه؟"

قالت إلكنور بموقف غير مبال: "أرجوك، يا روحي! ألا يقولون أيام منورة، أو ما شابه ذلك! لقد تعلق أبوك بالعبارة ذاتها. التنوير، والظلام، والضوء... نعم، لجهله، يحاول إن يفهم كل شيء عبرها..."

قال أحمد: "فهمت! بتِ توافقيني في هذا الموضوع، أليس كذلك؟" وتثاءب فجأة، وضحك فرحاً: "إيه، ماذا كنا نقول؟ قولي يا لبوتي، بماذا كنا نتحدث يا كاتيا ميخائيلوفنا؟"

تمتم إلكنور: "عن الظلام، والضوء، والحياة، وتحرر الوطن، والحيوات الأخرى، ومعنى الحياة."

"ولكن لنغلق الحيوات الأخرى، والدفاتر القديمة. أريد أن أتحدث معك حول الفن قليلاً!"

قالت إلكنور وهي تبتسم: "حسنٌ، نتكلم بالفن، يا ستيبان، ستيبانوفيتش، ولكن احضروا شاياً أولاً!"

قال أحمد: "حقاً، نسينا الشاي، أليس كذلك؟"

9
حياة – فن

صب أحمد الشاي في فنجانين نظيفين، ووضعهما في صينية صغيرة. ودخل إلى الغرفة.

قالت إلكنور: "آ، الساعة تقترب من الحادية عشرة! لأذهب بعد قليل!"

"إلى اين؟ لم نتكلم بأي شيء!"

قالت إلكنور: "أما تكلمنا؟" وبدت مفكرة.

"جئت قبل قليل فقط. كنت سأشرح لك..."

"ماذا؟"

تمتم أحمد قائلاً: "كل شيء!"

"كنت تقول الفن!"

"نعم! اخاف أحياناً الا اؤمن بالفن." كان أحمد ينظر إلى إلكنور ليفهم ردة فعلها. "ماذا لو لم أؤمن بالفن؟"

كانت إلكنور مسترخية، وهي تفكر: "ساشرب الشاي بعد قليل، وساقوم بمشوار مدته عشر دقائق، وسأرتدي ثوب النوم، وأنام!"

كرر أحمد: "كنت أقول، إذا لم أعد أؤمن بالفن!"

"نعم، أنا مصغية إليك!"

"تصغين إلي، ولكن مثلما تصغين لحكاية!"

قالت إلكنور: "لنشعل سيجارة إذاً! لا يمكن الاستماع لحكاية مع التدخين، أليس كذلك؟"

قال أحمد: "يجب أن يكون الوضع مريعاً إذا لم أعد أؤمن بالفن!"

"يجب أن يكون هذا سيئاً بالنسبة لفنان!"

"لا تستطيعين فهمي! أي كلمة هذه: سيئاً! ستكون هذه كارثة. وأنا الآن خائف من هذا. أخاف، لأن حسناً عندما قال لا يمكن القيام بالثورة بهذه، أي هذه اللوحات، كان محقاً على الأغلب." صمت أحمد فترة وهو ينتظر جواب إلكنور. ثم وقف غاضباً. "احكي، ما رأيك؟ حسن محق، أليس كذلك؟ قولي إنه ليس على حق."

قالت إلكنور: "لأقل لك إن أردت! حسن غير محق!"

بدأ أحمد يذرع الغرفة. ثم وقف، ونظر إلى لوحاته، وقال لنفسه: "ما معنى هذه اللوحات الآن؟"

قالت إلكنور: "ماذا جرى لنظرياتك الفنية؟"

"كنت أعتقد أنها نظرياتك بقدر ما هي لي. أنت تعدين دكتوراه في تاريخ الفن!"

"تاريخ الفن، ولكن في العمارة. لا تجد العمارة صعوبة بإيجاد مبرر لها. خاصة الأبنية العثمانية. لابد أن أي معمار لا يشك بضرورة الجامع عندما يبنيه. ولكن همك ليس هذا! أنت لا تؤمن بضرورة الرسم!"

قال أحمد يائساً: "نعم! ماذا أفعل؟"

قالت إلكنور: "ياه! لننظر ما إن كان القدماء جميعهم خطأ قديم؟ يمكن إذا السخرية من هاجس التكامل في العمارة العثمانية؟"

قال أحمد: "هل ستنتقمين مني، أم ستصاحبينني؟"

"سأقول أفكاري."

"قولي كي نرى."

"عندما تشعر بقلق كهذا لا تفكر فيه، أو اذهب فيه حتى النهاية إذا فكرت فيه."

"ماذا يحدث إذا ذهبت فيه حتى النهاية؟

"ستترك الرسم. أو أنك لن ترسم لوحات كهذه. ولعلك أيضاً ترسم الفلاحين كما كنت ترسم في فترة مضت."

"أعمل في السياسة أفضل من عملي هذا. إنها طريق أكثر اختصاراً."

"لا، أنا أرى أن هذه الثنائية لم توضع بشكل صحيح. القضية هي قضية القدرة على أن تكون واقعياً." وضحكت إلكنور. "ولكنني فهمت لماذا أنت قلق. أنت قلق لأنك وعدت حسن بالمساعدة، أو العمل من أجل المجلة!"

قال أحمد خائفاً من أفكاره: "كيف يمكنك قول شيء كهذا!؟"

"اسمع! لماذا قررت أن تعمل للمجلة؟ وجدت أن آراءها قريبة منك، جاء حسن، وطلب هذا، ورفضه لا يناسب رجولتك، وكذا، كذا. أنا أرى أن هذه أمور غير مهمة. أنت متضايق لأنك تجد الذين يرددون: عملية، عملية! محقين، فقررت أن تعمل شيئاً يمكن فهم فائدته، وضرورته بسهولة أكبر. لماذا تشعر بالحاجة لأمر من هذا النوع؟" وأشارت إلكنور بيدها إلى اللوحات: "لأن هذه لا تؤدي المهمة. هذا ما يبدو لك. لأن هذه اللوحات لا تغدو كل شيء. أليس كذلك؟"

قال أحمد: "لنفترض أن هذا صحيح!"

"لنفترض أن هذا صحيح، أليس كذلك؟"

قال أحمد متوتراً: "هكذا، حسنٌ، هكذا، ماذا حدث؟"

"لماذا تغضب؟ لهذا السبب أنت منزعج. أنت منزعج لأن لوحاتك ليست كل شيء، ليست كلاً متكاملاً. فهمت أنك قبلت العمل في مجلة حسن دون أن تنتبه لهذا!"

"حسنٌ، ماذا أفعل؟"

قالت إلكنور: "تذكر نظريتك الخاصة!" أنهت الشاي، ووضعت فنجانها في صحنه بانتباه.

"نظريتي. هل هي نظريتي؟ أنا لم أخترعها. أنا حاولت أن أؤمن بها. الفن نوع من المعرفة. إيه، ماذا يحدث إذا كان الأمر على هذا النحو؟ سأدع جانباً

ما إن كان من الضروري الوصول إلى هذه المعرفة أم لا. ويجب أن يكون الناس غريبين قليلاً مثلي ليرسموا! كل أولئك الذين يطالبون بالعمليات، ويخزونني على حق. أين شوهد راجح عقل يعمل بالفن؟ إنهم يستخفون بالفن. وهم على حق أيضاً. ولكننا نقوم بدعاية ضد المستخفين، مما يجعلهم يقولون: الرحمة، الرحمة! لا تزعجوا هؤلاء المدللين! ويجدون لنا سلوناً فوراً بإحدى تلك العبارات العظيمة: طبعاً يا صديقي، لا يمكن إنكار قوة الفن! نحن أهملنا الفن! حسن أيضاً قال لي هذا... اشربي شاياً آخر لطفاً."

قالت إلكنور: "أشربه إذا أسرعت بإحضاره، وكان خفيفاً!"

هرع أحمد إلى المطبخ، وفكر: "نعم، ستذهب! وليس لي أهمية كبيرة بالنسبة لها على الأغلب. أنا أفضي بأعمق همومي، وهي تفكر ببيتها، ونومها وستذهب إلى النمسا أساساً. وأنا مع حسن. سأدخل في عمل. لأخبر أوزار... أنا أيضاً في شركة الإعلان. سيقبلونني فوراً بذلك العمل. أدخل في عمل، وأنضم إلى الحركة الثورية."

"بماذا تكلم نفسك؟"

دهش أحمد حين رأى إلكنور بجانبه عند الموقد. لم يسمع وقع قدميها. تمتم: "أنا. أنا ماذا أفعل!" ووجد نفسه لا يفكر بشيء. احتضن إلكنور. وقبلها بحركة مترنحة غير ماهرة، والتفت إلى الموقد فوراً.

خيم الصمت. أخذ أحمد الصينية، ودخل إلى الغرفة. وسأل: "ما رأيك بما قلته؟"

"ماذا أقول! لا تفكر كثيراً!"

"أي أنك تجدينني على حق. أليس ما أقوله صحيحاً؟ لا يمكن عمل شيء بهذه اللوحات." وأشار إلى الجريدة: "عندما يقتل الناس خاصة فلا يبقى لهذه اللوحات أي قيمة... والعمل بها خبل. كلمة خبل لا تؤدي المعنى: تظاهر بالمعرفة، وإعجاب بالنفس."

"في هذه الحال فإن العمل بالفن عموماً، وبتاريخ الفن، لا، بل بالعلم أيضاً هكذا. وحتى العمل بأي شيء لا علاقة له بالسياسة مباشرة هو تافه!"

صرخ أحمد: "تافه! هل هو تافه؟ بماذا تفكرين؟"

"يجب أن يكون هذا خاطئاً."

"نعم، من المؤكد أنني أدرك هذا أيضاً بعقلي. ولكن مشاعري تقول لي عند مقتل حسن أصلان طاش بأن رسم التجار المسنين ليس صحيحاً. هل استطعتُ أن أوضح لك؟ ماذا أفعل؟" وتابع بانفعال كما يحدث له عندما يطرح هذا السؤال: "غويا... غويا، أنا لست محايداً إزاء القتل... فكري بالحكم بالإعدام!"

"نعم! ولكنك لا تعد محايداً أيضاً!"

تمتم أحمد: "ماذا أفعل... ماذا أفعل؟ ترى ما كان رأي غويا عندما علم أن جنود ماراتي كان يطلقون الرصاص على الناس؟

تمتمت إلكنور: "أنا أرى أن هذا شك مؤقت! لم تقع تركيا في أي وقت بالشك بضرورة الفن كما تطرح أنت الآن!"

قال أحمد: "كان هذا قديماً! قديماً، عندما كان الفن يُنتج وسط الشعب. أو ينتج تلقائياً في القصر أو في مكان آخر! والآن؟ هل نحن هكذا؟ أنا لست من داخل الشعب، وليس هنالك من يتوقع مني شيئاً كهذا أيضاً، ثم إن ما كان يعبر عنه قبل عشر سنوات أو عشرين سنة بشكل موارب صار يعبر عنه الآن بشكل مباشر."

لابد أنك تعلم. كلماتك هذه تتناقض مع نظرية كون الفن نوعاً من المعرفة. ما يُعبر عنه بشكل مباشر هو نوع من المعرفة، وما له علاقة بالفن هو نوع آخر."

"نعم، نعم! أعرف كل هذا. أعرف هذا. ولكنني أشعر بأنني منزعج. قولي لي شيئاً يجعلني أعمل بإيمان كما كنت سابقاً!"

قالت إلكنور: "أنت تتكلم كأنك لن تعمل بعد الآن!"

"لعل هذا القلق يزول بسرعة. وإذا لم يزل فسأعمل طبعاً. ولكن ماذا عن الشك؟ أريد أن يكون الفن كل شيء!"

"إيه، ماذا نفعل؟ إنه لا يحدث. ولكن الوضع ليس سيئاً بقدر ما تعتقد..." ضحكت إلكنور مرة أخرى. "ماذا يحدث لي إذاً يا روحي؟ لقد انفعلت، قلت كل ما يخطر ببالي." وتمطت. "أنا ناعسة! أليس هنالك قول مأثور حول هذا الوضع؟ يوجد بالطبع. أنت تقوله. لمن كان؟ ***Ars longa vite breve.*** مازلت أحفظه جيداً، أليس كذلك؟ أوه!" وتثاءبت. "الذهاب إلى البيت، والنوم. أوف، والذين في البيت الآن."

تمتم أحمد بانفعال: "الفن طويل، والحياة قصيرة. هذا كلام هيبوقراط، وكان غوته يكرره باستمرار."

قالت إلكنور: "أنت أيضاً، سيكون مفيداً إذا كررته في هذه الأيام!"

قال أحمد: "أعرف أنني مهما كررته فإن قلبي غير مرتاح! حسنٌ أن أتى حسن. لأن الرسم في تركيا مثل اختيار الخرس في بلد يُحكى فيه صراخاً."

قالت إلكنور: "الرحمة! كنت قبل قليل تقول إن كل شيء، والعالم الخارجي كله هو من أجل لوحاتك!"

قال أحمد مندهشاً: "هكذا كنت أقول، أليس كذلك؟" شعر بالرغبة في الضحك. "لا تؤاخذيني. أنا فنان. كما تعلمين وما يقوله الفنان لا يتطابق مع قوله الآخر."

"حسنٌ! فهمت هذا أصلاً. فهمت أنك ستنقل الأمر إلى المزاح!"

قال أحمد محاولاً التظاهر بالغضب: "حسنٌ، ماذا أفعل إذاً؟"

قالت إلكنور: "لا تفكر بنفسك إلى هذا الحد! تفكيرك بنفسك إلى هذا الحد، لا تغضب مني، يضرك قليلاً. ما رأيك بهذا؟"

قال أحمد: "نعم، أنا فرداني قذر جداً!"

"ولكنك ستلين بقوله صراحة، أو بغمره بالدعابة على الأغلب. يجب أن تخاف من أن تكون فرداني قذر. عليك ألا تغير ما تؤمن به فوراً عندما تتزعج قليلاً."

"غير هذا؟"

"غير هذا؟ لا تنظر إلي هكذا بشكل سيئ."

"هل ستذهبين حقاً إلى النمسا؟"

قالت إلكنور: "سأذهب إلى البيت الآن!" ونظرت إلى ساعتها. "تأخرت. اف! والآن في البيت أيضاً!" ونهضت.

"لو أنك تجلسين قليلاً أيضاً!"

"هيا، أنا ذاهبة!"

قال أحمد: "دخني سيجارة أخرى، ستنفرجين!" ولكنه تناول مفاتيحه عندما رأى إلكنور متجهة نحو الباب. بحث عن قصة مسلية يمكن أن تبقي إلكنور قليلاً أيضاً، ولكن شيئاً لم يخطر بباله. وخلال فتحها الباب قال ناخراً لمجرد الكلام: "حسنٌ، ما معنى الحياة؟"

"تحرر الوطن! وسؤال حسن عنك صار جيداً!"

"أهذا كل شيء. أنعيش نحن من أجل هذا؟"

قالت إلكنور: "نعم! فوق ذلك كنت أعتقد أنك جدي عندما تُطلق مزاحك: معنى الحياة، تحرر الوطن!"

قال أحمد: "ولكنك تقولين إنه مزاح!" وأضاف متردداً حين رأى وجه إلكنور عابساً: "طبعاً أنا جدي. أنت تعرفينني يا روحي. ولكن يبدو لي غريباً ربط كل شيء بتحرر الوطن."

قالت إلكنور: "كل شيء مرتبط به!" كانت عيناها تقولان: "افتح هذا الباب!"

فتح أحمد الباب: "ليس لنا قيمة أبداً في هذه الحال. نحن... مجرد أدوات فقط! لا يبقى لنا أي شيء."

قالت إلكنور: "لا تقلق، بقي لك الكثير! أنت تعرف هذا... وهذه زائدة عليك. متعتك بأفكارك هذه، وتفكيرك بنفسك، ومحاولتك الفهم، والقلق! أليست هذه كثيرة؟"

تمتم أحمد وهو يهز برأسه: "نعم، كثيرة!"

بدأا ينزلان الدرج. كان طابق نيفان خانم صامتاً. ولدى مرور أحمد من أمام طابق بيت عثمان بدا كأنه سمع صوت نرمين المشتكي. أما في بيت جميل فمازال المرح مستمراً حتى تلك اللحظة. ثمة صوت غير واضح: "هل رأيتم... جاء حديثاً..." الطوابق الأخرى صامتة أيضاً. أطفئ ضوء البواب. وانتبه أحمد إلى أنه يطأ على رؤوس أصابعه. وخلال فتحه الباب الخارجي، التفتت إلكنور: "ألا تبرد بهذه الكنزة؟"

تحرك أحمد حركة بمعنى: "لا تهتمي!" ثم اتخذ موقف الرجل القوي، والحاد غير المهتم بأي شيء، وتمتم: "لا أبرد!"

خرجا. وأخذا يسيران. فرغت ساحة نيشان طاش. كانت سيارة تمر مسرعة كل فترة، ولا أحد ينظر إلى أحد عند مفترق الطرق. سالت مياه غسيل الدكاكين بالصابون على الأرصفة، وتجمعت على أطراف حجارتها، وتحت الأشجار، وتعكس أضواء لوحات الانحلال البلاستيكية، ومصابيح النيون. لم يكن هناك أحد يمشي على الأرصفة. ثمة رجل يحمل على ظهره كيس خيش ينقب بصفائح الزبالة المصفوفة على الأرصفة، ورجل حافي القدمين يزين شجرة صنوبر في واجهة دكان. سيارة جيب الشرطة غادرت من أمام المخفر. وفي أثناء مرورهما من أمام الجامع صادفا رجلاً أنيقاً يحمل شمسية. نظر أحمد بطرف عينه إلى إلكنور مرة أخرى عند زاوية التشويكية. وتمتم: "بماذا تفكر؟ ستنام بعد قليل. ولكنها ستصطدم مع أهل البيت بسببي أولاً!" لم يرغب بالتفكير. تثاءب. وقرأ أسماء الأبنية كما كان يفعل منذ صغره باستمرار. قرأ أموراً أخرى وهو شارد: أسماء المطاعم، إعلانات الختانين المتروكة على أعمدة الكهرباء، الحروف على واجهة دكان حلاق، لوحة بائع أزهار، الإعلانات المزينة المرسومة على واجهة محل غذائيات، أرقام الهواتف المكتوبة على واجهة دكان مكتب عقاري.

عندما وصلا إلى أمام الباب، التفتت إلكنور: "هيا لنر!" وبحثت في خرجها، وأخرجت مفاتيحها.

تمتم أحمد: "متى بعد هذا؟"

"لا أعرف."

"يوم الأربعاء بعد الظهر؟"

"أليس لديك درس للولد الرائع بعد ظهر أيام الأربعاء؟"

قال أحمد: "لا يوجد هذا الأسبوع. لدى الولد الرائع امتحان رياضيات!" ضحكا.

"حسنٌ إذاً. الأربعاء في الرابعة، سأعرج على الرسام الرائع في الخامسة!"

قال أحمد ناخراً، ومحاولاً أن يبدو مرحاً: "أنتظرك!"

فتحت إلكنور الباب، وقالت: "لماذا أنت مكشر؟" وضحكت. "أمازلت تفكر بالأمور نفسها؟ ارحم نفسك! انظر نحن سنعيش كلانا كثيراً جداً. من يعلم ماذا سيمر علينا!"

"هل ستذهبين إلى النمسا؟"

"لا أعرف!"

وأراد أن يقوم بحركة، فلم يستطع. دس يديه بجيبه. وخرج من فمه صوت غريب مخنوق: "هل نتزوج؟" ثم فكر أن وجهه قد تعكر.

قالت إلكنور: "أنت غريب هذا المساء!" ولكنها لم تستطيع أيضاً أن تكون كما هي عليه دائماً: "انظر الآن: اذهب إلى البيت، ولا تفكر كثيراً، واعمل كثيراً جداً..." دخلت إلى البناء: "سأشتاق إليك حتى يوم الأربعاء!"

قال أحمد براحة: "الله يمنحك الراحة!" ودهش لراحته.

أغلقت إلكنور الباب. ولوحت بيدها. وأشعلت نور الدرج. وغابت عن النظر.

10
مديح تدفق الزمن

فكر أحمد: "ماذا قلت يا هذا؟" كان يمشي باتجاه الجامع. ولكي يزيد من خجله، ويعاقب نفسه بعد ذلك تمتم: "الزواج!" ولكنه لم يخجل بقدر ما توقع. "الرحمة! ماذا يحدث إذا تلفظت بقليل من الهراء؟ ستتفهمني الكنور!" سار عدة خطوات. "هل تفهمني؟" فكر بحديثه لها هذا المساء. قال لنفسه: "الحياة! ماذا أفعل؟ الفن؟ نعم، أنا منفعل أكثر من اللازم اليوم!" ما رأيها بما قلته اليوم؟" خطا عدة خطوات أخرى. إنها تفهمني! وتعتبرني محقاً بما شرحته لها، ثم إن تلك ليست همومي وحدي!" مرت بجانبه سيارة رياضية صاخبة. "لا يا روحي! إنها لا تفكر على هذا النحو أبداً. لقد أفصحت بما تفكر فيه: إنها تجدني فردانياً أكثر من اللازم!" كان يمر من أمام الجامع. "وهي على حق أيضاً. أنا أفكر بهمومي أكثر من اللازم. همومي!" وضحك راغباً بالسخرية من نفسه: "لوحاتي لا تفهم. لا أحد يقوم بثورة عندما ينظر إليها. وأنا أتضايق. وغير هذا؟" ولكنه لم يستطع اتخاذ الموقف الساخر الذي أراده، ولا إعطاء همومه الأهمية التي يريدها. "ها أنا متردد على مفترق طرق، أذهب مترنحاً إلى هذه الجهة تارة، وإلى تلك تارة أخرى. الحياة من جهة، والفن من جهة أخرى! لا! الثورة من جهة، وفي الجهة الأخرى؟" لم يعجب بهذه التصنيفات. واستنتج أن سبب عدم إعجابه بها أنها

ستضايقه بعد قليل. قال لنفسه: "حسنٌ، ما رأيي أنا؟ أي حكم أصدره بحق نفسي؟" كان يمر من أمام المخفر. "أغرق الأمر بالثرثرة لخشيتي من الوصول إلى حكم سلبي. وقد أغرقته إلى حد أنني لم أعد أستطيع إصدار حكم!" بعد أن خطا عدة خطوات قرر أن هذا أيضاً ثرثرة. قال لنفسه: "الآخرون يعرفون ما أنا عليه!" فكر بحسن. "ولد جيد! نعم، إنه ولد قليلاً! كيف يؤمن بتلك المجلة فوراً؟ ولكن لعل شيئاً يحدث أيضاً!" حاول أن يؤمن بأن الحركة الملتفة حول المجلة ستقوى، وستتوسع إلى حد الوصول إلى حزب. انفعل. صار كما لو أنه يرى نفسه في مكان ما من تلك الحركة. ثم فكر: "الانقلاب قادم، الانقلاب! سيأتي الانقلاب، ويتغير كل شيء!" نظر إلى الأرصفة الرطبة. نظر إليه كلب شارد قلقاً. "لن يحدث شيء! ما رأي حسن بي؟" تذكر أن حسناً قال له ذات مرة: "أنت لست منحلاً!" ووجده طفلاً. تذكر فيلده، وبوطه، ومصافحته لأخته الكبرى، فضحك. مازال الرجل الذي يزين شجرة الصنوبر في الواجهة. "رأس السنة قادم! وسيأتي بابا نويل الذي يبيع بطاقات اليانصيب إلى هنا..." كان قد رأى رجالاً كباراً يشترون بطاقات اليانصيب من بابا نويل الذي يسخر منه طلاب المدارس. "سنة جديدة!" سنة أخرى تمر... وأنا مازلت أفكر مثل عناوين الصحف التافهة... **1970**... الرسوم في الجرائد... يذهب شيخ أبيض اللحية، ويُستقبل ببهجة طفل ممتلئ الجسم كتب على حزامه **1971**. كاريكاتير في ملحق الأحد: الرحمة، لئلا يجعلنا القادم نبحث عن الذاهب؟.. البورجوازية الصغيرة تخاف من المستقبل. ليتدفق الزمن! **1970**! **16** - **17** حزيران! تخفيض قيمة العملة! لوحاتي! وانقلاب. سبعون ناقص أربعون يساوي أنني في الثلاثين من عمري. مازلت في مركز كل شيء، لم أستطع أن أكون قبضة لبلطة!" تذكر عقيداً كان ينصحه عندما كان يخدم في الجيش. سأله عن عمله، وعندما عرفه، نصحه بأن يتزوج، وأن يغدو مقبضاً لبلطة، وأن يضرب جذراً في الأرض... "أولئك الجنود الآن... صهري..." وقف عند زاوية نيشان طاش. لم يتجه نحو البيت، بل نحو بائع الصحف. منشورات جنسية، ومجلات رعاة بقر للأطفال، ومجلات سينما وعائلة ملونة للكبار رصفت متجاورة مع صحف الغد فوق طاولة، وعلى الأرض. أحنى أحمد

رأسه، وقرأ عنوان صحيفة: "عقد القادة العسكريون اجتماعاً آخر البارحة... يقترح الإنذار مجلس تأسيسي أتاتوركي..." فكر أحمد: "هو ذا الأمر الجيد! استقالوا من حزب العدالة. قدم اقتراح لتقديم طلب استدراج عروض من أجل جسر البوسفور... اتخذ الأطباء قراراً بالقيام بعملية..." كان سيشتري الجريدة، ولكنه تراجع. بدأ يسير باتجاه البيت. "حسنٌ، ها نحن أكلناها! انقلاب! *Torrez* كيف سيكون هذا الانقلاب؟ لو أنه يحصل بسرعة، ولا يدفعنا الفضول أكثر من هذا. ليحصل ما سيحصل بسرعة، وينتهي! ولنخلص من هذا الانتظار!" ضحك، وتثاءب، وأخرج المفتاح، وفتح الباب. "تدفق يا زمن، تدفق!" تطايرت فجأة في عقله النظريات، والمفردات. تمتم بانتقادات التلقائية، والطغمة. مازال الصخب ينبعث من بيت جميل. ليس ثمة صوت في بيت عثمان. مازال الضوء منار في بيت الجدة. الممرضة نادت أحدهم على ما يبدو. حين فتح باب شقته، قال ناخراً: "سأعمل!" دخل، واستنشق الرائحة، سُر من اللوحات، ومن نفسه. وجد في نفسه دافعاً للعمل باستمرار، وطوال سنوات. نظر إلى اللوحة التي كان يعمل عليها بعد الظهر بانفعال. أراد أن يضرب فرشاة في مكان ما بسرعة، ولكنه شرع ينتظر لكي لا ينجرف بالانفعال الأول. أدخل منفضة السجائر التي ملأتها الكنور، وفنجاني الشاي إلى الداخل. ولحظة رفعه دفاتر أبيه وكتبه قرر أن ينزل إلى الأسفل لكي لا يراها أو يفكر بها مرة أخرى. وخلال نزوله الدرج فكر بأنه لم يجد في الدفاتر ما كان يأمل به.

فتح الباب بمفتاحه. دخل إلى البهو لكي يرى الممرضة والجدة مرة أخرى. شعر فجأة أن أمراً غريباً هنالك. جلست أمينة خانم على أريكة، تنظر إلى نيفان خانم بجزع.

سمعت الممرضة وقع قدمي أحمد، فالتفتت. تمتمت: "إنها في وضع سيئ جداً! لا أجد نبضها بأي شكل!" كانت قد تعرقت.

قال أحمد: "هل ضعف نبضها؟"

سيطر الارتباك على الممرضة فجأة، والتقطت يد نيفان خانم. ضغطت أصابعها على شريان نبضها. نظر أحمد إلى وجه الممرضة بانتباه. ونظر إلى

جدته. تبدو كأنها كانت نائمة. نظر إلى المرضة من جديد. كان الوقت متأخراً، ولكن شيئاً لم يتغير على وجه المرضة. فكر أحمد: "يجب أن تجد النبض!" أمسكت المرضة مكاناً آخر من الرسغ، ثم بحثت في أمكنة أخرى.

قال أحمد: "هل النبض ضعيف جداً؟"

نظرت المرضة إلى وجه نيغان خانم، وأمسكت يدها الأخرى، وقالت: "لا أدري إن كان هناك نبض؟"

"كيف؟"

لم ترد المرضة. قربت وجهها من وجه نيغان خانم وهي ممسكة نبضها.

قال أحمد: "الطبيب! لنتصل بالطبيب!"

قالت المرضة: "لن يلحقها الطبيب!" فجأة وضعت يديها بحركة قاسية على صدر نيغان خانم. وبدأت بتدليك صدرها. دلكت صدرها بكل قوتها فترة. ثم التفتت إلى أحمد بحركة تدل على أنها لم تعد مؤمنة بما تقوم به. كانت ستقول شيئاً على الأغلب، ولكنها تراجعت، وعادت لتمسك أحد معصميها بهلع. بحثت عن نبضها، أمسكت معصمها طويلاً بين يديها مؤمنة هذه المرة بأنها لن تجد نبضها. تأوهت. دققت ببؤبؤي نيغان خانم. التفتت إلى أحمد، ونظرت إليه نظرة تقول: "ماذا يمكنني أن أفعل؟" تأوهت من جديد. تمتمت قائلة: "لا يوجد نبض، لا يوجد نبض!" ثم تركت الرسغ الذي بين يديها جانباً كأنها تضع ساعة خربة على طرف طاولة. لم تتحرك اليد المثقبة والمزرقة بحقن المصل أبداً.

فكر أحمد: "ماتت!" خطر بباله إطراء المرضة بقول ما.

وقفت المرضة، ومسحت عرقها، وقالت: "أمينة خانم تُبلغ الخبر لمن في الأسفل!"

قالت أمينة خانم مرتبكة: "ماذا أقول لهم؟"

"قولي ماتت!"

قالت أمينة خانم بما يشبه الأنين: "واخ! آه أيتها الخانم الكبيرة!" ومشت بين الأثاث بانتباهها المعهود، وخرجت.

نظرت الممرضة إلى أحمد. والتفت أحمد إلى الجدة خشية أن تسأله شيئاً عن مهنته. نظر إلى وجه نيغان خانم بانتباهه كله راغباً بالتفكير بجدته فقط. استطاع أن يتذكر مجيئه من جيهان غير إلى هنا، وظهور قذر ساقيه حين كان يرتدي بنطالاً قصيراً، وكيف كانت تعرض جدته ذلك القذر على الجميع، وصوت النعال البيتية، وصوت مجموعة المفاتيح، وفرحتها غير الحقيقية في الأعياد، وإشارتها دائماً إلى صورة جودت بيك التي كان ينظر إليها بخوف. نظر أكثر، ولكنه خجل لأنه فكر بأبيه، وطفولته، وموته، وحياته. ثم أدار ظهره للجدة متذكراً أن التي ينظر إليها ميتة، سار باتجاه النافذة. أسند جبينه على الزجاج كما كان يفعل في طفولته، وبدأ ينظر إلى ساحة نيشان طاش.

بعد قليل، جاء عثمان ونرمين. سحب عثمان كرسياً على عجل، وجلس بجوار أمه. تمتمت نرمين بكلمات ما. سأل عثمان عن سبب عدم إبلاغه قبل فترة. شرحت الممرضة أن كل شيء جرى بسرعة كبيرة، ولم تتنبه بداية لضعف نبضها رغم عدم ابتعادها عن المريضة ولو للحظة. وقالت بعد ذلك إنها فعلت ما بوسعها، وأنه لن يكون ثمة فائدة لإخبار. وأشارت لأحمد بيدها.

قال عثمان ناخراً: "رغم هذا يمكنكم إبلاغي! أين يلماظ؟"

قالت نرمين: "إنه في إجازة هذا المساء ياه!"

دخلت عائشة. اقتربت من أمها. تلفتت فيما حولها، وبدأت تبكي.

تذكر أحمد فجأة سبب نزوله إلى هنا. أخذ الدفاتر والكتب التي وضعها جانباً، وسار باتجاه الدهليز. دخل إلى غرفة أبيه. أغلق الباب. وضع الدفاتر والكتب في مكانها بشعور غائم بالذنب. جلس بعد ذلك على كرسي غير مقرر ما سيفعله، وبدأ ينظر إلى الكتب. كان ينظر إلى الكتب كأنه ينظر إلى الخارج عبر نافذة.

فُتح الباب، ودهشت الممرضة عندما رأته، وقالت: "هل كنتم أنتم هنا؟"

قال أحمد: "نعم، كنت خارجاً!" ونهض، وسار باتجاه الباب.

قالت الممرضة: "قلت لنفسي فلأعد إلى البيت هذا المساء!"

"نعم!"

أضافت الممرضة منتبهة إلى نبرة صوتها: "ترى هل يمكن أن يوصلني أحد إلى لاله لي؟"

قال أحمد: "السيد جميل يمكن أن يوصلكم. لأقل له!"

"إذا لم يكن هنالك تعب!"

خرج أحمد من الغرفة. ما إن خطا عدة خطوات في الدهليز، حتى سيطر عليه شعور بالنقص: لم تكن الساعة ذات البندول تتكتك. التفت، ونظر إلى الساعة: كانت تشير إلى التاسعة. خطر بباله أن يربط الساعة متمتماً: "ليتدفق الزمن!" ولكنه لم يجد دافعاً. وفيما كان متجهاً نحو البهو قرر أن يصعد إلى الأعلى، ويعمل.

كان ثمة زحام في البهو. صعد كل من كان في طابق جميل. غطت الغرفة طبقة دخان سجائر كثيفة. كل يهمس للآخر. رأى أحمد مينة تبكي، فاندهش. كان رامز يحاول تعزية عائشة. كانت لالة تنظر إلى جدتها بانتباه. وكان نجدت يقول شيئاً ما لجميل. وعندما رأى أحمد، نهض فجأة، واقترب منه، وطبطب على ظهره بضربتين خفيفتين. ثم التفت إلى زوجته ليرى ما إن كانت قد رأته أم لا، وبدأ يهز برأسه إلى الأمام وإلى الخلف حين رأى أنها تراه. كأنه كان يقول: "كنت أعرف أن هذا سيحدث!"

اقترب أحمد من جميل الذي كان يتحدث مع والده: "تريد الممرضة أن تذهب!"

قال جميل: "لتنتظر قليلاً!" والتفت إلى عثمان: "نعم يا بابا!"

قال عثمان: "هذه المرة ستتحمل العبء كله أنت!"

"نعم!"

"ليكن كل شيء جيداً. ليكن لائقاً بعائلتنا. أحذر، وانتبه!"

التفت جميل إلى أحمد، وقال: "أخذ الأولاد السيارة! لا أدري من سيرافق تلك المرأة؟ لتنتظر!" ثم التفت إلى أبيه.

همس عثمان: "انتبه للإعلانات! في المرة الماضية، عند وفاة والدي كتبوا الأسماء كلها خطأ."

قال جميل: "طبعاً، طبعاً!" وأدار رأسه جانباً لكي لا ينفخ في وجه أبيه.

قرر أحمد فجأة أن صعوده إلى الأعلى غير لائق، فجلس. لحظة أراد أن يجلس، رجته عائشة أن يجلب لها كأس ماء. ذهب إلى المطبخ، وتمتم ببعض الكلمات محاولاً تعزية أمينة خانم الباكية، وملأ كأس ماء، وأخذه لعائشة. ولأنه لم يرغب بالنظر إلى نيغان خانم، بل إلى أمور أخرى بدأ ينظر إلى الأشياء، وصور جودت بيك، وفناجين الخزف، والبوفيه. تذكر حسن، والمجلة عندما رأى الخزفيات الباهظة الثمن التي في البوفيه. نهض من مكانه مقرراً الصعود إلى الأعلى، والعمل.

صعد الدرج بصمت. وعندما دخل إلى غرفته أدرك أنه لن يستطيع أن يعمل فوراً. خرج إلى الشرفة. استند إلى الحامية، وبدأ ينظر إلى نيشان طاش.

كانت الساحة خاوية. ثمة كلب يمشي وسط الشارع. اقتربت سيارة من بائع الجرائد، وكانت تنتظر مفتوحة الباب. هناك ضوء إعلان يرتجف قرب أول الشارع. مرت سيارة أجرة صاخبة. بوقها الموسيقي هز النوافذ. أغلق بعد ذلك باب السيارة الواقفة أمام بائع الجرائد، وبدأت تتحرك. بدأ يخيم الصمت. كان أحمد يسمع من الطابق الملحق أزيز إعلان مضيء في الزاوية البعيدة. عندما سمع صخباً مفاجئاً، انحنى، ونظر: غطاء صفيحة زبالة يتدحرج على الرصيف. قفزت قطط من الصفيحة، وانزوت في الزاوية. وبعد ذلك مباشرة أدركت أن كل شيء قد عاد كما كان، فبدأت تندس بالصفيحة. بدا أحمد كأنه سيشعر بالمرح، رفع رأسه. كان ثمة سماء لا خصوصية لها في الأعلى. ودخل لكي يعمل.

1974 - 1978

جائزة نوبل للآداب 2006